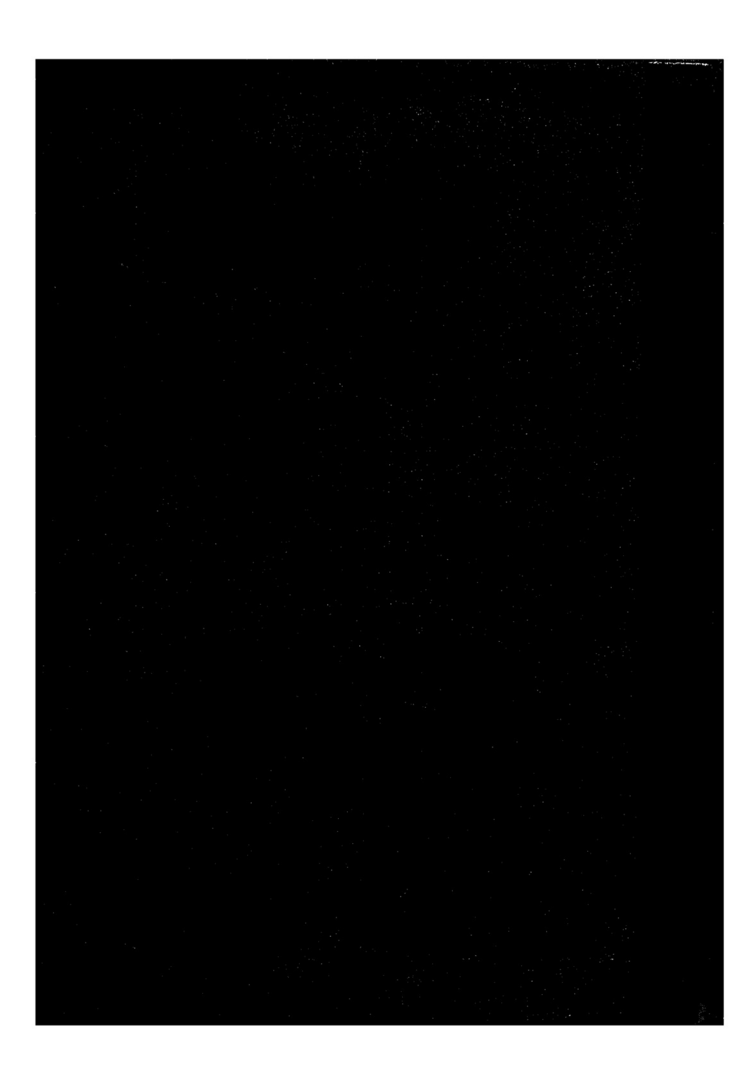


كتاب الشعب

تفسير القرآن العظيم

للحافظ ابن كثير
٧٠٠-٧٧٤هـ

تحقيق

د. محمد ابراهيم البنا
محمد أحمد عاشور
عبد العزيز غنيم

المجلد الثامن

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني - القاهرة ت: ٣١٨١٠

وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾

لما ذكر تعالى مآل السابقين – وهم المقربون – عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين – وهم الأبرار – كما قال ميمون ابن مهران : أصحاب اليمين منزلة دون المقربين – فقال : (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين) ، أى : أىّ شىء أصحاب اليمين ؟ وما حالهم ؟ وكيف مآلهم ؟ ثم فسر ذلك فقال : (فى سدر مخضود) – قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وأبو الأحوص ، وقَسامة بن زُهَير ، والسَّفْر بن نُسَير ، والحسن ، وقتادة ، وعبد الله بن كثير ، والسدى ، وأبو حَزْرَة ، وغيرهم : هو الذى لاشوك فيه (١) . وعن ابن عباس : هو المُوقَر بالثمر . وهو رواية عن عكرمة ، ومجاهد . وكذا قال قتادة أيضا : كنا نُحدَّث أنه المُوقَر الذى لا شوك فيه .

والظاهر أن المراد هذا وهذا ؛ فان سدر الدنيا كثير الشوك قليل الثمر ، وفى الآخرة على عكس من هذا ، لا شوك فيه وفيه الثمر الكثير الذى قد أثقل أصله ، كما قال الحافظ أبو بكر أحمد بن سلمان النجّاد(٢) :

حدثنا محمد بن محمد هو البغوى ، حدثنى حمزة بن عباس ، حدثنا عبد الله بن عثمان ، حدثنا عبد الله بن المبارك أخبرنا صفوان بن عمرو ، عن سليم بن عامر قال : كان أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقولون : إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم ؛ قال : أقبل أعرابى يوماً فقال : يارسول الله ، ذكر الله فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما هى ؟ » : قال السِّدر ، فإن له شوكا مؤذياً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أليس الله يقول : (فى سدر مخضود) ، خَضَّد الله شوكه ، فجعل مكان كل شوكة ثمرة ، فانها لتنبت ثمراً تَفتَّق الثمرةُ منها عن اثنين وسبعين لونا من طعام ، ما فيها لون يشبه الآخر » .

طريق أخرى ، قال أبو بكر بن أبى داود : حدثنا محمد بن المصفى ، حدثنا محمد بن المبارك ، حدثنا يحيى بن حمزة حدثنى ثور بن يزيد ، حدثنى حَبيب بن عبيد ، عن عُتْبة بن عبد السلمى قال : كنت جالساً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم – فجاء أعرابى فقال : يارسول الله ، أسمعك تذكر فى الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكاً منها ؟ يعنى الطلح فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يجعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خُصْوَة التيس (٣) الملبود ، فيها سبعون لوناً من الطعام ، لا يشبه لون آخر .

---

(١) السدر : شجر النبق .

(٢) كان شيخ الحنابلة بالعراق ، سمع أبا داود السجستانى وطبقته ، وكانت له حلقتان : حلقة للفتوى ، وحلقة للإملاء ، وكان رأساً فى الفقه والحديث . توفى فى ذى الحجة من سنة : ٣٤٨ . انظر العبر للذهبى : ٢/٢٧٨ – ٢٧٩ .

(٣) فى المخطوطة : « حضرة » . والمثبت عن الطبعات السابقة ، والنهاية لابن الأثير ، مادة : لبد . قال ابن الأثير : « مثل خصوة التيس الملبود : أى : المكتنز اللحم ، الذى لزم بعضه بعضاً فتلبد » . هذا وفى اللسان عن شمر : « لم نسمع فى واحد الخصى إلا خصية بالياء ، لأن أصله من الياء » .

وقوله : (وطلح منضود) ، الطلح : شجر عظام يكون بأرض الحجاز ، من شجر العضاه ، واحدته طلحة ، وهو شجر كثير الشوك ، وأنشد ابن جرير لبعض الحداة(١) :

بشَّرها دليلها وقالا : غداً ترين الطَّلح والجبالا

قال مجاهد : (منضود) ، أى متراكم الثمر ، يذكر بذلك قريشاً ، لأنهم كانوا يعجبون من وَجّ(٢) ، وظلاله من طلح وسدر(٣) .

وقال السدى : (منضود) مصفوف . قال ابن عباس : يشبه طلح الدنيا ، ولكن له ثمر أحلى من العسل .

قال الجوهرى : والطلح لغة فى الطلع .

قلت : وقد روى ابن أبى حاتم من حديث الحسن بن سعد ، عن شيخ من همدان قال : سمعت علياً يقول : هذا الحرف فى (طلح منضود) ، قال : طلع منضود ، فعلى هذا يكون هذا من صفة السدر ، فكأنه وصفه بأنه مخضود وهو الذى لا شوك له ، وأن طلعه منضود ، وهو كثرة ثمره ، والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو معاوية ، عن إدريس ، عن جعفر بن إياس ، عن أبى نضرة عن أبى سعيد (وطلح منضود) ، قال : الموز . قال وروى عن ابن عباس ، وأبى هريرة ، والحسن وعكرمة وقسامة ابن زُهَير ، وقتادة ، وأبى حَزْرَة ، مثل ذلك . وبه قال مجاهد ، وابن زيد ـ وزاد فقال : أهل اليمن يسمون الموز الطلح . ولم يحك ابن جرير غير هذا القول(٤) .

وقوله : (وظل ممدود) ، قال البخارى : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ـ يبلُغُ به النبىّ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، اقرءوا إن شئتم : (وظل ممدود)(٥) » .

ورواه مسلم من حديث الأعرج ، به(٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سُرَيج ، حدثنا فُلَيح ، عن هلال بن على ، عن عبد الرحمن بن أبى عَمْرة ، عن أبى هُرَيرة : قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة ، اقرءوا إن شئتم : (وظل ممدود)(٧) » .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٠٤/٢٧ . ومجاز القرآن لأبى عبيدة : ٢٥٠/٢ ، وقد نسب فى القرطبى ٢٠٨/١٧ للجعدى .

(٢) وج : موضع بناحية الطائف .

(٣) لفظ مجاهد كما فى الطبرى ١٠٤/٢٧ : « كانوا يعجبون بوج ، وظلاله من طلحه وسدره » .

(٤) انظر تفسير الطبرى : ١٠٤/٢٧ .

(٥) البخارى ، تفسير سورة الواقعة : ١٨٣/٦ .

(٦) مسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها » : ١٤٤/٨ .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٤٨٢/٢ .

وكذا رواه البخاري ، عن محمد بن سنان (١) ، عن فليح ، به (٢) . وكذا رواه عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همّام ، عن أبي هريرة . وكذا رواه حماد بن سلمة،عن محمد بن زياد ، عن أبي هريرة . والليث بن سعد،عن سعيد المقبري ، عن أبيه ، عن أبي هريرة (٣) . وعوف ، عن ابن سيرين ، عن أبي هريرة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا : حدثنا شعبة ، سمعت أبا الضحاك يحدّث عن أبي هُرَيرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين ، أو مائة سنة ، هي شجرة الخلد (٤) » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا يزيد بن هارون ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله قال : « في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ما يقطعها ، واقرءوا إن شئتم : (وظل ممدود) » .

إسناد جيد ، ولم يخرجوه . وهكذا رواه ابن جرير ، عن أبي كريب ، عن عبدة وعبد الرحيم (٥) ، عن محمد ابن عمرو ، به . وقد رواه الترمذي ، من حديث عبد الرحيم بن سليمان ، به (٦) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران ، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد ، عن زياد — مولى بني مخزوم عن أبي هُرَيرة قال : إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة ، اقرءوا إن شئتم : (وظل ممدود) . فبلغ ذلك كعبا فقال : صدق ، والذي أنزل التوراة على موسى والفرقان على محمد ، لو أن رجلا ركب حِقّة أو جَذَعة ، ثم دار حول (٧) تلك الشجرة ما بلغها حتى يسقط [هَرَما] ، إن الله غرسها بيده ونفخ فيها من روحه ، وإن أفنانها لمن وراء سُور الجنة ، وما في الجنة نهر إلا وهو يخرج من أصل تلك الشجرة (٨) .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا محمد بن منهال الضرير ، حدثنا يزيد بن زُرَيع ، عن سعيد بن أبي عَرُوبة ، عن قتادة ، عن أنس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قول الله عز وجل : (وظل ممدود) ، قال : « في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها » .

وكذا رواه البخاري ، عن روح بن عبد المؤمن ، عن يزيد بن زُرَيع (٩) ، وهكذا رواه أبو داود الطيالسي ، عن عمران بن داوَر القطان ، عن قتادة ، به . وكذا رواه معمر ، وأبو هلال ، عن قتادة ، به . وقد أخرج البخاري

---

(١) في المخطوطة : « محمد بن شيبان » . والمثبت عن صحيح البخاري ، وهو الصواب ، وانظر الخلاصة .
(٢) البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب « ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة » : ١٤٤/٤ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٤٥٢/٢ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٤٤٥/٢ .
(٥) في تفسير الطبري : « وعبد الرحمن » . والصواب ما هنا ، وانظر سند الترمذي الآتي .
(٦) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة الواقعة ، الحديث ٣٣٤٦ : ١٧٩/٩ — ١٨٠ .
(٧) كذا في المخطوطة . وفي تفسير الطبري : « ثم دار بأصل تلك . . » .
(٨) تفسير الطبري : ١٠٥/٢٧ .
(٩) البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب « ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة » : ١٤٤/٤ .

ومسلم من حديث أبي سعيد وسَهل بن سَعد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المُضَمَّر (١) السريع مائة عام ما يقطعها (٢) » .

فهذا حديث ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل متواتر مقطوع بصحته عند أئمة الحديث النقاد ، لتعدد طرقه ، وقوة أسانيده ، وثقة رجاله .

وقد قال الإمام أبو جعفر بن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو بكر ، حدثنا أبو حُصَين قال : كنا على باب في موضع ، ومعنا أبو صالح وشقيق — يعني الضبي — فحدّث أبو صالح قال : حدثني أبو هريرة قال : إن في الجنة شجرةً يسير الراكب في ظلها سبعين عاما . قال أبو صالح : أتكذّب أبا هريرة ؟ قال : ما أكذّب أبا هريرة ، ولكني أكذّبك أنت . فشق ذلك على القراء [يومئذ] (٣) .

قلت : فقد أبطل من يكذب بهذا الحديث ، مع ثبوته وصحته ورفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال الترمذي : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا زياد بن الحسن بن الفُرَات القزّاز ، عن أبيه ، عن جده ، عن أبي حازم ، عن أبي هُرَيرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما في الجنة شجرة إلا ساقها من ذهب » . ثم قال : « حسن غريب (٤) » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن ابن أبي الربيع ، حدثنا أبو عامر العَقَدي ، عن زمعة بن صالح ، عن سلمة ابن وَهرام ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : الظل الممدود شجرة في الجنة على ساق ظلها ، قدرَ ما يسير الراكب في نواحيها مائة عام . قال : فيخرج إليها أهل الجنة ، أهل الغرف وغيرهم ، فيتحدثون في ظلها . قال : فيشتهي بعضهم ويذكر لهو الدنيا ، فيرسل الله ريحا من الجنة فتحرك تلك الشجرة بكل لهو في الدنيا .

هذا أثر غريب ، وإسناده جيد قويّ حسن .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا ابن يمان ، حدثنا سفيان ، حدثنا أبو إسحاق ، عن عمرو بن ميمون في قوله : (وظل ممدود) ، قال : سبعون ألف سنة . وكذا رواه ابن جرير عن بندار ، عن ابن مهدي ، عن سفيان ، مثله (٥) . ثم قال ابن جرير :

حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن أبي إسحاق ، عن عمرو بن ميمون (وظل ممدود) ، قال : خمسمائة ألف سنة (٥) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو الوليد الطيالسي ، حدثنا حُصَين بن نافع ، عن الحسن في قول الله تعالى : (وظل ممدود) قال : في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة لا يقطعها .

وقال عوف ، عن الحسن : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ، لا يقطعها » . رواه ابن جرير (٥) .

---

(١) الجواد المضمر : الذي يعلف حتى يسمن ، ثم يرد إلى القوت ليخف . . وقيل : هو الذي يشد عليه السرج حتى يعرق تحته فيذهب رهله ويشتد لحمه .

(٢) البخاري ، كتاب الرقاق ، باب صفة الجنة والنار » : ٨/١٤٢ — ١٤٣ ومسلم ، كتاب صفة الجنة ، باب « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها » : ٨/١٤٤ .

(٣) تفسير الطبري : ٢٧/١٠٦ .

(٤) تحفة الأحوذي ، أبواب صفة الجنة ، باب « ما جاء في صفة شجر الجنة » ، الحديث ٢٦٤٥ : ٧/٢٢٦-٢٢٧ .

(٥) تفسير الطبري : ٢٧/١٠٥ .

وقال شبيب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : فى الجنة شَجَر لا يحمل ، يُستظَلّ به : رواه ابن أبى حاتم .

وقال الضحاك ، والسدى ، وأبو حَزْرَةَ فى قوله : (وظل ممدود) : لا ينقطع ، ليس فيها شمس ولا حر ، مثل قبل طلوع الفجر .

وقال ابن مسعود : الجنة سَجْسَج (١) ، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .

وقد تقدمت الآيات كقوله : (وندخلهم ظلا ظليلا)(٢) ، وقوله : (أكلها دائم وظلها)(٣) ، وقوله : (فى ظلال وعيون (٤)) ، إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله : (وماء مسكوب) ، قال الثورى : يجرى فى غير أخدود .

وقد تقدم الكلام عند تفسير قوله تعالى : (فيها أنهار من ماء غير آسن (٥)) ... الآية ، بما أغنى عن إعادته هاهنا .

وقوله : (وفاكهة كثيرة . لا مقطوعة ولا ممنوعة) ، أى : وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة فى الألوان ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر : (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها (٦)) ، أى : يشبه الشكلُ الشكلَ ، ولكن الطعمَ غيرُ الطعم . وفى الصحيحين فى ذكر سدرة المنتهى قال : « فإذا ورقها كآذان الفيلة ونبقها مثل قلال هجر »(٧) .

وفيهما أيضا ، من حديث مالك ، عن زيد ، عن عطاء بن يَسَار ، عن ابن عباس قال : « خُسفَت الشمس ، فصلى رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — والناس معه ، فذكر الصلاة » . وفيه : « قالوا : يا رسول الله ، رأيناك تناولت شيئا فى مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت . قال : إنى رأيت الجنة ، فتناولت منها عنقودا ، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا » .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا أبو خيثمة ، حدثنا عبد الله بن جعفر ، حدثنا عبيد الله ، حدثنا ابن عقيل ، عن جابر قال : بينا نحن فى صلاة الظهر ، إذ تقدم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فتقدمنا معه ، ثم تناول شيئا ليأخذه ثم تأخر ، فلما قضى الصلاة قال له أبىّ بن كعب : يا رسول الله ، صنعتَ اليومَ فى الصلاة شيئا ما كنت تصنعه ؟ قال : « إنه عُرِضَتْ على الجنة ، وما فيها من الزهرة والنضرة ، فتناولت منها قطفاً من عنب لآتيكم به ، فحيل بينى وبينه ، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه »(٨) .

---

(١) أى : ظلها معتدل ، لا حر ولا برد .
(٢) سورة النساء ، آية : ٥٧ .
(٣) سورة الرعد ، آية : ٣٥ .
(٤) سورة المرسلات ، آية : ٤١ .
(٥) سورة محمد ، آية : ١٥ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ٢٥ .
(٧) البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب « ذكر الملائكة » : ١٣٤/٤ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « الإسراء برسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى السموات وفرض الصلوات » : ١٠١/١ .
(٨) تقدم الحديث عند تفسير الآية الخامسة والثلاثين من سورة الرعد ، وخرجناه هنالك ، انظر : ٣٨٦/٤ .

وروى مسلم ، من حديث أبي الزبير ، عن جابر ، نحوه (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا على بن بحر ، حدثنا هشام بن يوسف ، أخبرنا معمر ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن عامر ابن زيد البكالى : أنه سمع عُتبة بن عبْد السلمى يقول : جاء أعرابى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله عن الحوض وذكر الجنة ، ثم قال الأعرابى : فيها فاكهة ؟ قال : نعم ، وفيها شجرة تدعى طوبى ــ فذكر شيئا لا أدرى ما هو ؟ قال : أى شجر أرضنا تشبه ؟ قال : ليست تشبه شيئا من شجر أرضك ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أتيتَ الشام ؟ قال : لا ، قال : تشبه شجرة بالشام تدعى الجَوزة ، تنبت على ساق واحد ، وينفرش أعلاها . قال : ما عظم أصلها ؟ قال : لو ارتحلت جذَعة من إبل أهلك ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتها هرماً . قال : فيها عنب ؟ قال : نعم.قال : فما عِظم العنقود ؟ قال : مسيرة شهر للغراب الأبقع ، ولا يفتر . قال: فما عِظَم الحَبَّة ؟ قال: هل ذبح أبوك تيساً من غنمه قط عظيا ؟ قال : نعم ، قال : فسلخ إهابه فأعطاه أمك، فقال: اتخذى لنا منه دلوا ؟ ، قال: نعم ، قال الأعرابى : فإن تلك الحبة لتشبعنى وأهل بيتى ؟ قال : نعم وعامَّة عشيرتك (٢)

وقوله : (لا مقطوعة ولا ممنوعة) ، أى : لا تنقطع شتاء ولا صيفا ، بل أكلها دائم مستمر أبدا ، مهما طلبوا وجدوا ، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شيء .

قال قتادة : لا يمنعهم من تناولها عودٌ ولا شوك ولا بُعدٌ . وقد تقدم فى الحديث : إذا تناول الرجل الثمرة عادت مكانها أخرى .

وقوله : (وفرش مرفوعة) ، أى : عالية وطيئة ناعمة .

قال النسائى وأبو عيسى الترمذى : حدثنا أبو كريب ، حدثنا رشدين بن سعد ، عن عمرو بن الحارث ، عن درّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد ، عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : (وفرش مرفوعة) ، قال : ارتفاعها كما بين السماء والأرض ، ومسيرة ما بينهما خمسمائة عام .

ثم قال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب لا نعرفه ، إلا من حديث رشدين بن سعد : قال : وقال بعض أهل العلم : معنى هذا الحديث : ارتفاع الفرش فى الدرجات ، وبعد ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض (٣) » . هكذا قال : إنه لا يعرف هذا إلا من رواية رشدين بن سعد ، وهو المصرى ، وهو ضعيف . وهكذا رواه أبو جعفر ابن جرير ، عن أبى كريب ، عن رشدين ، به (٤) . ثم رواه هو وابن أبى حاتم ، كلاهما عن يونس بن عبد الأعلى ، عن ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، فذكره . وكذا رواه ابن أبى حاتم أيضا عن نُعَيم بن حماد ، عن ابن وهب . وأخرجه الضياء فى صفة الجنة من حديث حرملة ، عن ابن وهب ، به مثله . ورواه الإمام أحمد عن حسن بن موسى ، عن ابن لهيعة ، حدثنا دراج ، فذكره (٥) .

---

(١) تقدم الحديث أيضاً فى ٤/٣٨٦ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٤/١٨٤ ، وتقدم بعضه فى ٤/٣٨٦ ، وشرحنا غريبه هنالك .

(٣) تحفة الأحوذى ، أبواب صفة الجنة ، باب « ما جاء فى صفة » ثياب أهل الجنة » ، الحديث ٢٦٦٣ : ٧/٢٤٧ .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٧/١٠٦ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣/٧٥ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو معاوية ، عن جُوَيبر ، عن أبي سهل – يعني كثير بن زياد – عن الحسن : (وفرش مرفوعة) ، قال : ارتفاع فراش الرجل من أهل الجنة مسيرة ثمانين سنة .

وقوله : (إنا أنشأناهن إنشاء . فجعلناهن أبكارا . عربا أترابا . لأصحاب اليمين) ، جرى الضمير على غير مذكور ، لكن لما دل السياق ، وهو ذكر الفرش على النساء اللاتي يضاجَعن فيها ، اكتفى بذلك عن ذكرهن ، وعاد الضمير عليهن ، كما في قوله : (إذ عُرض عليه بالعشيّ الصافناتُ الجياد . فقال : إني أحببت حُبَّ الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب[١]) ، يعني الشمس ، على المشهور من قول المفسرين .

قال الأخفش في قوله (إنا أنشأناهن إنشاء) : أضمرهن ولم يذكرهن قبل ذلك[٢] . وقال أبو عبيدة : ذكرن في قوله : (وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون[٣]) .

فقوله : (إنا أنشأناهن) ، أي : أعدناهن في النشأة الآخرة بعد ما كُنّ عجائز رُمْصا[٤] ، صرن أبكاراً عربا ، أي : بعد الثيوبة عدن أبكارا عُرُبا ، أي : متحببات إلى أزواجهن بالحلاوة والظرافة والملاحة .

وقال بعضهم (عربا) ، أي : غَنِجات .

قال موسى بن عُبَيدة الرَّبَذيّ ، عن يزيد الرَّقاشي ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنا أنشأناهن إنشاء) ، قال : نساءٌ عجائزُ كُنّ في الدنيا عُمْشاً رُمْصاً . رواه الترمذي ، وابن جرير[٥] ، وابن أبي حاتم . ثم قال الترمذي : « غريب ، وموسى ويزيد ضعيفا[٦] » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عوف الحمصي ، حدثنا آدم – يعني ابن أبي إياس – حدثنا شيبان ، عن جابر ، عن يزيد بن مُرّة ، عن سلمة بن يزيد قال : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول في قوله : (إنا أنشأناهن إنشاء) يعني : الثيب والأبكار اللاتي كُنّ في الدنيا[٧] .

وقال عبد بن حُمَيد : حدثنا مصعب بن المقدام ، حدثنا المبارك بن فضالة ، عن الحسن قال : أتت عجوز فقالت : يا رسول الله ، ادع الله أن يدخلني الجنة . فقال : « يا أم فلان ، إن الجنة لا تدخلها عجوز » . قال : فولت تبكي . قال : أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز ، إن الله تعالى يقول : (إنا أنشأناهن إنشاء . فجعلناهن أبكارا) .

وهكذا رواه الترمذي في الشمائل ، عن عبد بن حميد .

---

(١) سورة ص ، آية : ٣١ – ٣٢ .
(٢) تفسير الطبري : ٢٧/١٠٦ .
(٣) انظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : ٢/٢٥١ .
(٤) رمص بضم فسكون – : جمع : رمصاء ، والرمص – بفتحتين – : وسخ أبيض يجتمع في العين .
(٥) تفسير الطبري : ٢٧/١٠٧ .
(٦) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة الواقعة ، الحديث ٣٣٥٠ : ٩/١٨٣ .
(٧) أخرجه أبو داود الطيالسي ، انظر أسد الغابة ، ترجمة سلمة بن يزيد : ٢/٤٣٦ – ٤٣٧ ، بتحقيقنا .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا بكر بن سهل(١) الدمياطى ، حدثنا عمرو بن هاشم البيروتى ، حدثنا سليمان ابن أبى كريمة ، عن هشام بن حسان ، عن الحسن ، عن أمه ، عن أم سلمة قالت : قلت : يا رسول الله ، أخبرنى عن قول الله : (حور عين) ، قال : « حور : بيض ، عين : ضخام العيون ، شُفْر (٢) الحوراء بمنزلة جناح النسر » . قلت : أخبرنى عن قوله : (كأمثال اللؤلؤ المكنون) ، قال : « صفاؤهن صفاءُ الدر الذى فى الأصداف ، الذى لم تمسّه الأيدى » . قلت : أخبرنى عن قوله : (فيهن خيرات حسان) . قال : « خيّراتُ الأخلاق ، حسان الوجوه » . قلت : أخبرنى عن قوله : (كأنهن بيضٌ مكنون) ، قال : « رقتهن كرقة الجلد الذى رأيت فى داخل البيضة مما يلى القشر ، وهو : الغِرْقِىءُ » . قلت : يا رسول الله ، أخبرنى عن قوله : (عربا أترابا) . قال : « هن اللواتى قبضن فى دار الدنيا عجائز رُمْصاً شُمطا ، خلقهن الله بعد الكبر ، فجعلهن عذارى عُرُبا متعشقات متحببات ، أترابا على ميلاد واحد » . قلت : يا رسول الله ، نساء الدنيا أفضل أم الحور العين . « قال : بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين ، كفضل الظّهارة على البِطانة (٣) » . قلت : يا رسول الله ، وبم ذاك ؟ قال : « بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله عز وجل ، ألبس الله وجوههن النور ، وأجسادهن الحرير ، بيض الألوان ، خضر الثياب ، صفر الحلى ، مجامرهن الدر ، وأمشاطهن الذهب ، يقلن : نحن الخالدات فلا نموت أبدا ، ونحن الناعمات فلا نبأس أبدا ، ونحن المقيمات فلا نظعن أبدا ، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبدا ، طوبى لمن كُنَّا له وكان لنا » . قلت : يا رسول الله ، المرأة منا تتزوج زوجين والثلاثة والأربعة ، ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها ، من يكون زوجها ؟ قال : « يا أم سلمة ، إنها تُخَيَّر فتختار أحسنهم خلقاً ، فتقول : يا رب ، إن هذا كان أحسن خلقاً معى فزوجنيه ، يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة »

وفى حديث الصور الطويل المشهور : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يشفع للمؤمنين كلهم فى دخول الجنة ، فيقول الله : قد شفعتك وأذنت لهم فى دخولها . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « والذى بعثنى بالحق ما أنتم فى الدنيا بأعرفَ بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم ، فيدخل الرجل منهم على ثنتين وسبعين زوجة ، [سبعين مما(٤)] مما ينشىء الله ، وثنتين من ولد آدم ، لهما فضل على من أنشأ الله ، بعبادتهما الله فى الدنيا ، يدخل على الأولى منهما فى غرفة من ياقوتة ، على سرير من ذهب مكلل باللؤلؤ ، عليه سبعون زوجا من سندس وإستبرق ، وإنه ليضع يده بين كتفيها ، ثم ينظر إلى يده من صدرها من وراء ثيابها وجلدها ولحمها ، وإنه لينظر إلى مخ ساقها كما ينظر أحدكم إلى السلك فى قصبة الياقوت ، كبده لها مرآة ، يعنى وكبدها له مرآة ، فبينا هو عندها لا يملها ولا تمله ، ولا يأتيها من مرة إلا وجدها عذراء ، ما يفتر ذكره ولا تشتكى قبلها إلا أنه لا منى ولا منيَّة ، فبينا هو كذلك إذ نودى : إنا قد عرفنا أنك لا تمل ولا تمل ، إلا أن لك أزواجا غيرها . فيخرج ، فيأتيهن واحدة واحدة ، كلما جاء واحدة قالت : والله ما فى الجنة [شيء] أحسن منك ، وما فى الجنة شيء أحب إلىّ منك .

---

(١) فى المعجم الصغير للطبرانى ١/١١٠ : « سهيل » . وما فى العبر للذهبى ٢/٨٢ ، يوافق ما هنا .

(٢) الشفر – بضم فسكون – : جفن العين الذى ينبت عليه الشعر .

(٣) بطانة الثوب : ما ولى منه الجسد وكان داخلا والظهارة : ما علا وظهر ولم يل الجسد .

(٤) ما بين القوسين عن سياقة حديث الصور ، التى تقدمت فى سورة الأنعام : ٣/٢٨٢ .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرني عمرو بن الحارث ، عن دَرّاج ، عن ابن حُجَيْرة ، عن أبي هُرَيْرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال له : أنَطَأ في الجنة ؟ قال : نعم والذي نفسي بيده دَحْماً (١) ، دحْماً ، فإذا قام عنها رَجَعَت مُطَهَّرة بكراً ».

وقال الطبراني : حدثنا إبراهيم بن جابر الفقيه البغدادي ، حدثنا محمد بن عبد الملك الدقيقي الواسطي ، حدثنا معلى ابن عبد الرحمن الواسطي ، حدثنا شريك ، عن عاصم الأحول ، عن أبي المتوكل ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكارا (٢) » . وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا عِمْران ، عن قتادة ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا في النساء . قلت : يا رسول الله ، ويُطيق ذلك ؟ قال : يعطى قوة مائة » .

ورواه الترمذي من حديث أبي داود وقال : « صحيح غريب (٣) » .

وروى أبو القاسم الطبراني من حديث حُسَيْن بن علي الجعفي ، عن زائدة ، عن هشام بن حسان ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هُرَيْرة قال : قيل : يا رسول الله ، هل نصل إلى نسائنا في الجنة ؟ قال : « إن الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء » .

قال الحافظ أبو عبد الله المقدسي : هذا الحديث عندي على شرط الصحيح ، والله أعلم .

وقوله : (عربا) ، قال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : يعني متحببات إلى أزواجهن، ألم تر إلى الناقة الضبعة (٤) ، هي كذلك .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : العُرُب : العواشق لأزواجهن ، وأزواجهن لهن عاشقون . وكذا قال عبد الله ابن سَرْجس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وأبو العالية ، ويحيى بن أبي كثير ، وعطية ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، وغيرهم .

وقال ثور بن زيد ، عن عكرمة قال : سئل ابن عباس عن قوله : (عربا) ، قال : هي الملِقَةُ لزوجها (٥) .

وقال شعبة ، عن سماك ، عن عكرمة : هي الغَنِجة (٦) .

وقال الأجلح بن عبد الله ، عن عكرمة : هي الشَّكِلة (٧) .

---

(١) الدحم – بفتح فسكون – : النكاح والوطء بدفع وإزعاج .

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير ٩١/١ ، وقال : « لم يروه عن عاصم الا شريك ، تفرد به معلى بن عبد الرحمن » .

(٣) تحفة الأحوذي ، أبواب صفة الجنة ، باب « ما جاء في صفة جماع أهل الجنة » ، الحديث ٢٦٥٩ : ٧/٢٤١ – ٢٤٢ .

(٤) في اللسان : « ضبعت الناقة – بالكسر – تضبع ضبعاً وضبعة – بالتحريك – ، وضبعت وأضبعت بالألف ، واستضبعت وهي مضبعة : اشتهت الفحل » .

(٥) تفسير الطبري : ٢٧/١٠٧ .

(٦) الغنج – بفتحتين – : التكسر والتدلل .

(٧) المرأة الشكلة : ذات الدل .

وقال صالح بن حيَّان ، عن عبد الله بن بُرَيدة فى قوله : (عربا) ، قال : الشكلة بلغة أهل مكة ، والغنجة بلغة أهل المدينة (١) .

وقال تميم بن حذلم : هى حسن التبعل ؛

وقال زيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن : العُرُب : حسنات الكلام ؛

وقال ابن أبى حاتم : ذكر عن سهل بن عثمان العسكرى : حدثنا أبو على ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « (عُرُبا) قال : كلامهن عربى » .

وقوله : (أترابا) ، قال الضحاك ، عن ابن عباس : يعنى فى سن واحدة ، ثلاث وثلاثين سنة ؛

وقال مجاهد : الأتراب المستويات . وفى رواية عنه : الأمثال . وقال عطية : الأقران . وقال السدى : (أترابا)، أى : فى الأخلاق المتواخيات بينهن، ليس بينهن تباغض ولا تحاسد ، يعنى لا كما كن ضرائر متعاديات .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن عبد الله بن الكهف (٢) ، عن الحسن ومحمد : (عربا أترابا) ، قالا : المستويات الأسنان، يأتلفن جميعا ، ويلعبن جميعا .

وقد روى أبو عيسى الترمذى ، عن أحمد بن منيع ، عن أبى معاوية ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن النعمان ابن سعد ، عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « إن فى الجنة لمجتمعاً للحور العين ، يرفعن أصواتا لم تسمع الخلائق بمثلها ، يقلن : نحن الخالدات فلا نبيد ، ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ،طوبى لمن كان لنا وكُنَّا له » . ثم قال : « هذا حديث غريب (٣) » .

وقال الحافظ بن يعلى : حدثنا أبو خيثمة ،حدثنا إسماعيل بن عمر ، حدثنا ابن أبى ذئب ، عن فلان بن عبد الله ابن رافع ، عن بعض ولد أنس بن مالك ، عن أنس أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « إن الحور العين ليغنين فى الجنة ، يقلن : نحن خيِّرات حسان ، خبئنا لأزواج كرام » .

قلت: إسماعيل بن عُمَر هذا هو أبو المنذر الواسطى أحد الثقات الأثبات . وقد روى هذا الحديث الإمام عبد الرحيم ابن إبراهيم الملقب بدُحيم ، عن ابن أبى فديك ، عن ابن أبى ذئب ، عن عون بن الخطاب بن عبد الله بن رافع (٤)، عن ابن لأنس ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الحور العين يغنين فى الجنة : نحن الجوار الحسان ، خلقنا لأزواج كرام » .

وقوله : (لأصحاب اليمين) ، أى : خلقنا لأصحاب اليمين [أو : ادّخرنَ لأصحاب اليمين] أو : زُوِّجن لأصحاب اليمين . والأظهر أنه متعلق بقوله : (إنا أنشأناهن إنشاء . فجعلناهن أبكارا . عربا أترابا . لأصحاب اليمين) ، فتقديره : أنشأناهن لأصحاب اليمين . وهذا توجيه ابن جرير (٤) .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٠٨/٢٧ .

(٢) عبد الله بن الكهف هذا مترجم فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢ / ٢ / ١٤٥ ، ومحمد الذى يروى عنه هو ابن سيرين.

(٣) تحفة الأحوذى ، أبواب صفة الجنة ، باب « ما جاء فى كلام الحور العين» الحديث ٢٦٨٩ : ٢٨٦/٧ ــ ٢٨٧ . وانظر مسند الإمام أحمد : ١٥٦/١ .

(٤) انظر ترجمة « عون بن الخطاب » فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٣٨٦/١/٣ .

(٥) تفسير الطبرى : ١٠٩/٢٧ .

رُوِى عن أبى سليمان الدّارانى — رحمه الله — قال : صليتُ ليلة ، ثم جلست أدعو ، وكان البردُ شديداً ، فجعلت أدعو بيد واحدة ، فأخذتنى عينى فنمت ، فرأيت حوراء لم ير مثلها وهى تقول : يا أبا سليمان ، أتدعو بيد واحدة وأنا أغذَّى لك فى النعيم من خمسمائة سنة !

قلت : ويحتمل أن يكون قوله : (لأصحاب اليمين) متعلقا بما قبله ، وهو قوله : (أترابا : لأصحاب اليمين) ، أى : فى أسنانهم . كما جاء فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم ، من حديث جَرير ، عن عُمَارة بن القعقاع ، عن أبى زُرعَةَ ، عن أبى هُرَيرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضَوء أشدّ كوكب دُرّىّ فى السماء إضاءة ، لا يبولون ولا يتغوطون ، ولا يتفلون ولا يتمخطون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألُوّة ، وأزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خَلْق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ، ستون ذراعا فى السماء (١) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون وعفان قالا : حدثنا حماد بن سلمة — وروى الطبرانى ، واللفظ له ، من حديث حماد بن سلمة — عن على بن زيد بن جدعان ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يدخل أهل الجنة الجنةَ جُردا مُرداً بيضا جِعَادا مُكَحّلين ، أبناء ثلاث وثلاثين ، وهم على خَلْق آدم ستون ذراعا [فى] عرض سبعة أذرع (٢) » .

وروى الترمذى من حديث أبى داود الطيالسى ، عن عمران القطان ، عن قتادة ، عن شهر بن حوشب ، عن عبدالرحمن ابن غنم ، عن مُعَاذ بن جَبَل : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يدخل أهل الجنة الجنةَ جردا مردا مكحلين أبناء [ثلاثين ، أو] (٣) ثلاث وثلاثين سنة » . ثم قال : « حسن غريب (٤) » :

وقال ابن وهب : أخبرنا عمرو بن الحارث أنّ درّاجا أبا السمح حدّثه عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مات من أهل الجنة من صغير أو كبير، يُرَدّون بنى ثلاث وثلاثين فى الجنة ، لا يزيدون عليها أبدا ، وكذلك أهل النار » .

ورواه الترمذى عن سُوَيد بن نصر ، عن ابن المبارك ، عن رشدين بن سعد ، عن عمرو بن الحارث ، به (٥) ؛

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنا القاسم بن هاشم ، حدثنا صفوان بن صالح ، حدثنى روّاد بن الجراح العسقلانى ، حدثنا الأوزاعى ، عن هارون بن رئاب ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يدخل أهل الجنة الجنةَ على طول آدم ، ستين ذراعا بذراع الملك ! على حُسْن يوسف ، وعلى ميلاد عيسى ثلاث وثلاثين سنة ، وعلى لسان محمد ، جُرْدٌ مُرْدٌ مُكَحّلون » .

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٧٣ من سورة الزمر ، وخرجناه هنالك ، وشرحنا غريبه : ١١٠/٧ .

(٢) مسند الأمام أحمد : ٢/ ٢٩٥ ، ٣٤٣ .

(٣) ما بين القوسين عن الترمذى .

(٤) لفظ الترمذى — كما فى تحفة الأحوذى — : « هذا حديث غريب » . انظر أبواب صفة الجنة ، باب « ما جاء فى سن أهل الجنة » : ٢٥٤/٧ .

(٥) تحفة الأحوذى ، أبواب صفة الجنة ، باب « ما جاء لأدنى أهل الجنة من الكرامة » ، الحديث ٢٦٨٧ : ٢٨٤/٧

وقال أبو بكر بن أبي داود . حدثنا محمود بن خالد وعباس بن الوليد قالا : حدثنا عمر ، عن الأوزاعى ، عن هارون ابن رئاب ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يبعث أهل الجنة على صورة آدم فى ميلاد [عيسى] ثلاث وثلاثين ، جُرداً مردا مكحلين . ثم يذهب بهم إلى شجرة فى الجنة فيكسون منها ، لا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم » .

وقوله : (ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين) ، أى : جماعة من الأولين ، وجماعة من الآخرين .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا المنذر بن شاذان ، حدثنا محمد بن بكار ، حدثنا سعيد بن بَشير ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن عمران بن حُصَين ، عن عبد الله بن مسعود — قال : وكان بعضهم يأخذ عن بعض — قال : أكرينا(١) ذاتَ ليلة عند رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثم غدونا عليه ، فقال : « عُرِضت علىّ الأنبياء وأتباعها بأممها ، فيمر على النبىّ والنبى فى العصابة، والنبى فى الثلاثة، والنبى ليس معه أحد — وتلا قتادة هذه الآية: (أليس منكم رجل رشيد) — قال : حتى مرّ علىّ موسى بن عمران فى كَبْكَبَة(٢) من بنى إسرائيل ، قال : قلتُ ربى ، من هذا ؟ قال : هذا أخوك موسى بن عمران ومن معه من بنى إسرائيل . قال : قلت : رب ، فأين أمتى ؟ قال : انظر عن يمينك فى الظِّراب(٣) . قال : فاذا وجوه الرجال . قال : قال : أرضيتَ ؟ قال : قلت : قد رضيت ، رب . قال : انظر إلى الأفق عن يسارك . فاذا وجوه الرجال . قال : أرضيت ؟ قلت : رضيت ، رب . قال : فان مع هؤلاء سبعين ألفا ، يدخلون الجنة بغير حساب » . قال : وأنشأ عُكَّاشة بن مِحْصَن من بنى أسد — قال سعيد — وكان بَدْريا — قال : يا نبى الله ، ادع الله أن يجعلنى منهم . قال : فقال : « اللهم اجعله منهم » . [قال : أنشأ رجل آخر] ، قال : يانبى الله ، ادع الله أن يجعلنى منهم . فقال : « سبقك بها عُكَّاشة » . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فان استطعتم — فداكم أبى وأمى — أن تكونوا من أصحاب السبعين فافعلوا ، وإلا فكونوا من أصحاب الظِّراب ، وإلا فكونوا من أصحاب الأفق ، فانى قد رأيت ناسا كثيرا قد تأشَّبوا حوله (٤) . ثم قال : إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة » . فكبرنا ، ثم قال : « إنى لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة » . قال : فكبرنا ، قال : « إنى لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة » . قال : فكبرنا . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : (ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين) . قال : فقلنا بيننا : من هؤلاء السبعون ألفا ؟ فقلنا : هم الذين ولدوا فى الإسلام . ولم يشركوا . قال : [فبلغه] ذلك ، فقال : « بل هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » .

وكذا رواه ابن جرير من طريقين آخرين ، عن قتادة ، به نحوه (٥) . وهذا الحديث له طرق كثيرة من غير هذا الوجه فى الصحاح وغيرها .

---

(١) أى : أظلنا وأخرنا . ولفظ الطبرى : « تحدثنا عند رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ذات ليلة ، حتى أكرينا فى الحديث » .

(٢) الكبكبة — بضم الكافين وفتحهما — : الجماعة المتضامة من الناس .

(٣) الظراب — بكسر الظاء — : الجبال الصغار .

(٤) فى المخطوطة : « قد ناسبوا أحوا » . ولعل الصواب ما أثبتناه . وتأشبوا حوله : اجتمعوا إليه وأطافوا ؟. ولفظ الطبرى : « فانى رأيت ثم أناساً يتهرشون كثيراً ، أو قال : يتهوشون » . والهوش : الاختلاط ، أى يدخل بعضهم فى بعض » .

(٥) تفسير الطبرى : ٢٧/١٠٩ — ١١٠ .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران ، حدثنا سفيان ، عن أبان بن أبى عياش ، [عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس] : (ثلة من الأولين * وثلة من الآخرين) ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هُمَا جميعاً من أمتى (١) » .

﴿ وَأَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَـَٔاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حال أصحاب اليمين ، عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال ، فقال : (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال) . أى : أى شىء هم أصحاب الشمال ؟ ثم فَسَّر ذلك فقال : (فى سموم) ، وهو : الهواء الحار ، (وحميم) ، وهو : الماء الحار ، (وظل من يحموم) ، قال ابن عباس : ظل الدخان . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وأبو صالح ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم . وهذه كقوله تعالى : (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبونَ * انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شُعَب . لا ظليل ولا يغنى من اللهب * إنها ترمى بشرر كالقصر . كأنه جمَالة صُفْر * ويل يومئذ للمكذبين(٢)) . ولهذا قال هاهنا : (وظل من يحموم) ، وهو : الدخان الأسود ، (لابارد ولا كريم) ، أى : ليس طيِّبَ الهبوب ولا حَسَنَ المنظر ، كما قال الحسن وقتادة : (ولا كريم) ، أى : ولا كريم المنظر . وقال الضحاك : كل شراب ليس بعذبٍ فليس بكريم (٣) .

وقال ابن جرير : العرب تتبع هذه اللفظة فى النفى (٤) ، فيقولون : « هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم ، هذا اللحم ليس بسمين ولا كريم ، وهذه الدار ليست بنظيفة ولا كريمة .

ثم ذكر تعالى استحقاقهم لذلك فقال تعالى : (إنهم كانوا قبل ذلك مترفين) ، أى : كانوا فى الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذات أنفسهم ، لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل .

(وكانوا يصرون) أى : يُصَمِّمون ولا ينوون توبة ، (على الحنث العظيم) ، وهو الكفر بالله ، وجعل الأوثان والأنداد أربابا من دون الله .

قال ابن عباس : (الحنث العظيم) : الشرك . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم .

وقال الشعبى : هو اليمين الغموس .

---

(١) تفسير الطبرى : ١١٠/٢٧ .

(٢) سورة المرسلات ، الآيات : ٢٩ — ٣٤ .

(٣) تفسير الطبرى : ١١١/٢٧ .

(٤) لفظ الطبرى ١١١/٢٧ : « والعرب تتبع كل منفى عنه صفة حمد نفى الكرم عنه » .

وكانوا يقولون : أئذا متنا وكنا ترابا وعظاماً أئنا لمبعثون . أو آباؤنا الأولون ؟) يعني أنهم يقولون ذلك مكذبين به مستبعدين لوقوعه، قال الله تعالى: (قل: إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم)، أى: أخبرهم يامحمد أن الأولين والآخرين من بنى آدم سيجمعون إلى عرَصات القيامة، لا نغادر منهم أحداً، كما قال: (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد)(١) . ولهذا قال هاهنا : (لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم)، أى : هو موقت بوقت مُحدَّد ، لا يتقدم ولا يتأخر ، ولا يزيد ولا ينقص .

(ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجر من زقوم . فمالئون منها البطون)، وذلك أنهم يقبضون ويُسجَرون حتى يأكلوا من شجر الزقوم ، حتى يملأوا منها بطونهم ، (فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم) ، وهى الإبل العطاش ، واحدها أهيم والأنثى هيماء ، ويقال هائم وهائمة .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة : الهيم : الإبل العطاش الظماء .

وعن عكرمة أنه قال : الهيم : الإبل المِراض ، تمص الماء مصاً ولا تَرْوَى .

وقال السدى : الهيم : داء يأخذ الإبل فلا تَرْوى أبداً حتى تموت ، فكذلك أهل جهنم لا يَرْوَون من الحميم أبدا .

وعن خالد بن معدان : أنه كان يكره أن يشرب شُرْبَ الهيم عَبَّة واحدة من غير أن يتنفس ثلاثاً .

ثم قال تعالى : (هذا نزلهم يوم الدين) ، أى : هذا الذى وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم ، كما قال فى حق المؤمنين : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا) (٢) ، أى : ضيافة وكرامة .

نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

يقول تعالى مُقرِّرا للمعاد ، ورَدّاً على المكذبين به من أهل الزيغ والإلحاد ، من الذين قالوا : (أئذا متنا وكنا ترابا وعظاماً أئنا لمبعوثون)(٣) ، وقولُهم ذلك صَدَرَ منهم على وجه التكذيب والاستبعاد ، فقال (نحن خلقناكم) ، أى نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكورا، أفليس الذى قدر على البَداءَة بقادر على الإعادة بطريق الأولى [والأحرى] فلهذا قال : (فلولا تصدقون !) ، أى : فهلا تصدقون بالبعث ! ثم قال مستدلا عليهم بقوله : (أفرأيتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟) ، أى : أنتم تقرونه فى الأرحام وتخلقونه فيها ، أم الله الخالق لذلك ؟ ثم قال : (نحن قدرنا بينكم الموت) ، أى : صرفناه بينكم .

وقال الضحاك : ساوى فيه بين أهل السماء والأرض .

(١) سورة هود ، الآيات : ١٠٣ — ١٠٥ .

(٢) سورة الكهف ، آية : ١٠٧ .

(٣) سورة الصافات ، آية : ١٦ .

وما نحن بمسبوقين) أي : وما نحن بعاجزين (على أن نبدل أمثالكم) ، أي : نغيّر خلقكم يوم القيامة ، (وننشئكم فيما لا تعلمون) ، أي : من الصفات والأحوال .

ثم قال : (ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) ، أي : قد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكورا ، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذى قدر على هذه النشأة — وهى البداءة — قادر على النشأة الأخرى ، وهى الإعادة بطريق الأولى والأحرى ، كما قال(وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه(١) وقال(أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً (٢))،وقال (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال : من يحيي العظام وهي رميم . قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم (٣)) . وقال تعالى : (أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى ؟ ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟) (٤) .

أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

يقول : (أفرأيتم ما تحرثون ؟) ، وهو شق الأرض وإثارتها والبذر فيها ، (أأنتم تزرعونه ؟) ، أي : تنبتونه فى الأرض (أم نحن الزارعون) أي : بل نحن الذين نقره قراره وننبته فى الأرض .

قال ابن جرير : وقد حدثنى أحمد بن الوليد القرشي ، حدثنا مسلم بن أبي مسلم الجرمى ، حدثنا مخلد بن الحسين ، عن هشام ،عن محمد(٥)عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تقولن « زرعت»،ولكن قل: « حرثت» ، قال أبو هريرة : ألم تسمع إلى قوله : (أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون (٦) ؟) .

ورواه البزار عن محمد بن عبد الرحيم ، عن مسلم الجرمى ، به .

[وقال] ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حماد ، عن عطاء ، عن أبي عبد الرحمن : لا تقولوا زرعنا ، ولكن قولوا حرثنا .

وروى عن حجر المدرى أنه كان إذا قرأ : (أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون) وأمثالها ، يقول : بل أنت يارب ،

---

(١) سورة الروم ، آية : ٢٧ .
(٢) سورة مريم ، آية : ٦٧ .
(٣) سورة يس ، الآيات : ٧٧ — ٧٩ .
(٤) سورة القيامة ، الآيات : ٣٦ — ٤٠ .
(٥) فى تفسير الطبرى : « عن هاشم » . وهو هشام بن حسان . انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٣٤٧/١/٤ .
(٦) تفسير الطبرى : ١١٤/٢٧ .

وقوله : (لو نشاء لجعلناه حطاما) ، أى : نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا ، وأبقيناه لكم رحمة بكم ، ولو نشاء لجعلناه حطاما ، أى : لأيبسناه قبل استوائه واستحصاده ، (فظلتم تفكهون) . ثم فسر ذلك بقوله : (إنا لمغرمون • بل نحن محرومون) ، أى : لو جعلناه حطاما لظلتم تفكهون فى المقالة ، تنوعون كلامكم ، فتقولون تارة : (إنا لمغرمون) أى : لَمُلْقَوْنَ (١) .

وقال مجاهد ، وعكرمة : إنا لمُولَع بنا . وقال قتادة : معذبون . وتارة تقولون : بل نحن محرومون .

وقال مجاهد أيضاً : إنا لمغرمون : ملقون للشر ، أى : بل نحن مُحارَفون ، قاله قتادة ، أى : لا يثبت لنا مال ، ولا ينتج لنا ربح .

وقال مجاهد : (بل نحن محرومون) ، أى : محدودون (٢) ، يعنى : لا حظ لنا .

قال ابن عباس ، ومجاهد : (فظلتم تفكهون) . تعجبون . وقال مجاهد أيضاً : (فظلتم تفكهون) : تفجعون وتحزنون على ما فاتكم من زرعكم .

وهذا يرجع إلى الأول ، وهو التعجب من السبب الذى من أجله أصيبوا فى مالهم . وهذا اختيار ابن جرير (٣) .

وقال عكرمة : (فظلتم تفكهون) : تلاومون . وقال الحسن ، وقتادة ، والسدى : (فظلتم تفكهون) ، تندمون . ومعناه إما على ما أنفقتم أو على ما أسلفتم من الذنوب .

قال [الكسائى] : تفكه من الأضداد ، تقول العرب : [تفكهت] بمعنى تنعمت ، وتفكهت بمعنى حزنت .

ثم قال تعالى : (أفرأيتم الماء الذى تشربون • أأنتم أنزلتموه من المزن) ، يعنى : السحاب . قاله ابن عباس، ومجاهد ، وغير واحد . (أم نحن المنزلون) ، يقول : بل نحن المنزلون . (لو نشاء جعلناه أجاجا) ، أى : زُعاقاً مرًّا لا يصلح لشرب ولا زرع ، (فلولا تشكرون) ، أى : فهلا تشكرون نعمة الله عليكم فى إنزاله المطر عليكم عذبا زلالا ! (لكم منه شراب ومنه شجر فيه تُسيمون • ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) (٤) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عثمان بن سعيد بن مرة ، حدثنا فُضَيل بن مرزوق ، عن جابر ، عن أبى جعفر ، عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ : أنه إذا شرب الماء قال : « الحمد لله الذى سقاناه عذباً فراتا برحمته ، ولم يجعله ملحا أجاجا بذنوبنا » .

ثم قال : (أفرأيتم النار التى تورون) ، أى : تقدحون من الزناد ، وتستخرجونها من أصلها ، (أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) ، أى : بل نحن الذين جعلناها مودعة فى موضعها ، وللعرب شجرتان ، إحداهما : المرخ ، والأخرى : العَفَار ، إذا أخِذَ منهما غصنان أخضران ، فحُكَّ أحدهما بالآخر ، تناثر من بينهما شرر النار .

---

(١) فى تفسير الطبرى ١١٥/٢٧ : « وإنا لملقون فى الشر » .
(٢) فى اللسان ، مادة حدد : « قال الأزهرى : المحدود : المحروم » .
(٣) تفسير الطبرى : ١١٥/٢٧ .
(٤) سورة النحل ، آية : ١٠ – ١١ .

وقوله : (نحن جعلناها تذكرة) ، قال مجاهد ، وقتادة : أى تُذَكّر النارَ الكبرى .

قال قتادة : ذكر لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ياقوم ، [ناركم] هذه التى توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » . قالوا يارسول الله ، إن كانت لكافية ! قال قد ضُربت بالماء ضربتين أو : مرتين — حتى يستنفع بها بنو آدم ويدنوا منها (١) » .

وهذا الذى أرسله قتادة قد رواه الإمام أحمد ، فى مسنده فقال :

حدثنا سفيان ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ، وضربت بالبحر مرتين ، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد (٢) » .

وقال الإمام مالك ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « نار بنى آدم التى يوقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » . فقالوا : يارسول الله ، إن كانت لكافية . فقال : « إنها فُضّلت عليها بتسعة وستين جزءا (٣) » .

رواه البخارى من حديث مالك ، ومسلم من حديث أبى الزناد (٤) ، ورواه مسلم ، من حديث عبد الرزاق ، عن معمر عن همام ، عن أبى هريرة ، به (٥) : وفى لفظ : « والذى نفسى بيده ، لقد فُضّلت [عليها] بتسعة وستين جزءا ، كلهن مثل حرها (٥) » .

وقال أبو القاسم الطبرانى : حدثنا أحمد بن عمرو الخلال ، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى ، حدثنا معن بن عيسى القزاز ، عن مالك ، عن عمه أبى السهيل ، عن أبيه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أتدرون ما مثل ناركم هذه من نار جهنم ؟ لهى أشد سوادا من ناركم هذه بسبعين (٦) ضعفاً » .

قال الضياء المقدسى : وقد رواه ابن مصعب ، عن مالك ولم يرفعه ، وهو عندى على شرط الصحيح .

وقوله : (ومتاعا للمقوين) ، قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، والنضر بن عربى : معنى (المقوين) : المسافرين ، واختاره ابن جرير ، وقال : ومنه قولهم : « أقوت الدار إذا رحل أهلها (٧) » .

وقال غيره : القىّ (٨) والقَوَاء القفر الخالى البعيد من العمران

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : المقوى هنا الجائع .

وقال ليث بن أبى سليم ، عن مجاهد : (ومتاعا للمقوين) : للحاضر والمسافر ، لكل طعام لا يصلحه إلا النار : وكذا روى سفيان ، عن جابر الجعفى ، عن مجاهد .

وقال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد قوله : (للمقوين) : المستمتعين ، الناس أجمعين (٨) . وكذا ذكر عن عكرمة .

---

(١) تفسير الطبرى : ١١٦/٢٧ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٢٤٤/٢ .
(٣) الموطأ ، كتاب جهنم ، باب ، « ما جاء فى صفة جهنم » .
(٤) البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب « صفة النار وأنها مخلوقة » : ١٤٧/٤ .
(٥) مسلم ، كتاب صفة الجنة ، باب « فى شدة حر نار جهنم وبعد قعرها وما تأخذ من المعذبين » : ١٥٠/٨ .
(٦) فى المخطوطة : « بستين » . والمثبت عن الطبعات السابقة .
(٧) تفسير الطبرى : ١١٦/٢٧ .
(٨) فى اللسان : « والقِىّ [بكسر القاف ، وتشديد الياء] : القفر » .

وهذا التفسير أعم من غيره، فإن الحاضر والبادى من غنى وفقير الكل محتاجون للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع . ثم من لطف الله تعالى أن أودعها فى الأحجار ، وخالص الحديد ، بحيث يتمكن المسافر من حمل ذلك فى متاعه وبين ثيابه ، فإذا احتاج إلى ذلك فى منزله أخرج زنده وأورى ، وأوقد ناره فاطبخ بها واصطلى ، واشتوى واستأنس بها ، وانتفع بها سائر الانتفاعات . فلهذا أفرد المسافرون وإن [كان] ذلك عاما فى حق الناس كلهم . وقد يستدل له بما رواه الإمام أحمد وأبو داود من حديث أبى خداش حبّان بن زيد الشرعبى الشامى ، عن رجل من المهاجرين من قرن ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المسلمون شركاء فى ثلاثة : النار والكلأ والماء »(١) .

وروى ابن ماجة بإسناد جيد عن أبى هريرة قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث لا يُمنعن : الماء والكلأ والنار » (٢) .

وله من حديث ابن عباس مرفوعاً مثل هذا وزيادة : « وثمنه حرام » ، ولكن فى إسناده « عبد الله بن خراش بن حوشب »(٣) وهو ضعيف ، والله أعلم .

وقوله : (فسبح باسم ربك العظيم) ، أى : الذى بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة : الماء العذب الزلال البارد ، ولو شاء لجعله ملحا أجاجا كالبحار المغرقة . وخلق النار المحرقة ، وجعل ذلك مصلحة للعباد ، وجعل هذه منفعة لهم فى معاش دنياهم ، وزاجرا لهم فى المعاد .

۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾

قال جُوَيبر ، عن الضحاك : إن الله لا يقسم بشىء من خلقه ، ولكنه استفتاح يستفتح به كلامه .

وهذا القول ضعيف . والذى عليه الجمهور أنه قسم من الله ـ عزو جل ـ يقسم بما شاء من خلقه ، وهو دليل على عظمته . ثم قال بعض المفسرين : « لا » هاهنا زائدة ، وتقديره : أقسم بمواقع النجوم . ورواه ابن جرير ، عن سعيد بن جبير(٤) . ويكون جوابه : (إنه لقرآن كريم) .

وقال آخرون : ليست « لا » زائدة لا معنى لها ، بل يؤتى بها فى أول القسم إذا كان مقسما به على منفى ، كقول عائشة رضى الله عنها : « لا . والله ما مست يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يد امرأة قط » وهكذا هاهنا تقدير الكلام : « لا . أقسم بمواقع النجوم ليس الأمر كما زعمتم فى القرآن أنه سحر أو كهانة ، بل هو قرآن كريم .

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/٣٦٤ ، وسنن أبى داود ، كتاب البيوع ، باب « فى منع الماء » .
(٢) سنن ابن ماجه ، كتاب الرهون ، باب « المسلمون شركاء فى ثلاث » ، الحديث ٢٤٧٣ : ٢/٨٢٦ .
(٣) سنن ابن ماجه ، فى الكتاب والباب المتقدمين ، الحديث : ٢٤٧٢ .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٧/١١٧ .

وقال ابن جرير : وقال بعض أهل العربية : معنى قوله : (فلا أقسم) ، فليس الأمر كما تقولون ، ثم استأنف القسم بعد فقيل : أقسم .

واختلفوا فى معنى قوله : (بمواقع النجوم) فقال حكيم بن جُبَيْر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : يعنى نجوم القرآن ؛ فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا ، ثم نزل مُفَرقا فى السنين بعد ، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : نزل القرآنُ جملة من عند الله من اللوح المحفوظ إلى السَّفَرة الكرام الكاتبين فى السماء الدنيا ، فنجَّمته السفرة على جبريل عشرين ليلة ، ونجمه جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم عشرين سنة ، فهو قوله : (فلا أقسم بمواقع النجوم) ، : نجوم القرآن .

وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والسُّدى ، وأبو حَزْرَة .

وقال مجاهد أيضا : (مواقع النجوم) فى السماء ، ويقال : مطالعها ومشارقها . وكذا قال الحسن ، وقتادة . وهو اختيار ابن جرير . وعن قتادة : مواقعها : منازلها . وعن الحسن أيضاً : أن المراد بذلك انتثارها يوم القيامة . وقال الضحاك : (فلا أقسم بمواقع النجوم) ، يعنى بذلك الأنواء التى كان أهل الجاهلية إذا مُطِروا قالوا : مطرنا بنَوء[1] كذا وكذا .

وقوله : (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) ، أى : وإن هذا القسم الذى أقسمت به لقسم عظيم ، لو تعلمون عظمته لعظمّم المقسم به عليه ، (إنه لقرآن كريم) ، أى : إن هذا القرآن الذى نَزَل على محمد لكتاب عظيم . (فى كتاب مكنون) أى : معظم فى كتاب معظم محفوظ موقر .

قال ابن جرير : حدثنى إسماعيل بن موسى[2] أخبرنا شريك ، عن حكيم ، ــ هو ابن جبير ــ عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس (لا يمسه إلا المطهرون) قال : الكتاب الذى فى السماء [3] .

وقال العَوفى ، عن ابن عباس : (إلا المطهرون) ، يعنى الملائكة . وكذا قال أنس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد ابن جُبَير ، والضحاك ، وأبو الشعثاء جابر بن زيد ، وأبو نَهِيك ، والسدى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، حدثنا معمر ، عن قتادة : (لا يمسه إلا المطهرون) ، قال : لا يمسه عند الله إلا المطهرون ، فأما فى الدنيا فانه يمسه المجوسى النجس ، والمنافق الرجس . وقال : وهى فى قراءة ابن مسعود : (ما يمسه إلا المطهرون) [4] .

وقال أبو العالية : (لا يمسه إلا المطهرون) ، ليس أنتم أصحاب الذنوب .

وقال ابن زيد : زَعَمت كفار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين ، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون كما قال : (وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغى لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون) .

---

(١) انظر تفسير النوء فى : ٥٢٠/٦ .

(٢) فى المخطوطة : « موسى بن إسماعيل » . والمثبت عن تفسير الطبرى ، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ١٩٦/١/١ ، وهو إسماعيل بن موسى الفزارى أبو محمد نسيب السدى » .

(٣) تفسير الطبرى : ١١٨/٢٧ .

(٤) تفسير الطبرى : ١١٩/٢٧ .

وهذا القول قول جيد ، وهو لا يخرج عن الأقوال التي قبله .

وقال الفراء : لا يجد طعمه ونفعه إلا من آمن به .

وقال آخرون : (لا يمسه إلا المطهرون) ، أي : من الجنابة والحدث . قالوا : ولفظ الآية خبر ومعناها الطلب ، قالوا : والمراد بالقرآن هاهنا المصحف ، كما روى مسلم عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو ، مخافة أن يناله العدو . واحتجوا فى ذلك بما رواه الإمام مالك فى موطئه ، عن عبد الله بن أبى بكر ابن محمد بن عمرو بن حزم : أن فى الكتاب الذى كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمرو بن حزم : أن لا يمس القرآن إلا طاهر (١). وروى أبو داود — فى المراسيل، من حديث الزهرى قال : قرأت فى صحيفة عند أبى بكر بن محمد بن عمرو بن ابن حزم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ولا يمس القرآن إلا طاهر » .

وهذه وجادة (٢) جيدة . قد قرأها الزهرى وغيره ، ومثل هذا ينبغى الأخذ به . وقد أسنده الدارقطنى عن عمرو ابن حزم ، وعبد الله بن عمر ، وعثمان بن أبى العاصى ، وفى إسناد كل منها نظر ، والله أعلم .

وقوله (تنزيل من رب العالمين) ، أى : هذا القرآن منزل من رب العالمين ، وليس هو كما يقولون : إنه سحر ، أو كهانة ، أو شعر ، بل هو الحق الذى لا مرية فيه ، وليس وراءه حق نافع .

وقوله : (أفبهذا الحديث أنتم مدهنون) ، قال العوفى ، عن ابن عباس : أى : مكذبون غير مصدقين . وكذا قال الضحاك ، وأبو حزرة ، والسدى .

وقال مجاهد : (مدهنون) ، أى : تريدون أن تمالئوهم فيه وتركنوا إليهم .

(وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) ، قال بعضهم : يعنى وتجعلون رزقكم بمعنى شكركم أنكم تكذبون أى : تكذبون بدل الشكر .

وقد روى عن على وابن عباس أنهما قرآها : (وتجعلون شكركم أنكم تكذبون) كما سيأتى .

وقال ابن جرير : وقد ذكر عن الهيثم بن عدى : أن من لغة أزد شنوءة ما رزق فلان بمعنى : ما شكر فلان (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا إسرائيل : عن عبد الأعلى ، عن أبى عبد الرحمن ، عن على — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وتجعلون رزقكم) ، يقول : شكركم (أنكم تكذبون) ، تقولون مطرنا بنوء كذا وكذا ، بنجم كذا وكذا » (٤).

---

(١) الموطأ ، باب « الأمر بالوضوء لمن مس القرآن » . انظر تنوير الحوالك : ١٥٧/١ .
(٢) انظر تفسير هذا المصطلح فى : ٦٤/١ .
(٣) تفسير الطبرى : ١١٩/٢٧ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ١٠٨/١ .

وهكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبيه ، عن مُخَوّل بن إبراهيم النهدى – وابن جرير ، عن محمد بن المثنى ، عن عبيد الله بن موسى ، وعن يعقوب بن إبراهيم،عن يحيى بن أبي بكير،ثلاثتهم عن إسرائيل ، به مرفوعا(١) . وكذا رواه الترمذى عن أحمد بن مَنيع ، عن حسين بن محمد – وهو المروزى – به ، وقال : «حسن غريب» . وقد رواه سفيان عن عبد الأعلى ، ولم يرفعه (٢) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس قال : ما مُطِر قوم قط إلا أصبح بعضهم كافراً ، يقولون : مُطِرْنابنَوء كذا وكذا . وقرأ ابن عباس : (وتجعلون شكركم أنكم تكذبون)(٣) .

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس .

وقال مالك فى الموطأ ، عن صالح بن كيسان ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن زيد بن خالد الجهنى أنه قال : صلى بنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم– صلاة الصبح بالحديبية فى أثر سماء(٤) كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : «هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا: الله ورسوله أعلم . « قال : أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته » ، فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب . وأما قال : « مطرنا بنوء كذاوكذا» فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب(٥) » .

أخرجاه فى الصحيحين ، وأبو داود والنسائى ، كلهم من حديث مالك ، به(٦) .

وقال مسلم : حدثنا محمد بن سلمة المرادى وعَمْرو بن سَوّاد ، حدثنا عبد الله بن وهب ، عن عمرو بن الحارث : أن أبا يونس حدّثه عن أبي هريرة ، عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين ، ينزلُ الغيث فيقولون : بكوكب كذا وكذا » .
تفرّد به مسلم من هذا الوجه(٧) .

وقال ابن جرير : حدثنى يونس ، أخبرنا سفيان ، عن محمد بن إسحاق ، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى ، عن أبي سلمة ، عن أبي هـرَيرة : أن رسول الله–صلى الله عليه وسلم–قال : « إن الله ليُصَبّح القوم بالنعمة أو يُمسيهم بها ،

---

(١) تفسير الطبرى : ١١٩/٢٧ .
(٢) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الواقعة ، الحديث ٣٣٤٩ : ١٨١/٩ – ١٨٢ .
(٣) تفسير الطبرى : ١١٩/٢٧– ١٢٠ .
(٤) أى : مطر .
(٥) تنوير الحوالك ، شرح موطأ الإمام مالك ، باب « الاستمطار بالنجوم » : ١٥٣/١ – ١٥٤ .
(٦) البخارى ، كتاب الاستسقاء ، باب ، قول الله تعالى : (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) : ٤١/٢ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « بيان كفر من قال : مطرنا بالنوء » : ٥٩/١ . ومسند أبي داود ، كتاب الطب ، باب « فى النجوم » وسنن النسائى ، كتاب الاستسقاء ، باب « كراهية الاستمطار بالنجوم » : ١٦٤/٣ – ١٦٥ .
(٧) مسلم ، فى الكتاب والباب المتقدمين : ٥٩/١ – ٦٠ .

فيصبح بها قوم كافرين ، يقولون: مُطِرنا بنوء كذا وكذا » . قال محمد — هو ابن إبراهيم — : فذكرت هذا الحديث لسعيد بن المسيب ، فقال : ونحن قد سمعنا من أبي هُرَيرة ، وقد أخبرني من شهد عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — وهو يستسقى ، فلما استسقى التفت إلى العباس فقال : ياعباس ، ياعم رسول الله ، كم بقى من نوء الثريا ؟ فقال: العلماء يزعمون أنها تعترض في الأفق بعد سقوطها سبعا . قال : فما مضت سابعة حتى مُطِروا(١) .

وهذا محمول على السؤال عن الوقت الذى أجرى الله فيه العادة بإنزال المطر ، لا أن ذلك النوء يؤثر بنفسه فى نزول المطر ، فان هذا هو المنهى عن اعتقاده . وقد تقدم شيء من هذه الأحاديث عند قوله : (ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها)(٢).

وقال ابن جرير : حدثنى يونس ، أخبرنا سفيان ، عن إسماعيل بن أمية — أحسبه أو غيره — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سمع رجلا — ومطروا — يقول : مطرنا ببعض عثانين(٣) الأسد . فقال : « كذبت ! بل هو رزق الله(٤) » .

ثم قال ابن جرير : حدثنى أبو صالح الصرارى ، حدثنا أبو جابر (٥) محمد بن عبد الملك الأزدى (٦) ، حدثنا جعفر بن الزبير ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ، عن النبى — صلى الله عليه وسلم قال : « ما مُطِر قوم من ليلة إلا أصبح قوم بها كافرين . ثم قال (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) ، يقول قائل : مطرنا بنجم كذا وكذا (٤) .

وفى حديث عن أبى سعيد مرفوعاً : « لو قُحِط الناس سبع سنين ثم مطروا لقالوا : مطرنا بنوء المِجْدَح(٧) » .

وقال مجاهد : (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) قال : قولهم فى الأنواء : مطرنا بنوء كذا ، وبنوء كذا ، يقول : قولوا : هو من عند الله ، وهو رزقه . وهكذا قال الضحاك وغير واحد .

وقال قتادة : أما الحسن فكان يقول : بئس ما أخذ قوم لأنفسهم ، لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب (٨) . فمعنى قول الحسن هذا : وتجعلون حظكم من كتاب الله أنكم تكذبون به . ولهذا قال قبله : (أفبهذا الحديث أنتم مدهنون . وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٢٠/٢٧ .

(٢) سورة فاطر ، آية : ٢ .

(٣) العثانين : المطر بين السحاب والأرض مثل السبل . والسبل — بفتحتين — : المطر بين السحاب والأرض ، حين يخرج من السحاب ولم يصل إلى أرض .

(٤) تفسير الطبرى : ١٢٠/٢٧ .

(٥) فى المخطوطة : « أبو جابر بن محمد » . والمثبت عن تفسير الطبرى ، والطبعات السابقة من تفسير ابن كثير ، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٥/١/٤ .

(٦) فى المخطوطة وتفسير الطبرى : « الأودى » . والمثبت عن الجرح والتعديل .

(٧) المجدح — بكسر الميم — : نجم من النجوم . قيل : هو الدبران . هذا والحديث أخرجه الإمام أحمد ٧/٣ ، ولفظه : « لو أمسك الله القطر عن الناس سبع سنين ثم أرسله ، لأصبحت طائفة به كافرين ، يقولون : مطرنا بنوء المجدح » .

(٨) تفسير الطبرى : ٢٧ / ١٢٠ .

فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾

يقول تعالى (فلولا إذا بلغت) ، أى : الروح (الحلقوم) [أى : الحلق] وذلك حين الاحتضار ، كما قال : (كلا إذا بلغت التراقى . وقيل : من راق ؟ وظن أنه الفراق . والتفت الساق بالساق . إلى ربك يومئذ المساق)(١) ، ولهذا قال ها هنا : (وأنتم حينئذ تنظرون) ، أى : إلى المحتضر وما يكابده من سكرات الموت ، (ونحن أقرب إليه منكم) ، أى : بملائكتنا ، (ولكن لا تبصرون) ، أى : ولكن لا ترونهم ، كما قال فى الآية الأخرى : (وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموتُ توفته رسلنا وهم لا يفرطون ، ثم ردّوا إلى الله مولاهم الحق ، ألا له الحكم ، وهو أسرع الحاسبين)(٢) .

وقوله : (فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها) ، معناه : فهلا ترجعون هذه النفس التى قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول ، ومقرّها فى الجسد إن كنتم غير مدينين .

قال ابن عباس : يعنى محاسبين (٣) . ورُوى عن مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، والسدى ، وأبى حَزْرة ، مثله .

وقال سعيد بن جُبير ، والحسن البَصْرىّ : (فلولا إن كنتم غير مدينين) : غير مصدقين أنكم تُدانون وتبعثون وتجزون ، فردّوا هذه النفس .

وعن مجاهد : (غير مَدينين) : غير موقنين .

وقال ميمون بن مهران : غير معذبين مقهورين .

فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

هذه الأحوال الثلاثة هى أحوال الناس عند احتضارهم : إما أن يكون من المقربين أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين . وإما يكون من المكذبين بالحق الضالين عن الهدى ، الجاهلين بأمر الله . ولهذا قال تعالى : (فأما إن كان) ، أى :

(١) سورة القيامة ، الآيات : ٢٦ - ٣٠ .
(٢) سورة الأنعام ، آية ، : ٦١ - ٦٢ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٢١/٢٧ .

المحتضَر (من المقربين) ، وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات ، وتركوا المحرّمات والمكروهات وبعض المباحات ، (فروح وريحان وجنة نعيم)، أى : فلهم روح وريحان ، وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت ، كما تقدم فى حديث البراء أن ملائكة الرحمة تقول : أيتها الروح الطيبة فى الجسد الطيب كنت تعمرينه ، اخرجى إلى روح وريحان ، ورب غير غضبان (١) » .

قال على بن طلحة ، عن ابن عباس : (فروح) ، يقول : راحة وريحان ، يقول : مستراحة . وكذا قال مجاهد : إن الرّوح : الاستراحة .

وقال أبو حَزْرَة : الراحة من الدنيا : وقال سعيد بن جبير ، والسدى : الرّوح الفرح . وعن مجاهد : (فروح وريحان): جنة ورخاء . وقال قتادة فروح ورحمة . وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير : (وريحان) ورزق .

وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة ، فان من مات مقرّبا حصل له جميعُ ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة ، والفرح والسرور والرزق الحسن ، (وجنة نعيم) .

وقال أبو العالية : لا يفارق أحد من المقربين حتى يُؤتَى بغصن من ريحان [الجنة ، فيقبض](٢) روحه فيه .

وقال محمد بن كعب : لا يموت أحدٌ من الناس حتى يعلَم : أمن أهل الجنة هو أم أهل النار ؟ .

وقد قدمنا أحاديث الاحتضار عند قوله تعالى فى سورة إبراهيم : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) ، ولو كتبت هاهنا لكان حسناً [ومن جملتها حديث تميم الدارى ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، يقول : «يقول الله لملك الموت : انطلق [إلى فلان فائتنى به، فانه قد جربته بالسراء والضراء] (٣) فوجدته حيث أحب، ائتنى بهفلأريحنه . قال : فينطلق إليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ، معهم أكفان وحَنُوط من الجنة ، ومعهم ضَبَائر الريحان ، أصل الريحانة [واحد] وفى رأسها عشرون لونا ، لكل لون منها ريح سوى ريح صاحبه ، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك » .

وذكر تمام الحديث بطوله كما تقدم(٤) ، وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية : قال الإمام أحمد :

حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا هارون ، عن بُدَيل بن ميسرة ، عن عبد الله بن شَقِيق ، عن عائشة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ : (فَرُوحٌ وريحان) برفع الراء .

وكذا رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، من حديث هارون — وهو ابن موسى الأعور — به ، وقال الترمذى: « لا نعرفه إلا من حديثه »(٥) .

---

(١) تقدمت سياقة الحديث عن أبى هريرة ، عند تفسير الآية السابعة والعشرين من سورة إبراهيم : ٤١٧/٤ ، وخرجناه هنالك. وكذلك عند تفسير الآية الأربعين من سورة الأعراف : ٤١٠/٣ . أما رواية البراء ، فانظرها فى : ٤١٣/٤ — ٤١٥ .

(٢) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، ومكانه فى المخطوطة : « لكنه ينفس » . وفى تفسير الطبرى ١٢٢/٢٧ : « من ريحان الجنة ، فيشمه ثم يقبض » .

(٣) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، وقد تقدم الحديث فى سورة إبراهيم ٤٢٢/٤ ، ولفظ هذه الفقرة : « انطلق إلى وليى فأتنى ، فإنه قد ضربته بالسراء والضراء » .

(٤) تقدم الحديث فى : ٤٢٢/٤ — ٤٢٣ . وشرحنا غريبه هنالك .

(٥) تحفة الأحوذى ، أبواب القراءات ، الحديث ٤٠٠٨ : ٢٥٩/٨ .

وهذه القراءة هى قراءة يعقوب وحده ، وخالفه الباقون فقرأوا . (فرَوح) ، بفتح الراء .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لَهيعة ، حدثنا أبو الأسود محمد بن عبد الرحمن بن نوفل : أنه سمع درّة بنت معاذ تحدث ، عن أم هانىء : أنها سألت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنتزاور إذا متنا ، ويرى بعضنا بعضاً؟ فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « تكون النَّسَمُ(١) طيراً يعلق بالشجر ، حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس فى جسدها (٢) » .

هذا الحديث فيه بشارة لكل مؤمن ، ومعنى «يعلق» يأكل، ويشهد له بالصحة أيضاً ما رواه الإمام أحمدعن الإمام محمدبن إدريس الشافعى ، عن الإمام مالك بن أنس ، عن الزهرى ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك،عن أبيه،عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « إنما نَسَمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة ، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه (٣) » . وهذا إسناد عظيم ، ومتن قويم .

وفى الصحيح [أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال] : « إن أرواح الشهداءفى حواصل طير خضر ، تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى قناديل معلقة بالعرش (٤) » الحديث .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا همام ، حدثنا عطاء بن السائب قال : كان أول يوم عرفت فيه عبد الرحمن بن أبى ليلى : رأيت شيخاً أبيض الرأس واللحية على حمار ، وهو يتبع جنازة ، فسمعته يقول : حدثنى فلان بن فلان ، سمع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » . قال : فأكب القوم يبكون ، فقال : ما يُبكيكم ؟ فقالوا : إنا نكره الموت . قال : ليس ذاك ، ولكنه إذا حُضِر (فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم) ، فاذا بُشر بذلك أحب لقاء الله عز وجل، والله — عز وجل — للقائه أحب. (وأما إن كان من المكذبين الضالين ، فنزل من حميم)، فاذا بشر بذلك كره لقاء الله ، والله للقائه أكره .

هكذا رواه الإمام أحمد (٥) ، وفى الصحيح عن عائشة — رضى الله عنها — شاهد لمعناه (٦) .

وقوله : (وأما إن كان من أصحاب اليمين) ، أى : وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين ، (فسلام لك من أصحاب اليمين) أى : تبشرهم الملائكة بذلك ، تقول لأحدهم : سلام لك ، أى : لا بأس عليك ، أنت إلى سلامة ، أنت من أصحاب اليمين .

---

(١) النسم — بفتحتين — واحدها نسمة ، وهى : الروح .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٦/٤٢٤ — ٤٢٥ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٣/٤٩٥ .
(٤) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٦٩ من سورة آل عمران ، وخرجناه هنالك ، انظر : ٢/١٤٠ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٤/٢٥٩ — ٢٦٠ .
(٦) مسلم ، كتاب الذكر ، باب ، « من أحب لقاء الله ، أحب الله لقاءه » : ٨/٦٥ .

وقال قتادة ، وابن زيد : سلِم من عذاب(١) الله ، وسلّمت عليه ملائكة الله . كما قال عكرمة : تسلم عليه الملائكة ، وتخبره أنه من أصحاب اليمين .

وهذا معنى حسن ، ويكون ذلك كقوله تعالى : (إن الذين قالوا : ربنا الله ، ثم استقاموا ، تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون • نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون • نزلا من غفور رحيم (٢)) .

وقال البخاري : (فسلام لك) ، أي : مُسلم لك ، إنك من أصحاب اليمين . وألغيت « إنّ » وهو (٣) معناها ، كما تقول : أنتَ مُصَدَّق مسافر عن قليل . إذا كان قد قال إني مسافر عن قليل . وقد يكون كالدعاء له ، كقولك سقياً لك من الرجال ، إن رفعت « السلام » فهو من الدعاء (٤) .

وقد حكاه ابن جرير هكذا عن بعض أهل العربية ، ومال إليه ، والله أعلم(٥) .

وقوله : (وأما إن كان من المكذبين الضالين. فنزل من حميم . وتصلية جحيم) ، أي : وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق ، الضالين عن الهدى ، (فنزل) ، أي : فضيافة (من حميم) ، وهو [المذاب] الذي يصهر به ما في بطونهم والجلود ، (وتصلية جحيم) ، أي : وتقرير له في النار التي تغمره من جميع جهاته .

ثم قال تعالى : (إنّ هذا لهو حق اليقين) ، أي : إن هذا الخبر لهو الحق اليقين الذي لا مرية فيه ، ولا محيد لأحد عنه .

(فسبح باسم ربك العظيم) ، قال أحمد :

حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا موسى بن أيوب الغافقي ، حدثني عمّي إياس بن عامر ، عن عقبة بن عامر الجهني قال : لما نزلت على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : (فسبح باسم ربك العظيم) ، قال : « اجعلوها في ركوعكم » ، ولما نزلت : (سبح اسم ربك الأعلى) ، قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « اجعلوها في سجودكم (٦) » .

---

(١) أثر قتادة في تفسير الطبري ١٢٢/٢٧ : « سلام من عند الله ، وسلمت .... » .

(٢) سورة فصلت ، الآيات : ٣٠ – ٣٢ .

(٣) في المخطوطة : « وألغيت من وهي معناها » . والمثبت عن البخاري .

(٤) البخاري ، تفسير سورة الواقعة : ١٨٢/٦ – ١٨٣ .

(٥) نسوق هنا كلام ابن جرير ، حتى يتضح به ما قاله البخاري ، قال ١٢٣/٢٧ : « وقال بعض نحويي الكوفة : قوله (فسلام لك من أصحاب اليمين) ، أي : فذلك مسلم لك أنك من أصحاب اليمين ، وألقيت أن [أي حذفت] ونوى معناها ، كما تقول : أنت مصدق مسافر عن قليل : إذا كان قد قال : إني مسافر عن قليل . وكذلك يجب معناه : أنك مسافر عن قليل ، ومصدق عن قليل . قال : قوله (فسلام لك) : فسلم لك أنت من أصحاب اليمين . قال : وقد يكون كالدعاء له ، كقوله : « فسقيا لك من الرجال » ، قال : وإن رفعت السلام فهو دعاء ، والله أعلم بصوابه » .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١٥٥/٤ .

وكذا رواه أبو داود وابن ماجه ، من حديث عبد الله بن المبارك ، عن موسى بن أيوب، به (١) .

وقال روح بن عبادة : حدثنا حَجّاجُ الصَّوّافُ ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « من قال : سبحان الله العظيم وبحمده ، غُرِسَت له نخلة فى الجنة » .

هكذا رواه الترمذى من حديث روح ، ورواه هو والنسائى أيضاً من حديث حماد بن سلمة ، من حديث أبى الزبير عن جابر ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، به وقال الترمذى : « حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث أبى الزبير (٢) » .

وقال البخارى فى آخر كتابه : حدثنا أحمد بن إشكاب ، حدثنا محمد بن فضيل ، حدثنا عُمارة بن القعقاع ، عن أبى زُرْعة ، عن أبى هُرَيرة قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « كلمتان (٣) خَفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان(٤) ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم (٥) » .

ورواه بقية الجماعة إلا أبا داود ، من حديث محمد بن فضيل ، باسناده ، مثله(٥) .

[آخر تفسير سورة الواقعة ولله الحمد والمنة]

---

(١) سنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « ما يقول الرجل فى ركوعه وسجوده » . وسنن ابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب « التسبيح فى الركوع والسجود » ، الحديث ٨٨٧ : ٢٨٧/١ .

(٢) تحفة الأحوذى ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٥٣١ : ٤٣٣/٩— ٤٣٤ .

(٣) فى البخارى : « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان . . . » , وما فى كتب الجماعة مثل ما هنا .

(٤) البخارى ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : (ونضع الموازين القسط ...» : ١٩٨/٩ — ١٩٩ .

(٥) مسلم ، كتاب الذكر ، باب « فضل التهليل والتسبيح والدعاء » : ٧٠/٨ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٥٣٤ : ٤٣٤/٩ — ٤٣٥ . وسنن ابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب « فضل التسبيح » . الحديث ٣٨٠٦ : ١٢٥١/٢ .

تفسير سورة الحديد

وهي مدنيـــة

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا بقية بن الوليد ، حدثني بَحير بن سعد ، عن خالد بن معدان ، عن ابن أبي بلال ، عن عرْباض بن سارية : أنه حدثهم أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان يقرأ المسبّحات قبل أن يرقد ، وقال : « إن فيهن آية أفضلُ من ألف آية [1] » .

وهكذا رواه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، من طرق عن بقية ، به . وقال الترمذي : « حسن غريب »[2] .

ورواه النسائي عن ابن أبي السرح ، عن ابن وهب ، عن معاوية بن صالح عن بحير بن سعد ، عن خالد بن معدان قال : كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم . . . فذكره مُرْسَلا ، لم يذكر عبد الله بن أبي بلال ، ولا العرباض بن سارية ؛

والآية المشار إليها في الحديث هي والله أعلم قوله : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم) ، كما سيأتي بيانه إن شاء الله وبه الثقة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1) لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (2) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (3)

يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات والأرض ، أي : من الحيوانات والنباتات ، كما قال في الآية الأخرى : (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليماً غفورا [3] .

وقوله : (وهو العزيز) ، أي : الذي قد خضع له كل شيء (الحكيم) ، في خلقه وأمره وشرعه : (له ملك السموات والأرض يحيي ويميت) ، أي : هو المالك المتصرف في خلقه ، فيحيي ويميت ، ويعطي من يشاء ما يشاء ، (وهو على كل شيء قدير) ، أي : ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

وقوله : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) ، وهذه الآية هي المشار إليها في حديث عرْباض بن سارية : أنها أفضل من ألف آية .

---

(1) مسند الإمام أحمد : ١٢٨/٤ .

(2) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « ما يقال عند النوم » . وتحفة الأحوذي أبواب فضائل القرآن ، الحديث ٣٠٨٩ : ٢٣٨/٨ - ٢٣٩ .

(3) سورة الإسراء آية : ٤٤ .

وقال أبو داود : حدثنا عباس بن عبد العظيم ، حدثنا النضر بن محمد ، حدثنا عكرمة — يعنى ابن عمار — حدثنا أبو زُمَيل قال : سألت ابن عباس فقلت : ما شيء أجده في صدرى ؟ قال : ما هو ؟ قلت : والله لا أتكلم به . قال : فقال لى : أشيء من شك ؟ قال — وضحك — قال : ما نجا من ذلك أحد . قال ، حتى أنزل الله : (فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك ، فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك) ... الآية قال : وقال لى : إذا وجدت فى نفسك شيئاً فقل : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم) (١) .

وقد اختلفت عبارات المفسرين فى هذه الآية وأقوالهم على نحو من بضعة عشرَ قولا ؛

وقال البخارى : قال يحيى : الظاهر على كل شيء علما ، والباطن على كل شيء علما(٢) ؛

قال شيخنا الحافظ المزّى : يحيى هذا هو ابن زياد الفراء ، له كتاب سماه « معانى القرآن » ؛

وقد ورد فى ذلك أحاديث ، فمن ذلك ما قال الإمام أحمد : حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا ابن عيَّاش ، عن سُهيل بن أبى صالح ، عن أبيه ، عن أبى هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو عند النوم : « اللهم ، ربّ السموات السبع ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، منزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحب والنوى ، لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول ليس قبلك شيء وأنت الآخر ليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر ليس فوقك شيء ، وأنت الباطن ليس دونك شيء . أقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر (٣) » ؛

ورواه مسلم فى صحيحه : حدثنى زهير بن حرب ، [حدثنا جرير] عن سُهَيل قال : كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام : أن يضطجع على شقه الأيمن ، ثم يقول : اللهم ، ربّ السموات وربّ الأرض وربّ العرش العظيم ، ربَّنا وربّ كل شيء ، فالق الحب والنوى ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كل ذى شر أنت آخذ بناصيته ، اللهم ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر .

وكان يَروِى ذلك ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم(٤) .

وقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده عن عائشة أم المؤمنين نحو هذا ، فقال : حدثنا عقبة ، حدثنا يونس ، حدثنا السرى بن إسماعيل ، عن الشعبى ، عن مسروق ، عن عائشة أنها قالت : كان رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — يأمر بفراشه فيفرش له مستقبلَ القبلة ، فاذا أوى إليه توسّد كفه اليمنى ، ثم همس — ما يُدرَى ما يقول — فإذا كان فى آخر الليل رفع صوته فقال : « اللهم ، رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، إله كل شيء ، ورب كل شيء ، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان ، فالق الحب والنوى . أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته . اللهم ، أنت الأول الذى

---

(١) سنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « رد الوسوسة » .

(٢) لم ينسب هذا القول إلى يحيى فى البخارى عند هذه السورة ، بل هو فى سياق تفسير منسوب إلى مجاهد ، انظر : ٦/١٨٣ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٢/٤٠٤ .

(٤) مسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، باب « ما يقول عند النوم وأخذ المضجع » : ٨/٧٨ — ٧٩ .

ليس قبلك شيء ، وأنت الآخر الذى ليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنا الدين ، واغننا من الفقر » .

السرى بن إسماعيل هذا ابن عم الشعبي ، وهو ضعيف جداً ، والله أعلم .

وقال أبو عيسى الترمذى عند تفسير هذه الآية : حدثنا عبدُ بن حميد وغير واحد ــ المعنى واحد ــ قالوا : حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا شيبان بن عبد الرحمن ، عن قتادة قال : حدث الحسن ، عن أبي هريرة قال : بينما رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ جالس وأصحابه ، إذ أتى عليهم سَحَاب، فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم : هل تدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا العَنَان(١) ، هذه رَوَايا(٢) الأرض تسوقه إلى قوم لا يشكرونه ولا يَدْعُونه(٣). ثم قال : هل تدرون ما فوقكم ؟. قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : فانها الرَّقيع(٤)،سقف محفوظ ، وموج مكفوف (٥) . ثم قال : هل تدرون كم بينكم وبينها ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : بينكم وبينها خمسمائة سنة . ثم قال : هل تدرون ما فوق ذلك ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم . قال:فان فوق ذلك سماء(٦) بُعدُ ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة ــ حتى عَدّ سبع سموات ــ ما بين كل سماء ين كما بين السماء والأرض . ثم قال : هل تدرون ما فوق ذلك ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : فان فوق ذلك العرش ، وبينه وبين السماء بعدُ(٧) ما بين السماءين،ثم قال:هل تدرون ما الذى تحتكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : فانها الأرض . ثم قال : هل تدرون ما الذى تحت ذلك . قالوا : الله ورسوله أعلم . قال: فان تحتها أرضاً أخرى بينهما مسيرة خمسمائة سنة ــ حتى عَدّ سبع أرضين ــ بين كل أرْضَيْن مسيرة خمسمائةسنة، ثم قال : والذى نفس محمد بيده ، لو أنكم دَلَيْتم بحبل إلى الأرض السفلى لهبط على الله ، ثم قرأ : ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم ﴾ .

ثم قال الترمذى : « هذا حديث غريب من هذا الوجه ، ويُروى عن أيوب ويونس ــ يعني ابن عبيد ــ وعلى بن زيد قالوا : لم يسمع الحسن من أبي هريرة .وفسر بعضُ أهل العلم هذا الحديثفقالوا: إنما هَبَط على علْم الله وقدرته وسلطانه، وعلم الله وقدرته وسلطانه فى كل مكان ، وهو على العرش ، كما وصف فى كتابه » .(٨) انتهى كلامه .

---

(١) العنان : السحاب .

(٢) الروايا : جمع راوية ، والروايا من الإبل :الحوامل للماء ، فشبه السحاب بها .

(٣) أى لا يعبدونه .

(٤) الرقيع : اسم لسماء الدنيا .

(٥) أى : ممنوع من الاسترسال ، أى : حفظها الله أن تقع على الأرض وهى معلقة بلا عمد كالموج المكفوف .

(٦) لفظ الترمذى ــ كما فى تحفة الأحوذى ــ : « فان فوق ذلك سماءين ، ما بينهما مسيرة . . . »

(٧) فى المخطوطة : « من بعد» . والمثبت عن تحفة الأحوذى .

(٨) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الحديد ، الحديث ٣٣٥٢ : ٩/١٨٥ ــ ١٨٧ .

وقد روى الإمام أحمد هذا الحديث عن سُريج ، عن الحكم بن عبد الملك ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن أبي هريرة عن النبي — صلى الله عليه وسلم — فذكره ، وعنده بُعدُ ما بين الأرضين مسيرة سبعمائة عام(١)، وقال : لو دليتم أحدكم بحبل إلى الأرض السفلى السابعة لهبط على الله(٢)،ثم قرأ : (هو الأول والآخر، والظاهر والباطن،وهو بكل شيء عليم)(٣)

ورواه ابن أبي حاتم والبزار من حديث أبي جعفر الرازي ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن أبي هريرة ... فذكر الحديث ، ولم يذكر ابن أبي حاتم [آخره] وهو قوله : « لودليتم بحبل » ، وإنما قال : « حتى عدَّ سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة عام » ، ثم تلا : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) .

وقال البزار : لم يروه عن النبي — صلى الله عليه وسلم — إلا أبو هريرة .

ورواه ابن جرير ، عن بشر ، عن يزيد ، عن سعيد ، عن قتادة : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) ، ذكر لنا أن نبي الله — صلى الله عليه وسلم — بينما هو جالس في أصحابه إذ ثار عليهم سحاب ، فقال : هل تدرون ما هذا (٤) ، وذكر الحديث مثل سياق الترمذي سواء ، إلا أنه مرسل من هذا الوجه ، ولعل هذا هو المحفوظ ، والله أعلم . وقد رُوي من حديث أبي ذر الغفاري — رضي الله عنه وأرضاه — رواه البزار في مسنده ، والبيهقي في كتاب الأسماء والصفات ، ولكن في إسناده نظر ، وفي متنه غرابة ونكارة ، والله — سبحانه وتعالى — أعلم .

وقال ابن جرير عند قوله تعالى : (ومن الأرض مثلهن (٥)) : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن قتادة قال : التقى أربعة من الملائكة بين السماء والأرض ، فقال بعضهم لبعض : من أين جئت ؟ قال أحدهم : أرسلني ربي — عز وجل — من السماء السابعة وتركته ثَمَّ . قال الآخر : أرسلني ربي — عز وجل — من الأرض السابعة وتركته ثَمَّ .قال الآخر : أرسلني ربي من المشرق وتركته ثَمَّ قال الآخر : أرسلني ربي من المغرب وتركته ثَمَّ (٦)

وهذا غريب جدا ، وقد يكون الحديث الأول موقوفا على قتادة كما روى هاهنا من قوله ، والله أعلم .

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم أخبر باستوائه على العرش بعد خلقهن ، وقد تقدم الكلام على هذه الآية وأشباهها في « سورة الأعراف (٧) » ، بما أغنى عن إعادته هاهنا .

---

(١) كذا ، والذي في المسند : « مسيرة خمسمائة عام » .

(٢) الذي في المسند : « لهبط ، ثم قرأ » . وليس فيه « على الله » .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٧٠ .

(٤) تفسير الطبري : ٢٧/١٢٤ .

(٥) سورة الطلاق ، آية : ١٢ .

(٦) تفسير الطبري : ٢٨/٩٩ — ١٠٠ .

(٧) سورة الأعراف ، آية : ٥٤ .

(يعلم ما يلج فى الأرض) ، أى : يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر ، (ومايخرج منها) ، من زرع ونبات وثمار ، كما قال : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبَّة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين) (١) .

وقوله : (وما ينزل من السماء) ، أى : من الأمطار ، والثلوج والبرَد ، والأقدار والأحكام مع الملائكة الكرام ؛ وقد تقدم فى « سورة البقرة » أنه ما ينزل [من] قطرة من السماءِ إلا ومعها ملك يُقرِّرها فى المكان الذى يأمر الله به حيث يشاء تعالى .

وقوله : (وما يعرج فيها) ، أى : من الملائكة والأعمال ، كما جاء فى الصحيح : « يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل (٢) » .

وقوله : (وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير) ، أى : رقيب عليكم ، شهيد على أعمالكم حيث أنتم ، وأين كنتم ، من بر أو بحر ، فى ليل أو نهار ، فى البيوت أو القفار ، الجميع فى علمه على السواء ، وتحت بصره وسمعه ، فيسمع كلامكم ويرى مكانكم ، ويعلم سركم ونجواكم ، كما قال : (ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ، ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون ومايعلنون ، إنه عليم بذات الصدور)(٣) . وقال : (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار) (٤) ، فلا إله غيره ولا رب سواه . وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل ، لما سأله عن الإحسان: « أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » (٥) .

وروى الحافظ أبو بكر الإسماعيلى من حديث نصر بن خزيمة بن جنادة بن محفوظ بن علقمة ، حدثنى أبى، عن نصر ابن علقمة ، عن أخيه ، عن عبد الرحمن بن عائذ قال: قال عمر : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : زودنى كلمة أعيش بها . فقال : « استح الله كما تستحى رجلا من صالح عشيرتك لا يفارقك » .

هذا حديث غريب ، وروى أبو نعيم من حديث عبد الله بن معاوية الغاضرى (٦) مرفوعا: « ثلاث من فعلهن فقد طَعِم الإيمان : من عبد الله وحده ، وأعطى زكاة ماله طيبةً بها نفسه فى كل عام ، ولم يعط الهَرِمة ولا الدَّرِنة(٧) ،

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ٥٩ .

(٢) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب فى قوله عليه السلام : « إن الله لا ينام » : « : ١/ ١١١ .

(٣) سورة هود ، آية : ٥ .

(٤) سورة الرعد ، آية : ١٠ .

(٥) أخرجاه فى كتاب الإيمان ، انظر البخارى ، باب « سؤال جبريل النبى – صلى الله عليه وسلم – عن الإيمان . . . » : ١/ ١٩–٢٠ . ومسلم : ١/ ٢٨ – ٢٩ .

(٦) فى المخطوطة : «عبد الله بن علوية العامرى » . والمثبت عن أسد الغابة ، الترجمة ٣١٨٨ : ٣/ ٣٩٥ – ٣٩٦ ، بتحقيقنا ، وسنن أبى داود ، كتاب الزكاة ، الحديث رقم ١٥٨٨ : ٢/ ١٠٤ – ١٠٥ .

(٧) الدرنة : الجرباء .

ولا الشَّرَط (١) اللئيمة ولا المريضة ، ولكن من أوسط أموالكم (٢) . وزكَّى نفْسَه » . وقال رجل : يا رسول الله ، ما تزكية المرء نفسه ؟ فقال : « يعلم أن الله معه حيث كان » .

وقال نُعَيم بن حَمَّاد رحمه الله : حدثنا عثمان بن سعيد بن كثير بن دينار الحمصى ، عن محمد بن مهاجر ، عن عُرْوَةَ بن رُوَيم ، عن عبد الرحمن بن غنم ، عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت » ، غريب .

وكان الإمام أحمد ينشد هذين البيتين (٣) :

إذا ما خَلَوتَ الدهرَ يَوماً فَلاَ تَقُلْ : خَلَوتُ ، ولكن قُل : عليّ رَقِيبُ

وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغفلُ ساعَةً وَلا أنّ ما يخْفَى عَلَيه يَغيبُ

وقوله : (له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور) ، أى : هو المالك للدنيا والآخرة ، كما قال : (وإن لنا للآخرة والأولى) (٤) ، وهو المحمود على ذلك ، كما قال : (وهو الله لا إله إلا هو ، له الحمد فى الأولى والآخرة)(٥) ، وقال : (الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، وله الحمد فى الآخرة ، وهو الحكيم الخبير)(٦) . فجميع ما فى السموات والأرض ملك له ، وأهلهما عبيد أرقاء أذلاء بين يديه كما قال : (إن كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا)(٧) ; ولهذا قال : وإلى الله ترجع الأمور) . أى : إليه المرجع يوم القيامة ، فيحكم فى خلقه بما يشاء ، وهو العادل الذى لا يجور ولا يظلم مثقالَ ذرة ، بل إن يكن أحدهم عمل حسنة واحدةً يضاعفها إلى عشر أمثالها ، (ويؤت من لدنه أجرا عظيما)(٨) . وكما قال تعالى : (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين)(٩) .

---

(١) الشرط – بفتحتين – : رذال المال . وقيل : صغاره و شراره .

(٢) بعده فى أسد الغابة : « فإن الله – عز وجل – لم يسألكم خيره ، ولم يأمركم بشره ، وزكاة نفسه » . ولعل صواب ما فى أسد الغابة : « وزكى نفسه » .

(٣) تقدم البيتان فى آخر سورة النمل : ٦/٢٢٩ .

(٤) سورة الليل ، آية : ١٣ .

(٥) سورة القصص ، آية : ٧٠ .

(٦) سورة سبأ ، آية : ١ .

(٧) سورة مريم ، الآيات : ٩٣ – ٩٥ .

(٨) سورة النساء ، آية : ٤٠ .

(٩) سورة الأنبياء ، آية : ٤٧ .

وقوله : (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) ، أى : هو المتصرف فى الخلق ، يقلب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته كما يشاء ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار ، وتارة بالعكس ، وتارة يتركهما معتدلين . وتارة يكون الفصل شتاء ثم ربيعا ثم قيظا ثم خريفا ، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريده بخلقه ، (وهو عليم بذات الصدور) ، أى : يعلم السرائر وإن دقت ، وإن خفيت .

ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ
لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ
عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا
فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُولَٰٓئِكَ أَعْظَمُ
دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَّن ذَا الَّذِى
يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١)

أمر تعالى بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل ، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار ، وحث على الإنفاق مما جعلكم مستخلفين فيه ، أى : مما هو معكم على سبيل العارية ، فانه قد كان فى أيدى من قبلكم ثم صار إليكم ، فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال فى طاعته ، فان يفعلوا وإلا حاسبهم عليه وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه .

وقوله : (مما جعلكم مستخلفين فيه) : فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفا عنك ، فلعل وارثك أن يطيع الله فيه ، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك ، أو يعصى الله فيه فتكون قد سعيت فى معاونته على الاثم والعدوان .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، سمعت قتادة يحدّث ، عن مُطَرِّف ـــ يعنى ابن عبد الله ابن الشِّخِّير ـــ عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وهو يقول : (ألهاكم التكاثر) ، يقول ابن آدم : مالى مالى ! وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت (١) ؟ .

ورواه مسلم من حديث شعبة ، به ، وزاد : « وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس (٢) » .

وقوله : (فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير) ، ترغيب فى الإيمان والإنفاق فى الطاعة . ثم قال : (ومالكم لا تؤمنون بالله ، والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ؟) ، أى : وأى شىء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم ، يدعوكم إلى ذلك ، ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ماجاءكم به ؟. وقد روينا فى الحديث من طُرُق فى أوائل شرح «كتاب الإيمان» من صحيح البخارى : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوما لأصحابه: أىّ المؤمنين أعجب

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٤/٤ .

(٢) انظر صحيح مسلم ، كتاب الزهد : ٢١١/٨ .

إليكم إيمانا ؟ قالوا : الملائكة . قال : ومالهم لايؤمنون وهم عند ربهم ؟ قالوا : فالأنبياء : قال : ومالهم لايؤمنون والوحى ينزل عليهم . قالوا : فنحن ؟ قال : ومالكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيمانا قوم يجيئون بعدكم، يجدون صُحُفًا يؤمنون بما فيها .

وقد ذكرنا طرفا من هذا فى أول « سورة البقرة » عند قوله : (الذين يؤمنون بالغيب) (١) .

وقوله : (وقد أخذ ميثاقكم) ، كما قال : (واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به ، إذ قلتم سمعنا وأطعنا) (٢) . ويعنى بذلك بيعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وزعم ابن جرير : أن المراد بذلك الميثاق الذى أخذ عليهم فى صلب آدم . وهو مذهب مجاهد (٣) ، فالله أعلم .

وقوله : (هو الذى ينزل على عبده آيات بينات) ، أى : حججا واضحات ، ودلائل باهرات ، وبراهين قاطعات (ليخرجكم من الظلمات إلى النور) ، أى : من ظلمات الجهل والكفر ، والآراء المتضادة إلى نور الهدى واليقين والإيمان ، (وإن الله بكم لرؤوف رحيم) ، أى : فى إنزاله الكتب وإرساله الرسل لهداية الناس، وإزاحة العلل وإزالة الشّبه .

ولما أمرهم أولا بالإيمان والإنفاق ، ثم حثهم على الإيمان ، وبين أنه قد أزال عنهم موانعه — حثهم أيضا على الإنفاق فقال : (ومالكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض؟) ، [أى: أنفقوا ولا تخشَوا فقرا وإقلالا ، فان الذى أنفقتم فى سبيله هو مالك السموات والأرض] ، وبيده مقاليدهما ، وعنده خزائنهما ، وهو مالك العرش بما حوى، وهو القائل : (وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين) (٤) . وقال:(ما عندكم ينفد ، وماعند الله باق) (٥) فمن توكل على الله أنفق ، ولم يخش من ذى العرش إقلالا ، وعلم أن الله سيخلفه عليه .

وقوله : (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) ، أى : لا يستوى هذا ومن لم يفعل كفعله ، وذلك أن قبل فتح مكة كان الحال شديدا ، فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون ، وأما بعد الفتح فانه ظهر الإسلام ظهورا عظيما ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا . ولهذا قال : (أولئك أعظم درجةً من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى) .

والجمهور على أن المراد بالفتح هاهنا فتح مكة . وعن الشعبى وغيره أن المراد بالفتح هاهنا : صلح الحديبية ، وقد يُستَدلّ لهذا القول بما قال الإمام أحمد :

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٣ . وانظر : ٦٣/١ — ٦٤ .
(٢) سورة المائدة ، آية : ٧ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٢٦/٢٧ .
(٤) سورة سبأ ، آية : ٣٩ .
(٥) سورة النحل ، آية : ٩٦ .

حدثنا أحمد بن عبد الملك ، حدثنا زُهَير ، حدثنا حُمَيد الطويل ، عن أنس قال : كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام ، فقال خالد لعبد الرحمن : تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها ؟ فبلغنا أن ذلك ذكر للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : « دعوا لى أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو انفقتم مثل أحد ــ أو : مثل الجبال ــ ذهبا ، ما بلغتم أعمالهم (١) » .

ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد المواجه بهذا الخطاب كان بين صلح الحديبية وفتح مكة ، وكانت هذه المشاجرة بينهما فى بنى جَذِيمة الذين بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد بعد الفتح ، فجعلوا يقولون : « صبأنا ، صبأنا » ، فلم يحسنوا أن يقولوا « أسلمنا » ، فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم ، فخالفه عبد الرحمن ابن عوف ، وعبد الله بن عمر ، وغيرهما . فاختصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك (٢) .

والذى فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه قال : « لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ، ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نَصيفه (٣) » .

وروى ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، من حديث ابن وهب : أخبرنا هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء ابن يسار ، عن أبى سعيد الخدرى أنه قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية ، حتى إذا كنا بعُسفان قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « يوشك أن يأتى قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم » . فقلنا: من هم يا رسول الله ؟ أقريش ؟ قال : « لا ، ولكن أهل اليمن ، هم أرق أفئدة ً وألين قلوبا » . فقلنا : هم خير منا يارسول الله ؟ قال : « لو كان لأحدهم جبل من ذهب فأنفقه ، ما أدرك مُدّ أحدكم ولا نَصيفه ، ألا إن هذا فضل ما بيننا وبين الناس ، (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى ، والله بما تعملون خبير) (٤) .

[وهذا (٥) الحديث غريب بهذا السياق ، والذى فى الصحيحين من رواية جماعة ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى سعيد ــ ذكرَ الخوارج ــ : تحقرون صلاتكم مع صلاتهم ، وصيامكم مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية (٦) » . الحديث . ولكن روى ابن جرير هذا الحديث من وجه آخر ، فقال :

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٦٦/٣ .

(٢) انظر صحيح البخارى ، كتاب الأحكام ، باب « إذا قضى الحاكم بجور أو خلاف أهل العلم ، فهو رد » : ٩١/٩-٩٢ .

(٣) البخارى ، كتاب الفضائل : ١٠/٥ . ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب « تحريم سب الصحابة » : ١٨٨/٧ . هذا ومعنى الحديث أن إنفاق مثل أحد ذهبا لايعدل صدقة أحدهم بنصف مد ، والمراد بالمد المذكور فى الصدقة ــ وهو رطل وثلث وهذا لأن نفقتهم كانت فى وقت الحاجة وإقامة الدين ، ونصرة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وحمايته ، وهذا معدوم بعده .

(٤) تفسير الطبرى : ١٢٧/٢٧ .

(٥) من هنا ساقط من مخطوطة الأزهر .

(٦) مسلم ، كتاب الزكاة ، باب « ذكر الخوارج » : ١١٢/٣ .

حدثني ابن البرقي ، حدثنا ابن أبي مريم ، أخبرنا محمد بن جعفر ، أخبرني زيد بن أسلم ، عن أبي سعيد التمار (١) ، عن أبي سعيد الخدري : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم » ، قلنا : من هم يا رسول الله ؟ قريش ؟ قال : « لا ، ولكن أهل اليمن ، لأنهم أرق أفئدة ، وألين قلوبا » ، وأشار بيده إلى اليمن ، فقال : « هم أهل اليمن ، ألا إن الإيمان يمان ، والحكمة يمانية » . فقلنا : يا رسول الله ، هم خير منا ؟ قال : « والذي نفسي بيده ، لو كان لأحدهم جبل من ذهب ينفقه ما أدى مُدّ أحدكم ولا نَصيفه » ، ثم جمع أصابعه ومد خِنْصره ، وقال : « ألا ، إن هذا فضلُ ما بيننا وبين الناس ، (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى ، والله بما تعملون خبير(٢)) » .

فهذا السياق ليس فيه ذكر الحديبية ، فان كان ذلك محفوظا كما تقدم ، فيحتمل أنه أنزل قبل الفتح إخبارا عما بعده ، كما في قوله تعالى في « سورة المزمل » — وهي مكية ، من أوائل ما نزل — : (وآخرون يقاتلون في سبيل الله (٣)) ... الآية ، فهي بشارة بما يستقبل ، وهكذا هذه ، والله أعلم .

وقوله : (وكلا وعد الله الحسنى) ، يعني المنفقين قبل الفتح وبعده ، كلهم لهم ثواب على ما عملوا ، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء ، كما قال : (لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما (٤)) . وهكذا الحديث الذي في الصحيح : « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير (٥) » وإنما نبّه بهذا لئلا يُهدَر جانب الآخر بمدح الأول دون الآخر ، فيتوهم متوهم ذمه ، فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه ، مع تفضيل الأول عليه ، ولهذا قال : (والله بما تعملون خبير) ، أي : فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن فعل ذلك بعد ذلك ، وما ذاك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام ، وإنفاقه في حال الجهد والقلة والضيق . وفي الحديث : « سبق درهم مائة ألف (٦) » . ولا شك عند أهل الإيمان أن الصديق أبا بكر رضي الله عنه له الحظ الأوفر من هذه الآية ، فانه سيّد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء ، فانه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله عز وجل ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها .

---

(١) في تفسير الطبري ١٢٧/٢٧ : « عن أبي سعيد التمار أن رسول الله ... » وفي الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣٧٦/٢/٤ : أن أبا سعيد التمار يروي عن أبي سعيد الخدري ، ويروي عنه زيد بن أسلم .

(٢) إلى هنا ينتهي السقط الذي في مخطوطة الأزهر ، وما أثبت من الطبعات السابقة .

(٣) سورة المزمل ، آية : ٢٠ .

(٤) سورة النساء ، آية : ٩٥ .

(٥) مسلم ، كتاب القدر ، باب « في الأمر بالقوة وترك العجز .. » : ٥٦/٨ . وابن ماجه ، المقدمة ، الحديث ٧٩ : ٣١/١ ، وكتاب الزهد ، باب « التوكل واليقين » ، الحديث ٤١٦٨ : ٢ / ١٣٩٥ . ومسند الامام أحمد عن أبي هريرة : ٣٦٦/٢ ، ٣٧٠ .

(٦) سنن النسائي ، كتاب الزكاة ، باب « جهد المقل » : ٥٩/٥ .

وقد قال أبو محمد الحسين بن مسعود البغوى عند تفسير هذه الآية : أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشرَيحى ، أخبرنا أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى ، أخبرنا عبد الله بن حامد بن محمد ، أخبرنا أحمد بن إسحاق بن أيوب ، أخبرنا محمد بن يونس ، حدثنا العلاء بن عمرو الشيبانى ، حدثنا أبو إسحاق الفزارى ، حدثنا سفيان بن سعيد ، عن آدم ابن على ، عن ابن عمر قال : كنت عند النبى – صلى الله عليه وسلم – وعنده أبو بكر الصديق ، وعليه عباءة قد خلّها فى صدره بخلال (١) ، [فنزل جبريل فقال : مالى أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلّها فى صدره بخلال ؟] ، فقال : « أنفق ماله علىّ قبل الفتح » . قال : فان الله يقول : اقرأ عليه السلام ، وقل له : أراض أنتَ عنّى فى فقرك هذا أمساخط؟ فقال رسول الله : « يا أبا بكر ، إن الله يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : أراض أنت [عنى] فى فقرك هذا أم ساخط ؟ » ؛ فقال أبو بكر رضى الله عنه : أسخط على ربى عز وجل ؟ ! . إنى عن ربى راض .

هذا الحديث ضعيف الإسناد من هذا الوجه .

وقوله : (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا) ، قال عمر بن الخطاب : هو الإنفاق فى سبيل الله . وقيل : هو النفقة على العيال . والصحيح أنه أعم من ذلك ، فكل من أنفق فى سبيل الله بنية خالصة وعزيمة صادقة ، دخل فى عموم هذه الآية ، ولهذا قال : (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له) ، كما قال فى الآية الأخرى : (أضعافا كثيرة ، وله أجر كريم) (٢) ، أى : جزاء جميل ، ورزق باهر – وهو الجنة – يوم القيامة .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا خلف بن خليفة ، عن حميد الأعرج ، عن عبد الله بن الحارث ، عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية : (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له) ، قال أبو الدحداح الأنصارى : يا رسول الله ، وإن الله لبريد منا القرض ؟ قال : « نعم ، يا أبا الدحداح » . قال : أرنى يدك يا رسول الله ؛ قال : فناوله يده ، قال : فانى قد أقرضت ربى حائطى – وله حائط فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه وعيالها – قال : فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح . قالت : لبيك . فقال : اخرجى ، فقد أقرضته ربى عز وجل – وفى رواية أنها قالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح . ونقلت منه متاعها وصبيانها ، وأن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « كم من عذق رداح (٣) فى الجنة لأبى الدحداح » . وفى لفظ : « رب نخلة مدلاة ، عروقها در وياقوت ، لأبى الدحداح فى الجنة » .

---

(١) أى : جمعها على صدره بخلال ، والخلال – بكسر الخاء – : عود يخل به الثوب ، أى : يثقب .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٤٥ .

(٣) العذق – بفتح فسكون – : النخلة – وبكسر فسكون – : العرجون بما فيه من الشماريخ . والرداح – بفتح الراء – العظيمة والثقيلة .

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾

يقول تعالى مخبرا عن المؤمنين المتصدقين : أنهم يوم القيامة يسعَى نورهم بين أيديهم فى عرَصات القيامة ، بحسب أعمالهم ، كما قال عبد الله بن مسعود فى قوله : (يسعى نورهم بين أيديهم) ، قال : على قدر أعمالهم يمرون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم مَن نوره مثل النخلة ، ومنهم مَن نوره مثل الرجل القائم ، وأدناهم نوراً مَن نوره فى إبهامه يتّقد مرة ويطفأ مرة . ورواه ابن أبى حاتم ، وابن جرير (١) .

وقال قتادة : ذكر لنا أن نبى الله — صلى الله عليه وسلم — كان يقول : « من المؤمنين من يضىء نُوره من المدينة إلى عَدَن أبين وصنعاء فدون ذلك ، حتى إن من المؤمنين من يضىء نوره موضع قدميه (١) » .

وقال سفيان الثورى ، عن حُصَين ، عن مجاهد عن جُنَادة بن أبى أمية قال : إنكم مكتوبون عند الله بأسمائكم وسيماكم وحُلاَكم ، ونجواكم ومجالسكم ، فاذا كان يوم القيامة قيل : يا فلان ، هذا نورك . يا فلان ، لا نور لك . وقرأ : (يسعى نورهم بين أيديهم) .

وقال الضحاك : ليس أحد إلا يعطى نورا يوم القيامة ، فاذا انتهوا إلى الصراط طُفِئ نور المنافقين ، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا أن يطفأ نورهم كما طفئ نور المنافقين ، فقالوا : ربنا ، أتمم لنا نورنا .

وقال الحسن : (يسعى نورهم بين أيديهم) ، يعنى على الصراط .

وقد قال ابن أبى حاتم رحمه الله : حدثنا أبو عبيد الله ابن أخى ابن وهب ، أخبرنا عمى ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن سعد (٢) بن مسعود : أنه سمع عبد الرحمن بن جُبَير يحدث : أنه سَمعَ أبا الدرداء وأبا ذر يخبران عن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : « أنا أول من يؤذن له يوم القيامة بالسجود ، وأول من يؤذن له برفع رأسه ، فأنظر من

---

(١) تفسير الطبرى : ١٢٨/٢٧ .

(٢) فى المخطوطة : « سعيد بن مسعود » . والمثبت من الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢ / ١ / ٩٤ ، ٢ / ٢ / ٢٢١ .

بين يدى ومن خلفى ، وعن يمينى وعن شمالى ، فأعرف أمتى من بين الأمم » . فقال له رجل : يا نبى الله ، كيف تعرف أمتك من بين الأمم ، ما بين نوح إلى أمتك ؟ قال : أعرفهم ، مُحَجَّلون من أثر الوضوء ، ولا يكون لأحد من الأمم غيرهم ، وأعرفهم يُؤتَون كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم بسيماهم فى وجوههم ، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم وذريتهم .

وقوله : (وبأيمانهم) ، قال الضحاك : أى وبأيمانهم كتبهم . كما قال : (فمن أوتى كتابه بيمينه) .

وقوله : (بشراكم اليوم جنات [تجرى من تحتها الأنهار) ، أى : يقال لهم : بشراكم اليوم جنات] ، أى : لكم البشارة بجنات تجرى من تحتها الأنهار ، (خالدين فيها) ، أى : ماكثين فيها أبدا ، (ذلك هو الفوز العظيم) .

وقوله : (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : انظرونا نقتبس من نوركم) ، وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة فى العَرَصات من الأهوال المزعجة ، والزلازل العظيمة ، والأمور الفظيعة ، وإنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله ، وعمل بما أمر الله ، وترك ما عنه زجر .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبدة بن سليمان ، حدثنا ابن المبارك ، حدثنا صفوان بن عمرو ، حدثنى سليم ابن عامر قال : خرجنا على جنازة فى باب دمشق ، ومعنا أبو أمامة الباهلى ، فلما صلى على الجنازة وأخذوا فى دفنها ، قال أبو أمامة : أيها الناس ، إنكم قد أصبحتم وأمسيتم فى منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات ، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر ، وهو هذا ـ يشير إلى القبر ـ بيت الوحدة ، وبيت الظلمة [وبيت الدود] ، وبيت الضيق ، إلا ما وسع الله ، ثم تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة ، فانكم فى بعض تلك المواطن حتى(١) يغشى الناس أمر من الله ، فتبيض وجوه وتسود وجوه ، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فتغشى الناس ظلمة شديدة ، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نورا ، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئا ، وهو المثل الذى ضربه الله فى كتابه ، قال : (أو كظلمات فى بحر لجى). إلى قوله : (فما له من نور) ، فلا يستضىء الكافر والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضىء الأعمى بنور البصير ، ويقول المنافقون للذين آمنوا : (انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) ، وهى خدعة الله التى خدع بها المنافقين حيث قال : (يخادعون الله وهو خادعهم) . فيرجعون إلى المكان الذى قسم فيه النور ، فلا يجدون شيئا فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب ، (باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب) ... الآية . يقول سليم بن عامر : فما يزال المنافق مغترا حتى يقسم النور ، ويميز الله بين المؤمن والمنافق .

ثم قال : حدثنا أبى ، حدثنا يحيى بن عثمان ، حدثنا ابن حيوة ، حدثنا أرطاة بن المنذر ، حدثنا يوسف بن الحجاج عن أبى أمامة قال : تُبعَثُ ظلمة يوم القيامة ، فما من مؤمن ولا كافر يرى كفه ، حتى يبعثَ الله بالنور إلى المؤمنين بقدر أعمالهم ، فيتبعهم المنافقون فيقولون : (انظرونا نقتبس من نوركم) .

---

(١) فى المخطوطة : « يوم يغشى » . والمثبت عن الطبعات السابقة .

وقال العوفي ، والضحاك ، وغيرهما ، عن ابن عباس : بينما الناس في ظلمة إذ بعث الله نورا ، فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه ، وكان النور دليلا من الله إلى الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم ، فأظلم الله على المنافقين ، فقالوا حينئذ : (انظرونا نقتبس من نوركم) ، فانا كنا معكم فى الدنيا . قال المؤمنون : (ارجعوا) من حيث جئتم من الظلمة ، فالتمسوا هنالك النور(١) .

وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا الحسن(٢) بن علوية القطان ، حدثنا إسماعيل بن عيسى العطار ، حدثنا إسحاق ابن بشر بن حذيفة ، حدثنا ابن جريج ، عن ابن أبي مليكة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: « إن الله يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم سترا منه على عباده . وأما عند الصراط فان الله يعطى كل مؤمن نورا ، وكل منافق نورا ، فاذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات ، فقال المنافقون : (انظرونا نقتبس من نوركم) ، وقال المؤمنون : (ربنا أتمم لنا نورنا) . فلا يذكر عند ذلك أحد أحدا » .

وقوله : (فضُربَ بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب) – قال الحسن ، وقتادة : هو حائط بين الجنة والنار .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو الذى قال الله تعالى : (وبينهما حجاب) . وهكذا رُوى عن مجاهد – رحمه الله – وغير واحد ، وهو الصحيح .

(باطنه فيه الرحمة) ، أى : الجنة وما فيها ، (وظاهره من قبله العذاب) ، أى : النار . قاله قتادة ، وابن زيد ، وغيرهما .

قال ابن جرير : وقد قيل : إن ذلك السورَ سورُ بيت المقدس عند وادى جهنم (٣) . ثم قال :

حدثنا ابن البرقى ، حدثنا عمرو بن أبي سلمة ، عن سعيد بن عطية بن قيس ، عن أبي العوام – مؤذن بيت المقدس – قال : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : إن السور الذى ذكَر الله فى القرآن : (فضرب بينهم بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) ، هو السور الشرقى باطنه المسجد وما يليه ، وظاهره وادى جهنم (٤) .

ثم روى عن عبادة بن الصامت ، وكعب الأحبار ، وعلى بن الحسين زين العابدين (٥) ، نحوَ ذلك . وهذا محمول منهم على أنهم أرادوا بهذا تقريب المعنى ومثالاً لذلك ، لا أن هذا هو الذى أريد من القرآن هذا الجدار المعين ونفس

(١) تفسير الطبرى : ١٢٩/٢٧ .
(٢) فى المخطوطة : « الحسين » . والمثبت عن المعجم الصغير : ١٢٧/١ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٢٩/٢٧ .
(٤) تفسير الطبرى : ١٣٠/٢٧ .
(٥) كذا ، والذى فى تفسير الطبرى ١٢٩/٢٧ : « على بن عبد الله بن عباس ، عن أبيه » .

المسجد وما وراءه من الوادى المعروف بوادى جهنم ؛ فان الجنة فى السموات فى أعلى عليين ، والنار فى الدركات أسفل سافلين . وقول كعب الأحبار : إن الباب المذكور فى القرآن هو باب الرحمة الذى هو أحد أبواب المسجد ، فهذا من إسرائيلياته وتُرّهاته : وإنما المراد بذلك سورٌ يُضرَب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين ، فاذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه ، فاذا استكملوا دُخولهم أغلق الباب وبقى المنافقون من ورائه فى الحيرة والظلمة والعذاب ، كما كانوا فى الدار الدنيا فى كفر وجهل وشك وحيرة ، (ينادونهم : ألم نكن معكم) ، أى : ينادى المنافقون المؤمنين : أما كنا معكم فى الدار الدنيا ، نشهد معكم الجمعات ، ونصلى معكم الجماعات ، ونقف معكم بعرفات ، ونحضر معكم الغزوات ، ونؤدى معكم سائر الواجبات ؟ (قالوا : بلى) ، أى : فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين : بلى ، قد كنتم معنا ، (ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى) ، قال بعض السلف : أى فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصى والشهوات ، (وتربصتم) ، أى : أخرتم التوبة من وقت إلى وقت .

وقال قتادة : (تربصتم) بالحق وأهله . (وارتبتم) ، أى : بالبعث بعد الموت ، (وغرتكم الأمانى) ، أى : قلتم : سيغفر لنا : وقيل : غرتكم الدنيا . (حتى جاء أمر الله) ، أى : مازلتم فى هذا حتى جاء الموت ، (وغركم بالله الغرور) ، أى : الشيطان :

قال قتادة : كانوا على خدعة من الشيطان ، والله مازالوا عليها حتى قذفهم الله فى النار .

ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين : أنكم كنتم معنا بأبدان لانية لها ولا قلوب معها ، وإنما كنتم فى حيرة وشك، فكنتم تُراءون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلا :

قال مجاهد : كان المنافقون مع المؤمنين أحياء يناكحونهم ويغشونهم ويعاشرونهم ، وكانوا معهم أمواتا ، ويعطون النور جميعا يوم القيامة ، ويطفأ النور من المنافقين إذا بلغوا السور ، ويُماز بينهم حينئذ .

وهذا القول من المؤمنين لا ينافى قولهم الذى أخبر الله به عنهم ، حيث يقول وهو أصدق القائلين : (كل نفس بما كسبت رهينة : إلا أصحاب اليمين : فى جنات يتساءلون . عن المجرمين . ماسلككم فى سقر . قالوا : لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين : وكنا نخوض مع الخائضين . وكنا نكذب بيوم الدين . حتى أتانا اليقين) (١) ، فهذا إنما خرج منهم على وجه التقريع لهم والتوبيخ ؛ ثم قال تعالى : (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) ، كما قال تعالى هاهنا : (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا) ، أى : لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدى به من عذاب الله ، ما قبل منه .

---

(١) سورة المدثر ، الآيات : ٣٨ – ٤٧ .

وقوله : (مأواكم النار) ، أى : هى مصيركم وإليها منقلبكم .

وقوله : (هى مولاكم) ، أى : هى أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم ، وبئس المصير .

* أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى : أما آنَ للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله ، أى : تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن ، فتفهَمه وتنقادَ له وتسمع له وتطيعه .

قال عبد الله بن المبارك : حدثنا صالح المُرِّى ، عن قتادة ، عن ابن عباس أنه قال : إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن ، فقال : (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) ... الآية ، رواه ابن أبى حاتم ، عن الحسن بن محمد بن الصباح ، عن حسين المروزى ، عن ابن المبارك ، به .

ثم قال هو ومسلم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، [أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث ، عن سعيد ابن أبى هلال – يعنى الليثى – عن عون بن عبد الله] ، عن أبيه ، عن ابن مسعود – رضى الله عنه – قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية : (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) إلا أربع سنين (١) .

كذا رواه مسلم فى آخر الكتاب . وأخرجه النسائى عند تفسير هذه الآية عن هارون بن سعيد الأيلى ، عن ابن وهب ، به . وقد رواه ابن ماجه من حديث موسى بن يعقوب الزّمعى ، عن أبى حازم ، عن عامر بن عبد الله بن الزبير ، عن أبيه ، مثله . فجعله من مسند ابن الزبير (٢) . لكن رواه البزار فى مسنده من طريق موسى بن يعقوب ، عن أبى حازم ، عن عامر ، عن ابن الزبير ، عن ابن مسعود ، فذكره .

وقال سفيان الثورى ، عن المسعودى ، عن القاسم قال : ملّ أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ملة ، فقالوا : حدّثنا يا رسول الله .

فأنزل الله تعالى: (نحن نقص عليك أحسن القصص) . قال : ثم ملّوا ملّة فقالوا : حدّثنا يا رسول الله . فأنزل الله تعالى : (الله نزل أحسن الحديث) . ثم ملوا ملّة فقالوا : حدّثنا يا رسول الله . فأنزل الله : (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) (٣) .

---

(١) مسلم ، كتاب التفسير ، باب فى قوله تعالى : (ألم يأن . . .) : ٢٤٣/٨ .
(٢) سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « الحزن والبكاء » ، الحديث ٤١٩٢ : ١٤٠٢/٢ .
(٣) تقدم الأثر بنحوه عند تفسير الآية الثالثة من سورة يوسف عن المسعودى ، عن عون بن عبد الله . انظر : ٢٩٥/٤ .

وقال قتادة : (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) : ذُكِرَ لنا أن شدّاد بن أوس كان يروى عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « إن أول ما يرفع من الناس الخشوع (١) » .

وقوله : (ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل ، فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم) : نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حُمّلوا الكتاب قبلهم من اليهود والنصارى ، لما تطاول عليهم الأمد بدّلوا كتاب الله الذى بأيديهم ، واشتروا به ثمنا قليلا ، ونبذوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة والأقوال المؤتفكة ، وقلدوا الرجال فى دين الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، فعند ذلك قست قلوبهم ، فلا يقبلون موعظة ، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد .

(وكثير منهم فاسقون) ، أى : فى الأعمال ، فقلوبهم فاسدة ، وأعمالهم باطلة . كما قال : (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية ، يحرفون الكلم عن مواضعه ، ونسوا حظا مما ذكروا (٢) به) ، أى : فسدت قلوبهم فقست وصار من سجيتهم تحريف الكلم عن مواضعه ، وتركوا الأعمال التى أمروا بها ، وارتكبوا مانهوا عنه ، ولهذا نهى الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم فى شىء من الأمور الأصلية والفرعية .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام [بن عمار] ، حدثنا شهاب بن خراش ، حدثنا حجاج بن دينار ، عن منصور بن المعتمر ، عن الربيع بن عَميلة الفزارى قال : حدثنا عبد الله بن مسعود حديثاً ما سمعت أعجب إلىّ منه ، إلا شيئا من كتاب الله ــ أو : شيئا قاله النبى صلى الله عليه وسلم ــ قال : « إن بنى إسرائيل لما طال عليهم الأمد فقست قلوبهم اخترعوا كتابا من عند أنفسهم ، استهوته قلوبهم واستحلته ألسنتهم واستلذته ، وكان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم فقالوا : تعالوا ندع بنى إسرائيل إلى كتابنا هذا ، فمن تابعنا عليه تركناه ، ومن كره أن يتابعنا قتلناه ؛ ففعلوا ذلك ، وكان فيهم رجل فقيه ، فلما رأى ما يصنعون عَمَدَ إلى ما يعرف من كتاب الله فكتبه فى شىء لطيف ، ثم أدرجه ، فجعله فى قرن ثم علق ذلك القرن فى عنقه ، فلما أكثروا القتل قال بعضهم لبعض : يا هؤلاء ، إنكم قد أفشيتم القتل فى بنى إسرائيل ، فادعوا فلانا فاعرضوا عليه كتابكم ، فانه إن تابعكم فسيتابعكم بقية الناس ، وإن أبى فاقتلوه . فدعَوا فلاناً ذلك الفقيهَ فقالوا : تؤمن بما فى كتابنا ؟ قال : وما فيه ؟ اعرضوه علىّ . فعرضوه عليه إلى آخره ، ثم قالوا : أتؤمن بهذا ؟ قال : نعم ، آمنت بما فى هذا ــ [وأشار بيده إلى القرن ــ فتركوه ، فلما مات] نبشوه فوجدوه مُتَعلّقاً ذلك القرن ، ، فوجدوا فيه ما يعرف من كتاب الله ، فقال بعضهم لبعض : يا هؤلاء ، ما كنا نسمع هذا أصابه فتنة . فافترقت بنو إسرائيل على ثنتين وسبعين ملة ، وخير مللهم ملة أصحاب ذى القرن » .

قال ابن مسعود : أوشك بكم إن بقيتم ــ أو : بقى من بقى منكم ــ أن تروا أموراً تنكرونها ، لا تستطيعون لها غيَّراً (٣) لبحسب المرء منكم أن يعلم الله من قلبه أنه لها كاره .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٧/١٣١ .

(٢) سورة المائدة ، آية : ١٣ .

(٣) أى : تغيرا .

وقال أبو جعفر الطبرى : حدثنا ابن حُميد ، حدثنا جرير ، عن مغيرة ، عن أبى معشر ، عن إبراهيم قال : جاء عتريس بن عرقوب إلى ابن مسعود فقال : يا عبد الله، هلك من لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر . فقال عبد الله : هلك من لم يعرف قلبُه معروفاً ولم ينكر قلبه منكرا؛ إن بنى إسرائيل لما طال عليهم الأمد وقست قلوبهم ، اخترعوا كتابا من بين أيديهم وأرجلهم ، استهوته قلوبهم واستحلته ألسنتهم، وقالوا : نعرض بنى إسرائيل على هذا الكتاب فمن آمن به تركناه ، ومن كفر به قتلناه . قال : فجعل رجل منهم كتابَ الله فى قَرْن، ثم جعل القرن بين ثَنْدُوتَيه (١) فلما قيل له : أتؤمن بهذا ؟ قال : آمنت به — ويومىء إلى القرن بين تندوتيه — ومالى لا أومن بهذا الكتاب ؟ فمن خير مللهم اليوم ملَّةَ صاحب القَرْن (٢) .

وقوله : (اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها ، قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون) : فيه إشارة إلى أنه — تعالى — يلين القلوب بعد قسوتها ، ويهدى الحيَارى بعد ضَلّتها ، ويفرج الكروب بعد شدّتها ، فكما يحيى الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتّان ، كذلك يهدى القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل ، ويولج إليها النور بعد ما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل ، فسبحان الهادى لمن يشاء بعد الإضلال ، والمضل لمن أراد بعد الكمال ، الذى هو لما يشاء فعال ، وهو الحَكَم العدل فى جميع الفعال ، اللطيف الخبير الكبير المتعال .

إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عما يثيب به المُصَّدِّقين والمُصَّدِّقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة ، (وأقرضوا الله قرضا حسنا) ، أى : دفعوه بنيّة خالصة ابتغاء وجه الله ، لا يريدون جزاء ممن أعطوه ولا شكورا . ولهذا قال : (يضاعف لهم) أى : يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها ، ويزاد على ذلك إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك، (ولهم أجر كريم) ، أى : ثواب جزيل حسن ، ومرجع صالح ومآب (كريم) .

وقوله : (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون) : هذا تمام الجملة ، وصف المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون .

قال العوفى ، عن ابن عباس قوله : (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون) : هذه مفصولة ، (والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم) (٣) .

---

(١) الثندوتان للرجل كالثديين للمرأة .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٧ / ١٣٢ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٣٣/٢٧ .

وقال أبو الضحى : (أولئك هم الصديقون) ، ثم استأنف الكلام فقال : (والشهداء عند ربهم) – وهكذا قال مسروق ، والضحاك ، ومقاتل بن حيان ، وغيرهم .

وقال الأعمش عن أبي الضّحَى ، عن مسروق ، عن عبد الله في قوله : (أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم) ، قال : هم ثلاثة أصناف : يعني المصدّقين ، والصدّيقين ، والشهداء . كما قال تعالى : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين)(١) ، ففرّق بين الصديقين والشهداء ، فدل على أنهما صنفان . ولا شك أن الصدّيق أعلى مقاما من الشهيد ، كما رواه الإمام مالك بن أنس – رحمه الله – في كتابه الموطأ ، عن صفوان بن سليم ، عن عطاء بن يَسَار ، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم – قال : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم ، كما تتراءون الكوكب الدّرى الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل ما بينهم » . قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : « بلى ، والذى نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » .

اتفق البخاري ومسلم على إخراجه من حديث مالك ، به (٢) .

وقال آخرون : بل المراد من قوله : (أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم) فأخبر عن المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون وشهداء . حكاه ابن جرير عن مجاهد ، ثم قال ابن جرير :

حدثني صالح بن حرب أبو معمر ، حدثنا إسماعيل بن يحيى ، حدثنا ابن عجلان ، عن زيد بن أسلم ، عن البراء ابن عازب قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : « مؤمنو أمّتى شهداء » . قال : ثم تلا النبي – صلى الله عليه وسلم – هذه الآية : (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم)(٣) . هذا حديث غريب .

وقال أبو إسحاق ، عن عَمْرو بن ميمون في قوله : (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم) ، قال : يجيئون يوم القيامة معا كالإصبعين .

وقوله : (والشهداء عند ربهم) ، أي : في جنات النعيم ، كما جاء في الصحيحين (٤) : « إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع عليهم ربك اطّلاعة فقال : ماذا تريدون ؟ فقالوا : نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتلَ فيك فنقتل كما قُتِلنا أول مرة . فقال : إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون » .

---

(١) سورة النساء ، آية : ٦٩ .

(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية العشرين من سورة الزمر ، وخرجناه هنالك ، انظر : ٨٢/٧ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٣٣/٢٧ .

(٤) كذا ، ولم يقع لنا إلا في صحيح مسلم . وقد تقدمت سياقة الحديث عند تفسير الآية ١٦٩ من سورة آل عمران ، وأخرجه هناك ابن كثير من أبي الحسين مسلم بن الحجاج ، انظر : ١٤٠/٢ .

وقوله : (لهم أجرهم ونورهم) ، أى : لهم عند ربهم أجر جزيل ونور عظيم يسعى بين أيديهم ، وهم فى ذلك يتفاوتون بحسب ما كانوا فى الدار الدنيا من الأعمال ، كما قال الإمام أحمد

حدثنا يحيى بن إسحاق ، حدثنا ابن لهيعة ، عن عطاء بن دينار ، عن أبى يزيد الخولانى قال : سمعت فضالة ابن عبيد يقول : سمعت عمر بن الخطاب يقول : سمعت النبى – صلى الله عليه وسلم – يقول : « الشهداء أربعة ، رجل مؤمن جيد الإيمان ، لقى العدو فصدق الله فقتل ، فذلك الذى ينظر الناس إليه هكذا – ورفع رأسه حتى سقطت قلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو قلنسوة عمر – » والثانى مؤمن لقى العدو فكأنما يضرب ظهره بشوك الطلح(١) ، جاءه سهم غرب (٢) فقتله ، فذاك فى الدرجة الثانية . والثالث رجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا لقى العدو فصدق الله حتى قتل ، فذاك فى الدرجة الثالثة . والرابع رجل مؤمن أسرف على نفسه إسرافا كثيرا ، لقى العدو فصدق الله حتى قتل ، فذاك فى الدرجة الرابعة (٣) » .

وهكذا رواه على بن المدينى ، عن أبى داود الطيالسى ، عن ابن المبارك ، عن ابن لهيعة ، وقال : هذا إسناد مصرى صالح . ورواه الترمذى من حديث ابن لهيعة وقال : حسن غريب(٤) .

وقوله : (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) : لما ذكر السعداء ومآلهم ، عطف بذكر الأشقياء وبين حالهم .

ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾

يقول تعالى موهنا أمر الحياة الدنيا ومحقرا لها : (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر فى الأموال والأولاد) ، أى : إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا ، كما قال : (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب (٥)) .

---

(١) الطلح : شجر عظيم من شجر العضاه . وهذا كناية عن ارتعاد فرائصه من الفزع والخوف .
(٢) أى لا يعرف راميه .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٢٣/١ .
(٤) تحفة الأحوذى ، أبواب فضائل الجهاد ، باب « ما جاء فى فضل الشهداء عند الله » ، الحديث ١٦٩٥ : ٢٧٤/٥ – ٢٧٦ .
(٥) سورة آل عمران ، آية : ١٤ .

ثم ضرب تعالى مثل الحياة الدنيا فى أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال : (كمثل غيث) ، وهو : المطر الذى يأتى بعد قنوط الناس ، كما قال : (وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا) (١) .

وقوله : (أعجب الكفار نباته) ، أى : يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذى نبت بالغيث ، وكما يعجب الزراع ذلك كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار ، فانهم أحرص شىء عليها وأميل الناس إليها ، (ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما) ، أى : يهيج ذلك الزرع فتراه مصفرا بعد ما كان خضرا نضرا ، ثم يكون بعد ذلك كله [حطاما] ، أى : يصير يبساً متحطما ، هكذا الحياة الدنيا تكون أولا شابة ، ثم تكتهل ، ثم تكون عجوزا شوهاء ، والإنسان كذلك يكون فى أول عمره وعنفوان شبابه غضاً طريا لين الأعطاف ، بهى المنظر ، ثم إنه يشرع فى الكهولة فتتغير طباعه وينفد بعض قواه ، ثم يكبر فيصير شيخا كبيرا ضعيف القوى قليل الحركة ، يعجزه الشىء اليسير ، كما قال تعالى : (الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ، يخلق ما يشاء ، وهو العليم القدير) (٢) . ولما كان هذا المثل دالا على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة ، وأن الآخرة كائنة لا محالة ، حذر من أمرها ورغب فيا فيها من الخير ، فقال : (وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) ، أى : وليس فى الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا وإما هذا : إما عذاب شديد، وإما مغفرة من الله ورضوان .

وقوله: (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) ، أى : هى متاع فان غار لمن ركن إليه ، فانه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولا معاد وراءها ، وهى حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة .

قال ابن جرير : حدثنا على بن حرب الموصلى ، حدثنا المحاربى ، حدثنا محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها (٣) . اقرءوا : (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) .

وهذا الحديث ثابت فى الصحيح (٤) بدون هذه الزيادة ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ووكيع ، كلاهما عن الأعمش ، عن شقيق ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « للجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك (٥) » .

انفرد باخراجه البخارى فى « الرقاق » ، من حديث الثورى ، عن الأعمش ، به (٦) .

---

(١) سورة الشورى ، آية : ٢٨ .
(٢) سورة الروم ، آية : ٥٤ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٧/١٣٤ .
(٤) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « مثل الدنيا والآخرة » : ٨/١١٠ . وهذه الزيادة ، وهى من قوله : « اقرءوا ... » غير ثابتة فى تفسير الطبرى .
(٥) مسند الإمام أحمد : ١/٣٨٧ ، ٤٤٢ .
(٦) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله » : ٨/١٢٧ .

ففى هذا الحديث دليل على اقتراب الخير والشر من الإنسان ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلهذا حثه الله على المبادرة إلى الخيرات ، من فعل الطاعات ، وترك المحرمات ، التى تكفر عنه الذنوب والزلات ، وتحصل له الثواب والدرجات ، فقال تعالى : (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض) : والمراد جنس السماء والأرض ، كما قال فى الآية الأخرى : (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين) (١) ، وقال هاهنا : (أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم) ، أى : هذا الذى أهّلهم الله له هو من فضله ومنه عليهم وإحسانه إليهم ، كما قدّمنا فى الصحيح أن فقراء المهاجرين قالوا : يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم . قال : « وما ذاك ؟ » . قالوا : يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويُعتقون ولا نُعْتِق . قال : « أفلا أدلكم على شىء إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم : تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين » ، قال : فرجعوا فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا ، ففعلوا مثله ! فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء (٢) » :

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

يخبر تعالى عن قَدَره السابق فى خلقه قبل أن يبرأ البرية ، فقال : (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم) ، أى : فى الآفاق وفى نفوسكم ، (إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها) ، أى : من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة .

وقال بعضهم : (من قبل أن نبرأها) ، عائد على النفوس . وقيل : عائد على المصيبة . والأحسن عوده على الخليقة والبرية ، لدلالة الكلام عليها كما قال ابن جرير :

حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن علية ، عن منصور بن عبد الرحمن قال : كنت جالساً مع الحسن فقال رجل : سله عن قوله : (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها) فسألته عنها ، فقال : سبحان الله ! ومن يشك فى هذا ؟ كل مصيبة بين السماء والأرض ففى كتاب الله من قبل أن يبرأ النسمة(٣) .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ١٣٣ .

(٢) البخارى ، كتاب الأذان ، باب « الذكر بعد الصلاة » : ١٠/٢١٣ — ٢١٤ . وكتاب الدعوات ، باب الدعاء بعد الصلاة » ٨٩/٨ . ومسلم ، كتاب المساجد ، باب « استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته » : ٢/٩٧ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٧/١٣٥ .

وقال قتادة : ما أصاب من مصيبة فى الأرض . قال : هى السنون . يعنى : الجَدْب ، (ولا فى أنفسكم) ، يقول : الأوجاع والأمراض . قال : وبلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود ولا نَكْبَة قَدَم ، ولا خلجان عرق إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر .

وهذه الآية الكريمة من أدل دليل على القَدَرية نُفاة العلم السابق — قبحهم الله — وقال الإمام أحمد :

حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حيوة وابن لهيعة قالا : حدثنا أبو هانىء الخولانى : أنه سمع أبا عبد الرحمن الحُبُلى يقول : سمعت عبد الله بن عَمرو بن العاص يقول : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم يقول — : « قَدَّر الله المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة (١) » .

ورواه مسلم فى صحيحه ، من حديث عبد الله بن وَهب وَحيوة بن شُرَيح ونافع بن يزيد ، ثلاثتهم عن أبى هانىء ، به . وزاد ابن وهب : « وكان عرشه على الماء (٢) » . ورواه الترمذى وقال : « حسن صحيح (٣) » .

وقوله : (إن ذلك على الله يسير) ، أى : إن علمه تعالى الأشياء قبل كونها وكتابته لها طبق ما يوجد فى حينها ، سهل على الله — عز وجل — لأنه يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

وقوله : (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) ، أى : أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها ، وتقديرنا الكائنات قبل وجودها ، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم ، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم ، فلا تأسوا على ما فاتكم ، فانه لو قدر شىء لكان ، (ولا تفرحوا بما أتاكم) ، أى : جاءكم (٤)، ويقرأ (آتاكم) أى أعطاكم . وكلاهما متلازم ، أى : لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم ، فان ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم ، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم ، فلا تتخذوا نعم الله أشرا وبطرا ، تفخرون بها على الناس ، ولهذا قال : (والله لا يحب كل مختال فخور) ، أى : مختال فى نفسه متكبر فخور ، أى : على غيره .

وقال عكرمة : ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ، ولكن اجعلوا الفَرَح شكرا والحزن صبرا

ثم قال : (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) ، أى : يفعلون المنكر ويحضّون الناس عليه ، (ومن يتول) ، أى : عن أمر الله وطاعته ، (فان الله هو الغنى الحميد) ، كما قال موسى عليه السلام : (إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فان الله لغنى حميد (٥)) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١٦٩/٢ .
(٢) مسلم ، كتاب القدر ، باب « حجاج آدم وموسى عليه السلام » : ٥١/٨ .
(٣) تحفة الأحوذى ، أبواب القدر ، الحديث ٢٢٤٥ : ٣٧٠/٦ .
(٤) قال الطبرى فى تفسيره ١٣٥/٢٧ : « ومعنى قوله : (بما آتاكم) إذا مددت الألف منها : بالذى أعطاكم منها ربكم وملككم وخولكم . وإذا قصرت الألف فمعناها : بالذى جاءكم منها » .
(٥) سورة إبراهيم ، آية : ٨ .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾

يقول تعالى : (لقد أرسلنا رُسُلنا بالبينات) ، أى : بالمعجزات ، والحجج الباهرات ، والدلائل القاطعات، (وأنزلنا معهم الكتاب) ، وهو : النقل المصدق (والميزان) ، وهو : العدل . قاله مجاهد ، وقتادة ، وغيرهما . وهو الحق الذى تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة ، كما قال : (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه (١)) ، وقال : (فطرة الله التى فطر الناس عليها (٢)) ، وقال : (والسماء رفعها ووضع الميزان (٣)) ؛ ولهذا قال فى هذه الآية : (ليقوم الناس بالقسط) ، أى : بالحق والعدل وهو : اتباع الرسل فيما أخبروا به ، وطاعتهم فيما أمروا به ، فان الذى جاءوا به هو الحق الذى ليس وراءه حق ، كما قال : (وتمت كلماتُ ربك صدقا وعدلا (٤)) أى : صدقا فى الإخبار ، وعدلا فى الأوامر والنواهى . ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوءوا غرف الجنات ، والمنازل العاليات ، والسرر المصفوفات : (الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق(٥)) .

وقوله : (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) ، أى : وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه ، ولهذا أقام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية ، وكلها جدال مع المشركين ، وبيان وإيضاح للتوحيد ، وتبيان ودلائل ، ، فلما قامت الحجة على من خالف (٦) ، شرع الله الهجرة ، وأمرهم بالقتال بالسيوف ، وضرب الرقاب والهام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده .

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود ، من حديث عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان ، عن حسان بن عطية ، عن أبى المنيب الجرشى الشامى ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم (٧) » .

ولهذا قال تعالى : (فيه بأس شديد) ، يعنى : السلاح كالسيوف ، والحراب(٨) ، والسنان، والنصال، والدروع ، ونحوها . (ومنافع للناس) ، أى : فى معايشهم كالسكة والفأس والقدوم ، والمنشار ، والإزميل ، والمجرفة ، والآلات التى يستعان بها فى الحراثة والحياكة والطبخ والخبز وما لا قوام للناس بدونه ، وغير ذلك .

(١) سورة هود ، آية : ١٧ .
(٢) سورة الروم ، آية : ٣٠ .
(٣) سورة الرحمن ، آية : ٧ .
(٤) سورة الأنعام ، آية : ١١٥ . وفى المخطوطة : « كلمات » . وهى قراءة ثابتة ، انظر البحر المحيط : ٤/٢٠٩ .
(٥) سورة الأعراف ، آية : ٤٣ .
(٦) فى المخطوطة : « على من تخلف منهم » . والمثبت عن الطبعات السابقة .
(٧) مسند الإمام أحمد : ٢/٥٠ ، ٩٢ . وانظر سنن أبى داود ، كتاب اللباس ، باب « ما جاء فى الأقبية » . والبخارى ، كتاب الجهاد ، باب ما قيل فى الرماح : ٤/٤٩ .
(٨) فى المخطوطة : « والجمانه » ، مكان « والحراب » . والمثبت عن الطبعات السابقة .

قال علباء بن أحمد، عن عكرمة، عن ابن عباس قال : ثلاثة أشياء نزلت مع آدم : السندان والكلبتان والميقعة : يعني المطرقة : رواه ابن جرير(١) ، وابن أبي حاتم .

وقوله : (وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب) ، أي : من نيته في حمل السلاح نصرة الله ورسله ، (إن الله قوى عزيز) ، أي : هو قوى عزيز ، ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس ، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾

يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً — عليه السلام — لم يرسل بعده رسولا ولا نبياً إلا من ذريته ، وكذلك إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن ، لم ينزل من السماء كتاباً ولا أرسل رسولا ولا أوحى إلى بشر من بعده ، إلا وهو من سلالته ، كما قال في الآية الأخرى : (وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب) ، حتى كان آخر أنبياء بني إسرائيل عيسى ابن مريم الذي بشر بعده بمحمد — صلوات الله وسلامه عليهما — ولهذا قال تعالى : (ثم قفينا على آثارهم برسلنا ، وقفينا بعيسى ابن مريم ، وآتيناه الإنجيل) ، وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه ، (وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه) ، وهم الحواريون (رأفة ورحمة) ، أي : رأفة وهي الخشية (ورحمة) بالخلق .

وقوله : (ورهبانية ابتدعوها) ، أي ابتدعها أمة النصارى ، (ما كتبناها عليهم) ، أي : ما شرعناها لهم ، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم .

وقوله : (إلا ابتغاء رضوان الله) ، فيه قولان ، أحدهما : أنهم قصدوا بذلك رضوان الله ، قاله سعيد بن جبير ، وقتادة(٢) . والآخر : ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله .

وقوله : (فما رعوها حق رعايتها) ، أي : فما قاموا بما التزموه حق القيام . وهذا ذم لهم من وجهين ، أحدهما : في الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله . والثاني : في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا إسحاق بن أبي حمزة أبو يعقوب الرازي(٣) ، حدثنا السندي بن عبدويه(٤) ، حدثنا بكير بن معروف ، عن مقاتل بن حيان ، عن القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود ، عن أبيه ، عن جده

(١) تفسير الطبري : ٢٧/١٣٧ .
(٢) تفسير الطبري : ٢٧/١٣٨ .
(٣) لم تقع لنا ترجمة إسحاق هذا في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم .
(٤) في المخطوطة : « السرى بن عبد ربه » . والمثبت عن الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٢/١/٣١٨ .

ابن مسعود قال : قال لى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « يا ابن مسعود » : قلت : لبيك يارسول الله . قال : « هل علمت أن بنى إسرائيل افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة ؟ لم ينج منها إلا ثلاث فرق ، قامت بين الملوك والجبابرة بعد عيسى ابن مريم عليه السلام ، فدعت إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم ، فقاتلت الجبابرة فقُتلت فصبرت ونجت ، ثم قامت طائفة أخرى لم يكن لها قوة بالقتال ، فقامت بين الملوك والجبابرة ، فدعوا إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم ، فقتلت وقطعت بالمناشير وحرقت بالنيران ، فصبرت ونجت . ثم قامت طائفة أخرى لم يكن لها قوة بالقتال ولم تطق القيام بالقسط ، فلحقت بالجبال فتعبدت وترهبت ، وهم الذين ذكر الله عز وجل : (ورهبانية ابتدعوها ، ما كتبناها عليهم) » .

وقد رواه ابن جرير بلفظ آخر من طريق أخرى فقال : حدثنا يحيى بن أبى طالب ، حدثنا داود بن المحبر ، حدثنا الصَّعِق بن حزن ، حدثنا عقيل الجعدى ، عن أبى إسحاق الهمدانى ، عن سويد بن غفلة ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « اختلف من كان قبلنا على ثلاث وسبعين فرقة ، نجا منهم ثلاث وهلك سائرهم ... » وذكر نحو ما تقدم ، وفيه : (فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم) : هم الذين آمنوا بى وصدقونى ، (وكثير منهم فاسقون) ، وهم الذين كذبونى وخالفونى (١) » .

ولا يقدح فى هذه المتابعة لحال داود بن المحبر ، فانه أحد الوضاعين للحديث ، لكن قد أسنده أبو يعلى ، وسنده عن شيبان بن فروخ ، عن الصعق بن حَزْن ، به مثل ذلك . فقوى الحديث من هذا الوجه .

وقال ابن جرير ، وأبو عبد الرحمن النسائى — [واللفظ له] — : أخبرنا الحسين بن حُرَيث ، حدثنا الفضل بن موسى عن سفيان بن سعيد ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : كان ملوك بعد عيسى — عليه السلام — بدلت التوراة والإنجيل ، فكان منهم مؤمنون يقرأون التوراة والإنجيل ، فقيل لملوكهم : ما نجد شيئاً أشد من شتم يشتمونا (٢) هؤلاء ، إنهم يقرأون : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ، هذه (٣) الآيات ، مع ما يعيبوننا به من أعمالنا فى قراءتهم ، فادعهم فليقرأوا كما نقرأ ، وليؤمنوا كما آمنا . فدعاهم فجمعهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل ، إلا ما بدلوا منها ، فقالوا : ما تريدون إلى ذلك ؟ دعونا : فقالت طائفة منهم : ابنوا لنا أسطوانة (٤) ، ثم ارفعونا إليها ، ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا فلا نرد عليكم . وقالت طائفة : دعونا نسيح فى الأرض ونهيم ونشرب كما يشرب الوحش ، فان قدرتم علينا فى أرضكم فاقتلونا . وقالت طائفة : ابنوا لنا دورا فى الفيافى ، ونحتفر الآبار ونحترث البقول فلا نرد عليكم ولا نمر بكم . وليس أحد من القبائل إلا له حميم فيهم (٥) ، ففعلوا

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٧/١٣٨ — ١٣٩ .

(٢) كذا فى المخطوطة والنسائى . ويقول السندى : « جملة (يشتمونا) صفة (شتم) ، بتقدير العائد ، ويكون الضمير العائد مفعولا مطلقاً . ثم الكلام من قبيل : أكلونى البراغيث » .

(٣) فى تفسير الطبرى والنسائى : « هؤلاء الآيات » . ويقول السندى : « وهؤلاء الآيات : مبتدأ خبره محذوف ، أى : من أشد الشتم » .

(٤) أى : منارة مرتفعة .

(٥) أى : فلذلك قبلوا منهم هذا الكلام وتركوهم من القتل .

ذلك ، فأنزل الله عز وجل : (ورهبانية ابتدعوها ، ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ، فما رعوها حق رعايتها) ؛ والآخرون(١) قالوا : نتعبد كما تعبد فلان ، ونسيح كما ساح فلان ، ونتخذ دورا كما اتخذ فلان ، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم ، فلما بُعث النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولم يبق منهم إلا القليل ، انحط منهم رجل من صومعته ، وجاء سائح من سياحته ، وصاحب الدير من ديره ، فآمنوا به وصدقوه ، فقال الله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا ، اتقوا الله وآمنو برسوله يؤتكم كفلين من رحمته) ، أجرين بإيمانهم بعيسى ابن مريم [وتصديقهم](٢) بالتوراة والانجيل ، وبإيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وتصديقهم ، قال : (ويجعل لكم نورا تمشون به) : القرآن ، واتباعهم النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال (لئلا يعلم أهل الكتاب) الذين يتشبهون بكم (أن لا يقدرون على شيء من فضل الله ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم)(٣) .

هذا السياق فيه غرابة وسيأتي تفسير هاتين [الآيتين] الأخُريَين على غير هذا ، والله أعلم .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي : حدثنا أحمد بن عيسى ، حدثنا عبد الله بن وهب ، حدثني سعيد بن عبد الرحمن ابن أبي العَمياء : أن سهل بن أبي أمامة حدثه أنه دخل هو وأبوه على أنس بن مالك بالمدينة زمان عمر بن عبد العزيز وهو أمير ، وهو يصلي صلاة خفيفة (٤) ، كأنها صلاة مسافر أو قريباً منها ، فلما سلم قال : يرحمك الله ، أرأيت هذه الصلاة المكتوبة ، أم شيء تنفلته ؟ قال : إنها المكتوبة ، وإنها صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أخطأت إلا شيئاً سهوت عنه ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : «لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم ، فان قوماً شددوا على أنفسهم فشدّد عليهم ، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات ، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم (٥) » . ثم غدوا من الغد فقالوا نركب فننظر ونعتبر . قال : نعم ، فركبو جميعاً ، فاذا هم بديار قفر قد باد أهلها وانقرضوا وفنوا ، خاوية على عروشها ، فقالوا : تعرف هذه الديار ؟ قال : ماأعرفني بها وبأهلها . هؤلاء أهل(٦) الديار ، أهلكهم البغي والحسد ، إن الحسد يطفيء نور الحسنات ، والبغي يصدق ذلك أو يكذبه ، والعين تزني والكف والقدم والجسد واللسان ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه .

وقال الإمام أحمد حدثنا يعمُر ، حدثنا عبد الله ، أخبرنا سفيان ، عن زيد العَمّي ، عن أبي إياس ، عن أنس بن مالك أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال « لكل نبي رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله عز وجل(٧) » .

ورواه الحافظ أبو يعلى عن عبد الله بن محمد بن أسماء ، عن عبد الله بن المبارك به ولفظه : « لكل أمة رهبانية ، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله » .

---

(١) أي : الذين بقوا عند الملك .

(٢) ما بين القوسين عن تفسير الطبري ، وهو غير ثابت في النسائي . وفي المخطوطة : « ونصب أنفسهم » .

(٣) النسائي ، كتاب آداب القضاة ، باب تأويل قول الله عز وجل : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) : ٢٣١/٨ ــ ٢٣٣ . وتفسير الطبري : ١٣٨/٢٧ .

(٤) في المخطوطة والطبعات السابقة : « خفيفة وقعة » ، ولا ندري ما المراد بهذه الكلمة « وقعة » .

(٥) هذا القدر من قوله : « لا تشددوا » إلى هنا ، أخرجه أبو داود في كتاب الأدب ، باب « في الحسد » . من حديث أحمد بن صالح ، عن عبد الله بن وهب .

(٦) في المخطوطة : « هؤلاء على الديار » . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٢٦٦/٣ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا حسين — هو ابن محمد — حدثنا ابن عياش[١] — يعني إسماعيل — عن الحجاج [ابن مروان الكلاعي ، وعقيل بن مدرك السلمي][٢] عن أبي سعيد الخدري — رضي الله عنه — أن رجلا جاءه فقال : أوصني . فقال : سألت عما سألت عنه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من قبلك ؛ أوصيك بتقوى الله فانه رأس كل شيء ، وعليك بالجهاد فانه رهبانية الإسلام ، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن فانه روحك في السماء وذكرك في الأرض[٣] ، تفرد به أحمد .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

قد تقدم في رواية النسائي عن ابن عباس : أنه حملَ هذه الآية على مؤمني أهل الكتاب ، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين كما في الآية التي في القصص[٤] ، وكما في حديث الشعبي عن أبي بُرْدَة ، عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مَوَاليه فله أجران ، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران » . أخرجاه في الصحيحين[٥] .

ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاك ، وعتبة بن أبي حكيم ، وغيرهما ، وهو اختيار ابن جرير :

وقال سعيد بن جبير : لما افتخر أهلُ الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله هذه الآية في حق هذه الأمة : (يا أيها الذين آمنوا ، اتقوا الله وآمنوا برسوله ، يؤتكم كفلين من رحمته) ، أي : ضعفين ، وزادهم : (ويجعل لكم نوراً تمشون به) ، يعني هدى يُتَبصَّر به من العمى والجهالة ، ويغفر لكم . ففضلهم بالنور والمغفرة . ورواه ابن جرير عنه[٦] .

---

(١) في المخطوطة : « حدثنا عياش » . والمثبت عن المسند .
(٢) ما بين القوسين عن المسند .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٨٢/٣ .
(٤) سورة القصص ، آية : ٥٤ .
(٥) تقدم الحديث عند تفسير آية القصص ، وخرجناه هنالك ، انظر : ٦/٢٥٤ .
(٦) تفسير الطبري : ٢٧/١٤٠ – ١٤١ .

وهذه الآية كقوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا ، إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ، ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم ، والله ذو الفضل العظيم (١)) .

وقال سعيد بن عبد العزيز : سأل عمر بن الخطاب حَبْرا من أحبار يهود : [كم] أفضل ما ضعفت لكم حسنة ؟ قال كفل ثلاثمائة وخمسون حسنة . قال . فحمد الله عمر على أنه أعطانا كفلين . ذكر سعيد قول الله عز وجل : (يؤتكم كفلين من رحمته) ــ قال سعيد : والكفلان في الجمعة مثل ذلك . رواه ابن جرير (٢) .

ومما يؤيد هذا القول ما رواه الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا أيوب ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالا ، فقال : من يعمل لي من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ ألا فعملت اليهود . ثم قال : من يعمل لي من نصف النهار إلى [صلاة] العصر على قيراط قيراط ؟ ألا فعملت النصارى . ثم قال : من يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ ألا فأنتم الذين عملتم . فغضبت النصارى واليهود ، وقالوا : نحن أكثر عملا وأقل عطاء . قال : هل ظلمتكم من أجركم (٣) شيئاً ؟ قالوا : لا . قال : فانما هو فضلي أوتيه من أشاء (٤) » .

قال أحمد : وحدثناه مؤمل ، عن سفيان عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر ، نحو حديث نافع ، عنه (٥) .

انفرد باخراجه البخاري فرواه عن سليمان بن حرب ، عن حماد ، [عن أيوب] (٦) عن نافع ، به . وعن قتيبة ، عن الليث ، عن نافع ، بمثله (٧) .

وقال البخاري : حدثني محمد بن العلاء ، حدثنا أبو أسامة ، عن بريد ، عن أبي بردة ، عن أبي موسى ، عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملا يوما إلى الليل على أجر معلوم ، فعملوا إلى نصف النهار فقالوا : لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا ، وما عملنا باطل . فقال لهم : لا تفعلوا ، أكملوا بقية عملكم وخذوا أجركم كاملا ، فأبوا وتركوا ، واستأجر آخرين بعدهم فقال : أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم من الأجر . فعملوا حتى إذا كان حين صلوا العصر قالوا : ما عملنا باطل ، ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه . فقال : أكملوا بقية عملكم ؛ فان ما بقي من النهار شيء يسير . فأبوا ، فأستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم ،

---

(١) سورة الأنفال ، آية : ٢٩ .

(٢) تفسير الطبري : ١٤١/٢٧ . وما بين القوسين منه .

(٣) في المسند : « من حقكم » . وفي المسند ٢/ ١١١ مثل ما هنا .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٢/ ٦ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ١١١/٢ .

(٦) ما بين القوسين عن البخاري : ١١٧/٣ .

(٧) البخاري ، كتاب الإجارة ، باب « الإجارة إلى نصف النهار » : ١١٧/٣ . وكتاب الأنبياء ، باب « ما ذكر عن بني إسرائيل » : ٢٠٧/٤ .

فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس ، واستكملوا أجر الفريقين [كليهما] فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور » انفرد به البخاري (١) .

ولهذا قال تعالى : (لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله) ، أي ليتحققوا أنهم لا يقدرون على ردّ ما أعطاه الله ، ولا إعطاء ما منع الله ، (وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم) .

قال ابن جرير : (لئلا يعلم) ، أي : ليعلم (٢) . وقد ذكر عن ابن مسعود أنه قرأها (لكي يعلم) . وكذا حطّان (٣) ابن عبد الله ، وسعيد بن جبير ، قال ابن جرير : لأن العرب تجعل « لا » صلة في كل كلام دخل في أوله أو آخره جحد غير مصرح ، فالسابق كقوله : (ما منعك ألا تسجد) ، (وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون) ، (وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون) .

[آخر تفسير سورة الحديد]

---

(١) البخاري ، كتاب الإجارة ، باب « الإجارة من العصر إلى الليل » : ٣/١١٨ – ١١٩ .

(٢) تفسير الطبري : ٢٧/١٤٣ .

(٣) في المخطوطة : « حطا ابن عبد الله » . وفي تفسير الطبري : « خطاب بن عبد الله » . ولم نجدهما ، والصواب « حطان » ، بالحاء والنون . وهو حطان بن عبد الله الرقاشي ، يروي عن علي وأبي موسى ، ويروي عنه أبو هارون الغنوي . والأثر الذي في الطبري ٢٧/١٤٣ يرويه عنه أبو هارون هذا . انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ١/٢/٣٠٣ .

تفسير سورة المجادلة

وهي مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (1)

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن تميم بن سلمة ، عن عروة ، عن عائشة قالت : الحمد لله الذى وَسع سمعه الأصوات ، ، لقد جاءت المجادلةُ إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — تكلمه وأنا فى ناحية البيت ، ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله عز وجل : (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) ... إلى آخر الآية (١).

وهكذا رواه البخارى فى كتاب التوحيد تعليقاً فقال ؟ وقال الأعمش ، عن تميم بن سلمة ، عن عروة ، عن عائشة . ، فذكره (٢) . وأخرجه النسائى ، وابن ماجه ، وابن أبى حاتم ، وابن جرير ، من غير وجه ، عن الأعمش به (٣) .

وفى رواية لابن أبى حاتم عن الأعمش ، عن تميم بن سلمة ، عن عروة ، عن عائشة أنها قالت : تبارك الذى أوعى سمعه كل شىء ، إنى لأسمع كلام خوله بنت ثعلبة ، ويخفى على بعضه ، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم — وهى تقول : يارسول الله أكل شبابى ، ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبرت سنى ، وانقطع ولدى ، ظاهر منى اللهم ، إنى أشكو إليك . قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) ، وقال : وزوجها أوس بن الصامت (٤) .

وقال ابن لهيعة ، عن أبى الأسود ، عن عروة ، : [هو](٥) أوس بن الصامت — وكان أوس [امرءا] به لمم ، فكان إذا أخذه لمه واشتد به يظاهر من امرأته ، وإذا ذهب لم يقل شيئاً . فأتت رسول الله تستفتيه فى ذلك وتشتكى إلى الله... ، فأنزل الله : (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله) ... الآية .

وهكذا روى هشام بن عروة ، عن أبيه : أن رجلا كان به لمم ، فذكر مثله .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا موسى بن إسماعيل أبو سلمة حدثنا جرير — يعنى ابن حازم — قال سمعت أبا يزيد يحدث قال : لقيت امرأة عُمَرَ — يقال لها :خولة : بنت ثعلبة — وهو يسير مع الناس ، فاستوقفته فوقف لها

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٦/٤٦ .

(٢) البخارى، كتاب التوحيد : ٩/١٤٤ .

(٣) سنن ابن ماجه ، المقدمة ، باب «فيما أنكرت الجهمية » ، الحديث ١٨٨ : ١/٦٧ . وتفسير الطبرى : ٢٨/٥ – ٦ .

(٤) وكذا رواه الطبرى من هذه الطريق : ٢٨/٥ – ٦ .

(٥) فى المخطوطة : « عن أوس » . ولعل الصواب ما أثبتناه .

ودنا منها وأصغى إليها رأسه ، ووضع يديه على منكبيها حتى قضت حاجتها وانصرفت . فقال له رجل : ياأمير المؤمنين حبست رجالات قريش على هذه العجوز ؟ ! قال : ويحك ! وتدرى من هذه ؟ قال: لا. قال : هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات ، هذه خوله بنت ثعلبة ، والله لو لم تنصرف عنى إلى الليل ما انصرفت حتى تقضى حاجتها إلا أن تحضر صلاة فأصليها ، ثم أرجع إليها حتى تقضى حاجتها .

هذا منقطع بين أبي يزيد وعمر بن الخطاب . وقد روى من غير هذا الوجه .

وقال ابن أبي حاتم أيضاً : حدثنا المنذر بن شاذان ، حدثنا يعلى ، حدثنا زكريا عن عامر قال : المرأة التي جادلت فى زوجها خوله بنت الصامت ، وأمها معاذة التي أنزل الله فيها : (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا) .

صوابه : خولة امرأة أوس بن الصامت .

ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا سعد بن إبراهيم ويعقوب قالا : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثني معمر بن عبد الله بن حنظلة ، عن ابن عبد الله بن سلام ، عن خويلة بنت ثعلبة قالت : فيّ — والله — وفى أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة « المجادلة » ، قالت : كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه ، قالت : فدخل على يوماً فراجعته بشيء فغضب فقال : أنت علىّ كظهر أمى . قالت ، ثم خرج فجلس فى نادى قومه ساعة ، ثم دخل علىّ فاذا هو يريدنى عن نفسى ، قالت: قلت: كلا ، والذى نفس خويلة بيده لا تخلص إلىّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه . قالت : فواثبنى وامتنعت منه ، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فألقيته عنى ، قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتى ، فاستعرت منها ثياباً ، ثم خرجت حتى جئت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فجلست بين يديه ، فذكرت له ما لقيت منه ، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه . قالت : فجعل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « ياخويلة ، ابن عمك شيخ كبير ، فاتقى الله فيه » . قالت : فوالله ما برحت حتى نزل فى القرآن ، فتغشى رسول الله — صلى الله عليه وسلم ما كان يتغشاه ، ثم سُرّى عنه ، فقال لى : « ياخويلة ، قد أنزل الله فيك وفى صاحبك . ثم قرأ علىّ : (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ، وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير) إلى قوله (وللكافرين عذاب أليم) » قالت : فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مُرْيه فليعتق رقبة » . قالت : فقلت يارسول الله ما عنده ما يعتق « قال : « فليصم شهرين متتابعين » . قالت : فقلت : والله إنه شيخ كبير ، ما به من صيام . قال : « فليطعم ستين مسكيناً »

وَسْقاً(١) من تَمر» : قالت : فقلت : يارسول الله ، ما ذاك عنده . قالت: فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « فإنا سنعينه بعَرَق (٢) من تمر ». قالت: فقلت : يارسول الله ، وأنا سأعينه بعَرَق آخر ، قال: « فقد أصبت وأحسَنْت ، فاذهبي فتصدقي به عنه ، ثم استوصى بابن عمك خيراً » . قالت : ففعلت (٣) . .

ورواه أبو داود فى كتاب الطلاق (٤) من سننه من طريقين ، عن محمد بن إسحاق بن يسار ، به . وعنده : خولة بنت ثعلبة ، ويقال فيها خوله بنت مالك بن ثعلبة . وقد تصغر فيقال : خُوَيلة ولا منافاة بين هذه الأقوال ، فالأمر فيها قريب ، والله أعلم .

هذا هو الصحيح فى سبب نزول صدر هذه السورة ، فأما حديث سَلَمة بن صَخْر فليس فيه أنه كان سببَ النزول ، ولكن أمر بما أنزل الله فى هذه السورة ، من العتق أو الصيام أو الإطعام ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا محمد بن أسحاق ، عن محمد بن عمرو بن عطاء ، عن سُلَيمان بن يَسَار ، عن سلمة ابن صخر الأنصارى قال : كنتُ امرأ قد أوتيت من جِماع النساء ما لم يؤت غيرى ، فلما دخل رمضان تظهَّرت من امرأتى حتى ينسلخ رمضان ، فَرَقاً من أن أصيب فى ليلتى شيئاً فأتابع فى ذلك إلى أن يدركنى النهار ، وأنا لا أقدر أن أنزع فبينا هى تخدمنى من الليل إذ تكشف لى منها شىء ، فوثبت عليها ، فلما أصبحتُ غدوتُ على قومى فأخبرتهم خبرى وقلت : انطلقوا معى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره بأمرى . فقالوا : لا ، والله لا نفعل ، نتخوف أن ينزل فينا ــ أو يقول فينا رسولُ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مقالة يبقى علينا عارها ، ولكن اذهب أنت فاصنع ما بدا لك . قال : فخرجتُ حتى أتيتُ النبى صلى الله عليه وسلم ــ فأخبرته خبرى . فقال لى : « أنت بذاك » . فقلت : أنا بذاك ، فقال « أنت بذاك » . فقلت : أنا بذاك » . قال : « أنت بذاك » قلت : نعم ، ها أناذا فامض فىّ حكم الله تعالى فانى صابر له . قال : « أعتق رقبة » قال : فضربت صفحة رقبتى بيدى وقلت : لا ، والذى بعثك بالحق ما أصبحت أملك غيرها ، قال : « فصم شهرين » قلت : يارسول الله ، وهل أصابنى ما أصابنى إلا فى الصيام ؟ قال : « فتصدق » . فقلت : والذى بعثك بالحق لقد بتنا ليلتنا هذه وَحْشَى(٥) مالنا عشاء. قال : «اذهب إلى صاحب صدقة بنى زُرَيق فقل له فليدفعها إليك ، فأطعم عنك منها وسقا من تمر ستين مسكيناً ، ثم استعن بسائره عليك وعلى عيالك » . قال : فرجعت إلى قومى فقلت : وجدت عندكم الضيقَ وسوءَ الرأى ، ووجدت عندَ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ السَّعَة والبركة ، قد أمر لى بصدقتكم ، فادفعوها إلىّ : فدفعوها إلىّ (٦) .

---

(١) الوسق : ستون صاعاً .

(٢) العرق : زنبيل منسوج من نسائج الخوص ، وكل شىء مضفور فهو عرق وعرقة ، بفتح الراء فيهما .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٦/٤١٠ — ٤١١ . وانظره فى أسد الغابة : ٧/٩١ — ٩٢ ، بتحقيقنا .

(٤) سنن أبى داود ، كتاب الطلاق ، باب « فى الظهار » .

(٥) فى المسند : « وحشاء » ، بالمد . ووقع فى رواية الترمذى مثل ما هنا . ويقول ابن الأثير فى النهاية : (لقد بتنا وحشين وما لنا من طعام) ، يقال : رجل وحش ، بالسكون من قوم أوحاش ، إذا كان جائعا لا طعام له . وقد أوحش إذا جاع . وجاء فى رواية الترمذى : « لقد بتنا ليلتنا هذه وحشى » ، كأنه أراد جماعة وحشى .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٤/٣٧ .

وهكذا رواه أبو داود ، وابن ماجه ، واختصره الترمذي وحسّنه (١) .

وظاهر السياق أن هذه القصة كانت بعد قصة أوس بن الصامت وزوجته خُوَيلة بنت ثعلبه ، كما دلّ عليه سياق تلك وهذه بعد التأمل .

قال خصيف ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : أول من ظاهر من امرأته أوس بن الصامت ، أخو عبادة بن الصامت ، وامرأته خولة بنت ثعلبة بن مالك ، فلما ظاهر منها خَشِيت(٢) أن يكون ذلك طلاقاً ، فأتت رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم فقالت : « يارسولَ الله ، إن أوساً ظاهر مني ، وإنا إن افترقنا هلكنا ، وقد نثرت بطني منه وقدمت صحبته . وهي تشكو ذلك وتبكي ، ولم يكن جاء في ذلك شيء . فأنزل الله : (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله) إلى قوله (وللكافرين عذاب أليم) فدعاه رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : « أتقدر على رقبة تعتقها » ؟ قال : لا والله يارسول الله ما أقدر عليها ؟ قال : فجمع له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى أعتق عنه ، ثم راجع أهله رواه ابن جرير (٣) .

ولهذا ذهَب ابنُ عباس والأكثرون إلى ما قلناه ، والله أعلم .

فقوله تعالى : (الذين يظاهرون منكم من نسائهم) : أصل الظهار مشتق من الظهر ، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا تظاهر أحد من امرأته قال لها : أنت علي كظهر أمي . ثم في الشرع كان الظهار في سائر الأعضاء قياسا على الظهر ، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً ، فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيه كفارة ، ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم ، هكذا قال غير واحد من السلف .

قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن أبي حمزة ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية : أنت علي كظهر أمي ، حرمت عليه ، فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس ، وكانت تحته ابنة عم له يقال لها « خويلة (٤) بنت ثعلبة » فظاهر منها ، فأسقط في يديه ، وقال : ما أراك إلا قد حَرُمت علي . وقالت له مثل ذلك ، قال : فانطلقي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأتت رسول الله فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه ، فقال : « ياخويلة ، ما أمرنا في أمرك بشيء . فانزل الله على رسوله — صلى الله عليه وسلم — فقال : « ياخويلة أبشري » قالت : خيراً . فقرأ عليها : (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله ، والله يسمع تحاوركما) . . . إلى قوله : (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا) . قالت : وأي رقبة

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الطلاق ، باب « في الظهار » ، وابن ماجه ، كتاب الطلاق ، باب الظهار ، الحديث ٢٠٦٢ : ١/٦٦٥ — ٦٦٦ . وتحفة الأحوذي ، تفسير سورة المجادلة ، الحديث ٣٣٥٣ : ٩/١٨٨ — ١٩١ .
(٢) في تفسير الطبري : « حسبت » .
(٣) تفسير الطبري : ٢٨/٦ .
(٤) في تفسير الطبري : « خولة » ، وفي مخطوطة الأزهر : « خويلة بنت خويلد » .

لنا ؟ والله ما نجد رقبة غيرى . قال : (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين) ، قالت : والله لولا أنه يشرب فى اليوم ثلاث مرات للذهب بصره ! قال : (فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا) . قالت : من أين ؟ ما هى إلا أكلة إلى مثلها ! قال : فدعا بشطر وسْق ــ ثلاثين صاعا ، والوسق : ستون صاعا ــ فقال : ليطعم ستين مسكينا وليراجعك (١) وهذا إسناد جيد قوى ، وسياق غريب ، وقد روى عن أبى العالية نحو هذا ، فقال ابن أبى حاتم ،

حدثنا محمد بن عبد الرحمن [الهروى] حدثنا على بن عاصم عن داود بن أبى هند ، عن أبى العالية قال : كانت خولة بنت دُلَيج تحت رجل من الأنصار ، وكان ضرير البصر فقيراً سيىء الخلق ، وكان طلاق أهل الجاهلية إذا أراد الرجل أن يطلق امرأته ، قال : « أنت على كظهر أمى » . وكان لها منه عَيِّل أو عَيِّلان ، فنازعته يوماً فى شىء فقال : أنت على كظهر أمى» . فاحتملت عليها ثيابها حتى دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو فى بيت عائشة ، وعائشة تغسل شق رأسه ، فقدمت عليه ومعها عَيِّلها ، فقالت يارسول الله ، إن زوجى ضرير البصر ، فقير لا شىء له سيىء الخلق ، وإنى نازعته فى شىء فغضب ، فقال : « أنت على كظهر أمى » ، ولم يرد به الطلاق ، ولى منه عَيِّل أو عَيِّلان ، فقال : « ما أعلمك إلا قد حَرُمت عليه » . فقالت : أشكو إلى الله ما نزل بى وأباصبيتى . قال : ودارت عائشة فغسلت شق رأسه الآخر ، فدارت معها ، فقالت : يارسول الله ، زوجى ضرير البصر ، فقير سيىء الخلق ، وإن لى منه عَيِّلا أو عيلين، وإنى نازعته فى شىء فغضب وقال :«أنت على كظهر أمى »، ولم يرد به الطلاق ! قالت : فرفع إلى رأسه وقال : « ما أعلمك إلا قد حرمت عليه » . فقالت : أشكو إلى الله ما نزل بى وأباصبيتى ؟ قال : ورأت عائشة وجه النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ تغير ، فقالت لها : وراءك وراءك ؟ فتنحت ، فمكث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى غشيانه ذلك ما شاء الله ، فلما انقطع الوحى قال : ياعائشة ، أين المرأة ؟ فدعتها ، فقال لها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : «اذهبى فأتينى بزوجك » . فانطلقت تسعى فجاءت به ، فاذا هو ــ ضرير البصر ، فقير سيىء الخلق . فقال النبى صلى الله عليه وسلم ــ : « استعيذ بالله السميع العليم ، (بسم الله الرحمن الرحيم * قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) إلى قوله : (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا) . قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أتجد رقبة تعتقها من قبل أن تمسها ؟ » : قال :لا.قال « أتستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ » قال : والذى بعثك بالحق ، إنى إذا لم آكل المرتين والثلاث يكاد أن يعشو بصرى . وقال : « أفتستطيع أن تطعم ستين مسكيناً ؟ » . قال :ـلا ، إلا تعيننى . قال : فأعانه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أطعم ستين مسكيناً » . قال : وحوّل الله الطلاق ، فجعله ظهارا .

ورواه ابن جرير ، عن ابن المثنى ، عن عبد الأعلى ، عن داود ، سمعت أبا العالية ، فذكره نحوه ، بأخصر من هذا السياق(٢) .

وقال سعيد بن جبير : كان الإيلاء والظهار من طلاق الجاهلية ، فوقت الله الإيلاء أربعة أشهر ، وجعل فى الظهار الكفارة. رواه ابن أبى حاتم ، بنحوه .

---

(١) تفسير الطبرى : ٣/٢٨ – ٤ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢/٢٨ – ٣ .

وقد استدل الإمام مالك على أن الكافر لا يدخل فى هذه الآية بقوله : (منكم) ، فالخطاب للمؤمنين ، وأجاب الجمهور بأن هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له ، واستدل الجمهور عليه بقوله : (من نسائهم) ، على أن الأمة لاظهار منها ، ولا تدخل فى هذا الخطاب .

وقوله : (ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم) أى : لا تصير المرأة بقول الرجل « أنت على كأمى » أو « مثل امى » أو « كظهر أمى » ، وما أشبه ذلك ، لا تصير أمه بذلك ، إنما أمه التى ولدته . ولهذا قال : (وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا) ، أى : كلاما فاحشاً باطلا ، (وإن الله لعفو غفور) ، أى : عما كان منكم فى حال الجاهلية ، وهكذا أيضاً عما خرج من سبق اللسان ، ولم يقصد إليه المتكلم ، كما رواه أبو داود : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقول لامرأته : ياأختى . فقال : « أختك هى ؟ » ، فهذا إنكار ، ولكن لم يحرمها عليه بمجرد ذلك ، لأنه لم يقصده ، ولو قصده لحرمت عليه ، لأنه لا فرق على الصحيح بين الأم وبين غيرها من سائر المحارم من أخت وعمة وخالة وما أشبه ذلك .

وقوله : (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا) ، اختلف السلف والأئمة فى المراد بقوله : (ثم يعودون لما قالوا) فقال بعض الناس : العود هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرره ، وهذا القول باطل وهو اختيار ابن حزم (١) . وقول داود ، وحكاه أبو عمر بن عبد البر عن بكير بن الأشج والفراء ، وفرقة من أهل الكلام .

وقال الشافعى : هو أن يمسكها بعد الظهار زمانا يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق .

وقال أحمد بن حنبل : هو أن يعود إلى الجماع ، أو يعزم عليه ، فلا يحل له حتى يكفر بهذه الكفارة ،

وقد حكى عن مالك : أنه العزم على الجماع والإمساك ، وعنه أنه الجماع .

وقال أبو حنيفة : هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه ، ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية ، فمتى تظاهر الرجل من امرأته فقد حرمها تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة . وإليه ذهب أصحابه ، والليث بن سعد .

وقال ابن لهيعة ؛ حدثنى عطاء ، عن سعيد بن جبير : (ثم يعودون لما قالوا) ، يعنى : يريدون أن يعودو فى الجماع الذى حرموه على أنفسهم .

وقال الحسن البصرى : يعنى الغشيان فى الفرج . وكان لا يرى بأسا أن يغشى فيما دون الفرج قبل أن يكفر .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (من قبل أن يتماسا) ، والمس : النكاح . وكذا قال عطاء ، والزهرى ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان .

---

(١) فى المخطوطة : « ابن جرير » . والأقرب ما فى الطبعات السابقة ، أنظر تفسير الطبرى : ٢٨/٧ .

وقال الزهرى : ليس له أن يقبلها ولا يمسها حتى يكفر .

وقد رَوَى أهل السنن من حديث عكرمة ، عن ابن عباس أن رجلا قال : يارسول الله ، إنى ظاهرت من أمرأتى فوقعت عليها قبل أن أكفر . فقال « ما حملك على هذا يرحمك الله ؟ » . قال : رأيت خلخالها فى ضوء القمر . قال : « فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله عز وجل » .

وقال الترمذى : « حسن غريب صحيح . ورواه أبو داود والنسائى من حديث عكرمة مرسلا . قال النسائى : وهو أولى بالصواب(١) .

وقوله : (فتحرير رقبة) ، أى فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتماسا ، فهاهنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان ، وفى كفارة القتل مقيدة بالإيمان ، فحمل الشافعى رحمه الله ما أطلق هاهنا على ما قيد هناك لاتحاد الموجب ، وهو عتق الرقبة ، واعتضد فى ذلك بما رواه عن مالك بسنده ، عن معاوية بن الحكم السلمى ، فى قصة الجارية السوداء ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أعتقها فإنها مؤمنة » . وقد رواه أحمد فى مسنده ، ومسلم فى صحيحه (٢) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا يوسف بن موسى ، حدثنا عبد الله بن نمير ، عن إسماعيل بن مسلم ، عن عمرو ابن دينار ، عن طاوس ، عن ابن عباس قال : أتى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ رجل فقال : إنى تظاهرت من امرأتى ثم وقعت عليها قبل أن أكفر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألم يقل الله من قبل أن يتماسا » . قال : أعجبتنى ؟ قال : « أمسك حتى تكفر » .

ثم قال البزار : لا يروى عن ابن عباس [بأحسن من] (٣) هذا وإسماعيل بن مسلم تكلم فيه ، وروى عنه جماعة كثيرة من أهل العلم . وفيه من الفقه أنه لم يأمره إلا بكفارة واحدة .

وقوله : (ذلكم توعظون به) أى : تزجرون به ، (والله بما تعملون خبير) ، أى : خبير بما يصلحكم ، عليم بأحوالكم .

وقوله : (فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا) . وقد تقدمت الأحاديث الواردة بهذا على الترتيب ، كما ثبت فى الصحيحين فى قصة الذى جامع امرأته فى رمضان .

(ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله) ، أى : شرعنا هذا لهذا .

وقوله : (وتلك حدود الله) ، أى : محارمه فلا تنتهكوها .

---

(١) تحفة الأحوذى ، أبواب الطلاق ، باب « ما جاء فى المظاهر يواقع قبل أن يكفر » ، الحديث ١٢١٣ : ٣٨٠/٤ . وسنن أبى داود ، كتاب الطلاق ، باب « فى الظهار » . وسنن النسائى ، كتاب الطلاق ، باب الظهار : ١٦٧/٦ ١٦٨ .
(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية الثانية والتسعين من سورة النساء ، وخرجناه هنالك ، انظر : ٣٣٠/٢ .
(٣) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، ومكانه فى المخطوطة : « فأخبرنى » .

وقوله (وللكافرين عذاب أليم) ، أى : الذين لم يؤمنوا ولا التزموا بأحكام هذه الشريعة ، لا تعتقدوا أنهم ناجون من البلاء ، كلا ، ليس الأمر كما زعموا ، بل لهم عذاب أليم ، أى فى الدنيا والآخرة .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

يخبر تعالى عمن شاقوا الله ورسوله وعاندوا شرعه ، (كبتوا كما كبت الذين من قبلهم) ، أى : أهينوا ولعنوا وأخزوا ، كما فعل بمن أشبههم ممن قبلهم ، (وقد أنزلنا آيات بينات) ، أى : واضحات لا يخالفها ويعاندها إلا كافر فاجر مكابر ، وللكافرين عذاب مهين) أى : فى مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع الله ، والانقياد له ، والخضوع لديه .

ثم قال : (يوم يبعثهم الله جميعاً) ، وذلك يوم القيامة ، يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، (فينبئهم بما عملوا) ، أى : يخبرهم بالذى صنعوا من خير وشر ، (أحصاه الله ونسوه) ، أى : ضبطه الله وحفظه عليهم ، وهم [قد] نسوا ما كانوا عملوا ، (والله على كل شىء شهيد) ، أى : لا يغيب عنه شىء ، ولا يخفى ولا ينسى شيئاً .

ثم قال تعالى مخبرا عن إحاطة علمه بخلقه واطلاعه عليهم ، وسماعه كلامهم ، ورؤيته مكانهم حيث كانوا وأين كانوا ، فقال : (ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة) ، أى : من سر ثلاثة (إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) ، أى : يطلع عليهم ويسمع كلامهم وسرهم ونجواهم ، ورسله أيضاً مع ذلك تكتب ما يتناجون به ، مع علم الله به وسمعه لهم ، كما قال : (ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب (١)) . وقال : (أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ؟ بلى ورسلنا لديهم يكتبون (٢)) . ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علم الله تعالى ، ولا شك فى إرادة ذلك ولكن سمعه أيضا مع علمه [محيط] بهم ، وبصره نافذ فيهم ، فهو سبحانه مطلع على خلقه ، لا يغيب عنه من أمورهم شىء .

ثم قال (ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شىء عليم) ، قال الإمام أحمد : افتتح الآية بالعلم ، واختتمها بالعلم .

---

(١) سورة التوبة ، آية : ٧٨ .
(٢) سورة الزخرف ، آية : ٨٠ .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

قال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد: (ألم تر إلى الذين نُهوا عن النجوى) قال : اليهود (١) . وكذا قال مقاتل بن حيان ، وزاد : «كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين اليهود موادعة ، وكانوا إذا مر بهم رجل من أصحاب النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ جلسوا يتناجون بينهم ، حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله ــ أو : بما يكره المؤمن ــ فاذا رأى المؤمن ذلك ــ خشيهم ، فترك طريقه عليهم . فنهاهم النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن النجوى ، فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى ، فأنزل الله : (ألم تر إلى الذين نُهوا عن النجوى ثم يعودون لما نُهوا عنه) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي ، حدثني سفيان بن حمزة ، عن كثير بن زيد ، عن رُبَيح بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري ، عن أبيه ، عن جده قال : كنا نتناوب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ نبيت عنده ؛ يطرُقه من الليل أمر ؛ وتبدو له حاجة . فلما كانت ذات ليلة كثُر أهل النّوب والمحتسبون ، حتى كنا أندية نتحدث ، فخرج علينا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : « ما هذا النجوى ؟ ألم تُنْهَوا عن النجوى ؟ » . قلنا تبنا إلى الله يارسول الله ، إنا كنا فى ذكر المسيح ؛ فرَقًا منه . فقال : « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندى منه ؟ » . قلنا : بلى يارسول الله ؟ قال : « الشرك الخفى ، أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل » . هذا إسناد غريب ، وفيه بعض الضعفاء .

وقوله : (ويتناجون بالإثم والعدوان [ومعصية الرسول) ، أى : يتحدثون فيما بينهم بالأثم ، وهو ما يختص بهم (والعدوان] ، وهو ما يتعلق بغيرهم ، ومنه معصية الرسول ومخالفته ، يَصرون عليها ويتواصون بها .

وقوله : (وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله) قال ابن أبي حاتم .

حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا ابن نمير ، عن الأعمش ، [عن مسلم (٢)] عن مسروق ، عن عائشة قالت : دخل على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يهود فقالوا : السام عليك ياأبا القاسم . فقالت عائشة : وعليكم السام . قالت : فقال

(١) تفسير الطبرى : ٢٨ / ٤ .

(٢) ما بين القوسين عن مسند الإمام أحمد : ٦/ ٢٢٩ . ومسلم ، كتاب السلام ، باب « النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام ، وكيف يرد عليهم » : ٧/ ٤ .

رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ياعائشة، إن الله لايحب الفحش ولا التفحش » قلت : ألا تسمعهم يقولون: السام عليك ؟ فقال رسول الله : « أو ما سمعت أقولُ : وعليكم ؟ » . فأنزل الله : (وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله) .

وفي رواية في الصحيح أنها قالت لهم : عليكم السام والذام واللعنة . وأن رسول الله—صلى الله عليه وسلم — قال : إنه يستجاب لنا فيهم ، ولا يستجاب لهم فينا » (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا بشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بينما هو جالس مع أصحابه ، إذ أتى عليهم يهودى فسلّم عليهم ، فردوا عليه ، فقال نبي الله — صلى الله عليه وسلم — : « هل تدرون ما قال ؟ » . قالوا : سلم يارسول الله . قال : « بل قال : سام عليكم ، أي: تسامون دينكم . قال رسول الله : « ردوه » . فردوه عليه ، فقال نبي الله : « أقلت : سام عليكم ؟ » . قال : نعم . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا : عليك» أى عليك ما قلت (٢)

وأصل حديث أنس مخرج في الصحيح ، وهذا الحديث في الصحيح عن عائشة ، بنحوه .

وقوله : (ويقولون في أنفسهم : لولا يعذبنا الله بما نقول)، أى : يفعلون هذا ، ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام ، وإنما هو شتم في الباطن ، ومع هذا يقولون في أنفسهم لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له في الباطن ، لأن الله يعلم ما نسره ، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة في الدنيا ، فقال الله تعالى : (حسبهم جهنم) ، أى : جهنم كفايتهم في الدار الآخرة (٣) ، (يصلونها فبئس المصير) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا حماد ، عن عطاء بن السائب ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عمرو : أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — : سام عليك ، ثم يقولون في أنفسهم : (لولا يعذبنا الله بما نقول ؟) ، فنزلت هذه الآية : (وإذا جاءوك حَيَّوك بما لم يحيك به الله ، ويقولون في أنفسهم : لولا يعذبنا الله بما نقول ، حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير) . إسناد حسن ولم يخرجوه (٤) .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : (وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله) ، قال : كان المنافقون يقولون لرسول الله إذا حَيَّوه : « سام عليك » ، قال الله : (حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير (٢)) .

ثم قال الله مُؤَدِّباً عباده المؤمنين أن لا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين : (يا أيها الذين آمنوا ، إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول) ، أى : كما يتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب ومن مالاهم على ضلالهم من

---

(١) البخارى ، كتاب الأدب ، باب « لم يكن النبي — صلى الله عليه وسلم — فاحشاً ولا متفحشاً » : ٨/ ١٥ . ومسلم في الكتاب والباب المتقدمين : ٧/ ٥ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٧/ ١١ .

(٣) في مخطوطة الأزهر : «كفايتهم في الدنيا والآخرة» . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٢/ ١٧٠ .

المنافقين ، (وتناجوا بالبر والتقوى ، واتقوا الله الذى إليه تحشرون) ، أى : فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التى قد أحصاها عليكم ، وسيجزيكم بها .

وقال الإمام أحمد : حدثنا بَهْزٌ وعفان قالا : أخبرنا همام ، حدثنا قتادة ، عن صفوان بن محرز قال : كنت آخذاً بيد ابن عمر ، إذ عرض له رجل فقال : كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول : « إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كَنَفَه ويستره من الناس ، ويقرِّره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرَّره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك ، قال : فانى قد سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يُعطَى كتابَ حسناته ، وأماالكفار والمنافقون فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين (١) » .

أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث قتادة (١) .

ثم قال تعالى : (إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا ، وليس بضارهم شيئا إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون) ، أى : إنما النجوى ــ وهى المُسَارَّة ــ حيث يتوهم مؤمن بها سوءا (من الشيطان ليحزن الذين آمنوا) ، يعنى : إنما يصدر هذا من المتناجين (٢) عن تسويل الشيطان وتزيينه ، (ليحزن الذين آمنوا) ، أى : ليسوءهم ، وليس ذلك بضارهم شيئا إلا باذن الله ، ومن أحس من ذلك شيئا فليستعذ بالله وليتوكل على الله ؛ فانه لا يضره شىء باذن الله .

وقد وردت السنة بالنهى عن التناجى حيث يكون فى ذلك تأذٍّ على مؤمن ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا وكيع وأبو معاوية قالا : حدثنا الأعمش ، عن أبى وائل ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجَيَنَّ اثنان دون صاحبهما ، فان ذلك يحزنه (٣) » . أخرجاه من حديث الأعمش (٤) .

وقال عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن أيوب ، [عن نافع] ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه ؛ فان ذلك يحزنه » . انفرد باخراجه مسلم عن أبى الربيع وأبى كامل ، كلاهما عن حماد بن زيد ، عن أيوب ، به (٥) .

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية الثامنة عشرة من سورة هود ، وخرجناه هنالك ، وشرحنا غريبه ، انظر : ٤/٢٤٧ .
(٢) فى مخطوطة الأزهر : «من المنافقين» . والمثبت من الطبعات السابقة .
(٣) مسند الإمام أحمد : ١/٤٣١ – ٤٣٢ .
(٤) انظر البخارى ، كتاب الاستئذان ، باب « إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارة والمناجاة » : ٧/٨٠ . ومسلم ، كتاب السلام ، باب « تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه » : ٧/١٣ .
(٥) مسلم ، فى الكتاب والباب المتقدمين : ٧/١٢ .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

يقول تعالى مؤدبا عباده المؤمنين ، وآمرا لهم أن يحسن بعضهم إلى بعض فى المجالس : (يا أيها الذين آمنوا ، إذا قيل لكم : تفسحوا فى المجلس [1]) ، وقرىء : (فى المجالس) ، (فافسحوا يفسح الله لكم) ، وذلك أن الجزاء من جنس العمل ، كما جاء فى الحديث الصحيح : « من بنى لله مسجدا بنى الله له بيتاً فى الجنة [2] » . وفى الحديث الآخر : « ومن يَسّر على معسر يَسّر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، [ومن ستر مسلما ستره الله فى الدنيا والآخرة [3]] والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه [4] » . ولهذا أشباه كثيرة ، ولهذا قال : (فافسحوا يفسح الله لكم) .

قال قتادة : نزلت هذه الآية فى مجالس الذكر ، وذلك أنهم كانوا إذا رأوا أحدهم مقبلا ضَنّوا بمجالسهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض [5] .

وقال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية يوم جُمُعة وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يومئذ فى الصفة ، وفى المكان ضيق ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاءأناس من أهل بدر وقد سبقوا إلى المجالس ، فقاموا حيال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته . فرد النبى — صلى الله عليه وسلم — عليهم ، ثم سلموا على القوم بعد ذلك ، فردوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم ، فعرف النبى — صلى الله عليه وسلم — ما يحملهم على القيام ، فلم يُفسَح لهم ، فشق ذلك على النبى — صلى الله عليه وسلم — فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار ، من غير أهل بدر : « قم يا فلان ، وأنت يا فلان » . فلم يزل يقيمهم بعدّة النفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والأنصار أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه ، وعرف النبى صلى الله عليه وسلم الكراهة فى وجوههم ، فقال المنافقون : ألستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس ؟ والله ما رأيناه قبلُ عدلَ على هؤلاء ، إن قوما أخذوا مجالسهم وأحبوا القرب لنبيهم ، فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه . فبلغنا أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم قال : « رحم الله رجلا فَسّح لأخيه » . فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعا ، فتفَسّحَ القومُ لإخوانهم ، ونزلت هذه الآية يوم الجمعة . رواه ابن أبى حاتم .

---

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر ، ويقول الطبرى ٢٨/١٣ : « واختلفت القراء فى قراءة ذلك ، فقرأته عامة قراء الأمصار : (تفسحوا فى المجلس) ، على التوحيد ، غير الحسن البصرى وعاصم فإنهما قرآ ذلك (فى المجالس) ، على الجمع ، وبالتوحيد قراءة ذلك عندنا ، لإجماع الحجة من القراء عليه » .

(٢) البخارى ، كتاب الصلاة ، باب « من بنى مسجداً » : ١٢٢/١ . ومسلم ، كتاب المساجد ، باب « فضل بناء المساجد والحث عليها » : ٦٨/٢ .

(٣) ما بين القوسين عن مسلم ونحسبه سقط نظر .

(٤) مسلم ، كتاب الذكر ، باب « فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر » : ٧١/٨ .

(٥) تفسير الطبرى : ١٣/٢٨ .

وقد قال الإمام أحمد ، والشافعي : حدثنا سفيان (١) ، عن أيوب ، عن نافع ، عن ابن عمر : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا » .

وأخرجاه في الصحيحين من حديث نافع ، (٢) به .

وقال الشافعي : أخبرنا عبد المجيد ، عن ابن جريج قال : قال سليمان بن موسى ، عن جابر بن عبد الله : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « لا يقيمن أحدكم أخاه يوم الجمعة ، ولكن ليقل افسحوا (٣) » . على شرط السنن ولم يخرجوه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الملك بن عمرو ، حدثنا فليح ، عن أيوب بن عبد الرحمن بن [أبي (٤)] صعصعة ، عن يعقوب بن أبي يعقوب ، عن أبي هريرة ، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : « لا يقم الرجل الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن افسحوا يفسح الله لكم (٥) » .

ورواه أيضا عن سُرَيج بن يونس ، [ويونس] بن محمد المؤدب ، عن فليح ، به . ولفظه : « لا يقوم الرجل للرجل من مجلسه ، ولكن افسحوا يفسح الله لكم » . تفرد به أحمد (٦) .

وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال : فمنهم من رخص في ذلك محتجا بحديث : « قوموا إلى سيدكم » ؛ ومنهم من منع من ذلك محتجا بحديث: « من أحب أن يتمثل له الرجال قياما ، فليتبوأ مقعده من النار (٧) » ، ومنهم من فصل فقال : يجوز عند القدوم من سفر ، وللحاكم في محل ولايته ، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ ، فانه لما استقدمه النبي – صلى الله عليه وسلم – حاكما في بني قريظة فرآه مقبلا قال للمسلمين : « قوموا إلى سيدكم » . وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه ، والله أعلم . فأما اتخاذه ديدنا فانه من شعار العجم . وقد جاء في السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكان إذا جاء لا يقومون له ، لما يعلمون من كراهته لذلك .

وفي الحديث المروي في السنن : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان يجلس حيث انتهى به المجلس ، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس ، وكان الصحابه – رضي الله عنهم – يجلسون منه على مراتبهم ، فالصدّيق يجلسه عن يمينه ، وعمر عن يساره ، وبين يديه غالبا عثمان وعلي ، لأنهما كانا ممن يكتب الوحي ، وكان يأمرهم بذلك ،

---

(١) لم يقع لنا حديث المسند بهذا السند ، وأما رواية الشافعي فهي عن سفيان بن عيينة ، عن عبيد الله بن عمر ، عن نافع . انظر الأم ، كتاب إيجاب الجمعة : ١/١٨١ ، ومسند الشافعي على الأم : ٦/١٠٣ .

(٢) البخاري ، كتاب الجمعة ، باب « لا يقيم الرجل أخاه يوم الجمعة ويقعد في مكانه » : ٢/١٠ . ومسلم ، كتاب السلام ، باب « تحريم إقامة الإنسان من موضعه المباح الذي سبق إليه » : ٧/٩ .

(٣) انظر الأم ومسند الشافعي في الموضعين المتقدمين : ١/١٨١ ، ٦/١٠٣ .

(٤) ما بين القوسين عن المسند ، وانظر الخلاصة .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٢/٥٢٣ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٣٨ ، ٤٣٨ .

(٧) تحفة الأحوذي ، أبواب الاستئذان ، باب « ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل » ، الحديث ٢٩٠٣ : ٨/٣٠ .

كما رواه مسلم من حديث الأعمش ، عن عمارة بن عمير ، عن أبي معمر ، عن أبي مسعود : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « ليليني منكم أولو الأحلام والنهى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » (١) : وما ذاك إلا ليعقلوا عنه ما يقوله — صلوات الله وسلامه عليه — ولهذا أمر أولئك النفر بالقيام ليجلس الذين وردوا من أهل بدر ، إما لتقصير أولئك في حق البدريين ، أوليأخذ البدريون من العلم بنصيبهم ، كما أخذ أولئك قبلهم ، أو تعليما بتقديم الأفاضل إلى الأمام .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن الأعمش ، عن عُمَارة بن عمير التيمي ، عن أبي معمر ، عن أبي مسعود قال كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول : « استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ليليني منكم أولو الأحلام والنهى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » . قال أبو مسعود : فأنتم اليوم أشد اختلافا (٢) .

وكذا رواه مسلم وأهل السنن ، إلا الترمذي ، من طرق عن الأعمش ، به (٣) .

وإذا كان هذا أمره لهم في الصلاة أن يليه العقلاء ثم العلماء ، فبطريق الأولى أن يكون ذلك في غير الصلاة :

وروى أبو داود من حديث معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية ، عن كثير بن مرة عن عبد الله بن عمر أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « أقيموا الصفوف ، وحاذوا بين المناكب ، وسدوا الخلل ، ولينوا بأيدي إخوانكم ، ولا تذروا فرجات الشيطان ، ومن وصل صفا وصله الله ، ومن قطع صفا قطعه الله (٤) » .

ولهذا كان أبي بن كعب سيد القراء إذا انتهى إلى الصف الأول انتزع منه رجلا يكون من أفناء (٥) الناس ، ويدخل هو في الصف المقدم ، ويحتج بهذا الحديث : « ليليني منكم أولو الأحلام والنهى » . وأما عبد الله بن عمر فكان لا يجلس في المكان الذي يقوم له صاحبه عنه ، عملا بمقتضى ما تقدم من روايته الحديث الذي أوردناه . ولنقتصر على هذا المقدار من الأنموذج المتعلق بهذه الآية ، وإلا فبسطه يحتاج إلى غير هذا الموضع . وفي الحديث الصحيح : « بينا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — جالس ، إذ أقبل ثلاثة نفر ، فأما أحدهم فوجد فرجة في الحلقة فدخل فيها ، وأما الآخر فجلس وراء الناس ، وأدبر الثالث ذاهبا . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ألا أنبئكم بخبر الثلاثة ، أما الأول فآوى إلى الله فآواه الله ، وأما الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه . وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه (٦) » .

---

(١) مسلم ، كتاب الصلاة ، باب « تسوية الصفوف وإقامتها ... » : ٢/٣٠ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٤/١٢٢ .
(٣) مسلم ، كتاب الصلاة ، باب « تسوية الصفوف ... » : ٢/٣٠ .
(٤) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « تفريع الصفوف » .
(٥) يقال : « رجل من أفناء الناس » : لا يدرى من أي قبيلة هو ؟ ، وفي المخطوطة : « أفناد » .
(٦) البخاري ، كتاب العلم ، باب « من قعد حيث ينتهي به المجلس » : ١/٢٦ . ومسلم ، كتاب السلام ، باب « من أتى مجلسا فوجد فرجة فجلس فيها ... » : ٧/٩ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عتّاب بن زياد ، أخبرنا عبد الله ، أخبرنا أسامة بن زيد ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما » (١)

ورواه أبو داود والترمذى ، من حديث أسامة بن زيد الليثى ، به . وحسنه الترمذى (٢) .

وقد رُوى عن ابن عباس ، والحسن البصرى وغيرهما أنهم قالوا فى قوله تعالى : (إذا قيل لكم تفسحوا فى المجلس فافسحوا) ، يعنى : فى مجالس الحرب (٣) ، قالوا : ومعنى قوله : (وإذا قيل : انشزوا فانشزوا) ، أى : انهضوا للقتال .

وقال قتادة : (وإذا قيل انشزوا فانشزوا) ، أى : إذا دعيتم إلى خير فأجيبوا .

وقال مقاتل : إذا دعيتم إلى الصلاة فارتفعوا إليها .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كانوا إذا كانوا عند النبى - صلى الله عليه وسلم - فى بيته فأرادوا الانصراف ، أحب كل منهم أن يكون هو آخرهم خروجا من عنده ، فربما يشق ذلك عليه - عليه السلام - وقد تكون له الحاجة ، فأمروا أنهم إذا أمروا بالانصراف أن ينصرفوا ، كقوله : (وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا (٤)) .

وقوله : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ، والله بما تعملون خبير) ، أى : لا تعتقدوا أنه إذا فَسَح أحد منكم لأخيه إذا أقبل ، أو إذا أمر بالخروج فخرج ، أن يكون ذلك نقصا فى حقه ، بل هو رفعة ومزية عند الله ، والله تعالى لا يضيع ذلك له ، بل يجزيه بها فى الدنيا والآخرة ، فان من تواضع لأمر الله رَفَع الله قدره ، ونَشَر ذكره . ولهذا قال . (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ، والله [(بما تعملون خبير)] ، أى : خبير بمن يستحق ذلك وبمن لا يستحقه .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو كامل ، حدثنا إبراهيم ، حدثنا ابن شهاب ، عن أبى الطفيل عامر بن واثلة . أن نافع ابن عبد الحارث لقى عمر بن الخطاب بعُسفان ، وكان عمر استعمله على مكة ، فقال له عمر : من استخلفت على أهل الوادى ؟ قال : استخلفت عليهم ابن أبزى قال : [وما ابن أبزى ؟ فقال (٥)] : رجل من موالينا . فقال عمر : استخلفت عليهم مولى ؟ . فقال : يا أمير المؤمنين ، إنه قارىء لكتاب الله ، عالم بالفرائض ، قاض . فقال عمر رضى الله عنه : أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال : « إن الله يرفع بهذا الكتاب قوماً ويضع به آخرين (٦) » .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢/٢١٣ .

(٢) سنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « فى الرجل يجلس بين الرجلين بغير إذنهما » . وتحفة الأحوذى ، أبواب الاستئذان ، باب « ما جاء فى كراهية الجلوس بين الرجلين بغير إذنهما » ، الحديث ٢٩٠٠ : ٨/٢٨ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٨/١٣ .

(٤) سورة النور ، آية : ٢٨ .

(٥) ما بين القوسين عن المسند .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١/٣٥ .

وهكذا رواه مسلم من غير وجه ، عن الزهرى ، به (١) . وَرُوِى من غير وجه عن عمر بنحوه : وقد ذكرت فضل العلم وأهله وما ورد فى ذلك من الأحاديث مستقصاة فى شرح « كتاب العلم » من صحيح البخارى ، ولله الحمد والمنة .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يناجى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أى : يسارّه فيما بينه وبينه ، أن يقدم بين يدى ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام ، ولهذا قال : (ذلك خير لكم وأطهر) .

ثم قال : (فان لم تجدوا) ، أى : إلا من عجز عن ذلك لفقده (فان الله غفور رحيم) ، فما أمر بها إلا من قدر عليها .

ثم قال : (أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات) ، أى : أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ، (فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله ، والله خبير بما تعملون) ، فنسخ وجوب ذلك عنهم .

وقد قيل : إنه لم يعمل بهذه الآية قبل نسخها سوى على بن أبى طالب رضى الله عنه .

قال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد قال : نهوا عن مناجاة النبى — صلى الله عليه وسلم — حتى يتصدقوا ، فلم يناجه إلا على بن أبى طالب ، قدم ديناراً صدقة تصدق به ، ثم ناجى النبى صلى الله عليه وسلم ، فسأله عن عشر خصال ، ثم أنزلت الرخصة (٢) .

وقال ليث بن أبى سليم ، عن مجاهد قال على رضى الله عنه : آية فى كتاب الله — عز وجل — لم يعمل بها أحد قبلى ، ولا يعمل بها أحد بعدى ، كان عندى دينار فصرفته بعشرة دراهم ، فكنت إذا ناجيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — تصدقت بدرهم ، فنسخت ولم يعمل بها أحد قبلى ، ولا يعمل بها أحد بعدى ، ثم تلا هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة) ... الآية .

---

(١) مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب « فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ... » : ٢/٢٠١ — ٢٠٢ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٨/١٤ .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن عثمان بن المغيرة ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن علي بن علقمة الأنماري ، عن علي ـ رضي الله عنه ـ قال : قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ماترى (١) ؟ دينار ؟ » . قال : لا يطيقون . قال : « نصف دينار ؟ » . قال : لايطيقون . قال : « ماترى ؟ » . قال : شعيرة . فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إنك زهيد » . قال : قال علي : فبي خفف الله عن هذه الأمة . وقوله : (إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة) ، فنزلت : (أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات) (٢) .

ورواه الترمذي عن سفيان بن وكيع ، عن يحيى بن آدم ، عن عبيد الله الأشجعي ، عن سفيان الثوري ، عن عثمان ابن المغيرة الثقفي ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن علي بن علقمة الأنماري ، عن علي بن أبي طالب قال : لما نزلت : (يا أيها الذين آمنوا ، إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة) ، قال لي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما ترى ، دينار ؟ » قلت : لا يطيقونه . وذكره بتمامه ، مثله ، ثم قال : « هذا حديث حسن غريب ، إنما نعرفه من هذا الوجه . ثم قال : ومعنى قوله « شعيرة » : يعني وزن شعيرة من ذهب (٣) » .

ورواه أبو يعلى ، عن أبي بكر بن أبي شيبة ، عن يحيى بن آدم ، به .

وقال العوفي ، عن ابن عباس في قوله : (يا أيها الذين آمنوا ، إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة) إلى (فإن الله غفور رحيم) : كان المسلمون يقدمون بين يدي النجوى صدقة ، فلما نزلت الزكاة نسخ هذا

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس قوله : (فقدموا بين يدي نجواكم صدقة) ، وذلك أن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى شقوا عليه ، فأراد الله أن يخفف عن نبيه ـ عليه السلام ـ فلما قال ذلك صبر كثير (٤) من الناس وكفوا عن المسألة ، فأنزل الله بعد هذا : (أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقة ، فاذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) ، فوسع الله عليهم ولم يضيق (٥) .

وقال عكرمة والحسن البصري في قوله : (فقدموا بين يدي نجواكم صدقة) : نسختها الآية التي بعدها : (أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقة) إلى آخرها .

وقال سعيد ، عن قتادة ومقاتل بن حيان : سأل الناس رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أحفوه بالمسألة فقطعهم (٦) الله بهذه الآية ، فكان الرجل منهم إذا كانت له الحاجة إلى نبي الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا يستطيع أن يقضيها حتى يقدم بين يديه صدقة ، فاشتدّ ذلك عليهم ، فأنزل الله الرخصة بعد ذلك : (فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم) .

---

(١) أي : ما ترى في مقدار الصدقة التي تقدم بين يدي النجوى ؟ هل يقدم قبل النجوى دينار ؟

(٢) تفسير الطبري : ١٥/٢٨ .

(٣) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة المجادلة ، الحديث ٣٣٥٥ : ١٩٢/٩ ـ ١٩٤ .

(٤) في المخطوطة : « حين كثر » . والمثبت عن الطبري .

(٥) تفسير الطبري : ١٥/٢٨ .

(٦) في تفسير الطبري : ١٥/٢٨ : « فوعظهم بهذه الآية » .

وقال معمر ، عن قتادة : (إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة) : إنها منسوخة ، ما كانت إلا ساعة من نهار . وهكذا روى عبد الرزاق : اخبرنا معمر ، عن أيوب ، عن مجاهد قال على : ما عمل بها أحد غيرى حتى نسخت ، وأحسبه قال : وما كانت إلا ساعة .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) ﴾

يقول تعالى منكراً على المنافقين فى موالاتهم الكفار فى الباطن ، وهم فى نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين ، كما قال تعالى : (مذبذبين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) (١) . وقال هاهنا : (ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم) ، يعنى اليهود ، الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم فى الباطن . ثم قال : (ماهم منكم ولا منهم) ، أى : هؤلاء المنافقون ، ليسوا فى الحقيقة لا منكم أيها المؤمنون ، ولا من الذين تولوهم وهم اليهود .

ثم قال : (ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) يعنى : المنافقين يحلفون على الكذب وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا ، وهى اليمين الغموس ، ولا سيما فى مثل حالهم اللعين ، عياذا بالله منه ، فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا جاءوا الرسول حلفوا بالله أنهم مؤمنون ، وهم فى ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به ، لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه ، وإن كان فى نفس الأمر مطابقاً . ولهذا شهد الله بكذبهم فى إيمانهم وشهادتهم لذلك .

ثم قال : (أعد الله لهم عذاباً شديدا ، إنهم ساء ما كانوا يعملون) ، أى: أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة ، وهى موالاة الكافرين ونصحهم ، ومعاداة المؤمنين وغشهم ، . ولهذا قال تعالى : (اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله) ، أى : أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، واتقوا بالأيمان الكاذبة ، فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاغتر بهم ، فحصل بهذا صد عن سبيل الله لبعض الناس ، (فلهم عذاب مهين) ، أى : فى مقابلة ما امتهنوا من الحلف باسم الله العظيم فى الأيمان الكاذبة الحانثة .

ثم قال : (لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً) ، أى : لن يدفع ذلك عنهم بأساً إذا جاءهم ، (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

ثم قال : (يوم يبعثهم الله جميعاً) ، أى: يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا يغادر منهم أحدا ، (فيحلفون له كما يحلفون لكم ، ويحسبون أنهم على شىء) ، أى : يحلفون بالله — عز وجل — أنهم كانوا على الهدى والاستقامة ، كما كانوا

(١) سورة النساء ، آية : ١٤٣ .

يحلفون للناس فى الدنيا ، لأن من عاش على شىء مات عليه ويعث عليه ، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس ، فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة ، ولهذا قال : (ويحسبون أنهم على شىء) ، أى : حلفهم ذلك لربهم عز وجل .

ثم قال منكراً عليهم حسبانهم : (ألا إنهم هم الكاذبون) ، فأكد الخبر عنهم بالكذب .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن نفيل ، حدثنا زهير ، عن سماك بن حرب ، حدثنى سعيد بن جُبَيْر : أن ابن عباس حدّثه : أن النبى صلى الله عليه وسلم ــ كان فى ظل حجرة من حُجَره ، وعنده نفر من المسلمين قد كاد يتقلص عنهم الظل ، قال : « إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعينى شيطان ، فإذا أتاكم فلا تكلموه » . فجاء رجل أزرق ، فدعاه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فكلمه ، فقال : « علام تشتمنى أنت وفلان وفلان ؟ » ــ نفر دعاهم بأسمائهم ــ قال : فانطلق الرجل فدعاهم ، فحلفوا له واعتذروا إليه ، قال : فأنزل الله عز وجل : (فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شىء ألا إنهم هم الكاذبون) .

وهكذا رواه الإمام أحمد من طريقين ، عن سماك[1] به . ورواه ابن جرير ، عن محمد بن المثنى ، عن غُنْدَر ، عن شعبة ، عن سماك . به نحوه[2] ، وأخرجه أيضاً من حديث سفيان الثورى ، عن سماك ، بنحوه إسناد جيد ولم يخرجوه .

وحال هؤلاء كما أخبر تعالى عن المشركين حيث يقول : (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون)[3] . ثم قال : (استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله) ، أى : استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا الله ــ عز وجل ــ وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه . ولهذا قال أبو داود :

حدثنا أحمد بن يونس ، حدثنا زائدة ، حدثنا السائب بن حُبَيْش ، عن معدان بن أبى طلحة اليَعْمُرى ، عن أبى الدرداء : سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول : « ما من ثلاثة فى قرية ولا بدو ، لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان ، فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب القاصية » ــ قال زائدة : قال السائب : يعنى الصلاة فى الجماعة[4] .

ثم قال تعالى : (أولئك حزب الشيطان) ، يعنى الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله . ثم قال : (ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١/ ٢٤٠ ، ٢٦٧ ، ٣٥٠ .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٨/ ١٧ .
(٣) سورة الأنعام ، آية : ٢٣ ــ ٢٤ .
(٤) سنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « التشديد فى ترك الجماعة » .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾
لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ
إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا
ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين المحادين لله ورسوله ، يعني : الذين هم في حَدّ والشرع في حَدّ أي : مجانبون للحق مشاقون له ، هم في ناحية والهدى في ناحية ، (أولئك في الأذلين) ، أي : في الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب ، الأذلين في الدنيا والآخرة .

(كتب الله لأغلبن أنا ورسلي) ، أي : قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدّره الذي لا يُخالَف ولا يمانع ، ولا يبدل ، بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة ، وأن العاقبة للمتقين ، كما قال تعالى : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، يوم لاينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار (١)) . وقال هاهنا (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ، إن الله قوي عزيز) ، أي : كتب القوي العزيز أنه الغالب لأعدائه . وهذا قدر محكم وأمر مبرم ، أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى : (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) ، أي لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين ، كما قال تعالى : (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه)(٢) . . . الآية . وقال تعالى : (قل : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين (٣)) .

وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغيره : أنزلت هذه الآية : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر) إلى آخرها في أبي عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح ، حين قتل أباه يوم بدر . ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين جعل الأمر شورى بعده في أولئك الستة رضي الله عنهم : « ولو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته (٤) » .

وقيل في قوله : (ولو كانوا آباءهم) : نزلت في أبي عبيدة ، قتل أباه يوم بدر . (أو أبناءهم) : في الصديق ، هم يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن ، (أو إخوانهم) : في مصعب بن عمير ، قتل أخاه عبيد(٥) بن عمير يومئذ . (أو عشيرتهم) : في عمر ، قتل قريباً له يومئذ أيضاً ، وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث ، قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ ، والله أعلم .

---

(١) سورة غافر ، آية : ٥١ — ٥٢ .
(٢) سورة آل عمران ، آية : ٢٨ .
(٣) سورة التوبة ، آية : ٢٤ .
(٤) انظر طبقات ابن سعد : ٣/١/٣٠٠ ، وأسد الغابة : ١٢٨/٣ .
(٥) كذا ، ولم نجده فيما أتيح لنا من كتب السيرة والأنساب .

قلت : ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المسلمين فى أسارى بدر ، فأشار الصّديق بأن يفادوا ، فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين ، وهم بنو العم والعشيرة ، ولعل الله أن يهديهم . وقال عمر : لا أرى ما رأى يارسول الله ، هل تمكننى من فلان ـ قريب لعمر ـ فأقتله ، وتمكن عليا من عقيل ، وتمكن فلانا من فلان ، ليعلم الله أنه ليست فى قلوبنا هوادة للمشركين . . . القصة بكمالها .

وقوله : (أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) ، أى : من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه ، فهذا ممن كتب الله فى قلبه الإيمان ، أى كتب له السعادة وقررها فى قلبه وزيّن الإيمان فى بصيرته .

قال السدى : (كتب فى قلوبهم الإيمان) : جعل فى قلوبهم الإيمان .

وقال ابن عباس : (وأيدهم بروح منه) ، أى : قواهم .

وقوله : (ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه) : كل هذا تقدم تفسيره غير مرة .

وفى قوله (رضى الله عنهم ورضوا عنه) : سر بديع ، وهو أنه لما سخطوا على القرائب والعشائر فى الله عوّضهم الله بالرضا عنهم ، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفوز العظيم ، والفضل العميم .

وقوله : (أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون) ، أى : هؤلاء حزبُ الله ، أى : عباد الله وأهل كرامته .

وقوله : (ألا إن حزب الله هم المفلحون) : تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرهم فى الدنيا والآخرة ، فى مقابلة ما أخبر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان . ثم قال : (ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا هارون بن حميد الواسطى ، حدثنا الفضل بن عنبسة ، عن رجل قد سماه ـ يقال : هو عبد الحميد بن سليمان ، انقطع من كتابى ـ عن الذيال(١) بن عباد قال : كتب أبو حازم الأعرج إلى الزهرى : أعلم أن الجاه جاهان ، جاه يجريه الله على أيدى أوليائه لأوليائه . وإنهم الخامل ذكرهم ، الخفية شخوصهم ، ولقد جاءت صفتهم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب الأخفياء(٢) الأتقياء الأبرياء ، الذين إذا غابوا لم يُفتَقَدوا(٣) ، وإذا حضروا لم يُدْعَوا(٤) ، قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل فتنة سوداء مظلمة(٥) » . فهؤلاء أولياء الله الذين قال الله : (أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون) .

وقال نُعيم بن حمّاد : حدثنا محمد بن ثور ، عن يونس ، عن الحسن قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « اللهم ، لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندى يداً ولا نعمة ، فانى وجدت فيما أوحيته إلى : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حاد الله ورسوله) ـ قال سفيان : يرون أنها نزلت فيمن يخالط السلطان . ورواه أبو أحمد العسكرى .

[آخر تفسير « سورة المجادلة » ولله الحمد]

---

(١) كذا ، ولم تقع لنا ترجمة « الذيال بن عباد » هذا .

(٢) الأخفياء : جمع خفى ، وهو المعتزل عن الناس ، الذى يخفى عليهم مكانه .

(٣) أى : لم يلتفت أحد إلى معرفة حالهم ومكانهم ، ولا ينظر أحد إلى أنهم أحياء أو أموات .

(٤) أى : إلى المجالس والأمور المهمة .

(٥) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الفتن ، باب « من ترجى له السلامة من الفتن » ، الحديث ٣٩٨٩ : ٢/١٣٢٠ ـ ١٣٢١ ، عن عمر بن الخطاب .

١

تفسير سورة الحشر

وهي مدنية

قال سعيد بن منصور : حدثنا هُشَيم ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس : سورة الحشر؟ قال : أنزلت في بني النضير .

ورواه البخاري ومسلم من وجه آخر ، عن هشيم ، به : ورواه البخاري من حديث أبي عوانة ، عن أبي بشر ، عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال [قُل] : سورة النَّضِير (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَٰأُولِي الْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾

يخبر تعالى أن جميع ما في السموات وما في الأرض من شيء يسبح له ويمجده ويقدسه ، ويصلي له ويوحده ، كقوله (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده) (٢) وقوله : (وهو العزيز) ، أي : منيع الجناب ، (الحكيم) في قَدَره وشرعه .

وقوله : (هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب) ، يعني : يهود بني النضير . قاله ابن عباس ، ومجاهد والزهري ، وغير واحد . كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم عهدا وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه ، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه ، فأحل الله بهم بأسه الذي لا مَرَدّ له ، وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يُصَدّ ، فأجلاهم — النبي صلى الله عليه وسلم — وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع فيها المسلمون ، وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله ، فما أغنى عنهم من الله شيئاً ، وجاءهم ما لم يكن ببالهم ، وسيّرهم رسول الله وأجلاهم من المدينة ، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالي الشام ، وهي أرض المحشر والمنشر ، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر .

---

(١) البخاري ، تفسير سورة الحشر : ٦/١٨٣ . ومسلم ، كتاب التفسير ، باب في سورة براءة والأنفال والحشر : ٨/٢٤٥ .

(٢) سورة الإسراء ، آية : ٤٤ .

وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم ، فكانوا يخربون ما فى بيوتهم من المنقولات التى يمكن أن تحمل معهم ولهذا قال(يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فاعتبروا ياأولى الأبصار)،أى : تفكروا فى عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله ، وكذب كتابه ، كيف يحل به من بأسه المخزى له فى الدنيا ، مع ما يدخره له فى الآخرة من العذاب الأليم .

قال أبو داود : حدثنا محمد بن داود بن سفيان ، حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهرى ، عن عبد الرحمن ابن كعب بن مالك ، عن رجل من أصحاب النبي —صلى الله عليه وسلم—أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي(١) [ومن [كان معه يعبد [معه](٢) الأوثان من الأوس والخزرج ، ورسول الله — صلى الله عليه وسلم يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر : إنكم آويتم صاحبنا ، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه ، أو لتخرجنه(٣) ، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا ، حتى نقتل مقاتلتكم ونستبيح نساءكم ، فلما بلغ ذلك عبد(٤) الله بن أبي ومن كان معه من عبدة الأوثان،اجتمعوا(٥) لقتال النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما بلغ ذلك النبي — صلى الله عليه وسلم — لقيهم فقال : « لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريد أن تكيدوا به أنفسكم ، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم ؟ » فلما سمعوا ذلك من النبي — صلى الله عليه وسلم — تفرقوا ، فبلغ ذلك كفارَ قريش ، فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود : إنكم أهل الحلقة والحصون ، وإنكم لتقاتلن مع صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا ، ولا يحول بيننا وبين خدَم(٦)نسائكم شيء — وهى الخلاخيل— فلما بلغ كتابهم النَّبي — صلى الله عليه وسلم اجتمعت(٧) بنو النضير بالغدر ، فأرسلوا إلى النبي—صلى الله عليه وسلم—اخرج إلينا [فى] ثلاثين رجلا من أصحابك وليخرج منا ثلاثون[حبرا ، حتى نلتقى بمكان المنصف(٨) فيسمعوا منك ، فان صدقوك وآمنوا بك آمنا بك] ، فلما كان الغد غدا عليهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم [بالكتائب (٩)] فحصرهم ، فقال لهم : (إنكم — والله لا تأمنوا عندى إلا بعهد تعاهدونى عليه . فأبوا أن يعطوه عهدا ، فقاتلهم يومهم ذلك ، ثم غدا الغدَ على بنى قريظة بالكتائب ، وترك بنى النضير ، ودعاهم إلى أن يعاهدوه ، فعاهدوه ، فانصرف عنهم . وغدا إلى بنى النضير بالكتائب فقاتلهم ، حتى نزلوا على الجلاء . فجلت بنو النضير ، واحتملوا ما أقلّت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها ، وكان نخل بنى النضير لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — خاصة ، أعطاه الله إياها وخصه بها ، فقال : (وما أفاء الله على رسوله منهم فما أو جفتم عليه من خيل ولا ركاب) — يقول بغير قتال — فأعطى النبي — صلى الله عليه وسلم — أكثرها للمهاجرين ، قسمها بينهم ، وقسم منها لرجلين من الأنصار وكانا ذوى حاجة ، ولم يقسم من الأنصار غيرهما ، وبقى منها صدقة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — التى فى أيدى بنى فاطمة(١٠) .

---

(١) فى المخطوطة : « إلى ابن أم رب » . والمثبت عن سنن أبى داود .
(٢) ما بين القوسين عن سنن أبى داود .
(٣) فى المخطوطة : « لنخرجنكم » . والمثبت من سنن أبى داود .
(٤) فى المخطوطة : « بلغ ذلك ولد عبد ... » . والمثبت عن سنن أبى داود .
(٥) فى المخطوطة : « احتملوا لقتال » . والمثبت عن سنن أبى داود .
(٦) الخدم — بفتح الخاء والدال — واحده : خدمة ، وهى الخلخال .
(٧) فى المخطوطة : « أيقنت بنو النضير » . والمثبت عن سنن أبى داود .
(٨) المنصف : الموضع الوسط بين الموضعين .
(٩) ما بين القوسين عن سنن أبى داود .
(١٠) سنن أبى داود ، كتاب الخراج والإمارة ، باب « فى خبر بنى النضير » .

ولنذكر ملخص غزوة بني النضير على وجه الاختصار ، وبالله المستعان :

وكان سبب ذلك فيما ذكره أصحاب المغازى والسيَر : أنه لما قُتِل أصحابُ بئر معونة ، من أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكانو سبعين ، وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمرى ، فلما كان فى أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة — قتل رجلين من بنى عامر ، وكان معهما عهد من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأمان لم يعلم به عمرو ، فلما رجع أخبر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « لقد قتلت رجلين ، لأدينّهما » . وكان بين بنى النضير وبنى عامر حلف وعهد ، فخرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى بنى النضير يستعينهم فى دية ذينك الرجلين ، وكانت منازل بنى النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقيها .

قال محمد بن إسحاق بن يسار فى كتابه السيرة : ثم خرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى بنى النضير يستعينهم فى دية ذينك القتيلين من بنى عامر ، اللذين قتل عمرو بن أمية الضمرى ، للجوار الذى كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم عقد لهما ، فيما حدثنى يزيد بن رُمان ، وكان بين بنى النضير وبنى عامر عقد وحلف . فلما أتاهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يستعينهم فى دية ذينك القتيلين قالوا : نعم ، ياأبا القاسم ، نعينك على ما أحببت ، مما استعنت بنا عليه . ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه — ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب جدار من بيوتهم — فَمَن رجل يعلو على هذا البيت ، فيلقى عليه صخرة ، فيريحنا منه ؟ فانتدَب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدُهم ، فقال : أنا لذلك ، فصعَد ليلقى عليه صخرة كما قال ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفر من أصحابه ، فيهم أبو بكر وعمر وعلى رضى الله عنهم . فأتى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة ، فلما استلبثَ النبى — صلى الله عليه وسلم — أصحابه قاموا فى طلبه ، فلقوا رجلا مقبلا من المدينة ، فسألوه عنه ، فقال : رأيته داخلا المدينة . فأقبل أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به ، وأمر رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم . ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه فى الحصون ، فأمر رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — بقطع النخل والتَّحريق فيها . فنادوه : أن يامحمد ، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها ؟ .

وقد كان رهط من بنى عوف بن الخزرج ، منهم عبد الله بن أبى سلول ، ووديعة ، ومالك بن أبى قوقل ، وسُوَيد وداعس ، قد بعثوا إلى بنى النضير : أن اثبتوا وتَمَنَّعوا فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرَجنامعكم فتربصوا ذلك من نصرهم ، فلم يفعلوا ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ، ففعل ، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نِجاف(1) بابه ، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به . فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام ، وخلّوا الأموال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء ، فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار . إلا أن سهل بن حُنَيف وأبا دُجانة سماك بن خرَشة ذكرا فقرا ، فأعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(1) فى المخطوطة : « إنجاف » ، والنجاف — بوزن كتاب — : العتبة التى بأعلى الباب . انظر سيرة ابن هشام ، وتفسير الطبرى : ٢٨/ ٢١ .

قال : ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان : يامين بن عُمَيْر (١) بن كعب بن عمرو بن جحاش ، وأبو سعد بن وهب أسلما على أمواهما فأحرزاها .

قال ابن إسحاق : وقد حدثنى بعض آل يامين : أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال ليامين : « ألم تر ما لقيتُ من ابن عمك ، وما همّ به من شأنى » . فجعل يامين بن عُمَيْر لرجل جُعْل على أن يقتل عمرو بن جحاش ، فقتله فيما يزعمون.

قال ابن إسحاق : ونزل فى بنى النضير سورة الحشر بأسرها (٢) .

وهكذا روى يونس بن بُكَيْر عن ابن إسحاق ، بنحو ما تقدم .

فقوله : (هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب) ، يعنى بنى النضير ، (من ديارهم لأول الحشر) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن أبى سعد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : من شك فى أن أرض المحشر هاهنا ــ يعنى الشام فَلْيَتْلُ هذه الآية : (هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر) ، قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اخرجوا » . قالوا : إلى أين ؟ قال : « إلى أرض المحشر » .

وحدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن عوف ، عن الحسن قال : لما أجلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بنى النضير ، قال : « هذا أول الحشر ، وأنا على الأثر » .

ورواه ابن جرير ، عن بندار ، عن ابن أبى عدى ، عن عوف ، عن الحسن ، به (٣).

وقوله : (ما ظننتم أن يخرجوا) أى : فى مدة حصاركم لهم وقصَرها ، وكانت ستة أيام ، مع شدة حصونهم ومنعتها ، ولهذا قال : (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) ، أى : جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم فى بال ، كما قال فى الآية الأخرى : (قد مكر الذين من قبلهم ، فأتى الله بنيانهم من القواعد ، فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) (٤) .

وقوله : (وقذف فى قلوبهم الرعب) ، أى : الخوف والهلع والجزع ، وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصرهم الذى نُصر بالرعب مسيرةَ شهر ، صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله : (يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين) ، قد تقدم تفسير ابن إسحاق لذلك ، وهو نقض ما استحسنوه من سقوفهم وأبوابهم ، وتحمّلها على الإبل . وكذا قال عروة بن الزبير ، وعبد الرحمن بن زيد بن اسلم ، وغير واحد .

---

(١) فى المخطوطة : « بن عمرو » . والمثبت من سيرة ابن هشام ، وأسد الغابة لابن الأثير ، ترجمة يامين بن يامين : ٥/٤٦٨ ، والاستيعاب لأبى عمر : ٤/١٥٨٩ .

(٢) سيرة ابن هشام : ٢/١٩٠ – ١٩٢ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٨/٢٠ .

(٤) سورة النحل ، آية : ٢٦ .

وقال مقاتل بن حيان : كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقاتلهم ، فاذا ظهر على دَرْب أو دار ، هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال . وكان اليهود إذا علَوا مكاناً أو غلبوا على دَرْب أو دار ، نقبوا من أدبارها ثم حصنوها ودَرّبوها(١)، يقول الله تعالى : (فاعتبروا ياأولى الأبصار) .

وقوله : (ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا) ، أى : لولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء ، وهو النفى من ديارهم وأموالهم ، لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبى ، ونحو ذلك ، قاله الزهرى ، عن عروة ، والسدى وابن زيد ، لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم فى الدار الدنيا مع ما أعد لهم فى الآخرة من العذاب فى نار جهنم .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن صالح — كاتب الليث — حدثنى الليث ، عن عقيل عن ابن شهاب قال : أخبرنى عروة بن الزبير قال : ثم كانت وقعة بنى النضير ، وهم طائفة من اليهود ، على رأس ستة أشهر من وقعة بدر . وكان منزلهم بناحية من المدينة ، فحاصرهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى نزلوا على الجلاء ، وأن لهم ما أقلّت(٢) الإبل من الأموال والأمتعة إلا الحلقة، وهى السلاح ، فأجلاهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قِبَل الشام . قال : والجلاء أنه كُتب عليهم فى آى من التوراة ، وكانوا من سبط لم يصبهم الجلاء قبل ما سلط عليهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأنزل الله فيهم : (سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض) ، إلى قوله : (وليخزى الفاسقين) .

وقال عكرمة : الجلاء : القتل . وفى رواية عنه : الفناء .

وقال قتادة : الجلاء : خروج الناس من البلد إلى البلد .

وقال الضحاك : أجلاهم إلى الشام ، وأعطى كل ثلاثة بعيراً وسقاء ، فهذا الجلاء .

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقى : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أحمد بن كامل القاضى ، حدثنا محمد بن سعيد العوفى ، حدثنى أبى ، عن عمى ، حدثنى أبى عن جدي ، عن ابن عباس قال كان النبى صلى الله عليه وسلم قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ ، فأعطوه ما أراد منهم ، فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم ، وأن يخرجهم من أرضهم ومن ديارهم وأوطانهم ، وأن يسيرهم إلى أذرعات الشام ، وجعل لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاء ، والجلاء إخراجهم من أرضهم إلى أرض أخرى(٣).

وروى أيضاً من حديث يعقوب بن محمد الزهرى ، عن إبراهيم بن جعفر بن محمود بن محمد بن مسلمة ، عن أبيه ، عن جده ، عن محمد بن مسلمة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه إلى بنى النضير ، وأمره أن يؤجلهم فى الجلاء ثلاث ليال .

وقوله : (ولهم فى الآخرة عذاب النار) ، أى : حتم لازم لابد لهم منه .

وقوله : (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله) ، أى : إنما فَعَل الله بهم ذلك وسلّط عليهم رسوله وعباده المؤمنين ، لأنهم خالفوا الله ورسوله ، وكذبوا بما أنزل الله على رسله المتقدمين فى البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم . ثم قال : (ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب) .

---

(١) فى المخطوطة : «ودبروها» . والمثبت عن الدر المنثور ، والطبعات السابقة . ولعل معنى «ودربوها» : جعلوا لها دروبا ، وهى الطرق .

(٢) أى : حملت .

(٣) أخرجه البيهقى فى الدلائل ، انظر الدر المنثور : ٦/١٩١ .

وقوله تعالى : (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ، وليخزى الفاسقين) ، اللين : نوع من التمر ، وهو جيد .

قال أبو عبيدة : وهو ما خالف العجوة والبرنى من التمر (١) .

وقال كثيرون من المفسرين : اللينة : ألوان التمر سوى العجوة .

قال ابن جرير : هو جميع النخل (٢) . ونقله عن مجاهد : وهو البُوَيرة (٣) أيضاً ؛ وذلك أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم إهانة لهم ، وإرهاباً وإرعاباً لقلوبهم . فروى محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان أنهم قالوا : [فبعث بنو النضير] (٤) يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنك تنهى عن الفساد ، فما بالك تأمر بقطع الأشجار ؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة ، أى : ماقطعتم وما تركتم من الأشجار فالجميع باذن الله ومشيئته وقدرته ورضاه ، وفيه نكاية العدو ، وخزى لهم ، وإرغام لأنوفهم .

وقال مجاهد : نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل ، وقالوا : إنما هى مغانم المسلمين . فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه ، وتحليل من قطعه من الإثم ، وإنما قطعه وتركه بإذنه .

وقد روى نحو هذا مرفوعاً ، فقال النسائى : أخبرنا الحسن بن محمد ، عن عفان ، حدثنا حفص بن غياث ، حدثنا حبيب بن أبى عمرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، فى قوله : (ما قطعتم من لينه أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين) ، قال : يستنزلونهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل ، فحاك فى صدورهم ، فقال المسلمون قطعنا بعضا وتركنا بعضا ، فلنسألن رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل لنا فيما قطعنا من أجر ؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر ؟ فأنزل الله : (ما قطعتم من لينة) .

وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده : حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا حفص ، عن ابن جريج ، عن سليمان بن موسى ، عن جابر ــ وعن أبى الزبير ، عن جابر ــ قال : رخص لهم فى قطع النخل ، ثم شدد عليهم ، فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا : يارسول الله ، علينا إثم فيما قطعنا ؟ أو علينا وزر فيما تركنا ؟ فأنزل الله عز وجل : (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن موسى بن عقبة ، عن نافع ، عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ قطع نخل بنى النضير وحرّق (٥) .

---

(١) لفظ أبى عبيدة كما فى مجاز القرآن ٢/٢٥٦ : (ما قطعتم من لينة) ، أى : من نخلة ، وهى ألوان النخل ما لم تكن العجوة أو البرنى ، إلا أن الواو ذهبت لكسرة اللام .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٨/٢٢ . ولكن الطبرى قال بعد ذلك : ٢٨/٢٣ : « والصواب من القول فى ذلك قول من قال : اللينة : النخلة ، وهى من ألوان النخل ما لم تكن عجوة » .

(٣) البويرة : موضع كان به نخلهم .

(٤) ما بين القوسين مكانه بياض فى الأصل . وفى الطبعات السابقة : « فبعث بنو قريظة » ، ولا شك أنه تصحيف ، انظر تفسير الطبرى : ٢٨/٢٣ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٢/٧ – ٨ .

وأخرجه صاحبا الصحيح من رواية موسى بن عقبة ، بنحوه ، ولفظ البخاري من طريق عبد الرزاق عن ابن جريج ، عن موسى بن عقبة ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : حاربت النضيرُ وقريظة ، فأجلى بني النضير وأقر قريظة ومَنّ عليهم حتى حاربت قريظة فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين ، إلا بعضهم لحقوا بالنبي — صلى الله عليه وسلم — فأمَّنهم وأسلموا ، وأجلى يهود المدينة كلهم بني قينقاع ، وهم رهط عبد الله بن سلام ، ويهود بني حارثة ، وكل يهود بالمدينة(١) .

ولهما أيضاً عن قتيبة ، عن الليث بن سعد ، عن نافع ، عن ابن عمر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حرّق نخل بني النضير وقطع — وهي البويرةُ — فأنزل الله عز وجل فيه : (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها ، فبإذن الله ، وليخزي الفاسقين) (٢) .

وللبخاري — رحمه الله — من رواية جُوَيْرية بن أسماء عن نافع عن [عبد الله بن عمر] أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حرّق نخل بني النضير (٣) ولها يقول حسان [بن ثابت] رضي الله عنه :

وَهَانَ عَلَى سَراة بني لُؤيّ حَريق بالبُوَيرة مُسْتَطِرُ(٤)

فأجابه أبو سفيان بن الحارث يقول :

أدَام اللهُ ذَلكَ من صَنيع وَحَرّقَ في نَوَاحيها السَّعير

ستَعلم أيّنا منها بنُزْه(٥) وَتَعلَمُ أيّ أرْضينا نضيرُ(٦)

كذا رواه البخاري ، ولم يذكره ابن إسحاق(٧) .

وقال محمد بن إسحاق : وقال كعب بن مالك يذكر إجلاء بني النضير وقتل ابن الأشرف :

لَقَدْ خزِيتْ بغَدْرَتها الحُبُور(٨) كذَاكَ الدهرَ ذو صَرْف يَدُور

وَذَلكَ أنّهم كفَرُوا بربّ عَظيم أمرُهُ أمْرٌ كَبيرُ

وقَد أوتوا معاً فَهما وعلما وجَاءهُمُ مِن الله النّذيرُ

نَذير صَادق أدّى كتابا وآيات مُبَيّنَةٌ تُنير

فقَال : مَا أتيت بأمر صدق وأنت بمنكر منا جَدير

---

(١) البخاري ، كتاب المغازي ، باب « حديث بني النضير » : ١١٢/٥ . ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب « جواز قطع أشجار الكفار وتحريقها » : ١٤٥/٥ .

(٢) البخاري ومسلم في الكتاب والباب المتقدمين ، انظر مسلم : ١٤٥/٥ ، والبخاري : ١١٣/٥ .

(٣) في المخطوطة : « نخل بني النضير ، وقطع البويرة » . وقوله : « وقطع البويرة » غير ثابت في البخاري ، ويبدو أنه سهو من الناسخ ، وأنه أخذه من الرواية السابقة قبل هذه .

(٤) البيت في ديوان حسان ، طبع بيروت : ١١٠ . وسيرة ابن هشام .

(٥) النزه — بضم فسكون — : البعد .

(٦) البخاري ، كتاب المغازي ، باب « حديث بني النضير ومخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم » : ١١٣/٥ .

(٧) الأبيات في سيرة ابن هشام : ٢٧٢/٢ .

(٨) الحبور : جمع حبر ، وهو العالم ، أراد بهم علماء اليهود .

فقال : بلى ، لقد أديتُ حقاً يُصدقني به الفهم الخبيرُ
فمن يتبعه يهدَ لكلِّ رُشد ومَن يكفُرْ به يُجزَ الكفُور
فلمّا أشربُوا غدْراً وكفْراً وجدّ بهم عن الحقّ النفور
أرَى اللهُ النبيّ برأى صدْق وكان الله يحكُم لايجُورُ
فأيّدَهُ وسلّطَه عليهم وكان نصيرُه نعْم النّصيرُ
فغُودرَ منهمو كعب صريعاً فذلّتْ بعدَ مصْرَعه النّضيرُ
على الكفّين ثمَّ وقدْ علَتْهُ بأيدينا مُشْهَرَة ذكورُ(١)
بأمْر مُحمّد إذ دَس ليلا إلى كعب أخا كعب يسيرُ
فماكرَه فأنزلَه بمكْر ومحمودُ أخُو ثقة جسُورُ
فتلكَ بنُو النّضير بدار سَوء أبارَهُمُ بما اجترموا (٢)المُبيرُ
غداةَ أتاهُم في الزّحْف رَهْواً(٣) رَسُولُ الله،وهْوَبهم (٤)بَصيرُ
وغسّانُ الحماةُ مُوازرُوه علَى الأعداء،وهْولَهم وزيرُ
فقالَ:السلْم،ويحكمُ فصَدّوا وحالفَ أمْرَهم كذبٌ وزُورُ
فذاقُوا غبّ أمْرهمُ دَبالا (٥) لكلِّ ثلاثة منهم بَعير
وأجلوا عامدين لقَينُقاع وغُودرَمنهمُ نخْلٌ ودُورُ(٦)

قال : وكان مما قيل من الأشعار فى بنى النضير قولُ ابن لُقَيم العَبْسىّ ــ ويقال : قالها قيس بن بحر بن طريف ، قال ابن هشام : الأشجعى ــ :

أهلى فداءٌ لامرىء غير هالك أحلّ اليهودَ بالحَسِىّ(٧)المُزنّم

---

(١) مشهرة ذكور : سيوف مسلولة من أغمادها ، وذكور : جمع ذكر ــ بفتحتين ــ : وهو القوى الصلب .

(٢) أى : اكتسبوا .

(٣) يقال : «جاءت الخيل والإبل رهوا» : أى ساكنة ، وقيل : متتابعة .

(٤) فى المخطوطة : «وهو لم نصير» . والمثبت عن سيرة ابن هشام .

(٥) كذا فى مخطوطة الأزهر : «دبالا» . وفى سيرة ابن هشام : «وبالا» ، بالواو . والدبال ــ بفتح الدال ، كما يقول ابن الأعرابى ــ : النفايات : وعليه فى «دبال» مناسبة اسياق .

(٦) سيرة ابن هشام : ١٩٩/٢ ــ ٢٠٠ .

(٧) قال السهيلى فى الروض الأنف ١٧٧/٢ : «يريد أحلهم بأرض غربة وفى غير عشائرهم . والزنيم والمزنم : الرجل يكون فى القوم وليس منهم ، أى : أنزلهم بمنزلة الحسى ، أى : المبعد الطريد . وإنما جعل الطريد الذليل حسيا ؛ لأنه عرضة الأكل . والحسى والحسو : ما يحسى من الطعام حسوا ؛ أى : أنه لا يمتنع على آكل . ويجوز أن يريد بالحسى معنى الغلى من الغنم ، وهو الصغير الضعيف الذى لا يستطيع الرعى ... وقد أكثرت التنقير عن (الحسى) فى مظانه من اللغة ، فلم أجد نصاً شافياً أكثر من قول أبى على : الحسية والحسى : ما يحسى من الطعام ، وإذ قد وجدنا الغلى واحد غذاء الغنم ، فالحسى فى معناه غير ممتنع أن يقال ، والله أعلم .

والمزنم أيضاً : «صغار الإبل» .

يَقيلُونَ فى جَمْرِ الغَضَاةِ (١) وبُدِّلُوا ... أُهَيضِبَ (٢) عودا بالوَدِىِّ المُكَمَّمِ (٣)
فإن يكُ ظنى صادقاً بمُحمَّد ... يرَوا خيلَه بين الصَّلا ويَرَمْرَمِ (٤)
يَؤُمّ بها عمرو بنُ بُهثَةَ ، إنَّهُمْ ... عَدُوٌّ ، وما حَىٌّ صَديق كمُجْرِمِ
علَيهن أبطال مَساعيرُ (٥) فى الوَغَى ... يَهُزُّونَ أطرافَ الوَشيج (٦) المُقَوَّمِ
وكُلَّ رَقيق الشَّفرتَين مُهنَّدٍ ... تُوُورِثْنَ من أزمان عاد وَجُرْهُمِ
فَمَن مُبلغٌ عَنى قُرَيشا رسالَةً ... فهَل بَعدَهُم فى المَجْد من مُتَكَرَّمِ
بأنّ أخاكُم فاعلَمُنَّ مُحَمَّداً ... تَليدُ النَّدَى بينَ الحَجُون وزَمْزَمِ
فَدينُوا له بالحق تَجْسُمْ أُمُورُكم ... وتَسْمُوا منَ الدنيا إلى كُلِّ مُعْظَمِ
نبي تلافتَه (٧) منَ الله رَحمَةٌ ... ولاَ تَسْألُوهُ أمْرَ غَيب مُرَجَّمِ
فقَدْ كان فى بَدْرٍ لعَمْرى عِبرَةٌ ... لَكُم ياقُرَيش والقَليب المُلَمَّمِ
غَدَاةَ أتَى فى الخَزْرَجيَّةِ عامِداً ... إليكُم مُطيعاً للعَظيم المُكَرَّمِ
مُعَاناً بِرُوح القُدْس يَنكى (٨) عَدُوَّه ... رَسُولاً منَ الرَّحمن حَقّاً بمَعْلَمِ (٩)
رَسُولا منَ الرَّحمن يَتلُو كتابَهُ ... فلَمَّا أنارَ الحَقّ لم يَتَلَعْثَمِ
أرَى أمْرَهُ يَزْدادُ فى كُلِّ مَوْطن ... عُلُوّاً لأمْرٍ حَمَّهُ (١٠) اللهُ مُحْكَمِ (١١)

وقد أورد ابن إسحاق — رحمه الله — هاهنا أشعاراً كثيرة ، فيها آداب ومواعظ وحكم ، وتفاصيل للقصة ، تركنا باقيها اختصارا واكتفاء بما ذكرناه ، ولله الحمد والمنة .

قال ابن إسحاق : كانت وقعة بنى النضير [بعد وقعة أحد وبعد بئر معونة . وحكى البخارى ، عن الزهرى ، عن عروة أنه قال : كانت وقعة بنى النضير] بعد بدر بستة أشهر (١٢) .

---

(١) الغضاة : واحدة الغضى ، وهو شجر .
(٢) كذا فى المخطوطة : «عودا» ، وفى سيرة ابن هشام : «عودى» . وقال أبو ذر فى شرح السيرة «غودى» : اسم موضع .
(٣) الودى : صغار النخل . والمكمم : الذى خرج طلعه .
(٤) الصلا ويرمرم : موضعان .
(٥) المساعير : الذين يسعرون الحرب ويثيرونها .
(٦) الوشيج : الرماح .
(٧) أى : تداركته .
(٨) نكى عدوه : أصاب منه .
(٩) المعلم : الموضع المرتفع المشرف .
(١٠) أى : قدره .
(١١) سيرة ابن هشام : ٢/١٩٥ — ١٩٦ .
(١٢) البخارى ، كتاب المغازى ، باب «حديث بنى النضير ، ومخرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إليهم فى دية الرجلين» : ١١٢/٥ .

وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾

يقول تعالى مبينا لمال الفيء ، وما صفته ؟ وما حكمه ؟ فالفيء : كلّ مال أخذ من الكفار بغير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب ، كأموال بني النضير هذه ، فإنها مما لم يُوجِف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، أي : لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة ، بل نَزَل أولئك من الرعب الذى ألقى الله فى قلوبهم من هَيبة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأفاءه الله على رسوله ، ولهذا تصرف فيه كما شاء ، فردّه على المسلمين فى وجوه البر والمصالح التى ذكرها الله ــ عز وجل ــ فى هذه الآيات ، فقال : (وما أفاء الله على رسوله منهم) ، أى : من بنى النضير ، (فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب) ، يعنى : الإبل ، (ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ، والله على كل شىء قدير) ، أى : هو قدير لا يُغالَب ولا يُمانَع، بل هو القاهر لكل شىء .

ثم قال : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى) ، أى : جميع البلدان التى تُفتَح هكذا ، فحكمها حكم أموال بنى النضير . ولهذا قال : (فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين) ؛ إلى آخرها والتى بعدها . فهذه مصارفُ أموال الفىء ووجوهه .

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن عمرو ومعمر ، عن الزهرى ، عن مالك بن أوس بن الحدَثان ، عن عمر ــ رضى الله عنه ــ قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يُوجِف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فكانت لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ خالصة ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته ــ وقال مرّة : قوت سنته ــ وما بقى جعله فى الكُرَاع والسلاح فى سبيل الله عز وجل (١) .

هكذا أخرجه أحمد هاهنا مختصرا ، وقد أخرجه الجماعة فى كتبهم ــ إلا ابن ماجه ــ من حديث سفيان ، عن عمرو ابن دينار ، عن الزهرى ، به (٢) . وقد رويناه مطولا فقال أبو داود رحمه الله :

(١) مسند الإمام أحمد : ١/ ٢٥ ، ٤٨ .

(٢) البخارى ، كتاب الجهاد «والمجن ومن يتترس بترس صاحبه» : ٤/ ٤٦ . ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب «حكم الفىء» : ٥/ ١٥١ . والنسائى ، كتاب قسم الفىء : ٧/ ١٣٢ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الجهاد ، باب «ما جاء فى الفىء» ، الحديث ١٧٧٣ : ٥/ ٣٨١ ــ ٣٨٢ . وسنن أبى داود ، كتاب الخراج والإمارة ، باب «فى صفايا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من الأموال» .

حدثنا الحسن بن على ومحمد بن يحيى بن فارس — المعنى واحد — قالا : حدثنا بشر بن عُمَر الزهرانى ، حدثنى مالك بن انس ، عن ابن شهاب ، عن مالك بن أوس قال : أرسل إلىّ عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — حين تعالى النهار ، فجئته فوجدته جالسا على سرير مُفضياً إلى رُماله(١) ، فقال حين دخلت عليه : يا مالِ ، إنه قد دَفّ(٢) أهل أبيات من قومك ، وقد أمرت فيهم بشيء ، فاقسم فيهم . قلت : لو أمرتَ غيرى بذلك ؟ فقال : خذه . فجاءه يرفا(٣) فقال : يا أمير المؤمنين ، هل لك فى عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص؟ فقال : نعم . فأذن لهم فدخلوا ، ثم جاءه يرفا فقال : يا أمير المؤمنين ، هل لك فى العباس وعلىّ ؟ قال : نعم . فأذن لهم فدخلوا ، فقال العباس : يا أمير المؤمنين ، اقض بينى وبين هذا — يعنى عليا — فقال بعضهم : أجل يا أمير المؤمنين ، اقض بينهما وأرحهما . قال مالك بن أوس : خُيِّل إلى أنهما قدّما أولئك النفر لذلك . فقال عمر — رضى الله عنه — : اتئدا . ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقومُ السماء والأرض ، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا نُورَث ، ما تركنا صدقة » . قالوا : نعم . ثم أقبل على علىّ والعباس فقال : أنشدُكما بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض ، [هل] تعلمان أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « لا نورث ، ما تركنا صدقة » . فقالا : نعم . فقال : فإن الله خصّ رسوله بخاصة لم يخص بها أحداً من الناس ، فقال : (وماأفاء الله على رسوله منهم ، فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ، ولكنّ الله يسلّط رُسُله على من يشاء ، والله على كل شىء قدير) ؛ فكان الله أفاء على رسوله أموال بنى النضير ، فوالله ما استأثر بها عليكم ولا أحرزها دونكم(٤)، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ منها نفقة سنة — أو : نفقته ونفقة أهله سنة — ويجعل ما بقى أسوةَ(٥) المال . ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض : هل تعلمون ذلك ؟ قالوا : نعم . ثم أقبل على علىّ والعباس فقال : أنشدكما بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض : هل تعلمان ذلك ؟ قالا : نعم . فلما تُوفى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال أبو بكر : « أنا ولىّ رسول الله » ، فجئت أنت وهذا إلى أبى بكر ، تطلب أنتَ ميراثك من ابن أخيك ، ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها ، فقال أبو بكر — رضى الله عنه — : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا نورث ، ما تركنا صدقة » . والله يعلم إنه لصادق بار راشد تابع للحق . فوليها أبو بكر ، فلما توفى قلتُ : أنا وَلِىّ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وولىّ أبى بكر ، فَوَليتها ما شاء الله أن أليها ، فجئتَ أنت وهذا ، وأنتما جميع وأمركما واحد ، فسألتمانيها ، فقلت : إن شئتما فأنا أدفعها إليكما على أنّ عليكما عهد الله أن تلياها بالذى كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يليها ، فأخذتماها منى على ذلك ، ثم جئتمانى لأقضى بينكما بغير ذلك . والله لا أقضى بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة ، فإن عجزتُما عنها فرُدّاها إلىّ »

---

(١) أى : موصلا جسده إلى رماله . ورمال السرير : ما ينسج فى وجهه بالسعف .
(٢) أى : جاءوا مسرعين .
(٣) يرفا : غلام لعمر رضى الله عنه .
(٤) كذا فى المخطوطة ، وفى سنن أبى داود ومسلم : « ولا أخذها » .
(٥) أى : بحيث لا ينفرد به أحد .
(٦) سنن أبى داود ، كتاب الخراج والإمارة ، باب « فى صفايا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من الأموال » .

أخرجوه من حديث الزهرى(١) به . وقال الإمام أحمد :

حدثنا عارم وعفان قالا : حدثنا معتمر : سمعت أبى يقول: حدثنا أنس بن مالك ، عن نبيّ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن الرجل كان يَجعل له من ماله النخَلات ، أو كما شاء الله ، حتى فتِحَت عليه قريظة والنضير . قال : فجعل يَرُدّ بعد ذلك ، قال : وإنّ أهلى أمرونى أن آتى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأسأله الذى كان أهله أعطوه أو بعضه ، وكان نبى الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد أعطاه أمّ أيمن ، أو كما شاء الله ، قال : فسألتُ النبىّ ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأعطانيهن ، فجاءت أم أيمن فجعلت الثوبَ فى عنقى وجعلت تقول : كلا ، والله الذى لا إله إلا هو لا يُعطيكَهُنّ وقد أعطانيهن ، أو كما قالت ، فقال نبى الله : « لك كذا وكذا » . قال : وتقول : كلا ، والله . قال : ويقول : « لك كذا وكذا » . قال : وتقول : كلا والله . قال : « ويقول : لك كذا وكذا » . قال : حتى أعطاها ، حسبت أنه قال : عشرة أمثاله أو قال قريبا من عشرة أمثاله ، أو كما قال(٢) .

رواه البخارى ومسلم من طُرُق عن معتمر ، به (٣) .

وهذه المصارف المذكورة فى هذه [الآية] هى المصارف المذكورة فى خُمس الغَنيمة . وقد قدمنا الكلام عليها فى « سورة الأنفال » بما أغنى عن إعادته هاهنا ، ولله الحمد .

وقوله : (كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم) ، أى : جعلنا هذه المصارف لمال الفىء لئلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها ، بمحض الشهوات والآراء ، ولا يصرفون منه شيئا إلى الفقراء .

وقوله : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) ، أى : مهما أمركم به فافعلوه ، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه ، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا يحيى بن أبى طالب ، حدثنا عبد الوهاب ، حدثنا سعيد ، عن قتادة ، عن الحسن العوفى ، عن يحيى بن الجزار ، عن مسروق قال : جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت : بلغنى أنك تنهى عن الواشمة والواصلة(٤) ، أشىء وجدته فى كتاب الله أو عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال : بلى ، شىء وجدته فى كتاب الله وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت : والله لقد تصفحتُ ما بين دفتى المصحف فما وجدت الذى تقول! . قال : فما وجدت فيه: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) ؟ قالت : بلى . قال : فإنى سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ

---

(١) البخارى ، كتاب الخمس : ٩٦/٤ ــ ٩٨ . ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب « حكم الفىء » : ١٥١/٥ ــ ١٥٣ . والنسائى ، كتاب قسم الفىء : ١٣٦/٧ ــ ١٣٧ . وتحفة الأحوذى ، أبواب السير ، باب « ما جاء فى تركة النبى ــ صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ١٦٥٩ : ٢٣٣/٥ ــ ٢٣٥ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢١٩/٣ .

(٣) البخارى ، كتاب الخمس ، باب « كيف قسم النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قريظة والنضير » : ١٠٦/٢ . وكتاب المغازى ، باب « حديث بنى النضير ومخرج رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إليهم فى دية الرجلين ... » : ١١٣/٥ . ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب « رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم من الشجر والثمر ، حين استغنوا عنها بالفتوح » : ١٦٣/٥ .

(٤) هى التى توصل شعرها بشعر غيرها زوراً وكذباً .

ينهى عن الواصلة والواشمة والنامصة(١) . قالت : فلعله فى بعض أهلك : قال : فادخلى فانظرى : فدخلت [فنظرت] ثم خرجت ، قالت : ما رأيتُ بأساً . فقال لها : أما حفظت وصية العبد الصالح : (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه)(٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا سفيان ، عن منصور ، [عن إبراهيم](٣) ، عن علقمة ، عن عبدالله — هو ابن مسعود — قال : لعن الله الواشمات والمستوشمات ، والمتنمصات ، والمُتَفَلِّجات(٤) للحُسْن ، المغيِّرات خلق الله عز وجل . قال : فبلغ امرأة فى البيت يقال لها « أم يعقوب » ، فجاءت إليه فقالت : بلغنى أنك قلت كيتَ وكيتَ قال : مالى لا ألعن مَن لعن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وفى كتاب الله : فقالت : إنى لأقرأ ما بين لوحَيه فما وجدته . فقال : إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه . أما قرأت : (وماآتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا) ؟ قالت : بلى . قال : فإن النبى — صلى الله عليه وسلم — نهى عنه : قالت : لأظن أهلك يفعلونه . قال : اذهبى فانظرى . فذهبَتْ فلم تر من حاجتها شيئا ، فجاءت فقالت : ما رأيتُ شيئا : قال : كانت كذلك لم تُجَامعنا (٥) .

أخرجاه فى الصحيحين ، من حديث سفيان الثورى (٦) .

وقد ثبت فى الصحيحين أيضا عن أبى هُرَيرة أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم ، ومانهيتكم عنه فاجتنبوه » .(٧)

وقال النسائى : أخبرنا أحمد بن سعيد ، حدثنا يزيد ، حدثنا منصور بن حيان ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عُمَر ، وابن عباس : أنهما شهدا على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : أنه نهى عن الدُّباء والحَنْتَم والنَّقير والمزَفَّت ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا) .

وقوله : (واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب) ، أى : اتقوه فى امتثال أوامره وترك زواجره ؛ فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه ، وارتكب ما عنه زَجَره ونهاه .

---

(١) هى التى تنتف الشعر من وجهها .

(٢) سورة هود : ٨٨ .

(٣) ما بين القوسين من المسند ، والبخارى ، ومسلم .

(٤) هن اللاتى يباعدن ما بين الثنايا والرباعيات ، بترقيق الأسنان بالمبرد .

(٥) مسند الإمام أحمد : ١/٤٣٣ — ٤٣٤ .

(٦) البخارى ، تفسير سورة الحشر : ٦/١٨٤ . ومسلم ، كتاب اللباس ، باب « تحريم فعل الواصلة ... » : ٦/١٦٦ — ١٦٧ .

(٧) البخارى ، كتاب الاعتصام ، باب « الاقتداء بسنن رسول الله — صلى الله عليه وسلم » : ٩/١١٦ — ١١٧ . ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب « توقيره — صلى الله عليه وسلم — وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه ... » : ٧/٩١ .

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝﴾

يقول تعالى مُبَيّنا حالَ الفقراء المستحقين لمال الفيء أنهم (الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا) ، أى : خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاءَ مرضاة الله ورضوانه ، (وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون) ، أى : هؤلاء الذين صَدَقوا قولَهم بفعلهم ، وهؤلاء هم سادات المهاجرين .

ثم قال تعالى مادحا للأنصار ، ومبينا فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حَسَدهم ، وإيثارهم مع الحاجة ، فقال : (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم) ، أى : سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبلَ كثير منهم .

قال عمر : وأوصي الخليفةَ بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم كرامتهم . وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تَبوّءوا الدار والإيمان من قبل ، أن يقبل من محسنهم ، وأن يعفو عن مسيئهم . رواه البخارى(١) هاهنا أيضا .

وقوله : (يحبون من هاجر إليهم) ، أى : مِنْ كَرَمهم وشرف أنفسهم ، يُحبّون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، أخبرنا حميد ، عن أنس قال : قال المهاجرون : يا رسول الله ، ما رأينا مثل قوم قَدمنا عليهم أحسنَ مواساةً فى قليل ولا أحسن بذلا فى كثير ، لقد كَفَونا المؤُنَة(٢)، وأشركونا فى المهنأ(٣)، حتى لقد خَشينا أن يذهبوا بالأجر كلّه ! قال : « لا ، ما أثنيتم (٤)عليهم ودَعَوتم الله لهم(٥) » .

لم أره فى الكتب من هذا الوجه(٦) .

---

(١) البخارى ، تفسير سورة الحشر : ٦/١٨٥ .
(٢) أى : تحملوا عنا موّنة الخدمة فى عمارة الدور والنخيل وغيرها .
(٣) المهنأ : ما يأتيك بلا تعب . والمعنى : أشركونا فى ثمار نخيلهم .
(٤) أى : ما دمتم تدعون لهم بخير ، فإن دعاءكم يقوم بحسناتهم إليكم .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٣/٢٠٠ - ٢٠١ ، ٢٠٤ .
(٦) أخرجه الترمذى فى أبواب صفة القيامة ، من طريق حميد ، عن أنس ، بنحوه . انظر تحفة الأحوذى ، الحديث ٢٦٠٤ : ٧/١٨٨ - ١٨٩ .

وقال البخاري : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا سفيان ، عن يحيى بن سعيد ، سمع أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال : دعا النبي — صلى الله عليه وسلم — الأنصار أن يُقطِعَ لهم البحرين ، قالوا : لا ، إلا أن تُقطع لإخواننا [من] المهاجرين مثلها . قال : « إما لا (١) ، فاصبروا حتى تلقوني ، فإنه سيصيبكم [بعدي (٢)] أثرة (٣) » .

تفرد به البخاري من هذا الوجه (٤) .

وقال البخاري : حدثنا الحكم بن نافع ، أخبرنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هُرَيْرة قال : قالت الأنصار : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل.قال : لا . فقالوا : تكفونا المؤنةَ وَنَشْرَكُكم في الثمرة ؟ قالوا : سمعنا وأطعنا (٥) . تفرد به دون مسلم .

(ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا) ، أي : ولا يجدون في أنفسهم حسدًا للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف ، والتقديم في الذكر والرتبة .

قال الحسن البصري : (ولا يجدون في صدورهم حاجة) ، يعني الحسد (٦) .

(مما أوتوا) قال قتادة : يعني فيما أعطى إخوانهم . وكذا قال ابن زيد . ومما يستدل به على هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد حيث قال :

حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهري ، عن أنس قال : كنا جُلوساً مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » . فطلع رجل من الأنصار تَنطُف (٧) لحيته من وضوئه ، قد تَعَلَّق نعليه بيده الشمال فلما كان الغد قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى . فلما كان في اليوم الثالث قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مثل مقالته أيضاً ، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى . فلما قام رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقال : إني لاحيت (٨) أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثا ، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي [فعلتُ] . قال : « نعم » . قال أنس : فكان عبد الله

---

(١) هذه الكلمة ، وهي : « إما لا » ترد في المحاورات كثيراً ، وقد جاءت في غير موضع من الحديث ، وأصلها « إن » و « ما » و « لا » . فأدغمت النون في الميم ، و « ما » : زائدة في اللفظ لا حكم لها . وقد أمالت العرب « لا » إمالة خفيفة . والمعنى : « إن لم تفعل هذا فليكن هذا » . والمعنى هنا : إن لم تقبلوا أن أقطعكم فاصبروا ... » .

(٢) ما بين القوسين عن البخاري .

(٣) الأثرة : الإيثار . والمعنى : أنه يستأثر عليكم ، فيفضل غيركم في نصيبه من الفيء .

(٤) البخاري ، كتاب مناقب الأنصار ، باب قول النبي — صلى الله عليه وسلم — للأنصار : « اصبروا حتى تلقوني على الحوض » : ٥/٤٢ .

(٥) البخاري ، كتاب المزارعة ، باب « إذا قال : اكفني مؤونة النخل أو غيره وتشركني في الثمر » : ٣/١٣٦ .

(٦) تفسير الطبري : ٢٨/٢٨ .

(٧) أي : تقطر

(٨) لاحيت : نازعت .

يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالي ، فلم يره يقوم من الليل شيئا ، غير أنه إذا تعارّ(١) وتقلب على فراشه ، ذكر الله وكبر ، حتى يقوم لصلاة الفجر . قال عبد الله : غير أنى لم أسمعه يقول إلا خيرا ، فلما مضت الثلاث ليال وكدت أن أحتقر عمله ، قلت : يا عبدالله، لم يكن بينى وبين أبى غَضَب ولا هَجْر(٢)، ولكن سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول لك ثلاث مرّار(٣) : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » . فطلعت أنت الثلاث المرار(٣) ، فأردت أن آوى إليك لأنظر ما عملكَ فأقتدىَ به ، فلم أرك تعمل كثير عمل ، فما الذى بلغ بك ما قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت . فلما وليت دعانى فقال : ماهو إلاما رأيت ، غير أنى لا أجدُ فى نفسى لأحد من المسلمين غشا ، ولا أحسُد أحداً على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله : هذه التى بلغت بك وهى(٤) التى لا تطاق(٥) .

ورواه النسائى فى اليوم والليلة عن سُوَيد بن نصر ، عن ابن المبارك ، عن معمر ، به . وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين ، لكن رواه عقيل وغيره عن الزهرى ، عن رجل ، عن أنس . فالله أعلم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : (ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا) ، يعنى مما أوتوا : المهاجرون ؛ قال : وتكلم فى أموال بنى النضير بعض من تكلم فى الأنصار ، فعاتبهم الله فى ذلك ، فقال : (وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء ، والله على كل شىء قدير) ، قال : وقال رسول الله : « إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم » . فقالوا : أموالنا بيننا قطائع . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أو غير ذلك ؟ » . قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : « هم قوم لا يعرفون العمل ، فتكفونهم وتقاسمونَهم الثمر » . فقالوا : نعم يا رسول الله(٦) .

وقوله : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) ، يعنى : حاجة ، أى : يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ، ويبدءون بالناس قبلهم فى حال احتياجهم إلى ذلك .

وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أفضلُ الصدقة جَهدُ المقلّ(٧) » . وهذا المقام أعلى من حال الذين وَصَفَ اللهُ بقوله : (ويطعمون الطعام على حبِّه) (٨) . وقوله : (وآتى المال على حبه) (٩) ،

(١) فى المخطوطة : « تعار تقلب » ، دون واو العطف . والمثبت عن المسند ، وتعار : استيقظ .
(٢) فى المخطوطة : « ولا هجرة » . والمثبت عن المسند .
(٣) فى المخطوطة : « مرات » . والمثبت عن المسند ، ويبدو أنها فى المخطوطة كذلك ثم أحال الناسخ الراء تاء . والمرار : جمع مرة .
(٤) فى المسند : « وهى التى لا نطيق » .
(٥) مسند الإمام أحمد : ١٦٦/٣ .
(٦) تفسير الطبرى : ٢٨/٢٨ .
(٧) سنن أبى داود ، كتاب الوتر ، باب « فى فضل التطوع فى البيت » . والنسائى ، كتاب الزكاة ، باب « جهد المقل » : ٥٨/٥ . ومسند الإمام أحمد عن أبى هريرة : ٣٥٨/٢ . وعن عبد الله بن حبشى : ٤١١/٣ — ٤١٢ . وعن أبى ذر : ١٧٨/٥ ، ١٧٩ ، ٢٦٥ .
(٨) سورة الإنسان ، آية : ٨ .
(٩) سورة البقرة ، آية : ١٧٧ .

فإن هؤلاء يتصدقون وهم يحبون ماتصدقوا به،وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورةٌ به ، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خَصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه . ومن هذا المقام تصدق الصدّيق – رضى الله عنه – بجميع ماله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أبقيت لأهلك ؟ » . فقال : أبقيت لهم الله ورسوله (١) . وهذا الماءُ الذى عُرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك ، فكلٌ منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه ، وهو جريح مثقل أحوجَ ما يكون إلى الماء ، فرده الآخر إلى الثالث ، فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم ، رضى الله عنهم وأرضاهم .

وقال البخارى : حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن كَثير ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنا فُضَيل بن غَزْوان ، حدثنا أبو حازم الأشجعىّ ، عن أبى هُرَيرة قال : أتى رجل رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : يا رسول الله ، أصابنى الجهدُ ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهنّ شيئا ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ألا رجل يُضَيِّفُ هذا الليلة ، رحمه الله ؟ » ، فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله . فذهب إلى أهله فقال لامرأته : ضَيفُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لا تَدّخريه شيئا . فقالت : والله ما عندى إلا قوتُ الصّبية . قال : فإذا أراد الصبيةُ العَشاء فنوّميهم وتعالى فأطفئى السراج ونَطوى بطوننا الليلة . ففعلَت ، ثم غدا الرجل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : « لقد عجب الله – عز وجل ، أو : ضحك – من فلان وفلانة » . وأنزل الله – عز وجل – : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (٢)) .

وكذا رواه البخارى فى موضع آخر ، ومسلم والترمذى والنسائى من طرق ، عن فضيل بن غزوان ، به نحوه ؛ وفى رواية لمسلم تسمية هذا الأنصارى بأبى طلحة ، رضى الله عنه (٣) .

وقوله : (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) ، أى : من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح .

قال : أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا داود بن قيس الفراء ، عن عُبَيد (٤) الله بن مقسم ، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « إياكم والظّلم فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة ، واتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم (٥) » .

انفرد باخراجه مسلم ، فرواه عن القعنبى ، عن داود بن قيس ، به (٦) .

---

(١) تحفة الأحوذى ، أبواب المناقب ، باب « مناقب أبى بكر الصديق رضى الله عنه » ، الحديث ٣٧٥٧ : ١٦١/١٠ .

(٢) البخارى ، تفسير سورة الحشر : ١٨٥/٦ .

(٣) البخارى ، كتاب مناقب الأنصار ، باب : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) : ٤٢/٥ – ٤٣ . ومسلم ، كتاب الأشربة ، باب « إكرام الضيف » : ١٢٧/٦ – ١٢٨ . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة الحشر ، الحديث ٣٣٥٩ : ١٩٧/٩ .

(٤) فى المسند : « عبد الله » . والصواب ما هنا ، انظر الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٣٣٣/٢/٢ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣٢٣/٣ .

(٦) مسلم ، كتاب البر ، باب « تحريم الظلم » : ١٨/٨ .

وقال الأعمش وشعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن عبد الله بن الحارث ، عن زهير بن الأقمر ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الظلم ؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الفحش ، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش ، وإياكم والشح ؛ فإنه أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالفجور ففجروا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا » .

ورواه أحمد وأبو داود من طريق شعبة ، والنسائى من طريق الأعمش ، كلاهما عن عمرو بن مُرّة ، به(١) .

وقال الليث ، عن يزيد ، عن سُهَيل بن أبى صالح ، عن صفوان بن أبى يزيد ، عن القعقاع بن اللجلاج(٢) عن أبى هُرَيرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخانُ جهنَّم فى جوف عبد أبدا ، ولا يجتمع الشح والإيمان فى قلب عبد أبدا(٣) » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبدة بن سليمان ، أخبرنا ابن المبارك ، حدثنا المسعودى ، عن جامع بن شداد ، عن الأسود بن هلال قال : جاء رجل إلى عبد الله فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إنى أخاف أن أكون قد هلكت ! فقال له عبد الله : وما ذاك ؟ قال : سمعت الله يقول : (ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون) ، وأنا رجل شحيح ، لا أكاد أن أخرجَ من يدى شيئاً ! فقال عبد الله : ليس ذلك بالشحّ الذى ذكر اللهُ فى القرآن ، إنما الشح الذى ذكر الله فى القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً ، ولكن ذلك البخل ، وبئس الشىء البخل(٤) .

وقال سفيان الثورى ، عن طارق بن عبد الرحمن ، عن سعيد بن جبير ، عن أبى الهياج الأسدى قال : كنت أطوف بالبيت ، فرأيت رجلا يقول : « اللهم قنى شح نفسى » : لا يزيد على ذلك ، فقلت له ، فقال : إنى إذا وقيت شح نفسى لم أسرق ولم أزن ولم أفعل » وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه . ورواه ابن جرير (٤) .

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن إسحاق ، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن الدمشقى ، حدثنا إسماعيل بن عيّاش ، حدثنا مُجَمّع بن جارية الأنصارى ، عن عمه يزيد بن جارية ، عن أنس بن مالك ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : برِئ من الشح مَن أدّى الزكاة وقَرَى الضيف ، وأعطى فى النائبة(٥) .

وقوله : (والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا ، اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم) : هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفىء ، وهم المهاجرون ثم الأنصار ، ثم التابعون بإحسان ، كما قال فى آية براءة : (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم

---

(١) سنن أبى داود ، كتاب الزكاة ، باب « فى صلة الرحم » . ومسند الإمام أحمد : ٢/١٥٩ — ١٦٠ .

(٢) فى المخطوطة : « القعقاع بن الجلاح » . والمثبت عن المسند . والجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٣/٢/١٣٦ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد من طريق صفوان بن سليم ، عن القعقاع ، انظر المسند : ٢/٣٤٢ . وانظر المسند أيضاً : ٢/٢٥٦ ، ٣٤٠ ، ٤٤١ ، ٥٠٥ . وتحفة الأحوذى ، أبواب فضائل الجهاد ، باب « ما جاء فى فضل الغبار فى سبيل الله » ، الحديث ١٦٨٣ : ٥/٢٦٠ . وقد أخرجه النسائى من طريق الليث بإسناده مثله . انظر كتاب الجهاد ، باب « فضل من عمل فى سبيل الله على قدمه » : ٧/١٣ — ١٤ .

(٤) أخرجه الطبرى من طريق جامع ، انظر : ٢٨/٢٩ .

(٥) تفسير الطبرى : ٢٨/٢٩ .

بإحسان رضى الله عنهم)(١) فالتابعون لهم بإحسان هم : المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة ، الداعون لهم فى السر والعلانية . ولهذا قال فى هذه الآية الكريمة : (والذين جاءوا من بعدهم يقولون) ، أى: قائلين : (ربنا ، اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا) ، أى : بغضاً وحسداً (للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم) . وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية الكريمة : أن الرافضى الذى يسبّ الصحابة ليس له فى مال الفىء نصيب لعدم اتصافه بما مدح الله به هؤلاء فى قولهم : (ربنا ، اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا موسى بن عبد الرحمن المسروقى ، حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ابن مهاجر عن أبيه ، عن عائشة أنها قالت : أمروا أن يستغفروا لهم ، فسبوهم ! ثم قرأت هذه الآية : (والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) ... الآية .

وقال إسماعيل ابن عُلَيّة ، عن عبد الملك بن عمير ، عن مسروق ، عن عائشة قالت : أمرتم بالاستغفار لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فسببتموهم . سمعتُ نبيكم -صلى الله عليه وسلم- يقول : « لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها أولها » . ورواه البغوى .

وقال أبو داود : حدثنا مُسَدّد ، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا أيوب ، عن الزهرى قال : قال عمر رضى الله عنه : (وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب) قال الزهرى : قال عمر : هذه لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - خاصة ، قُرى [عربية(٢): فَدَك وكذا وكذا](٣). (وكذا فما أفاء(٤) الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل)وللفقراء(٥)الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم »(والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم) (والذين جاءوا من بعدهم) ، فاستوعبت(٦) هذه [الآية] الناس ، فلم يبق أحد من المسلمين إلا له فيها حق - قال أيوب : أو قال : « حظ- إلا بعض من تملكون من أرقائكم . كذا رواه أبو داود ، وفيه انقطاع (٧).

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن أيوب ، عن عكرمة بن خالد ، عن مالك ابن أوس بن الحَدَثان قال: قرأ عمر بن الخطاب: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) حتى بلغ(عليم حكيم) ، ثم قال : هذه لهؤلاء ، ثم قرأ : (واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى) الآية ، ثم قال: هذه لهؤلاء ، ثم

---

(١) سورة التوبة ، آية : ١٠٠ .
(٢) وردت فى المخطوطة كلمة « عربية » دون نقط . وفى سنن أبى داود : « عرينية » . وفى سنن النسائى مثل ما أثبتنا .
(٣) ما بين القوسين عن سنن أبى داود .
(٤) فى المخطوطة : « مما أفاء » . وفى سنن أبى داود : « ما أفاء » . والمثبت عن النسائى .
(٥) كذا فى المخطوطة وسنن أبى داود . وفى النسائى : « للفقراء المهاجرين الذين ... » .
(٦) أى : فالفىء لهم عموماً لا يخمس ، ولكن يكون جملة لمصالح المسلمين . وهذا مذهب عامة أهل الفقه ، خلافاً للشافعى فعنده يخمس .
(٧) سنن أبى داود ، كتاب الخراج والإمارة والفىء ، باب « فى صفايا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الأموال » ، وقد أخرجه النسائى فى كتاب قسم الفىء : ٧/١٣٦ - ١٣٧ .

قرأ : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى) حتى بلغ : : للفقراء (والذين تبوءوا الدار والإيمان) ، (والذين جاءوا من بعدهم) ثم قال : استوعبت هذه [الآية] المسلمين عامة ، وليس أحد إلا له فيها حق ، ثم قال : لئن عشت ليأتين الراعي – وهو بسَرْو حِمْيَر(١) – نصيبه فيها ، لم يعرق فيها جبينه (٢) ؛

* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ (١٢) لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧)

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبي وأضرابه ، حين بعثوا إلى يهود بني النضير يَعِدُونهم النصر من أنفسهم ، فقال تعالى : (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وإن قوتلتم لننصرنكم)، قال الله تعالى : (والله يشهد إنهم لكاذبون) ، أي : لكاذبون فيما وعدوهم به إما أنهم قالوا لهم قولا ومن نيتهم أن لا يفوا لهم به ، وإما أنهم لا يقع منهم الذي قالوه . ولهذا قال : (ولئن قوتلوا لا ينصرونهم) ، أي : لا يقاتلون معهم ، (ولئن نصروهم) أي : قاتلوا معهم (ليولن الأدبار ثم لا ينصرون) ، وهذه بشارة مستقلة بنفسها ،

ثم قال تعالى : (لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله) ، أي ، يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله ، كقوله : (إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) ، ولهذا قال : (ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) .

ثم قال : (لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى مُحَصَّنة أو من وراء جُدُر) ، يعني أنهم من جُبنهم وهَلَعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقابلة ، بل إما في حصون أو من وراء جدر محاصرين ، فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة .

ثم قال : (بأسهم بينهم شديد) ، أي : عداوتهم بينهم شديدة ، كما قال : (ويذيق بعضكم بأس بعض) (٣) ، ولهذا قال : (تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى) ، أي : تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين ، وهم مختلفون غاية الاختلاف .

---

(١) في تفسير الطبري : « وهو يسير حمره » . والصواب ما هنا ، فقد ساق أبو عبيد الحديث في كتاب الأموال ٢٣ – ٢٤ ، وقال : « السرو : الخيف والنخف ، كل موضع بين انحدار وارتفاع » .

(٢) تفسير الطبري : ٢٨/٢٥ .

(٣) سورة الأنعام ، آية : ٦٥ .

قال إبراهيم النخَعى : يعنى : أهل الكتاب والمنافقين : (ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) ؛

ثم قال : (كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم . ولهم عذاب أليم) ، قال مجاهد ، والسدى ومقاتل بن حيان : كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر (١).

وقال ابن عباس : (كمثل الذين من قبلهم) ، يعنى : يهود بنى قينقاع . وكذا قال قتادة ، ومحمد بن إسحاق ؛

وهذا القول أشبه بالصواب فإن يهود بنى قينقاع كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد أجلاهم قبل هذا .

وقوله : (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان : اكفر ، فلما كفر قال : إنى برىء منك) يعنى : مثل هؤلاء اليهود فى اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين ، وقول المنافقين لهم : (لئن قوتلتم لننصرنكم) ، ثم لما حقت الحقائق وجَدّ بهم الحصار والقتال ، تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة ، مثالهم فى هذا كمثل الشيطان إذ سول للإنسان – والعياذ بالله – الكفر ، فاذا دخل فيما سوله تبرأ منه وتنصل ، وقال : (إنى أخاف الله رب العالمين) .

وقد ذكر بعضهم هاهنا قصة لبعض عباد بنى إسرائيل هى كالمثال لهذا المثل ، لا أنها المرادة وحدها بالمثل ، بل هى منه مع غيرها من الوقائع المشاكلة لها ، فقال ابن جرير :

حدثنا خلاد بن أسلم ، أخبرنا النضر بن شُمَيل ، أخبرنا شعبة ، عن أبى إسحاق ، سمعت عبد الله بن نَهيك قال : سمعت علياً – رضى الله عنه – يقول : إن راهباً تعبد ستين سنة ، وإن الشيطان أراده فأعياه ، فعمد إلى امرأة فأجَنّها ولها إخوة ، فقال لإخوتها : عليكم بهذا القس فيداويها . قال : فجاءوا بها إليه فداواها ، وكانت عنده ، فبينما هو يوما عندها إذ أعجبته ، فأتاها فحملت ، فعمد إليها فقتلها ، فجاء إخوتها ، فقال الشيطان للراهب : أنا صاحبك ، [إنك] أعييتنى ، أنا صنعت هذا بك فأطعنى أنجك مما صنعت بك ، اسجد لى سجدة.فسجد له ،فلما سجد له قال : إنى برىء منك ، إنى أخاف الله رب العالمين ، فذلك قوله : (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان : اكفر ، فلما كفر قال : إنى برىء منك ، إنى أخاف الله رب العالمين (٢) .

وقال ابن جرير : حدثنى يحيى بن إبراهيم المسعودى ، حدثنا أبى ، عن أبيه ، عن جده ، عن الأعمش ، عن عمارة ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن عبد الله بن مسعود فى هذه الآية : (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان : اكفر ، فلما كفر قال : إنى برىء منك ، إنى أخاف الله رب العالمين – قال : كانت امرأة ترعى الغنم ، وكان لها أربعة إخوة ، وكانت تأوى بالليل إلى صومعة راهب – قال : فنزل الراهب ففجَر بها ، فحملت ، فأتاه الشيطان فقال له : اقتلها ثم ادفنها ، فإنك رجل مُصَدَّق يسمع قولك . فقتلها ثم دفنها – قال : فأتى الشيطانُ إخوتها فى المنام فقال لهم : إن الراهب صاحب الصومعة فَجَر بأختكم ، فلما أحبلها قتلها ثم دفنها فى مكان كذا وكذا . فلما أصبحوا قال رجل منهم : والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدرى أقصها عليكم أم أترك ؟ قالوا : لا بل قصها علينا قال : فقصها ، فقال الآخر : وأنا والله لقد رأيت ذلك ، فقال

(١) تفسير الطبرى : ٣٢/٢٨ .

(٢) تفسير الطبرى : ٣٣/٢٨ .

الآخر : وأنا والله لقد رأيت ذلك : فقالوا فوالله ما هذا إلا لشيء ــ قال : فانطلقوا فاستعدّوا ملكهم على ذلك الراهب ، فأتوه فأنزلوه ، ثم انطلقوا به فلقيه الشيطان فقال : إنى أنا الذى أوقعتك فى هذا ، ولن ينجيك منه غيرى ، فاسجد لى سجدة واحدةً وأنجيك مما أوقعتك فيه . قال : فسجد له ، فلما أتوا به ملكهم تبرّأ منه ، وأُخِذَ فقتل .

وكذا روى عن ابن عباس ، وطاوس ، ومقاتل بن حيان ، نحو ذلك . واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو برصيصاً ، والله أعلم . وهذه القصة مخالفة لقصة جُرَيْج العابد ، فإن جريجاً اتّهمته امرأة بَغِيّ بنفسها ، وادعت أن حَمْلها منه ، ورفعت أمره إلى ولى الأمر ، فأمر به فأنزل من صومعته وخُرِبت صومعته وهو يقول : مالكم ؟ مالكم ؟ فقالوا : ياعدو الله فعلت بهذه المرأة كذا وكذا . فقال جريج : اصبروا . ثم أخذ ابنها وهو صغير جداً ثم قال : ياغلام ، من أبوك ؟ قال : أبى الراعى ــ وكانت قد أمكنته من نفسها فحملت منه فلما رأى بنو إسرائيل ذلك عظموه كلهم تعظيماً بليغاً وقالوا : نعيد صومعتك من ذهب . قال : لا ، بل أعيدوها من طين ، كما كانت .

وقوله : (فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها) ، أى : فكان عاقبة الآمر بالكفر والفاعل له ، وتصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها ، (وذلك جزاء الظالمين) ، أى : جزاء كل ظالم .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عون بن أبى جُحَيفة ، عن المنذر بن جرير ، عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى صدر النهار ، قال : فجاءه قوم حفاة عُرَاة مجتابى النمار ــ أو : العبَاء ــ متقلدى السيوف ، عامتهم من مضر ، بل كلهم من مضر ، فتغير وجه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما رأى بهم من الفاقة ، قال : فدخل ثم خرج ، فأمر بلالا فأذن وأقام الصلاة ، فصلى ثم خطب ، فقال : « ياأيها الناس ، اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » إلى آخر الآية : (إن الله كان عليكم رقيباً) . وقرأ الآية التى فى الحشر : (ولتنظر نفس ما قدمت لغد) ، تصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بره ، من صاع تمره ــ حتى قال : ولو بشق تمرة » . قال : فجاء رجل من الأنصار بصُرّة كادت كفه تعجز عنها ، بل قد عجزت ، ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب ، حتى رأيت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يتهلل وجهه كأنه مُذْهَبَة(١) فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « من سنّ فى الإسلام سنة حسنة ، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده ، من غير أن ينتقص من أجورهم شيء ، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » .

(١) المذهب ــ بضم الميم وسكون الذال ، وفتح الهاء ــ : المموه بالذهب ، يعنون بذلك الإشراق والوضاءة . وفى بعض روايات الحديث : « مدهنة » ــ بضم الميم والهاء ، بينهما دال ساكنة مهملة ، ثم نون . وهى تأنيث المدهن ، وهو ما يجعل فيه الدهن ، فيكون قد شبه الوجه بالدهن فى الصفاء .

انفرد باخراجه مسلم (١)من حديث شعبة ، بإسناده مثله .

فقوله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله) : أمر بتقواه ، وهى تشمل فعل ما به أمر ، وترك ما عنه زجر ؛

وقوله : (ولتنظر نفس ما قدمت لغد) ، أى : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم ، (واتقوا الله) : تأكيد ثان ، (إن الله خبير بما تعملون) ، أى : اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم ، لا تخفى عليه منكم خافية ، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير .

وقال(ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم)، أى: لا تنسوا ذكر الله فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم(٢) التى تنفعكم فى معادكم ، فان الجزاء من جنس العمل ، ولهذا قال : (أولئك هم الفاسقون)،أى: الخارجون عن طاعة الله الهالكون يوم القيامة ، الخاسرون يوم معادهم ، كما قال : (ياأيها الذين آمنوا ، لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون (٣) .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا أحمد بن عبد الوهاب بن نجدة الحوطى حدثنا المغيرة ، حدثنا حريز ابن عثمان ، عن نعيم بن نمحة قال : كان فى خطبة أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — : أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم . فمن استطاع أن يقضى الأجل وهو فى عمل الله — عز وجل — فليفعل ، ولن تنالوا ذلك إلا بالله عز وجل ؛ إن قوماً جعلوا آجالهم لغيرهم ، فنهاكم الله أن تكونوا أمثالهم : (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) ، أين من تعرفون من إخوانكم ؟ قدموا على ما قدموا فى أيام سلفهم ، وخلوا بالشقوة والسعادة ، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ، قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لا تفنى عجائبه فاستضيئوا منه ليوم ظلمة ، [واستنصحوا كتابه وتبيانه] (٤) إن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال : (إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ، ويدعوننا رغباً ورهباً ، وكانوا لنا خاشعين)،لا خير فى قول لا يراد به وجه الله ولا خير فى مال لا ينفق فى سبيل الله . ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه ، ولا خير فيمن يخاف فى الله لومة لائم .

هذا إسناد جيد ، ورجاله كلهم ثقات ، وشيخ حريز بن عثمان ، وهو نعيم بن نمحة(٥) ، لا أعرفه بنفى ولا إثبات ، غير أن أبا داود السجستانى قد حكم بأن شيوخ حريز كلهم ثقات . وقد روى لهذه الخطبة شواهد من وجوه أخر ، والله أعلم ؛

وقوله : (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة) ، أى : لا يستوى هؤلاء وهؤلاء فى حكم الله يوم القيامة ، كما قال : (أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، سواء محياهم ومماتهم ، ساء ما

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية الأولى من سورة النساء ، والآية الثانية عشرة من سورة يس ، وخرجناه هنالك ، وشرحنا غريبه ، انظر : ٢/١٧٩ – ١٨٠ ، ٦/٥٥١ .

(٢) فى المخطوطة : « العمل الصالح انفسكم الذى ... » . والمثبت من الطبعات السابقة .

(٣) سورة « المنافقون » ، آية : ٩ .

(٤) ما بين القوسين عن الدر المنثور ٦/٢٠١ ، ومكانه فى المخطوطة غير واضح .

(٥) لم تقع لنا ترجمته .

يحكمون) (١) : وقال : (وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملو الصالحات ولا المسيء) (٢)، الآية. وقال : (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار) (٣) ؟ فى آيات أخر دالات على أن الله — سبحانه — يكرم الأبرار ، ويهين الفجار . ولهذا قال هاهنا : (أصحاب الجنة هم الفائزون) ، أى : الناجون المسلمون من عذاب الله عز وجل .

لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى معظّما لأمر القرآن، ومبينا علو قدره ، وأنه ينبغى أن تخشع له القلوب ، وتتصدع عند سماعه لما فيه من الوعد الحق والوعيد الأكيد : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله) ، أى : فإذا كان الجبل فى غلظه وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه ، لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل ، فكيف يليق بكم أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع ، وتتصدع من خشية الله ، وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه ؟ ولهذا قال تعالى : (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكّرون) .

قال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل) إلى آخرها ، يقول : لو أنى أنزلت هذا القرآن على جبل حمّلته إياه ، لتصدع وخشع من ثقله ، ومن خشية الله . فأمر الله الناسَ إذا نزل عليهم القرآنُ أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع . ثم قال : كذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون(٤) . وكذا قال قتادة ، وابن جرير .

وقد ثبت فى الحديث المتواتر أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لما عمل له المنبر ، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد ، فلما وضع المنبر أول ما وضع ، وجاء النبى — صلى الله عليه وسلم — ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر ، فعند ذلك حنّ الجذع وجعل(٥) يئن كما يئن الصبى الذى يُسكَّتُ ، لما كان يَسمع من الذكر والوحى عنده. فى بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصرى بعد إيراده: « فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من الجذع » . وهكذا هذه الآية الكريمة ، إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته ، لخشعت وتصدعت من خشيته ، فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم ؟ وقد قال تعالى : (ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ، أو قطعت به الأرض ،

---

(١) سورة الجاثية ، آية : ٢١ .
(٢) سورة غافر ، آية : ٥٨ .
(٣) سورة ص ، آية : ٢٨ .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٨/٣٥ .
(٥) انظر البخارى ، كتاب المناقب : ٤/٢٣٧ .

أو كلم به الموتى)(١) الآية . وقد تقدم أن معنى ذلك : وأى لكان هذا القرآن » ، وقال تعالى : (وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله)(٢).

ثم قال تعالى : (هو الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم) : أخبر تعالى أنه الذى لا إله إلا هو فلا رب غيره ، ولا إله للوجود سواه ، وكل ما يعبد من دونه فباطل ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، أى : يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا فلا تخفى عليه شىء فى الأرض ، ولا فى السماء من جليل وحقير وصغير وكبير ، حتى الذر (٣) فى الظلمات .

وقوله : (هو الرحمن الرحيم) : قد تقدم الكلام على ذلك فى أول التفسير ، بما أغنى عن إعادته هاهنا ؛ والمراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات ، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، وقد قال تعالى : (ورحمتى وسعت كل شىء)(٤) ، وقال : (كتب ربكم على نفسه الرحمة)(٥) ، وقال : (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون) .

وقال : (هو الله الذى لا إله إلا هو الملك) ، أى : المالك لجميع الأشياء المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة .

وقوله : (القدوس) — قال وهب بن منبه : أى الطاهر . وقال مجاهد ، وقتادة : أى المبارك ؛ وقال ابن جريج : تقدسه الملائكة الكرام .

(السلام) ، أى من جميع العيوب والنقائص ، بكماله فى ذاته وصفاته وأفعاله .

وقوله : (المؤمن) ، قال الضحاك ، عن ابن عباس : أمن [خلقه من] أن يظلمهم ، وقال قتادة : أمّن بقوله : إنه حق . وقال ابن زيد : صدّق عباده المؤمنين فى إيمانهم به .

وقوله : (المهيمن) ، قال ابن عباس وغير واحد : أى : الشاهد على خلقه بأعمالهم ، بمعنى هو رقيب عليهم ، كقوله : (والله على كل شىء شهيد) (٦) ، وقوله : (ثم الله شهيد على ما يفعلون) (٧).

وقوله : (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) (٨) الآية .

---

(١) سورة الرعد ، آية : ٣١ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٧٤ .
(٣) الذر : النمل الصغير ، واحدتها : ذرة .
(٤) سورة الأعراف ، آية : ١٥٦ .
(٥) سورة الأنعام ، آية : ٥٤ .
(٦) سورة البروج ، آية : ٩ .
(٧) سورة يونس ، آية : ٤٦ .
(٨) سورة الرعد ، آية : ٣٣ .

وقوله : (العزيز) ، أى : الذى قد عزّ كل شىء فقهره ، وغلب الأشياء فلا ينال جنابه ، لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه . ولهذا قال : (الجبار المتكبر) ، أى : الذى لا تليق الجبرية إلا له ، ولا التكبر إلا لعظمته ، كما تقدم فى الصحيح : « العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى واحدا منهما عذبته » (١).

وقال قتادة : الجبار : الذى جبّر خلقه على ما يشاء .

وقال ابن جرير : الجبار : المصلحُ أمورَ خلقه ، المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم (٢).

وقال قتادة : المتكبر ، يعنى عن كل سوء .

ثم قال : (سبحان الله عما يشركون) .

وقوله : (هو الله الخالق البارىء المصور) الخلق : التقدير ، والبَراء : هو الفرى ، وهو : التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود ، وليس كل من قدر شيئاً ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله عز وجل . قال الشاعر يمدح آخر (٣):

ولأنت تَفرى ما خلقتَ وبعـ * ـض القوم يَخلُق ثم لا يفرى

أى : أنت تنفذ ما خلقت ، أى : قدرت ، بخلاف غيرك فإنه لا يستطيع ما يريد . فالخلق : التقدير ، والفرى : التنفيذ . ومنه يقال : قدر الجلاد ثم فرَى ، أى : قطع على ما قدره بحسب ما يريده .

وقوله تعالى : (الخالق البارىء المصور) ، أى : الذى إذا أراد شيئاً قال له : كن ، فيكون على الصفة التى يريد ، والصورة التى يختار . كقوله : (فى أى صورة ما شاء ركبك) ولهذا قال : (المصور) ، أى : الذى ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التى يريدها .

وقوله : (له الأسماء الحسنى) ، قد تقدم الكلام على ذلك فى « سورة الأعراف » ، وذكر الحديث المروى فى الصحيحين عن أبى هريرة ، عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « إن لله تسعة وتسعين اسما ، مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر (٤) » . وتقدم سياق الترمذى وابن ماجه له ، عن أبى هريرة أيضاً ، وزاد بعد قوله : « وهو وتر يحب الوتر » ــ واللفظ للترمذى ــ : « هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، البارىء ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلى ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ،

---

(١) سنن أبى داود ، كتاب اللباس ، باب « ما جاء فى الكبر » . وسنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « البراءة من الكبر والتواضع » ، الحديث ٤١٧٤ : ١٣٩٧/٢ . ومسند الإمام أحمد عن أبى هريرة : ٣٧٦/٢ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٤٢ .

(٢) تفسير الطبرى : ٣٦/٢٨ .

(٣) هو زهير بن أبى سلمى ، يمدح هرم بن سنان . والبيت فى ديوانه : ٩٤ .

(٤) تقدم الحديث عند تفسير الآية الثمانين بعد المائة من سورة الأعراف ، وخرجناه هنالك . انظر : ٥١٥/٣ .

الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوى ، المتين ، الولى ، الحميد ، المحصى ، المبدي ، المعيد ، المحى ، المميت ، الحى ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدِّم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالى ، المتعالى ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف مالك الملك ، ذو الجلال والإكرام ، المقسط ، الجامع ، الغنى ، المغنى ، [المانع] ، الضار ، النافع ، النور ، الهادى ، البديع ، الباقى ، الوارث ، الرشيد ، الصبور .

وسياق ابن ماجه بزيادة ونقصان ، وتقديم وتأخير ، وقد قدمنا ذلك مبسوطا مطولا بطرقه وألفاظه ، بما أغنى عن إعادته هنا(١) .

وقوله : (يسبح له ما فى السموات والأرض) كقوله : (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفوراً) (٢) .

وقوله : (وهو العزيز) ، أى : فلا يرام جنَابه (الحكيم) فى شرعه وقدره . وقد قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، حدثنا خالد — يعنى ابن طهمان ، أبو العلاء الخفَّاف — حدثنا نافع بن أبى نافع ، عن معقِل بن يسار ، عن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : « من قال حين يصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر ، وكَّل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسى ، وإن مات فى ذلك اليوم مات شهيداً ، ومن قالها حين يمسى كان بتلك المنزلة (٣) » .

ورواه الترمذى عن محمود بن غيلان ، عن أبى أحمد الزبيرى ، به ، وقال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه(٤) .

(آخر تفسير سورة الحشر)

---

(١) انظر : ٣/٥١٦ .

(٢) سورة الإسراء ، آية : ٤٤ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٥/٢٦ .

(٤) تحفة الأحوذى ، أبواب فضائل القرآن ، الحديث ٣٠٩٠ : ٨/٢٣٩ — ٢٤٠ .

تفسير سورة الممتحنة

وهى مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾

كان سبب نزول صدر هذه [السورة](١) الكريمة قصة حاطب بن أبى بلتعة ، وذلك أن حاطبا هذا كان رجلا من المهاجرين ، وكان من أهل بدر أيضاً ، وكان له بمكة أولاد ومال ، ولم يكن من قريش أنفسهم ، بل كان حليفاً لعثمان ، فلما عزم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على فتح مكة لما نقض أهلها العهد ، فأمر النبى — صلى الله عليه وسلم — المسلمين بالتجهيز لغزوهم ، وقال : « اللهم ، عَمِّ عليهم خبرنا » . فعمد حاطب هذا فكتب كتاباً ، وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة ، يعلمهم بما عزم عليه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليتخذ بذلك عندهم يداً ، فأطلع الله رسوله على ذلك ؛ استجابة لدعائه . فبعث فى أثر المرأة فأخذ الكتاب منها ، وهذا بين فى الحديث المتفق على صحته ؛ قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن عَمْرو ، أخبرنى حَسَن (٢) بن محمد بن على ، أخبرنى عُبَيْد الله بن أبى رافع — وقال مرة : إن عبيد الله بن أبى رافع أخبره : أنه سمع علياً — رضى الله عنه — يقول : بعثنى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنا والزبير والمقداد ، فقال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ(٣) فإن بها ظَعِينة(٤) معها كتاب ، فخذوه منها . فانطلقنا تَعَادى(٥) بنا خيلنا حتى أتينا الروضة ، فإذا نحن بالظعينة ، قلنا : أخرجى الكتاب . قالت : ما معى كتاب . قلنا : لتخرجِنّ الكتاب أو لتُلقِنّ الثياب . قال : فأخرجت الكتاب من عِقَاصها(٦) ، فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فإذا فيه : من حاطب بن أبى بلتعة إلى ناس من المشركين بمكة ، يخبرهم ببعض أمر رسول الله

---

(١) فى المخطوطة : « هذه الآية » . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٢) فى مسند الإمام أحمد : « حسين » . وهو خطأ ، والصواب حسن ، وهو حسن بن محمد بن الحنفية .

(٣) روضة خاخ : موضع على اثنى عشر ميلا من المدينة .

(٤) أى : امرأة .

(٥) أى : تتسابق .

(٦) أى : من ذوائبها المضفورة .

ـصلى الله عليه وسلم ـ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « ياحاطب ، ما هذا ؟ » : قال : لا تعجل على ، إنى كنت امرأ مُلصقاً فى قريش ، ولم أكن من أنفسهم ، وكان من كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتى ، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن دينى ولا رضى بالكفر بعد الإسلام . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إنه صدقكم » . فقال عمر : دعنى أضربْ عنق هذا المنافق . فقال : « إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك لعلّ الله اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم (١) » .

وهكذا أخرجه الجماعة إلا ابن ماجه ، من غير وجه ، عن سفيان بن عُيَينة ، به(٢) : وزاد البخارى فى كتاب « المغازى » فأنزل الله السورة : (ياأيها الذين آمنوا ، لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء (٣)) . وقال فى كتاب التفسير : قال عمرو : ونزلت فيه : (ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء) ، قال : « لا أدرى الآية فى الحديث أو قال عَمْرو » . قال البخارى : قال على ـ يعنى ابن المدينى ـ : قيل لسفيان فى هذا : نزلت (لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء) ؟ فقال سفيان : هذا فى حديث الناس ، حفظته من عمرو ، ما تركت منه حرفاً ، وما أرى أحداً حفظه غيرى (٤).

وقد أخرجاه فى الصحيحين من حديث حُصَين بن عبد الرحمن، عن سعد بن عُبَيدة، عن أبى عبد الرحمن السلمى، عن على قال : بعثنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبا مَرْثَد ، والزبير بن العوام ، وكلنا فارس ، وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب إلى المشركين : فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلنا : الكتابُ ؟ فقالت : ما معى كتاب . فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتاباً ، فقلنا : ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ! لتخرجن الكتاب أو لنُجردنك . فلما رأت الجد أهوت إلى حُجْزَتها(٥) وهى مُحتَجِزة بكساء فأخرجته . فانطلقنا بها إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال عمر : يارسول الله ، قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعنى فلأضرِبْ عنقه . فقال : « ما حملك على ما صنعت ؟ » . قال : والله ما بى إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله ، أردت أن تكون لى عند القوم يدٌ يدفع الله بها عن أهلى ومالى ، وليس أحد من أصحابك إلا له هنالك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله . فقال : « صَدَق ، لا تقولوا له إلا خيراً » . فقال عمر : إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعنى فلأضربْ عنقه . فقال : « أليس من أهل بدر ؟ فقال : لعل الله قد اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة ، أو : قد غفرت لكم» . فدمعت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم (٦).

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١/٧٩ – ٨٠ .

(٢) البخارى تفسير سورة الممتحنة : ٦/١٨٥ – ١٨٦ . ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب « من فضائل أهل بدر – رضى الله عنهم – وقصة حاطب بن أبى بلتعة » : ٧/١٦٧ – ١٦٨ . وسنن أبى داود ، كتاب الجهاد ، باب « فى حكم الجاسوس إذا كان مسلماً » . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة الممتحنة ، الحديث ٣٣٦٠ : ٩/١٩٨ – ٢٠٢ .

(٣) البخارى ، كتاب المغازى ، باب « غزوة الفتح ، وما بعث حاطب بن أبى بلتعة إلى أهل مكة يخبرهم بغزو النبى صلى الله عليه وسلم » : ٥/١٨٥ .

(٤) البخارى ، تفسير سورة الممتحنة : ٦/١٨٦ .

(٥) الحجزة ـ بضم فسكون ـ : موضع شد الإزار ، واحتجزت المرأة فهى محتجزة : إذا شدت مئزرها على الوسط وما لا تحل مباشرته .

(٦) البخارى ، كتاب المغازى ، باب « فضل من شهد بدراً » : ٥/٩٩ . ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب « من فضائل أهل بدر ... » : ٧/١٦٨ – ١٦٩ .

هذا لفظ البخاري في « المغازي » في غزوة بدر ، وقد روى من وجه آخر عن عليّ قال ابن أبي حاتم :

حدثنا علي بن الحسن المسنجاني ، حدثنا عبيد بن يعيش ، حدثنا إسحاق بن سليمان الرازي ، عن أبي سنان ــ هو سعيد ابن سنان ــ عن عمرو بن مُرّة الجَمَلي ، عن أبي البختري الطائي (١) ، عن الحارث ، عن علي قال : لماذا أراد النبي صلى الله عليه وسلم ــ أن يأتي مكة ، أسرّ إلى أناس من أصحابه أنه يريد مكة ، فيهم حاطب بن أبي بلتعة وأفشى . في الناس أنه يريد خيبر : قال: فكتب حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يريدكم . فأُخْبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فبعثني رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأبا مرثد ، وليس منا رجل إلا وعند فرس ، فقال : « ائتوا روضة خاخ ، فإنكم ستلقون بها امرأة معها كتاب، فخذوه منها » . فانطلقنا حتى رأيناها بالمكان الذي ذَكَر رسولُ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقلنا لها : هات الكتاب .فقالت : ما معي كتاب . فوضعنا متاعها وفتشناها فلم نجده في متاعها ، فقال أبو مرثد : لعله أن لا يكون معها . فقلت : ما كذب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ولا كذبنا . فقلنا لها : لتخرجِنَّه أو لنُعرينَّك . فقالت : أما تتقون الله ؟ ! ألستم مسلمين ؟! فقلنا: لتخرجنه أو لنعرينّك ــ قال عمرو بن مرة : فأخرجته من حُجْزَتها . وقال حبيب بن أبي ثابت : أخرجته من قُبُلها ــ فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا الكتاب من حاطب بن أبي بلتعة . فقام عمر فقال : يارسول الله ، خان الله ورسوله ، فائذن لي فلأضرب عنقه . فقال رسول الله : « أليس قد شهد بدراً ؟ » قالوا : بلى . قال عمر : بلى ، ولكنه قد نكث وظاهر أعداءك عليك . فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « فلعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، إني بما تعملون بصير » . ففاضت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم . فأرسل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إلى حاطب فقال « ياحاطب، ما حملك على ما صنعت ؟ » . فقال : يارسول الله ، إني كنت امرأ مُلصَقاً في قريش، وكان لي بها مال وأهل، ولم يكن من أصحابك أحد إلا وله بمكة من يمنع أهله وماله، فكتبتُإليهم بذلك ووالله ــ يارسول الله ــ إني لمؤمن بالله ورسوله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صدق حاطب ، فلا تقولوا لحاطب إلا خيراً » ــ قال حبيب بن أبي ثابت فأنزل الله : (ياأيها الذين آمنوا ، لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة) . . . الآية .

وهكذا رواه ابن جرير عن ابن حميد ، عن مهران ، عن أبي سنان سعيد بن سنان ، بإسناده مثله (٢) . وقد ذكر ذلك أصحاب المغازي والسير ، فقال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة :

حدثني محمد بن جعفر بن الزبير ، عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا قال : لما أجمع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ المسير إلى مكة ، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً إلى قريش يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من الأمر في السير إليهم ، ثم أعطاه امرأة ــ زعم محمد بن جعفر أنها من مزينة، وزعم غيره أنها: سارة ، مولاة لبني عبد المطلب ــ وجعل لها جُعلا على أن تبلغه قُريشاً فجعلته في رأسها ، ثم فتلت عليه قرونها ، ثم خرجت به ، وأتى رسولَ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ الخبرُ من السماء بما صنع حاطب ، فبعث عليّ بن أبي طالب والزبير بن العوام فقال : « أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بكتاب إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا له من أمرهم » .

---

(١) في المخطوطة : « عن أبي إسحاق البختري » . والمثبت عن تفسير الطبري ، وانظر الخلاصة في الكنى .
(٢) تفسير الطبري : ٢٨/٢٨ ــ ٢٩ .

فخرجا حتى أدركاها بالخُلَيْفة–خليفة بنى أبى أحمد(١)–فاستنزلاها بالخليفة، فالتمسا فى رحلها فلم يجدا شيئاً، فقال لها على ابن أبى طالب : إنى أحلف بالله ما كذب رسول الله وما كذبنا، ولتُخْرِجِنّ لنا هذا الكتاب أو لنكشفَنَّك . فلما رأت الجِدّ منه قالت : أعرض . فأعرض ، فحلت قُرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليه . فأتى به رسول الله – صلى الله وسلم – فدعا رسول الله حاطباً فقال : « ياحاطب ما حملك على هذا ؟ » . فقال : يارسول الله أما والله إنى لمؤمن بالله ورَسوله، ما غيَّرت ولا بدّلت، ولكنى كنت امرأ ليس لى فى القوم من أهل ولا عشيرة، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم . فقال عمر بن الخطاب : يارسول الله ، دعنى فلأضربْ عنقه ، فإن الرجل قد نافق . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما يدريك ياعمر ! لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم » . فأنزل الله عز وجل فى حاطب : (ياأيها الذين آمنوا ، لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة) إلى قوله : (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم : إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا ، حتى تؤمنوا بالله وحده) . . . إلى آخر القصة (٢) .

وروى معمر ، عن الزهرى ، عن عروة نحو ذلك . وهكذا ذكر مقاتل بن حيان : أن هذه الآيات نزلت فى حاطب ابن أبى بلتعة : أنه بعث سارة مولاة بنى هاشم ، وأنه أعطاها عشرة دراهم ، وأن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعث فى أثرها عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما ، فأدركاها بالجحفة . . . وذكر تمام القصة كنحو ما تقدم . وعن السدى قريب منه . وهكذا قال العوفى ، عن ابن عباس – ومجاهد ، وقتادة ، وغير واحد : أن هذه الآيات نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة .

فقوله تعالى : (ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ، تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق)، يعنى : المشركين والكفار الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين الذين شرع الله عداوتهم ومصارمتهم ، ونهى أن يتخذو أولياء وأصدقاء وأخلاء ، كما قال : (ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم (٣) . وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، وقال تعالى : (ياأيها الذين آمنوا ، لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعباً ، من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين (٤)) ، وقال تعالى : (ياأيها الذين آمنوا ، لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبينا ؟ (٥) . وقال تعالى : (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء)

(١) فى المخطوطة وتفسير الطبرى : « بالحليفة » بالحاء والفاء . ويقول أبو ذر الخشنى فى شرح السيرة ٣٦٨ : « وقوله : (حتى أدركتها بالخليقة خليقة بنى أبى أحمد) . كذا وقع هنا بضم الخاء المعجمة فيهما . ورواه الخشنى بالخليقة ، بفتح الخاء المعجمة فيهما . وفى كتاب ابن إسحاق : (بذى الخليفة خليفة بن أبى أحمد) . بضم الخاء المعجمة فيهما وبالفاء ، وهو اسم موضع » .
(٢) سيرة ابن هشام : ٣٩٨/٢ – ٣٩٩ . وتفسير الطبرى : ٣٩/٢٨ .
(٣) سورة المائدة ، آية : ٥١ .
(٤) سورة المائدة ، آية : ٥٧ .
(٥) سورة النساء ، آية : ١٤٤ .

إلا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه (١) . ولهذا قَبِل رسول الله صلى الله عليه وسلم عُذْرَ حاطب لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش ، لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد .

ويذكر هاهنا الحديث الذى رواه الإمام أحمد :

حدثنا مصعب بن سلام ، حدثنا الأجلح ، عن قيس بن أبى مسلم ، عن ربعى بن حِراش ، سمعت حُذيفة يقول : ضَرَب لنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أمثالا : واحداً وثلاثة وخمسة وسبعة ، وتسعة ، وأحد عشر – قال : فضرب لنا منها مثلا وترك سائرها ، قال : « إن قوماً كانوا أهل ضعف ومسكنة ، قاتلهم أهل تجبر وعداء(٢) ، فأظهر الله أهل الضعف عليهم ، فعَمَدوا إلى عَدُوهم فاستعملوهم وسلّطوهم ، فأسخطوا الله عليهم إلى يوم يلقونه (٣)» .

وقوله : (يخرجون الرسول وإياكم) : هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم ، لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم ، كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده ، ولهذا قال : (أن تؤمنوا بالله ربكم) أى : لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين ، كقوله : (وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد)(٤) وكقوله : (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله(٥)) .

وقوله : (إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى) ، أى : إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء ، إن كنتم خرجتم مجاهدين فى سبيلى باغين لمرضاتى عنكم فلا توالوا أعدائى وأعداءكم ، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حنَقاً عليكم وسُخْطاً لدينكم .

وقوله : (تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم) ، أى : تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر (ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء) أى : لو قدروا عليكم لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم به بالمقال والفعال ، (وودوا لو تكفرون) ، أى : ويحرصون على أن لا تنالوا خيراً ، فهم عداوتهم لكم كامنة وظاهرة ، فكيف توالون مثل هؤلاء ؟ وهذا تهييج على عداوتهم أيضاً .

وقوله : (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ، يوم القيامة يفصل بينكم ، والله بما تعملون بصير) ، أى : قراباتكم لا تنفعكم عند الله إذا أراد الله بكم سوءا ، ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما يسخط الله ، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخَسِر وضَلّ عمله ، ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد ، ولو كان قريباً إلى نبى من الأنبياء . قال الإمام أحمد :

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ٢٨ .
(٢) فى المسند : « تجبر وعدد » .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٥/٤٠٧ .
(٤) سورة البروج ، آية : ٨ .
(٥) سورة الحج آية : ٤٠ .

حدثنا عفان (١) ، حدثنا حماد ، عن ثابت ، عن أنس : أن رجلا قال: يارسول الله ، اين أبى ؟ قال ؟ « فى النار » . فلما قفّى دعاه (٢) فقال : « إن أبى وأباك فى النار » .

ورواه مسلم وأبو داود ، من حديث حماد بن سلمة ، به (٣) .

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ﴾

يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين وعداوتهم ومجانبتهم والتبرى منهم : (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه) ، أى : وأتباعه الذين آمنوا معه ، (إذ قالوا لقومهم : إنا برآء منكم) ، أى : تبرأنا منكم (ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ،) أى : بدينكم وطريقكم ، (وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا) ، يعنى : وقد شُرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم ، ما دمتم على كفركم فنحن أبدا نتبرأ منكم ونبغضكم ، (حتى تؤمنوا بالله وحده) ، أى : إلى أن تُوحدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له ، وتخلعوا ما تعبدون معه من الأنداد والأوثان .

وقوله : (إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك) ، أى : لكم فى إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها ، إلا فى استغفار إبراهيم لأبيه ، فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه . وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم ، ويقولون : إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه ، فأنزل الله عز وجل : (ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى ، من بعدما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، إن إبراهيم لأواه حليم) (٤) . وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة : (قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه) ، إلى قوله (إلا قول إبراهيم لأبيه : لأستغفرن لك وما أملك لك من الله ، من شىء) ، أى : ليس لكم فى ذلك أسوة ، أى فى الاستغفار للمشركين . هكذا قال ابن عباس ، ومجاهد وقتادة ، ومقاتل والضحاك وغير واحد (٥) .

---

(١) وقع لنا الحديث فى المسند من رواية وكيع عن حماد : ٣/١١٩ .

(٢) فى هذه الرواية : « فلما رأى ما فى وجهه قال ... » .

(٣) سنن أبى داود ، كتاب السنة ، باب « فى ذرارى المشركين » . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « بيان أن من مات على الكفر فهو فى النار ، ولا تناله شفاعة ، ولا تنفعه قرابة المقربين » : ١/١٣٢ - ١٣٣

(٤) سورة التوبة : آية : ١١٣ - ١١٤ .

(٥) انظر تفسير الطبرى : ٢٨/٤١ .

ثم قال تعالى مخبرا عن قول إبراهيم والذين معه ، حين فارقوا قومهم وتبرءوا منهم ، فلجأوا إلى الله وتضرعوا إليه فقالوا : (ربنا ، عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير) أى : توكلنا عليك فى جميع الأمور ، وسلمنا أمورنا إليك ، وفوضناها إليك ، وإليك المصير) أى : المعاد فى الدار الآخرة (ربنا ، لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) ـ قال مجاهد : معناه : لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا : لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا . وكذا قال الضحاك .

وقال قتادة لا تظهرهم علينا فيفتتنوا بذلك ، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه . واختاره ابن جرير(١) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : لا تسلطهم علينا فيفتنونا .

وقوله : (واغفر لنا ، ربنا ، إنك أنت العزيز الحكيم) ، أى : واستر ذنوبنا عن غيرك ، واعف عنها فيما بيننا وبينك ، (إنك أنت العزيز) ، أى : الذى لا يضام من لاذ بجنابك ، (الحكيم) فى أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك .

ثم قال تعالى : (لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) : وهذا تأكيد لما تقدم ومستثنى منه ما تقدم أيضاً لأن هذه الأسوة المثبتة هاهنا هى الأولى بعينها .

وقوله : (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) : تهييج إلى ذلك كل مقر بالله والمعاد ،

وقوله : (ومن يتول) : أى : عما أمر الله به ، (فإن الله هو الغنى الحميد) ، كقوله : (إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً ، فإن الله لغنى حميد)(٢) .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : (الغنى) : الذى كمل فى غناه ، وهو الله ، هذه صفته لا تنبغى إلا له ، ليس له كفء ، وليس كمثله شىء ، سبحان الله الواحد القهار . (الحميد) : المستحمد إلى خلقه ، أى هو المحمود فى جميع أفعاله وأقواله ، لا إله غيره ، ولا رب سواه .

* عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين : (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة) ، أى : محبة بعد البغضة ، ومودة بعد النفرة ، وألفة بعد الفرقة . (والله قدير) ، أى : على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة والمتباينة والمختلفة ، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة ، فتصبح مجتمعة متفقة ، كما قال تعالى

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٨/٤٢ .

(٢) سورة إبراهيم ، آية : ٨ .

ممتنا على الأنصار : (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها[١]) ... الآية . وكذا قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : « ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي[٢] ؟ » . وقال الله تعالى : (هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألَّفَ بينهم ، إنه عزيز حكيم[٣]) . وفى الحديث « أحبِبْ حَبيبَكَ هوناً مَّا ، فعسى أن يكونَ بغيضَكَ يوماً ما . وأبغض بغيضك هوناً ما ، فعسى أن يكون حبيبك يوماً ما[٤] » . وقال الشاعر[٥] :

وَقَد يجمعُ اللهُ الشتيتين[٦] بعدَما ... يَظُنانِ كُلَّ الظنِّ أن لا تلاقيا

وقوله تعالى : (والله غفور رحيم) ، أي : يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه وأنابوا إلى ربهم وأسلموا له ، وهو الغفور الرحيم بكل من تاب إليه ، من أىّ ذنب كان .

وقد قال مقاتل بن حيان : إن هذه الآية نزلت فى أبي سفيان صخر بن حرب ، فان رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج ابنته ، فكانت هذه مودة ما بينه وبينه .

وفى هذا الذى قاله مقاتل نظر ؛ فان رسول الله تزوج بأم حبيبة بنت أبي سفيان قبل الفتح ، وأبو سفيان إنما أسلم ليلة الفتح بلا خلاف . وأحسن من هذا ما رواه ابن أبى حاتم حيث قال :

قُرئ على محمد بن عَزيز : حدثنى سلامة ، حدثنى عقيل ، حدثنى ابن شهاب : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل أبا سفيان بن حرب على بعض اليمن ، فلما قبض رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أقبل فلقى ذا الخمار مرتدا ، فقاتله ، فكان أول من قاتل فى الردة وجاهد عن الدين — قال ابن شهاب : وهو ممن أنزل الله فيه : (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير ، والله غفور رحيم) .

---

(١) سورة آل عمران ، آية : ١٠٣ .

(٢) البخارى ، كتاب المغازى ، باب « غزوة الطائف » : ٥/٢٠٠ . ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب « إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام ، وتصبر من قوى إيمانه » : ٣/١٠٨ — ١٠٩ . ومسند الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدرى : ٣/٥٧ ، ٧٦ — ٧٧ . وعن أنس بن مالك : ٣/١٠٤ — ١٠٥ ، ٢٥٣ . وعن عبد الله بن زيد بن عاصم : ٤/٤٢ .

(٣) سورة الأنفال ، آية : ٦٣ .

(٤) تحفة الأحوذى ، أبواب البر ، باب « ما جاء فى الاقتصاد فى الحب والبغض » ، الحديث ٢٠٦٥ : ٦/١٣٣ — ١٣٤ . وقال الترمذى : « هذا حديث غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه ، وقد روى هذا الحديث عن أيوب باسناد غير هذا . رواه الحسن بن أبي جعفر ، وهو حديث ضعيف أيضاً ، بإسناد له عن على ، عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحيح هذا عن على ، موقوف » .

(٥) هو قيس بن الملوح — مجنون ليلى . انظر ديوانه : ٢١٥ والعينى على خزانة الأدب : ٣/٤٢ . والبيت أيضاً فى اللسان ، مادة : شتت .

(٦) أى : المحبين المتباعدين .

وفى صحيح مسلم ، عن ابن عباس : أن أبا سفيان قال : يا رسول الله ، ثلاث أعطنيهنّ : قال : « نعم » : قال : وتؤمّرنى حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين . قال : « نعم » . قال : ومعاوية تجعله كاتبا بين يديك . قال : « نعم » . قال : وعندى أحسن العرب وأجمله ، أمّ حبيبة بنت أبى سفيان أزوجكها ... الحديث(١) – وقد تقدم الكلام عليه .

وقوله تعالى : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم) ، أى : لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم فى الدين ، كالنساء والضعفة منهم ، (أن تبروهم) ، أى : تحسنوا إليهم (وتقسطوا إليهم) ، أى : تعدلوا (إن الله يحب المقسطين) .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا هشام بن عروة ، عن فاطمة بنت المنذر ، عن أسماء – هى بنت أبى بكر ، رضى الله عنهما – قالت : قدمَت أمى وهى مشركة فى عهد قريش إذ عاهدوا ، فأتيتُ النبى – صلى الله عليه وسلم – فقلت : يا رسول الله ، إن أمى قدمت وهى راغبة ، أفأصلها ؟ قال : « نعم ، صلى أمك » . أخرجاه(٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عارم ، حدثنا عبد الله بن المبارك ، حدثنا مصعب بن ثابت ، حدثنا عامر بن عبد الله ابن الزبير ، عن أبيه قال: قدمت قُتَيلة على ابنتها أسماء ابنة أبى بكر بهدايا: صِنَاب وأقط(٣) وسمن، وهى مشركة ، فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها . فسألت عائشة النبى – صلى الله عليه وسلم – فأنزل الله عز وجل : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين) ... إلى آخر الآية ، فأمرها أن تقبل هديتها ، وأن تدخلها بيتها(٤) .

وهكذا رواه ابن جرير وابن أبى حاتم ، من حديث مصعب بن ثابت ، به . وفى رواية لأحمد وابن جرير : « قُتَيلة بنت عبد العزى بن [عبد(٥)] أسعد ، من بنى مالك بن حسل » . وزاد ابن أبى حاتم : « فى المدة التى كانت بين قريش ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وقال أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار : حدثنا عبد الله بن شبيب ، حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا أبو قتادة العدَوى ، عن ابن أخى الزهرى ، عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة وأسماء أنهما قالتا : قدمت علينا

---

(١) مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب « من فضائل أبى سفيان بن حرب » : ١٧١/٧ .

(٢) وقع لنا الحديث فى المسند من غير هذه الطريق ، انظر : ٣٤٤/٦ ، ٣٤٧ ، ٣٥٥ . هذا وانظر البخارى ، كتاب الهبة ، باب « الهدية للمشركين » : ٢١٥/٣ ، وكتاب الجزية : ١٢٦/٤ ، وكتاب الأدب ، باب « صلة الوالد المشرك » : ٥/٧ . ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب « فضل النفقة والصدقة على الأقربين ... » : ٨١/٣ .

(٣) فى المخطوطة ومسند الإمام أحمد : « ضباب » ، بالضاد المعجمة ، والباء . والمثبت عن تفسير الطبرى : ٤٣/٢٨ . والصناب – بالصاد المهملة ، والنون – : الخردل المعمول بالزيت ، وهو صباغ يؤتدم به .
هذا وفى المخطوطة أيضاً مكان « وأقط » : وقرط . والمثبت عن المسند وتفسير الطبرى . والأقط – بفتح فكسر – : لبن مجفف يابس ، يطبخ به .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٤/٤ .

(٥) ما بين القوسين عن المسند ، وكتاب نسب قريش لمصعب الزبيرى : ٢٧٦ . على أنه قد ورد نسبها فى أسد الغابة ٥/٣٢ ط الوهبية : « قتيلة بنت سعد ... » .

أمنا المدينة ، وهي مشركة ، في الهدنة التي كانت بين قريش وبين رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، فقلنا ، يا رسول الله ، إن أمنا قدمت علينا المدينة راغبة ، أفنصلها ؟ قال : « نعم ، فَصِلاها » ،

ثم قال : وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة إلا من هذا الوجه.

قلت : وهو منكر بهذا السياق ، لأن أم عائشة هي أم رومان ، وكانت مسلمة مهاجرة ، وأم أسماء غيرها ، كما هو مصرح باسمها في هذه الأحاديث المتقدمة ، والله أعلم .

وقوله : (إن الله يحب المقسطين) : تقدم تفسير ذلك في « سورة الحجرات » ، وأورد الحديث الصحيح : « المقسطون على منابر من نور عن يمين العرش : الذين يعدلون في حكمهم ، وأهاليهم ، وما وَلُوا (١) » .

وقوله : (إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم) ، أي : إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم بالعداوة ، فقاتلوكم وأخرجوكم ، وعاونوا على إخراجكم ، ينهاكم الله عن موالاتهم ويأمركم بمعاداتهم . ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال : (ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) ، كقوله : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضُهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين (٢)) :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

تقدم في « سورة الفتح » ذكر صلح الحديبية الذي وقع بين رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وبين كفار قريش ، فكان فيه : « على أن لا يأتيك منا رجل — وإن كان على دينك — إلا رددته إلينا (٣) » . وفي رواية : « على أنه لا يأتيك منا أحد — وإن كان على دينك — إلا رددته إلينا » . وهذا قول عروة ، والضحاك ، وعبد الرحمن بن زيد ، والزهري ، ومقاتل ، والسدي . فعلى هذه الرواية تكون هذه الآية مخصصة للسنة ، وهذا من أحسن أمثلة ذلك ، وعلى طريقة بعض السلف ناسخة ، فإن الله — عز وجل — أمر عباده المؤمنين إذا جاءهم النساء مهاجرات أن يمتحنوهن ، فإن علموهن مؤمنات فلا يرجعوهن إلى الكفار ، لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ،

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية التاسعة من سورة الحجرات ، وخرجناه هنالك . انظر : ٧/٣٥٥ .
(٢) سورة المائدة ، آية : ٥١ .
(٣) انظر : ٧/٣٣٤ .

وقد ذكرنا فى ترجمة عبد الله بن [أبى(١)] أحمد بن جحش ، من المسند الكبير ، من طريق أبى بكر بن أبى عاصم ، عن محمد بن يحيى الذهلى ، عن يعقوب بن محمد ، عن عبد العزيز بن عمران ، عن مُجَمِّع بن يعقوب ، عن حسين ابن أبى لُبابة(٢)، عن عبدالله بن أبى أحمد قال: هاجرت ام كلثوم بنت عقبة بن أبى مُعَيط فى الهجرة، فخرج أخواها عمارة والوليد حتى قدما على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فكلماه فيها أن يردها إليهما ، فنقض الله العهد بينه وبين المشركين فى النساء خاصة ، ومنعهن أن يُرْدَدْنَ إلى المشركين ، وأنزل [الله] آية الامتحان(٣) .

قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا يونس بن بكير ، عن قيس بن الربيع ، عن الأغر بن الصباح ، عن خليفة بن حُصَين ، عن أبى نصر الأسدى قال : سُئِل ابنُ عباس : كيف كان امتحانُ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ النساءَ ؟ قال : كان يمتحنهن : بالله ما خرجت من بُغْض زوج ؟ وبالله ما خرجت رغبةً عن أرض إلى أرض ؟ وبالله ما خرجت التماس دنيا ؟ وبالله ما خرجت إلا حبا لله ولرسوله(٤) ؟

ثم رواه من وجه آخر ، عن الأغر بن الصباح ، به . وكذا رواه البزار من طريقه ، وذكر فيه أن الذى كان يحلفهن عن أمر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ له عمر بن الخطاب .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : (يا أيها الذين آمنوا ، إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن) : كان امتحانهن أن يَشهدْنَ أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبد الله ورسوله(٤) .

وقال مجاهد : (فامتحنوهن) : فاسألوهن : ما جاء بهن ؟ فإن كان جاء بهن غضبٌ على أزواجهن أو سَخْطة أو غيره ، ولم يؤمنَّ فأرجعوهن إلى أزواجهن .

وقال عكرمة : يقال لها : ما جاء بك إلا حب الله ورسوله ؟ وما جاء بك عشق رجل منا ، ولا فرار من زوجك ؟ فذلك قوله : (فامتحنوهن) .

وقال قتادة : كانت محنتهن أن يستحلفن بالله : ما أخرجكن النشوز ؟ وما أخرجكن إلا حب الإسلام وأهله وحرص عليه ؟ فإذا قلن ذلك قُبِل ذلك منهن .

وقوله : (فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار) : فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقينا .

وقوله : (لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن) : هذه الآية هى التى حرّمت المسلمات على المشركين . وقد كان جائزا فى ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة ، ولهذا كان أبو العاص بن الربيع زوج ابنة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ

---

(١) ما بين القوسين زيادة لابد من إثباتها . وانظر السند التالى ، وترجمة عبد الله بن أبى أحمد فى أسد الغابة : ٣/١٧١ .
(٢) فى المخطوطة : «حنين بن أبى أباتة» . والمثبت من أسد الغابة ، والإصابة : ٣/٨٥ . ولم تقع لنا ترجمته .
(٣) ساق ابن الأثير هذا الحديث من هذه الرواية فى ترجمة عبد الله بن أبى أحمد بن جحش .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٨/٤٤ م .

زينب رضى الله عنها ، وقد كانت مسلمة وهو على دين قومه ، فلما وقع فى الأسارى يوم بدر بعث امرأته زينب فى فدائه بقلادة لها كانت لأمها خديجة ، فلما رآها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — رَقّ لها رقّةً شديدةً ، وقال للمسلمين : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فافعلوا » ؛ ففعلوا ، فأطلقه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على أن يبعث ابنته إليه ، فوفى له بذلك وصدقه فيما وعده، وبعثها إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مع زيد بن حارثة [رضى الله عنه ، فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر ، وكانت سنة اثنتين إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع سنة ثمان [فردها عليه] بالنكاح الأول ، ولم يحدث لها صداقا ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا يعقوب ، حدثنا أبى ، حدثنا ابن إسحاق ، حدثنى داود بن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — رد ابنته زينب على أبى العاص [بن الربيع (١)] ، وكانت هجرتها (٢) قبل إسلامه بست سنين على النكاح الأول ، ولم يحدث شهادة ولا صَدَاقا (٣) .

ورواه أبو داود والترمذى وابن ماجه (٤) ؛ ومنهم من يقول : « بعد سنتين » ، وهو صحيح ، لأن إسلامه كان بعد تحريم المسلمات على المشركين بسنتين ؛ وقال الترمذى : « ليس بإسناده بأس ، ولا نعرف وجه هذا الحديث ، ولعله جاء من حفظ داود بن الحصين ... وسمعت عبد بن حميد يقول : سمعت يزيد بن هارون يذكر عن ابن إسحاق هذا الحديث ، وحديثَ ابن الحجاج — يعنى ابن أرطاة — عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — رد ابنته على أبى العاص بن الربيع بمهر جديد ونكاح جديد ؛ فقال يزيد : حديث ابن عباس أجودُ إسنادا ، والعمل على حديث عمرو بن شعيب (٤) » .

قلت : وقد رَوَى حديث الحجاج بن أرطاة ، عن عمرو بن شعيب الامامُ أحمد والترمذى وابن ماجه (٥) ، وضعفه الإمام أحمد وغير واحد ، والله أعلم .

وأجاب الجمهور عن حديث ابن عباس بأن ذلك كان قضية عين يحتمل أنه لم تنقض عدتها منه ، لأن الذى عليه الأكثرون أنها متى انقضت العدّة ولم يسلم ، انفسخَ نكاحُها منه .

وقال آخرون : بل إذا انقضت العدّة هى بالخيار ، إن شاءت أقامت على النكاح واستمرت ، وإن شاءت فسخته وذهبت فتزوجت ، وحملوا عليه حديث ابن عباس ، والله أعلم .

---

(١) ما بين القوسين عن المسند .
(٢) فى المسند : « وكان إسلامها ... » .
(٣) مسند الإمام أحمد : ١/٢٦١ .
(٤) سنن أبى داود ، كتاب الطلاق ، باب « إلى متى ترد عليه امرأته إذا أسلم بعدها » . وتحفة الأحوذى ، أبواب النكاح ، باب « ما جاء فى الزوجين المشركين يسلم أحدهما » ، الحديث ١١٥٢ : ٤/٢٩٦ — ٢٩٨ . وسنن ابن ماجه ، كتاب الطلاق ، باب « الزوجين يسلم أحدهما قبل الآخر » ، الحديث ٢٠٠٩ : ١/٦٤٧ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٢/٢٠٧ — ٢٠٨ . والترمذى فى الكتاب والباب المتقدمين ، انظر تحفة الأحوذى : ٤/٢٩٨ . وابن ماجه ، الحديث ٢٠١٠ : ١/٦٤٧ .

وقوله : (وآتوهم ما أنفقوا) ، يعنى : أزواجَ المهاجرات من المشركين ، ادفعوا إليهم الذى غرموه عليهن من الأصدقة . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والزهرى ، وغير واحد .

وقوله : (ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن) : يعنى إذا أعطيتموهن أصدقتهن فانكحوهن ، أى : تزوجوهن بشرطه من انقضاء العدة والولى وغير ذلك .

وقوله : (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) : تحريم من الله عز وجل على عباده المؤمنين نكاحَ المشركات ، والاستمرارَ معهن .

وفى الصحيح ، عن الزهرى ، عن عروة ، عن المسور ومَرْوان بن الحكم : أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية جاء نساءٌ من المؤمنات ، فأنزل الله عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا ، إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات) إلى قوله : (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) ، فطلق عمر بن الخطاب يومئذ امرأتين ، تزوج إحداهما معاوية بن أبى سفيان ، والأخرى صفوان بن أمية(١) .

وقال ابن ثور ، عن معمر ، عن الزهرى : أنزلت هذه الآية على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو بأسفل الحديبية ، حين صالحهم على أنه من أتاه منهم رده إليهم ، فلما جاءه النساء نزلت هذه الآية ، وأمره أن يرد الصداق إلى أزواجهن ، وحكم على المشركين مثل ذلك إذا جاءتهم امرأة من المسلمين أن يردوا الصداق إلى زوجها ، وقال : (ولا تمسكوا بعصم الكوافر(٢)) .

وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وقال : وإنما حكم الله بينهم بذلك ، لأجل ما كان بينهم وبينهم من العهد .

وقال محمد بن إسحاق ، عن الزهرى : طلق عمر يومئذ قريبة بنت أبى أمية بن المغيرة ، فتزوجها معاوية ــ وأمّ كلثوم بنت عمرو(٣) بن جرول الخزاعية ، وهى أم عُبَيد(٤) الله ، فتزوجها أبو جهم بن حذيفة بن غانم ، رجل من قومه ، وهما على شركهما(٥) . وطلق طلحةُ بن عبيد الله أروى بنتَ ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، فتزوجها بعده خالد ابن سعيد بن العاص(٦) .

وقوله : (واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا) ، أى : وطالبوا بما أنفقتم على أزواجكم اللاتى يذهبن إلى الكفار ، إن ذهبن ، وليطالبوا بما أنفقوا على أزواجهم اللاتى هاجرن إلى المسلمين .

---

(١) البخارى ، كتاب الشروط ، باب « الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط » : ٣/٢٥٧ . ومسند الإمام أحمد : ٤/٣٣١ .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٨/٤٦ .
(٣) فى سيرة ابن هشام ، وتفسير الطبرى : « أم كلثوم بنت جرول » .
(٤) فى تفسير الطبرى : « أم عبد الله » . والمثبت عن المخطوطة ، وسيرة ابن هشام .
(٥) هذا القدر فى سيرة ابن هشام : ٢/٣٢٧ .
(٦) تفسير الطبرى : ٢٨/٤٧ .

وقوله : (ذلكم حكم الله يحكم بينكم) ، أى : فى الصلح واستثناء النساء منه ، والأمر بهذا كله هو حكم الله يحكم به بين خلقه ، (والله عليم حكيم) ، أى : عليم بما يصلح عباده ، حكيم فى ذلك .

ثم قال : (وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم ، فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا) ـــ قال مجاهد ، وقتادة : هذا فى الكفار الذين ليس لهم عهد ، إذا فرت إليهم امرأة ولم يدفعوا إلى زوجها شيئا ، فإذا جاءت منهم امرأة لا يدفع إلى زوجها شىء ، حتى يدفع إلى زوج الذاهبة إليهم مثل نفقته عليها .

وقال ابن جرير : حدثنا يونس ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى يونس ، عن الزهرى قال : أقر المؤمنون بحكم الله ، فأدوا ما أمروا به من نفقات المشركين التى أنفقوا على نسائهم ، وأبى المشركون أن يقروا بحكم الله فيما فرض عليهم من أداء نفقات المسلمين ، فقال الله للمؤمنين به : (وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم ، فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون) ، فلو أنها ذهبت بعد هذه الآية امرأة من أزواج المؤمنين إلى المشركين ، ردّ المؤمنون إلى زوجها النفقة التى أنفق عليها من العقب الذى بأيديهم ، الذى أمروا أن يردوه على المشركين من نفقاتهم التى أنفقوا على أزواجهم اللاتى آمنّ وهاجرنّ ، ثم ردوا إلى المشركين فضلا [إن كان] بقى لهم . والعقب : ما كان [بأيدى المؤمنين (١)] من صداق نساء الكفار حين آمنّ وهاجرن (٢) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى هذه الآية : يعنى إن لحقت امرأة رجل من المهاجرين بالكفار ، أمر له رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أنه يعطى من الغنيمة مثل ما أنفق (٣) .

وهكذا قال مجاهد : (فعاقبتم) : أصبتم غنيمة من قريش أو غيرهم ، (فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا) ، يعنى : مهر مثلها . وهكذا قال مسروق ، وإبراهيم ، وقتادة ، ومقاتل ، والضحاك ، وسفيان بن حسين ، والزهرى أيضا .

وهذا لا ينافى الأول ، لأنه إن أمكن الأول فهو أولى ، وإلا فمن الغنائم اللاتى تؤخذ من أيدى الكفار . وهذا أوسع ، وهو اختيار ابن جرير ، ولله الحمد والمنة .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢)

قال البخارى : [حدثنا إسحاق (٤)] حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن أخى ابن شهاب ، عن عمه قال : أخبرنى عروة أن عائشة زوجَ النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أخبرته : أن رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ كان يمتحن

(١) ما بين القوسين عن تفسير الطبرى ، ومكانه فى المخطوطة : « على » .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٨/٤٨ ـ ٤٩ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٨/٥٠ .
(٤) ما بين القوسين عن البخارى .

من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية : (يا أيها النبي ، إذا جاءك المؤمنات يبايعنك) إلى قوله : (غفور رحيم) — قال عروة : قالت عائشة : فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات ، قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد بايعتك » ، كلاما ، ولا والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة ، ما يبايعهن إلا بقوله : « قد بايعتك على ذلك » . هذا لفظ البخاري (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا سفيان ، عن محمد بن المنكدر ، عن أميمة بنت رُقَيقة قالت : أتيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في نساء لنبايعه ، فأخذ علينا ما في القرآن : أن لا نشرك بالله شيئا ... الآية ، وقال : « فيما استطعتن وأطقتن » ، قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ، قلنا : يا رسول الله ، ألا تصافحنا ؟ قال : « إني لا أصافح النساء ، إنما قولي لامرأة واحدة كقولي لمائة امرأة(٢) » .

هذا إسناد صحيح ، وقد رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه ، من حديث سفيان بن عيينة — والنسائي أيضا من حديث الثوري — ومالك بن أنس كلهم ، عن محمد بن المنكدر ، به . وقال الترمذي : « حسن صحيح ، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن المنكدر(٣) » .

وقد رواه أحمد أيضا من حديث محمد بن إسحاق ، عن محمد بن المنكدر ، عن أميمة ، به ، وزاد : « ولم يصافح منا امرأة(٢) » ، وكذا رواه ابن جرير من طريق موسى بن عقبة ، عن محمد بن المنكدر(٤) به ، ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي جعفر الرازي ، عن محمد بن المنكدر : حدثتني أميمة بنت رقيقة — وكانت أخت خديجة خالة فاطمة ، من فيها إلى في — فذكره .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب ، حدثنا أبي ، عن ابن إسحاق ، حدثني سليط بن أيوب بن الحكم بن سُلَيم ، عن أمه سلمى بنت قيس — وكانت إحدى خالات رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد صلت معه القبلتين ، وكانت إحدى نساء بني عدي بن النجار قالت : جئت رسول الله — صلى الله عليه وسلم نبايعه(٥) في نسوة من الأنصار ، فلما شرط علينا : ألا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف — قال : « ولا تغشُشْنَ أزواجكن » ، قالت : فبايعناه ، ثم انصرفنا ، فقلت لامرأة

---

(١) البخاري ، تفسير سورة الممتحنة : ٦/١٨٦ — ١٨٧ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٦/٣٥٧ .

(٣) تحفة الأحوذي ، أبواب السير ، باب ما جاء في بيعة النساء ، الحديث ١٦٤٥ : ٥/٢٢٠ . والنسائي ، كتاب البيعة ، باب « بيعة النساء » : ٧/١٤٩ ، وباب « البيعة فيما يستطيع الإنسان » : ٧/١٥٢ . وابن ماجه ، كتاب الجهاد ، باب « بيعة النساء » ، الحديث ٢٨٧٤ : ٢/٩٥٩ .

(٤) تفسير الطبري : ٢٨/٥٣ .

(٥) في المسند : « فبايعته » .

منهن : ارجعي فسلي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماغش أزواجنا ؟ قال : فسألته فقال : « تأخذ ماله ، فتحابي به غيره (١) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن أبي العباس ، حدثنا عبد الرحمن بن عثمان بن إبراهيم بن محمد بن حاطب ، حدثني أبي ، عن أمه عائشة بنت قدامة — يعني ابن مظعون — قالت : أنا مع أمي رائطة [بنت سفيان] الخزاعية ، والنبي — صلى الله عليه وسلم — يبايع النسوة ويقول : « أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئا ، ولا تسرقن ولا تزنين ولا تقتلن أولادكن ، ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن ، ولا تعصينني في معروف [قالت : فأطرقن ؛ فقال لهن النبي — صلى الله عليه وسلم — (٢)] » ، قلن : نعم فيما استطعن » . فكن يقلن وأقول معهن ، وأمي [تلقنني : قولي (٣)] أي بنية : نعم [فيما استطعت (٢)] فكنت أقول كما يقلن (٤) » .

وقال البخاري : حدثنا [أبو (٥)] معمر ، حدثنا عبد الوارث ، حدثنا أيوب ، عن حفصة بنت سيرين ، عن أم عطية قالت : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ علينا : (أن لا يشركن بالله شيئا) ، ونهانا عن النياحة ، فقبضت امرأة يدها [فقالت] : أسعدتني (٦) فلانة أريد أن أجزيها ، فما قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا ، فانطلقت ورجعت فبايعها (٧) » .

ورواه مسلم (٨) . وفي رواية : « فما وفى منهن امرأة غيرها ، وغير أم سليم ابنة ملحان » .

وللبخاري عن أم عطية قالت : أخذ علينا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عند البيعة أن لانتوح ، فما وفت منا امرأة غير خمس نسوة : أم سليم ، وأم العلاء ، وابنة أبي سبرة امرأة معاذ ، وامرأتان — أو : ابنة أبي سبرة ، وامرأة معاذ ، وامرأة أخرى (٩) .

وقد كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يتعاهد النساء بهذه البيعة يوم العيد ، كما قال البخاري :

حدثنا محمد بن عبد الرحيم ، حدثنا هارون بن معروف ، حدثنا عبد الله بن وهب ، أخبرني ابن جريج : أن الحسن ابن مسلم أخبره ، عن طاوس ، عن ابن عباس قال : شهدت الصلاة يوم الفطر مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأبي بكر وعمر وعثمان ، فكلهم يصليها قبل الخطبة ثم يخطب بعد ، فنزل نبي الله — صلى الله عليه وسلم — فكأني أنظر

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٦/٣٧٩ — ٣٨٠ . وانظر أيضاً المسند : ٦/٤٢٢ — ٤٢٣ . وأسد الغابة ، ترجمة سلمى بنت قيس : ٧/١٤٩ ، بتحقيقنا .

(٢) ما بين القوسين من المسند .

(٣) ما بين القوسين من المسند ، ومكانه في المخطوطة : « تقول » .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٦/٣٦٥ . وانظر ترجمة عائشة بنت قدامة في أسد الغابة ، الترجمة ٧٠٩٢ : ٧/١٩٤ بتحقيقنا .

(٥) ما بين القوسين من الصحيح . وأبو معمر هذا هو : عبد الله بن عمرو بن أبي الحجاج . انظر الخلاصة .

(٦) أي : عاونتها في النياحة .

(٧) البخاري ، تفسير سورة الممتحنة : ٦/١٨٧ .

(٨) انظر مسلم ، كتاب الجنائز ، باب « التشديد في النياحة » : ٣/٤٦ .

(٩) البخاري ، كتاب الجنائز ، باب « ما ينهى عن النوح والبكاء والزجر عن ذلك » : ٢/١٠٦ .

إليه حين يُجلّس الرجال بيده ، ثم أقبل يشقهم حتى أتى النساء مع بلال فقال : (يا أيها النبي ، إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ، ولا يسرقن ولا يزنين ، ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن) ، حتى فرغ من الآية كلها . ثم قال حين فرغ : «أنتن على ذلك ؟ » . فقالت امرأة واحدة ، لم يجبه غيرها : نعم يا رسول الله ــ لا يدرى الحسن من هى ــ قال : فتصدقن ، قال : وبسط بلال ثوبه فجعلن يلقين الفَتَخَ (١) والخواتيم فى ثوب بلال (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا [ابن] عياش (٣) عن سليمان بن سُليم ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : جاءت أميمة بنت رقيقة إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ تبايعه على الإسلام ، فقال : « أبايعك على أن لا تشركى بالله شيئا ، ولا تسرقى ولا تزنى ولا تقتلى ولدك ، ولا تأتى ببهتان تفترينه بين يديك ورجليك ، ولا تنوحى ، ولا تبرجى تبرج الجاهلية الأولى(٤) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن الزهرى ، عن أبى إدريس الخولانى ، عن عبادة بن الصامت قال : كنا عند رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى مجلس فقال : (تبايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم) ــ قرأ الآية التى أخذت على النساء : (إذا جاءك المؤمنات) ــ فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به ، فهو كفارة له . ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله عليه ، فهو إلى الله ، إن شاء غفر له ، وإن شاء عذبه (٥) » . أخرجاه فى الصحيحين (٦) .

وقال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن مرثد بن عبد الله اليزنى ، عن أبى عبد الله عبد الرحمن بن عُسيلة الصنابحى ، عن عبادة بن الصامت قال : كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثنى عشر رجلا ، فبايعنا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ على بيعة النساء ، وذلك قبل أن يفرض الحرب ، على أن لا نشرك بالله شيئا ، ولا نسرق ولا نزنى ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه فى معروف ، [وقال] : « فإن وفّيتم فلكم الجنة » . رواه ابن أبى حاتم .

وقد روى ابن جرير من طريق العوفى ، عن ابن عباس : أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أمر عمر بن الخطاب فقال : « قل لهن : إن رسول الله يبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئا » ــ وكانت هند بنت عتبة بن ربيعة التى شقت

---

(١) الفتخ ــ بفتحتين ــ واحدها : فتخة ، وهى خواتيم كبار تلبس فى الأيدى ، وربما وضعت فى أصابع الأرجل .
(٢) البخارى ، تفسير سورة الممتحنة : ١٨٧/٦ ــ ١٨٨ .
(٣) فى المخطوطة : «عباس» ، بالعين والباء الموحدة ، وما بين القوسين عن المسند . وهو إسماعيل بن عياش ، انظر الخلاصة ترجمة سليمان بن سليم . هذا وقد أخرجه ابن جرير من طريق ابن عياش ، على أن فيه «سليمان بن سليمان» وهو خطأ . انظر تفسير الطبرى : ٥٢/٢٨ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ١٩٦/٢ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٣١٤/٥ .
(٦) البخارى ، تفسير سورة الممتحنة : ١٨٧/٦ ، ومسلم ، كتاب الحدود ، باب «الحدود كفارات لأهلها» : ١٢٦/٥ ــ ١٢٧ .

بطن حمزة مُتَنَكِّرة فى النساء — فقالت : «إنى إن أتكلم يعرفنى ، وإن عرفنى قتلنى » ، وإنما تنكرت فرقاً من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فسكت النسوة اللاتى مع هند ، وأبين أن يتكلمن . فقالت هند وهى مُتَنَكِّرة : كيف تقبل من النساء شيئاً لم تقبله من الرجال ؟ ففطن(١) إليها رسول الله وقال لعمر : « قل لهن : ولا تسرقن » — قالت هند : والله إنى لأصيب من أبى سفيان الهنَات ، ما أدرى أيحلهن لى أم لا ؟ قال أبو سفيان : ما أصبت من شىء مضى أو قد بقى ، فهو لك حلال » فضحك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وعرفها ، فدعاها فأخذت بيده ، فعاذت به ، فقال : « أنت هند ؟ » ، قالت : عفا الله عما سلف . فصُرِف عنها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : « ولا تزنين » ، فقالت : يا رسول الله ، وهل تزنى الحرة ؟ قال : « لا ، والله ما تزنى الحرة . فقال : ولا يقتلن أولادهن » ، قالت هند : أنت قتلتهم يوم بدر ، فأنت وهم أبصر » قال : (ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن) قال : (ولا يعصينك فى معروف) ، قال : منعهن أن ينحن ، وكان أهل الجاهلية يمزقن الثياب ويخدّشن الوجوه ، ويقطعن الشعور ، ويدعون بالثبور » والثبور : الويل (٢) »

وهذا أثر غريب ، وفى بعضه نكارة(٣) ، والله أعلم ؛ فإن أبا سفيان وامرأته لما أسلما لم يكن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يخيفهما ، بل أظهر الصفاء والود له ، وكذلك كان الأمر من جانبه — عليه السلام — لها .

وقال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية يوم الفتح ، فبايع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — [الرجال] على الصفا ، وعمر يبايع [النساء] تحتها عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم(٤) — فذكر بقيته كما تقدم وزاد : فلما قال : (ولا تقتلن أولادكن) ، قالت هند : ربيناهم صغاراً فقتلتموهم كباراً » فضحك عمر بن الخطاب حتى استلقى » رواه ابن أبى حاتم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا نصر بن على ، حدثتنى غبطة(٥) بنت سليمان ، حدثتنى عمتى ، عن جدتها ، عن(٦) عائشة قالت : جاءت هند بنت عتبة إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لتبايعه ، فنظر إلى يدها فقال : « اذهبى فغيرى يدك » ، فذهبت فغيرتها [بحناء] ، ثم جاءت فقال : « أبايعك على أن لا تشركى بالله شيئاً » ، فبايعها وفى يدها سواران من ذهب ، فقالت : ما تقول فى هذين السوارين ؟ فقال : « جمرتان من جمر جهنم » .

فقوله : (يا أيها النبى ، إذا جاءك المؤمنات يبايعنك) ، أى : من جاءك منهن يبايع على هذه الشروط ، فبايعها (على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن) ، أى : أموال الناس الأجانب ، فأما إذا كان الزوج مقصراً فى نفقتها ، فلها أن

---

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر . وفى تفسير الطبرى : « فنظر إليها ... » .

(٢) تفسير الطبرى : ٨/١٢ه .

(٣) انظر ترجمة هند بنت عتبة فى طبقات ابن سعد ، ....

(٤) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور ، عن ابن أبى حاتم : ٦/٢٠٩ .

(٥) كذا فى المخطوطة : « غبطة بن سليمان » . وفى سنن أبى داود ، كتاب الترجل ، باب « فى الخضاب للنساء » : « غبطة بنت عمرو المجاشعية » .

(٦) فى المخطوطة : « حدثنى عمى ، عن جدى » . والمثبت عن سنن أبى داود ، ولفظه : « حدثنى مسلم بن ابراهيم ، حدثتنى غبطة بنت عمرو المجاشعية ، قالت : حدثتنى عمتى أم الحسن ، عن جدتها ، عن عائشة » .

تأكل من ماله بالمعروف ، ما جرت به عادة أمثالها ، وإن كان بغير علمه ، عملا بحديث هند بنت عتبة أنها قالت : « يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني ، فهل على جناح إن أخذت من ماله بغير علمه ؟ فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك » . أخرجاه(١) في الصحيحين .

وقوله : (ولا يزنين) ، كقوله : (ولا تقربوا الزنا ، إنه كان فاحشة وساء سبيلا(٢)) . وفي حديث سمرة ذكر عقوبة الزناة بالعذاب الأليم في نار الجحيم(٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهري ، عن عروة ، عن عائشة قالت : جاءت فاطمة بنت عتبة تبايع النبي – صلى الله عليه وسلم – فأخذ عليها : (أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين) .. الآية ، قالت : فوضعت يدها على رأسها حياء ، فأعجبه ما رأى منها ، فقالت عائشة : أقري أيتها المرأة ، فوالله ما بايعنا إلا على هذا . قالت : فنعم إذاً . فبايعها بالآية(٤) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا ابن فضيل ، عن حصين ، عن عامر – هو الشعبي – قال بايع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – النساء ، وعلى يده ثوب قد وضعه على كفه ، ثم قال : ولا تقتلن أولادكن . فقالت امرأة : تقتل آباءهم وتوصينا بأولادهم ؟ قال : وكان بعد ذلك إذا جاءه النساء يبايعنه ، جمعهن فعرض عليهن . فإذا أقررن رجعن .

وقوله : (ولا يقتلن أولادهن) : وهذا يشمل قتله بعد وجوده ، كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق ، ويعم قتله وهو جنين ، كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء ، تطرح نفسها لئلا تحبل إما لغرض فاسد أو ما أشبهه .

وقوله : (ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن) – قال ابن عباس : يعني لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم . وكذا قال مقاتل . ويؤيد هذا الحديث الذي رواه أبو داود :

حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، حدثنا عمرو – يعني ابن الحارث – عن ابن الهاد ، عن عبد الله ابن يونس ، عن سعيد المقبري ، عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول حين نزلت آية الملاعنة : « أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم ، فليست من الله في شيء ، ولن يدخلها الله جنته . وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه ، احتجب الله منه ، وفضحه على رءوس الأولين والآخرين (٥) » .

(١) البخاري ، كتاب الأحكام ، باب « القضاء على الغائب » : ٨٩/٩ . ومسلم ، كتاب الأقضية ، باب « قضية هند » : ١٢٩/٥ .
(٢) سورة الإسراء ، آية : ٣٢ .
(٣) انظر مسند الإمام أحمد : ١٥/٥ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ١٥١/٦ .
(٥) سنن أبي داود ، كتاب الطلاق ، باب « إذا شك في الولد » .

وقوله : (ولا يعصينك فى معروف) ، يعنى : فيما أمرتهن به من معروف ، ونهيتهن عنه من منكر .

قال البخارى : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا وهب بن جرير ، حدثنا أبى قال : سمعت الزبير ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله : (ولا يعصينك فى معروف) ، قال : إنما هو شرط شرّطه الله للنساء(١) .

وقال ميمون بن مهران : لم يجعل الله لنبيه طاعة إلا لمعروف ، والمعروف : طاعة .

وقال ابن زيد : أمر الله بطاعة رسوله ، وهو خيرَة الله من خلقه فى المعروف .

وقد قال غيره عن ابن عباس ، وأنس بن مالك ، وسالم بن أبى الجعد ، وأبى صالح ، وغير واحد : نهاهن يومئذ عن النوح(٢) . وقد تقدم حديث أم عطية فى ذلك أيضا .

وقال ابن جرير : حدثنا بشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد ، عن قتادة فى هذه الآية : ذكر لنا أن نبى الله — صلى الله عليه وسلم — أخذ عليهن النياحة ، ولا تحدثن الرجال إلا رجلا منكن محرما . فقال عبد الرحمن بن عوف : يا نبى الله ، إن لنا أضيافاً ، وإنا نغيب عن نسائنا . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ليس أولئك عَنَيْتُ ، ليس أولئك عَنَيْتُ(٣) » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا إبراهيم بن موسى الفراء ، أخبرنا ابن أبى زائدة ، حدثنى مبارك ، عن الحسن قال : كان فيما أخذ النبى — صلى الله عليه وسلم — : ألا تحدثن الرجال إلا أن تكون ذات محرم ، فإن الرجل لا يزال يحدث المرأة حتى يَمذى بين فخذيه .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا هارون ، عن عمرو ، عن عاصم ، عن ابن سيرين ، عن أم عطية الأنصارية قالت : كان فيما اشتُرط علينا من المعروف حين بايعنا : أن لا ننوح فقالت امرأة من بنى فلان : إن بنى فلان أسعدونى ، فلا حتى أجزيهم ! فانطلقت فأسعدَتهم ، ثم جاءت فبايعت ، قالت : فما وفى منهن غيرها ، وغير أم سليم ابنة ملحان أم أنس بن مالك (٤) .

وقد روى البخارى هذا الحديث من طريق حفصة بنت سيرين ، عن أم عطية نسيبة الأنصارية ، رضى الله عنها ؛ وقد روى نحوه من وجه آخر أيضا .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو نُعَيم ، حدثنا عُمَر(٥) بن فروخ القَتّاب ، حدثنى مصعب ابن نوح الأنصارى قال : أدركت عجوزاً لنا كانت فيمن بايع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — . قالت : فأتيته

---

(١) البخارى ، تفسير سورة الممتحنة : ١٨٧/٦ .
(٢) انظر تفسير الطبرى : ٥١/٢٨ .
(٣) تفسير الطبرى : ٥١/٢٨ — ٥٢ .
(٤) تفسير الطبرى : ٥٢/٢٨ .
(٥) فى تفسير الطبرى : « عمرو » . والصواب ما هنا ، وفيه أيضاً : « القتات » بتاءين ، والصواب بتاء وباء بعد الألف . انظر الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ١٢٨/١/٣ .

لأبايعه ، فأخذ علينا فيما أخذ أن لا تنحن ، فقالت عجوز : يا رسول الله ، إن ناسا قد كانوا أسعدونى على مصائب أصابتنى ، وإنهم قد أصابتهم مصيبة ، فأنا أريد أن أسعدهم . قال : « فانطلقى فكافئيهم » . فانطلقت فكافأتهم ، ثم إنها أتته فبايعته ، وقال : هو المعروف الذى قال الله عز وجل : (ولا يعصينك فى معروف [1]) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن منصور الرمادى ، حدثنا القعنبى ، حدثنا الحجاج بن صفوان ، عن أسيد ابن [أبى] أسيد البراد ، عن امرأة من المبايعات قالت : كان فيما أخذ علينا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن لا نعصيه فى معروف : أن لا نخمش وجوها ، ولا ننشر شعرا ، ولا نشق جيبا ، [ولا ندعوا ويلا] .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كُرَيب ، حدثنا وكيع ، عن يزيد مولى الصهباء ، عن شهر بن حوشب ، عن أم سلمة ، عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى قوله : (ولا يعصينك فى معروف) قال : النوح [1] .

ورواه الترمذى فى التفسير ، عن عبد بن حُمَيد ، عن أبى نُعَيم — وابن ماجه ، عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن وكيع — كلاهما عن يزيد بن عبد الله الشيبانى مولى الصهباء ، به . وقال الترمذى : « حسن غريب [2] » .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن سنان القزاز ، حدثنا إسحاق بن إدريس ، حدثنا إسحاق بن عثمان أبو يعقوب[3] ، حدثنى إسماعيل بن عبد الرحمن بن عطية ، عن جدته أم عطية قالت : لما قدم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — جمع نساء الأنصار فى بيت ، ثم أرسل إلينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقام على الباب وسلم علينا ، فرددن — أو : فرددنا — عليه السلام ، ثم قال : أنا رسولُ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إليكن . قالت : فقلنا : مرحبا برسول الله وبرسول رسول الله : فقال : تبايعن على أن لا تشركن بالله شيئا ، ولا تسرقن ولا تزنين ؟ قالت : قلنا : نعم . قالت : فمد يده من خارج الباب — أو : البيت — ومددنا أيدينا من داخل البيت ، ثم قال : اللهم اشهد . قالت وأمرنا فى العيدين أن نخرج فيه الحُيَّض والعواتق ، ولا جمعة علينا ، ونهانا عن اتباع الجنائز — قال إسماعيل : فسألت جدتى عن قوله : (ولا يعصينك فى معروف) . قالت : النياحة[4] .

وفى الصحيحين من طريق الأعمش ، عن عبد الله بن مُرَّة ، عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ليس منا من ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية [5] » .

وفى الصحيحين أيضا عن أبى موسى : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — برىء من الصالقة والحالقة[6] والشاقة [7] .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٨/٥٢ .

(٢) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الممتحنة ، الحديث ٣٣٦٢ : ٩/٢٠٤ — ٢٠٦ . وسنن ابن ماجه ، كتاب الجنائز ، باب « فى النهى عن النياحة » ، الحديث ١٥٧٩ : ١/٥٠٣ .

(٣) فى تفسير الطبرى : « بن يعقوب » . وفى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ١/١/٢٣٠ مثل ما هنا .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٨/٥٣ .

(٥) البخارى ، كتاب الجنائز ، باب « ليس منا من ضرب الخدود » : ٢/١٠٣ — ١٠٤ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « تحريم ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، والدعاء بدعوى الجاهلية » : ١/٦٩ — ٧٠ .

(٦) الصالقة : التى ترفع صوتها . والحالقة : التى تحلق شعرها .

(٧) البخارى ، كتاب الجنائز ، باب « ماينهى من الحلق عند المصيبة » : ٢/١٠٣ ، ومسلم فى الكتاب والباب السابقين ١/٧٠ .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا هُدْبة بن خالد، حدثنا أبان بن يزيد ، حدثنا يحيى بن [أبى] كثير : أن زيدا حدثه : أن أبا سلام حدثه : ان أبا مالك الأشعرى حدثه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر فى الأحساب ، والطعن فى الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة . وقال : النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ، ودرع من جرَب » .

ورواه مسلم فى صحيحه منفردا به ، من حديث أبان بن يزيد العطار ، به (١) .

وعن أبى سعيد : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لعن النائحة والمستمعة . رواه أبو داود(٢) .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

ينهى تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين فى آخر « هذه السورة » كما نهى عنها فى أولها فقال : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تتولوا قوما غضب الله عليهم) ، يعنى اليهود والنصارى وسائر الكفار ، ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والإبعاد ، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء وقد يئسوا من الآخرة ، أى : من ثواب الآخرة ونعيمها فى حكم الله عز وجل .

وقوله : (كما يئس الكفار من أصحاب القبور) ، فيه قولان ، أحدهما : كما يئس الكفار الأحياء من قراباتهم الذين فى القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك ، لأنهم لا يعتقدون بعثا ولا نشورا ، فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه :

قال العوفى ، عن ابن عباس : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تتولوا قوما غضب الله عليهم) ... إلى آخر السورة ، يعنى : من مات من الذين كفروا فقد يئس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم أو يبعثهم الله عز وجل .

وقال الحسن البصرى : (كما يئس الكفار من أصحاب القبور) ، قال : الكفار الأحياء قد يئسوا من الأموات .

وقال قتادة : كما يئس الكفار أن يرجع إليهم أصحاب القبور الذين ماتوا . وكذا قال الضحاك . رواهن ابن جرير(٣) .

والقول الثانى : معناه : كما يئس الكفار الذين هم فى القبور من كل خير :

قال الأعمش ، عن أبى الضحى ، عن مسروق ، عن ابن مسعود : (كما يئس الكفار من أصحاب القبور) ، قال : كما يئس هذا الكافر إذا مات وعاين ثوابه واطلع عليه . وهذا قول مجاهد ، وعكرمة ، ومقاتل ، وابن زيد ، والكلبى ، ومنصور . وهو اختيار ابن جرير .

(آخر تفسير سورة الممتحنة ، ولله الحمد)

---

(١) مسلم ، كتاب الجنائز ، باب « التشديد فى النياحة » : ٣/٤٥ .
(٢) سنن أبى داود ، كتاب الجنائز ، باب « فى النوح » .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٨/٥٣ — ٥٤ .

تفسير سورة الصف

وهي مدنية

قال الإمام أحمد — رحمه الله — : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا ابن المبارك ، عن الأوزاعي ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلمة — وعن عطاء بن يسار ، عن أبي سلمة ، عن عبد الله بن سلام قال : تذاكرنا : أيكم يأتي رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم — فيسأله أي الأعمال أحب إلى الله ؟ فلم يقم أحد منا ، فأرسل رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — إلينا رجلا ، فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة ، يعني سورة الصف كلها . هكذا رواه الإمام أحمد (١).

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا العباس بن الوليد بن مَزْيَد البيروتي قراءة قال : أخبرني أبي ، سمعت الأوزاعي ، حدثني يحيى بن أبي كثير ، حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن ، حدثني عبد الله بن سلام ، أن أناسا من أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قالوا : لو أرسلنا إلى رسول الله نسأله عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ؟ فلم يذهب إليه أحد منا ، وهِبْنَا أن نسأله عن ذلك ، قال : فدعا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أولئك النفر رجلا رجلا حتى جمعهم ، ونزلتْ فيهم هذه السورة : (سبح) الصف — قال عبد الله بن سلام : فقرأها علينا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كلها . [قال أبو سلمة : وقرأها علينا عبد الله بن سلام كلها] . قال يحيى بن أبي كثير : وقرأها علينا أبو سلمة كلها . قال الأوزاعي : وقرأها علينا يحيى بن أبي كثير [كلها] قال أبي : وقرأها علينا الأوزاعي كلها .

وقد رواه الترمذي عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي : حدثنا محمد بن كثير ، عن الأوزاعي ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن أبي سلمة ، عن عبد الله بن سلام قال : قعدنا نفرا من أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فتذاكرنا ، فقلنا : لو نعلم : أي الأعمال أحب إلى الله عز وجل لعملناه . فأنزل الله : (سبح لله ما في السموات وما في الأرض ، وهو العزيز الحكيم . يا أيها الذين آمنوا ، لم تقولون مالا تفعلون) — قال عبد الله بن سلام : فقرأها علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أبو سلمة : فقرأها علينا ابن سلام . قال يحيى : فقرأها علينا أبو سلمة . قال ابن كثير : فقرأها علينا الأوزاعي . قال عبد الله : فقرأها علينا ابن كثير .

ثم قال الترمذي : وقد خولف محمد بن كثير في إسناد هذا الحديث عن الأوزاعي ، فروى ابن المبارك ، عن الأوزاعي ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن هلال بن أبي ميمونة ، عن عطاء بن يسار ، عن عبد الله بن سلام — أو : عن أبي سلمة ، عن عبد الله بن سلام(٢) .

قلت : وهكذا رواه الإمام أحمد ، عن يعمر ، عن ابن المبارك ، به(٣) .

قال الترمذي : « وروى الوليد بن مسلم هذا الحديث عن الأوزاعي ، نحو رواية محمد بن كثير(٢) » .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/٤٥٢ .

(٢) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة الصف ، الحديث ٣٣٦٣ : ٩/٢٠٦ - ٢٠٨ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٥/٤٥٢ .

قلت : وكذا رواه الوليد بن يزيد ، عن الأوزاعي ، كما رواه ابن كثير .

قلت : وقد أخبرني بهذا الحديث الشيخ المسند أبو العباس أحمد بن أبي طالب الحجار قراءة عليه وأنا أسمع ، أخبرنا أبو المُنَجَّا عبد الله (١) بن عُمَر بن اللَّتِّيّ ، أخبرنا أبو الوقت عبد الأول بن عيسى بن شُعَيب السِّجْزِيّ (٢) قال : أخبرنا أبو الحسن عبد الرحمن بن المظفر (٣) بن محمد بن داود الداودي ، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد ابن حَمُّوَيه السرَخسِيّ (٤) ، أخبرنا عيسى بن عُمَر بن عمران السمرقندي ، أخبرنا الإمام الحافظ أبو محمد عبد الله ابن عبد الرحمن الدارميّ بجميع مسنده ، أخبرنا محمد بن كثير ، عن الأوزاعي ... فذكر بإسناده مثله ، وتسلسل لنا قراءتها إلى شيخنا أبي العباس الحجار ، ولم يقرأها ، لأنه كان أميا ، وضاق الوقت عن تلقينها إياه . ولكن أخبرني الحافظ الكبير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي رحمه الله : أخبرنا القاضي تقي الدين سليمان بن الشيخ أبي عمر ، أخبرنا أبو المنجا بن اللَّتِّيّ ... فذكره بإسناده ، وتسلسل لي من طريقه ، وقرأها علي بكمالها ، ولله الحمد والمنة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ (٤) ﴾

تقدم الكلام على قوله : (سبح لله ما في السموات وما في الأرض ، وهو العزيز الحكيم) غير مرة ، بما أغنى عن إعادته .

وقوله : (يا أيها الذين آمنوا ، لم تقولون ما لا تفعلون) ؟ إنكار على من يَعِد عِدَةً ، أو يقول قولا لا يفي به ، ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من [ذهب] من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقا ، سواء ترتب عليه غُرم للموعود أم لا . واحتجوا أيضا من السنة بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان(٥) » . وفي الحديث الآخر في الصحيح : « أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها(٦) » . ـ فذكر منهن إخلاف الوعد . وقد استقصينا الكلام على هذين الحديثين في أول « شرح البخاري » ، ولله الحمد والمنة . ولهذا أكد تعالى هذا الإنكار عليهم بقوله : (كَبُرَ مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) .

---

(١) مترجم في العبر للذهبي : ١٤٣/٥ .
(٢) انظر العبر للذهبي : ١٥١/٤ — ١٥٢ .
(٣) في العبر للذهبي ٢٦٤/٣ — ٢٦٥ : « عبد الرحمن بن محمد بن المظفر ... » .
(٤) مترجم في العبر للذهبي : ١٧/٣ .
(٥) تقدم الحديث عند تفسير الآية الرابعة والخمسين من سورة مريم ٢٣٤/٥ ، وخرجناه هنالك .
(٦) البخاري ، كتاب الإيمان ، باب « علامة المنافق » : ١٥/١ . ومسلم ، كتاب الإيمان أيضاً ، باب « بيان خصال المنافق » : ٥٦/١ .

وقد روى الإمام أحمدُ وأبو داود ، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : أتانا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ [في بيتنا(١)] وأنا صبي ــ قال : فذهبت لأخرج لألعب ، فقالت أمي : يا عبد الله : تعال أعطك . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما أردت أن تُعطيه ؟ » . قالت : تمرا . فقال : « أما إنك لو لم تفعلي كُتبت عليك كذبة(٢) » .

وذهب الإمام مالك رحمه الله إلى أنه إذا تعلق بالوعد غُرم على الموعود وجب الوفاء به ، كما لو قال لغيره : « تزوج ولك على كل يوم كذا » . فتزوجَ ، وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك ، لأنه تعلق به حق آدمى ، وهو مبنى على المضايقة . وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقا ، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فَرضيّة الجهاد عليهم ، فلما فرض نكل عنه بعضهم ، كقوله تعالى : (ألم تر إلى الذين قيل لهم : كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا : ربنا ، لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ، قل : متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتيلا . أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة(٣)) . وقال تعالى : (ويقول الذين آمنوا : لولا نُزّلت سورة ؟ فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال ، رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت(٤)) ... الآية ، وهكذا هذه الآية معناها ، كما قال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون) ، قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لَوَدِدْنا أن الله ــ عز وجل ــ دلنا على أحب الأعمال إليه ، فنعملَ به . فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمانٌ به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به ؛ فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين ، وشق عليهم أمره ، فقال الله سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا ، لم تقولون مالا تفعلون (٥) ؟ . وهذا اختيار ابن جرير (٦) .

وقال مقاتل بن حيّان : قال المؤمنون : لو نعلم أحبَّ الأعمال إلى الله لعملنا به . فدلهم الله على أحب الأعمال إليه ، فقال : (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا) ، فبين لهم ، فابتلوا يوم أحد بذلك ، فولوا عن النبي صلى الله عليه وسلم مدبرين ، فأنزل الله في ذلك : (يا أيها الذين آمنوا ، لم تقولون مالا تفعلون) ؟ وقال : أحبكم إلى من قاتل في سبيلي .

ومنهم من يقول : أنزلت في شأن القتال ، يقول الرجل : « قاتلت » . ولم يقاتل . « وطعنت » . ولم يطعن . « وضربت » . ولم يضرب . « وصبرت » . ولم يصبر .

وقال قتادة ، والضحاك : نزلت توبيخا لقوم كانوا يقولون : « قتلنا ، ضربنا ، طعنا ، وفعلنا » . ولم يكونوا فعلوا ذلك .

وقال ابن زيد : نزلت في قوم من المنافقين ، كانوا يَعدون المسلمين النصرَ ، ولا يفون لهم بذلك .

---

(١) ما بين القوسين عن المسند .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٣/٤٤٧ . وسنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « في الكذب » .
(٣) سورة النساء ، آية : ٧٦ ، ٧٧ .
(٤) سورة محمد ، آية : ٢٠ .
(٥) تفسير الطبري : ٢٨/٥٥ .
(٦) تفسير الطبري : ٢٨/٥٦ .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : (لم تقولون مالا تفعلون ؟) ، قال : في الجهاد .

وقال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : (لم تقولون مالا تفعلون) إلى قوله : (كأنهم بنيان مرصوص) [فما بين ذلك] : في نفر من الأنصار ، فيهم عبد الله بن رواحة ، قالوا في مجلس : لو نعلم أيّ الأعمال أحبّ إلى الله ، لعملنا بها حتى نموت . فأنزل الله هذا فيهم . فقال عبد الله بن رواحة : لا أبرح حبيسا في سبيل الله حتى أموت : فقتل شهيداً (١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا فروة بن أبي المغراء ، حدثنا على بن مسهر ، عن داود بن أبي هند ، عن أبي حرْب بن أبي الأسود الدّيلى ، عن أبيه قال : بعث أبو موسى إلى قراء أهل البصرة ، فدخل عليه منهم ثلاثمائة رجل ، كلهم قد قرأ القرآن ، فقال : أنتم قراء أهل البصرة وخيارهم . وقال : كنا نقرأ سورة كنا نشبهها بإحدى المسبحات ، فأنسيناها ، غير أني قد حفظت منها : (يا أيها الذين آمنوا ، لم تقولون مالا تفعلون) : فتكتب شهادة في أعناقكم ، فتسألون عنها يوم القيامة .

ولهذا قال تعالى : (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) ، فهذا إخبار منه تعالى بمحبة عباده المؤمنين إذا اصطفوا مواجهين لأعداء الله في حومة الوغى ، يقاتلون في سبيل الله مَن كفر بالله ، لتكون كلمة الله هي العليا ، ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان .

قال الإمام أحمد : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا هشيم ، قال مجالد : أخبرنا عن أبي الودّاك ، عن أبي سعيد الخدرى — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ثلاثة يضحك الله إليهم : الرجل يقوم من الليل ، والقوم إذا صفوا للصلاة ، والقوم إذا صفوا للقتال (٢) » .

ورواه ابن ماجه من حديث مجالد ، عن أبي الودّاك جبر بن نوف ، به .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو نُعَيم الفضل بن دكين ، حدثنا الأسود — يعني ابن شيبان — حدثني يزيد بن عبد الله بن الشخير قال : قال مُطَرِّف : كان يبلغني عن أبي ذر حديث كنت أشتهي لقاءه ، فلقيته فقلت : يا أبا ذر ، كان يبلغني عنك حديث ، فكنت أشتهي لقاءك . فقال : لله أبوك ! فقد لقيت ، فهات . فقلت : كان يبلغني عنك أنك تزعم أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حدثكم أن الله يحب ثلاثة ويبغض ثلاثة ؟ قال : أجل ، فلا إخالني أكذب على خليلي صلى الله عليه وسلم . قلت : فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله ؟ قال : رجل غزا في سبيل الله ، خرج محتسبا مجاهدا فلقي العدو فقتل ، وأنتم تجدونه في كتاب الله المنزل ، ثم قرأ : (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) ... وذكر الحديث .

هكذا أورد هذا الحديث من هذا الوجه بهذا السياق ، وبهذا اللفظ ، واختصره . وقد أخرجه الترمذى والنسائى من حديث شعبة ، عن منصور بن المعتمر ، عن ربعى بن حراش ، عن زيد بن ظَبْيَان ، عن أبي ذرّ بأبسط من هذا السياق وأتم . وقد أوردناه في مواضع أخر ، ولله الحمد (٣) .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٨/٥٥ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٣/٨٠ ، وقد وقع في المسند سقط فلنظر .
(٣) وقع لنا الحديث في مسند الإمام أحمد : ٥/١٧٦ .

وعن كعب الأحبار أنه قال : يقول الله تعالى لمحمد - صلى الله عليه وسلم - : « عبدى المتوكل المختار ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، مولده بمكة ، وهجرته بطابة ، وملكه بالشام ، وأمته الحمادون يحمدون الله على كلّ حال ، وفى كل منزلة ، لهم دوىّ كدوىّ النحل فى جو السماء بالسحَر ، يُوَضّئون أطرافهم ، ويأتزرون على أنصافهم ، صفهم فى القتال مثل صفهم فى الصلاة » . ثم قرأ : (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) ، رعاة الشمس ، يصلون الصلاة حيث أدركتهم ، ولو على ظهر دابة » رواه ابن أبى حاتم (١) .

وقال سعيد بن جبير فى قوله : (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا) ، قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا يقاتل العدو إلا أن يصافهم ، وهذا تعليم من الله للمؤمنين . قال : وقوله (كأنهم بنيان مرصوص) : ملتصق بعضه فى بعض ، من الصف فى القتال .

وقال مقاتل بن حيان : ملتصق بعضه إلى بعض .

وقال ابن عباس : (كأنهم بنيان مرصوص) : مُثْبَت ، لا يزول ، ملصق بعضه ببعض .

وقال قتادة : (كأنهم بنيان مرصوص) : ألم تر إلى صاحب البنيان ، كيف لا يحب أن يختلف بنيانه ؟ فكذلك الله عز وجل لا يختلف أمره ، وإن الله صف المؤمنين فى قتالهم وصفّهم فى صلاتهم ، فعليكم بأمر الله ، فإنه عصمة لمن أخذ به . أورد ذلك كله ابن أبى حاتم (٢) .

وقال ابن جرير : حدثنى سعيد بن عمْرو السكونى ، حدثنا بقية بن الوليد ، عن أبى بكر بن أبى مريم ، عن يحيى ابن جابر الطائى ، عن أبى بحرية قال : كانوا يكرهون القتال على الخيل ، ويستحبون القتال على الأرض ، لقول الله عز وجل : (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) - قال : وكان أبو بحرية يقول : إذا رأيتمونى التفتُّ فى الصف فجَئُوا فى لَحْيى (٣) .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران - عليه السلام - أنه قال لقومه : (لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم) ، أى : لم توصلون الأذى إلىّ وأنتم تعلمون صدق فيما جئتكم به من الرسالة ؟ . وفى هذا

(١) انظر الشفاء للقاضى عياض ، الفصل الثانى فى وصفه تعالى له بالشهادة ، وما يتعلق بها من الثناء والكرامة : ١/١٥-١٦ . وانظر أيضاً فيما سبق : ٦/٨٣ .

(٢) انظر أثر قتادة فى تفسير الطبرى : ٢٨/٥٦ .

(٣) اللحى - بفتح فسكون - : منبت اللحية من الإنسان . وجئوا : اضربوا . والأثر فى تفسير الطبرى : ٢٨/٥٧ .

تسلية لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم ، وأمر له بالصبر ، ولهذا قال : « رحمة الله على موسى : لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر(١) » . وفيه نهى للمؤمنين أن ينالوا من النبي — صلى الله عليه وسلم — أو يُوَصِّلوا إليه أذى ، كما قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ، لا تكونوا كالذين آذوا موسى ، فبرأه الله مما قالوا ، وكان عند الله وجيها(٢)) .

وقوله : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) ، أى : فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به ، أزاغ الله قلوبهم عن الهدى ، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان ، كما قال تعالى : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون(٣)) . وقال (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ، ويتبع غير سبيل المؤمنين ، نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا(٤)) . ولهذا قال تعالى فى هذه الآية : (والله لا يهدى القوم الفاسقين) .

وقوله : (وإذ قال عيسى بن مريم : يا بنى إسرائيل، إنى رسول الله إليكم ، مصدقا لما بين يدى من التوراة ، ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) ، يعنى : التوراة قد بَشَّرَت بى ، وأنا مصداقُ ما أخبرت عنه ، وأنا مُبَشِّر بمن بعدى ، وهو الرسول النبى الأمى العربى المكى أحمد . فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بنى إسرائيل ، وقد أقام فى ملأ بنى إسرائيل مبشراً بمحمد ، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، الذى لا رسالة بعده ولا نبوة . وما أحسن ما أورد البخارى الحديثَ الذى قال فيه :

حدثنا أبو اليمان ، حدثنا شعيب ، عن الزهرى قال : أخبرنى محمد بن جُبَيْر بن مُطْعِم ، عن أبيه قال : سمعت رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « إن لى أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يَمحُو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب(٥) » .

ورواه مسلم ، من حديث الزهرى ، به نحوه(٦) .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا المسعودى ، عن عمرو بن مُرَّة ، عن أبى عُبَيْدة ، عن أبى موسى قال : سمى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسَه أسماءً ، منها ما حفظنا فقال : « أنا محمد ، وأحمد ، والحاشر ، والمقفى ، ونبى الرحمة ، والتوبة ، والملحمة »(٧) .

ورواه مسلم من حديث الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، به (٨) .

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٦٩ من سورة الأحزاب ، وخرجناه هناك . انظر : ٦/٤٧٥ .
(٢) سورة الأحزاب ، آية : ٦٩ .
(٣) سورة الأنعام ، آية : ١١٠ .
(٤) سورة النساء ، آية : ١١٥ .
(٥) البخارى ، تفسير سورة الصف : ٦/١٨٨ .
(٦) مسلم ، كتاب الفضائل ، باب « فى أسمائه صلى الله عليه وسلم » : ٧/٨٩ .
(٧) أنظر منحة المعبود : ٢/٨٥ .
(٨) مسلم ، فى الكتاب والباب المتقدمين : ٧/٩٠ .

وقد قال الله تعالى : ﴿الذين يتبعون الرسول النبيّ الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل﴾(١) الآية.

وقال تعالى : ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لَمَا آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم ، لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ؟ قالوا : أقررنا ، قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾(٢) .

قال ابن عباس : ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه العهد : لئن بعث محمد وهو حي ليتبعنه ، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني ثور بن يزيد ، عن خالد بن مَعْدان ، عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا : يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك . قال : « دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام (٣) » .

وهذا إسناد جيد . وروى له شواهد من وجوه أخر ، فقال الإمام أحمد :

حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا معاوية بن صالح ، عن سعيد بن سُوَيد الكلبي ، عن عبد الأعلى بن هلال السلمي ، عن العرباض بن سارية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إني عند الله بخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجَدِلٌ (٤) في طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى بي ، ورؤيا أمي التي رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرَيْن (٥) » .

وقال أحمد أيضا : حدثنا أبو النضر ، حدثنا الفرج بن فضالة ، حدثنا لقمان بن عامر قال : سمعت أبا أمامة قال : قلت يا نبيّ الله ، ما كان بدء أمرك ؟ قال : « دعوة أبي إبراهيم ، وبشرى عيسى ، ورأت أمي أنه يخرجُ منها نور أضاءت له قصورُ الشام(٦) » .

وقال أحمد أيضا : حدثنا حسن بن موسى : سمعت حُدَيجا أخا زهير بن معاوية ، عن أبي إسحاق ، عن عبد الله ابن عتبة ، عن عبد الله بن مسعود قال : بعثنا رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ إلى النجاشي ونحن نحوٌ من ثمانين رجلا ، منهم : عبد الله بن مسعود ، وجعفر ، وعبد الله بن [عُرْفُطَة (٧)] ، وعثمان بن مظعون ، وأبو موسى . فأتوا النجاشي ، وبعثت قريش عَمرو بن العاص ، وعمارة بن الوليد بهدية ، فلما دخلا على النجاشي سجدا له ، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ، ثم قالا له : إن نفراً من بني عمنا نزلوا أرضك ، ورغبوا عنا وعن ملتنا . قال : فأين هم ؟ قالا : هم في أرضك ، فابعث إليهم . فبعث إليهم ـــ فقال جعفر : أنا خطيبكم اليوم . فاتبعوه فسلّم ولم يسجد ، فقالوا له :

(١) سورة الأعراف ، آية : ١٥٧ .
(٢) سورة آل عمران ، آية : ٨١ .
(٣) سيرة ابن هشام : ١٦٦/١ .
(٤) أي : ملقى على الجدالة ـــ بكسر الجيم ـــ وهي الأرض .
(٥) مسند الإمام أحمد : ١٢٧/٤ .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٢٦٢/٥ .
(٧) ما بين القوسين من المسند ، ومكانه بياض في المخطوطة .

مالك لا تسجد للملك ؟ قال : إنا لا نسجد إلا لله عز وجل . قال : وما ذاك ؟ قال : إن الله بعث إلينا رسوله ، فأمرنا أن لا نسجد لأحد إلا لله عز وجل ، وأمرنا بالصلاة والزكاة . قال عمرو بن العاص : فإنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم ؟ قال : ما تقولون في عيسى ابن مريم وأمه ؟ قالوا : نقول كما قال الله عز وجل : هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البتول (١) ، التي لم يمسها بشر ولم يفرضها (٢) ولد ، . قال : فرفع عوداً من الأرض ثم قال : يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان ، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ، ما يساوي هذا . مرحبا بكم وبمن جئتم من عنده ، أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذي نجد في الإنجيل ، وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم . انزلوا حيث شئتم ، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه . وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما، ثم تعجل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بدراً ، وزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم استغفر له حين بلغه موته (٣) .

وقد رويت هذه القصة عن جعفر وأم سلمة رضي الله عنهما ، وموضع ذلك كتاب السيرة . والمقصد أن الأنبياء ــ عليهم السلام ــ لم تزل تنعته وتحكيه في كتبها على أممها ، وتأمرهم باتباعه ونصره وموازرته إذا بعث . وكان ما اشتهر الأمر في أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده ، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم ، وكذا على لسان عيسى ابن مريم ، ولهذا قالوا : « أخبرنا عن بدء أمرك » . يعني في الأرض، قال : «دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى ابن مريم ، ورؤيا أمي التي رأت » ، أي : ظهر في أهل مكة أثر ذلك ، [والإرها ص (٤)] بذكره صلوات الله وسلامه عليه ؟

وقوله : (فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين) ــ قال ابن جريج ، وابن جرير (٥) : (فلما جاءهم) أحمد ، أي : المبشر به في الأعصار المتقادمة ، المنوه بذكره في القرون السالفة ، لما ظهر أمره وجاء بالبينات قال الكفرة المخالفون : (هذا سحر مبين) .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

يقول تعالى : (ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب ، وهو يدعى إلى الإسلام) ، أي : لا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على الله ، ويجعل له أندادا وشركاء ، وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص ، ولهذا قال : (والله لا يهدي القوم الظالمين) ،

---

(١) البتول : المنقطعة عن الرجال، لا شهوة لها فيهم .

(٢) أي : لم يؤثر فيها ، ولم يحزها .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٤٦١/١ .

(٤) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، ومكانه بياض في المخطوطة .

(٥) انظر تفسير الطبري : ٥٧/٢٨ .

ثم قال : (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم) ، أى : يحاولون أن يردّوا الحق بالباطل ، ومثلهم فى ذلك كمثل من [يريد] أن يطفىء شعاع الشمس بفيه ، وكما أن هذا مستحيل كذلك ذاك مستحيل ، ولهذا قال : (والله متم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) ، وقد تقدم الكلام على هاتين الآيتين فى « سورة براءة (١) » ، بما فيه كفاية ، ولله الحمد والمنة .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

تقدم فى حديث عبد الله بن سلام أن الصحابة – رضى الله عنهم – أرادوا أن يسألوا عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ليفعلوه فأنزل الله هذه السورة ، ومن جملتها هذه الآية : (يا أيها الذين آمنوا ، هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم) ثم فسر هذه التجارة العظيمة التى لا تبور ، التى هى محصلة للمقصود ومزيلة للمحذور فقال : (تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) ، أى : من تجارة الدنيا ، والكد لها والتصدى لها وحدها .

ثم قال : (يغفر لكم ذنوبكم) ، أى : إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم عليه ، غفرت لكم الزلات ، وأدخلتكم الجنات ، والمساكن الطيبات ، والدرجات العاليات . ولهذا قال : (ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم) .

ثم قال : [(وأخرى تحبونها)] أى : وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها) ، وهى : (نصر من الله وفتح قريب) أى : إذا قاتلتم فى سبيله ونصرتم دينه ، تكفل الله بنصركم . قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا ، إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم (٢)) . وقال تعالى : (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز (٣)) .

وقوله : (وفتح قريب) ، أى : عاجل . فهذه الزيادة هى خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة ، لمن أطاع الله ورسوله ، ونصر الله ودينه . ولهذا قال : (وبشر المؤمنين) .

---

(١) انظر تفسير آيتى براءة : ٣٢ ، ٣٣ فى : ٤/٧٨–٧٩ .
(٢) سورة محمد ، آية : ٧ .
(٣) سورة الحج ، آية : ٤٠ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله فى جميع أحوالهم ، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم ، وأن يستجيبوا لله ولرسوله ، كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال : (من أنصارى إلى الله)؟ أى : من مُعيني فى الدعوة إلى الله عز وجل ؟ (قال الحواريون) — وهم أتباع عيسى عليه السلام — : (نحن أنصار الله) ، أى : نحن أنصارك على ما أرسلتَ به ومُوَازِروك على ذلك ، ولهذا بعثهم دعاةً إلى الناس فى بلاد الشام فى الإسرائيلين واليونانيين ، وهكذا كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول فى أيام الحج : « من رجل يُؤْوِينى حتى أبلغ رسالة ربى ، [فإن قريشا قد منعونى أن أبلغ رسالة ربى (١)] حتى قيّض الله — عز وجل — له الأوس والخزرج من أهل المدينة ، فبايعوه ووازروه ، وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم ، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وَفَوا له بما عاهدوا الله عليه ، ولهذا سماهم الله ورسوله الأنصارَ ، وصار ذلك علما عليهم ، رضى الله عنهم وأرضاهم .

وقوله : (فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة) ، أى : لما بلغ عيسى ابن مريم — عليه السلام — رسالة ربه إلى قومه ، ووازره مَن وازره من الحواريين ، اهتدت طائفة من بنى إسرائيل بما جاءهم به ، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به ، وجحدوا نبوته ، ورموه وأمه بالعظائم ، وهم اليهود — عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة — وغلت فيه طائفة ممن اتبعه ، حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة ، وافترقوا فرقا وشيعاً ، فمن قائل منهم : إنه ابن الله ، وقائل : إنه ثالث ثلاثة : الأب ، والابن ، وروح القدس ، ومن قائل : إنه الله ، وكل هذه الأقوال مفصلة فى سورة النساء (٢) .

وقوله : (فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم) ، أى : نصرناهم على من عاداهم من فِرَق النصارى ، (فأصبحوا ظاهرين) أى : عليهم ، وذلك ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله :

حدثنى أبو السائب ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن المنهال — يعنى ابن عمرو — عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس رضى الله عنهما — قال : لما أراد الله — عز وجل — أن يرفع عيسى إلى السماء ، خرج إلى أصحابه وهم فى بيت اثنا عشر رجلا ، من عين فى البيت ، ورأسه يقطر ماء ، فقال : إن منكم من يكفر بى اثنى عشر مرة بعد أن آمن بى ، قال : ثم قال : أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى ، ويكون معى فى درجتى ؟ قال : فقام شاب من أحدثهم سنا فقال :

---

(١) مسند الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله : ٣/٣٢٢ ، ٣٣٩ .
(٢) انظر : ٢/٤٠١ .

أنا . قال : فقال له : اجلس . ثم أعاد عليهم، فقام الشاب فقال : أنا . فقال له : اجلس. ثم عاد عليهم فقام الشاب، فقال : أنا . فقال : نعم ، أنت ذاك . قال : فألقى عليه شبه عيسى ، ورُفع عيسى — عليه السلام — من روزنة (١) فى البيت إلى السماء ، قال : وجاء الطلبُ من اليهود ، فأخذوا شِبْهَه فقتلوه وصلبوه ، وكفر به بعضهم اثنتى عشرة مرة بعد أن آمن به ، فتفرقوا ثلاث فرق . قالت فرقة : كان الله فينا ما شاء ، ثم صعد إلى السماء . وهؤلاء اليعقوبية ؛ وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ، ثم رفعه إليه وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه إليه ، وهؤلاء المسلمون . ، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة ، فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم ، (فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة) ، يعنى : الطائفة التى كفرت من بنى إسرائيل فى زمن عيسى ، والطائفة التى آمنت فى زمن عيسى ، (فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) ، باظهار محمد — صلى الله عليه وسلم — دينهم على دين الكفار ، (فأصبحوا ظاهرين)

هذا لفظه فى كتابه عند تفسير هذه الآية الكريمة (٢) . وهكذا رواه النسائى عند تفسير هذه الآية من سننه ، عن أبى كريب محمد بن العلاء ، عن أبى معاوية ، بمثله سواء (٣) .

فأمة محمد — صلى الله عليه وسلم — لا يزالون ظاهرين على الحق ، حتى يأتى أمر الله وهم كذلك ، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، كما وردت الأحاديث الصحاح ، والله أعلم .

آخر تفسير سورة الصف ولله الحمد والمنة

---

(١) تقدم تفسيرها فى : ٢/٣٧ ، ٤٠٠ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٨/٦٠ .

(٣) انظر أيضاً رواية ابن أبى حاتم فى : ٢/٤٠١ .

تفسير سورة الجمعة

وهى مدنية

عن ابن عباس ، وأبي هريرة : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين . رواه مسلم في صحيحه (١) .

بسم الله الرحمن الرحيم

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤)

يخبر تعالى أنه يُسبّح له ما في السموات وما في الأرض ، أي : من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها ، كما قال : (وإن من شيء إلا يسبح بحمده (٢)) .

ثم قال : (الملك القدوس) ، أي : هو مالك السموات والأرض المتصرف فيهما بحكمه ، وهو (القدوس) ، أي : المنزه عن النقائص ، الموصوف بصفات الكمال . (العزيز الحكيم) : تقدم تفسيره غير مرة .

وقوله تعالى : (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم) ، الأميون هم : العرب كما قال تعالى : (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين : أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ . والله بصير بالعباد (٣)) ، وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم ، ولكن المنة عليهم أبلغ وآكد ، كما في قوله : (وإنه لذكر لك ولقومك (٤)) ، وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به . وكذا قوله : (وأنذر عشيرتك الأقربين (٥)) . وهذا وأمثاله لا ينافي قوله تعالى : (قل : يا أيها الناس ، إني رسول الله إليكم جميعا (٦)) ، وقوله : (لأنذركم به ومن بلغ (٧)) ، وقوله إخبارا عن

---

(١) مسلم ، كتاب الجمعة ، باب « ما يقرأ في صلاة الجمعة » : ٣/١٥-١٦ .
(٢) سورة الإسراء ، آية : ٤٤ .
(٣) سورة آل عمران ، آية : ٢٠ .
(٤) سورة الزخرف ، آية : ٤٤ .
(٥) سورة الشعراء ، آية : ٢١٤ .
(٦) سورة الأعراف ، آية : ١٥٨ .
(٧) سورة الأنعام ، آية : ١٩ .

القرآن : (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده (١)) ، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى جميع الخلق ، أحمرهم وأسودهم ، وقد قدمنا تفسير ذلك فى سورة الأنعام ، بالآيات والأحاديث الصحيحة ، ولله الحمد والمنة .

وهذه الآية هى مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم ، حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . فبعثه الله ـ سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة ـ على حين فترة من الرسل ، وطُمُوس من السبل ، وقد اشتدت الحاجة إليه ، وقد مقت الله أهلَ الأرض عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب ـ أى : نزرا يسيرا ـ [ممن تمسك (٢)] بما بعث الله به عيسى ابن مريم عليه السلام ، ولهذا قال تعالى : (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين) . وذلك أن العرب كانوا متمسكين بدين إبراهيم ـ عليه السلام ـ فبدلوه وغيروه ، [وقلبوه] وخالفوه ، واستبدلوا بالتوحيد شركا ، وباليقين شكا ، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله ، وكذلك أهل الكتابين قد بدلوا كتبهم وحرفوها [وغيروها] وأولوها ، فبعث الله محمدا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق ، فيه هدايتهم ، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم ، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ، ورضا الله عنهم ، والنهى عما يقربهم إلى النار وسخط الله ـ حاكم ، فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب فى الأصول والفروع . وجَمَع له تعالى ـ وله الحمد والمنة ـ جميع المحاسن ممن كان قبله ، وأعطاه مالم يعط أحدا من الأولين ، ولا يعطيه أحدا من الآخرين ، فصلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين .

وقوله : (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم) ـ قال الإمام أبو عبد الله البخارى رحمه الله :

حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا سليمان بن بلال ، عن ثور ، عن أبى الغيث ، عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : كنا جلوسا عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنزلت عليه سورةُ الجمعة : (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) ، قالوا : من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعهم (٣) حتى سئل ثلاثا ، وفينا سلمان الفارسى ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال ـ أو : رَجُلٌ ـ من هؤلاء (٤) » .

ورواه مسلم ، والترمذى ، والنسائى وابن أبى حاتم ، وابن جرير ، من طرق عن ثور بن زيد الدِّيلى ، عن سالم أبى الغيث ، عن أبى هريرة ، به (٥) .

فى هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية ، وعلى عموم بعثته صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ، لأنه فسر قوله : (وآخرين منهم) بفارس ، ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم ، يدعوهم إلى الله عز وجل ،

---

(١) سورة هود ، آية : ١٧ .

(٢) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة . ومكانه بياض فى المخطوطة .

(٣) فى البخارى : « يراجعه حتى سأل » .

(٤) البخارى ، تفسير سورة الجمعة : ٦/١٨٨-١٨٩ .

(٥) مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب « فضل فارس » : ٧/١٩١ - ١٩٢ . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة الجمعة ، الحديث ٣٣٦٤ : ٩/٢٠٩ - ٢١١ ، وتفسير الطبرى : ٢٨/٦٢ - ٦٣ .

وإلى اتباع ما جاء به ؛ ولهذا قال مجاهد وغير واحد فى قوله : (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) ، قال : هم الأعاجم ، وكل من صدق النبي صلى الله عليه وسلم من غير العرب (١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا إبراهيم بن العلاء الزبيدى ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا أبو محمد عيسى ابن موسى ، عن أبي حازم ، عن سهل بن سعد الساعدى قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إن فى أصلاب أصلاب أصلاب رجال [من أصحابى ، رجالا (٢)] ونساء من أمتى يدخلون الجنة بغير حساب » ، ثم قرأ : (وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) يعنى بقية من بقى من أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

وقوله : (وهو العزيز الحكيم) ، أى : ذو العزة والحكمة فى شرعه وقدره .

وقوله : (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم) ، يعنى ما أعطاه الله محمدا صلى الله عليه وسلم من النبوة العظيمة ، وما خص به أمته من بعثته — صلى الله عليه وسلم — إليهم .

مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى ذاماً لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها ، فلم يعملوا بها ، مثلهم فى ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارا ، أى : كمثل الحمار إذا حمل كتبا لا يدرى ما فيها ، فهو يحملها حملا حسيا ولا يدرى ما عليه ؛ وكذلك هؤلاء فى حملهم الكتاب الذى أوتوه ، حفظوه لفظا ولم يفهموه ، ولا عملوا بمقتضاه ، بل أولوه وحرفوه وبدلوه ، فهم أسوأ حالا من الحمير ، لأن الحمار لا فهم له ، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها ، ولهذا قال فى الآية الأخرى : (أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون (٣)) . وقال هاهنا : (بئس مثلُ القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين) .

وقال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا ابن نُمير ، عن مجالد ، عن الشعبي ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب ، فهو كمثل الحمار يحمل أسفارا ، والذى يقول له « أنصت » ، ليس له جمعة (٤) » .

---

(١) انظر تفسير الطبرى : ٢٨/ ٦٢ .
(٢) ما بين القوسين عن الدر المنثور ، وقد أخرجه السيوطى عن الطبرانى وابن مردويه . انظر : ٦/ ٢١٥ .
(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٧٩ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ١/ ٢٣٠ .

ثم قال تعالى : (قل : يا أيها الذين هادوا ، إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس ، فتمنوا الموت إن كنتم [صادقين) أى : إن كنتم] تزعمون أنكم على هدى ، وأن محمدا وأصحابه على ضلالة ، فادعوا بالموت على الضال من الفئتين (إن كنتم صادقين) فيما تزعمونه ؛ قال الله تعالى : (ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم) ، أى : بما يعملون لهم من الكفر والظلم والفجور ، (والله عليم بالظالمين) ؛ وقد قدمنا فى « سورة البقرة (١) » الكلام على هذه المباهلة لليهود ، حيث قال تعالى : (قل : إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس ، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يُعَمَّر ألف سنة ، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ، والله بصير بما يعملون (٢)) ، وقد أسلفنا الكلام هناك ، وبينا أن المراد أن يدعوا على الضال من أنفسهم أو خصومهم ، كما تقدمت مباهلة النصارى فى آل عمران : (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم ، فقل : تعالوا ، ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين (٣)) ، ومباهلة المشركين فى سورة مريم : (قل : من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا (٤)) .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن يزيد الرقى (٥) أبو يزيد ، حدثنا فرات ، عن عبد الكريم بن مالك الجزرى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال أبو جهل لعنه الله : إن رأيتُ محمدا عند الكعبة لآتينَّه حتى أطأ على عُنُقه ؛ قال : فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « لو فعل لأخذَته الملائكة عياناً ، ولو أن اليهود تمنَّوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يُبَاهلون رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا (٦) » .

رواه البخارى والترمذى والنسائى ، من حديث عبد الرزاق ، عن معمر [عن عبد الكريم — قال البخارى : « وتبعه عمرو (٧)] بن خالد ، عن عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الكريم (٨) » ، ورواه النسائى أيضا عن عبد الرحمن بن عُبَيد الله الحلَبىّ ، عن عبيد الله بن عمرو الرقى ، به أتم .

وقوله تعالى : (قل : إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) ، كقوله تعالى فى سورة النساء : (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة (٩)) .

---

(١) انظر : ١/١٨٢ — ١٨٤ .

(٢) سورة البقرة ، الآيات : ٩٤ — ٩٦ .

(٣) سورة آل عمران ، آية : ٦١ . انظر : ٢—٤٠ — ٤٥ .

(٤) سورة مريم ، آية : ٧٥ . وانظر : ٥/٢٥٣ .

(٥) فى المخطوطة : « الدقى » ، بالدال . وفيها أيضاً : « الدقى ، حدثنا أبو يزيد » ، والمثبت من المسند ، والسياقة التى تقدمت فى سورة آل عمران : ٢/٤٣ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١/٢٤٨ .

(٧) ما بين القوسين من الطبعات السابقة . ولفظ البخارى : « وتابعه عمرو ... » .

(٨) البخارى ، تفسير سورة العلق : ٦/٢١٦ . وانظر تحفة الأحوذى ، تفسير سورة « اقرأ باسم ربك » ، الحديث ٣٤٠٦ : ٩/٢٧٧ — ٢٧٨ .

(٩) سورة النساء ، آية :

وفي معجم الطبراني من حديث معاذ بن محمد الهذلي ، عن يونس ، عن الحسن ، عن سمرة مرفوعا : « مثل الذي يفر من الموت كمثل الثعلب تطلبه الأرض بدين ، فجاء يسعى حتى إذا أعيا وانبهر دخل جحره ، فقالت له الأرض : يا ثعلب ديني . فخرج له حُصَاص (١) ، فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه ، فات » .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) ﴾

إنما سميت الجمعة جُمعة لأنها مشتقة من الجَمع ، فان أهل الاسلام يجتمعون فيه في كل أسبوع مرّةً بالمعابد الكبار ، وفيه كَمَل جميع الخلائق ، فانه اليوم السادس من الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض . وفيه خُلِق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها . وفيه تقوم الساعة . وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه ، كما ثبتت بذلك الأحاديث الصحاح (٢) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا عَبِيدةُ بن حُمَيد (٣) ، عن منصور ، عن أبي معشر ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن قَرْثَع الضّبي ، حدثنا سلمان قال : قال أبو القاسم — صلى الله عليه وسلم — : « يا سلمان ، ما يوم الجمعة ؟ » . قلت : الله ورسوله أعلم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يوم جُمع فيه أبواك — أو : أبوكم » .

وقد رُوي عن أبي هُرَيرة ، من كلامه ، نحو هذا ، فالله أعلم .

وقد كان يقال له في اللغة القديمة يوم العروبة . وثبت أن الأمم قبلنا أمروا به فَضَلّوا عنه ، واختار اليهود يوم السبت الذي لم يقع فيه خلقٌ ، واختار النصارى يومَ الأحد الذي ابتدىء فيه الخلق ، واختار الله لهذه الأمة الجمعة الذي أكمل الله فيه الخليقةَ ، كما أخرجه البخاري ومسلم من حديث عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام بن مُنَبِّه قال : هذا ما حدثنا أبو هُرَيرة قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة (٤) ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم هذا يَومُهم الذي فَرَض الله عليهم ، فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تَبَعٌ ، اليهود غداً ، والنصارى بعد غد » . لفظ البخاري .

---

(١) الحصاص : شدة العدو وحدته .

(٢) البخاري ، كتاب الجمعة ، باب « الساعة التي في يوم الجمعة » : ١٦/٢ . ومسلم ، كتاب الجمعة أيضاً ، باب « في الساعة التي في يوم الجمعة » : ٥/٣ .

(٣) في المخطوطة : « عبيدة بن حماد » . والصواب ما أثبتناه ؛ انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٩٢/١/٣ .

(٤) وقع لنا هذا القدر في البخاري من رواية عبد الرزاق ، في كتاب الأيمان والنذور : ١٥٩/٨ — ١٦٠ ، وكتاب التعبير : ٥٣/٩ . وأما بقية الحديث فوقع لنا أيضاً في البخاري في كتاب الجمعة ، باب « فرض الجمعة » ، من حديث عبد الرحمن ابن هرمز الأعرج ، عن أبي هريرة : ٢/٢ . وأما حديث مسلم في كتاب الجمعة ، باب « هداية هذه الأمة ليوم الجمعة » : ٧/٣ .

وفي لفظ لمسلم : « أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا ، فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد ، فجاء الله بنا فهدانا الله ليوم الجمعة ، فجعل الجمعة والسبت والأحد ، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة ، نحن الآخرون من أهل الدنيا ، والأولون يوم القيامة ، المقضيّ بينهم قبل الخلائق (١) » .

وقد أمر الله المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة ، فقال : (يا أيها الذين آمنوا ، إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله) ، أي : اقصدوا واعمدوا واهتموا في مسيركم إليها ، وليس المراد بالسعى هاهنا المشى السريع ، وإنما هو الاهتمام بها ، كقوله تعالى : (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن (٢)) ، وكان عمر بن الخطاب وابن مسعود ــ رضى الله عنهما ــ يقرآنها : (فامضوا إلى ذكر الله (٣)) . فأما المشى السريع إلى الصلاة فقد نُهى عنه ، لما أخرجاه في الصحيحين ، عن أبي هُرَيْرة ، عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة ، وعليكم السكينة والوقار ، ولا تسرعوا ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا (٤) » ، لفظ البخاري .

وعن أبي قتادة قال : بينما نحن نُصَلّى مع النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ إذ سمع جَلَبَة رجال ، فلما صلى قال : « ما شأنكم ؟ » ، قالوا : استعجلنا إلى الصلاة . قال : « فلا تفعلوا : إذا أتيتم الصلاة فامشوا وعليكم بالسكينة ، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا » ، أخرجاه (٥) .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا مَعمر ، عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون ، ولكن ائتوها تمشون ، وعليكم السكينة والوقار ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا » .

رواه الترمذيّ من حديث عبد الرزاق كذلك ، وأخرجه من طريق يزيد بن زُرَيع ، عن معمر ، عن الزهرى ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، بمثله (٦) .

قال الحسن : أما والله ماهو بالسعى على الأقدام ، ولقد نُهُوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينةُ والوقار ، ولكن بالقلوب والنية والخشوع .

وقال قتادة في قوله : (فاسعوا إلى ذكر الله) ، يعنى : أن تسعى بقلبك وعملك ، وهو المشى إليها ، وكان يتأول قوله تعالى : (فلما بلغ معه السعى) ، أى : المشى معه . وروى عن محمد بن كعب ، وزيد بن أسلم ، وغيرهما ، نحو ذلك .

---

(١) مسلم ، كتاب الجمعة ، باب « هداية الله هذه الأمة ليوم الجمعة » : ٣/٧ .
(٢) سورة الإسراء ، آية : ١٩ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٨/٦٥ .
(٤) البخارى ، كتاب الأذان ، باب « لا يسعى إلى الصلاة ، وليأت بالسكينة والوقار » : ١/١٦٤ . ومسلم ، كتاب المساجد ، باب « استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة ، والنهى عن إتيانها سعياً » : ٢/١٠٠ .
(٥) البخارى ومسلم في الكتاب والباب المتقدمين ، انظر البخارى : ١/١٦٣ ، ومسلم : ٢/١٠٠ ــ ١٠١ .
(٦) تحفة الأحوذى ، أبواب الصلاة ، باب « ما جاء في المشى إلى المسجد » ، الحديث ٣٢٦ ، ٣٢٧ : ٢/٢٨٧ ــ ٢٩٠ .

ويستحبّ لمن جاء إلى الجمعة أن يغتسل قبل مجيئه إليها ، لما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عُمَر أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « إذا جاء أحدُكم الجمعةَ فليَغتسل (١) » .

ولهما عن أبي سعيد — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « غُسلُ يوم الجمعة واجب على كل مُحتلِم (٢) » .

وعن أبي هُرَيرة قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « حق لله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام ، يغسل رأسه وجسده » : رواه مسلم (٣) .

وعن جابر — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « على كل رجل مسلم في كل سبعة أيام غسل يوم ، وهو يوم الجمعة » : رواه أحمد ، والنسائي ، وابن حبّان (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم ، حدثنا ابن المبارك ، عن الأوزاعي ، عن حسان بن عطية ، عن أبي الأشعث الصنعاني ، عن أوس بن أوس الثقفي قال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « من غَسَّل واغتسل يوم الجمعة ، وبكر وابتكر ، ومشى ولم يركب ، ودنا من الإمام واستمع ولم يَلْغُ — كان له بكل خطوة أجر سنة ، أجر صيامها وقيامها (٥) » .

وهذا الحديث له طرق وألفاظ ، وقد أخرجه أهل السنن الأربعة — وحسَّنه الترمذي (٦) .

وعن أبي هُرَيرة — رضي الله عنه — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « من اغتسل يوم الجمعة غُسلَ الجنابة ، ثم راح فكأنما قرب بدنة ، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن ، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر » [أخرجاه (٧)] .

ويستحب له أن يلبس أحسن ثيابه ، ويتطيب ويتسوك ، ويتنظف ويتطهر : وفي حديث أبي سعيد المتقدم : « غسلُ يوم الجمعة واجب على كل محتلم ، والسواكُ ، وأن يَمَسّ من طيب أهله » .

---

(١) البخاري ، كتاب الجمعة ، باب « فضل الغسل يوم الجمعة » : ٢/٢ . ومسلم ، كتاب الجمعة أيضاً : ٢/٣ .
(٢) البخاري ومسلم في الكتابين السابقين ، انظر البخاري : ٣/٢ ومسلم : ٣/٣ .
(٣) مسلم ، كتاب الجمعة ، باب « الطيب والسواك يوم الجمعة » : ٤/٣ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٣٠٤/٣ . والنسائي وهذا لفظه — في كتاب الجمعة ، باب « إيجاب الغسل يوم الجمعة » : ٩٢/٣ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ١٠٤/٤ .
(٦) سنن أبي داود ، كتاب الطهارة ، باب « في الغسل يوم الجمعة » . والنسائي ، كتاب الجمعة ، باب « فضل غسل يوم الجمعة » : ٩٥/٣ — ٩٦ . وابن ماجه ، كتاب الإقامة ، باب « ما جاء في الغسل يوم الجمعة » ، الحديث ١٠٨٧ : ٣٤٦/١ . وتحفة الأحوذي ، أبواب الجمعة ، باب « في فضل الغسل يوم الجمعة » ، الحديث ٤٩٤ : ٣/٣—٤ .
(٧) البخاري ، كتاب الجمعة ، باب « فضل الجمعة » : ٣/٢ — ٤ . ومسلم ، كتاب الجمعة أيضاً ، باب « الطيب والسواك يوم الجمعة » : ٤/٣ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يعقوب ، حدثنا أبي ، عن محمد بن إسحاق ، حدثني محمد بن إبراهيم التيمي ، عن عمران ابن أبي يحيى ، عن عبد الله بن كعب بن مالك ، عن أبي أيوب الأنصاري : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « من اغتسل يوم الجمعة ومسّ من طيب أهله ـ إن كان عنده ـ ولبس من أحسن ثيابه ، ثم خرج حتى يأتي المسجد فيركع ـ إن بدا له ـ ولم يؤذ أحدا ، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلي ـ كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى »(١) .

وفي سنن أبي داود وابن ماجه ، عن عبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر : « ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مَهْنَته (٢) » .

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطب الناس يوم الجمعة ، فرأى عليهم ثياب النمار (٣) ، فقال : « ما على أحدكم إن وجد سَعَة أن يتخذ ثوبين لجمعته ، سوى ثوبي مهنته » . رواه ابن ماجه (٤) .

وقوله تعالى : (إذا نودي للصلاة) : المراد بهذا النداء هو النداء الثاني الذي كان يفعل بين يدي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا خرج فجلس على المنبر ، فإنه كان حينئذ يؤذن بين يديه ، فهذا هو المراد ، فأما النداء الأول الذي زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ فإنما كان هذا لكثرة الناس ، كما رواه البخاري رحمه الله حيث قال : حدثنا آدم ـ هو ابن أبي إياس ـ حدثنا ابن أبي ذئب ، عن الزهري ، عن السائب بن يزيد قال : « كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبي بكر وعمر ، فلما كان عثمان [بعد زمن (٥)] ، وكثر الناس ، زاد النداء الثاني (٦) على الزوراء (٧) » يعني : يؤذن به على الدار التي تسمى بالزوراء ، وكانت أرفع دار بالمدينة ، بقرب المسجد .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا محمد بن راشد المكحولي ، عن مكحول : أن النداء كان في يوم الجمعة مؤذن واحد حين يخرج الإمام ، ثم تقام الصلاة ، وذلك النداء الذي يحرم عنده البيع والشراء إذا نودي به ، فأمر عثمان رضي الله عنه أن ينادي قبل خروج الإمام حتى يجتمع الناس .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/٤٢٠ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « اللبس للجمعة » . وسنن ابن ماجه ، كتاب الإقامة ، باب « ما جاء في الزينة يوم الجمعة » ، الحديث ١٠٩٥ : ١/٣٤٨ .

(٣) النمار : جمع نمرة ـ بفتح فكسر ـ وهي : ثياب يلبسها الأعراب .

(٤) سنن ابن ماجه ، في الكتاب والباب المتقدمين ، الحديث ١٠٩٦ : ١/٣٤٩ .

(٥) ما بين القوسين غير ثابت في الصحيح .

(٦) في الصحيح : « النداء الثالث » ، ومثله في سنن ابن ماجه ، كتاب الإقامة ، باب « ما جا في الأذان يوم الجمعة » الحديث ١١٣٥ : ١/٣٥٩ .

(٧) البخاري ، كتاب الجمعة ، باب « الأذان يوم الجمعة » : ٢/١٠ .

وإنما يؤمر بحضور الجمعة الأحرار دون النساء والعبيد والصبيان ، ويعذر المسافر والمريض ، وقيّم المريض ، وما أشبه ذلك من الأعذار ، كما هو مقرر فى كتب الفروع .

وقوله : (وذروا البيع) ، أى : اسعوا إلى ذكر الله واتركوا البيع إذا نودى للصلاة . ولهذا اتفق العلماء على تحريم البيع بعد النداء الثانى . واختلفوا : هل يصح إذا تعاطاه متعاط أم لا ؟ على قولين ، وظاهر الآية عدم الصحة كما هو مقرر فى موضعه ، والله أعلم .

وقوله : (ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) ، أى : تركم البيع وإقبالكم إلى ذكر الله وإلى الصلاة خيرٌ لكم ، أى : فى الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون .

وقوله : (فإذا قضيت الصلاة) ، أى : فُرِغ منها ، (فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله) : لمّا حجّر عليهم فى التصرف بعد النداء وأمرهم بالاجتماع ، أذن لهم بعد الفراغ فى الانتشار فى الأرض والابتغاء من فضل الله . كان عِراك بن (١) مالك — رضى الله عنه — إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد ، فقال : اللهم ، أجبتُ دعوتك ،وصليتُ فريضتك ، وانتشرت كما أمرتنى ،فارزقنى من فضلك ،وأنت خير الرازقين . رواه ابن أبى حاتم .

ورُوى عن بعض السلف أنه قال : من باع واشترى فى يوم الجمعة بعد الصلاة ، بارك الله له سبعين مرة ، لقول الله تعالى : (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله) .

وقوله : (واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) ، أى : فى حال بيعكم وشرائكم ، وأخذكم وعطائكم ، اذكروا الله ذكرا كثيرا ، ولا تشغلكم الدنيا عن الذى ينفعكم فى الدار الآخرة . ولهذا جاء فى الحديث : « من دخل سوقا من الأسواق فقال : « لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، [له الملك] وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » كُتِبَتْ له ألفُ ألف حسنة ، ومُحِى عنه ألفُ ألف سيّئة (٢) » .

وقال مجاهد : لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيرا ، حتى يذكر الله [قائما] و قاعدا ومضطجعا .

وَإِذَا رَأَوْا تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوٓا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

يعاتب تبارك وتعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التى قدمت المدينة يومئذ ، فقال تعالى : (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها ، وتركوك قائما) ، أى : على المنبر تخطب . هكذا ذكره غير واحد من التابعين ، منهم : أبو العالية ، والحسن ، وزيد بن أسلم ، وقتادة .

(١) روى عراك بن مالك عن ابن عمر وأبى هريرة . وروى عنه ابنه خثيم بن عراك ، وعبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز . قال أبو زرعة : عراك بن مالك ثقة . انظر الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٣٨/٢/٣ .

(٢) تحفة الأحوذى ، أبواب الدعوات ، باب ما يقول إذا دخل السوق ، الحديث ٣٤٨٨ : ٣٨٦/٩ – ٣٨٧ وقال الترمذى : « هذا حديث غريب » . وسنن ابن ماجه ، كتاب التجارات ، باب « الأسواق ودخولها » ، الحديث ٢٢٣٥ : ٧٥٢/٢ . ومسند الإمام أحمد عن عمر — رضى الله عنه — : ٤٧/١ .

وزعم مقاتل بن حيان : أن التجارة كانت لدحية بن خليفة قبل أن يسلم ، وكان معها طبل ، فانصرفوا إليها وتركوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قائما على المنبر إلا القليلَ منهم ؛ وقد صحّ بذلك الخبر ، فقال الإمام أحمد :

حدثنا ابن إدريس ، عن حُصَيْن ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن جابر قال : قَدِمَت عِيرٌ المدينةَ ، ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — يخطب ، فخرج الناس وبقي اثنا عشر رجلا ، فنزلت : (وإذا رأوا تجارة أولهوا انفضوا إليها)(١) .

أخرجاه في الصحيحين ، من حديث سالم ، به (٢) .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا زكريا بن يحيى ، حدثنا هُشَيْم ، عن حُصَيْن ، عن سالم بن أبي الجعد وأبي سفيان ، عن جابر بن عبد الله قال : بينا النبي — صلى الله عليه وسلم — يخطب يوم الجمعة ، فقدمت عِيرٌ إلى المدينة ، فابتدرها أصحابُ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى لم يبق مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلا اثنا عشر رجلا ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « والذى نفسى بيده ، لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد ، لسال بكم الوادى نارا » ، ونزلت هذه الآية : (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها ، وتركوك قائما) ، وقال : [كان] في الاثنى عشر الذين ثَبَتُوا مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : أبو بكر ، وعمر رضى الله عنهما .

وفي قوله : (وتركوك قائما) ، دليل على أن الإمام يخطب يوم الجمعة قائما ؛ وقد رَوَى مسلم في صحيحه عن جابر ابن سَمُرَةَ قال : كانت للنبي — صلى الله عليه وسلم — خطبتان يجلس بينهما ، يقرأ القرآن ويذكر الناس (٣) .

لكن هاهنا [شيء] ينبغي أن يُعلَم وهو : أن هذه القصة قد قيل : إنها كانت لما كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم يقدّم الصلاة يوم الجمعة على الخطبة ، كما رواه أبو داود في كتاب المراسيل : حدثنا محمود بن خالد ، عن الوليد ، أخبرني أبو معاذ بُكَيْر بن مَعْروف ، أنه سمع مُقَاتل بن حَيَّان يقول : « كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يصلى يوم الجمعة قبل الخطبة مثل العيدين ، حتى إذا كان يومٌ (٤) والنبي — صلى الله عليه وسلم — يخطب ، وقد صلى الجمعة ، فدخل رجل فقال : إن دحيةَ بن خليفةَ قد قَدِمَ بتجارة (٥) » : يعني فانفضوا ، ولم يبق معه إلا نفر يسير .

وقوله : (قل ما عند الله) ، أي : الذى عند الله منَ الثواب في الدار الآخرة (خير من اللهو ومن التجارة ، والله خير الرازقين) ، أي : لمن توكل عليه ، وطلب الرزق في وقته .

آخر تفسير سورة الجمعة ، ولله الحمد والمنة

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣١٣/٣ .

(٢) البخارى ، تفسير سورة الجمعة : ١٨٩/٦ . ومسلم ، كتاب الجمعة ، باب في قوله تعالى : (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما) : ٩/٣ — ١٠ .

(٣) مسلم ، كتاب الجمعة ، باب « ذكر الخطبتين قبل الصلاة وما فيها من الجلسة » : ٩/٣ .

(٤) في المراسيل : « كان يوم الجمعة » .

(٥) في المراسيل : « بتجارته » . انظر مراسيل أبي داود ، باب « ما جاء في الخطبة يوم الجمعة » : ١٠ .

تفسير سورة المنافقون

وهى مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤)

يقول تعالى مخبرا عن المنافقين : أنهم إنما يتفوهون بالإسلام إذا جاءوا النبى — صلى الله عليه وسلم — فأما فى باطن الأمر فليسوا كذلك ، بل على الضد من ذلك ، ولهذا قال تعالى : (إذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد إنك لرسول الله) ، أى : إذا حضروا عندك واجهوك بذلك ، وأظهروا لك ذلك ، وليسوا كما يقولون ؛ ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله ، فقال : (والله يعلم إنك لرسوله) .

ثم قال : (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) ، أى : فيما أخبروا به ، وإن كان مطابقا للخارج ، لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه ، ولهذا كذبهم بالنسبة إلى اعتقادهم .

وقوله : (اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله) ، أى : اتقوا الناس بالإيمان الكاذبة والحلْفات (١) الآثمة ، ليصدقوا فيما يقولون [فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم ، فاعتقدوا أنهم مسلمون ، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون] (٢) وصدقهم فيما يقولون ، وهم من شأنهم أنهم كانوا فى الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالا ، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس ؛ ولهذا قال تعالى : (فصدوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون) — ولهذا كان الضحاك ابن مزاحم يقرؤها : (اتخذوا إيمانهم جنة) ، أى : تصديقهم الظاهر جُنة ، أى : تقية يتقون به القتل . والجمهور يقرؤها : (أيمانهم) جمع يمين (٣) .

(ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) ، [أى : إنما قُدِّر عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران ، واستبدالهم الضلالة بالهدى (فطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون (٢))] ، أى : فلا يصل إلى قلوبهم هدى ، ولا يخلص إليها خير ، فلا تعى ولا تهتدى .

---

(١) فى المخطوطة : « والحلفان » ، بالنون . ولم نجده فى المجموع ، ولعل الصواب ما أثبتناه ، ويكون جمع « حلفة » .

(٢) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة .

(٣) قال أبو حيان فى البحر المحيط ٨/٢٧١ : « وقرأ الجمهور (أيمانهم) بفتح الهمزة ، جمع يمين ، والحسن بكسرها ، [مصدر] آمن » .

(وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم) ، أى : كانوا أشكالا حسنة وذوى فصاحة وألسنة ، إذا سمعهم السامع يصغى إلى قولهم لبلاغتهم ، وهم مع ذلك فى غاية الضعف والخَوَر والهلع والجزع والجبن ، ولهذا قال : (يحسبون كل صيحة عليهم) ، أى : كلما وقع أمر أو كائنة أو خوف ، يعتقدون لجبنهم أنه نازل بهم ، كما قال تعالى : (أشحةً عليكم ، فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحةً على الخير ، أولئك لم يؤمنوا ، فأحبط الله أعمالهم ، وكان ذلك على الله يسيرا (١)) ، فهم جَهَامات(٢) وصور بلا معانى . ولهذا قال : (هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون) ، أى : كيف يُصرَفون عن الهدى إلى الضلال :

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا عبد الملك بن قُدَامة الجُمَحى ، عن إسحاق بن بكر بن أبى الفرات ، عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى . عن أبيه ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : « إن للمنافقين علامات يعرفون بها : تحيتهم لعنة ، وطعامهم نُهبَة(٣) ، وغنيمتهم غلول ، ولا يقربون المساجد إلا هُجْرا(٤) ولا يأتون الصلاة إلا دُبْرا (٥) ، مستكبرين لا يألفون ولا يُؤلَفون ، خُشُبٌ (٦) بالليل ، صُخُب بالنهار » ؛ وقال يزيد مرةً : سُخُبٌ بالنهار(٧) ؛

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

يقول تعالى مخبرا عن المنافقين — عليهم لعائن الله — أنهم ، (إذا قيل لهم : تعالوا يستغفر لكم رسول الله ، لوّوا رءوسهم أى : صدّوا وأعرضوا عما قيل لهم ، استكباراً عن ذلك ، واحتقارا لما قيل لهم . ولهذا قال : (ورأيتهم يصدون وهم

---

(١) سورة الأحزاب ، آية : ١٩ .

(٢) الجهام فى اللغة : السحاب الذى لا ماء فيه . وقد استعمل فى الذى لا خير فيه ؛ ومنه قول كعب بن أسد لحيى بن أخطب : « جئتنى بجهام » . أى : الذى تعرضه على من الدين لا خير فيه كالجهام الذى لا ماء فيه .

(٣) النهبة — بضم النون — : ما يختلس .

(٤) أى : معرضين عنها . وقد ورد فى حديث أبى الدرداء : « ولا يسمعون القرآن إلا هجرا » ، قالوا : أراد الترك له والإعراض عنه . يقال : هجرت الشىء هجراً : إذا تركته وأغفلته .

(٥) أى : آخر الوقت .

(٦) أى : ينامون الليل كأنهم خشب مطرحة لا يصلون فيه ، فإذا أصبحوا تساخبوا على الدنيا شحا وحرصا . والسخب والصخب : الصياح .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٢/٢٩٣ .

مستكبرون) : ثم جازاهم على ذلك فقال : (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم ، إن الله لا يهدى القوم الفاسقين) : كما قال فى سورة « براءة[1] » ، وقد تقدم الكلام على ذلك ، وإيراد الأحاديث المروية هنالك .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابنُ أبى عُمَر العَدَنى قال : قال سفيان : (لووا رءوسهم) ، قال ابن أبى عمر : حوّل سفيان وجهه على يمينه ، ونظر بعينه شَزْرا ، ثم قال : هُمْ هذا .

وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل فى عبد الله بن أبى ابن سلول ، كما سنورده قريبا إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان .

وقد قال محمد بن إسحاق فى السيرة : ولما قدم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المدينة — يعنى مَرْجِعَه من أحد — وكان عبد الله بن أبىّ ابن سلول — كما حدثنى ابن شهاب الزهرى — له مقام يقُومه كل جُمُعة لا ينُكر ، شرَفاً له من نفسه ومن قومه[2] ، وكان فيهم شريفا ، إذا جلس النبى — صلى الله عليه وسلم — يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام ، فقال : أيها الناس ، هذا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بين أظهركم ، أكرمكم الله به ، وأعزكم به ، فانصروه وعزّروه ، واسمعوا له وأطيعوا . ثم يجلس ، حتى إذا صنَع يوم أحُد ما صنع — يعنى مرجعه بثلث الجيش — ورجع الناس[3] قام يفعل ذلك كما كان يفعله ، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا : اجلس ، أىْ عدو الله ، لست لذلك بأهل ، وقد صنعتَ ما صنعتَ . فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلت بَجْراً ، [4] أن قُمت أشدّد أمره . فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا : ويلك . مالك ؟ قال : قمتُ أشدّد أمره ، فوثب على رجال من أصحابه يجذبونى ويعنفوننى ، لكأنما قلت بَجْراً ، أن قمت أشدد أمره . قالوا : ويلك . ارجع يستغفر لك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : والله ما أبتغى أن يستغفر لى[5] .

وقال قتادة والسدى : أنزلت هذه الآية فى عبد الله بن أبى ، وذلك أن غلاما من قرابته انطلق إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فحدثه بحديث عنه وأمر شديد ، فدعاه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فاذا هو يحلف بالله ويتبرأ من ذلك ، وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعذَموه[6] ، وأنزل الله فيه ما تسمعون ، وقيل لعدو الله : لو أتيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم ؟ — فجعل يلوى رأسه ، أى : لست فاعلا[7] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو الربيع الزّهرانى ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا أيوب ، عن سعيد ابن جبير : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان إذا نزل منزلا لم يرتحل حتى يصلى فيه ، فلما كانت غزوة تبوك

---

(١) انظر تفسير الآية ١١٣ — ١١٤ : ٤/١٥٨ — ١٦١ .

(٢) لفظ السيرة : « فى نفسه ، وفى قومه » .

(٣) فى السيرة : « بالناس » .

(٤) أى : أمراً عظيما .

(٥) سيرة ابن هشام : ٢/١٠٥ .

(٦) فى المخطوطة : « وعرموه » . وفى تفسير الطبرى : « وعذلوه » : ولعل الصواب ما أثبتناه . وعذموه : أخذوه بألسنتهم ، وفى مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاصى ٢/١٥٨ : « فأقبل على فعذمنى وعضنى بلسانه » ، أى : لامنى .

(٧) تفسير الطبرى : ٢٨/٧١ .

بلغه أنّ عبدَ الله بن أُبَيّ ابن سلول قال : (ليخرجَنّ الأعزّ منها الأذل) . فارتحل قبل أن ينزل آخر النهار ، وقيل لعبدالله ابن أبي : ائت النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ حتى يستغفر لك . فأنزل الله : (إذا جاءك المنافقون) إلى قوله : (وإذا قيل لهم : تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم) .

وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن جبير . وقوله : إن ذلك كان في غزوة تبوك ، فيه نظر ، بل ليس بجيد ؛ فانّ عبد الله ابن أبي ابن سلول لم يكن ممن خرج في غزوة تبوك ، بل رجع بطائفة من الجيش . وإنما المشهور عند أصحاب المغازي والسير أن ذلك كان في غزوة المُرَيسيع ، وهي غزوة بني المصطلق :

قال يونس بن بكير ، عن ابن إسحاق : حدثني محمد بن يحيى بن حَبّان ، وعبد الله بن أبي بكر ، وعاصم بن عُمَر ابن قتادة ، في قصة بني المصطلق : « فبينا رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مقيم هناك ، اقتتل على الماء جَهجاه ابن سعيد(١) الغفاري ــ وكان أجيرا ــ لعمر بن الخطاب ، وسنان بن وَبَر(٢) ــ قال ابن إسحاق : فحدثني محمد ابن يحيى بن حَبّان قال : ازدحما على الماء فاقتتلا ، فقال سنان : يا معشر الأنصار . وقال الجهجاه : يا معشر المهاجرين ــ وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند عبد الله بن أبي ــ فلما سمعها قال : قد ثاوَرُونا(٣) في بلادنا . والله ما مثلُنا وجلابيب(٤) قريش هذه إلا كما قال القائل : « سَمّن كلبك يأكلك » . والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . ثم أقبل على من عنده من قومه وقال : هذا ماصنعتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها . فسمعها زيد بن أرقم ، فذهب بها إلى رسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو غُلَيّمٌ ــ وعنده عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ فأخبره الخبر ، فقال عمر رضي الله عنه : يارسول الله مُر عَبّاد بن بِشْر فليضرب عنقه . فقال صلى الله عليه وسلم : « فكيف إذا تحدّث الناس ــ يا عمر ــ أن محمدا يقتل أصحابه ؟ لا ، ولكن ناد يا عمر في الرحيل » .

فلما بلغ عبدَ الله بن أبي أن ذلك قد بلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، أتاه فاعتذر إليه ، وحلف بالله ما قال ما قال عليه زيد بن أرقم ــ وكان عند قومه بمكان ــ فقالوا : يا رسول الله ، عسى أن يكون هذا الغلام أوهم ولم يثبت ما قال الرجل » .

وراح رسول الله صلى الله عليه وسلم مُهَجّراً في ساعة كان لا يروح فيها ، فلقيه أسيد بن الحضير فسلم عليه بتحية النبوة ، ثم قال : والله لقد رُحتَ في ساعة مُنكَرَة ما كنت تروح فيها . فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبي ؟ . زعم أنه إذا قدم المدينة أنه سيخرج الأعز منها الأذل » . قال : فأنت ــ يا رسول الله ــ

(١) في سيرة ابن هشام : « بن مسعود » . وفي أسد الغابة ٣٦٥/١ : « جهجاه بن قيس . وقيل : ابن سعيد » .

(٢) في المخطوطة : « سنان بن يزيد » . والمثبت عن سيرة ابن هشام ، وأسد الغابة لابن الأثير ٤٦٣/٢ .

(٣) المثاورة : المواثبة .

(٤) جلابيب قريش : لقب من كان أسلم من المهاجرين ، لقبهم بذلك المشركون . وأصل الجلابيب : الأزر الغلاظ ، كانوا يلتحفون بها ، فلقبوهم بذلك .

العزيزُ وهو الذليل . ثم قال : يا رسول الله ارفق به فوالله لقد جاء الله بك وإنا لننظم له الخرزَ لنتوّجه ، فإنه ليرى أن قد استلبته ملكا .

فسار رسول الله – صلى الله عليه وسلم – [بالناس] حتى أمسوا ، وليلته حتى أصبحوا ، وصدّر يومه حتى اشتد الضحى . ثم نزل بالناس ليشغلهم عما كان من الحديث ، فلم يأمن الناس أن وجدوا مسّ الأرض فناموا ، ونزلت سورة المنافقين (١) .

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، أخبرنا أبو بكر بن إسحاق ، أخبرنا بشر بن موسى ، حدثنا الحُميدي ، حدثنا سفيان ، حدثنا عمرو بن دينار ، سمعت جابر بن عبد الله يقول : كنا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في غَزَاة فكَسَعَ(٢) رجلٌ من المهاجرين رجلا من الأنصار ، فقال الأنصاري : يا للأنصار . وقال المهاجري : يا للمهاجرين . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما بال دعوى الجاهلية ؟ . دعوها فإنها منتنة » . وقال عبد الله ابن أبي ابن سلول – وقد فعلوها – : والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال جابر : وكان الأنصار بالمدينة أكثرَ من المهاجرين حين قدم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثم كثر المهاجرون بعد ذلك ، فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق . فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : « دعه ؛ لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » .

ورواه الإمام أحمد عن حسين بن محمد المروزي ، عن سفيان بن عيينة(٣) . ورواه البخاري عن الحميدي ، ومسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة وغيره ، عن سفيان ، به نحوه (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن الحكم ، عن محمد بن كعب القُرَظي ، عن زيد ابن أرقم قال : كنت مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في غزوة تبوك ، فقال عبد الله بن أبي : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال : فأتيت النبي – صلى الله عليه وسلم – فأخبرته ، قال : فحلف عبد الله بن أبيّ أنه لم يكن شيء من ذلك . قال : فلامني قومي وقالوا : ما أردتَ إلى هذا ؟ قال : فانطلقت فنمتُ كئيبا حزينا ، قال : فأرسل إلى نبي الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : « إن الله قد أنزل عُذرك وصدّقك » . قال : فنزلت هذه الآية : (هم الذين يقولون : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) حتى بلغ : (لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل(٥)) .

ورواه البخاري عند هذه الآية ، عن آدم بن أبي إياس ، عن شعبة ، ثم قال : « وقال ابن أبي زائدة ، عن الأعمش ، عن عمرو ، عن ابن أبي ليلى ، عن زيد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم (٦) » ورواه الترمذي والنسائي عندها أيضا من حديث شعبة ، به (٧) .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام : ٢/٢٩٠ – ٢٩٢ .
(٢) كسعه : ضربه .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٣/٣٩٢ – ٣٩٣ .
(٤) البخاري ، كتاب التفسير ، تفسير سورة « المنافقون » : ٦/١٩٢ – ١٩٣ ، ومسلم ، كتاب البر ، باب « نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً » : ٨/١٩ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٤/٣٦٨ – ٣٦٩ .
(٦) البخاري ، تفسير سورة « المنافقون » : ٦/١٩٠ .
(٧) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة « المنافقون » ، الحديث ٣٣٦٩ : ٩/٢١٧ – ٢١٨ .

طريق أخرى عن زيد ، قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا يحيى بن آدم ، ويحيى بن أبي بُكَيْر قالا : حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق قال : سمعت زيد بن أرقم – وقال ابن أبي بكير (١) : عن زيد بن أرقم – قال : خرجت مع عمي في غزاة ، فسمعت عبد الله بن أبي [ابن سلول] يقول لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله ، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فذكرت ذلك لعمي ، فذكره عمي لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – فأرسل إليّ رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – فحدثته فأرسل إلى عبدالله بن أبي ابن سلول [وأصحابه] فحلفوا ما قالوا ، فكذَّبني رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وصدّقه ، فأصابني همّ لم يصبني مثله قط ، وجلست في البيت ، فقال عمي : ما أردت إلا أن كذبك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ومقتك . قال : حتى أنزل الله : (إذا جاءك المنافقون) ، قال : فبعث إليّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقرأها رسول الله علي ، ثم قال : « إن الله قد صدقك (٢) » .

ثم قال أحمد أيضاً : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا زهير ، حدثنا أبو إسحاق : أنه سمع زيد بن أرقم يقول : خرجنا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في سفر ، فأصاب الناس شدةٌ – فقال عبد الله بن أبي [لأصحابه] : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله . وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فأتيت النبي – صلى الله عليه وسلم – فأخبرته بذلك ، فأرسل إلى عبد الله بن أبي فسأله ، فاجتهد يمينه ما فعل . فقالوا : كذب زيد يا رسول الله . فوقع في نفسي مما قالوا ، حتى أنزل الله تصديقي (٣) : (إذا جاءك المنافقون) . قال : ودعاهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليستغفر لهم ، فلووا رءوسهم . وقوله تعالى : (كأنهم خشب مسندة) ، قال : كانوا رجالاً أجمل شيء (٤) .

وقد رواه البخاري ومسلم والنسائي ، من حديث زهير . ورواه البخاري أيضاً والترمذي من حديث إسرائيل ، كلاهما عن أبي إسحاق عمرو بن عبد الله السَّبِيعيّ الهَمْدانيّ الكوفي ، عن زيد ، به (٥) .

طريق أخرى عن زيد ، قال أبو عيسى الترمذي : حدثنا عبد بن حُمَيد ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن إسرائيل ، عن السدي ، عن أبي سعد (٦) الأزدي قال : حدثنا زيد بن أرقم قال : غزونا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكان معنا أناس من الأعراب ، فكنا نَبْتَدِرُ (٧) الماء ، وكان الأعراب يسبقونا يسبق الأعرابي أصحابه يملأ الحوض (٨) ، ويجعل

(١) في المخطوطة : « وقال أبو بكر » . والمثبت من المسند .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٤/٣٧٣ .
(٣) في المسند : « تصديقي في : (إذا ...) » .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٤/٣٧٣ .
(٥) البخاري ، تفسير سورة « المنافقون » : ٦/١٩٠ – ١٩١ ، ومسلم ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم : ٨/١١٩ – ١٢٠ . وتحفة الأحوذي ، تفسير سورة « المنافقون » : ٩/٣١٣ – ٣١٤ .
(٦) في الترمذي : « عن أبي سعيد » . ويقول الحافظ أبو العلى صاحب تحفة الأحوذي : « ويقال له : أبو سعد » .
(٧) أي : نسارع إليه .
(٨) هذا لفظ مخطوطة الأزهر . وفي تحفة الأحوذي : « يسبقونا إليه ، فسبق الأعرابي أصحابه ، فيسبق الأعرابي فيملأ الحوض » . ويقول الحافظ أبو العلى معلقاً على : (فسبق الأعرابي) : « كذا في النسخ الحاضرة بصيغة الماضي ، ولا يستقيم المعنى إلا أن يكون بمعنى « يسبق » . ثم ذكر أن جملة « فيسبق الأعرابي فيملأ الحوض » بيان لما يصنعه الأعرابي بعد سبقه إلى الماء .

حوله حجارة، ويجعل النّطع(١) عليه حتى يجيء أصحابه، [قال] فأتى رجل من الأنصار الأعرابي(٢)، فأرخى زمام ناقته لتشرب ، فأبى أن يدعه ، فانتزع حجراً ففاض(٣) الماء ، فرفع الأعرابي خشبة ، فضرب بها رأس الأنصاري فشجّه ، فأتى عبدَ الله بن أبي رأسَ المنافقين فأخبره — وكان من أصحابه — فغضب عبد الله بن أبي ، ثم قال : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله — يعني الأعراب — وكانوا يحضرون رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عند الطعام ؛ فقال عبد الله لأصحابه : إذا انفضوا من عند محمد فائتوا محمداً بالطعام ، فليأكل هو ومن عنده ، ثم قال لأصحابه : إذا رجعتم(٤) إلى المدينة فليخرج الأعز منها الأذل . قال زيد : وأنا ردْفَ عمّي(٥) ، فسمعتُ عبد الله فأخبرت عمّي ، فانطلق فأخبر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأرسل إليه رسول الله ، فحلف وجحد ، قال : فصدقه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكذبني ، فجاء إلى عمي فقال : ما أردت [إلا] أن مقتك(٦) رسول الله — صلى الله عليه وسلم وكذبكَ والمسلمون . فوقع علي من الغم ما لم يقع على أحد قط ، فبينا أنا أسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم — في سفر وقد خفقتُ(٧) برأسي من الهم ، إذ أتاني رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فعرك أذني ، وضحك في وجهي ، فما كان يسرني أن لي بها الخلد [في الدنيا] ثم إن أبا بكر لحقني وقال : ما قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت : ما قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً غير أن(٨) عرك أذني وضحك في وجهي. فقال: أبشر. ثم لحقني عمر فقلت له مثل قولي لأبي بكر . فلما أن أصبحنا قرأ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سورة المنافقين .

انفرد بإخراجه الترمذي وقال : « هذا حديث حسن(٩) صحيح » وهكذا رواه الحافظ البيهقي عن الحاكم عن أبي العباس محمد بن أحمد المحبوبي ، عن سعيد بن مسعود(١٠) عن عبيد الله بن موسى ، به . وزاد بعد قوله « سورة المنافقين » (إذا جاءك المنافقون قالوا: نشهد إنك لرسول الله) حتى بلغ : (هم الذين يقولون : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) حتى بلغ : (ليخرجن الأعز منها الأذل) .

وقد روى عبد الله بن لهيعة ، عن أبي الأسود ، عن عُروةَ بن الزبير في المغازي — وكذا ذكر موسى بن عقبة في مغازيه أيضاً هذه القصة بهذا السياق ، ولكن جعلا الذي بلّغ رسول الله عليه وسلم كلام عبد الله بن أبي ابن سلول إنما هو أوس بن أرقم(١١) ، من بني الحارث بن الخزرج . فلعله مبلغ آخر ، أو تصحيف من جهة السمع ، والله أعلم .

(١) النطع : بساط من الجلد .
(٢) في تحفة الأحوذي : « أعرابياً » .
(٣) لفظ الترمذي : « فانتزع قباض الماء » . وفي المخطوطة : « فغاض » ، بالغين . والمثبت عن المستدرك ، تفسير سورة « المنافقون » : ٤٨٩/٢ .
(٤) في تحفة الأحوذي : « لئن رجعنا » .
(٥) في تحفة الأحوذي : « وأنا ردف رسول الله — صلى الله عليه وسلم » . ونحسبه خطأ .
(٦) في تحفة الأحوذي : « ما أردت إلى أن ... » . والمثبت عن الطبعات السابقة .
(٧) أي : نكسته من شدة الهم .
(٨) في تحفة الأحوذي : « إلا أنه » .
(٩) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة « المنافقون » ، الحديث ٣٣٦٨ : ٢١٥/٩ — ٢١٧ .
(١٠) ما بين القوسين عن المستدرك ٤٨٨/٢ ، ومكانه في مخطوطة الأزهر بياض .
(١١) في المخطوطة : « بن أقرم » والمثبت عن أسد الغابة : ١٦٣/١ .

وقد قال ابن أبي حاتم رحمه الله : حدثنا محمد بن عزيز الايلي ، حدثني سلامة ، حدثني عقيل ، أخبرني محمد بن مسلم : أن عروة بن الزبير وعمرو بن ثابت الأنصاري أخبراه : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — غزا غزوة المريسيع ، وهي التي هدم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيها مناة الطاغية التي كانت بين قفا المُشَلَّل (١) وبين البحر ، فبعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خالد بن الوليد فكسر مناة ، فاقتتل رجلان في غزوة رسول الله صلى الله عليه وسلم — تلك ، أحدهما من المهاجرين ، والآخر من بَهْز ، وهم حلفاء الأنصار ، فاستعلى الرجل الذي من المهاجرين على البهزي ، فقال البهزي : يامعشر الأنصار ، فنصره رجال من الأنصار ، وقال المهاجري : يامعشر المهاجرين . فنصره رجال من المهاجرين ، حتى كان بين أولئك الرجال من المهاجرين والرجال من الأنصار شيء من القتال ، ثم حُجز بينهم فانكفأ كل منافق — أو : رجل في قلبه مرض — إلى عبد الله بن أبي ابن سلول ، فقال : قد كنت تُرْجَى وتَدفع ، فأصبحت لا تضر ولا تنفع ، قد تناصرت علينا الجلابيب — وكانوا يَدعُون كُلَّ حديث هجرة (٢): الجلابيب — فقال عبد الله بن أبي عدوّ الله : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال مالك بن الدخْشُم (٣) وكان من المنافقين (٤) — أو لم أقل لكم لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا . فسمع بذلك عمرُ بن الخطاب ، فأقبل يمشي حتى جاء رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : يارسول الله ، إئذن لي في هذا الرجل الذي قد أفتن الناس ، أضربُ عنقه — يريد عمرُ عبدَ الله بن أبي — فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لعمر : « أو قاتله أنتَ إن أمرتُك بقتله ؟ » . قال عمر : والله لئن أمرتني بقتله لأضربَنّ عنقه ؛ فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « اجلس » ؛ فأقبل أُسَيدُ بن الحُضَير — وهو أحد الأنصار ، ثم أحد بني عبد الأشهل ، حتى أتى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : يارسولَ الله ، ائذن لي في هذا الرجل الذي قد أفتنَ الناسَ أضربُ عنقه ؛ فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : « أو قاتله أنتَ إن أمرتُكَ بقتله ؟ » ؛ قال نعم ، والله لئن أمرتني بقتله لأضربن بالسيف تحت قُرطِ أذنيه ؛ فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « اجلس » ؛ ثم قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : (آذنوا بالرحيل » . فهَجَّرَ بالناس ، فسار يومه وليلته والغد حتى مَتَعَ النهار (٥) ثم نزل ؛ ثم هَجَّر بالناس مثلها ، فَصبَّح بالمدينة في ثلاث سارها من قفا المُشَلَّل فلما قدم رسول الله — صلى الله عليه وسلم المدينة أرسلَ إلى عمر فدعاه ، فقال له رسول الله : « أيْ عمر ، أكنتَ قاتلَه لو أمرتك بقتله ؟ » قال عمر : نعم ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : والله لو قتلتَه يومئذ لأرغمتَ أنوف رجال لو أمرتهم اليومَ بقتله امتثلوه فيتحدث الناسُ أني قد وقعت على أصحابي فأقتلهم صبرا . وأنزل الله عز وجل : (هم الذين يقولون : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) . . . إلى قوله : (لئن رجعنا إلى المدينة) . . . . الآية .

وهذا سياق غريب ، وفيه أشياء نفيسة لا توجد إلا فيه .

---

(١) المشلل : موضع بين مكة والمدينة .

(٢) في المخطوطة : « حديث أهجرة » .

(٣) في المخطوطة : « الدخشن » . والمثبت من أسد الغابة : ٥/٢٢ .

(٤) مالك بن الدخشم : شهد بدرا في قول الجميع . وكان يتهم بالنفاق . ولكن أبا عمر بن عبد البر يقول : « ولا يصح عنه النفاق ، وقد ظهر من حسن إسلامه ما يمنع من اتهامه » . وقد أرسله رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأحرق مسجد الضرار هو ومعن بن عدي . انظر الاستيعاب : ٢/١٣٥١ ، وأسد الغابة : ٥/٢٢ — ٢٣ .

(٥) أي : امتد وطال .

وقال محمد بن إسحاق بن يسار : حدثني عاصم بن عمر بن قتادة : أن عبد الله بن أبي – يعني لما بلغه ما كان من أمر أبيه – أتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : يارسول الله ، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلا فمرني به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني ، إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله ، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس ، فأقتله – فأقتل – مؤمنا بكافر ، فأدخل النار . فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا »(١)

وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما : أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة ، وقف عبد الله بن عبد الله هذا على باب المدينة ، واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبي قال له ابنه : وراءك . فقال : مالك ؟ ويلك . فقال : والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فإنه العزيز وأنت الذليل ؛ فلما جاء رسول الله – صلى الله عليه وسلم وكان إنما يسير ساقة(٢) ، فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه ، فقال ابنه عبد الله : والله يارسول الله لا يدخلها حتى تأذن له . فأذن له رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : أما إذ أذن لك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فجز الآن .

وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده : حدثنا سفيان بن عيينة ، حدثنا أبو هارون المدني قال : قال عبد الله بن عبد الله بن أبي ابن سلول لأبيه : والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول : رسول الله صلى الله عليه وسلم الأعز وأنا الأذل . قال وجاء النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : يارسول الله، إنه بلغني أنك تريد أن تقتل أبي ، فوالذي بعثك بالحق ما تأملت وجهه قط هيبة له ، ولئن شئت أن آتيك برأسه لآتينك ، فإني أكره أن أرى قاتل أبي .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

يقول تعالى آمرا لعباده المؤمنين بكثرة ذكره وناهيا لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ومخبرا لهم بأنه من التهى بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خلق له من طاعة ربه وذكره، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ثم حثهم على الإنفاق في طاعته فقال : (وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول : رب ، لولا أخرتني إلى أجل قريب ، فأصدق وأكن من الصالحين) فكل مفرط يندم عند الاحتضار ، ويسأل طول المدة ولو شيئا يسيراً ، يستعتب ويستدرك ما فاته ، وهيهات كان ما كان ، وأتى ما هو آت ، وكل بحسب تفريطه ، أما الكفار فكما قال تعالى : (وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب ، فيقول الذين ظلموا : ربنا أخرنا إلى أجل قريب ، نجب دعوتك

---

(١) سيرة ابن هشام : ٢/٢٩٢–٢٩٣ .

(٢) كان من صفة مشيته – عليه الصلاة والسلام – أن يسوق أصحابه ، أي يقدمهم أمامه ، ويمشي خلفهم ، تواضعاً ، ولا يدع أحداً يمشي خلفه .

ونتبع الرسل ، أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال (١)) . . وقال تعالى(٢)]: (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال : رب ، ارجعون . لعلى أعمل صالحاً فيما تركت ، كلا ، إنها كلمة هو قائلها ، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون (٣)) .

ثم قال تعالى : (ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ، والله خبير بما تعملون) ، أى : لا ينظر أحداً بعد حلول أجله ، وهو أعلم وأخبر بمن يكون صادقاً فى قوله وسؤاله ممن لو رُدّ لعاد إلى شر مما كان عليه ، ولهذا قال (والله خبير بما تعملون).

وقال أبو عيسى الترمذى : حدثنا عبد بن حميد : حدثنا جعفر بن عون ، حدثنا أبو جَنَاب الكلبى ، عن الضحاك مُزَاحم ، عن ابن عباس قال : من كان له مال يبلغه حج بيت ربه ، أو تجب فيه عليه زكاة ، فلم يفعل ، سأل الرجعة عند الموت . فقال رجل : يا ابن عباس ، اتق الله ، فإنما يسأل الرجعة الكفار . فقال : سأتلو عليك بذلك قرآناً : (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . [وانفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق (٤))] إلى قوله : (والله خبير بما تعملون) ، قال : فما يوجب الزكاة ؟ قال : إذا بلغ المال مائتين فصاعداً . قال : فما يوجب الحج ؟ قال : الزاد والبعير (٥) .

ثم قال : حدثنا عبد بن حُمَيد ، حدثنا عبد الرزاق ، عن الثورى ، عن يحيى بن أبى حَيَّة — وهو أبو جناب الكلبى عن الضحاك ، عن ابن عباس ، عن النبى — صلى الله عليه وسلم — بنحوه (٦) .

ثم قال : وقد رواه سفيان بن عيينة وغيره ، عن أبى جَنَاب ، عن ابن الضحاك ، عن ابن عباس ، من قوله . وهو أصح (٧) وضعَّف أبا جناب الكلبى .

قلت ورواية الضحاك عن ابن عباس فيها انقطاع ، والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن نُفَيل ، حدثنا سليمان بن عَطاء ، عن مسلمة الجهنى ، عن عمه — يعنى أبا مشجعة بن ربعى — عن أبى الدرداء — رضى الله عنه — قال : ذكرنا عند رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الزيادة فى العمر [فقال : « إن الله لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ، وإنما الزيادة فى العمر] — أن يرزق الله العبدُ ذرية صالحة يدعون له ، فيلحقه دعاؤهم فى قبره » .

آخر تفسير سورة « المنافقون » ، ولله الحمد والمنة

---

(١) سورة ابراهيم ، آية : ٤٤ .
(٢) ما بين القوسين من الطبعات السابقة .
(٣) سورة المؤمنون ، آية : ٩٩ — ١٠٠ .
(٤) ما بين القوسين من تحفة الأحوذى .
(٥) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة «المنافقون» ، الحديث ٣٣٧١ : ٢٢٠/٩ — ٢٢١ .
(٦) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة «المنافقون» ، الحديث ٣٣٧٢ : ٢٢١/٩ — ٢٢٢ .
(٧) لفظ الترمذى : «وهذا أصح من رواية عبد الرزاق» .

تفسير سورة التغابن

وهى مدنية وقيل مكية

قال الطبرانى : حدثنا محمد بن هارون بن محمد بن بكار الدمشقى ، حدثنا العباس بن الوليد الخلال ، حدثنا الوليد ابن الوليد حدثنا ابن (١) ثوبان ، عن عطاء بن أبى رباح ، عن عبد الله بن عمرو — رضىَ الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مامن مولود يولد إلا مكتوب فى تشبيك رأسه خمس آيات من سورة التغابن »

أورده ابن عساكر فى ترجمة « الوليد بن صالح » ، وهو غريب جداً ، بل منكر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾

هذه السورة هى آخر المُسبّحات ، وقد تقدم الكلام على تسبيح المخلوقات لبارئها ومالكها(٢) ، ولهذا قال : (له الملك وله الحمد) ، أى : هو المتصرف فى جميع الكائنات ، المحمود على جميع ما يخلقه ويقدره .

وقوله : (وهو على كل شيء قدير) ، أى : مهما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع ، وما لم يشأ لم يكن .

وقوله : (هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) ، أى : هو الخالق لكم على هذه الصفة ، وأراد منكم ذلك ، فلابد من وجود مؤمن وكافر ، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال ، وهو شهيد على أعمال عباده ، وسيجزيهم بها أتم الجزاء . ولهذا قال : (والله بما تعملون بصير) ؛

ثم قال : (خلق السموات والأرض بالحق) ، أى : بالعدل والحكمة ، (وصوركم فأحسن صوركم) ، أى : أحسن أشكالكم ، كقوله تعالى : (ياأيها الإنسان ، ماغرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أىّ صورة ما شاء

---

(١) فى المخطوطة : « أبو ثوبان » . والصواب ، ما أثبتناه ، انظر الجرح والتعديل ترجمة الوليد بن الوليد العنسى القلانسى الدمشقى : ١٩/٢/٤ .

(٢) انظر أول سورة الحديد ٨/٤٥ .

وكبك(١) ، وكقوله : (الله الذى جعل لكم الأرض قرارا ، والسماء بناء ، وصوركم فأحسن صوركم ، ورزقكم من الطيبات)(٢) : الآية : وقوله (وإليه المصير) ، أى : المرجع والمآب .

ثم أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السمائية والأرضية والنفسية ، فقال : (يعلم ما فى السموات والأرض ، ويعلم ما تسرون وما تعلنون ، والله عليهم بذات الصدور) .

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأمم الماضين ، وما حل بهم من العذاب والنكال ؛ فى مخالفة الرسل والتكذيب بالحق ، فقال : (ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل) ، أى : خبرهم وما كان من أمرهم ، (فذاقوا وبال أمرهم) ، أى : وخيم تكذيبهم ورديء أفعالهم ، وهو ما حل بهم فى الدنيا من العقوبة والخزى ، (ولهم عذاب أليم) ، أى : فى الدار الآخرة مضاف إلى هذا الدنيوى : ثم علل ذلك فقال : (ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات) ، أى : بالحجج والدلائل والبراهين ، (فقالوا ، أبشر يهدوننا ؟) ، أى : استبعدوا أن تكون الرسالة فى البشر ، وأن يكون هداهم على يدى بشر مثلهم ، (فكفروا وتولوا) ، أى : كذبوا بالحق ونكلوا عن العمل ، (واستغنى الله) ، أى : عنهم ، (والله غنى حميد) .

زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين والكفار والملحدين أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون ، (قل : بلى ، وربى لتبعثن ، ثم لتنبؤن بما عملتم) ، أى لتُخْبَرُنَّ بجميع أعمالكم ، جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ، (وذلك على الله يسير) ، أى : بعثكم ومجازاتكم .

وهذه هى الآية الثالثة التى أمر الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقسم بربه ـ عز وجل ـ على وقوع المعاد ووجوده ، فالأولى فى سورة يونس : (ويستنبؤنك : أحق هو ؟ قل : أى ، وربى إنه لحق ، وما أنتم بمعجزين(٣)) ، والثانية فى سورة سبأ : (وقال الذين كفروا : لا تأتينا الساعة ، قل : بلى ، وربى لتأتينكم(٤)) . . . . الآية ، والثالثة هى هذه

---

(١) سورة الانفطار ، الآيات : ٦ ـ ٨ .
(٢) سورة غافر ، آية : ٦٤ .
(٣) سورة يونس ، آية : ٥٣ .
(٤) سورة سبأ ، آية : ٣ .

ثم قال تعالى : (فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا) ، يعنى : القرآن ، (والله بما تعملون خبير) ، أى : فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية .

وقوله : (يوم يجمعكم ليوم الجمع) ، وهو يوم القيامة ، سمى بذلك لأنه يُجمع فيه الأولون والآخرون فى صعيد واحد ، يسمعهم الداعى وَينفُذهم البصر(١)، كما قال تعالى: (ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود) (٢) ، وقال تعالى : (قل : إن الأولين والآخرين ، لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم)(٣) .

وقوله : (ذلك يوم التغابن) — قال ابن عباس : هو اسم من أسماء يوم القيامة (٤) ، وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار . وكذا قال قتادة ومجاهد .

وقال مقاتل بن حيان : لاغبن أعظمُ من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة ، ويُذْهَب بأولئك إلى النار .

قلت : وقد فسر ذلك بقوله تعالى : (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً ، يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، ذلك الفوز العظيم ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ، أولئك أصحاب النار خالدين فيها ، وبئس المصير) . وقد تقدم تفسير مثلُ هذه غير مرة .

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

يقول تعالى مخبراً بما أخبر به فى سورة الحديد : (ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها) (٥)، وهكذا قال هاهنا : (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله) — قال ابن عباس : بأمر الله ، يعنى عن قدره ومشيئته .

ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شىء عليم) ، أى : ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره ، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله ، هدى الله قلبه ، وعوّضه عما فاته من الدنيا هُدًى فى قلبه ، ويقيناً صادقاً ، وقد يخلف عليه ما كان أخذ [منه ، أو] خيراً منه .

قال على ابن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) ، يعنى يهد قلبه لليقين ، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه (٦) .

وقال الأعمش ، عن أبى ظبيان قال : كنا عند علقمة فقُرِىء عنده هذه الآية : (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) ، فسئل عن ذلك فقال : هو الرجل تصيبه المصيبة ، فيعلم أنها من عند الله ، فيرضى ويسلم . رواه ابن جرير (٦) ، وابن أبى حاتم .

(١) تقدم تفسير هذه الكلمة فى : ٤/٤٣٨ ، وهى من حديث فى الصحيحين ومسند الإمام أحمد ، تقدم تخريجنا له فى سورة الإسراء : ٥/١٠٦ — ١٠٧ .

(٢) سورة هود ، آية : ١٠٣ .

(٣) سورة الواقعة ، آية : ٤٩ — ٥٠ .

(٤) انظر تفسير الطبرى : ٢٨/٧٩ .

(٥) سورة الحديد ، آية : ٢٢ .

(٦) تفسير الطبرى : ٢٨/٧٩ — ٨٠ .

وقال سعيد بن جبير ، ومقاتل بن حيان: (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) ، يعنى : يسترجع ، يقول: (إنالله وإنا إليه راجعون)

وفى الحديث المتفق عليه : « عجباً للمؤمن ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن(١) » .

وقال أحمد: حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا الحارث بن يزيد ، عن على بن رَبَاح : أنه سمع جنادة بن أبى أمية يقول: سمعت عبادة بن الصامت يقول: إن رجلا أتى رسول الله — صلى الله عليه وسلم: — فقال يارسول الله، أى العمل أفضل ؟ قال « إيمان بالله ، وتصديق به ، وجهاد فى سبيله » . قال : أريد أهون من هذا يارسول الله . [قال السماحة والصبر . قال : أريد أهون من ذلك يارسول الله](٢) قال : « لا تتهم الله فى شىء ، قضى لك به(٣) » . لم يخرجوه .

وقوله (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) : أمرٌ بطاعة الله ورسوله فيما شرع ، وفعل ما [به] أمر وترك ما عنه نهى وزجر ثم قال (فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين) أى : إن نكلتم عن العمل فانما عليه ما حُمِّل من البلاغ ، وعليكم ما حُمِّلتم من السمع والطاعة .

قال الزهرى : من الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم .

ثم قال تعالى مخبراً أنه الأحد الصمد ، الذى لا إله غيره ، فقال : (الله لا إله إلا هو ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون) ، فالأول خَبَرٌ عن التوحيد ، ومعناه معنى الطلب ، أى : وحدوا الإلهية له ، وأخلصوها لديه ، وتوكلوا عليه ، كما قال تعالى : (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو ، فاتخذه وكيلا) (٤) .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأزواج والأولاد : أن منهم من هو عدو الزوج والوالد ، بمعنى أنه يلتهى به عن العمل الصالح ، كقوله : (ياأيها الذين آمنوا ، لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون)(٥) ، ولهذا قال هاهنا (فاحذروهم) — قال ابن زيد : يعنى على دينكم .

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية الخامسة من سورة ابراهيم ، وخرجناه هنالك ، انظر : ٣٩٨/٤ .
(٢) ما بين القوسين عن مسند الإمام أحمد ، وهو سقط نظر .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٣١٨/٥ — ٣١٩ .
(٤) سورة المزمل ، آية : ٩ .
(٥) سورة « المنافقون » ، آية : ٩ .

وقال مجاهد : (إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم) — قال : يَحملُ الرجل على قطيعة الرحم أو معصية ربه ، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه(١) .

وقال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن خلف العسقلاني [حدثنا](٢) الفريابي ، حدثنا إسرائيل ، حدثنا سماك بن حرب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس — وسأله رجل عن هذه الآية : (يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم) — قال : فهؤلاء رجال أسلموا من مكة ، فأرادوا أن يأتوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأبى أزواجهم وأولادهم أن يَدَعوهم . فلما أتوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — رأوا الناسَ قد فقهوا في الدين ، فَهَمّوا أن يعاقبوهم ، فأنزل الله هذه الآية : (وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم) .

وكذا رواه الترمذي عن محمد بن يحيى ، عن الفريابي — وهو محمد بن يوسف — به وقال : « حسن صحيح »(٣). ورواه ابن جرير والطبراني، من حديث إسرائيل ، به ، وروى من طريق العوفي ، عن ابن عباس ، نحوه ، وهكذا قال عكرمة مولاه سواء (٤) .

وقوله : (إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم) ، يقول تعالى : إنما الأموال والأولاد فتنة ، أي اختبار وابتلاء من الله لخلقه . ليعلم من يطيعه ممن يعصيه .

وقوله : (والله عنده) ، أي : يوم القيامة (أجر عظيم) ، كما قال : (زين للناس حب الشهوات ، من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث) . . . الآية (٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا زيد بن الحباب ، حدثني حُسَين بن واقد ، حدثني عبد الله بن بُرَيدة سمعت أبا بريدة يقول : كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يخطب ، فجاء الحسن والحسين — رضي الله عنهما — عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ، ثم قال : « صدق الله ورسوله ، إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما (٦) » .

ورواه أهل السنن من حديث حُسَين بن واقد ، به (٧) وقال الترمذي : « حسن غريب ، إنما نعرفه من حديثه (٨) » .

---

(١) تفسير الطبري : ٢٨/٨١ .

(٢) ما بين القوسين عن الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٣/٢/٢٤٥ ، والتهذيب : ٩/١٤٩ . وفي مخطوطة الأزهر مكانه : « الصيدلاني » .

(٣) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة التغابن ، الحديث ٣٣٧٣ : ٩/٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٤) تفسير الطبري : ٢٨/٨٠ — ٨١ .

(٥) سورة آل عمران ، آية : ١٤ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٥/٣٥ .

(٧) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب « الإمام يقطع الخطبة للأمر يحدث » . وتحفة الأحوذي ، أبواب المناقب ، باب « مناقب أبي محمد الحسن بن علي بن أبي طالب ، والحسين بن علي » ، الحديث ٣٨٦٣ : ١٠/٢٧٨ — ٢٧٩ . والنسائي ، كتاب الجمعة ، باب « نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة ، وقطعه كلامه ، ورجوعه إليه يوم الجمعة » : ٣/١٠٨ . وكتاب العيدين ، باب « نزول الإمام عن المنبر قبل فراغه من الخطبة » : ٣/١٩٢ . وسنن ابن ماجه ، كتاب اللباس ، باب « لبس الأحمر للرجال » ، الحديث ٣٦٠٠ : ٢/١١٩٠ .

(٨) لفظ الترمذي : « هذا حديث حسن غريب ، إنما نعرفه من حديث الحسين بن واقد » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سُرَيج بن النعمان ، حدثنا هشيم ، أخبرنا مجالد ، عن الشعبى ، حدثنا الأشعث بن قيس قال : قدمت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى وفد كندة ، فقال لى : «هل لك من ولد ؟» قلت : غلام ولد لى فى مَخرَجى إليك من ابنة جَمْد(١)، ولَوَدِدْتُ أن بمكانه: شِبَعَ القوم . قال : «لا تقولن ذلك ، فان فيهم قرةَ عين ، وأجراً إذا قبضوا ، ثم قال : ولئن قلت ذاك : إنهم لمجبنة مَحزَنة(٢) إنهم لمجبنة مَحزَنة(٣)» تفرد به أحمد، رحمه الله تعالى.

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا محمود بن بكر ، حدثنا أبى ، عن عيسى ، عن ابن أبى ليلى ، عن عطية ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «الولد ثمرة القلوب ، وإنهم مَجبنة مَبْخلة محزنة» ثم قال: «لا يعرف إلا بهذا الإسناد» .

وقال الطبرانى : حدثنا هاشم بن مزيد ، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش ، حدثنى أبى ، حدثنى ضَمْضَمُ بنُ زُرعةَ ، عن شريح بن عبيد ، عن أبى مالك الأشعرى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : «ليس عدوك الذى إن قتلته كان فوزاً(٤) لك ، وإن قتلك دخلت الجنة ، ولكن الذى لعله عدو لك ولدك الذى خرج من صلبك ، ثم أعدى عدو لك مالُك الذى ملكت يمينك» .

وقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ ، أى : جهدكم وطاقتكم . كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم ، ومانهيتكم عنه فاجتنبوه(٥)

وقد قال بعض المفسرين ـ كما رواه مالك ، عن زيد بن أسلم ، ـ إن هذه الآية العظيمة ناسخة للتى فى «آل عمران» وهى قوله : ﴿ ياأيها الذين آمنوا ، اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن ، إلا وأنتم مسلمون﴾(٦) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنى يحيى بن عبد الله بن بكير ، حدثنى ابن لهيعة ، حدثنى عطاء ـ هو ابن دينار ـ عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ، قال : لما نزلت الآية اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم ، فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين : ﴿فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ ، فنسخت الآية الأولى .

وروى عن أبى العالية ، وزيد بن أسلم ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، والسدى ، ومقاتل بن حيان ، نحو ذلك .

---

(١) هو جمد ـ بفتح فسكون ـ الكندى . مترجم فى أسد الغابة . انظر : ٣٤٩/١ .
(٢) أى : سبب للجبن والحزن . يريد لو قلت هذا القول لصدقت فيه .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٢١١/٥ .
(٤) فى المخطوطة : «نورا لك» . والمثبت عن الطبعات السابقة .
(٥) البخارى ، كتاب الاعتصام ، ١١٦/٩ ـ ١١٧ . ومسلم ، كتاب الحج ، باب «فرض الحج مرة فى العمر» : ١٠٢/٤ . والنسائى ، كتاب المناسك ، باب «وجوب الحج» : ١١٠/٥ ـ ١١١ . وابن ماجه ، المقدمة ، باب «اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم» ، الحديث ٢ : ٣/١ . ومسند الإمام أحمد عن أبى هريرة : ٢٤٧/٢ ، ٢٥٨ ، ٣١٤ ـ ٣١٥ ، ٣٥٥ .
(٦) سورة آل عمران ، آية ١٠٢ ، وانظر : ٧٣/٢ .
(٧) انظر تفسير الآية التاسعة من سورة الحشر : ٩٧/٧ ـ ٩٨ .

وقوله : (واسمعوا وأطيعوا) ، أى : كونوا منقادين لما يأمركم الله به ورسوله ، لا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة ، ولا تقدموا بين يدى الله ورسوله ، ولا تتخلفوا عما به أمرتم ، ولا تركبوا ما عنه زُجرتم .

وقوله تعالى : (وأنفقوا خيرا لأنفسكم) ، أى : وابذلوا مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين وذوى الحاجات ، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن إليكم ، يكن خيراً لكم فى الدنيا والآخرة، وإن لا تفعلوا يكن شرالكم فى الدنيا والآخرة .

وقوله : (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)، تقدم تفسيره فى « سورة الحشر » وذكر الأحاديث الواردة فى معنى هذه الآية ، بما أغنى عن إعادته هاهنا ، ولله الحمد والمنه ، وقوله : (إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم) ، أى : مهما أنفقتم من شىء فهو يخلفه ، ومهما تصدقتم من شىء فعليه جزاؤه ، ونزل ذلك منزلة القرض له، كما ثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول: « من يقرض غير ظلوم ولا عديم (١) » . ولهذا قال يضاعفه لكم ، كما تقدم فى سورة البقرة : (فيضاعفه له أضعافاً كثيرة)(٢) .

(ويغفر لكم) ، أى : ويكفر عنكم السيئات . ولهذا قال : (والله شكور) ، أى : يجزى على القليل بالكثير ، (حليم) أى : يصفح ويغفر ويستر ، ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات .

(عالم الغيب والشهادة ، العزيز الحكيم) . تقدم تفسيره غير مرة .

[آخر تفسير « سورة التغابن » ولله الحمد والمنة]

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ٢٤٥ من سورة البقرة ، وخرجناه هنالك ، انظر : ١/٤٤١ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٤٥ .

تفسير سورة الطلاق

وهى مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١)

خُوطب النبي – صلى الله عليه وسلم – أولا تشريفاً وتكريما ، ثم خاطب الأمة تبعاً فقال (: ياأيها النبي ، إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن) .

وقال ابن أبي حاتم ، حدثنا محمد بن ثواب بن سعيد الهبارى ، حدثنا أسباط بن محمد ، عن سعيد ، عن قتادة ، عن أنس قال : طلق رسول الله – صلى الله عليه وسلم حفصة ، فاتت أهلها ، فأنزل الله عز وجل : (ياأيها النبي ، إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن) ، فقيل له : راجعها فإنها صوامة قوامة ، وهى من أزواجك ونسائك فى الجنة .

ورواه ابن جرير ، عن ابن بشار ، عن عبد الأعلى ، عن سعيد ، عن قتادة . . . فذكره[1] مرسلا . وقد ورد من غير وجه : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – طلق حفصة ثم راجعها .

وقال البخارى حدثنا يحيى بن بكير ، حدثنا الليث وعقيل ، عن ابن شهاب ، أخبرنى سالم : أن عبد الله بن عمر أخبره أنه طلق امرأة له وهى حائض . فذكر عمرُ لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – فتغيظ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثم قال : « ليراجعها ، ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض فتطهرَ ، فإن بداله أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها ، فتلك العدة التى أمر الله عز وجل[2] » .

هكذا رواه البخارى هاهنا وقد رواه فى مواضع من كتابه ، ومسلم ، ولفظه : « فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء[3] » .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٨/٨٥ .

(٢) البخارى ، تفسير سورة الطلاق : ٦/١٩٣ ، وانظر البخارى ، كتاب الطلاق ، أول الكتاب ، وباب « إذا طلقت الحائض ، يعتد بذلك الطلاق » ، وباب « من طلق ، وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق » ، وباب « وبعولتهن أحق بردهن فى العدة ، وكيف يراجع المرأة إذا طلقها واحدة أو اثنتين » ، وباب « مراجعة الحائض » . كل أولئك فى كتاب الطلاق : ٧/٥٢ ، ٥٣ ، ٧٥ ، ٧٦ . وكتاب الأحكام ، باب « هل يقضى الحاكم أو يفتى وهو غضبان » : ٩/٨٢ .

(٣) مسلم ، كتاب الطلاق ، باب « تحريم طلاق الحائض بغير رضاها ، وأنه لو خالف وقع الطلاق ويؤمر برجعتها » :

ورواه أصحاب الكتب(١) والمسانيد من طرق متعددة وألفاظ كثيرة ، ومواضع استقصائها كتب الأحكام .

وأمَسّ لفظ يورَد هاهنا ما رواه مسلم فى صحيحه ، من طريق ابن جريج : أخبرنى أبو الزبير : أنه سمع عبد الرحمن ابن أيمن — مولى عزّة يسأل ابن عمر — وأبو الزبير [يسمع] ذلك : كيف ترى فى رجل طلق امرأته حائضاً ؟ فقال : طلّق ابنُ عمر امرأتَه حائضاً على عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم فسأل عمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : إن عبد الله بن عمر طلق امرأته وهي حائض— فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ليراجعها فردّها ، وقال : « إذا طهرت فليطلق أو يمسك » قال ابن عمر : وقرأ النبي — صلى الله عليه وسلم : (ياأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن فى قُبُل عدتهن(٢) .

وقال الأعمش ، عن مالك بن الحارث ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن عبد الله فى قوله : (فطلقوهن لعدتهن) قال : الطهر من غير جماع(٣) . وروى عن ابن عمر ، وعطاء ، ومجاهد ، والحسن ، وابن سيرين ، وقتادة ، وميمون بن مهران ، ومقاتل بن حيان مثل ذلك : وهو رواية عن عكرمة ، والضحاك .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : (فطلقوهن لعدتهن) قال : لا يطلقها وهى حائض ولا فى طهر قد جامعها فيه ، ولكن : تتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة(٤) .

وقال عكرمة (فطلقوهن لعدتهن) ، العدة : الطهر ، والقرء الحيضة، أن يطلقها حبلى مستبينا حملها ، ولا يطلقها وقد طاف عليها ، ولا يدرى حبلى هى أم لا(٥) .

ومن هاهنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه إلى طلاق سنة وطلاق بدعة ، فطلاق السنة : أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، أو حاملا قد استبان حملها . والبدْعى : هو أن يطلقها فى حال الحيض ، أو فى طهر قد جامعها فيه ، ولا يدرى أحملت أم لا ؟ وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة ، وهو طلاق الصغيرة والآيسة ، وغير المدخول بها . وتحرير الكلام فى ذلك وما يتعلق به مستقصى فى كتب الفروع ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقوله : (وأحصوا العدة) ، أى : احفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها ، لئلا تطول العدة على المرأة فتمتنع من الأزواج . (واتقوا الله ربكم) ، أى : فى ذلك .

وقوله : (لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن) أى : فى مدة العدة لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه ، فليس للرجل أن يخرجها ، ولا يجوز لها أيضاً الخروج لأنها معتقلة(٦) لحق الزوج أيضاً :

---

(١) أخرجوه فى كتاب الطلاق ، انظر سنن أبي داود ، باب « طلاق السنة » . وتحفة الأحوذى ، باب « ما جاء فى طلاق السنة » ، الحديث ١١٨٥ ، ١١٨٦ : ٣٣٩/٤ — ٣٤٢ . والنسائى ، باب « ما يفعل إذا طلق تطليقة وهى حائض » : ١٤٠/٦ — ١٤١ . وابن ماجه ، باب « الحامل كيف تطلق » ، الحديث ٢٠٢٣ : ٦٥٢/١ . ومسند الإمام أحمد عن عمر رضى الله عنه : ٤٣/١—٤٤ ، وعن عبد الله بن عمر : ٢٦/٢ ، ٤٣ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٨—٥٩ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ — ٨١ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٤٥—١٤٦ . وعن جابر بن عبد الله : ٣٨٦/٣ .

(٢) ما بين القوسين عن مسلم .

(٣) مسلم ، كتاب الطلاق ، باب « تحريم طلاق الحائض » : ١٨٣/٤ .

(٤) تفسير الطبرى : ٨٣/٢٨ .

(٥) تفسير الطبرى : ٨٥/٢٨ .

(٦) فى المخطوطة : « متعلقة بحق » ، والمثبت من الطبعات السابقة .

وقوله : (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) ، أى لا يخرجن من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة ، فتخرج من المنزل ، والفاحشة المبينة تشمل(١) الزنا ، كما قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، والشعبى ، والحسن ، وابن سيرين ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وأبو قلابة ، وأبو صالح ، والضحاك ، وزيد بن أسلم ، وعطاء الخراسانى ، والسدى ، وسعيد بن أبى هلال ، وغيرهم . وتشمل ما إذا نشزت المرأة أو بذت(٢) على أهل الرجل وآذتهم فى الكلام والفعال ، كما قاله أبى بن كعب ، وابن عباس(٣) ، وعكرمة ، وغيرهم .

وقوله : (وتلك حدود الله) ، أى : شرائعه ومحارمه ، (ومن يتعد حدود الله) ، أى : يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها ، (فقد ظلم نفسه) ، أى : بفعل ذلك .

وقوله : (لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) ، أى : إنما أبقينا المطلقة فى منزل الزوج فى مدة العدة ، لعل الزوج يندم على طلاقها ويخلق الله فى قلبه رَجْعتَها ، فيكون ذلك أيسر وأسهل .

قال الزهرى ، عن عبيد الله بن عبد الله ، عن فاطمة بنت قيس فى قوله : (لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً) ، قالت : هى الرجعة . وكذا قال الشعبى ، وعطاء ، وقتادة ، والضحاك ، ومقاتل بن حيان ، والثورى . ومن هاهنا ذهب من ذهب من السلف ومن تابعهم ، كالإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ إلى أنه لا تجب السكنى للمبتوتة (٤) وكذا المتوفى عنها زوجها ، واعتمدوا أيضاً على حديث فاطمة بنت قيس الفهرية ، حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات ، وكان غائباً عنها باليمن ، فأرسل إليها بذلك ، فأرسل إليها وكيله بشعير ـ نفقة فتسخطته فقال : والله ليس لك علينا نفقة . فأتت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « ليس لك عليه نفقة » . ولمسلم : « ولا سكنى وأمرها أن تعتد فى بيت أم شريك ، ثم قال : « تلك امرأة يغشاها أصحابى ، اعتدى عند ابن أم مكتوم ، فانه رجل أعمى تضعين ثيابك »... الحديث(٥) .

وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى بلفظ آخر ، فقال :

حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا مجالد ، حدثنا عامر قال : قدمت المدينة فأتيت فاطمة بنت قيس فحدثتنى أن زوجها طلقها على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبعثه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى سرية قالت : فقال لى أخوه : اخرجى من الدار . فقلت : إن لى نفقة وسكنى حتى يحل الأجل قال : لا . [قالت] : فأتيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت : إن فلانا طلقنى ، وإن أخاه أخرجنى ومنعنى السكنى والنفقة [فأرسل إليه(٦)] فقال « مالك ولابنة آل قيس ، قال : يا رسول الله ، إن أخى طلقها ثلاثا جميعا . قالت : فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « انظرى يابنت آل قيس ، إنما النفقة والسكنى للمرأة على زوجها ما كانت له عليها رجعة ، فاذا لم يكن له عليها رجعة فلا نفقة ولا سكنى .

---

(١) فى المخطوطة : « كثل الزنا » . والمثبت أيضاً من الطبعات السابقة .
(٢) هذا من البذاء ، وهو الفحش فى القول ، يقال : بذوت على القوم بذاء .
(٣) تفسير الطبرى : ٨٦/٢٨ .
(٤) أى : المطلقة طلاقاً بائناً لا رجعة فيه .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٤١٢/٦ . وسنن أبى داود ، كتاب الطلاق ، باب « فى نفقة المبتوتة » .
(٦) ما بين القوسين من المسند .

اخرجي فانزلي على فلانه » : ثم قال : إنه يُتحدّث إليها ، انزلي على ابن أم مكتوم ، فانه أعمى لا يراك » . . . . وذكر تمام الحديث (١) .

وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا أحمد بن عبد الله البزار التُّسْتَرِيّ حدثنا إسحاق بن إبراهيم الصواف حدثنا بكر ابن بكار ، حدثنا سعيد بن يزيد البَجلي حدثنا عامر الشعبي : أنه دخل على فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس القرشي ، وزوجها أبو عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي ، فقالت : إن أبا عمرو بن حفص أرسل إلى وهو منطلق في جيش إلى اليمن بطلاقي ، فسألت أولياءه النفقة على والسكنى ، فقالوا : ما أرسل إلينا في ذلك شيئاً ، ولا أوصانا به : فانطلقت إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقلت : يارسول الله ، إن أبا عمرو بن حفص أرسل إلى بطلاقي ، فطلبت السكنى والنفقة على ، فقال أولياؤه : لم يرسل إلينا في ذلك بشيء . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : « إنما النفقة والسكنى للمرأة إذا كان لزوجها عليها رجعة ، فاذا كانت لا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره فلا نفقة لها ولا سكنى » .

وكذا رواه النسائي(٢)، عن أحمد بن يحيى الصوفي ، عن أبي نعيم الفضل بن دُكَين ، عن سعيد بن يزيد وهو الأحمسي البَجَلي الكوفي — قال أبو حاتم الرازي : « هو شيخ ، يروى عنه (٣) » .

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾

يقول تعالى : فإذا بلغت المعتدات أجلهن ، أى : شارفن على انقضاء العدة وقاربن ذلك ، ولكن لم تفرغ العدة بالكلية ، فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها ، وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده (بمعروف) ، أى : محسناً إليها في صحبتها ، وإما أن يعزم على مفارقتها (بمعروف) أى : من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف بل يطلقها على وجه جميل وسبيل حسن .

وقوله : (وأشهدوا ذوى عدل منكم) ، أى : على الرجعة إذا عزَمتم عليها ، كما رواه أبو داود وابن ماجه ، عن عمران بن حُصَين : أنه سُئِل عن الرجل يطلق امرأته ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها فقال : طَلَّقتَ لغير سنة ، ورَجعتَ لغير سنة ، أشهِدْ على طلاقها وعلى رجعتها ، ولا تعُدْ (٤) .

وقال ابن جريج : كان عطاء يقول : (واشهدوا ذوى عدل منكم) قال : لا يجوز في نكاح ولا طلاق ولا رجاع إلا شاهدا عدل ، كما قال الله عز وجل ، إلا أن يكون من عذر .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣٧٣/٦ — ٣٧٤ .
(٢) النسائي ، كتاب الطلاق : ١٤٤/٦ .
(٣) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٧٤/١/٢ .
(٤) سنن أبي داود ، كتاب الطلاق ، باب « في نسخ المراجعة بعد التطليقات الثلاث » . وسنن ابن ماجه ، كتاب الطلاق ، باب « الرجعة » ، الحديث ٢٠٢٥ : ٦٥٢/١ .

وقوله : (ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) ، أى : هذا الذى أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة ، إنما يأتمر به من يؤمن بالله وأنه شرع هذا ، ويخاف عقاب الله فى الدار الآخرة .

ومن هاهنا ذهب الشافعى – فى أحد قوليه – إلى وجوب الإشهاد فى الرجعة ، كما يجب عنده فى ابتداء النكاح ، وقد قال بهذا طائفة من العلماء ، ومن قال بهذا يقول : إن الرجعة لا تصح إلا بالقول ليقع الإشهاد عليها .

وقوله : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب) ، أى : ومن يتق الله فيما أمره به ، وترك ما نهاه عنه ، يجعل له من أمره مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، أى : من جهة لا تخطر بباله .

قال الإمام أحمد : حدثنا ، يزيد ، أخبرنا كهمس بن الحسن ، حدثنا أبو السليل ، عن أبى ذر قال : جعل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يتلو علَىَّ هذه الآية : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً . ويرزقه من حيث لا يحتسب) ، حتى فرغ من الآية ، ثم قال : « يا أبا ذر ، لو أن الناس كلهم أخذوا بها كفتهم » . قال : فجعل يتلوها ويُرددها على حتى نعَسْت ثم قال : « يا أبا ذر ، كيف تصنع إن أخرجتَ من المدينة ؟ » . قلت إلى السَّعة والدَّعَة أنطلق، فأكون حمامة من حمام مكة ، قال، « كيف تصنع إن أخرجت من مكة » قال: قلت: إلى السعة والدّعة ، إلى الشام والأرض المقدسة . قال : « وكيف تصنع إن أخرجْتَ من الشام » . قلت : إذا – والذى بعثك بالحق – أضع سيفى على عاتقى . قال : « أوخير من ذلك ؟ » قلت : أوخير من ذلك ؟ قال : تسمع وتطيع ، وإن كان عبداً حبشياً »(١) .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن منصور الرمادى ، حدثنا يعلى بن عبيد ، حدثنا زكريا ، عن عامر ، عن شُتَير ابن شكل قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقول : إن أجمع آية فى القرآن : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) ، وإن أكثر آية فى القرآن فرجاً : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً)(٢) .

وفى المسند(٣) : حدثنى مهدى بن جعفر ، حدثنا الوليد بن مسلم، عن الحكم بن مصعب، عن محمد بن على بن عبد الله ابن عباس ، عن أبيه ، عن جده عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – « من أكثر من الاستغفار جعل الله [له] من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب(٤) » .

وقال على ابن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً) ، يقول : ينجيه من كل كرب فى الدنيا والآخرة ، (ويرزقه من حيث لا يحتسب(٥)) .

وقال الربيع بن خثيم (يجعل له مخرجاً) ، أى : من كل شىء ضاق على الناس(٦) .

[وقال عكرمة : من طلق كما أمره الله ، يجعل له مخرجاً . وكذا روى عن ابن عباس ، والضحاك(٧)] .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/١٧٨ – ١٧٩ .

(٢) انظر تفسير الآية التسعين من سورة النحل : ٤/٥١٥ ، وتفسير الطبرى : ١٤/١٠٩ .

(٣) قال عبد الله بن الإمام أحمد : « وجدت فى كتاب أبى بخط يده : حدثنا مهدى ... » .

(٤) مسند الإمام أحمد : ١/٢٤٨ .

(٥) تفسير الطبرى : ٢٨/٨٩ .

(٦) تفسير الطبرى : ٢٨/٩٠ .

(٧) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة .

وقال ابن مسعود ، ومسروق : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً) ، يعلم أن الله إن شاء منع ، وإن شاء أعطى (من حيث لا يحتسب) ، أي : من حيث لا يدري .

وقال قتادة : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً) ، أي : من شبهات الأمور والكرب عند الموت ، (ويرزقه من حيث لا يحتسب) ، ومن حيث لا يرجو أو لا يأمل .

وقال السدي : (ومن يتق الله) : يطلق للسنة ، ويراجع للسنة ، وزعم أن رجلا من أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقال له « عوف بن مالك الأشجعي » كان له ابن ، وأن المشركين أسروه ، فكان فيهم ، وكان أبوه يأتي رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيشكو إليه مكان ابنه وحاله التي هو بها وحاجته ، فكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يأمره بالصبر ، ويقول له : « إن الله سيجعل لك فرجاً » . فلم يلبث بعد ذلك إلا يسيراً أن انفلت ابنه من أيدي العدو فمر بغنم من أغنام العدو ، فاستاقها فجاء بها إلى أبيه وجاء معه [بغنى[1]] قد أصابه من الغنم ، فنزلت هذه الآية : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب[2]) .

رواه ابن جرير ، وروى أيضاً من طريق سالم بن أبي الجعد مرسلا نحوه[3] .

وقال الإمام أحمد ، حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن عبد الله بن عيسى ، عن عبد الله بن أبي الجعد ، عن ثوبان قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « إن العبد ليُحْرَمُ الرزقَ بالذنب يصيبُه ، ولا يرد القدَر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر[4] » .

[ورواه النسائي وابن ماجه[5] ، من حديث سفيان — وهو الثوري — به[6]] .

وقال محمد بن إسحاق : جاء مالك الأشجعي إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال له : أسر ابني عوف . فقال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « أرسل إليه أن رسول الله يأمرك أن تكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله » ، وكانوا قد شدوه بالقِد[7] فسقط القِد عنه ، فخرج ، فاذا هو بناقة لهم فركبها ، وأقبل فإذا بسَرْح[8] القوم الذين كانوا شدوه فصاح بهم ، فاتبع أولها آخرها ، فلم يفجأ أبويه إلا وهو ينادي بالباب ، فقال أبوه : عوف ورب الكعبة . فقالت أمه : واسوأتاه . وعوف [كيف يقدم[9]] لما هو فيه من القِد — فاستبقا الباب والخادم ، فاذا عوف قد ملأ الفناء إبلا ، فقص على أبيه أمره وأمر الإبل ، فقال أبوه : قفا حتى آتي رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأسأله عنها . فأتى

---

(١) ما بين القوسين عن تفسير الطبري ، ومكانه بياض في المخطوطة .
(٢) تفسير الطبري : ٢٨/٨٩ .
(٣) تفسير الطبري : ٢٨/٨٩ — ٩٠ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٥/٢٧٧ ، وانظر : ٥/٢٨٠ ، ٢٨٢ .
(٥) سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب « العقوبات » ، الحديث ٤٠٢٢ : ٢/١٣٣٤ .
(٦) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة .
(٧) القد — بكسر القاف — : وتر القوس .
(٨) السرح : الماشية .
(٩) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، ومكانه بياض في المخطوطة .

رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فأخبره بخبر عوف وخبر الإبل ، فقال له رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم : « اصنع بها ما أحببت ، وما كنت صانعاً بمالك » ، ونزل : (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً . ويرزقه من حيث لا يحتسب) ، رواه ابن أبي حاتم(١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق (٢) ، حدثنا إبراهيم بن الأشعث حدثنا الفضيل بن عياض ، عن هشام بن الحسن (٣) ، عن عمران بن حُصَين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من انقطع إلى الله كفاه الله كل مَئُونة ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا وَكَلَه إليها » .

وقوله : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) ــ قال الإمام أحمد :

حدثنا يونس ، حدثنا ليث ، حدثنا قيس بن الحجاج ، عن حَنَش الصنعاني ، عن عبد الله بن عباس : أنه حدثه أنه ركب خلف رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يوما ، فقال له رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « يا غلام ، إني معلمك كلمات : [احفظ الله يحفظك] ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف (٤) » .

وقد رواه الترمذي من حديث الليث بن سعد ، وابن لهيعة ، به . وقال : « حسن صحيح (٥) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا بشير بن سلمان ، عن سيار أبي الحكم ، عن طارق بن شهاب ، عن عبد الله ــ هو ابن مسعود ــ قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « من نزل به حاجة فأنزلها بالناس كان قَمِناً أن لا تُسَهَّل حاجته ، ومن أنزلها بالله أتاه الله برزق عاجل ، أو بموت آجل (٦) » .

ثم رواه عن عبد الرزاق ، عن سفيان ، عن بشير ، عن سيار أبي حمزة ، ثم قال : وهو الصواب ، وسيار أبو الحكم لم يحدث عن طارق (٧) .

وقوله : (إن الله بالغ أمره) ، أي : منفذ قضاياه وأحكامه في خلقه بما يريده ويشاؤه ، (قد جعل الله لكل شيء قدرا) ، كقوله : (وكل شيء عنده بمقدار (٨)) .

---

(١) انظر أسد الغابة ، الترجمة ٤٦٢٧ : ٥/٤١ ، بتحقيقنا .
(٢) في المخطوطة : « بن سفيان » . والمثبت عن الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٤/١/٢٨ .
(٣) كذا ، ولم نجد هشاماً هذا ، ولعله هشام بن حسان ، أو هشام بن حبيش المترجم له في الجرح والتعديل : ٤/٢/٥٣ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ١/٢٩٣ . وانظر أيضاً : ١/٣٠٣ ، ٣٢٠٧ .
(٥) تحفة الأحوذي ، أبواب صفة القيامة ، الحديث ٢٦٣٥ : ٧/٢١٩ ـ ٢٢٠ .
(٦) مسند الإمام أحمد : ١/٤٤٢ .
(٧) المرجع السابق ، والصفحة نفسها .
(٨) سورة الرعد ، آية : ٨ .

وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا (٤) ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا (٥)

يقول تعالى مبينا لعدة الآيسة — وهي التي قد انقطع عنها الحيض لكبرها — : أنها ثلاثة أشهر ، عوضاً عن الثلاثة قروء في حق من تحيض ، كما دلت على ذلك آية « البقرة (١) » ، وكذا الصغار اللائي لم يبلغن سن الحيض أن عدتهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر ، ولهذا قال : (واللائي لم يحضن) .

وقوله : (إن ارتبتم) فيه قولان :

أحدهما — وهو قول طائفة من السلف ، كمجاهد ، والزهري ، وابن زيد — أي : إن رأين دما وشككتم في كونه حيضا أو استحاضة ، وارتبتم فيه .

والقول الثاني : إن ارتبتم في حكم عدتهن ، ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر . وهذا مروى ، عن سعيد بن جبير ، وهو اختيار ابن جرير ، وهو أظهر في المعنى ، واحتجّ عليه بما رواه عن أبي كريب وأبي السائب قالا : حدثنا ابن ادريس ، أخبرنا مطرف ، عن عمرو بن سالم قال : قال أبي بن كعب : يا رسول الله ، إن عدداً من عدد النساء لم تذكر في الكتاب : الصغار والكبار وأولات الأحمال . قال : فأنزل الله عز وجل : (واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ، واللائي لم يحضن ، وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن (٢)) .

ورواه ابن أبي حاتم بأبسط من هذا السياق فقال : حدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن المغيرة ، أخبرنا جرير ، عن مُطرِّف ، عن عمر (٣) بن سالم ، عن أبي بن كعب قال : قلت لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — : إن ناسا من أهل المدينة لما أنزلت هذه الآية التي في « البقرة » في عدة النساء قالوا : لقد بقي من عدة النساء عددٌ لم يُذْكَرْنَ في القرآن : الصغار والكبار اللائي قد انقطع عنهن الحيض ، وذوات الحمل . قال : فأنزلت التي في النساء القصرى : (واللائي يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر . [واللائي لم يحضن] .

وقوله : (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) ، يقول تعالى : ومن كانت حاملا فعدتها بوضعه ، ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفُوَاق ناقة ، في قول جمهور العلماء من السلف والخلف ، كما هو نص هذه الآية الكريمة ، وكما وردت به السنة النبوية . وقد رُوِي عن علي ، وابن عباس — رضي الله عنهم — أنهما ذهبا في المتوفى عنها زوجها أنها تعتد بأبعد الأجلين من الوضع أو الأشهر ، عملا بهذه الآية الكريمة ، والتي في سورة « البقرة » : وقد قال البخاري :

حدثنا سعد بن حفص ، حدثنا شيبان ، عن يحيى قال : أخبرني أبو سلمة قال : جاء رجل إلى ابن عباس ، — وأبو هريرة جالس — فقال : أفتني في امرأة ولدت بعد زوجها بأربعين ليلة . فقال ابن عباس : آخر الأجلين . قلت أنا : (وأولات

---

(١) هي الآية ٢٢٨ . انظر : ١/٣٩٦ – ٣٩٨ .

(٢) تفسير الطبري : ٢٨/٩١ .

(٣) عمر بن سالم ، ويقال عمرو — بفتح العين — وهو أبو عثمان الأنصاري . يروى عنه مطرف بن طريف . انظر الخلاصة ، كتاب الكنى . والمطالب العالية ، بزوائد المسانيد الثمانية : ٣/٢٨٩ .

الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) : قال أبو هريرة : أنا مع ابن أخى . يعنى أبا سلمة ، فأرسل ابن عباس غلامه كريبا [إلى أم سلمة] يسألها ، فقالت : قُتل زوج سُبَيعة الأسلمية وهى حبلى ، فوضعت بعد موته بأربعين ليلة ، فخطبت ، فأنكحها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكان أبو السنابل فيمن خطبها(١).

هكذا أورد البخارى هذا الحديث هاهنا مختصرا . وقد رواه هو ومسلم وأصحاب الكتب مطولا من وجوه (٢) أخر ، وقال الإمام أحمد :

حدثنا حماد بن أسامة ، أخبرنا هشام ، عن أبيه ، عن المسْور بن مَخْرَمَةَ أن سُبَيْعة الأسلمية تُوُفى عنها زوجُها وهى حامل ، فلم تمكث إلا ليالى حتى وضعت ، فلما تَعلَّت (٣) من نفاسها خُطبت ، فاستأذنت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى النكاح ، فأذن لها أن تَنكح ، فنُكحت (٤).

ورواه البخارى فى صحيحه ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه ــ من طرق عنها (٥) ، كما قال مسلم ابن الحجاج : .

حدثنى أبو الطاهر : أخبرنا ابن وهب ، حدثنى يونس بن يزيد ، عن ابن شهاب ، حدثنى عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة : أن أباه كتب إلى عمر بن عبد الله بن الأرقم الزهرى يأمره أن يدخل على سُبَيعة بنت الحارث الأسلمية فيسألها عن حديثها وعما قال لها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حين استفتته . فكتب عُمر بن عبد الله يخبره أن سبيعة [أخبرته] أنها كانت تحت سَعد بن خَولة ــ وكان ممن شهد بدرا ــ فتوفى عنها فى حجة الوداع وهى حامل ، فلم تَنشَب أن وضعت حملها بعد وفاته ، فلما تَعلَّت من نفاسها تجمّلت للخطاب ، فدخل عليها أبو السنابل بن بَعكك فقال لها : مالى أراك متجملة ؟ لعلك تَرجين النكاح ، إنك والله ما أنت بناكح حتى تَمرّ عليك أربعة أشهر وعشرٌ . قالت سُبَيعة : فلما قال لى ذلك جَمعتُ علىّ ثيابى حين أمسيتُ فأتيتُ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فسألته عن ذلك ، فأفتانى بأنى قد حَللتَ حين وضعتُ حملى ، وأمرنى بالتزوج إن بدالى .

هذا لفظ مسلم(٦) . ورواه البخارى مختصرا(٧) ، ثم قال البخارى بعد رواية الحديث الأول عند هذه الآية :

---

(١) البخارى ، تفسير سورة الطلاق : ١٩٣/٦-١٩٤ .

(٢) البخارى ، كتاب المغازى : ١٠٢/٥ - ١٠٣ . ومسلم ، كتاب الطلاق ، باب « انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها وغيرها بوضع الحمل » : ٢٠٠/٤ - ٢٠٢ . والموطأ ، كتاب الطلاق ، باب « عدة المتوفى عنها زوجها إذا كانت حاملا » . وسنن أبى داود ، كتاب الطلاق ، باب « فى عدة الحامل » . والنسائى ، كتاب الطلاق ، باب « عدة الحامل المتوفى عنها زوجها » : ١٩٠/٦ - ١٩٧ . وابن ماجه ، كتاب الطلاق ، باب « الحامل المتوفى عنها زوجها ، إذا وضعت حلت للأزواج » ، الحديث ٢٠٢٧ - ٢٠٢٨ : ٦٥٣/١ - ٦٥٤ .

(٣) أى : طهرت .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٣٢٧/٤ .

(٥) انظر الإحالات المتقدمة . وانظر أيضاً البخارى ، كتاب الطلاق ، باب (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) : ٧٣/٧ .

(٦) مسلم ، كتاب الطلاق ، باب « انقضاء عدة المتوفى عنها زوجها » : ٢٠٠/٤ - ٢٠١ .

(٧) انظر الإحالات المتقدمة .

«وقال سليمان بن حرب وأبو النعمان : حدثنا حماد بن زيد ، عن أيوب ، عن محمد – هو ابن سيرين – قال : كنت في حلقة فيها عبد الرحمن بن أبي ليلى – رحمه الله – وكان أصحابه يعظمونه ، فذكر آخر الأجلين ، فحدّثتُ بحديث سُبَيعة بنت الحارث عن عبد الله بن عتبة ، قال : فَضَمَّزَ لِي[١] بعض أصحابه ، قال محمد : ففطنت له فقلت : إني لجريءٌ أن أكذبَ على عبد الله وهو في ناحية الكوفة . قال : فاستحيا وقال : لكن عَمَّه لم يقل[٢] ذلك . فلقيت أبا عطية مالك بن عامر فسألته . فذهب يحدثني بحديث سُبَيعة ، فقلت : هل سمعت عن عبد الله فيها شيئا ؟ فقال : كنا عند عبد الله فقال : أتجعلون عليها التغليظ ، ولا تجعلون عليها الرخصة ؟ نزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى : (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن[٣]) .

ورواه ابن جرير ، من طريق سفيان بن عُيَينة وإسماعيل بن علية عن أيوب به مختصرا[٤] : ورواه النسائي في التفسير عن محمد بن عبد الأعلى ، عن خالد بن الحارث ، عن ابن عون ، عن محمد بن سيرين ، فذكره[٥] .

وقال ابن جرير : حدثني زكريا بن يحيى بن أبان المصري ، حدثنا سعيد بن أبي مريم ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثني ابن شُبْرُمة الكوفي ، عن إبراهيم ، عن علقمة بن قيس أن عبد الله بن مسعود قال : من شاء لاعنته ، مانزلت (وأولاتُ الأحمال أجلهنّ أن يضعن حملهن) إلا بعد آية المتوفى عنها زوجها ; قال : وإذا وضعت المتوفى عنها زوجها فقد حلت . يريد بآية المتوفى عنها زوجها : (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا[٤]) ;

وقد رواه النسائي من حديث سعيد بن أبي مريم ، به[٦] : ثم قال ابن جرير :

حدثنا أحمد بن منيع ، حدثنا محمد بن عبيد ، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد ، عن الشعبي قال : ذُكِرَ عند ابن مسعود آخر الأجلين ، فقال : من شاء قاسمته بالله أن هذه الآية التي في النساء القصرى نزلت بعد الأربعة الأشهر والعشر ثم قال : أجل الحامل أن تضع مافي بطنها[٤] .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطي ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن أبي الضحى ، عن مسروق قال : بلغ ابن مسعود أن عليا – رضي الله عنه – يقول : آخر الأجلين : فقال : من شاء لاعنته ، إن التي في النساء القُصرَى نزلت بعد البقرة : (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) .

ورواه أبو داود وابن ماجه ، من حديث أبي معاوية ، عن الأعمش[٧] .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثني محمد بن أبي بكر المقدّمي ، أخبرنا عبد الوهاب الثقفي ، حدثني المثنى ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عمرو ، عن أبي بن كعب قال : قلت للنبي صلى الله عليه وسلم : (وأولات

---

(١) أي : أسكتني .
(٢) يعني عبد الله بن مسعود لا يقول بأبعد الأجلين .
(٣) البخاري ، تفسير سورة الطلاق : ١٩٤/٦ .
(٤) تفسير الطبري : ٩٢/٢٨ .
(٥) وهو في النسائي في كتاب الطلاق ، باب «عدة الحامل المتوفى عنها زوجها» : ١٩٦/٦ – ١٩٧ .
(٦) سنن النسائي ، في الكتاب والباب المتقدمين : ١٩٧/٦ .
(٧) سنن أبي داود ، كتاب الطلاق ، باب «في عدة الحامل» . وسنن ابن ماجه ، كتاب الطلاق ، باب «الحامل المتوفى عنها زوجها ...» ، الحديث ٢٠٣٠ : ٦٥٤/١ .

الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) ، المطلقة ثلاثا أو المتوفى(١) عنها ؟ فقال : هي المطلقة ثلاثا والمتوفى عنها(٢) .

هذا حديث غريب جدا ، بل منكر ؛ لأن في إسناده المثنى بن الصباح ، وهو متروك الحديث بمرة ، ولكن رواه ابن أبي حاتم بسند آخر ، فقال :

حدثنا محمد بن داود السمناني ، حدثنا عمرو بن خالد – يعني الحراني – حدثنا ابن لهيعة ، عن عمرو بن شعيب ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبي بن كعب : أنه لما نزلت هذه الآية قال لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – : لا أدرى أمشتركة أم مبهمة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أية آية ؟ » . قال : (أجلهن أن يضعن حملهن) ، المتوفى عنها والمطلقة ؟ قال : نعم .

وكذا رواه ابن جرير ، عن أبي كريب ، عن موسى بن داود ، عن ابن لهيعة ، به . ثم رواه عن أبي كريب أيضا ، عن مالك بن إسماعيل ، عن ابن عيينة ، عن عبد الكريم بن أبي المخارق أنه حدث عن أبي بن كعب قال : سألت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن : (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) ، قال : « أجل كل حامل أن تضع ما في بطنها(٣) » .

عبد الكريم هذا ضعيف ، ولم يدرك أبيًّا .

وقوله : (ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا) ، أي : يسهل له أمره ، وييسره عليه، ويجعل له فرجا قريبا ومخرجا عاجلا .

ثم قال : (ذلك أمر الله أنزله إليكم) ، أي : حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسوله صلى الله عليه وسلم ، (ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ، ويعظم له أجرا) ، أي : يذهب عنه المحذور ، ويجزل له الثواب على العمل اليسير .

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

يقول تعالى آمرا عباده إذا طلق أحدهم المرأة أن يُسكنها في منزل حتى تنقضي عدتها ، فقال : (أسكنوهن من حيث سكنتم) ، أي : عندكم ، (من وجدكم) ، قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : يعني سعتكم(٤) . حتى قال قتادة : وإن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه .

---

(١) لفظ المسند : « المطلقة ثلاثا والمتوفى عنها ؟ قال : هي المطلقة ثلاثا والمتوفى عنها » .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٥/١١٦ .

(٣) تفسير الطبري : ٢٨/٩٣ .

(٤) تفسير الطبري : ٢٨/٩٤ .

وقوله : (ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن) ، قال مقاتل بن حيان : يعنى يضاجرها لتفتدى منه بمالها أو تخرج من مسكنه .

وقال الثورى ، عن منصور ، عن أبى الضّحى : (ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن) ، قال : يطلقها فإذا بقى يومان راجعها .

وقوله : (وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن) ، قال كثير من العلماء منهم ابن عباس ، وطائفة من السلف ، وجماعات من الخلف : هذه فى البائن ، إن كانت حاملا أنفق عليها حتى تضع حملها ، قالوا : بدليل أن الرجعية تجب نفقتها سواء كانت حاملا أو حائلا .

وقال آخرون : بل السياق كله فى الرجعيات ، وإنما نص على الإنفاق على الحامل وإن كانت رجعية ، لأن الحمل تطول مدته غالبا ، فاحتيج إلى النص على وجوب الإنفاق إلى الوضع ، لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة .

واختلف العلماء : هل النفقة لها بواسطة الحمل ، أو للحمل وحده ؟ على قولين منصوصين عن الشافعى وغيره ، ويتفرع عليها مسائل مذكورة فى علم الفروع .

وقوله : (فإن أرضعن لكم) ، أى : إذا وضعن حملهن وهن طوالق ، فقد بنّ بانقضاء عدتهن ، ولها حينئذ أن ترضع الولد ، ولها أن تمتنع منه ، ولكن بعد أن تغذيه باللبأ — وهو : باكورة اللبن الذى لا قوام للولد غالبا إلا به — فإن أرضعت استحقت أجرة مثلها ، ولها أن تعاقد أباه أو وليه على ما يتفقان عليه من أجرة . ولهذا قال تعالى: (فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن) .

وقوله : (وائتمروا بينكم بمعروف) ، أى : ولتكن أموركم فيما بينكم بالمعروف ، من غير إضرار ولا مضارة ، كما قال فى سورة البقرة : (لا تضار والدة بولدها ، ولا مولود له بولده [(١)]) .

وقوله : (وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى) ، أى : وإن اختلف الرجل والمرأة ، فطلبت المرأة فى أجرة الرضاع كثيراً ولم يجبها الرجل إلى ذلك ، أو بذل الرجل قليلا ولم توافقه عليه ، فليسترضع [(٢)] له غيرها . فلو رضيت الأم بما استؤجرت عليه الأجنبية فهى أحق بولدها .

وقوله : (لينفق ذو سعة من سعته) ، أى : لينفق على المولود والده، أو وليه ، بحسب قدرته ، (ومن قُدر عليه رزقه ، فلينفق مما آتاه الله ، لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها) ، كقوله : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها [(٣)]) .

روى ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا حكام ، عن أبى سنان قال : سأل عمر بن الخطاب عن أبى عبيدة ، فقيل : إنه يلبس الغليظ من الثياب ، ويأكل أخشن الطعام . فبعث إليه بألف دينار ، وقال للرسول : انظر ما يصنع بها

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٣٣ .

(٢) فى المخطوطة : « فلترضع » . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٣) سورة البقرة ، آية : ٢٨٦ .

إذا هو أخذها ، فما لبث أن لبس اللين من الثياب ، وأكل أطيب الطعام ، فجاء الرسول فأخبره ، فقال : رحمه الله ، تأول هذه الآية : (لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله (١)) .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير : حدثنا هاشم بن مزيد (٢) الطبراني : حدثنا محمد بن إسماعيل ابن عياش ، أخبرني أبي ، أخبرني ضمضم بن زرعة ، عن شُرَيح بن عبيد ، عن (٣) أبي مالك الأشعري ـ واسمه الحارث ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ثلاثة نفر . كان لأحدهم عشرة دنانير ، فتصدق منها بدينار ، وكان لآخر عشر أواق ، فتصدق منها بأوقية . وكان لآخر مائة أوقية ، فتصدق منها بعشر أواق . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هم في الأجر (٤) سواء ، كل قد تصدق بعشر ماله ، قال الله تعالى : (لينفق ذو سعة من سعته) » .

هذا حديث غريب من هذا الوجه .

وقوله : (سيجعل الله بعد عسر يسرا) : وعد منه تعالى ، ووعده حق ، وهو لا يخلفه ، وهذه كقوله تعالى : (فإن مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا (٥)) .

وقد روى الإمام أحمد حديثا يحسن أن نذكره هاهنا ، فقال : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا عبد الحميد بن بهرام ، حدثنا شهر بن حوشب قال : قال أبو هريرة : بينا رجل وامرأة له في السلف الخالي لا يقدران على شيء ، فجاء الرجل من سفره ، فدخل على امرأته جائعا قد أصاب (٦) مَسْغَبَةً شديدة ، فقال لامرأته : عندك شيء ؟ قالت : نعم ، أبشر ، أتاك (٧) رزق الله . فاستحثها ، فقال : ويحك ! ابتغي إن كان عندك شيء . قالت : نعم ، هُنَيهة ـ ترجو رحمة الله ـ حتى إذا طال عليه الطوى (٨) قال : ويحك ! قومي فابتغي إن كان عندك شيء فائتيني به ، فإني قد بلغتُ (٩) وجَهِدتُ . فقالت : نعم ، الآن ينضج التنور فلا تعجل . فلما أن سكت عنها ساعة وتحيّنت أن يقول لها ، قالت من عند نفسها : لو قمتُ فنظرتُ إلى تَنّوري ؟ فقامت فنظرت إلى تنورها ملآن جنوب الغنم ، ورحييها تطحنان ، فقامت إلى الرحى فنفضتها ، واستخرجت ما في تنورها من جنوب الغنم .

---

(١) تفسير الطبري : ٢٨/٩٦ .

(٢) في المخطوطة : « مرثد » ، بالراء والثاء . وقد مر مثله من قريب . ولم يتهيأ لنا ضبطه ، وما أثبتناه عن المعجم الصغير للطبراني : ٢/١٢٦ .

(٣) في المخطوطة : « بن أبي مالك » . والصواب ما أثبتناه ، انظر أسد الغابة ، ترجمة الحارث بن الحارث الأشعري : ١/٣٨١ ـ ٣٨٢ ، بتحقيقنا .

(٤) في المخطوطة : « في الآخرة » . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٥) سورة الشرح ، آية : ٥ ـ ٦ .

(٦) في المسند : « أصابته » .

(٧) في المخطوطة : « أتاك رزق » . والمثبت عن المسند ، على أن فيه : « آتاك » .

(٨) في المخطوطة : « الطول » . والمثبت عن المسند . والطوى : خلو البطن .

(٩) أي : جهدت ، فالعطف عطف تفسير .

قال أبو هريرة : فو الذى نفس أبى القاسم بيده هو (١) قول محمد – صلى الله عليه وسلم – : « لو أخذت مافى رَحْيَيْها ولم تنفضها لطحنتها إلى يوم القيامة (٢) » .

وقال فى موضع آخر : حدثنا أبو عامر ، حدثنا أبو بكر ، عن هشام ، عن محمد – هو ابن سيرين – عن أبى هريرة قال : دخل رجل على أهله ، فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البَرِّيَّة ، فلما رأت امرأته قامت إلى الرحى فوضعتها ، وإلى التنور فسَجَرته (٣) ، ثم قالت : اللهم ارزقنا . فنظرت ، فاذا الجفنة قد امتلأت ، قال : وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئا ، قال : فرجع الزوج قال : أصبتم بعدى شيئا ؟ قالت امرأته : نعم ، من ربنا . قام (٤) إلى الرحى ، فذكر ذلك للنبى – صلى الله عليه وسلم – فقال النبى – صلى الله عليه وسلم – : « أما إنه لو لم ترفعها، لم تزل تدور إلى يوم القيامة (٥) » .

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾

يقول تعالى متوعدا لمن خالف أمره ، وكذب رسله ، وسلك غير ما شرعه – ومخبرا عما حل بالأمم السالفة بسبب ذلك، فقال : (وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله) ، أى: تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله ، (فحاسبناها حسابا شديداً ، وعذبناها عذاباً نكراً) ، أى : منكراً فظيعا .

(فذاقت وبال أمرها) ، أى : غبّ مخالفتها ، وندموا حيث لا ينفع الندم ، (وكان عاقبة أمرها خسرا . أعد الله لهم عذابا شديدا) ، أى : فى الدار الآخرة ، مع ما عَجَّل لهم فى الدنيا .

ثم قال بعد ما قَصّ من خبر هؤلاء : (فاتقوا الله يا أولى الألباب) ، أى : الأفهام المستقيمة ، لا تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم يا أولى الألباب ، (الذين آمنوا) ، أى : صدقوا بالله ورسله ، (قد أنزل الله إليكم ذكراً) ، يعنى القرآن . كقوله : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون (٦)) .

---

(١) فى المسند : « عن قول » .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٢/٤٢١ .
(٣) أى : أحمته .
(٤) كذا فى المسند ، وفى المخطوطة دون نقط القاف .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٢/٥١٣ .
(٦) سورة الحجر ، آية : ٩ .

وقوله : (رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات) ، قال بعضهم : (رسولا) منصوب على أنه بدل اشتمال (١) وملابسة ، لأن الرسول هو الذى بلغ الذكر .

وقال ابن جرير : الصواب أن الرسول ترجمة (٢) عن الذكر ، يعنى تفسيراً له (٣) ، ولهذا قال : (رسولا يتلو عليكم آيات الله مبينات) ، أى : فى حال كونها بينة واضحة جلية (ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور) ، كقوله : (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور (٤)) وقال تعالى : (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور (٥)) ، [أى : من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم . وقد سمى الله تعالى الوحى الذى أنزله نوراً ؛ لما يحصل به من الهدى ، كما سماه روحا ؛ لما يحصل به من حياة القلوب ، فقال تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط (٦) مستقيم] (٧) .

وقوله : (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا ، يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، قد أحسن الله له رزقا) : قد تقدم تفسير مثل هذا غير مرة ، بما أغنى عن إعادته .

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

يقول تعالى مخبرا عن قدرته التامة وسلطانه العظيم ، ليكون ذلك باعثا على تعظيم ما شرع من الدين القويم : (الله الذى خلق سبع سموات) ، كقوله إخبارا عن نوح أنه قال لقومه : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا (٨)) وقال تعالى : (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن (٩)) .

وقوله : (ومن الأرض مثلهن) ، أى : سبعا أيضا ، كما ثبت فى الصحيحين : « من ظلم قيد شبر من الأرض

---

(١) المعروف أن بدل الاشتمال هو : ما دل على معنى اشتمل عليه متبوعه ، نحو : أعجبنى محمد علمه . ويكون متصلا بضمير يرجع إلى المبدل منه ، وما هنا لا يتحقق فيه ضابط بدل الاشتمال .
(٢) الترجمة والتبيين من مصطلحات الكوفيين يعنون به ما يسمى عند البصريين بالبدل .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٨/٩٨ .
(٤) سورة ابراهيم ، آية : ١ .
(٥) سورة البقرة ، آية : ٢٥٧ .
(٦) سورة الشورى ، آية : ٥٢ .
(٧) ما بين القوسين المعقوفين ساقط من مخطوطة الأزهر والمثبت عن الطبعات السابقة .
(٨) سورة نوح ، آية : ١٥ .
(٩) سورة الإسراء ، آية : ٤٤ .

طُوِّقه من سبع أرضين (١) » ؛ وفي صحيح البخارى : « خُسِف به إلى سبع أرضين » ؛ وقد ذُكرت طُرقه وألفاظه وعزوه فى أول « البداية (٢) والنهاية » عند ذكر خلق الأرض ، ولله الحمد والمنة .

ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم ، فقد أبعد النّجعة ، وأغرق فى النزع ، وخالف القرآن والحديث بلا مستند ؛ وقد تقدم فى « سورة الحديد » عند قوله : (هو الأول والآخر والظاهر والباطن) ذكر الأرضين السبع ، وبعد ما بينهن ، وكثافة كل واحدة منهن خمسمائة عام (٣) . وهكذا قال ابن مسعود وغيره ، وكذا الحديث الآخر : « ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن ، والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن فى الكرسى ، إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة (٤) » .

وقال ابن جرير : حدثنا عمرو بن على ، حدثنا وكيع ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم بن مُهَاجِر ، عن مجاهد ، عن ابن عباس فى قوله : (سبع سموات ومن الأرض مثلهن) ، قال : لو حدثتُكم بتفسيرها لكفرتم ، وكفركم تكذيبكم بها (٥) .

وحدثنا ابن حميد ، حدثنا يعقوب بن عبد الله بن سعد القُمّى الأشعرى ، عن جعفر بن أبى المغيرة الخزاعى ، عن سعيد بن جبير قال : قال رجل لابن عباس : (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) ... الآية ، فقال ابن عباس : ما يؤمنك إن أخبرتك (٦) بها فتكفر .

وقال ابن جرير ، حدثنا عمرو بن على ومحمد بن المثنى قالا : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عمرو بن مُرّة ، عن أبى الضحى ، عن ابن عباس فى هذه الآية : (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) — قال عمرو : قال : فى كل أرض مثل إبراهيم ، ونحو ما على الأرض من الخلق . وقال ابن المثنى فى حديثه : فى كل سماء إبراهيم (٧) .

وقد روى البيهقى فى كتاب « الأسماء والصفات » هذا الأثر عن ابن عباس بأبسط من هذا ، فقال : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، وحدثنا أحمد بن يعقوب ، حدثنا عبيد بن غنام (٨) النخعى ، أخبرنا على بن حكيم ، حدثنا شريك ، عن عطاء ابن السائب ، عن أبى الضحى ، عن ابن عباس أنه قال : (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) ، قال : سبع أرضين ، فى كل أرض نبى كنبيكم ، وآدم كآدم ، ونوح كنوح ، وإبراهيم كإبراهيم ، وعيسى كعيسى .

---

(١) البخارى ، كتاب المظالم ، باب « إثم من ظلم شيئا من الأرض » : ٣/١٧٠ – ١٧١ . وكتاب بدء الخلق ، باب « ما جاء فى سبع أرضين » : ٤/١٢٩ – ١٣٠ . ومسلم ، كتاب البيوع ، باب « تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها » : ٥/٥٧ – ٥٩ .

(٢) انظر البداية والنهاية ، « ما جاء فى سبع أرضين » : ١/١٩ – ٢١ .

(٣) انظر : ٨/٣٢ – ٣٣ .

(٤) انظر تفسير الآية ٢٥٥ من سورة البقرة : ١/٤٥٧ – ٤٥٨ .

(٥) فى المخطوطة : « وكفرتم بتكذيبكم » . والمثبت من تفسير الطبرى : ٢٨/٩٦ .

(٦) لفظ الطبرى : « أن أخبرك » .

(٧) تفسير الطبرى : ٢٨/٩٩ .

(٨) فى المخطوطة : « بن عصام » . والمثبت من الطبعات السابقة ، ولعله « عبيد بن غنام بن حفص بن غياث الكوفى » المترجم له فى العبر للذهبى : ٢/١٠٧ .

ثم رواه البيهقي من حديث شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي الضحى ، عن ابن عباس فى قول الله عز وجل : (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) ، قال : فى كل أرض نحو إبراهيم عليه السلام .

ثم قال البيهقى : إسناد هذا عن ابن عباس صحيح ، وهو شاذ بمرة ، لا أعلم لأبى الضحى عليه متابعاً ، والله أعلم .

قال الإمام أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا القرشى فى كتابه « التفكر والاعتبار » : حدثنى إسحاق بن حاتم المدائنى حدثنا يحيى بن سليمان ، عن عثمان بن أبى دهرش(١) قال : بلغنى أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – انتهى إلى أصحابه وهم سكوت لا يتكلمون ، فقال : « مالكم لا تتكلمون ؟ » . فقالوا : نتفكر فى خلق الله عز وجل . قال : « فكذلك فافعلوا ، تفكروا فى خلقه ولا تفكروا فيه ، فان بهذا المغرب أرضاً بيضاء ، نورها ساحتها – أو قال : ساحتها نورها(٢) – مسيرة الشمس أربعين يوماً ، بها خلقٌ الله لم يعصُوا الله طَرفة عَين قطّ » . قالوا : فأين الشيطان عنهم؟ قال: « ما يدرون خلق الشيطان أم لم يخلق ؟ » . قالوا : أمن ولد آدم ؟ قال : « ما يدرون خلق آدم أم لم يخلق ؟ » .

وهذا حديث مرسل ، وهو منكر جداً ، « وعثمان بن أبى دهرش » ذكره ابن أبى حاتم فى كتابه فقال : روى عن رجل من آل الحكم بن أبى العاص ، وعنه سفيان بن عيينة ، ويحيى بن سليم الطائفى ، وابن المبارك – سمعت أبى يقول ذلك(٣).

[آخر تفسير سورة الطلاق]

---

(١) فى المخطوطة : « دهرس » ، بالسين المهملة . والمثبت عن الجرح والتعديل لابن أبى حاتم .
(٢) كذا فى مخطوطة الأزهر . وفى الطبعات السابقة : « نورها بياضها – أو قال : بياضها نورها » .
(٣) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٣/١/١٤٩ .

تفسير سورة التحريم

وهى مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ
تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ
بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ
ٱلْخَبِيرُ (٣) إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ
مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا (٥)

اختُلف فى سبب نزول صدر هذه السورة ، فقيل : نزلت فى شأن مارية ، وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد حرمها ، فنزل قوله : (يأأيها النبى ، لم تحرم ما أحل الله لك ؟ تبتغى مرضاة أزواجك) ... الآية .

قال أبو عبد الرحمن النسائى : أخبرنا إبراهيم بن يونس بن محمد، حدثنا أبى، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرّمها ، فأنزل الله عز وجل : (يأأيها النبى ، لم تحرم ما أحل الله لك ؟) إلى آخر الآية .

وقال ابن جرير : حدثنى ابن عبد الرحيم البرقى ، حدثنا ابن أبى مريم ، حدثنا أبو غسان ، حدثنى زيد بن أسلم : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أصاب أم إبراهيم فى بيت بعض نسائه ، فقالت : أىْ رسول الله ، فى بيتى وعلى فراشى ؟! فجعلها عليه حراما . فقالت: أىْ رسول الله ، كيف يَحْرُمُ عليك [الحلال] ؟ فحلف لها بالله لا يصيبها . فأنزل الله : (يأأيها النبى ، لم تحرم ما أحل الله لك ؟) قال زيد : فقوله : « أنت على حرام » لغو(١) .

وهكذا روى عبد الرحمن بن زيد ، عن أبيه .

وقال ابن جرير أيضاً ، حدثنا يونس ، أخبرنا ابن وهب ، عن مالك(٢) ، عن زيد بن أسلم ، قال : قال لها : « أنت علىّ حرام ، ووالله لا أطؤك » .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٨ / ١٠٠ .

(٢) فى تفسير الطبرى : « أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد ، عن مالك » .

وقال سفيان الثورى وابن عُليَّة ، عن داود بن أبى هند ، عن الشعبى ، عن مسروق قال : آلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحرّم فعوتِبَ فى التحريم ، وأمر بالكفارة فى اليمين . رواه ابن جرير . وكذا روى عن قتادة ، وغيره، عن الشعبى ، نفسه . وكذا قال غير واحد من السلف ، منهم الضحاك ، والحسن ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان ، وروى العوفى ، عن ابن عباس القصة مطولة .

وقال ابن جرير : حدثنا سعيد بن يحيى ، حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن إسحاق ، عن الزهرى ، عن عُبيد الله ابن عبد الله ، عن ابن عباس قال : قلت لعمر بن الخطاب : من المرأتان ؟ قال : عائشة وحفصة . وكان بدء الحديث فى شأن أم إبراهيم القبطية ، أصابها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بيت حفصة فى نوبتها ، فوَجدت حفصة ، فقالت : يانبى الله ، لقد جئت إلىّ شيئاً ما جئت إلى أحد من أزواجك فى يومى(١) ، وفى دورى ، وعلى فراشى . قال : « ألا ترضين أن أحرّمها فلا أقربها ؟ » . قالت : بلى . فحرّمها وقال : « لا تذكرى ذلك لأحد » . فذكرته لعائشة ، فأظهره الله عليه ، فأنزل الله : (يا أيها النبى ، لم تحرم ما أحل الله لك ؟ تبتغى مرضاة أزواجك) . . . الآيات ، فبلغنا أنّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كفر يمينه ، وأصاب جاريته . (٢) .

وقال الهيثم بن كليب فى مسنده : حدثنا أبو قلابة عبد الملك بن محمد الرقاشى ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا جرير ابن حازم ، عن أيوب ، عن نافع ، عن ابن عمر ، عن عمر قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم لحفصة : « لا تخبرى أحداً ، وإن أم إبراهيم علىّ حرام » . فقالت : أتحرم ما أحل الله لك؟ قال : « فوالله لا أقربها » . قال : « فلم يقربها حتى أخبرت عائشة » . قال : فأنزل الله : (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) .

وهذا إسناد صحيح ، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، وقد اختاره الحافظ الضياء المقدسى فى كتابه المستخرج .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن علية ، حدثنا هشام الدستوائى قال : كتب إلى يحيى يحدّث عن يعلى بن حكيم ، عن سعيد بن جبير : أن ابن عباس كان يقول فى الحرام : يمين تكفرها ، وقال ابن عباس : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) ، يعنى أن رسول الله حرم جاريته فقال الله : (يا أيها النبى ، لم تحرم ما أحل الله لك ؟) إلى قوله : (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) ، فكفر يمينه ، فصير الحرام يميناً (٣) .

ورواه البخارى عن معاذ بن فضالة ، عن هشام ـ هو الدستوائى ـ عن يحيى ـ هو ابن أبى كثير ـ عن ابن حكيم ـ وهو يعلى ـ عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى الحرام : يمين تُكَفَّر(٤) . وقال ابن عباس : (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) (٥) .

---

(١) فى تفسير الطبرى : « يومها » .
(٢) تفسير الطبرى : ١٠٢/٢٨ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٠١/٢٨–١٠٢ .
(٤) لفظ البخارى : « فى الحرام يكفر » .
(٥) البخارى ، تفسير سورة التحريم : ١٩٤/٦ .

ورواه مسلم من حديث هشام الدَّستوائي به(١) .

وقال النسائي : أخبرنا عبد الله بن عبد الصمد بن علي ، حدثنا مخلد — هو ابن يزيد ، حدثنا سفيان ، عن سالم ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : أتاه رجل فقال : إني جعلت امرأتي على حرامًا ؟ قال : كذبتَ ليست عليك بحرام. ثم تلا هذه الآية : (يا أيها النبي ، لم تحرم ما أحل الله لك) ؟ عليك أغلظ الكفارات ، عتق رقبة (٢) .

تفرد به النسائي من هذا الوجه ، بهذا اللفظ .

وقال الطبراني : حدثنا محمد بن زكريا ، حدثنا عبد الله بن رجاء ، حدثنا إسرائيل ، عن مسلم ، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله :(يا أيها النبي ، لم تحرم ما أحل الله لك ؟) قال : حرم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سُرِّيَّته .

ومن هاهنا ذهب من ذهب من الفقهاء ممن قال بوجوب الكفارة على من حرَّم جاريته أو زوجته أو طعاماً أو شراباً أو ملبساً أو شيئاً من المباحات . وهو مذهب الإمام أحمد وطائفة . وذهب الشافعي إلى أنه لا تجب الكفارة فيما عدا الزوجة والجارية ، إذا حرَّم عينيهما أو أطلق التحريم فيهما في قوله ، فأما إن نوى بالتحريم طلاقَ الزوجة أو عتق الأمة، نفذ فيهما .

وقال ابن أبي حاتم : حدثني أبو عبد الله الظهراني ، أخبرنا حفص بن عمر العَدَني ، أخبرنا الحكم بن آبان ، حدثنا عكرمة ، عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية : (يا أيها النبي ، لم تحرم ما أحل الله لك ؟) في المرأة التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم .

وهذا قول غريب ، والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العَسَل ، كما قال البخاري عند هذه الآية :

حدثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا هشام بن يوسف، عن ابن جريج ، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن عائشة قالت : كان النبي — صلى الله عليه وسلم — يشرب عسلاً عند زينب بنت جَحش ، ويمكث عندها ، فتواطأتُ أنا وحفصةُ على : أيتُنا دخلَ عليها ، فلتقل له : أكلتَ مَغَافيرَ (٣) ؟ إني أجد منك ريح مغافير . قال : « لا : ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جَحش ، فلن أعود له ، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحداً » ، (تبتغي مرضاة أزواجك) (٤) .

هكذا أورد هذا الحديث هاهنا بهذا اللفظ ، وقال في كتاب الأيمان والنذور :

حدثنا الحسن بن محمد ، حدثنا الحجاج ، عن ابن جريج قال : زعم عطاء أنه سمع عُبَيد بن عمير يقول : سمعتُ عائشة تزعم أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان يمكث عند زينب بنت جَحش ويشرب عندها عَسَلا فتواصيتَ أنا وحفصة أن أيتُنا دخل عليها النبي — صلى الله عليه وسلم — فَلْتَقُلْ : إني أجد منك ريح مغافير ؟ أكلت مغافير؟ فدخل على إحداهما النبي — صلى الله عليه وسلم — فقالت ذلك له ، فقال : « لا ، بل شربت عسلا عند زينب بنت جَحش ، ولن

(١) مسلم ، كتاب الطلاق ، باب « وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق » : ١٨٤/٤ .
(٢) النسائي ، كتاب الطلاق ، باب تأويل قوله عز وجل : (يا أيها النبي ، لم تحرم ما أحل الله لك) : ١٥١/٦ .
(٣) سيأتي شرح هذه الكلمة .
(٤) البخاري ، تفسير سورة المتحرم : ١٩٤/٦ .

أعود له » : فنزلت: (يا أيها النبي ،لم تحرم ما أحل الله لك ؟) إلى: (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) لعائشة وحفصة(١)، (وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً) لقوله : « بل شربت عسلا » . وقال إبراهيم بن موسى ، عن هشام : « ولن أعود له ، وقد حلفت ، فلا تخبرى بذلك أحداً »(٢) .

وهكذا رواه فى كتاب الطلاق بهذا الإسناد ، ولفظه قريب منه(٣) . ثم قال : المغافير : « شبيه بالصمغ ، يكون فى الرِّمْث فيه حلاوة، أغفر الرِّمث: إذا ظهر فيه . واحدها مُغفور، ويقال مغافير » (٤) . وهكذا قال الجوهرى، قال: « وقد يكون المغفور أيضاً للعُشَر والثُّمام والسَّلَم والطلح » قال: والرِّمث ، بالكسر : مرعى من مراعي الإبل ، وهو من الحَمْض . قال : والعرفط : شجر من العضاه ينضَح المغفور [منه] (٥) .

وقد روى مسلم هذا الحديث فى كتاب « الطلاق » من صحيحه ، عن محمد بن حاتم ، عن حجاج بن محمد ، عن ابن جريج ، أخبرنى عطاء ، عن عُبيد بن عمير ، عن عائشة ، به . ولفظه كما أورده البخارى فى الأيمان والنذور (٦) .

ثم قال البخارى فى كتاب الطلاق: حدثنا فروة بن أبى المغراء ، حدثنا على بن مُسهر ، عن هشام بن عُروة ، عن أبيه عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ يحب الحلوى والعَسل ، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه ، فيدنو من إحداهن . فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر ما كان يحتبس ، فغِرْتُ فسألت عن ذلك ، فقيل لى : أهدت لها امرأة من قومها عُكَّةً(٧)عسَل ، فسقت النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ منه شربة ، فقلت: أما والله لنحتالَن له . فقلت لسودة بنت زَمْعَةَ : إنه سيدنو منك، فإذا دنا منك فقولى: « أكلت مَغافير؟ » ، فإنه سيقول ذلك : لا . فقولى له : ما هذه الريح التى أجد ؟ فإنه سيقول لك : سقتنى حفصة شربة عسل . فقولى : جَرَسَتْ نحلُه العُرفُطَ (٨) . وسأقول ذلك ، وقولى أنت له ياصفية ذلك ، قالت ــ تقول سودة ــ :والله ما هو إلا أن قام على الباب، فأردت أن أناديه (٩) بما أمرتنى فرقاً منك ، فلما دنا منها قالت له سودة : يارسول الله ، أكلت مغافير ؟ قال : « لا » . قالت : فما هذه الريح التى أجد منك ؟ قال : « سقتنى حفصة شَربة عسل » قالت : جَرَسَت نَحلُه العرفطَ . فلما دار إلىّ قلت نحو ذلك ، فلما دار إلى صفية قالت له مثل ذلك ، فلما دار إلى حفصة قالت له : يارسول الله ، ألا أسقيك منه ؟ قال : « لا حاجةَ لى فيه » قالت ــ تقول سودة ــ : والله لقد حرَمْنَاه . قلت لها : اسكتى (١٠) .

---

(١) فى الصحيح : (إن تتوبا إلى الله) ، لعائشة وحفصة » .
(٢) البخارى ، كتاب الأيمان والنذور ، باب « إذا حرم طعامه » : ٨/١٧٥ ــ ١٧٦ .
(٣) البخارى ، كتاب الطلاق ، باب « لم تحرم ما أحل الله » : ٧/٥٦ .
(٤) لم يقع لنا هذا القول فى صحيح البخارى .
(٥) ما بين القوسين عن الصحاح ، مادة عرفط : ٣/١١٤٢ .
(٦) مسلم ، كتاب الطلاق ، باب «وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق» : ٤/١٨٤ ــ ١٨٥ .
(٧) العكة : وعاء من جلد ، يختص بالسمن والعسل .
(٨) سيأتى شرح الغريب .
(٩) كذا فى إحدى روايتى الصحيح . وفى الأخرى : « أباديه » ، بالباء .
(١٠) البخارى ، كتاب الطلاق ، باب « لم تحرم ما أحل الله » : ٧/٥٧ .

هذا لفظ البخارى ، وقد رواه مسلم عن سُوَيد بن سَعيد ، عن على بن مسهر ، به ، وعن أبى كريب وهارون ابن عبد الله والحسن بن بشر ، ثلاثتهم عن أبى أسامة حماد بن أسامة ، عن هشام بن عروة ، به . وعنده ، قالت : وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يشتد عليه أن يوجد منه الريح (١) ، يعنى الريح الخبيثة ، ولهذا قلن له : « أكلت مغافير » لأن ريحها فيه شىء . فلما قال : « بل شربت عسلا » . قلن : جَرَسَت نحلُه العرفطَ . أى : رَعَت نحلُه شَجَرَ العرفط الذى صمغهُ المغافير ، فلهذا ظهر ريحهُ فى العسل الذى شربته .

قال الجوهرى : جَرَسَت النحلُ العرفطَ [تَجْرِس] : إذا أكلته ، ومنه قيل للنحل : جوارس ، قال الشاعر :

• تَظَلُّ عَلَى الثَّمْرَاء منها جَوَارِسُ •

وقال : الجَرْس والجِرْس : الصوت الخفى ، ويقال : سمعت جرس [الطير : إذا سمعتَ صوت مناقيرها على شىء تأكله ، وفى الحديث : « فيسمعون جَرْسَ] طير الجنة » . قال الأصمعى : كنت فى مجلس شُعبة قال : « فيسمعون جَرْشَ طير الجنة » بالشين ، فقلت : « جرس » ؟! فنظر إلى فقال : خذوها عنه ، فإنه أعلم بهذا منا (٢) .

والغرض أن هذا السياق فيه أن حفصة هى الساقية للعسل ، وهو من طريق هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن خالته عائشة . وفى طريق ابن جريج عن عطاء ، عن عبيد بن عمير ، عن عائشة أن زينب بنت جحش هى التى سقت العسل ، وأن عائشة وحفصة تواطأتا وتظاهرتا عليه ، فالله أعلم . وقد يقال : إنهما واقعتان . ولا بُعدَ فى ذلك ، إلا أن كونَهما سبباً لنزول هذه الآية فيه نظر ، والله أعلم . ومما يدل على أن عائشة وحفصة — رضى الله عنهما — هما المتظاهرتان الحديث الذى رواه الإمام أحمد فى مسنده حيث قال : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن الزهرى ، عن عُبَيد الله بن عبد الله بن أبى ثور ، عن ابن عباس قال : لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبى — صلى الله عليه وسلم — اللتين قال الله تعالى : (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) ، حتى حج عمر وحججت معه ، فلما كان ببعض الطريق عدَل عمر وعدلت معه بالإداوة ، فتبرز ثم أتانى . فسكبت على يديه فتوضأ ، فقلت : ياأمير المؤمنين ، من المرأتان من أزواج النبى صلى الله عليه وسلم — اللتان قال الله تعالى : (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) ؟ فقال عمر : واعجبا لك ياابن عباس — قال الزهرى : كره — والله — ما سألته عنه ولم يكتمه — قال : هى حفصة وعائشة . قال : ثم أخذ يسوق الحديث قال : كنا معشرَ قريش — قوماً نَغلبُ النساء — فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تَغلبهم نساؤهم ، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، قال : وكان منزلى فى دار [بنى] أمية بن زيد بالعَوَالى . قال : فغضبت يوماً علىَّ امرأتى فاذا هى تراجعنى ، فأنكرت أن تُراجعنى . فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إنأزواج النبى صلى الله عليه وسلم — ليراجعنه ، وتَهجره إحداهن اليوم إلى الليل . قال : فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت : أتراجعين رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : نعم . قلت : وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل ؟ قالت : نعم . قلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ، فإذا هى قد هلكت ؟ لا تراجعى رسول الله ولا تسأليه شيئاً ، وسلينى من مالى

(١) مسلم ، كتاب الطلاق ، باب « وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق » : ٤/١٨٥ .

(٢) الصحاح ، مادة جرس : ٢/٩٠٨ — ٩٠٩ .

(٣) ما بين القوسين عن المسند .

ما بدا لك(١) ، ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوسمُ وأحبّ إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منك ـ يريد عائشة ـ قال : وكان لي جار من الأنصار ، وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينزل يوماً وأنزل يوماً ، فيأتيني بخبر الوحي وغيره، وآتيه بمثل ذلك. قال: وكنا نتحدث أن غسّان تُنعل(٢) الخيل لتغزونا، فنزل صاحبي يوماً ثم أتى عشاء ، فضرب بابي ثم ناداني ، فخرجت إليه فقال : حدث أمر عظيم ! فقلت : وما ذاك ؟ أجاءت غسان ؟ قال : لا ، بل أعظم من ذلك وأطول ! طلّق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نساءه ، فقلت : قد خابت حفصةُ وخَسِرت، قد كنت أظن هذا كائنا . حتى إذا صليتُ الصبحَ شددتُ عليّ ثيابي ثم نزلت، فدخلت على حفصة وهي تبكي فقلت : أطلقكُن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم؟ فقالت : لا أدري ، هو هذا معتزل في هذه المشرَبة(٣) . فأتيت غلاماً له أسودَ فقلت : استأذن لعمر . فدخل الغلام ثم خرج إليّ فقال : ذكرتك له فصمت . فانطلقت حتى أتيت المنبر ، فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم ، فجلست قليلا ، ثم غلبني ما أجد ، فأتيت الغلام فقلت : استأذن لعمَر . فدخل ثم خرج فقال : قد ذكرتك له فصمت . فخرجت فجلست إلى المنبر ، ثم غلبني ما أجد فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر. فدخل ثم خرج إلي فقال : قدذكرتك له فصمَت. فوليت مدبراً فإذا الغلام يدعوني فقال : ادخل، قد أذن لك . فدخلتُ فسلمتُ على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإذا هو متكيء على رُمَال(٤) حصير .

قال الإمام أحمد : وحدثناه يعقوب في حديث صالح : رُمَال حصير قد أثر في جنبه ، فقلت : أطلّقت يارسول الله نساءك ؟ فرفع رأسه إلي [وقال : « لا »] . فقلت : الله أكبر ، لو رأيتنا يارسول الله وكنا معشر قريش قوماً نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوماً تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، فغضبت(٥)عليّ امرأتي يوما فإذا هي تراجعني ، فأنكرت أن تراجعني ، فقالت : ماتنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليراجعنه ، وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل . فقلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ، أفتأمنُ إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله ، فإذا هي قد هلكت . فتبسم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت : يارسول الله ، فدخلت على حفصة فقلت : لا يغرّنّكِ أن كانت جارتُك هي أوسَم ـ أو : أحب ـ إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منك . فتبسم أخرى ، فقلت : أستأنس يارسول الله ؟ قال : « نعم » . فجلست فرفعت رأسي في البيت ، فوالله ما رأيت في البيت شيئاً يرد البصر إلا أهَبَة(٦) ثلاثة . فقلت : ادع الله ـ يارسول الله ـ أن يوسع على أمتك ، فقد وسَّع على فارس والروم ، وهم لا يعبدون الله . فاستوى جالساً وقال : « أفي شك أنت ياابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم

---

(١) في المسند : « وسليني ما بدا لك » .

(٢) أي : يجعلون لخيلهم نعالا . والمعنى : يتأهبون لقتالنا .

(٣) المشربة ـ بضم الراء وفتحها ـ : الغرفة .

(٤) تقدم تفسير هذه الكلمة في : ٥/٣٢٠ .

(٥) في المسند : « فتغضبت » .

(٦) انظر تفسيرها أيضاً في : ٥/٣٢٠ .

طيباتهم فى الحياة الدنيا » : فقلت : استغفر لى يارسول الله . وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً ؛ من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله عز وجل (١) .

وقد رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى ، من طرق ، عن الزهرى ، به (٢) وأخرجه الشيخان من حديث يحيى ابن سعيد الأنصارى ، عن عُبَيد بن حُنَين ، عن ابن عباس ، قال : مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية ، فما أستطيع أن أسأله هيبةً له ، حتى خرج حاجاً فخرجت معه ، فلما رجعنا وكنا ببعض الطريق ، عدل إلى الأراك لحاجة له ، قال : فوقفت حتى فرغ ، ثم سرت معه فقلت : ياأمير المؤمنين ، من اللتان تظاهرتا على النبى صلى الله عليه وسلم؟ (٣) :

هذا لفظ البخارى ، ولمسلم : من المرأتان اللتان قال الله تعالى : (وإن تظاهرا عليه) ؟ قال : عائشة وحفصة . ثم ساق الحديث بطوله ، ومنهم من اختصره(٤) .

وقال مسلم أيضاً : حدثنى زهير بن حرب ، حدثنا عمر بن يونس الحنفى ، حدثنا عكرمة بن عمار ، عن سماك بن الوليد ، أبى زميل — حدثنى عبد الله بن عباس ، حدثنى عمر بن الخطاب قال : لما اعتزل نبى الله — صلى الله عليه وسلم — نساءه ، دخلت المسجد فإذا الناس يَنكُتُون(٥) بالحصى ، ويقولون : طلق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — نساءه ؛ وذلك قبل أن يُؤمَر بالحجاب . فقلت : لأعلمن ذلك اليوم . . . . فذكر الحديث فى دخوله على عائشة وحفصة ، ووعظه إياهما ، إلى أن قال : « فدخلت فإذا أنا برباح غلام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على أسكُفَّة المشربة ، فناديت فقلت يارباح ، استأذن لى على رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . . » فذكر نحو ما تقدم ، إلى أن قال « فقلت : يارسول الله ، « فقلت : يارسول الله ، ما يَشُقّ عليك من أمر النساء ، فان كنتَ طلقتهن فان الله معك وملائكتَه وجبريلَ وميكائيلَ وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك ، وقلما تكلمتُ — وأحمد الله — بكلام إلا رجوتُ أن يكون الله يصدق قولى ، ونزلت هذه الآية ، آية التخيير : (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن) ، (وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ، والملائكة بعد ذلك ظهير) . فقلت : أطلقتهن ؟ قال : « لا » . . . . : فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتى : لم يطلق نساءه ، ونزلت هذه الآية : (وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) . فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر (٦) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١/٣٣ — ٣٤ .

(٢) البخارى ، كتاب العلم ، باب « التناوب فى العلم » : ١/٣٣ . وكتاب المظالم ، باب الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة فى السطوح وغيرها » : ٣/١٧٤ — ١٧٧ . وكتاب النكاح ، باب « موعظة الرجل ابنته لحال زوجها » : ٧/٣٦ — ٣٨ . ومسلم ، كتاب الطلاق ، باب « فى الإيلاء » ، واعتزال النساء وتخييرهن وقوله تعالى : (وإن تظاهرا عليه) : ٤/١٩٢—١٩٥ . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة التحريم ، الحديث ٣٣٧٤ : ٩/٢٢٤ — ٢٣٢ .

(٣) البخارى ، تفسير سورة المتحرم : ٦/١٩٥ .

(٤) مسلم ، كتاب الطلاق ، باب « فى الإيلاء ... » : ٤/١٩٠ .

(٥) أى : يضربون به الأرض ، كفعل المهموم المفكر .

(٦) مسلم ، كتاب الطلاق ، باب « فى الإيلاء ... » : ٤/١٨٨ — ١٩٠ .

وكذا قال سعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومقاتل بن حيان ، والضحاك ، وغيرهم (وصالح المؤمنين) : أبو بكر وعمر ــ زاد الحسن البصرى وعثمان : وقال [ليث بن أبي] سليم ، عن مجاهد : (وصالح المؤمنين) ، قال : على بن أبي طالب ؛

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا محمد بن [أبي] عمر ، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد بن [على بن(١)] الحسين قال : أخبرني رجل ثقة يرفعه إلى على قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قوله : (وصالح المؤمنين) ، قال : « هو على بن أبي طالب » : إسناده ضعيف ، وهو منكر جداً :

وقال البخارى : حدثنا عمرو بن عون ، حدثنا هُشيم ، عن حُميد ، عن أنس ، قال : قال عمر : اجتمع نساء النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى الغيرة عليه ، فقلت لهن : (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيرا منكن) فنزلت هذه الآية (٢) .

وقد تقدّم أنه وافق القرآن فى أماكنَ ، منها فى نزول الحجاب ، ومنها فى أسارى بدر ، ومنها قوله : لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؟ فأنزل الله : (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) (٣) .

وقال ابن أبي حاتم ، حدثنا الأنصارى ، حدثنا حُمَيد ، عن أنس قال : قال عمر بن الخطاب : بلغنى شيء كان بين أمهات المؤمنين وبين النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فاستقريتهن أقول : لتكفن عن رسول الله أو ليبدلنّه الله أزواجاً خيرا منكن ، حتى أتيت على آخر أمهات المؤمنين ، فقالت : ياعمر ، أما لى برسول الله ما يعظ نساءه ، حتى تعظهن ؟ ! : فأمسكت ، فأنزل الله عز وجل : (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن ، مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا) .

وهذه المرأة التى ردّته عما كان فيه من وعظ النساء هى أم سلمة ، كما ثبت ذلك فى صحيح البخارى(٤) :

وقال الطبرانى ، حدثنا إبراهيم بن نائلة الأصبهانى ، حدثنا إسماعيل البجلى ، حدثنا أبو عوانة ، عن أبي سنان ، عن الضحاك ، عن ابن عباس فى قوله : (وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثاً) ، قال : دخلت حفصة على النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى بيتها وهو يَطأ مارية ، فقال لها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم : « لا تخبرى عائشة حتى أبشرك ببشارة ، فإن أباك يلى الأمرَ من بعد أبي بكر إذا أنا متّ » . فذهبت حفصة فأخبرتْ عائشة ، فقالت عائشة لرسول الله الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : من أنبأك هذا ؟ قال : (نبأنى العليم الخبير) ، فقالت عائشة : لا أنظر إليك حتى تحرم مارية ، فحرمها ، فأنزل الله : (ياأيها النبى لم تحرم) .

إسناده فيه نظر ، وقد تبين مما أوردناه تفسير هذه الآيات الكريمات .

---

(١) ما بين القوسين عن ترجمة « محمد بن جعفر » فى الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٣/٢/٢٢٠ .
(٢) البخارى ، تفسير سورة التحريم : ٦/١٩٧ .
(٣) انظر تفسير الآية ١٢٥ من سورة البقرة : ١/٢٤٤ ــ ٢٤٥ .
(٤) انظر البخارى ، تفسير سورة البقرة : ٦/٢٤ .

ومعنى قوله : (مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات) ظاهر .

وقوله (سائحات) ، أى : صائمات ، قاله أبو هريرة ، وعائشة ، وابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعطاء ، ومحمد بن كعب القرظى ، وأبو عبد الرحمن السلمى ، وأبو مالك ، وإبراهيم النخعى ، والحسن ، وقتادة والضحاك ، والربيع بن أنس ، والسُدّىّ ، وغيرهم . وتقدم فيه حديث مرفوع عند قوله (السائحون) من سورة « براءة » ، ولفظه : « سياحةُ هذه الإمة الصيامُ (١) » .

وقال زيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن : (سائحات) ، أى : مهاجرات . وتلا عبد الرحمن : (السائحون) ، أى المهاجرون . والقول الأول أولى ، والله أعلم .

وقوله : (ثيبات وأبكارا) ، أى : منهن ثيبات ، ومنهن أبكارا ، ليكون ذلك أشهى إلى النفوس ، فان التنوع يبسُط النفسَ ، ولهذا قال : (ثيبات وأبكارا) .

وقال أبو القاسم الطبرانى فى معجمه الكبير : حدثنا أبو بكر بن صدقة ، حدثنا محمد بن محمد بن مرزوق ، حدثنا عبد الله بن أمية ، حدثنا عبد القدوس ، عن صالح بن حَيَّان ، عن ابن بُرَيْدَة ، عن أبيه (ثيبات وأبكارا) قال : وعد الله نبيه — صلى الله عليه وسلم — فى هذه الآية أن يزوجه ، فالثيب آسية امرأة فرعون ، وبالأبكار مريم بنت عمران .

وذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة « مريم عليها السلام » ، من طريق سُوَيد بن سعيد : حدثنا محمد بن صالح ابن عمر ، عن الضحاك ومجاهد ، عن ابن عمر قال : جاء جبريل إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بموت(٢) خديجة فقال : إن الله يقرئها السلام ، ويبشرها ببيت فى الجنة من قصب ، بعيد من اللهب ، لا نصب فيه ولا صخب ، من لؤلؤة [جوفاء بين] بيت مريم بنت عمران وبيت آسية بنت مزاحم .

ومن حديث أبى بكر الهذلى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن النبى — صلى الله عليه وسلم — دخل على خديجة ، وهى فى الموت ، فقال : « ياخديجة ، إذا لقيت ضرائرك فأقرئيهن منى السلام » . فقالت : يارسول الله ، وهل تزوجت قبلى ؟ قال : « لا ، ولكن الله زوجنى مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وكلثم أخت موسى » : ضعيف أيضاً .

وقال أبو يعلى : حدثنا إبراهيم بن عرعرة . حدثنا عبد النور بن عبد الله ، حدثنا يوسف بن شعيب ، عن أبى أمامة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعلمت أن الله زوجنى فى الجنة مريم بنت عمران ، وكلثم أخت موسى ، وآسية امرأة فرعون » . فقلت : هنيئاً لك يارسول الله .

وهذا أيضاً ضعيف وروى مرسلا — عن ابن أبى داود .

---

(١) انظر تفسير الآية ١١٢ من سورة براءة : ٤/١٥٦ .

(٢) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وفى الطبعات السابقة : « فرت خديجة » .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾

قال سفيان الثورى ، عن منصور ، عن رجل ، عن على ـ رضى الله عنه ـ فى قوله تعالى : (قُوا أنفسكم وأهليكم نارا) يقول أدبوهم ، علموهم (١) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (قوا أنفسكم وأهليكم نارا) ، يقول : اعملوا بطاعة الله ، واتقوا معاصى الله ، ومُروا أهليكم بالذكر ، ينجيكم الله من النار .

وقال مجاهد : (قوا أنفسكم وأهليكم نارا) ، قال : اتقوا الله ، وأوصوا أهليكم بتقوى الله .

وقال قتادة : يأمرهم بطاعة الله ، وينهاهم عن معصية الله ، وأن يقوم عليهم بأمر الله ، ويأمرهم به ويساعدهم عليه ، فاذا رأيت لله معصية ، قدعتهم (٢) عنها وزجرتهم عنها .

وهكذا قال الضحاك ومقاتل : حق على المسلم أن يعلم أهله ، من قرابته وإمائه وعبيده ، ما فرض الله عليهم ، وما نهاهم الله عنه .

وفى معنى هذه الآية الحديثُ الذى رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، من حديث عبد الملك بن الربيع ابن سَبْرَة ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مروا الصبى بالصلاة إذا بلغ سبع سنين ، فاذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها » .

هذا لفظ أبى داود (٣) ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن .

وروى أبو داود ، من حديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مثل ذلك .

قال الفقهاء : وهكذا فى الصوم ؛ ليكون ذلك تمريناً له على العبادة ، لكى يبلغ وهو مستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية وترك المنكر ، والله الموفق .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٠٧/٢٨ .

(٢) فى تفسير الطبرى ١٠٧/٢٨ : «ردعتهم» . والقدع : الكف والمنع .

(٣) سنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب «متى يؤمر الغلام بالصلاة» . وتحفة الأحوذى ، أبواب المواقيت ، باب «ما جاء متى يؤمر الصبى بالصلاة» ، الحديث ٤٠٥ : ٤٤٥/٢ ـ ٤٤٦ ، ومسند الإمام أحمد : ٤٠٤/٣ .

وقوله : ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ ، وقودها : أى حطبها الذى يلقى فيها جثث بنى آدم . ﴿ والحجارة ﴾ ، قيل : المراد بذلك الأصنام التى كانت تعبد لقوله : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنم ﴾ .

وقال ابن مسعود ، ومجاهد ، وأبو جعفر الباقر ، والسدى : هى حجارة من كبريت — زاد مجاهد : أنتن من الجيفة .

[وروى(١) ذلك ابن أبى حاتم رحمه الله ، ثم قال : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الرحمن بن سنان المنقرى] حدثنا عبد العزيز — يعنى ابن أبى روّاد — قال : بلغنى أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — تلا هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً . وقودها الناس والحجارة ﴾ ، وعنده بعض أصحابه ، وفيهم شيخ ، فقال الشيخ : يارسول الله ، حجارة جهنم كحجارة الدنيا ؟ فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — « والذى نفسى بيده لَصَخرة من صخر جهنم أعظمُ من جبال الدنيا كلها قال : فوقع الشيخُ مغشياً عليه ، فوضع النبى — صلى الله عليه وسلم — يده على فؤاده فاذا هُوَ حَىّ فناداه قال : « ياشيخ ، قل : لا إله إلا الله » ، فقالها ، فبشره بالجنة ، قال : فقال أصحابه : يارسول الله ، أمن بيننا ؟ قال « نعم ، يقول الله تعالى : ﴿ ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ﴾ » هذا حديث مرسل غريب .

وقوله : ﴿ عليها ملائكة غلاظ شداد ﴾ ، أى : طباعهم غليظة ، قد نُزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله ، ﴿ شداد ﴾ أى تركيبهم فى غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج .

قال ابن أبى حاتم ، حدثنا أبى حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان ، حدثنا أبى ، عن عكرمة أنه قال : إذا وصل أول أهل النار إلى النار ، وَجَدوا على الباب أربعمائة ألف من خزَنة جهنم ، سود وجوههم ، كالحة أنيابهم ، قد نزع الله من قلوبهم الرحمة ليس فى قلب واحد منهم مثقال ذَرّة من الرحمة ، لو طير الطير من منكب أحدهم لطار شهرين قبل أن يبلغ منكبه الآخر ، ثم يجدون على الباب التسعة عشر ، عرض صدر أحدهم سبعون خريفاً ، ثم يهوون من باب إلى باب خمسمائة سنة ، ثم يجدون على كل باب منها مثلَ ما وجدوا على الباب الأول ، حتى ينتهوا إلى آخرها .

وقوله : ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ﴾ ، أى : مهما أمرهم به تعالى يبادروا إليه ، لا يتأخرون عنه طرفة عين ، وهم قادرون على فعله ليس بهم عجز عنه . وهؤلاء هم الزبانية عياذاً بالله منهم . وقوله : ﴿ يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ ، أى : يقال للكفرة يوم القيامة : لا تعتذروا فانه لا يقبل منكم ، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم .

ثم قال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً ﴾ ، أى : توبة صادقة جازمة ، تمحو ما قبلها من السيئات وتلم شعث التائب وتجمعه ، وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات .

قال ابن جرير : حدثنا ابن مثنى حدثنا محمد ، حدثنا شعبة ، عن سماك بن حرب : سمعت النعمان بن بشير يخطب : سمعت عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — يقول : ﴿ ياأيها الذين آمنوا ، توبوا إلى الله توبة نصوحاً ﴾ ، قال : يذنب الذنب ثم لا يرجع فيه (٢) .

---

(١) ما بين القوسين من الطبعات السابقة .

(٢) تفسير الطبرى : ١٠٧/٢٨ .

وقال الثورى ، عن سماك ، عن النعمان ، عن عمر قال : التوبة النصوح : أن يتوب من الذنب ثم لا يعود فيه ، أو لا يعود فيه (١) .

وقال أبو الأحوص وغيره ، عن سماك ، عن النعمان : سئل عمر عن التوبة النصوح ، فقال : أن يتوب الرجل من العمل السيء ، ثم لا يعود إليه أبداً .

وقال الأعمش ، عن أبي إسحاق ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله : (توبة نصوحاً) ، قال : يتوب ثم لا يعود .

وقد روى هذا مرفوعاً فقال الإمام أحمد : حدثنا على بن عاصم ، عن إبراهيم الهَجَرى ، عن أبي الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ : « التوبة من الذنب أن يتوب منه ، ثم لا يعود فيه(٢) » ، تفرد به أحمد من طريق إبراهيم بن مسلم الهَجَرى ، وهو ضعيف ، والموقوف أصح ، والله أعلم .

ولهذا قال [العلماء](٣) : التوبة النصوح هو أن يُقلعَ عن الذنب فى الحاضر ، ويندمَ على ما سلف منه فى الماضى ، ويعزم على أن لا يفعل فى المستقبل . ثم إن كان الحق لآدمى ردّه إليه بطريقه .

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن عبد الكريم ، أخبرنى زياد بن أبي مريم ، عن عبد الله بن مَعقِل قال : دخلت مع أبي عليّ عبد الله بن مسعود فقال : أنت سمعت النبي ــ صلى الله عليه وسلم يقول : « الندم توبة ؟ » : قال : نعم ــ وقال مرّة : نعم سمعته يقول : « الندم توبة (٤) » .

ورواه ابن ماجه ، عن هشام بن عمّار ، عن سفيان بن عُيينة ، عن عبد الكريم ــ وهو ابن مالك الجزَرىّ ــ به(٥)

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنى الوليد بن بكير أبو خباب، عن عبد الله بن محمد العدَوى(٦)، عن أبي سنان البصرى ، عن أبي قلابة ، عن زرّ بن حُبَيش ، عن أُبي بن كعب قال : قيل لنا أشياء تكون فى آخر هذه الأمة عند اقتراب الساعة ، منها : نكاح الرجل امرأته أو أمته فى دبرها ، وذلك مما حرم الله ورسوله ، ويمقت الله عليه ورسوله . ومنها نكاح الرجل الرجل ، وذلك مما حرم الله ورسوله ، ويمقت الله عليه ورسوله . ومنها : نكاح المرأة المرأة ، وذلك مما حرم الله ورسوله ، ويمقت الله عليه ورسوله . وليس لهؤلاء صلاة ما أقاموا على هذا ، حتى يتوبوا الى الله توبة نصوحاً . قال زر : فقلت لأبي بن كعب : فما التوبه النصوح ؟ فقال : سألت عن ذلك رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : « هو الندم على الذنب حينَ يفرُط منك ، فتستغفرُ الله بندامتك [منه] عند الحاضر ، ثم لا تعود إليه أبداً » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عمرو بن على ، حدثنا عباد بن عمرو ، حدثنا أبو عمرو بن العلاء ، سمعت الحسن يقول التوبة النصوح : أن تُبغض الذنب كما أحببته ، وتستغفر منه إذا ذكرته .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٨/١٠٧ ــ ١٠٨ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ١/٤٤٦ .
(٣) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة .
(٤) مسند الإمام أحمد : ١/٣٧٦ .
(٥) سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « ذكر التوبة » ، الحديث ٤٢٥٢ : ٢/١٤٢٠ .
(٦) فى المخطوطة : « العبدى » . والمثبت عن الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٢/٢/١٥٦ .

فأما إذا حزَم بالتوبة وصمّم عليها فانها تجُبّ ما قبلها من الخطيئات ، كما ثبت فى الصحيح : « الإسلام يجُبّ ما قبله ، والتوبة تجبّ ما قبلها (١) » .

وهل من شرط التوبة النصوح الاستمرارُ على ذلك إلى الممات ، كما تقدم فى الحديث وفى الأثر : « لا يعود فيه أبداً » أو يكفى العزم على أن لا يعود فى تكفير الماضى ، بحيث لو وقع منه ذلك الذنب بعد ذلك لا يكون ذلك ضاراً فى تكفير ما تقدم ، لعموم قوله عليه السلام : « التوبة تجب ما قبلها ؟ » . وللأول أن يحتج بما ثبت فى الصحيح أيضاً : « من أحسنَ فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية ، ومن أساء فى الإسلام أخذ بالأول والآخر (٢) » . فاذا كان هذا فى الإسلام الذى هو أقوى من التوبة ، فالتوبة بطريق الأولى ، والله أعلم .

وقوله : (عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار) « وعسى » من الله موجبة . (يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه) ، أى : ولا يخزيهم معه يعنى يوم القيامة ، (نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم كما تقدم فى سورة الحديد (٣) .

يقولون : ربنا ، أتمم لنا نورنا ، واغفر لنا إنك على كل شىء قدير) : قال مجاهد ، والضحاك ، والحسن البصرى وغيرهم : [هذا يقوله] المؤمنون حين يرَوْن يوم القيامة نورَ المنافقين قد طَفِىء .

وقال محمد بن نصر المروزى : حدثنا محمد بن مقاتل المروزى ، حدثنا ابن المبارك ، أخبرنا ابن لهيعة ، حدثنى يزيد ابن أبى حبيب ، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير ، أنه سمع أبا ذر وأبا الدرداء قالا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا أول من يؤذن له فى السجود يوم القيامة ، وأول من يؤذن » برفع رأسه ، فأنظرُ بين يدَىَّ فأعرف أمتى من بين الأمم ، وأنظر عن يمينى فأعرف أمتى من بين الأمم ، وأنظر عن شمالى فأعرف أمتى من بين الأمم » . فقال رجل : يارسول الله ، وكيف تعرف أمتك من بين الأمم : قال « » غر محجلون من آثار الطهور ، ولا يكون أحد من الأمم كذلك غيرهم ، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم بسيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، وأعرفهم بنورهم يسعى بين أيديهم(٤)

وقال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن إسحاق الطالقانى ، حدثنا ابن المبارك ، عن يحيى بن حسان ، عن رجل من بنى كنانة قال : صليت خلف النبى — صلى الله عليه وسلم — عام الفتح فسمعه يقول : « اللهم لا تخزنى يوم القيامة (٥) » .

---

(١) الذى فى مسند الإمام أحمد عن عمرو بن العاص ٤/١٩٩ : « والهجرة تجب ... » . ومثله أيضاً فى : ٤/٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٢) البخارى ، كتاب « استتابة المرتدين »... : ٧/١٧ — ١٨ . ومسلم كتاب الإيمان ، باب هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية » : ١/٧٧ .

(٣) انظر تفسير الآية ٢٨ من سورة الحديد : ٨/٥٧ .

(٤) تقدم الحديث فى سورة الإسراء ، عند تفسير الآية ٧٩ ، من رواية الإمام أحمد ، عن حسن ، عن ابن لهيعة. وخرجناه هنالك ، انظر : ٥/١٠٦ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٤/٢٣٤ .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (٩) ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ (١٠) ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله — صلى الله عليه وسلم — بجهاد الكفار والمنافقين ، هؤلاء بالسلاح والقتال ، وهؤلاء بإقامة الحدود عليهم ، (واغلظ عليهم) ، أي : في الدنيا ، (ومأواهم جهنم وبئس المصير) ، أي : في الآخرة .

ثم قال : (ضرب الله مثلا للذين كفروا) ، أي : في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم ، أن ذلك لا يجدي عنهم شيئاً ، ولا ينفعهم عند الله ، إن لم يكن الإيمان حاصلا في قلوبهم ، ثم ذكر المثل فقال : (امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين) ، أي : نبيين رسولين عندهما في صحبتهما ليلا ونهاراً ، يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط ، (فخانتاهما) أي : في الإيمان ، لم يوافقاهما على الإيمان ، ولا صدقاهما في الرسالة ، فلم يُجْدِ ذلك كله شيئاً ، ولا دفع عنهما محذورا ولهذا قال : (فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً) أي : لكفرهما ، (وقيل) أي : للمرأتين (ادخلا النار مع الداخلين) .

وليس المراد (فخانتاهما) في فاحشة ، بل في الدين ، فإن نساء الأنبياء معصوماتٌ عن الوقوع في الفاحشة ، لحرمة الأنبياء ، كما قدمنا في سورة النور .

قال سفيان الثوري ، عن موسى بن أبي عائشة ، عن سليمان بن قَتَّة (١) : سمعتُ ابن عباس يقولُ في هذه الآية : (فخانتاهما) ، قال : ما زنتا ، أما امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه .

وقال العَوْفي ، عن ابن عباس قال : كانت خيانتهما أنهما كانتا على عَوْرتيهما فكانت امرأة نُوح تَطَّلع على سر نوح ، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به ، وأما امرأة لوط فكانت إذا أضاف لوط أحداً أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء .

وهكذا قال عكرمة ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، وغيرهم .

وقد استدل بهذه الآية الكريمة بعضُ العلماء على ضعف الحديث الذي يأثُره كثير من الناس : « من أكل مع مغفور له غفر له » ، وهذا الحديث لا أصل له ، وإنما يروى هذا عن بعض الصالحين أنه رأى النبي — صلى الله عليه وسلم — في المنام فقال : يا رسول الله ، أنت قلت : من أكل مع مغفور له [غفر له] ؟ قال : لا ، ولكني الآن أقوله .

(١) في تفسير الطبري ٢٨/١٠٩ : « سليمان بن قيس » . وهو خطأ ، والصواب ما في مخطوطة الأزهر ، انظر ترجمة « سليمان بن قتة » في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ١٣٦/١/٢ .

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾

وهذا مَثَلٌ ضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين إليهم ، كما قال تعالى : (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة) .

قال قتادة : كان فرعون أعتى أهل الأرض وأبعده(١) فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها لتعلموا أن الله حَكَمٌ عدل ، لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه (٢) .

وقال ابن جرير : حدثنا إسماعيل بن حفص الأُبُلِّىّ ، حدثنا محمد بن جعفر ، عن سليمان التيمى ، عن أبى عثمان النهدى ، عن سلمان قال : كانت امرأة فرعون تُعَذَّب فى الشمس ، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها ، وكانت ترى بيتها فى الجنة (٢) .

ثم رواه عن محمد بن عبيد(٣) المحاربى عن أسباط بن محمد ، عن سليمان التيمى ، به .

ثم قال ابن جرير : حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن عُلَيَّة ، عن هشام الدَّستوائى ، حدثنا القاسم بن أبى بزة قال : كانت امرأة فرعون تسأل : من غلب ؟ ؟ فيقال : غلب موسى وهارون . فتقول : آمنت برب موسى وهارون فأرسل إليها فرعون فقال : انظروا أعظم صخرة تجدونها ، فان مضت على قولها فألقوها عليها ، وإن رجعت عن قولها فهى امرأته فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها فى الجنة ، فمضت على قولها ، وانتزع [الله] (٤) روحها ، وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح (٥) .

فقولها : (رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة) قال العلماء : اختارت الجار قبل الدار : وقد ورد شىء من ذلك فى حديث مرفوع : (ونجنى من فرعون وعمله) ، أى : خلصنى منه ، فإنى أبرأ من عمله ، (ونجنى من القوم الظالمين) . وهذه المرأة هى آسية بنت مزاحم رضى الله عنها .

وقال أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية قال : كان إيمانُ امرأة فرعونَ من قبل إيمان امرأة خازن فرعون ، وذلك أنها جلست تمشط ابنة فرعون ، فوقع المشط من يدها ، فقالت : تعس من كفر بالله ؟ فقالت لها

---

(١) أى : وأبعدهم . وإفراد الضمير مع اسم التفضيل فى مثل هذا المقام فصيح شائع فى لسان العرب ، ويقول علماء العربية إن التقدير : وأبعد شىء ، فلذا أفرد العرب الضمير .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٨/١١٠ .

(٣) فى المخطوطة : «عن عبيد بن محمد» . والمثبت عن تفسير الطبرى . وانظر أيضاً تفسير الطبرى ط دار المعارف ، الأثر ١١٥٣٠ : ١٠/٧٦ – ٧٧ ، وتعليق السيد المحقق هناك .

(٤) ما بين القوسين عن تفسير الطبرى .

(٥) تفسير الطبرى : ٢٨/١١٠ .

ابنة فرعون ، ولك رب غير أبي ؟ قالت : ربي ورب أبيك ورب كل شيء الله . فلطمتها بنت فرعون وضربتها ، وأخبرت أباها ، فأرسل إليها فرعون فقال : تعبدين رباغيري ؟ قالت : نعم ، ربي وربك ورب كل شيء الله ، وإياه أعبد فعذبها فرعون وأوتد لها أوتاداً ، فشد رجليها ويديها وأرسل عليها الحيات ، وكانت كذلك ، فأتى عليها يوماً فقال لها : ما أنت منتهية ؟ فقالت له : ربي وربك ورب كل شيء الله . فقال لها : إني ذابح ابنك في فيك إن لم تفعلي . فقالت له : اقض ما أنت قاض . فذبح ابنها في فيها ، وإن روح ابنها بشرها فقال لها : أبشري يا أمه فان لك عند الله من الثواب كذا وكذا . فصبرت ثم أتى فرعون يوماً آخر فقال لها مثل ذلك ، فقالت له ، مثل ذلك ، فذبح ابنها [الآخر] في فيها ، فبشرها روحه أيضاً ، وقال لها : أصبري ياأمه فان لك عند الله من الثواب كذا وكذا . قال : وسمعت امرأة فرعون كلام روح ابنها الأكبر ثم الأصغر . فآمنت امرأة فرعون ، وقبض الله روح امرأة خازن فرعون ، وكشف الغطاء عن ثوبها ومنزلتها و كرامتها في الجنة لا مرأة فرعون حتى رأت فازدادت إيماناً ويقيناً وتصديقاً ، فاطّلع فرعون على إيمانها ، فقال للملأ : ما تعلمون من آسية بنت مزاحم ؟ فأثنوا عليها ، فقال لهم : إنها تعبد غيري . فقالوا له : اقتلها . فأوتد لها أوتاداً ، فشد يديها ورجليها ، فدعت آسية ربها فقالت : (رب ، ابن لى عندك بيتاً في الجنة) . فوافق ذلك أن حضرها فرعون ، فضحكت حين رأت بيتها في الجنة فقال فرعون : ألا تعجبون من جنونها ، إنا نعذبها وهي تضحك ، فقبض الله روحها رضي الله عنها(١)

وقوله (ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها) ، أي حفظته وصانته . الإحصان : هو العفاف والحرية ، (فنفخنا فيه من روحنا) ، أي : بواسطة الملك ، وهو جبريل ، فان الله بعثه إليها فتمثل لها في صورة بشر سوىّ ، وأمره الله تعالى أن ينفخ بفيه في جَيب درعها ، فنزلت النفخة فولجت في فرجها ، فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام . ولهذا قال : (فنفخنا فيه روحنا ، وصدقت بكلمات ربها وكتبه) ، أي : بقدره وشرعه ، (وكانت من القانتين) .

قال الإمام أحمد : حدثنا يونس ، حدثنا داود بن أبي الفرات ، عن علباء ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : خط رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في الأرض أربعة خطوط ، وقال : « أتدرون ما هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل نساء أهل الجنة : خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم ابنة عمران وآسية ابنة مزاحم امرأة فرعون (٢) » .

وثبت في الصحيحين من حديث شعبة ، عن عمرو بن مُرّة ، عن مُرّة الهَمْدانى ، عن أبي موسى الأشعرى ، عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « كَمَلَ من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران وخديجة بنت خُوَيلد ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام (٣) » .

وقد ذكرنا طرق هذه الأحاديث وألفاظها والكلام عليها في قصة عيسى ابن مريم — عليهما السلام — في كتابنا (البداية والنهاية) ولله الحمد والمنة ، وذكرنا ما ورد من الحديث من أنها تكون هي وآسية بنت مزاحم من أزواجه عليه السلام في الجنة عند قوله (ثيبات وأبكارا) .

[آخر تفسير « سورة التحريم » ولله الحمد]

---

(١) تفسير الطبري : ٢٨/١١٠ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١/٢٩٣ .

(٣) البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب قول الله تعالى : (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ...) : ٧/١٩٣ . ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب « فضائل خديجة أم المؤمنين » : ٧/١٣٢ — ١٣٣ .

تفسير سورة الملك

وهى مكية

قال أحمد : حدثنا حجاج بن محمد وابن جعفر قالا : حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن عباس الجُشَمى ، عن أبى هُرَيرة عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « إن سورة فى القرآن ثلاثين آية شفَعت لصاحبها حتى غفر له : تبارك الذى بيده الملك (١) .

ورواه أهل السنن الأربعة ، من حديث شعبة ، به . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن (٢) .

وقد روى الطبرانى والحافظ الضياء المقدسى ، من طريق سَلاّم بن مسكين ، عن ثابت عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سورة فى القران خاصَمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة : تبارك الذى بيده الملك » .

وقال الترمذى : حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب ، حدثنا يحيى بن مالك النُكرى ، عن أبيه ، عن أبى الجوزاء ، عن ابن عباس قال : ضرب بعض أصحاب النبى — صلى الله عليه وسلم — خباءه (٣) على قبر ، وهو لا يحسب أنه قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم — فقال : يارسول الله ، ضربت خبائى على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر ، فاذا إنسان يقرأ سورة الملك : (تبارك) ، حتى ختمها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم — : « هى المانعة ، هى المنجية ، تنجيه من عذاب القبر » . ثم قال : « هذا حديث غريب من هذا الوجه . وفى الباب عن أبى هريرة (٤) » ثم روى الترمذى أيضاً من طريق ليث بن أبى سليم ، عن أبى الزبير ، عن جابر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا ينام حتى يقرأ (الم . تنزيل) ، (وتبارك الذى بيده الملك) . وقال ليث عن طاوس : يفضلان كل سورة فى القرآن بسبعين حسنة . (٥) .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن الحسن بن علاف الأصبهانى(٦)، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان عن أبيه ، عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لوددت أنها فى قلب كل إنسان من أمتى » . يعنى (تبارك الذى بيده الملك) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣٢١/٢ . وانظر أيضاً : ٢٩٩/٢ .

(٢) تحفة الأحوذى ، أبواب فضائل القرآن ، باب « ما جاء فى سورة الملك » ، الحديث ٣٠٥٣ : ٨:٢٠٠ — ٢٠١ وسنن ابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب « ثواب القرآن » ، الحديث ٣٧٨٦ : ١٢٤٤/٢ .

(٣) الخباء : الخيمة .

(٤) تحفة الأحوذى ، أبواب فضائل القرآن ، باب « ما جاء فى سورة الملك ، الحديث : ٣٠/٥٢ : ١٩٩/٨ — ٢٠٠ .

(٥) تحفة الأحوذى : ٢٠١/٨ — ٢٠٢ .

(٦) لم تقف لنا ترجمته فى المعجم الصغير .

هذا حديث غريب ، وإبراهيم ضعيف ، وقد تقدم مثله فى سورة «يس» (١) وقد روى هذا الحديث عبدُ حُمَيد فى مسنده بأبسط من هذا ، فقال :

حدثنا إبراهيم بن الحكم ، عن أبيه ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال لرجل : ألا أتحفك بحديث تفرح به ؟ قال : بلى . قال : اقرأ (تبارك الذى بيده الملك) وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك ، فإنها المنجية والمجادلة ، تجادل ــ أو تخاصم ــ يوم القيامة عند ربها لقارئها ، وتطلب له [أن ينجيه] من عذاب النار ، وينجى بها صاحبها من عذاب القبر ؛ قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « لَوددتُ أنها فى قلب كل إنسان من أمتى » .

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى تاريخه ، فى ترجمة أحمد بن نصر بن زياد ، أبى عبد الله القرشى النيسابورى » المقرىء الزاهد الفقيه ، أحد الثقات الذين روى عنهم البخارى ومسلم ، لكن فى غير الصحيحين ، وروى عنه الترمذى وابن ماجه وابن خزيمة ، وعليه تفقه فى مذهب أبى عُبَيد بن حَرْبَوَيه(٢) ، وخلق سواهم ، ساق بسنده من حديثه عن فرات بن السائب ، عن الزهرى ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن رجلا ممن كان قبلكم مات ، وليس معه شىء من كتاب الله إلا «تبارك» ، فلما وضع فى حفرته أتاه المَلَك فثارت السورة فى وجهه ، فقال لها : إنك من كتاب الله ، وأنا أكره مساءتك ، وإنى لا أملك [لك] ولا له ولا لنفسى ضرا ولا نفعاً ، فان أردت هذا به فانطلقى إلى الرب تبارك وتعالى فاشفعى له : فتنطلق إلى الرب فتقول : يارب ، إن فلاناً عَمَد إلىَّ من بين كتابك فتعلّمنى وتلانى أفتحرقه أنت بالنار وتعذبه وأنا فى جوفه ؟ فان كنت فاعلا ذاك به فامحنى من كتابك . فيقول : ألا أراك غضبت ؟ فتقول : وحُقَّ لى أن أغضب . فيقول : اذهبى فقد وهبته لك ، وشفّعتك فيه . قال فتجىء [فيخرج] (٣) الملك ، فيخرج كاسف البال لم يَحْلَ (٤) منه بشىء . قال : فتجىء فتضع فاها على فيه ، فتقول : مرحبا بهذا الفم ، فربما تلانى ، ومرحباً بهذا الصدر ، فربما وعانى ، ومرحباً بهاتين القدمين ، فربما قامتا بى . وتؤنسه فى قبره مخافة الوحشة عليه » . قال : فلما حدّث بهذا رسولُ الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لم يبق صغير ولا كبير ولا حُرّ ولا عَبد ، إلا تعلمها ، وسماها رسول الله صلى الله عليه وسلم المنجية .

قلت : وهذا حديث منكر جداً ، وفرات بن السائب(٥) هذا ضعفه الإمام أحمد ، ويحيى بن معين ، والبخارى ، وأبو حاتم ، والدار قطنى وغير واحد . وقد ذكره ابن عساكر من وجه آخر ، عن الزهرى ، من قوله مختصراً . وروى البيهقى فى كتاب « إثبات عذاب القبر » عن ابن مسعود موقوفاً ومرفوعاً ما يشهد لهذا ، وقد كتبناه فى كتاب الجنائز من الأحكام الكبرى ، ولله الحمد .

---

(١) انظر : ٥٤٨/٦ .

(٢) هو على بن الحسن بن حربويه الفقيه الشافعى ، قاضى مصر . قال عنه الذهبى : «وهو من أصحاب الوجوه» . وقال أبو سعيد بن يونس : «كان شيئاً عجيباً ، ما رأينا مثله ، لا قبله ولا بعده ، وكان يتفقه على مذهب أبى ثور » . توفى ــ رحمه الله سنة ٣١٩ . انظر العبر للذهبى : ١٧٦/٢ .

(٣) ما بين القوسين عن الدر المنثور للسيوطى ٢٤٦/٦ . ولفظ الدر : «فتجىء سورة الملك ، فيخرج كاسف البال » . وكان فى المخطوطة : «خاسف البال» . ورجل كاسف البال : سىء الحال .

(٤) أى : لم يظفر بشىء .

(٥) انظر الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٨٠/٢/٣ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤) وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥)

يمجد تعالى نفسه الكريمة ، ويخبر أنه بيده الملك ، أي : هو المتصرف فى جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله . ولهذا قال : (وهو على كل شيء قدير) :

ثم قال : (الذى خلق الموت والحياة) : واستدل بهذه الآية من قال : إن الموت أمر وجودى لأنه مخلوق . ومعنى الآية أنه أوجد الخلائق من العدم، ليبلوهم ويختبرهم أيهم أحسن عملا ؟ كما قال: (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم)(١) فسمى الحال الأول — وهو العدم موتاً ؛ وسمى هذه النشأة حياة . ولهذا قال : (ثم يميتكم ثم يحييكم) :

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة [حدثنا] صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا خُلَيد ، عن قتادة فى قوله : (الذى خلق الموت والحياة) ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله أذل بنى آدم بالموت ، وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت ، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء » .

ورواه معمر ، عن قتادة (٢) .

وقوله : (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) ، أى : خير عملا ، كما قال محمد بن عجلان : ولم يقل أكثر عملا .

ثم قال : (وهو العزيز الغفور) ، أى : هو العزيز العظيم المنيع الجناب ، وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأناب ، بعد ما عصاه وخالف أمره ، وإن كان تعالى عزيزاً هو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز .

ثم قال : (الذى خلق سبع سموات طباقاً) ، أى : طبقة بعد طبقة ، وهل هن متواصلات بمعنى أنهن علويات بعضهن على بعض ، أو متفاصلات بينهن خلاء ؟ فيه قولان ، أصحهما الثانى ، كما دل على ذلك حديث الإسراء وغيره .

وقوله : (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) ، أى : بل هو مصطحب مستو ، ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة ، ولا نقص ولا عيب ولا خلل . ولهذا قال : (فارجع البصر هل ترى من فطور) ، أى : انظر إلى السماء فتأملها ، هل ترى فيها عيبا أو نقصاً أو خللا أو فطوراً ؟ .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك والثورى ، وغيرهم فى قوله : (فارجع البصر هل ترى من فطور) ، أى : شقوق (٣) .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٨ .
(٢) تفسير الطبرى : ٢/٢٩ .
(٣) تفسير الطبرى : ٣/٢٩ .

وقال السدى: (هل ترى من فطور) . أى : من خروق . وقال ابن عباس فى رواية : (من فطور) ، أى : من وُهِىٍّ(١) ، وقال قتادة (هل ترى من فطور) أى : هل ترى خللاً ياابن آدم ؟ .

وقوله : (ثم ارجع البصر كرتين) ، قال : مرتين . (ينقلب إليك البصر خاسئا) قال ابن عباس : ذليلا ؟ وقال مجاهد ، وقتادة : صاغراً .

(وهو حسير) ، قال ابن عباس : يعنى وهو كليل . وقال مجاهد : وقتادة . والسدى : الحسير : المنقطع من الإعياء .

ومعنى الآية إنك لو كررت البصر ،مهما كررت ، لا نقلب إليك . أى : لرجع إليك البصر ، (خاسئا) ، عن أن يرى عيباً أو خللا . (وهو حسير) . أى كليل وقد انقطع من الإعياء من كثرة التكرر ، ولا يرى نقصا .

ولما نفى عنها فى خلقها النقص بين كمالها وزينتها فقال : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) ، وهى الكواكب التى وضعت فيها من السيارات والثوابت .

وقوله : (وجعلناها رجوما للشياطين) : عاد الضمير فى قوله وجعلناها على جنس المصابيح لا على عينها ، لأنه لا لا يرمى بالكواكب التى فى السماء ، بل بشهب من دونها ، وقد تكون مستمدة منها ، والله أعلم .

وقوله : (وأعتدنا لهم عذاب السعير) ، أى : جعلنا للشياطين هذا الخزى فى الدنيا ، وأعتدنا لهم عذاب السعير فى الأخرى ، كما قال : فى أول الصافات : (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظا من كل شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب . دحوراً ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب (٢) .

قال قتادة : إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال : خلقها زينة للسماء ، ورجوما للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه . وتكلف مالا علم له به . رواه ابن جرير(٣) وابن أبى حاتم :

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾.

يقول تعالى : (و) أعتدنا (للذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير) ، أى : بئس المآل والمنقلب . (إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً) ـــ قال ابن جرير : يعنى الصياح (٣) .

(١) فى المخطوطة : « وهاء » . والمثبت عن تفسير الطبرى ٢٩/ ٣ . والوهى ـــ بضم الواو وكسر الهاء ، وياء مشددة ـــ جمع وهى ـــ بفتح فسكون ـــ وهو : الشق فى الشىء .

(٢) سورة الصافات ، الآيات : ٦ ـــ ١٠ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٩/ ٣ ـــ ٤ .

(٤) لفظ ابن جرير ٢٩/ ٤ : « يعنى بالشهيق : الصوت الذى يخرج من الجوف بشدة كصوت الحمار » .

(وهي تفور) — قال الثورى : تغلى بهم كما يغلى الحَبّ القليل فى الماء الكثير .

وقوله : (تكاد تميز من الغيظ) ، أى : تكاد ينفصل بعضها من بعض ، من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم ، (كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير . قالوا : بلى ، قد جاءنا نذير ، فكذبنا وقلنا : ما نزل الله من شىء ، إن أنتم إلا فى ضلال كبير) : يذكر تعالى عدله فى خلقه ، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه ، كما قال : (وماكنا معذّبين حتى نبعث رسولا) (١) وقال تعالى : (حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : بلى ، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) (٢) . وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة ، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة ، فقالوا : (لوكنا نسمع أو نعقل ، ما كنا فى أصحاب السعير) ، أى : لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزل الله من الحق ، لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاغترار به ، ولكن لم يكن لنا فهم نعى به ما جاءت به الرسل ، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم ، قال الله تعالى : (فاعترفوا بذنبهم ، فسحقا لأصحاب السعير) .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى البَختَرىّ الطائى قال : أخبرنى من سمعه من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : «لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم (٣) » . وفى حديث آخر : « لا يدخل أحد النار ، إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة » .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾

يقول تعالى مخبراً عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائباً عن الناس ، فينكف عن المعاصى ويقوم بالطاعات ، حيث لا يراه أحد إلا الله — بأنه له مغفرة وأجر كبير ، أى : يكفر عنه ذنوبه ، ويجازى بالثواب الجزيل ، كما ثبت فى الصحيحين : « سبعة يظلهم الله فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله » ، فذكر منهم ، رجلا دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجلا تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه (٤) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا طالوت بن عباد ، حدثنا الحارث بن عبيد ، عن ثابت ، عن أنس قال : قالوا : يارسول الله ، إنا نكون عندك على حال ، فإذا فارقناك كنا على غيره ؟ قال : «كيف أنتم وربكم ؟ » فالوا : الله ربنا فى السر والعلانية . قال : « ليس ذلكم النفاق » .

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ١٥ .

(٢) سورة الزمر ، آية : ٧١ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٢٦٠/٤ ، وانظر أيضاً : ٢٩٣/٥ .

(٤) البخارى ، كتاب الأذان ، باب « من جلس فى المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد » : ١٦٨/١ . ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب « فضل إخفاء الصدقة » : ٩٣/٣ .

لم يروه عن ثابت إلا الحارث بن عُبَيد فيما نعلمه .

ثم قال تعالى منبها على أنه مطلع على الضمائر والسرائر : (وأسروا قولكم أو اجهروا به ، إنه عليم بذات الصدور) ، أى : بما خطر فى القلوب ، (ألا يعلم من خلق ؟) ، أي : ألا يعلم الخالق . وقيل : معناه : ألا يعلم الله مخلوقه ؟ والأول أولى ، لقوله ، (وهو اللطيف الخبير) .

ثم ذكر نعمته على خلقه فى تسخيره لهم الأرض وتذليله إياها لهم ، بأن جعلها قارة ساكنة لا تمتد ولا تضطرب ، بما جعل فيها من الجبال ، وأنبع فيها من العيون ، وسلك فيها من السبل ، وهيأها فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار ، فقال : (هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها) ، أى : فسافروا حيث شئتم من أقطارها ، وترددوا فى أقاليمها وأرجائها فى أنواع المكاسب والتجارات ، واعلموا أن سعيكم لا يجدى عليكم شيئاً ، إلا أن ييسره الله لكم . ولهذا قال : (وكلوا من رزقه) ، فالسعى فى السبب لا ينافى التوكل ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حيوة ، أخبرنى بكر بن عمرو : أنه سمع عبد الله بن هُبَيْرة يقول : إنه سمع أبا تميم الجَيْشانى يقول : إنه سمع عمر بن الخطاب يقول : إنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو (١) خماصا وتروح بطانا (٢) » .

رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه ، من حديث ابن هبيرة ، وقال الترمذى : « حسن صحيح (٣) » فأثبت لها رواحا وغدوا لطلب الرزق ، مع توكلها على الله ـ عز وجل ـ وهو المسخر المسير المسبب : (وإليه النشور) ، أى : المرجع يوم القيامة .

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدى : (مناكبها) أطرافها وفجاجها ونواحيها : وقال ابن عباس وقتادة : (مناكبها) الجبال .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عمرو بن حكام الأزدى ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن يونس بن جبير ، عن بشير ابن كعب : أنه قرأ هذه الآية : (فامشوا فى مناكبها) فقال لأم ولد له : إن علمت (مناكبها) فأنت عتيقة ، فقالت : هى الجبال : فسأل أبا الدرداء فقال : هى الجبال .

---

(١) خماصا : جياعاً ، وبطانا : ممتلئة الأجواف .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١/٣٠ ، وانظر أيضاً : ١/٥٢ .

(٣) تحفة الأحوذى ، أبواب الزهد ، باب «ما جاء فى الزهادة فى الدنيا» ، الحديث ٢٤٤٧ : ٧/٨ ، وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب «التوكل واليقين» ، الحديث ٤١٦٤ : ٢/١٣٩٤ .

ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ
حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ
فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾

وهذا أيضاً من لطفه ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم ، بسبب كفر بعضهم به وعبادتهم معه غيره وهو مع هذا يحلم ويصفح ، ويؤجل ولا يعجل ، كما قال : (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً) (١) .

وقال هاهنا : (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور) ، أى : تذهب وتجىء وتضطرب ، (أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا) ، أى : ريحا فيها حصباء تدمغكم ، كما قال : (أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر ، أو يرسل عليكم حاصبا ، ثم لا تجدوا لكم وكيلا) (٢) . وهكذا توعدهم هاهنا بقوله :(فستعلمون كيف نذير) أى : كيف يكون إنذارى وعاقبة من تخلف عنه وكذب به .

ثم قال : (ولقد كذب الذين من قبلهم) ، أى : من الأمم السالفة والقرون الخالية ، (فكيف كان نكير) ، أى : فكيف كان إنكارى عليهم ومعاقبتى لهم ؟ أى : عظيا شديدا أليما . .

ثم قال تعالى : (أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن) ، أى : تارة يصففن أجنحتهن فى الهواء ، وتارة تجمع جناحاً وتنشر جناحاً ، (ما يمسكهن) ، أى : فى الجو (إلا الرحمن) ، أى : بما سخر لهن من الهواء ، من رحمته ولطفه ، (إنه بكل شىء بصير) ، أى : بما يصلح كل شىء من مخلوقاته . وهذه كقوله : (ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون (٣)) .

أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ
إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي
الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا
نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾

يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا غيره ، يبتغون عندهم نصراً ورزقاً ، منكراً عليهم فيما اعتقدوه ، ومُخبراً لهم أنه لا يحصل لهم ما أملوه ، فقال : (أمّن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن) ، أى : ليس لكم من دونه من ولى [ولا واق] ، ولا ناصر لكم غيره ولهذا قال : (إن الكافرون إلا فى غرور) ،

---

(١) سورة فاطر ، آية : ٤٥ .
(٢) سورة الإسراء ، آية : ٦٨ .
(٣) سورة النحل ، آية : ٧٩ .

ثم قال : (أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه ؟) ، أى : من هذا الذى إذا قطع الله رزقه عنكم يرزقكم بعده ؟ ! أى : لا أحد يعطى ويمنع ويخلق ويرزق ، وينصر إلا الله عز وجل وحده ، لا شريك له : أى : وهم يعلمون ذلك ، ومع هذا يعبدون غيره ، ولهذا قال : (بل لجوا) أى : استمروا فى طغيانهم وإفكهم وضلالهم ، (فى عتو ونفور) ، أى : معاندة واستكبار ونفوراً على أدبارهم عن الحق لا يسمعون له ولا يتبعونه .

ثم قال : (أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم ؟) ، وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالكافر مثله فيا هو فيه كمثل من يمشى مُكبًا على وجهه ، أى يمشى منحنيا لا مستويا على وجهه ، أى : لا يدرى أين يسلك ولا كيف يذهب ؟ بل تائه حائر ضال ، أهذا أهدى (أمن يمشى سويا) ، أى : منتصب القامة (على صراط مستقيم) ، أى : على طريق واضح بين ، وهو فى نفسه مستقيم ، وطريقه مستقيمة . هذا مثلهم فى الدنيا ، وكذلك يكونون فى الآخرة . فالمؤمن يحشر يمشى سويا على صراط مستقيم ، مُفض به إلى الجنة الفيحاء ، وأما الكافر فانه يحشر يمشى على وجهه إلى نار جهنم ، (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون . من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم وقفوهم إنهم مسئولون . ما لكم لا تناصرون . بل هم اليوم مستسلمون) (١) .

قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا ابن نمير ، حدثنا إسماعيل ، عن نفيع قال : سمعت أنس بن مالك يقول : قيل : يارسول الله ، كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ فقال : « أليس الذى أمشاهم على أرجلهم قادراً على أن يمشيهم على وجوههم(٢)

وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين من طريق [يونس بن محمد ، عن شيبان ، عن قتادة ، عن أنس ، به نحوه](٣).

وقوله : (قل : هو الذى أنشأكم) ، أى : ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكورا ، (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) ، أى : العقول والإدراك ، (قليلا ما تشكرون) ، أى ما أقل تستعملون هذه القوى التى أنعم الله بها عليكم ، فى طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره .

(قل : هو الذى ذرأكم فى الأرض) ، أى : بثكم ونشركم فى أقطار الأرض وأرجائها ، مع اختلاف ألسنتكم فى لغاتكم وألوانكم ، وحلاَ كم(٤) وأشكالكم وصوركم ، (وإليه تحشرون) ، أى : تجمعون بعد هذا التفرق والشتات ، يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم .

ثم قال مخبراً عن الكفار المنكرين المعاد المستبعدين وقوعه : (ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟) ، أى : متى هذا الذى تخبرنا بكونه من الاجتماع بعد هذا التفرق ؟ (قل : إنما العلم عند الله) ، أى : لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله ــ عز وجل ــ لكنه أمرنى أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه ، (وإنما أنا نذير مبين) : وإنما على البلاغ ، وقد أديته إليكم .

(١) سورة الصافات ، الآيات : ٢٢ — ٢٦ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١٦٧/٣ .

(٣) ما بين القوسين مكانه بياض فى المخطوطة،وقد أثبتناه تتمة للسياق ، والحديث قد تقدم إخراجه عن الصحيحين عند تفسير آية الفرقان ٣٤ : ١١٨/٦ . وهذه الطريق التى فى الصحيحين – طريق يونس بن محمد – أخرج منها الإمام أحمد حديث أنس أيضاً فى المسند : ٢٢٩/٣ ، ويبدو أن هذا هو سر توقف ابن كثير ، والله أعلم .

(٤) الحلى – بكسر ففتح – : العلامات الظاهرة .

قال الله تعالى : (فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا) ، أى : لما قامت القيامة وشاهدها الكفار ، ورأوا أن الأمر كان قريباً ، لأن كل ما هو آت آتٍ وإن طال زمنه ، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك ، لما يعلمون مالهم هناك من الشر ، أى : فأحاط بهم ذلك، وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم فى بال ولا حساب،(وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون. وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) (١) . ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ: (هذا الذى كنتم به تدّعون) ، أى : تستعجلون .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى : (قل) : يامحمد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه : (أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا ، فمن يجير الكافرين من عذاب أليم) ، أى : خلّصوا أنفسكم ، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا التوبة والإنابة ، والرجوع إلى دينه ، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنكال ، فسواء عذبنا الله أو رحمنا ، فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم .

ثم قال : (قل : هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا) ، أى : آمنا برب العالمين الرحمن الرحيم ، وعليه توكلنا فى جميع أمورنا، كما قال: (فاعبده وتوكل عليه (٢)) . ولهذا قال : (فستعلمون من هو فى ضلال مبين؟) أى: منا ومنكم ، ولمن تكون العاقبة فى الدنيا والآخرة ؟

ثم قال : (قل: أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً)، أى : ذاهبا فى الأرض إلى أسفل ، فلا يُنال بالفئوس الحداد ، ولا السواعد الشداد، والغائر :عكس النابع . ولهذا قال: (فمن يأتيكم بماء معين ؟) أى : نابع سائح (٣) جارٍ على وجه الأرض، لا يقدر على ذلك إلا الله — عز وجل — فمن فضله وكرمه أنبع لكم المياه وأجراها فى سائر أقطار الأرض ، بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة ، فله الحمد والمنة .

[آخر تفسير « سورة الملك » ولله الحمد]

(١) سورة الزمر ، آية : ٤٧ – ٤٨ .
(٢) سورة هود ، آية : ١٢٣ .
(٣) فى المخطوطة : « نابع صالح » . والمثبت من الطبعات السابقة .

تفسير سورة « ن »

وهى مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ (٧)

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء فى أول « سورة البقرة »[1] وأن قوله : (ن) كقوله : (ص) ، (ق) ، ونحو ذلك من الحروف المقطعة فى أوائل السور ، وتحرير القول فى ذلك بما أغنى عن إعادته .

وقيل : المراد بقوله : (ن) : حوت عظيم على تيار الماء العظيم المحيط ، وهو حامل للأرضين السبع ، كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير :

حدثنا ابن بشار ، حدثنا يحيى ، حدثنا سفيان — هو الثورى — حدثنا سليمان — هو الأعمش — عن أبى ظبيان ، عن ابن عباس قال : أول ما خلق الله القلم قال : اكتب . قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب القَدَر . فجرى بما يكون من ذلك اليوم إلى يوم قيام الساعة . ثم خلق « النون » ورفع بخار الماء ، ففُتِقت منه السماء ، وبسطت الأرض على ظهر النون ، فاضطرب النون فمادت الأرض ، فأثبتت بالجبال ، فإنها لتفخر على الأرض[2] .

وكذا رواه ابن أبى حاتم عن أحمد بن سنان ، عن أبى معاوية ، عن الأعمش ، به . وهكذا رواه شعبة ، ومحمد بن فضيل ، ووكيع ، عن الأعمش ، به — وزاد شعبة فى روايته : ثم قرأ : (ن والقلم وما يسطرون) . وقد رواه شريك عن الأعمش عن أبى ظبيان — أو مجاهد — عن ابن عباس ، فذكر نحوه . ورواه معمر ، عن الأعمش : أن ابن عباس قال . . . فذكره ، ثم قرأ : (ن والقلم وما يسطرون) . ثم قال ابن جرير :

حدثنا ابن حميد ، حدثنا جرير ، عن عطاء ، عن أبى الضحى ، عن ابن عباس قال : إن أول شىء خلق ربى — عز وجل — القلم ، ثم قال له : اكتب . فكتب ما هو كائن إلى أن تقوم الساعة . ثم خلق « النون » فوق الماء ، ثم كبس الأرض عليه[3] .

---

(١) انظر : ١/٥٦ — ٦٠ .

(٢) تفسير الطبرى : ٢٩/٩ — ١٠ .

(٣) تفسير الطبرى : ٢٩/١٠ .

وقد روى الطبرانى ذلك مرفوعاً فقال: حدثنا أبو حبيب [زيد بن] المهتدى المرُّوذىّ، حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقانى، حدثنا مؤمل بن إسماعيل، حدثنا حماد بن زيد، عن عطاء بن السائب، عن أبى الضحى مسلم بن صبيح، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أول ما خلق الله القلم والحوت [قال للقلم: اكتب] قال: ما أكتب قال: كلّ شيء كائن إلى يوم القيامة». ثم قرأ: (ن والقلم وما يسطرون)، فالنون: الحوت. والقلم: القلم.

حديث آخر فى ذلك رواه [ابن عساكر] عن أبى عبد الله مولى بنى أمية، عن أبى صالح، عن أبى هُرَيرة: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن أول شيء خلقه الله القلم، ثم خلق «النون» وهى: الدواة. ثم قال له: اكتب قال: وما أكتب؟ [قال: اكتب] ما يكون – أو: ما هو كائن – من عمل أو رزق أو أثر أو أجل. فكتب ذلك إلى يوم القيامة، فذلك قوله: (ن والقلم وما يسطرون). ثم ختم على القلم فلم يتكلم إلى يوم القيامة، ثم خلق العقل وقال: وعزتى لأكملنك [فيمن أحببت، ولأنقصنك ممن أبغضت] (١).

وقال ابن أبى نجيح: إن إبراهيم بن أبى بكر أخبره عن مجاهد قال: كان يقال: النون: الحوت الذى تحت الأرض السابعة.

وقد ذكر البغوى وجماعة من المفسرين: إن على ظهر هذا الحوت صخرة سمكها كغلظ السموات والأرض، وعلى ظهرها ثور له أربعون ألف قرن، وعلى متنه الأرضون السبع وما فيهن وما بينهن، فالله أعلم. ومن العجيب أن بعضهم حمل [على] هذا المعنى الحديث الذى رواه الإمام أحمد.

حدثنا إسماعيل، حدثنا حُمَيد، عن أنس: أن عبد الله بن سلام بلَغَه مَقْدَمَ رسول الله – صلى الله عليه وسلم المدينة فأتاه فسأله عن أشياء، قال: إنى سائلك عن أشياء لا يعلمها إلا نبى، قال: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه؟ والولد ينزع إلى أمه؟ قال: «أخبرنى بهن جبريل آنفا»: قال ابن سلام: فذاك عدو اليهود من الملائكة. قال: «أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب. وأول طعام يأكله أهل الجنة زيادةُ كبد حوت. وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نَزَع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت (٢)».

ورواه البخارى من طرق عن حُمَيد (٣) ورواه مسلم (٤) أيضاً. وله من حديث ثوبان – مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم – نحو هذا. وفى صحيح مسلم من حديث أبى أسماء الرحبى، عن ثوبان: أن حَبْراً سأل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن مسائل، فكان منها قال: فما تحفتهم؟ – يعنى أهل الجنة حين يدخلون الجنة – قال: «زيادة كبد الحوت»، قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: «ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل من أطرافها». قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عين [فيها] تسمى سلسبيلا» (٥).

---

(١) ما بين القوسين عن الدر المنثور ٦/٢٥٠، ومكانه بياض فى المخطوطة. وقد أخرجه السيوطى عن الحكيم الترمذى.
(٢) مسند الإمام أحمد: ٣/١٨٩.
(٣) البخارى، تفسير سورة البقرة: ٦/٢٣.
(٤) كذا، ولم يقع لنا حديث مسلم.
(٥) مسلم، كتاب الحيض، باب «بيان صفة منى الرجل والمرأة، وأن الولد مخلوق من مائهما»: ١/١٧٣.

وقيل : المراد بقوله : (ن) : لوح من نور .

قال ابن جرير : حدثنا الحسن بن شبيب المكتب : حدثنا محمد بن زياد الجزري ، عن فرات بن أبي الفرات ، عن معاوية بن قُرّة ، عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — (ن والقلم وما يسطرون) : لوح من نور ، وقلم من نور (١) ، يجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة (٢) ; وهذا مرسل غريب .

وقال ابن جريج : أخبرت أن ذلك القلم من نور طوله مائة عام .

وقيل : المراد بقوله : (ن) : دواة ، والقلم : القلم : قال ابن جرير .

حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن الحسن وقتادة فى قوله : (ن) ، قالا : هى الدواة (٣) .

وقد روى فى هذا حديث مرفوع غريب جداً فقال ابن أبي حاتم :

حدثنا أبي ، حدثنا هشام بن خالد ، حدثنا الحسن بن يحيى ، حدثنا أبو عبد الله مولى بنى أمية ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خلق الله النون ، وهى الدواة » .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يعقوب ، حدثنا أخى عيسى بن عبد الله ، حدثنا ثابت الثمالى (٤) ، عن ابن عباس قال : إن الله خلق النون — وهى الدواة — وخلق القلم ، فقال : اكتب . قال : وما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة من عمل معمول ، بر أو فجور ، أو رزق مقسوم حلال أو حرام ؛ ثم ألزم كلّ شيء من ذلك شأنه : دخوله فى الدنيا ، ومقامه فيها [كم] ؟ وخروجه منها كيف ؟ ثم جعل على العباد حفظة ، وللكتاب خزاناً ، فالحفظة ينسخون كل يوم من الخزان عمل ذلك اليوم ، فإذا فنى الرزق وانقطع الأثر وانقضى الأجل ، أتت الحفظة الخزنة يطلبون عمل ذلك اليوم ، فتقول لهم الخزنة : ما نجد لصاحبكم عندنا شيئاً . فترجع الحفظة فيجدونهم قد ماتوا . قال : فقال ابن عباس : ألستم قوماً عربًا تسمعون الحفظة يقولون : (إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون) ؟ وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل (٥) .

وقوله : (والقلم) : الظاهر أنه جنس القلم الذى يكتب به كقوله : (اقرأ وربك الأكرم : الذى علم بالقلم : علم الإنسان ما لم يعلم) (٦) ; فهو قسم منه تعالى ، وتنبيه لخلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التى بها تنال العلوم ؛ ولهذا قال : (وما يسطرون) — قال ابن عباس ، ، ومجاهد ، وقتادة : يعنى وما [يكتبون] .

---

(١) « وقلم من نور » : غير ثابت فى تفسير الطبرى .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٩/١٠ — ١١ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢٩/١٠ .
(٤) كذا فى المخطوطة . وفى تفسير الطبرى : « البنانى » . انظر التهذيب ، ترجمة : ثابت بن أسلم ، وترجمة : ثابت بن أبي صفية .
(٥) تفسير الطبرى : ٢٩/١٠ .
(٦) سورة العلق : ٣/٩٦ — ٥ .

وقال أبو الضحى ، عن ابن عباس : (وما يسطرون) أي : وما يعملون .

وقال السدى : (وما يسطرون) : يعني الملائكة (١) وما] تكتب من عمل العباد .

وقال آخرون : بل المراد هاهنا بالقلم الذي أجراه الله بالقدر حين كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة . وأوردوا في ذلك الأحاديث الواردة في ذكر القلم ، فقال ابن أبي حاتم :

حدثنا أبو سعيد بن يحيى (٢) بن سعيد القطان ويونس بن حبيب قالا : حدثنا أبو داود الطيالسي ، حدثنا عبد الواحد ابن سُلَيم السلمي ، عن عطاء — هو ابن أبي رباح — حدثني الوليد بن عبادة بن الصامت قال : دعاني أبي حين حضره الموت فقال : إني سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب . قال : يارب ما أكتب ؟ قال : اكتب القدر [ما كان](٣) وما هو كائن إلى الأبد » (٤) .

وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد من طرق،عن الوليد بن عبادة،عن أبيه(٥) ، به . وأخرجه الترمذي من حديث أبي داود الطيالسي ، به . وقال « : حسن صحيح غريب»(٦) . ورواه أبو داود في «كتاب السنة» من سننه ، عن جعفر ابن مسافر ، عن يحيى بن حسان ، عن ابن رباح ، عن إبراهيم بن أبي عبلة ، عن أبي حفصة — واسمه حُبَيش بن شُريح الحبشي الشامي — عن عبادة ، فذكره (٧) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الله الطوسي ، حدثنا علي بن الحسن بن شقيق ، أنبأنا عبد الله بن المبارك ، حدثنا رباح بن زيد ، عن عمر بن حبيب ، عن القاسم بن أبي بَزّة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أنه كان يحدث أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « إن أول شيء خلقه الله القلم ، فأمره فكتب كل شيء » . غريب من هذا الوجه ، ولم يخرجوه(٨) .

وقال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : (والقلم) يعني : الذي كتب به الذكر .

وقوله : (وما يسطرون) ، أي : يكتبون ، كما تقدم .

وقوله :(ما أنت بنعمة ربك بمجنون) ، أي: لست، ولله الحمد، بمجنون ، كما قد يقوله الجهلة من قومك،والمكذبون بما جئتهم به من الهدى والحق المبين،فنسبوك فيه إلى الجنون،(وإن لك لأجراً غير ممنون) ، أي : بل لك الأجر العظيم ، والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبيد،على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق،وصبرك على أذاهم . ومعنى (غير ممنون)

---

(١) ما بين القوسين من الطبعات السابقة .
(٢) هو أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان . وقد تقدم التعريف به في : ٣/٢٥٥ .
(٣) ما بين القوسين من منحة المعبود .
(٤) انظر منحة المعبود في ترتيب مسند الطيالسي أبي داود كتاب القدر ١/٣٠ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٥/٣١٧ .
(٦) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة (ن والقلم) ، الحديث ٣٣٧٥ : ٩/٢٣٢ — ٢٣٣ .
(٧) سنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب « في القدر » .
(٨) تفسير الطبري : ٢٩/١١ .

أى : غير مقطوع كقوله : (عطاء غير مجذوذ) (١) [فلهم أجر غير ممنون] (٢) ، أى : غير مقطوع عنهم : وقال وقال مجاهد : (غير ممنون) (٣) أى غير محسوب وهو يرجع إلى ما قلناه .

وقوله : (وإنك لعلى خلق عظيم) ، قال العوفى ، عن ابن عباس : أى وإنك لعلى دين عظيم ، وهو الإسلام ؛ وكذلك قال مجاهد ، وأبو مالك ، والسدى ، والربيع بن أنس ، والضحاك ، وابن زيد .

وقال عطية : لعلى أدب عظيم . وقال معمر ، عن قتادة : سئلت عائشة عن خلق رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قالت : كان خلقه القرآن ، تقول(٤) : كما هو فى القرآن .

وقال سعيد بن أبى عَرُوبة، عن قتادة قوله : (وإنك لعلى خلق عظيم) ، ذُكر لنا أن سعد(٥) بن هشام سأل عائشة عن خلق رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقالت : ألست تقرأ القرآن ؟ قال : بلى . قالت : فإن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم كان القرآن .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، عن زُرارة بن أوفى ، عن سعد بن هشام قال : سألت عائشة فقلت : أخبريني يا أم المؤمنين ــ عن خُلُق رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقالت : أتقرأ القرآن ؟ قلت نعم . فقالت : كان خلقه القرآن (٦) .

هذا حديث طويل : وقد رواه الإمام مسلم (٧) فى صحيحه ، من حديث قتادة بطوله ، وسيأتى فى « سورة المزمل » إن شاء الله تعالى .

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل، حدثنا يونس، عن الحسن قال : سألت(٨) عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : كان خلقه القرآن (٩) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود ، حدثنا شريك ، عن قيس بن وهب ، عن رجل من بنى سواد قال : سألت عائشة عن خلق رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقالت : أما تقرأ القرآن : (وإنك لعلى خلق عظيم) ؟ قال : قلت : حدثينى عن ذاك ؛ قالت : صنعت له طعاماً ، وصنعت له حفصة طعاماً ، فقلت لجاريتى : اذهبى فإن جاءت هى بالطعام فوضعته قبلُ فاطرحى الطعام ! قالت : فجاءت بالطعام . قالت : فألقت الجارية ،

---

(١) سورة هود ، آية : ١٠٨ .
(٢) سورة التين ، آية : ٦ .
(٣) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة .
(٤) فى المخطوطة : « يقول سعيد » . والمثبت عن الطبعات السابقة ، وتفسير الطبرى : ٢٩/١٢ ــ ١٣ .
(٥) فى المخطوطة وتفسير الطبرى : « سعيد » . والمثبت من الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢/١/٩٦ . ورواية مسلم التى تأتى بعد . ومسند الإمام أحمد : ٦/٥٣ .
(٦) تفسير الطبرى : ٢٩/١٣ .
(٧) مسلم ، كتاب المسافرين ، باب « جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض » : ٢/١٦٨ ــ ١٧٠ .
(٨) فى المخطوطة : « سئلت » . والمثبت عن المسند .
(٩) مسند الإمام أحمد : ٦/٢١٦ .

فوقعت القصعة فانكسرت — وكان نطعٌ (١) — قالت : فجمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « اقتصوا — أو : اقتصي — شك أسود — ظرفاً مكان ظرفك » . قالت : فما قال شيئاً (٢) :

وقال ابن جرير : حدثنا عبيد بن آدم بن أبي أياس ، حدثنا أبي ، حدثنا المبارك بن فضالة ، عن الحسن ، عن سعد (٣) ابن هشام : قال : أتيت عائشة أم المؤمنين فقلت لها : أخبريني بخلق النبي صلى الله عليه وسلم . فقالت : كان خلقه القرآن أما تقرأ : (وإنك لعلى خُلُق عظيم) ؟ :

وقد روى أبو داود والنسائي ، من حديث الحسن ، نحوه (٤) :

وقال ابن جرير : حدثني يونس ، أنبأنا ابن وهب ، أخبرني معاوية بن صالح ، عن أبي الزاهرية ، عن جُبَيْر بن نفير قال : حججتُ فدخلتُ على عائشة — رضى الله عنها — فسألتها عن خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم — فقالت : كان خُلُق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — القرآن . (٥) .

هكذا رواه أحمد، عن عبد الرحمن بن مهدى(٦) . ورواه النسائي في التفسير ، عن إسحاق بن منصور ، عن عبد الرحمن ابن مهدى ، عن معاوية بن صالح ، به .

ومعنى هذا أنه — عليه السلام — صار امتثالُ القرآن، أمراً ونهياً، سجيةً له، وخلقاً تَطَبَّعَه، وترك طبعه الجِبِلِّيّ ، فمهما أمره القرآن فعله ، ومهما نهاه عنه تركه . هذا مع ما جبله . الله عليه من الخلق العظيم ، من الحياء والكرم، والشجاعة، والصفح والحلم ، وكل خلق جميل . كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال : خدمتُ رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم — عشر سنين فما قال لي « أف » قطّ ، ولا قال لشيء فعلته: لم فعلته ؟ ولا لشيء لم أفعله : ألا فعلته ؟ . وكان صلى الله عليه أحسن الناس خلقاً، ولا مَسِسْتُ خزاً ولا حريرا ولا شيئاً كان ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا شَمِمْتُ مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عَرَق رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) .

---

(١) كذا في المخطوطة . وفي مسند الإمام أحمد : « وكان نطعا » . والنطع في اللغة : بساط من جلد . ولعل المعنى أن القصعة وقعت على البساط ، فجمع الرسول — عليه السلام — الطعام من عليه ، والله أعلم .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١١١/٦ .

(٣) في المخطوطة وتفسير الطبري ١٣/٢٩ : « سعيد » . وقد نبهنا عليه من قريب .

(٤) سنن أبي داود ، كتاب التطوع ، باب « في صلاة الليل » .

(٥) تفسير الطبري : ١٣/٢٩ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١٨٨/٦ .

(٧) انظر مسلم ، كتاب الفضائل ، باب « كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أحسن الناس خلقاً » : ٧٣/٧ — ٧٤ وباب « طيب رائحة النبي — صلى الله عليه وسلم — ولين مسه ، والتبرك بمسحه » : ٨٠/٧ — ٨١ . والبخاري ، كتاب المناقب : ٢٣٠/٤ . ومسند الإمام أحمد : ١٠٧/٣ ، ٢٠٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٧٠ .

وقال البخاري : [حدثنا أحمد بن سعيد أبو عبد الله](١) ، حدثنا إسحاق بن منصور ، حدثنا ابراهم بن يوسف عن أبيه ، عن أبي إسحاق قال : سمعت البراء يقول : كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أحسن الناس وجهاً وأحسن الناس خلقاً ، ليس بالطويل [البائن] ولا بالقصير(٢) .

والأحاديث في هذا كثيرة ، ولأبي عيسى الترمذي في هذا كتاب « الشمائل » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرازق ، حدثنا معمر ، عن الزهري ، عن عُرْوة ، عن عائشة قالت : ما ضرب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بيده خادماً له قط ، ولا امرأة ، ولا ضرب بيده شيئاً قط ، إلا أن يجاهد في سبيل الله . ولا خُيِّر بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثما ، فإذا كان إثما كان أبعد الناس ، من الإثم ، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمات الله ، فيكون هو ينتقم لله عز وجل (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سعيد بن منصور ، حدثنا عبد العزيز بن محمد ، عن محمد بن عجلان ، عن القعقاع ابن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هُرَيرة قال : قال رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم – « إنما بَعِثتُ لأتمم صالح الأخلاق (٤) » . . . تفرد به .

وقوله : (فستبصر ويُبْصِرُونَ . بأيكم المفتون) ، أي: فستعلم يامحمد ، وسيعلم مخالفوك ومكذبوك : من المفتون الضال منك ومنهم . وهذه كقوله تعالى : (سيعلمون غدا من الكذاب الأشر)(٥) ، وكقوله : (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) (٦) .

قال ابن جريج ، قال ابن عباس في هذه الآية : ستعلم ويعلمون يوم القيامة .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : (بأيكم المفتون) أي : الجنون (٧) . وكذا قال مجاهد ، وغيره .

وقال قتادة وغيره : (بأيكم المفتون) ، أي : أولى بالشيطان(٨) .

ومعنى المفتون ظاهر ، أي: الذي قد افتتن عن الحق وضل عنه، وإنما دخلت الباء في قوله: (بأيكم المفتون) لتدل على تضمين الفعل في قوله: (فستبصر ويبصرون) . وتقديره فستعلم ويعلمون ، أو: فستُخْبَر ويُخْبَرون بأيكم المفتون . والله أعلم .

ثم قال تعالى : (إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) ، أي : هو يعلم تعالى أي الفريقين منكم ومنهم هو المهتدي ، ويعلم الحزب الضال عن الحق .

---

(١) ما بين القوسين من صحيح البخاري .
(٢) البخاري ، كتاب المناقب ، باب « صفة النبي – صلى الله عليه وسلم » : ٢٢٨/٤ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٢٣٢/٦ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٣٨١/٢ .
(٥) سورة القمر ، آية : ٢٦ .
(٦) سورة سبأ ، آية : ٢٤ .
(٧) تفسير الطبري : ١٣/٢٩ .
(٨) تفسير الطبري : ١٤/٢٩ .

فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ
﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ
ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾

يقول تعالى : كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم والخلق العظيم ، (فلا تطع المكذبين) .

(وَدّوا لو تدهن فيدهنون) .

قال ابن عباس : لو تُرَخّص لهم فيُرَخّصون (١) .

وقال مجاهد : ودوا لو تركن إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق (٢) .

ثم قال تعالى : (ولا تطع كل حلاف مهين) ، وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقي بأيمانه الكاذبة التي يجترىءُ بها على أسماء الله تعالى ، واستعمالها في كل وقت في غير محلها .

قال ابن عباس : المهين الكاذب . وقال مجاهد : هو الضعيف القلب . قال الحسن : كل حلاف مكابر مهين ضعيف .

وقوله (هماز) ، قال ابن عباس وقتادة : يعني الاغتياب .

(مشاء بنميم) ، يعني : الذي يمشي بين الناس ، ويحرش بينهم وينقل الحديث لفساد ذات البين ، وهي الحالقة . وقد ثبت في الصحيحين من حديث مجاهد ، عن طاوس ، عن ابن عباس قال : مر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بقبرين فقال : «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة» (٣) الحديث . وأخرجه بقية الجماعة في كتبهم ، من طرق عن مجاهد ، به .

وقال أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن إبراهيم ، عن همّام : أن حُذَيفة قال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « لا يدخل الجنة قَتّات » (٤) .

رواه الجماعة — إلا ابن ماجه — من طرق ، عن إبراهيم ، به (٥) .

وحدثنا عبد الرزاق ، حدثنا الثوري ، عن منصور ، عن إبراهيم ، عن همام ، عن حذيفة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يدخل الجنة قتات » ، يعني نماماً (٦) .

---

(١) أي : تلين في دينك فيلينون .

(٢) تفسير الطبري : ٢٩/١٤ .

(٣) البخاري ، كتاب الوضوء ، باب « من الكبائر أن لا يستتر من بوله » : ١/٦٤ . ومسلم ، كتاب الطهارة ، باب « الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه » : ١/١٦٦ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٥/٣٨٢ . وانظر أيضاً : ٥/٣٨٩ . ٣٩١ ، ٣٩٧ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ .

(٥) البخاري ، كتاب الأدب ، باب « ما يكره من النميمة » : ٨/٢٦ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « بيان غلظ تحريم النميمة » : ١/٧١ . وسنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « في القتات » . وتحفة الأحوذي ، أبواب البر ، باب « ما جاء في النمام » ، الحديث ٢٠٩٥ : ٦/١٧٢ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٥/٣٨٩ .

وحدثنا يحيى بن سعيد القطان أبو سعيد الأحول ، عن الأعمش ، حدثني إبراهيم ـ منذ نحو ستين سنة ـ عن همام بن الحارث قال : مر رجل على حذيفة فقيل : إن هذا يرفع الحديث إلى الأمراء . فقال سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول ـ أو : قال ـ : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا يدخل الجنة قتات (١) » .

وقال أحمد : حدثنا هاشم ، حدثنا مهدى ، عن واصل الأحدب ، عن أبي وائل قال : بلغ حذيفة عن رجل أنه ينم الحديث ، فقال سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدخل الجنة نمام (٢) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن ابن خُثَيم ، عن شهر بن حوشب ، عن أسماء بنت يزيد ابن السكن : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أخبركم بخياركم ؟ » . قالوا : بلى يارسول الله . قال : « الذين إذا رُؤُوا (٣) ذُكِرَ الله عز وجل » ، ثم قال : « ألا أخبركم بشراركم ؟ المشاءون بالنميمة ، المفسدون بين الأحبة ، الباغون للبرآء العنت (٤) » .

ورواه ابن ماجه ، عن سويد بن سعيد ، عن يحيى بن سليم ، عن ابن خُثَيم ، به (٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن ابن أبي حُسَين ، عن شهر بن حوشب ، عن عبد الرحمن بن غَنْم ـ يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم ـ : « خيار عباد الله الذين إذا رُؤوا ذكر الله ، وشرار عباد الله المشاءون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبة ، الباغون للبرآء العنت » (٦) .

وقوله : (مناع للخير معتد أثيم) أى : يمنع ما عليه وما لديه من الخير ، (معتد) فى تناول ما أحل الله له ، يتجاوز فيها الحد المشروع (أثيم) ، أى يتناول المحرمات .

وقوله : (عتل بعد ذلك زنيم) ، أما العتل فهو : الفَظّ الغليظ الصحيح ، الجَمُوع المَنُوع .

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع وعبد الرحمن ، عن سفيان ، عن مَعْبَد بن خالد ، عن حارثة بن وهب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف مُتَضَعَّف لو أقسم على الله لأبره ، ألا أنبئكم بأهل النار ؟ كل عُتُلّ جَوّاظ مستكبر » ، وقال وكيع : « كل جواظ : جعظرى (٧) مستكبر (٨) » .

أخرجاه فى الصحيحين وبقية الجماعة ، إلا أبا داود ، من حديث سفيان الثورى وشعبة ، كلاهما عن معبد بن خالد (٩) به .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣٨٩/٥ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٣٩١/٥ .
(٣) أى : إنهم من الخشية والخوف من الله ، أو من كثرة ذكر الله ، بحيث إن الناس يذكرون الله عند حضورهم .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٤٥٩/٦ .
(٥) سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « من لا يؤبه له » ، الحديث ٤١١٩ : ١٣٧٩/٢ .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٢٢٧/٤ .
(٧) الجعظرى : الفظ الغليظ المتكبر . وقيل : هو الذى ينتفخ بما ليس عنده وهو قصير .
(٨) مسند الإمام أحمد : ٣٠٦/٤ .
(٩) البخارى ، تفسير سورة (ن والقلم) : ١٩٨/٦ . ومسلم ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب « النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء » : ١٥٤/٨ . وتحفة الأحوذى ، أبواب جهنم ، الحديث ٢٧٣٢ : ٣٣١/٧ ـ ٣٣٢ . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « من لا يؤبه له » ، الحديث ٤١١٦ : ١٣٧٨/٢ .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا موسى بن علي قال : سمعت أبي يحدث عن عبد الله بن عمرو ابن العاص . أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال عند ذكر أهل النار : « كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع » ؛ تفرد به أحمد (١) :

قال أهل اللغة : الجعظري : الفظّ الغليظ ، والجوّاظ : الجمُوع المنُوع :

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا عبد الحميد ، عن شهر بن حوشب ، عن عبد الرحمن بن غنْم ، قال سُئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن العُتلّ الزنيم ، فقال : « هو الشديد الخلْق المصحح (٢) ، الأكول الشروب الواجد للطعام والشراب ، الظلوم للناس ، رحيب الجوف (٣) » :

وبهذا الإسناد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة الجوّاظ الجعظري (٤) ، والعتل الزنيم » : وقد أرسله أيضاً غير واحد من التابعين :

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن زيد بن أسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تبكي السماء من عبد أصح الله جسمه ، وأرحب جوفه ، وأعطاه من الدنيا مقْضَماً ، فكان للناس ظلوماً ـ قال : فذلك العُتُلّ الزنيم (٥) » :

وهكذا رواه ابن أبي حاتم من طريقين مرسلين ، ونص عليه غير واحد من السلف ، منهم مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، وغيرهم : أن العتل هو : المصَحَّح الخلْق ، الشديد القوى في المأكل والمشرب والمنكح ، وغير ذلك وأما الزنيم فقال البخاري :

حدثنا محمود ، حدثنا عُبَيْد الله ، عن إسرائيل ، عن أبي حَصين ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : (عتل بعد ذلك زنيم) ، قال : رجلٌ من قريش له زَنَمَة (٦) مثل زَنَمَة الشاة (٧) :

ومعنى هذا أنه كان مشهوراً بالشر كشهرة الشاة ذات الزنمة من بين أخواتها . وإنما الزنيم في لغة العرب : هو الدّعيّ في القوم . قاله ابن جرير وغير واحد من الأئمة ، قال : ومنه قول حسان بن ثابت ، يعني يذم بعض كفار قريش :

وأنتَ زَنيم نيطَ في آل هاشم * كَمَا نيطَ خَلْفَ الرَّاكب القَدَحُ الفَرْدُ (٨)

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢/١٦٩ . وانظر : ٢/٢١٤ .
(٢) أي : البريء من الأسقام .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٤/٢٢٧ .
(٤) في المسند ٤/٢٢٧ : « و الجعظري » .
(٥) في المخطوطة : « فذلك العبد » . والمثبت من تفسير الطبري : ٢٩/١٦ .
(٦) الزنمة : شيء يقطع من أذن الشاة ويترك معلقاً بها .
(٧) البخاري ، تفسير سورة (ن والقلم) : ٦/١٩٧ ـ ١٩٨ .
(٨) ديوان حسان بن ثابت ، ط بيروت : ٨٩ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : ٢/٢٦٥ .

وقال آخر : زَنيمٌ ، لَيْسَ يُعْرَفُ مَن أبوُه • بَغيٌّ الأم، ذُو حَسَب لئيمُ

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمار بن خالد الواسطى ، حدثنا أسباط ، عن هشام ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله (زنيم) ، قال : الدعىّ الفاحش اللئيم . ثم قال ابن عباس :

زَنيمٌ، تَدَاعاه الرجالُ زيادَةً • كَما زِيدَ فى عَرْضِ الأديمِ الأَكارعُ (١)

وقال العوفى عن ابن عباس : الزنيم : الدعى . ويقال : الزنيم : رجل كانت به زنمة ، يعرف بها . ويقال : هو الأخنس بن شَرِيق الثقفى ،حليف بنى زهرة. وزعم أناس من بنى زهرة أن الزنيم الأسود بن عبد يغوث الزهرى،وليس به (٢)

وقال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : أنه زعم أن الزنيم المُلحَق النسب .

وقال ابن أبى حاتم :حدثنى يونس،حدثنا ابن وهب،حدثنى سليمان بن بلال ، عن عبد الرحمن بن حَرْملة، عن سعيد ابن المسيب ، أنه سمعه يقول فى هذه الآية : (عتل بعد ذلك زنيم) ، قال سعيد : هو الملصق فى القوم ، ليس منهم (٣).

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عقبة بن خالد ، عن عامر بن قدامة (٤) قال : سئل عكرمة [عن الزنيم] ، قال : هو ولد الزنا .

وقال الحكم بن أبان ، عن عكرمة (٥) فى قوله تعالى : (عتل بعد ذلك زنيم) ، قال : يعرف المؤمن من الكافر مثل الشاة الزنماء. [والزنماء من الشياه] : التى فى عنقها هَنَتَان معلقتان فى حلقها(٦) .

وقال الثورى ، عن جابر ، عن الحسن ، عن سعيد بن جبير قال : الزنيم : الذى يعرف بالشر كما تعرف الشاة بزنمتها : والزنيم : الملصق . رواه ابن جرير .

وروى أيضاً من طريق داود بن أبى هند عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال فى الزنيم : قال : نُعِتَ فلم يعرف حتى قيل : زنيم . قال : وكانت له زَنَمَةٌ فى عنقه يُعرَف بها . وقال آخرون . كان دَعياً(٧) .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا ابن إدريس ، عن أبيه (٨) ، عن أصحاب التفسير قالوا: هو الذى تكون له زَنمةٌ مثل زَنمة الشاة .

---

(١) البيت فى الكامل للمبرد منسوباً إلى حسان بن ثابت : ٩٥٨/٣ . ولم أجده فى ديوانه ، وهو فى اللسان ، مادة زنم منسوباً إلى الخطيم التميمى الجاهلى . وانظره فى معجم مقاييس اللغة لابن فارس : ٤٩/٣ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٧/٢٩ .

(٣) أخرجه الطبرى من حديث يونس ، به : ١٧/٢٩ .

(٤) كذا ، ولم تقع لنا ترجمة «عامر بن قدامة» .

(٥) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة .

(٦) فى المخطوطة : «فى عنقها المتعلقين فى حلق الشاة» . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٧) تفسير الطبرى : ١٧/٢٩ .

(٨) ليس فى تفسير الطبرى : «عن أبيه» .

وقال الضحاك : كانت له زَنَمَة فى أصل أذنه ، ويقال : هو اللئيم الملصق فى النسب .

وقال أبو إسحاق ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : هو المريب الذى يعرف بالشر .

وقال مجاهد : الزنيم يعرف بهذا الوصف كما تعرف الشاة . وقال أبو رَزين : الزنيم علامة الكفر . وقال عكرمة : الزنيم : الذى يعرف باللؤم كما تعرف [الشاة] بزنمتها (١) .

والأقوال فى هذا كثيرة ، وترجع إلى ما قلناه ، وهو أن الزنيم هو : المشهور بالشر ، الذى يعرف به من بين الناس ، وغالباً يكون دَعياً ولد زنا ، فإنه فى الغالب يتسلط الشيطان عليه مالا يتسلط على غيره ، كما جاء فى الحديث : « لا يدخل الجنة ولد زنا (٢) » . وفى الحديث الآخر : « ولد الزنا شرُّ الثلاثة إذا عمل بعمل أبويه (٣) »

وقوله : (أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال : أساطير الأولين) ، يقول تعالى : هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين ، كفر بآيات الله وأعرض عنها ، وزعم أنها كَذِب مأخوذ من أساطير الأولين ، كقوله : (ذرنى ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالا ممدوداً . وبنين شهوداً . ومهدت له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيد . كلا ، إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر) قال الله تعالى : (سأصليه سقر) (٤) . وقال تعالى هاهنا : (سنسمه على الخرطوم) .

قال ابن جرير : سنبين أمره بياناً واضحاً ، حتى يعرفوه ولا يخفى عليهم ، كما لا تخفى السمة على الخراطيم (٥) : وهكذا قال قتادة : (سنسمه على الخرطوم) : شين لا يفارقه آخرَ ما عليه . وفى رواية عنه : سيما على أنفه . وكذا قال السدى :

وقال العوفى ، عن ابن عباس : (سنسمه على الخرطوم) : [يقاتل (٦) يوم بدر ، فيُخطم بالسيف فى القتال : وقال آخرون : (سنسمه] (٧) : سمة أهل النار ، يعنى نسود وجهه يوم القيامة ، وعبر عن الوجه بالخرطوم . وحكى ذلك كله أبوجعفر ابن جرير ، ومال إلى أنه لا مانع . من اجتماع الجميع عليه فى الدنيا والآخرة ، وهو متَّجه .

وقد قال ابن أبى حاتم فى سورة (عم يتساءلون) : حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح كاتب الليث [حدثنى الليث] ، حدثنى خالد بن سعيد ، عن عبد الملك بن عبد الله ، عن عيسى بن هلال الصدفى ، عن عبد الله بن عمرو ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن العبد يكتب مؤمناً أحقابا ثم أحقا بائم يموت والله عليه ساخط . وإن العبد يكتب كافراً أحقاباً ثم أحقاباً ، ثم يموت والله عليه راض . ومن مات هَمَّازا لمّازا ملَقّبًا للناس ، كان علامته يوم القيامة أن يسمه الله على الخرطوم ، من كلا الشفتين » .

---

(١) انظر تفسير الطبرى : ١٧/٢٩ – ١٨ .
(٢) أخرجه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص : ٢٠٣/٢ .
(٣) أخرجه الإمام أحمد عن أبى هريرة : ٣١١/٢ ، وعن عائشة – رضى الله عنها – : ١٠٩/٦ ، وأخرجه أبو داود فى كتاب العتاق ، باب « فى عتق ولد الزنا » .
(٤) سورة المدثر ، الآيات : ١١ – ٢٦ .
(٥) تفسير الطبرى : ١٨/٢٩ – ١٩ .
(٦) تفسير الطبرى : ١٨/٢٩ .
(٧) ما بين القوسين من الطبعات السابقة .

إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ
مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ
صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ
قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا
تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا
إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ
أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

هذا مَثَلٌ ضَرَبه الله – تعالى – لكفار قريش فيما أهدى إليهم من الرحمة العظيمة ، وأعطاهم من النعم الجسيمة ، وهو بَعْثُهُ محمداً – صلى الله عليه وسلم – إليهم ، فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة ، ولهذا قال : (إنا بلوناهم)، أي : اختبرناهم ، (كما بلونا أصحاب الجنة)، وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ، (إذ أقسموا ليَصرمنها مصبحين) ، أي : حلفوا فيما بينهم ليَجُدُّنَّ ثمرها ليلا ، لئلا يعلم بهم فقير ولاسائل ، ليتوفر ثمرُها عليهم ولايتصدقوا منه بشيء ، (ولا يستثنون) أي : فيما حلفوا به . ولهذا حَنَّثهم الله في أيمانهم ، فقال : (فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون) ، أي : أصابتها آفة سماوية ، (فأصبحت كالصريم) ، قال ابن عباس : أي كالليل الأسود . وقال الثوري ، والسدّي : مثل الزرع إذا حُصِد ، أي : هشيما يبساً .

وقال ابن أبي حاتم : ذكر عن أحمد بن الصباح : أنبأنا بَشير بن زاذان ، عن عمر بن صبح ، عن ليث بن أبي سَليم ، عن عبد الرحمن بن سابط ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « إياكم والمعاصي ، إن العبد ليذنب الذنبَ فيحرم به رزقاً قد كان هُيِّىء له » ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فطاف عليها طائف من ربك ، وهم نائمون . فأصبحت كالصَّريم) ، قد حُرِموا خير جنّتهم بذنبهم .

(فتنادوا مصبحين)، أي : لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضاً ليذهبوا إلى الجَدَاد ، (أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين) ، أي : تريدون الصرام . قال مجاهد : كان حرثهم عِنَباً (فانطلقوا وهم يتخافتون) ، أي : يتناجون فيما بينهم بحيث لا يُسمعون أحداً كلامهم . ثم فسر الله عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به ، فقال : (فانطلقوا وهم يتخافتون . أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين) ، أي : يقول (١) بعضهم لبعض : لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم ! قال الله تعالى : (وغدوا على حرد) ، أي : قوة وشدة . وقال مجاهد : (وغدوا على حرد) ، أي جِد (٢) . وقال عكرمة : غيظ . وقال الشعبي : (على حرد) : على المساكين . وقال السدى : (على حرد) ، أي : كان اسم قريتهم حرد . فأبعد السدي في قوله هذا ! .

(١) في المخطوطة : « يقولون بعضهم بعضاً » . والمثبت من الطبعات السابقة .
(٢) تفسير الطبري : ٢٩/٢٠ .

(قادرين) ، أى: عليها فيما يزعمون ويرومون . (فلما رأوها قالوا : إنا لضالون) ، أى : فلما وصلوا إليها وأشرفوا عليها . وهى [على] الحالة التى قال الله — عز وجل — ، قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مُدْلَهِمة ، لا يُنتفع بشىء منها ، فاعتقدوا أنهم قد أخطأوا الطريق ؛ ولهذا قالوا : (إنا لضالون) ، أى : قد سلكنا إليها غير الطريق فتُهنا عنها . قاله ابن عباس وغيره ؛ ثم رجعوا عما كانوا فيه ، وتيقنوا أنها هى فقالوا : (بل نحن محرومون) ، أى : بل هذه هى ، ولكن نحن لا حظّ لنا ولا نصيب .

(قال أوسطهم) ، قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيدبن جبير ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب ، والربيع بن أنس ، والضحاك ، وقتادة : أى أعدلهم وخيرهم : (ألم أقل لكم : لولا تسبحون !) ، قال مجاهد ، والسدى ، وابن جريج : (لولا تسبحون) ، أى : لولا تستثنون — قال السدى : وكان استثناؤهم فى ذلك الزمان تسبيحاً .

وقال ابن جريج : هو قول القائل: إن شاء الله(١) . وقيل : معناه: قال أوسطهم :(ألم أقل لكم لولا تسبحون) ، أى: هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم ، (قالوا سبحان ربنا ، إنا كنا ظالمين) ، أتوا بالطاعة حيث لا تنفع ، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع ، ولهذا قالوا : (إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون) ، أى : يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجداد ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب ، (قالوا : ياويلنا إنا كنا طاغين) ، أى : اعتدينا وبغينا وطغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا ، (عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها ، إنا إلى ربنا راغبون) ، قيل : رغبوا فى بدلها لهم فى الدنيا . وقيل : احتسبوا ثوابها فى الدار الآخرة ، والله أعلم .

ثم قد ذكر بعض السلف أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن — قال سعيد بن جبير : كانوا من قرية يقال لها ضروان ، على ستة أميال من صنعاء . وقيل : كانوا من أهل الحبشة ، وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة ، وكانوا من أهل الكتاب ، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة ، فكان ما استغله منها يرد فيها ما يحتاج إليه ويدخر لعياله قوت سنتهم ، ويتصدق بالفاضل . فلما مات وورثه بنوه ، قالوا : لقد كان أبونا أحمق إذ كان يصرف من هذه شيئاً للفقراء ، ولو أنّا منعناهم لتوفر ذلك علينا . فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم ، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية ، ورأس المال والربح والصدقة ، فلم يبق لهم شىء .

قال الله تعالى : (كذلك العذاب) ، أى : هكذا عذاب من ، خالف أمر الله ، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ، ومنع حق المساكين والفقراء وذوى الحاجات ، وبدل نعمة الله كفرا (ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) ، أى : هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم ، وعذاب الآخرة أشق . وقد ورد فى حديث رواه الحافظ البيهقى من طريق جعفر بن محمد بن على ابن الحسين بن على بن أبى طالب ، عن أبيه ، عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الجداد بالليل ، والحصاد بالليل .

(١) تفسير الطبرى : ٢٢/٢٩ .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾
أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ
لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾

لما ذكر تعالى حال أهل الجنة الدنيوية، وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوا الله عز وجل وخالفوا أمره، بين أن لمن اتقاه وأطاعه فى الدار الآخرة جنات النعيم التى لا تبيد ولا تفرغ ولا ينقضى نعيمها .

ثم قال : (أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟) ، أى : أفنساوى بين هؤلاء وهؤلاء فى الجزاء ؟ كلا ورب الأرض والسماء ، ولهذا قال : (مالكم كيف تحكمون !) أى كيف [تظنون] ذلك ؟ .

ثم قال : (أم لكم كتاب فيه تدرسون * إن لكم فيه لما تخيرون) ، يقول : أفبأيديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه بنقل الخلف عن السلف ، متضمن حكما مؤكداً كما تدعونه ؟ (إن لكم فيه لما تخيرون * أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة ؟ إن لكم لما تحكمون أى : أمعكم عهود منا ومواثيق مؤكدة ، (إن لكم لما تحكمون) ، أى : إنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون ، (سلهم أيهم بذلك زعيم ؟) أى : قل لهم : من هو المتضمن المتكفل بهذا ؟ (أم لهم شركاء) ، أى : من الأصنام والأنداد ، (فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين) .

يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟
يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ
يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾

لما ذكر تعالى أن للمتقين عنده جنات النعيم ، بين متى ذلك كائن وواقع ، فقال : (يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون) ، يعنى يوم القيامة وما يكون فيه من الأهوال والزلازل والبلابل والامتحان والأمور العظام . وقد قال البخارى هاهنا :

حدثنا آدم ، حدثنا الليث ، عن خالد بن يزيد ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « يكشف ربنا عن ساقه ، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة ، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً (١) واحداً » .

---

(١) الطبق : فقار الظهر ، واحدتها طبقة ، يريد أنه صار فقارهم كله كالفقارة الواحدة ، فلا يقدرون على السجود .
والحديث أخرجه البخارى عند تفسير سورة (ن والقلم) : ٦/١٩٨ .

وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين وفى غيرهما من طرق ، وله ألفاظ ، وهو حديث طويل مشهور (١) .

وقد قال عبد الله بن المبارك ، عن أسامة بن زيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : (يوم يكشف عن ساق) قال : هو يوم كرب وشدة . رواه ابن جرير ثم قال :

حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن المغيرة ، عن إبراهيم ، عن ابن مسعود ــ أو : ابن عباس (٢) ، الشك من ابن جرير ــ : (يوم يكشف عن ساق) ، قال : عن أمر عظيم ، كقول الشاعر :

• وقامت الحرب بنا على ساق (٣) •

وقال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : (يوم يكشف عن ساق) ، قال : شدة الأمر .

وقال ابن عباس : هى أول ساعة تكون فى يوم القيامة .

[وقال بن جُرَيج عن مجاهد : (يوم يكشف عن ساق) ، قال : شدة الأمر وجده] .

وقال على ابن أبى طلحة ، عن ابن عباس قوله : (يوم يكشف عن ساق) ، هو : الأمر الشديد المُفظع من الهول يوم القيامة .

وقال العوفى ، عن ابن عباس قوله : (يوم يكشف عن ساق) ، يقول : حين يكشف الأمر وتبدو الأعمال . وكشفه دخول الآخرة ، وكشف الأمر عنه . وكذا روى الضحاك عن ابن عباس : أورد ذلك كله أبو جعفر بن جرير (٤) ثم قال :

حدثنى أبو زيد عمر بن شبَّة ، حدثنا هارون (٥) بن عمر المخزومى ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا أبو سعيد روح بن جناح ، عن مولى لعمر بن عبد العزيز ، عن أبى بردة بن أبى موسى ، عن أبيه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (يوم يكشف عن ساق) ، قال : عن نور عظيم ، يخرون له سجداً (٦) .

ورواه أبو يعلى ، عن القاسم بن يحيى ، عن الوليد بن مسلم ، به : وفيه رجل مبهم ، فالله أعلم .

وقوله : (خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة) ، أى : فى الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم فى الدنيا ، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه : ولما دعوا إلى السجود فى الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم ، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه فى

---

(١) البخارى ، كتاب التوحيد : ٩/١٥٨ – ١٦٠ .

(٢) الذى فى تفسير الطبرى ٢٩/٢٤ : «عن إبراهيم ، عن ابن عباس» . وليس فيه ذكر لابن مسعود .

(٣) فى المخطوطة : «مالت الحرب عن ساق» . والمثبت عن تفسير الطبرى : ٢٩/٢٤ . والبحر المحيط لأبى حيان : ٨/٣١٦ .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٩/٢٤ .

(٥) هارون بن عمر هذا غير ثابت فى تفسير الطبرى ، وهو مترجم فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٤/٢/٩٣ ، وقد ترجم له : «هارون بن عمرو» . وذكر محقق الجرح أنه فى إحدى النسخ «عمر» دون واو .

(٦) تفسير الطبرى : ٢٩/٢٧ .

الآخرة ، إذا تجلى الرب – عز وجل – فسجد له المؤمنون ، لا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً ، كلما أراد أحدهم أن يسجد خرّ لقفاه ، عكس السجود ، كما كانوا فى الدنيا ، بخلاف ما عليه المؤمنون .

ثم قال تعالى : (فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث) ، يعنى القرآن . وهذا تهديد شديد ، أى : دعنى وإياه منى ومنه(١) أنا أعلم به كيف أستدرجه ، وأمده فى غيه وأنظر ، ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر . ولهذا قال : (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) ، أى : وهم لا يشعرون ، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة، وهو فى نفس الأمر إهانة ، كما قال: (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون (٢) وقال : (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون)(٣) . ولهذا قال هاهنا (وأملى لهم إن كيدى متين ، [أي: وأؤخرهم وأنظرهم وأمدهم ، وذلك من كيدى ومكرى بهم ، ولهذا قال تعالى : (إن كيدى متين)] أى: عظيم لمن خالف أمرى ، وكذب رسلى ، واجترأ على معصيتى .

وفى الصحيحين عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « إن الله ليملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته » ، ثم قرأ : (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد) (٤) .

وقوله (أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون؟ . أم عندهم الغيب فهم يكتبون !) ، تقدم تفسيرهما فى سورة الطور(٥)، والمعنى فى ذلك : أنك يامحمد تدعوهم إلى الله – عز وجل – بلا أجر تأخذه منهم ، بل ترجوا ثواب ذلك عند الله – عز وجل وهم يكذبون بما جئتهم به ، بمجرد الجهل والكفر والعناد .

فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى : (فاصبر) يامحمد على أذى قومك لك وتكذيبهم ؛ فإن الله سيحكم لك عليهم ، ويجعل العاقبة لك ولأتباعك فى الدنيا والآخرة ، (ولا تكن كصاحب الحوت) ، يعنى : ذا النون ، وهو يونس بن متى عليه السلام ، حين ذهب مغاضباً على قومه ، فكان من أمره ماكان من ركوبه فى البحر والتقام الحوت له ، وشرود الحوت به فى البحار وظلمات غمرات اليم ، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلى القدير ، الذى لا يرد ما أنفذه من التقدير ، فحينئذ نادى فى الظلمات :

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر .
(٢) سورة المؤمنون ، آية : ٥٥ – ٥٦ .
(٣) سورة الأنعام ، آية : ٤٤ .
(٤) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٠٢ من سورة هود ، وأخرجناه هنالك ، انظر ٤/٢٧٨ – ٢٧٩ .
(٥) انظر تفسير آيتى الطور ٤٠ – ٤١ فى ٧/٤١٣ .

(أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) (١) قال الله : (فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين) (٢) وقال تعالى : (فلولا أنه كان من المسبحين ، للبث في بطنه إلى يوم يبعثون) . (٣) وقال هاهنا : (إذ نادى وهو مكظوم) ـ قال ابن عباس ، ومجاهد ، والسدى : مغموم (٤) . وقال عطاء الخراسانى ، وأبو مالك : مكروب . وقد قدمنا فى الحديث أنه لما قال : (لا إله إلا أنت سبحانك ، إنى كنت من الظالمين) ، خرجت الكلمة [تَحُفّ (٥)] حول العرش ، فقالت الملائكة : يارب ، هذا صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة . فقال الله : أما تعرفون هذا ؟ قالوا : لا . قال : هذا يونس . قالوا : يارب ، عبدك الذى لا يزال يرفع له عمل صالح ودعوة مجابة ؟ قال : نعم . قالوا : أفلا ترحم ما كان يعمله فى الرخاء فتنجيه من البلاء ؟ فأمر الله الحوت فألقاه بالعراء ، ولهذا قال تعالى : (فاجتباه ربه فجعله من الصالحين) .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن أبى وائل ، عن عبد الله قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « لا ينبغى لأحد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى (٦) » .

ورواه البخارى من حديث سفيان الثورى . وهو فى الصحيحين من حديث أبى هريرة (٧).

وقوله : (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم) ـ قال ابن عباس . ومجاهد . وغيرهما : (ليزلقونك) : لَيَنْفُذونك بأبصارهم(٨) . أى: لَيَعينُوك بأبصارهم، بمعنى يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك،وحمايته إياك منهم. وفى هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق ، بأمر الله ـ عز وجل ـ كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة :

حديث أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال أبو داود : حدثنا سليمان بن داود العَتَكى : حدثنا شريك (ح) ـ وحدثنا العباس العنبرى ، حدثنا يزيد بن هارون ، أنبأنا شريك ، عن العباس بن ذَرِيح ، عن الشعبى ـ قال العباس : عن أنس ـ قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم ـ: « لا رقية إلا من عين أو حُمَة (٩) أو دم لا(١٠) يرقأ » لم يذكر العباس العين . وهذا لفظ سليمان (١١) .

حديث بُرَيدة بن الحُصَيب ـ رضى الله عنه ـ قال أبو عبد الله بن ماجه : حدثنا محمد بن عبد الله بن نُمَير ، حدثنا

(١) سورة الأنبياء ، آية : ٨٧ .
(٢) سورة الأنبياء ، آية : ٨٨ .
(٣) سورة الصافات ، آية : ١٤٣ ـ ١٤٤ .
(٤) انظر تفسير الطبرى : ٢٨/٢٩ ـ ٢٩ .
(٥) فى المخطوطة : « عن حول » . والمثبت عن السياقة التى تقدمت عند آية الأنبياء ٨٧ : ٣٦٢/٥ .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٣٩٠/١ .
(٧) تقدم تخريج الحديث عن الصحيحين فى : ٣٦٢/٥ .
(٨) تفسير الطبرى : ٢٩/٢٩ .
(٩) الحمة : السم .
(١٠) أى : لا ينقطع .
(١١) سنن أبى داود ، كتاب الطب ، باب « ما جاء فى الرقى » .

إسحاق بن سليمان ، عن أبي جعفر الرازي ، عن حُصَين ، عن الشعبي ، عن بُرَيدة بن الحصيب قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « لا رقية إلا من عين أو حُمَة(١) » .

هكذا رواه ابن ماجه ، وقد أخرجه مسلم في صحيحه ، عن سعيد بن منصور ، عن هشيم ، عن حُصَين بن عبد الرحمن عن عامر الشعبي ، عن بريدة موقوفاً ، وفيه قصة (٢) ؛ وقد رواه شعبه ، عن حصين ، عن الشعبي ، عن بريدة . قاله الترمذي (٣) . وروى هذا الحديث الإمام البخاري من حديث محمد بن فضيل ، وأبو داود من حديث مالك بن مغول ، والترمذي من حديث سفيان بن عيينة ، ثلاثتهم عن حصين عن عامر الشعبي ، عن عمران بن حُصَين موقوفاً (٤) .

حديث أبي ذر جندب بن جنادة ، قال الحافظ أبو يعلى الموصلي — رحمه الله — حدثنا إبراهيم بن محمد بن عرعرة بن البرِنْد السامي ، حدثنا ديلم بن غزوان ، حدثنا وهب بن أبي دبي(٥) ، عن أبي حرب (٦) عن أبي ذر قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إن العين لتولع (٧) الرجلَ بإذن الله ، فيتصاعد حالقا ، ثم يتردى منه » إسناده غريب ، ولم يخرجوه .

حديث حابس التميمي : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا حرب ، حدثنا يحيى بن أبي كثير ، حدثني حيَّة بن حابس التميمي : أن أباه أخبره : أنه سمع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « لا شيء في الهام (٨) والعين حق ، وأصدق الطِّيَرَة الفألُ (٩) .

وقد رواه الترمذي عن عمرو بن علي ، عن أبي غسان يحيى بن كثير ، عن علي بن المبارك ، عن يحيى بن أبي كثير ، به ثم قال غريب (١٠) ؛ قال : وروى شيبان ، عن يحيى بن أبي كثير ، عن حية بن حابس ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم (١١) .

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الطب ، باب « ما جاء ما رخص فيه من الرقى » ، الحديث ٣٥١٣ : ١١٦١/٢ .

(٢) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « الدليل عن دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب » : ١٣٧/١–١٣٨ .

(٣) تحفة الأحوذي ، أبواب الطب ، باب « ما جاء في الرخصة في الرقية » ، الحديث ٢١٣٤ : ٢١٧/٦ .

(٤) البخاري ، كتاب الطب ، باب « من اكتوى أو كوى غيره وفضل من لم يكتو » : ١٦٣/٧ . وسنن أبي داود ، كتاب الطب ، باب « تعليق التمائم » . وتحفة الأحوذي ، أبواب الطب ، باب « ما جاء في الرخصة في الرقية » ، الحديث ٢١٣٤ : ٢١٧/٦ .

(٥) كذا في مخطوطة الأزهر ، وانظر ترجمة وهب في الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٢٢/٢/٤ — ٢٣ .

(٦) الحديث في مسند الإمام أحمد ، وفيه : « عن أبي حرب ، عن محجن ، عن أبي ذر ... » . انظر المسند : ١٤٦/٥ ، ١٦٧

(٧) كذا في المخطوطة ، وفي المسند : « لتولع » ، بالغين . ويبدو أن الصواب ما هنا . في اللسان : « ولع فلان بفلان يولع به : إذا لج في أمره وحرص على إيذائه » ، وكأن الأصل : « لتولع » بالرجل » ، ثم حذف الخافض .

(٨) الهام : واحده هامة وهي : طائر معروف من طير الليل . وقيل: هو البومة . قالوا : كانت إذا سقطت على دار أحدهم رآها ناعية له نفسه أو بعض أهله . وقيل : كانت العرب تعتقد أن عظام الميت ، وقيل : روحه — تنقلب هامة تطير . والطيرة — بكسر الطاء وفتح الياء — : التشاؤم بالشيء . والفأل يكون فيما يسوء وما يسر . والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء ، وربما استعملت فيما يسر .

(٩) مسند الإمام أحمد : ٧٠/٥ .

(١٠) تحفة الأحوذي ، أبواب الطب ، باب « ما جاء أن العين حق والغسل لها » ، الحديث ٢١٤٠ : ٢٢١/٦ — ٢٢٢ .

(١١) المرجع السابق : ٢٢٦/٦ .

[قلت(١): كذلك رواه الإمام أحمد عن حسن بن موسى وحُسَين بن محمد، عن شيبان] عن يحيى بن أبي كثير، عن حية] (٢) حدثه، عن أبيه، عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا بأس في الهام، والعين حق، وأصدق الطيرة الفأل (٣)].

حديث ابن عباس؛ قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن الوليد، عن سفيان، عن دُوَيد، حدثني إسماعيل بن ثوبان عن جابر بن زيد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم: «العين حق، العين حق، تستنزل الحالق(٤) غريب.

طريق أخرى قال مسلم في صحيحه: حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، أخبرنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا وُهَيب، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: «العينُ حقٌ، ولو كان شيء سابَقَ القَدَر سبَقَتْ العين وإذا اغتُسلتم(٥) فاغسلوا (٦)»: انفرد به دون البخاري.

وقال عبد الرزاق، عن سفيان الثوري عن منصور، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يُعَوِّذ الحسن والحسين، يقول: «أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهَامَّة، (٧) ومن كل عين لامَّة»، ويقول: «هكذا كان إبراهيم يُعَوِّذ إسحاق وإسماعيل عليهما السلام».

أخرجه البخاري [وأهل السنن (٨)] من حديث المنهال، به (٩).

حديث أبي أمامة أسعد بن سهل بن حنيف – رضي الله عنه – قال ابن ماجه: حدثنا هشام بن عمار، حدثنا سفيان، عن الزهري، عن أبي أمامة بن سهل بن حُنَيف قال: [مر عامر بن ربيعة بسهل بن حُنَيف(١٠)] وهو يغتسل فقال: لم أر كاليوم ولا جلدَ(١١) مخبأة: فما لبث أن لُبِطَ به(١٢)، فأُتي به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقيل له: أدرك

---

(١) من هنا عن الطبعات السابقة. وقد ورد في المخطوطة في نهاية الأحاديث المروية عن عائشة، والتي ستأتي بعد.

(٢) ما بين القوسين عن المسند، ومكانه في الطبعات السابقة: «بن أبي حية».

(٣) إلى هنا ينتهي ما أثبتناه عن الطبعات السابقة. وانظر مسند الإمام أحمد: ٧٠/٥.

(٤) مسند الإمام أحمد: ٢٧٤/١، ٢٩٤.

(٥) كانوا يرون أن يؤمر العائن فيغسل أطرافه وما تحت الإزار، فتصب غسالته على المعين، يستشفون بذلك، فأمرهم النبي – عليه السلام – أن لا يمتنعوا عن الاغتسال إذا أريد منهم ذلك.

(٦) مسلم، كتاب السلام، باب «الطب والمرض والرقى»: ١٣/٧ – ١٤.

(٧) الهامة: كل ذات سم يقتل.

(٨) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة، ومكانه بياض في المخطوطة.

(٩) البخاري، كتاب الأنبياء: ١٧٨/٤ – ١٧٩. وتحفة الأحوذي، أبواب الطب، باب «ما جاء في الرقية من العين»، الحديث ٣١٣٨: ٢٢٠/٦ – ٢٢١. وابن ماجه، كتاب الطب، باب «ما عوذ به النبي – صلى الله عليه وسلم – وما عوذ به»، الحديث ٣٥٥٢٤: ١١٦٤/٢، ١١٦٥.

(١٠) ما بين القوسين عن سنن ابن ماجه، ومكانه بياض في المخطوطة.

(١١) المخبأة: الجارية التي في خدرها لم تتزوج بعد.

(١٢) أي: صرع وسقط إلى الأرض.

[سهلا صريحاً] : قال : « من تتهمون به ؟ » قالوا : عامر بن ربيعة . قال : « علام يقتل أحدكم أخاه ؟ إذا رأى أحدكم من أخيه ما يُعجبه فلْيَدْعُ له بالبركة » . ثمّ دعا بماء فأمر عامراً أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ، وركبتيه ، وداخلة إزاره(١) ، وأمره أن يصب عليه .

قال سفيان : قال معمر ، عن الزهري : وأمر أن يكفأ الإناء من خلفه (٢) .

وقد رواه النسائي ، من حديث سفيان بن عيينة ومالك بن أنس ، كلاهما عن الزهري ، به . ومن حديث سفيان بن عيينة أيضاً عن معمر ، عن الزهري ، عن أبي أمامة : ويكفأ الإناء من خلفه . ومن حديث ابن أبي ذئب عن الزهري ، عن أبي أمامة أسعد بن سهل بن حُنَيف ، عن أبيه ، به . ومن حديث مالك أيضاً ، عن محمد بن أبي أمامة بن سهل ، عن أبيه به .

حديث أبي سعيد الخدري ، قال ابن ماجه : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عباد ، عن الجريري عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد قال : كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يتعوذ من أعين الجان وأعين الإنس . فلما نزل المعوذتان أخذهما وتَرك ما سوى ذلك (٣) .

ورواه الترمذي والنسائي ، من حديث سعيد بن إياس أبي مسعود الجُرَيري به . وقال الترمذي : « حسن (٤) » .

حديث آخر ، عنه : قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث ، حدثني أبي ، حدثني عبد العزيز بن صُهيب ، حدثني أبو نضرة ، عن أبي سعيد : أن جبريل أتى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : اشتكيت يامحمد ؟ قال : « نعم » . قال : باسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس وعين يشفيك ، باسم الله أرقيك (٥) .

ورواه عن عفان ، عن عبد الوارث، مثله (٦) . ورواه مسلم وأهل السنن — إلا أبا داود — من حديث عبد الوارث به(٧)

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا عفان ، حدثنا وهيب ، حدثنا داود ، عن أبي نَضرة ، عن أبي سعيد — أو : عن جابر بن عبد الله أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم . — اشتكى ، فأتاه جبريل فقال: باسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، من كل حاسد وعين الله يُشفيك (٨) .

---

(١) قيل المراد به : طرف الإزار . وقيل : موضعه من الجسد . وقيل : الورك . وقيل : المذاكير .
(٢) سنن ابن ماجه ، كتاب الطب ، باب « العين » ، الحديث ٣٥٠٩ : ١١٦٠/٢ .
(٣) سنن ابن ماجه ، كتاب الطب ، باب « من استرقى من العين » ، الحديث ٣٥١١ : ١١٦١/٢ .
(٤) تحفة الأحوذي ، أبواب الطب ، باب « ما جاء في الرقية بالمعوذتين » ، الحديث ٢١٣٥ : ٢١٨/٦ ، وقال الترمذي — كما في تحفة الأحوذي — : « حسن غريب » .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٢٨/٣ .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٥٦/٣ .
(٧) مسلم ، كتاب السلام ، باب « الطب والمرض والرقى » : ١٣/٧ . وتحفة الأحوذي ، أبواب الجنائز ، باب « ما جاء في التعوذ للمريض » ، الحديث ٩٧٩ : ٤٦/٤ — ٤٧ . وابن ماجه ، كتاب الطب .
(٨) مسند الإمام أحمد : ٧٥/٣ .

ورواه أيضاً ، عن محمد بن عبد الرحمن الطفاوى ، عن داود ،عن أبى نَضرةَ ، عن أبى سعيد ،به (١) .

قال أبو زرعة الرازى : روى عبد الصمد بن عبد الوارث ، عن أبيه ، عن عبد العزيز [عن أبى نَضْرَةَ ، وعن عبد العزيز(٢)]عن أنس ، فى معناه ، وكلاهما صحيح (٣) .

حديث أبى هُرَيرة قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أنبأنا معمر ، عن همَّام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هُرَيرة عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم : « إن العين حق (٤)» .

أخرجاه من حديث عبد الرزاق (٥) .

وقال ابن ماجه : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا إسماعيل بن عُلَيَّةَ ، عن الجُرَيرى ، عن مُضَارب بن حَزْن ، عن أبى هُرَيرة قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « العين حق (٦) » تفرد به .

ورواه أحمد ، عن إسماعيل ابن عُلَيَّةَ ، عن سعيد الجُرَيْرى (٧) ، به .

وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن نمير ، حدثنا ثور — يعنى ابن يزيد — عن مكحول ، عن أبى هُرَيرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العين حق ، ويحضُرها الشيطانُ وحسد ابن آدم (٨) » .

وقال أحمد : حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا أبو معشر ، عن محمد بن قيس : سُئل أبو هُرَيرة : هل سمعت رسول الله يقول : الطيرة فى ثلاث : فى المسكن والفرس والمرأة ؟ قال قال : قلت : إذاً أقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يقل ! ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « [أصدق] الطيرة الفألُ ، والعين حق (٩) » .

حديث أسماء بنت عُمَيس ، قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن عمرو بن دينار ، عن عُروةَ بن عامر ، عن عُبيدَ بن رفاعة الزُرَقى قال : قالت أسماء : يارسول الله ، إن بنى جعفر تصيبهم العين ، أفأسترقى لهم ؟ قال : « نعم ، فلو كان شىء يسبق القدرَ لسبقته العين (١٠) » .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥٨/٣ .
(٢) ما بين القوسين من الطبعات السابقة .
(٣) انظر سنن أبى داود ، كتاب الطب ، باب «ما جاء فى الرقى» .
(٤) مسند الإمام أحمد من حديث طويل : ٣١٨/٢ — ٣١٩ .
(٥) البخارى ، كتاب الطب ، باب « العين حق » : ١٧١/٧ . ومسلم ، كتاب السلام ، باب « الطب والمرض والرقى » : ١٣/٧ .
(٦) سنن ابن ماجه ، كتاب الطب ، باب « العين » ، الحديث ٣٥٠٧ : ١١٥٩/٢ .
(٧) مسند الإمام أحمد : ٤٨٧/٢ .
(٨) مسند الإمام أحمد : ٤٣٩/٢ .
(٩) مسند الإمام أحمد : ٢٨٩/٢ .
(١٠) مسند الإمام أحمد : ٤٣٨/٦ .

وكذا رواه الترمذي وابن ماجه ، من حديث سفيان بن عيينة ، به . ورواه الترمذي أيضاً والنسائي ، من حديث عبد الرزاق ، عن معمر ، عن أيوب ، عن عمرو بن دينار ، عن عروة بن عامر ، عن عُبَيد بن رفاعة ، عن أسماء بنت عميس ، به : وقال الترمذي : حسن صحيح (١) .

حديث عائشة رضي الله عنها ، قال ابن ماجه : حدثنا على ابن أبي الخَصيب ، حدثنا وكيع ، عن سفيان ، ومسعر عن معبد بن خالد ، عن عبد الله بن شدّاد ، عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرها أن تسترقى من العين (٢) .

ورواه البخاري عن محمد بن كثير ، عن سفيان ، عن معبد [بن خالد ، به . وأخرجه مسلم من حديث سفيانَ ومسعَر ، كلاهما عن معبد به](٣) ثم قال ابن ماجه :

حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا أبو هشام المخزومي ، حدثنا وُهَيب ، عن أبي واقد ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « استعيذوا بالله ، فإن العين حق » . تفرد به(٤) .

وقال أبو داود : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن الأسود ، عن عائشة قالت : كان يؤمر العائن فيتوضأ ويغسل منه المَعين (٥) .

حديث سهل بن حُنَيف ، قال الإمام أحمد : حدثنا حُسَين بن محمد ، حدثنا أبو أويس ، حدثنا الزّهري ، عن أبي أمامة بن سَهل بن حُنَيف : أن أباه حدثه أن النبي — صلى الله عليه وسلم — خرج وساروا معه نحو مكة ، حتى إذا كانوا بشعب الخَرّار — من الجحفة — اغتسل سهلُ بن حُنَيف — وكان رجلا أبيض حَسَن الجسم والجلد — فنظر إليه عامر بن ربيعة ، أخو بني عدى بن كعب — وهو يغتسل ، فقال : ما رأيت كاليوم ولا جلد مُخَبّأة . فلُبِطَ سهل ، فأتى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقيل له : يا رسول الله ، هل لك في سهل . والله ما يرفع رأسه ولا يُفيق .
قال : « هل تتهمون فيه من أحد ؟ » . قالوا : نظر إليه عامر بن ربيعة . فدعا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عامرا ، فتغيظ عليه ، وقال : « علام يقتل أحدكم أخاه ، هلا إذا رأيت ما يعجبك بَرّكت ؟ ثم قال له : اغتسل له — فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه وداخلة إزاره في قَدَح — ثم صُبّ ذلك الماء عليه . يَصُبُّه (٦) رجل على رأسه وظهره من خلفه ، ثم يكفأ القدح وراءه . ففعل ذلك ، فراح سهل مع الناس ، ليس به بأس :

---

(١) تحفة الأحوذي ، أبواب الطب ، باب « ما جاء في الرقية من العين » ، الحديث ٢١٣٦ — ٢١٣٧ : ٦/٢١٩ — ٢٢٠ . وسنن ابن ماجه ، كتاب الطب ، باب « من استرقى من العين » ، الحديث ٣٥١٠ : ٢/١١٦٠ .

(٢) سنن ابن ماجه ، في الكتاب والباب المتقدمين ، الحديث ٣٥١٢ : ٢/١١٦١ .

(٣) البخاري ، كتاب الطب ، باب « رقية العين » : ٧/١٧١ . ومسلم ، كتاب السلام ، باب « استحباب الرقية من العين والنملة والحمة والنظرة » : ٧/١٧ — ١٨ .

(٤) سنن ابن ماجه ، كتاب الطب ، باب « العين » ، الحديث ٣٥٠٨ : ٢/١١٥٩ . هذا وفي المخطوطة : « فان النفس حق » . والمثبت من سنن ابن ماجه .

(٥) سنن أبي داود ، كتاب الطب ، باب « ماجاء في العين » . هذا وقد وقع عقيب هذا الحديث السقط الذي نبهنا عليه عند حديث حابس التميمي .

(٦) في المخطوطة : « فصبه » . والمثبت من المسند .

حديث عامر بن ربيعة ، قال الإمام أحمد فى مسند عامر : حدثنا وكيع ، حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن عيسى ، عن أمية (١) بن هند بن سهل بن حُنَيف ، عن عبد الله بن عامر قال : انطلق عامر بن ربيعة وسهل بن حنيف يريدان الغسل ، قال : فانطلقا يلتمسان الخَمَر(٢) — قال : فوضع عامر جُبّة كانت عليه من صوف ، فنظرت إليه فأصبته بعينى ، فنزل الماء يغتسل ، قال : فسمعت له فى الماء قرقعة ، فأتيته فناديته ثلاثا فلم يجبنى . فأتيت النبى — صلى الله عليه وسلم — فأخبرته ، قال : فجاء يمشى فخاض الماء كأنى أنظر إلى بياض ساقيه ، قال : فضرب صدره بيده ثم قال : « اللهم اصرف عنه حرها وبردها ووَصبها (٣) » . قال : فقام . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إذا رأى أحدكم من أخيه ، أو من نفسه أو من ماله ، ما يعجبه ، فليبرّكه ، فإن العين حق (٤) » .

حديث جابر ، قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا محمد بن معمر ، حدثنا أبو داود ، حدثنا طالب بن حبيب ابن عمرو بن سهل الأنصارى — ويقال له : ابن الضّجيع(٥) ، ضجيع حمزة — رضى الله عنه — حدثنى عبد الرحمن ابن جابر بن عبد الله ، عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكثر من يموت من أمتى بعد كتاب الله وقضائه وقدره بالأنفس » .

قال البزار : يعنى العين . قال : ولا نعلم يروى هذا الحديث عن النبى — صلى الله عليه وسلم — إلا بهذا الاسناد .

قلت : بل قد روى من وجه آخر عن جابر ، قال الحافظ أبو عبد الرحمن محمد بن المنذر الهروى — المعروف بشكّر — فى كتاب العجائب ، وهو مشتمل على فوائد جليلة وغريبة : حدثنا الرهاوى ، حدثنا يعقوب بن محمد ، حدثنا على بن أبى على الهاشمى ، حدثنا محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « العين حق لتورد الرجل القبر ، والجمل القدر ، وإن أكثر هلاك أمتى فى العين » .

ثم رواه عن شعيب بن أيوب ، عن معاوية بن هشام ، عن سفيان ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر [قال] : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « قد تُدخلُ الرجلَ العينُ فى القبر ، وتدخل الجملَ القدر » .

حديث عبد الله بن عمرو ، قال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا رشدين بن سعد ، عن الحسن بن ثوبان ، عن هشام بن أبى رُقية ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — : « لا عدوى ولا طيرةَ ولا هامة ولا حسَد ، والعين حق (٦) » . تفرد به أحمد .

حديث عن على ، روى الحافظ ابن عساكر من طريق خيثمة بن سليمان الحافظ : حدثنا عبيد بن محمد الكشورى ، حدثنا عبد الله بن عبد الله بن عبد ربه البصرى ، عن أبى رجاء ، عن شعبة ، عن أبى إسحاق ، عن الحارث ، عن على : أن

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣/٤٨٦ — ٤٨٧ .
(٢) الخمر — بفتحتين — : كل ما سترك من شجر أو بناء أو غيره .
(٣) الوصب — بفتحتين — : دوام الوجع ولزومه .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٣/٤٤٧ .
(٥) وذلك أن سهلا استشهد بأحد مع حمزة فدفن إلى جنبه . انظر الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢/١/٤٩٦ .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٢/٢٢٢ .

جبريل أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوافقه مغتمًا ، فقال : يا محمد ، ما هذا الغم الذى أراه فى وجهك ؟ قال : « الحسن والحسين أصابتهما عين » . قال : صدّق بالعين ، فإن العين حق ، أفلا عوذتهما بهؤلاء الكلمات ؟ قال : « وماهن يا جبريل ؟ » . قال : قل : اللهم ذا السلطان العظيم ، [ذا المن](١) القديم ، ذا الوجه الكريم ، ولى الكلمات التامات ، والدعوات المستجابات ، عاف الحسن والحسين من أنفس الجن ، وأعين الإنس . فقالها النبى صلى الله عليه وسلم ، فقاما يلعبان بين يديه . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « عوّذوا أنفسكم ونساءكم وأولادكم بهذا التعويذ ، فإنه لم يتعوذ المتعوذون بمثله » .

قال الخطيب البغدادى : تفرد بروايته أبو رجاء محمد بن عبيد الله الحَبَطى من أهل تُسْتَر . ذكره ابن عساكر فى ترجمة « طراد بن الحسين » من تاريخه(٢) .

وقوله : (ويقولون : إنه لمجنون) ، أى : يزدرونه بأعينهم ويؤذونه بألسنتهم ، ويقولون : (إنه لمجنون) ، أى : لمجيئه بالقرآن . قال الله تعالى : (وما هو إلا ذكر للعالمين) .

[آخر تفسير سورة (ن) ولله الحمد]

---

(١) ما بين القوسين من تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر . ومكانه بياض فى المخطوطة .

(٢) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية ، برقم ١٢٥ تاريخ ، الجزء الخامس عن مكتبة أحمد الثالث .

تفسير سورة الحاقة

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا
بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ
فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ
بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١)
لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢)

الحاقةُ من أسماء يوم القيامة ، لأن فيها يَتحقّقُ الوَعدُ والوَعيد ، ولهذا عظَّم تعالى أمرَها فقال : (وما أدراك ما الحاقة ؟) .

ثم ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين بها فقال تعالى : (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية) ، وهى الصيحة التى أسكتتهم ، والزلزلة التى أسكنتهم . هكذا قال قتادة : الطاغية الصيحة . [وهو اختيار ابن جرير (١)] .

وقال مجاهد : الطاغية الذنوب . وكذا قال الربيع بن أنس ، وابن زيد : إنها الطغيان ، وقرأ ابن زيد : (كذبت ثمود بطغواها) .

وقال السدى : (فأهلكوا بالطاغية) ، قال : يعنى عاقر الناقة .

(وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر) ، أى : باردة . قال قتادة ، والربيع ، والسدى ، والثورى : (عاتية) ، أى : شديدة الهبوب . قال قتادة : عتت عليهم حتى نقَّبت (٢) عن أفئدتهم .

وقال الضحاك : (صرصر) : باردة ، (عاتية) : عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة . وقال على (٣) وغيره : عتت على الخزنة فخرجت بغير حساب .

---

(١) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة . وانظر تفسير الطبرى : ٢٩/٣١ .

(٢) أى : كشفت .

(٣) هو على بن أبى طالب ، وانظر أثره فى تفسير الطبرى : ٢٩/٣٢ .

(سخرها عليهم) ، أى : سلطها عليهم (سبع ليال وثمانية أيام حسوما) ، أى : كوامل متتابعات مشائم .

قال ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والثورى ، وغير واحد : (حسوما) : متتابعات .

وعن عكرمة والربيع : مشائم عليهم ، كقوله : (فى أيام نحسات) — قال الربيع : وكان أولها الجمعة . وقال غيره : الأربعاء . ويقال : إنها التى تسميها الناس الأعجاز ؛ كأن الناس أخذوا ذلك من قوله تعالى : (فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية) . وقيل : لأنها تكون فى عجز الشتاء ، ويقال : أيام العجوز ؛ لأن عجوزا من قوم عاد دخلت سربًا فقتلها الريح فى اليوم الثامن . حكاه البغوى . والله أعلم .

قال ابن عباس : (خاوية) : خربة . وقال غيره : بالية . أى : جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض فيخر ميتا على أم رأسه ، فينشدخ رأسه وتبقى جثته هامدة كأنها قائمة النخلة إذا خرت بلا أغصان .

وقد ثبت فى الصحيحين ، عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « نُصِرْتُ بالصَّبا ، وأهلكت عادٌ بالدَّبور (١) » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن يحيى بن الضّريس العبدى ، حدثنا ابن فُضَيل ، عن مسلم ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ما فتح الله على عاد من الريح التى أهلكوا فيها إلا مثل موضع الخاتم ، فمرّت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم ، فجعلتهم بين السماء والأرض . فلما رأى ذلك أهل الحاضرة الريح وما فيها قالوا : هذا عارض ممطرنا . فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة (٢) » .

وقال الثورى عن ، ليث ، عن مجاهد : الريح لها جناحان وذنب .

(فهل ترى لهم من باقية ؟) ، أى : هل تحس منهم من أحد من بقاياهم أنه ممن ينتسب إليهم ؟ بل بادوا عن آخرهم ، ولم يجعل الله لهم خلفًا .

ثم قال تعالى : (وجاء فرعون ومن قبله) : قُرِىء بكسر القاف ، أى : ومن عنده فى زمانه من أتباعه من كفار القبط . وقرأ آخرون بفتحها ، أى : ومن قبله من الأمم المشبهين له .

وقوله : (والمؤتفكات) ، وهم الأمم المكذبون بالرسل (بالخاطئة) ، أى : بالفعلة الخاطئة ، وهى التكذيب بما أنزل الله .

قال الربيع : (بالخاطئة) ، أى : بالمعصية . وقال مجاهد : بالخطايا .

ولهذا قال : (فعصوا رسول ربهم) : وهذا جنس ، أى : كلٌّ كذَّبَ رسول الله إليهم . كما قال : (إن كل إلا كذب الرسل فحق وعيد)(٣) . ومن كذب رسول الله فقد كذب بالجميع ، كما قال : (كذبت قوم نوح المرسلين)(٤)

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية الحادية والأربعين من سورة الذاريات ، وخرجناه هنالك ، انظر : ٧/٤٠٥ .
(٢) انظر تفسير الآية الرابعة والعشرين من سورة الأحقاف : ٧/٢٧١ .
(٣) سورة ق ، آية : ١٤ .
(٤) سورة الشعراء ، آية : ١٠٥ .

(كذبت عاد المرسلين)(١) (كذبت ثمود المرسلين)(٢) ؛ وإنما جاء إلى كل أمة رسول واحد ، ولهذا قال هاهنا: (فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية) ، أى : عظيمة شديد : أليمة .

قال مجاهد : (رابية) : شديدة ؛ وقال السدى : مهلكة .

ثم قال الله تعالى : (إنا لما طغى الماء) ، أى : زاد على الحد بإذن الله وارتفع على الوجود -قال ابن عباس وغيره : (طغى الماء) : كثر - وذلك بسبب دعوة نوح - عليه السلام - على قومه حين كذبوه وخالفوه ، فعبدوا غير الله ، فاستجاب الله له وعمّ أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح فى السفينة ، فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته .

قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران ، عن أبى سنان سعيد بن سنان ، عن غير واحد ، عن على بن أبى طالب قال : لم تنزل قطرة من ماء إلا بكيل على يدى ملك ، فلما كان يوم نوح أذن للماء دون الخزان ، فطغى الماء على الخزان(٣) فخرج ، فذلك قول الله (إنا لما طغى الماء حملنا كم فى الجارية) ، ولم ينزل شيء من الريح إلا بكيل على يدى ملك ، إلا يوم عاد ، فانه أذن لها دون الخزان) فخرجت ، فذلك قوله :(بريح صرصر عاتية) : عتت على الخزان (٤) .

ولهذا قال تعالى ممتنا على الناس : (إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية) ، وهى السفينة الجارية على وجه الماء ، (لنجعلها لكم تذكرة) عاد الضمير على الجنس لدلالة المعنى عليه ، أى : وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء فى البحار ، كما قال : (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ، لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه (٥)) . وقال تعالى : (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون ، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) (٦).

وقال قتادة : أبقى الله السفينة حتى أدركها أوائل هذه الأمة(٧) . والأول أظهر ، ولهذا قال : (وتعيها أذن واعية)، أى : وتفهم هذه النعمة ، و تذكرها أذن واعية .

قال ابن عباس : حافظة سامعة . وقال قتادة : (أذن واعية) : عقلت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله . وقال الضحاك : (وتعيها أذن واعية) : سمعتها أذن ووعت (٧) . أى : من له سمع صحيح وعقل رجيح . وهذا عام فيمن فهم ، ووعى .

---

(١) سورة الشعراء ، آية : ١٢٣ .
() سورة الشعراء ، آية : ١٤١ .
(٣) فى تفسير الطبرى : « على الجبال » .
(٤) تفسير الطبرى : ٣٢/٢٩ .
(٥) سورة الزخرف ، آية : ١٣ - ١٤ .
(٦) سورة « يس » ، آية : ٤١ - ٤٢ .
(٧) تفسير الطبرى : ٢٩/ ٣٥ .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة الدمشقي ، حدثنا العباس بن الوليد بن صبح الدمشقي ، حدثنا زيد بن يحيى ، حدثنا علي بن حوشب ، سمعت مكحولا يقول : لما نزل على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : (وتعيها أذن واعية) ، قال رسول الله : « سألت ربي أن يجعلها أذن علي » . فكان علي يقول : ما سمعت من رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ شيئا قط فنسيته .

وهكذا رواه ابن جرير ، عن علي بن سهل ، عن الوليد بن مسلم ، عن علي بن حوشب ، عن مكحول ، به ، وهو حديث مرسل .

وقال ابن أبي حاتم أيضا : حدثنا جعفر بن محمد بن عامر ، حدثنا بشر بن آدم ، حدثنا عبد الله بن الزبير أبو محمد ــ يعني والد أبي أحمد الزبيري ــ حدثني صالح بن الهيثم (١) ، سمعت بريدة الأسلمي يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي : « إني أمرت أن أدنيك ولا أقصيك ، وأن أعلمك وأن تعي ، وحق لك أن تعي » . قال : فنزلت هذه الآية : (وتعيها أذن واعية) .

ورواه ابن جرير عن محمد بن خلف ، عن بشر (١) بن آدم ، به . ثم رواه ابن جرير من طريق آخر عن [أبي] داود الأعمى ، عن بريدة ، به . ولا يصح أيضا .

فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾

يقول [تعالى مخبرا] عن أهوال يوم القيامة ، وأول ذلك نفخة الفزع ، ثم يعقبها نفخة الصعق حين يصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور ، وهي [هذه] النفخة ، وقد أكدها هاهنا بأنها واحدة ، لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع ، ولا يحتاج إلى تكرار وتأكيد .

وقال الربيع : هي النفخة الأخيرة . والظاهر ما قلناه ، ولهذا قال هاهنا : (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) ، أي : فمدت مد الأديم العكاظي ، وتبدلت الأرض غير الأرض ، (فيومئذ وقعت الواقعة) ، أي : قامت القيامة ، (وانشقت السماء فهي يومئذ واهية) ــ قال سماك ، عن شيخ من بني أسد ، عن علي قال : تنشق السماء من المجرة . رواه ابن أبي حاتم .

وقال ابن جريج : هي كقوله : (وفتحت السماء فكانت أبوابا)(٢) .

---

(١) سند الحديث في تفسير الطبري ٢٩/٣٥ ــ ٣٦ : « ثنا عبد الله بن الزبير قال : ثني عبد الله بن رستم قال : سمعت بريدة » .

(٢) سورة النبأ ، آية : ١٩ .

وقال ابن عباس : متخرقة (١) ، والعرش بحذائها .

(والملك على أرجائها) ، الملك : اسم جنس ، أى : الملائكة على أرجاء السماء :

قال ابن عباس : على ما لم يَهِ منها (٢) [أى : حافاتها](٣) . وكذا قال سعيد بن جبير ، والأوزاعى . وقال الضحاك : أطرافها . وقال الحسن البصرى : أبوابها . وقال الربيع بن أنس فى قوله : (والملك على أرجائها) ، يقول : على ما استدقّ من السماء ، ينظرون إلى أهل الأرض .

وقوله : (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) ، أى : يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة . ويحتمل أن يكون المراد بهذا [العرش العرشَ] العظيم ، أو : العرش الذى يوضع فى الأرض يوم القيامة لفصل القضاء ، والله أعلم بالصواب . وفى حديث عبد الله بن عَمِيرة ، عن الأحنف بن قيس ، عن العباس بن عبد المطلب ، فى ذكر حَمَلَة العرش أنهم ثمانية أوعال (٤) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد يحيى بن سعيد ، حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنى أبو السمح البصرى ، حدثنا أبو قَبيل حُيَيّ بن هانئ : أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول : حملة العرش ثمانية ، ما بين مُوق(٥) أحدهم إلى مؤخر عينه مسيرة مائة عام .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى قال : كتب إلىّ أحمد بن حفص بن عبد الله النيسابورى : حدثنى أبى ، حدثنا إبراهيم بن طهمان ، عن موسى بن عقبة ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أذن لى أن أحدثكم عن ملك من حملة العرش ، بعدُ ما بين شحمة أذنه وعنقه مَخفقُ الطير سبعمائة عام » .

وهذا إسناد جيد ، رجاله كلهم ثقات . وقد رواه أبو داود فى « كتاب السنة » من سُنَنه : حدثنا أحمد بن حفص ابن عبد الله ، حدثنا أبى ، حدثنا إبراهيم بن طهمان عن موسى بن عقبة ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أُذِنَ لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حَمَلَة العرش : أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام » . هذا لفظ أبى داود(٦) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا يحيى بن المغيرة ، حدثنا جرير ، عن أشعث ، عن جعفر ، عن سعيد ابن جبير فى قوله : (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) . قال : ثمانية صفوف من الملائكة . قال : ورُوى عن الشعبى ، والضحاك ، وابن جريج ، مثل ذلك . وكذا روى السُّدّى عن [أبى] مالك ، عن ابن عباس : ثمانية صفوف . وكذا روى العوفى ، عنه .

---

(١) فى تفسير الطبرى ٣٦/٢٩ : « متمزقة ضعيفة » .
(٢) تفسير الطبرى : ٣٧/٢٩ .
(٣) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة . ومكانه فى المخطوطة : « وقال » .
(٤) تقدم الحديث عند تفسير الآية السابقة من سورة غافر وخرجناه هنالك ، انظر : ١٢١/٧ .
(٥) موق العين — بضم فسكون — : مؤخرها . ومأقها بفتح فسكون — : مقدمها .
(٦) سنن أبى داود ، كتاب السنة ، باب « فى الجهمية » .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : الكَرَوبيّون (١) ثمانية أجزاء ، كل جنس منهم بقدر الإنس والجن والشياطين والملائكة .

وقوله : (يومئذ تُعرضُون لا تخفى منكم خافية) ، أى : تعرضون على عالم السر والنجوى الذى لا يخفى عليه شىء من أموركم ، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر . ولهذا قال : (لا تخفى منكم خافية) .

وقد قال ابن أبى الدنيا : أخبرنا إسحاق بن إسماعيل ، أخبرنا سفيان بن عيينة ، عن جعفر بن بُرْقان ، عن ثابت ابن الحجاج قال : قال عمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنه ـــ حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن تُوزَنوا ، فإنه أخف عليكم فى الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتَزَيَّنُوا للعرض الأكبر :(يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا على بن على بن رفاعة ، عن الحسن ، عن أبى موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدالٌ ومعاذيرُ ، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف [فى الأيدى] ، فآخذ بيمينه وآخذ بشماله (٢) » .

ورواه ابن ماجه ، عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن وكيع (٣) ، به . وقد رواه الترمذى عن أبى كريب ، عن وكيع ، عن على بن على ، عن الحسن ، عن أبى هريرة ، به (٤) .

وقد روى ابنُ جرير عن مجاهد بن موسى ، عن يزيد ، عن سليمان بن حَيّان ، عن مروان الأصغر ، عن أبى وائل ، عن عبد الله قال : يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات : [عرضتان] ، معاذير وخصومات ، والعرضة الثالثة تطير الصحف فى الأيدى . ورواه سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة مرسلا ، مثله (٥) :

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾

يخبر تعالى عن سعادة من أوتى كتابه يوم القيامة بيمينه ، وفرحه بذلك ، وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه : (هاؤم اقرءوا كتابيه) ، أى : خذوا اقرءوا كتابيه ؛ لأنه يعلم أن الذى فيه خير وحسنات محضة ، لأنه ممن بدّل الله سيئاته حسنات .

---

(١) الكروبيون : سادة الملائكة المقربون .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٤/٤١٤ .
(٣) سنن ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « ذكر البعث » ، الحديث ٤٢٧٧ : ٢/١٤٣٠ .
(٤) تحفة الأحوذى ، أبواب القيامة ، باب « ماجاء فى العرض » ، الحديث ٢٥٤٢ : ٧/١١١ – ١١٢ .
(٥) تفسير الطبرى : ٢٩/٣٨ .

قال عبد الرحمن بن زيد : معنى (هاؤم اقرءوا كتابيه) ، أى : ها اقرءوا كتابيه ، و « وم » زائدة : كذا قال ، والظاهر أنها بمعنى : هاكم .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا بشر بن مطر الواسطى ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا عاصم الأحول ، عن أبى عثمان قال : المؤمن يعطى كتابه فى ستر من الله ، فيقرأ سيئاته ، فكلما قرأ سيئة تغير لونه حتى يمر بحسناته فيقرؤها ، فيرجع إليه لونه . ثم ينظر فإذا سيئاته قد بُدِّلت حسنات ، قال : فعند ذلك يقول : هاؤم اقرءوا كتابيه .

وحدثنا أبى ، حدثنا إبراهيم بن الوليد بن سلمة ، حدثنا روح بن عبادة ، حدثنا موسى بن عبيدة ، أخبرنى عبد الله ابن عبد الله بن حنظلة — غسيل الملائكة — قال : إن الله يَقِفُ عبده يوم القيامة فيبدى سيئاته فى ظهر صحيفته ، فيقول له : أنت عملت هذا ؟ فيقول : نعم ، أى رب . فيقول له : إنى لم أفضحك به ، وإنى قد غفرت لك . فيقول عند ذلك : (هاؤم اقرءوا كتابيه . إنى ظننت أنى ملاق حسابيه) ، حين نجا من فَضْحة يوم القيامة .

وقد تقدم فى الصحيح حديثُ ابن عمر حين سئل عن النجوى ، فقال : سمعت النبى — صلى الله عليه وسلم — يقول : « يدنى الله العبد يوم القيامة ، فيقرره بذنوبه كلها ، حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله : إنى سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم . ثم يُعطَى كتابَ حسناته بيمينه . وأما الكافر والمنافق (فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين) (١) » .

وقوله : (إنى ظننت أنى ملاق حسابيه) ، أى : قد كنت موقنا فى الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة ، كما قال : (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم)(٢) .

قال الله : (فهو فى عيشة راضية) ، أى : مرضية ، (فى جنة عالية) ، أى : رفيعة قصورها ، حسان حورها ، نعيمة دورها ، دائم حبورها .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو عُتْبَةَ الحسن بن على بن مسلم السَّكُونى ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن سعيد بن يوسف ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى سلام الأسود قال : سمعتُ أبا أمامةَ قال : سأل رجلٌ رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم — : هل يتزاور أهل الجنة ؟ قال : « نعم ، إنه ليهبط أهل الدرجة العليا إلى أهل الدرجة السفلى ، فيحيونهم ويسلمون عليهم ، ولا يستطيع أهل الدرجة السفلى يصعدون إلى الأعلين ، تقصر بهم أعمالهم » .

وقد ثبت فى الصحيح : « إن الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض »(٣) .

وقوله : (قطوفها دانية) ، قال البراء بن عازب : أى قريبة ، يتناولها أحدهم ، وهو نائم على سريره . وكذا قال غير واحد .

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية الثامنة عشرة من سورة هود ، وخرجناه هنالك ، انظر : ٤/٢٤٧ .
(٢) سورة البقرة ، آية : ٤٦ .
(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية السادسة والتسعين من سورة النساء ، وخرجناه هنالك ، انظر : ٢/٣٤٢ .

قال الطبراني ، عن عبد الرزاق ، عن سفيان الثوري ، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم ، عن عطاء بن يسار ، عن سلمان الفارسي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة أحد إلا بجواز : (بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من الله لفلان بن فلان ، أدخلوه جنة عالية ، قطوفها دانية » .

وكذا رواه الضياء في صفة الجنة من طريق سعدان بن سعيد ، عن سليمان التيمي ، عن أبي عثمان النهدي ، عن سلمان ، عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « يعطى المؤمن جوازا على الصراط : (بسم الله الرحمن الرحيم) ، هذا كتاب من الله العزيز الحكيم لفلان ، أدخلوه جنة عالية ، قطوفها دانية » .

وقوله : (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية) ، أي : يقال لهم ذلك ؛ تفضلا عليهم ، وامتنانا وإنعاما وإحسانا ؛ وإلا فقد ثبت في الصحيح ، عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه قال : « اعملوا وسددوا وقاربوا (١)، واعلموا أن أحدا منكم لن يدخله عمله الجنة » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل » (٢) .

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾

وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطى [أحدهم] كتابه في العرصات بشماله ، فحينئذ يندم غاية الندم ، فيقول : (ياليتني لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية) .

قال الضحاك : يعني موتة لا حياة بعدها ؛ وكذا قال محمد بن كعب ، والربيع ، والسدي .

وقال قتادة : تمنى الموت ، ولم يكن شيء في الدنيا أكره إليه منه (٣) .

(ما أغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه) ، أي : لم يدفع عني مالي ولا جاهي عذاب الله وبأسه ، بل خلص الأمر إليّ وحدي ، فلا معين لي ولا مجير ؛ فعندها يقول الله عز وجل : (خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه) ، أي: يأمر الزبانية أن تأخذه عنفاً من المحشر ، فتغله ، أي : تضع الأغلال في عنقه ، ثم تورده إلى جهنم فتصليه إياها ، أي : تغمره فيها .

---

(١) تقدم شرحه في : ٥/٣٨٦ .

(٢) البخاري ، كتاب الرقاق ، باب « القصد والمداومة على العمل » : ٨/١٢٣ ، ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب « لن يدخل أحد الجنة بعمله ، بل برحمة الله تعالى » : ٨/١٤٠ ــ ١٤١ .

(٣) تفسير الطبري : ٢٩/٣٩ .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد ، عن عمرو بن قيس ، عن المنهال بن عمرو قال : إذا قال الله — عز وجل — : خذوه ، ابتدره سبعون ألف ملك ، إن الملك منهم ليقول (١) هكذا ، فيلقى سبعين ألفا في النار .

وروى ابن أبي الدنيا في « الأهوال » : إنه يبتدره أربعمائة ألف ، ولا يبقى شيء إلا دقّه ، فيقول : مالي ولك ؟ فيقول : إن الرب عليك غضبان ، فكل شيء غضبان عليك .

وقال الفضيل — هو ابن عياض — : إذا قال الرب — عز وجل — : خذوه فغلوه ، ابتدره سبعون ألف ملك ، أيهم يجعل الغل في عنقه .

(ثم الجحيم صلوه) ، أي : اغمروه فيها .

وقوله : (ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه) — قال كعب الأحبار : كل حلقة منها قدر حديد الدنيا .

وقال العوفي عن ابن عباس ، وابن جريج : بذراع الملك . وقال ابن جريج ، قال ابن عباس : (فاسلكوه) : تدخل في استه ثم تخرج من فيه ، ثم ينظمون فيها كما ينظم الجراد في العود حين يشوى .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : يسلك في دبره حتى تخرج من منخريه ، حتى لا يقوم على رجليه (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا علي بن إسحاق ، أخبرنا عبد الله ، أخبرنا سعيد بن يزيد ، عن أبي السمح ، عن عيسى ابن هلال الصدفي ، عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أن رَصاصةً (٣) مثل هذه — وأشار إلى [مثل (٤)] جُمْجُمة — أرسلت من السماء إلى الأرض ، وهي مسيرة خمسمائة سنة ، لبلغت الأرض قبل الليل . ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة ، لسارت أربعين خريفاً الليلَ والنهارَ ، قبل أن تبلغ قعرها (٥) أو أصلها (٦) » .

وأخرجه الترمذي ، عن سُوَيد بن نصر ، عن عبد الله بن المبارك ، به . وقال : « هذا حديث حسن (٧) » .

وقوله : (إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين) ، أي : لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته ، ولا ينفع خلقه ويؤدي حقهم ؛ فإن لله على العباد أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئا ، وللعباد بعضهم على بعض

---

(١) يطلق القول في اللغة على جميع الأفعال .

(٢) تفسير الطبري : ٢٩/٤٠ .

(٣) أي : قطعة من الرصاص .

(٤) ما بين القوسين عن المسند والترمذي . والجمجمة : قدح صغير .

(٥) أي : نهاية السلسلة .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٢/١٩٧ .

(٧) تحفة الأحوذي ، أبواب صفة جهنم ، باب « ماجاء في صفة طعام أهل النار » الحديث ٢٧١٤ ، ٤/٣١٣ — ٣١٤ .

حقّ الإحسان والمعاونة على البر والتقوى : ولهذا أمر الله بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وقبض النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو يقول : « الصلاة ، وما ملكت أيمانكم (١) » .

وقوله : (فليس له اليوم هاهنا حميم • ولا طعام إلا من غسلين • لا يأكله إلا الخاطئون) ، أى : ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله ، لا حميم ــ وهو القريب ــ ولا شفيع يطاع ، ولا طعام له هاهنا إلا من غسلين .

قال قتادة : هو شر طعام أهل النار : وقال الربيع ، والضحاك : هو شجرة فى جهنم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا منصور بن أبى مزاحم ، حدثنا أبو سعيد المؤدب ، عن خُصَيف ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : ما أدرى ما الغسلين ؟ ولكنى أظنه الزقوم .

وقال شَبيب بن بشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : الغسلين : الدم والماء يسيل من لحومهم : وقال على بن أبى طلحة عنه : الغسلين : صديد أهل النار (٢) .

فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا
مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى مُقسماً بخلقه بما يشاهدونه من آياته فى مخلوقاته الدالة على كماله فى أسمائه وصفاته، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم : أن القرآن كلامُه ووحيُه وتنزيلُه على عبده ورسوله ، الذى اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة ، فقال : (فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون : إنه لقول رسول كريم) ، يعنى محمداً ــ صلى الله عليه وسلم ــ أضافه إليه على معنى التبليغ ، لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسِل ، ولهذا أضافه فى سورة التكوير إلى الرسول الملكى : (إنه لقول رسول كريم • ذى قوة عند ذى العرش مكين • مطاع ثم أمين) وهذا جبريل عليه السلام .

ثم قال : (وما صاحبكم بمجنون) يعنى محمداً ــ صلى الله عليه وسلم ــ (ولقد رآه بالأفق المبين) ، يعنى أن محمداً رأى جبريل على صورته التى خلقه الله عليها ، (وما هو على الغيب بضنين) ، أى : بمتهم ، (وما هو بقول شيطان رجيم (٣)) : وهكذا قال هاهنا (وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون) ، فأضافه تارة إلى قول الرسول الملكى ، وتارة إلى الرسول البشرى ، لأن كلا منهما مبلغ عن الله ما استأمنه عليه من وحيه وكلامه . ولهذا قال : (تنزيل من رب العالمين) .

---

(١) ابن ماجه ، كتاب الوصايا ، باب « هل أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ، ٢٦٧ : ٢/٩٠٠ ــ ٩٠١ ، وكتاب الجنائز ، باب « ماجاء فى ذكر مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ١٦٢٥ : ١/٥١٩ . ومسند الإمام أحمد عن على رضى الله عنه : ١/٧٨ . وعن أنس : ٣/١١٧ . وعن أم سلمة : ٦/٢٩٠ ، ٣١١ ، ٣١٥ ، ٣٢١ .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٩/٤١ .
(٣) سورة التكوير ، الآية ١٩ ــ ٢٥ .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا صفوان ، حدثنا شُرَيح بن عبيد قال : قال عمر بن الخطاب : خرجت أتعرّض رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قبل أن أسلم ، فوجدته قد سبقني إلى المسجد ، فقمت خلفه ، فاستفتح سورة الحاقة ، فجعلت أعجب من تأليف القرآن — قال : فقلت : هذا والله شاعر كما قالت قريش ، قال : فقرأ : (إنه لقول رسول كريم • وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون) ، قال : فقلت : كاهن ، قال : فقرأ : (ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون • تنزيل من رب العالمين • ولو تقول علينا بعض الأقاويل • لأخذنا منه باليمين • ثم لقطعنا منه الوتين • فما منكم من أحد عنه حاجزين) ... إلى آخر السورة ، قال : فوقع الإسلام في قلبي كل موقع (١) .

فهذا من جملة الأسباب التي جعلها الله مؤثرة في هداية عمر بن الخطاب ، كما أوردنا كيفية إسلامه في سيرته المفردة ، ولله الحمد .

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

يقول تعالى : (ولو تقول علينا) ، أي : محمد — صلى الله عليه وسلم — لو كان كما يزعمون مفتريا علينا ، فزاد في الرسالة أو نقص منها ، أو قال شيئا من عنده فنسبه إلينا ، وليس كذلك — لعاجلناه بالعقوبة ، ولهذا قال : (لأخذنا منه باليمين) ، قيل : معناه لانتقمنا منه باليمين ؛ لأنها أشد في البطش ، وقيل : لأخذنا بيمينه .

(ثم لقطعنا منه الوتين) ، قال ابن عباس : وهو نياط القلب ، وهو العرقُ الذي القلب معلق فيه ، وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير ، والحكم ، وقتادة ، والضحاك ، ومسلم البَطِين ، وأبو صخر حُمَيد بن زياد .

وقال محمد بن كعب : هو القلب ومَرَاقّه (٢) وما يليه .

وقوله : (فما منكم من أحد عنه حاجزين) ، أي : فما يقدر أحد منكم على أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئا من ذلك ، والمعنى في هذا : بل هو صادق بار راشد ، لأن الله — عز وجل — مقرر له ما يبلغه عنه ، مؤيد له بالمعجزات الباهرات والدلالات القاطعات .

ثم قال : (وإنه لتذكرة للمتقين) ، يعني : القرآن ، كما قال : (قل : هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى (٣)) .

ثم قال : (وإنا لنعلم أن منكم مكذبين) ، أي : مع هذا البيان والوضوح سيوجد منكم من يكذب بالقرآن .

(١) مسند الإمام أحمد ١٧/١ — ١٨ .
(٢) المراق : ما سفل من البطن فما تحته من المواضع التي ترق جلودها ، واحدها مرق .
(٣) سورة فصلت ، آية ٤٤ .

ثم قال : (وإنه لحسرة على الكافرين) — قال ابن جرير : وإن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة(١) ، وحكاه عن قتادة بمثله .

وروى ابن أبي حاتم ، من طريق السدى ، عن أبي مالك : (وإنه لحسرة على الكافرين) ، يقول : لندامة . ويحتمل عود الضمير على القرآن ، أى : وإن القرآن والإيمان به لحسرة فى نفس الأمر على الكافرين ، كما قال : (كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين . لا يؤمنون به (٢)) . وقال تعالى : (وحيل بينهم وبين ما يشتهون (٣)) . ولهذا قال هاهنا : (وإنه لحق اليقين) ، أى : الخبر الصدق الحق الذى لا مرية فيه ، ولا شك ، ولا ريب .

ثم قال : (فسبح باسم ربك العظيم) ، أى : الذى أنزل هذا القرآن العظيم .

[آخر تفسير سورة الحاقة ، ولله الحمد]

---

(١) تفسير الطبرى : ٤٣/٢٩ .
(٢) سورة الشعراء ، آية : ٢٠٠ — ٢٠١ .
(٣) سورة سبأ ، آية : ٥٤ .

تفسير سورة سأل سائل

وهى مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾

(سأل سائل بعذاب واقع) : فيه تضمين دل عليه حرف « الباء » ، كأنه مُقَدّر : استعجل سائل بعذاب واقع ؛ كقوله : (ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده (١)) ، أى : وعذابه واقع لا محالة .

قال النسائى : حدثنا بشر بن خالد ، [حدثنا] أبو أسامة ، حدثنا سفيان ، عن الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله : (سأل سائل بعذاب واقع) ، قال : النضر بن الحارث بن كَلَدَة .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : (سأل سائل بعذاب واقع) ، قال : ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع (٢) .

وقال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد فى قوله : (سأل سائل) : دعا داع بعذاب واقع يقع فى الآخرة ، قال : وهو قولهم : (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم) .

وقال ابن زيد وغيره : (سأل سائل بعذاب واقع) ، أى : واد فى جهنم ، يسيل يوم القيامة بالعذاب . وهذا القول ضعيف ، بعيد عن المراد . والصحيح الأول لدلالة السياق عليه .

وقوله : (واقع . للكافرين) ، أى : مُرْصَد مُعَدّ للكافرين .

وقال ابن عباس (واقع) : جاء . (ليس له دافع) ، أى : لا دافع له إذا أراد الله كونه . ولهذا قال : (من الله ذى المعارج) — قال الثورى ، عن الأعمش ، عن رجل ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله : (ذى المعارج) ، قال : ذو الدرجات .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس (ذى المعارج) ، يعنى : العلو والفواضل .

وقال مجاهد (ذى المعارج) : معارج السماء . وقال قتادة : ذى الفواضل والنعم .

---

(١) سورة الحج ، آية : ٤٧ .

(٢) تفسير الطبرى ، ٢٩/٤٤ .

وقوله : (تعرج الملائكة والروح إليه) ــ قال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة : (تعرج) : تصعد .

وأما الروح فقال أبو صالح : هم خلق من خلق الله . يشبهون الناس ، وليسوا ناسا .

قلت : ويحتمل أن يكون المراد به جبريل ، ويكون من باب عطف الخاص على العام . ويحتمل أن يكون اسم جنس لأرواح بنى آدم ، فإنها إذا قبضت يُصعَد بها إلى السماء ، كما دل عليه حديث البراء . وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه ، من حديث المنهال ، عن زاذان ، عن البراء مرفوعا الحديث بطوله فى قبض الروح الطيبة ــ قال فيه : « فلا يزال يصعد بها من سماء إلى سماء حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة » . والله أعلم بصحته ، فقد تكلم فى بعض رواته ، ولكنه مشهور ، وله شاهد فى حديث أبى هريرة فيما تقدم من رواية الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه ، من طريق ابن أبى ذئب ، عن محمد بن عمرو بن عطاء ، عن سعيد بن يسار ، عنه . وهذا إسناد رجاله على شرط الجماعة ، وقد بسطنا لفظه عند قوله تعالى : (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء (١)) .

وقوله : (فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) : فيه أربعة أقوال :

أحدها : أن المراد بذلك مسافة ما بين العرش العظيم إلى أسفل السافلين ، وهو قرار الأرض السابعة ، وذلك مسيرة خمسين ألف سنة ، هذا ارتفاع العرش عن المركز الذى فى وسط الأرض السابعة . وذلك اتساع العرش من قطر [إلى] قطر مسيرة خمسين ألف سنة : وأنه من ياقوتة حمراء ، كما ذكره ابن أبى شيبة فى كتاب صفة العرش . وقد قال ابن أبى حاتم عند هذه الآية :

حدثنا أحمد بن سلمة ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، أخبرنا حكام ، عن عُمَر بن معروف ، عن ليث ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قوله : (فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) ، قال : منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق السموات مقدار خمسين ألف سنة ويوم كان مقداره ألف سنة . يعنى بذلك تنزّل الأمر من السماء إلى الأرض ، ومن الأرض إلى السماء فى يوم واحد ، فذلك مقداره ألف سنة ، لأن ما بين السماء والأرض مقدار مسيرة خمسمائة سنة .

وقد رواه ابن جرير عن ابن حميد ، عن حكام بن سَلْم ، عن عُمَر بن معروف ، عن ليث ، عن مجاهد قوله ، لم يذكر ابن عباس (٢) .

قال ابن أبى حاتم : وحدثنا أبى ، حدثنا على بن محمد الطنافسى ، حدثنا إسحاق بن منصور (٣) ، حدثنا نوح المؤدِّب (٤) ، عن عبد الوهاب بن مجاهد ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : غلظ كل أرض خمسمائة عام ، وبين كل

---

(١) تقدم حديث البراء وأبى هريرة عند آية إبراهيم السابعة والعشرين ، وخرجناه هنالك ، انظر : ٤/٤١٣ ــ ٤١٧ .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٩/٤٤ ــ ٤٥ .
(٣) فى المخطوطة : « إبراهيم بن منصور » . ولم نجده ، وما أثبتناه عن ترجمة « نوح بن يزيد بن سيار أبى محمد المؤدب » فى التهذيب : ١٠/٤٨٩ . والجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٤/١/٤٨٥ .
(٤) فى المخطوطة « المعروف » ، وكأن أصلها « المؤدب » ثم أحالها الناسخ إلى « المعروف » ، انظر التعليق المتقدم .

أرض إلى أرض خمسمائة عام ، وذلك سبعة آلاف عام . وغلظ كل سماء خمسمائة عام ، وبين السماء إلى السماء خمسمائة عام ، وذلك أربعة عشر ألف عام ، وبين السماء السابعة وبين العرش مسيرة ستة وثلاثين ألف عام ، فذلك قوله : (فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) :

القول الثانى : أن المراد بذلك مدة بقاء الدنيا منذ خلق الله هذا العالم إلى قيام الساعة ، قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبو زرعة ، أخبرنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا ابن أبى زائدة ، عن ابن جريج ، عن مجاهد : (فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) ، قال : الدنيا عمرها خمسون ألف سنة . وذلك عمرها يوم ، سماها الله تعالى يوم ، (تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم) ، قال : اليوم الدنيا :

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد — وعن الحكم بن أبان ، عن عكرمة : (فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) ، قال : الدنيا من أولها إلى آخرها مقدار خمسين ألف سنة ، لا يدرى أحد كم مضى ، ولا كم بقى إلا الله عز وجل :

القول الثالث : أنه اليوم الفاصل بين الدنيا والآخرة ، وهو قول غريب جدا ، قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا بُهلول بن المورق ، حدثنا موسى بن عبيدة ، أخبرنى محمد ابن كعب : (فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) ، قال : هو يوم الفصل بين الدنيا والآخرة :

القول الرابع : أن المراد بذلك يوم القيامة ، قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أحمد بن سنان الواسطى ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن إسرائيل ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : (فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) ، قال : يوم القيامة . وهذا إسناد صحيح : ورواه الثورى عن سماك بن حرب ، عن عكرمة (فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) : يوم القيامة . وكذا قال الضحاك ، وابن زيد :

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : (تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) ، قال : [فهذا (١)] يوم القيامة ، جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة :

وقد وردت أحاديث فى معنى ذلك ، قال الإمام أحمد :

حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا درّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد قال : قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) : ما أطول هذا اليوم ! فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخفّ عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا (٢) » :

---

(١) ما بين القوسين عن تفسير الطبرى : ٢٩/٤٥ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٣/٧٥ .

ورواه ابن جرير ، عن يونس ، عن ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، عن دراج ، به (١) . إلا أن دَرّاجا وشيخه ضعيفان ، والله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن أبي عمر الغُدَاني قال : كنت عند أبي هريرة فمرّ رجل من بني عامر بن صعصعة ، فقيل له : هذا أكثر عامري مالا . فقال أبو هريرة : رُدّوه فقال : نبئت أنك ذو مال كثير ؟ فقال العامري : إي والله ، إن لي لمائة حُمْرا ومائة أدما ، حتى عد من ألوان الإبل ، وأفنان الرقيق ورباط الخيل . فقال أبو هريرة : إياك وأخفاف الإبل وأظلاف النعم ــ يردد ذلك عليه ، حتى جعل لونُ العامريّ يتغير ــ فقال : ما ذاك يا أبا هُرَيرة ؟ قال : سمعتُ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول : « من كانت له إبلٌ لا يعطي حقها في نَجدتها ورِسْلها » ــ قلنا يا رسول الله : ما نجدتُها ورسْلُها ؟ قال : « في عُسرها ويسرها ــ فإنها تأتي يوم القيامة كأغذّ (٢) ما كانت وأكثره وأسمنه وآشره (٣) ، حتى يبطح (٤) لها بقاع قَرقَر ، فتطؤه بأخفافها ، فإذا جاوزته أخراها أعيدت عليه أولاها ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يقضي بين الناس فيرى سبيله ، وإذا كانت له بقر لا يعطي حقها في نجدتها ورسلها . فإنها تأتي يوم القيامة كأغذ ما كانت وأكثره وأسمنه وآشره ثم يبطح لها بقاع قَرقَر فتطؤه كل ذات ظلف بظلفها ، وتنطحه كل ذات قرن بقرنها ، إذا جاوزته أخراها أعيدت عليه أولاها ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضي بين الناس فيرى سبيله . وإذا كانت له غنم لا يعطي حقها في نجدتها ورسها ، فإنها تأتي يوم القيامة كأغذ ما كانت وأسمنه وآشره ، حتى يبطح لها بقاع قَرقَر ، فتطؤه كل ذات ظلف بظلفها وتنطحه كل ، ذات قرن بقرنها ، ليس فيها عقصاء (٥) ولا عَضباء ، إذا جاوزته أخراها أعيدت عليه أولاها . في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة . حتى يقضي بين الناس ، فيرى سبيله » . فقال العامري : وما حقّ الإبل يا أبا هريرة ؟ قال : أن تعطي الكريمة (٦) ، وتمنحَ الغَزيرة ، وتُفقر الظهر . وتَسقيَ اللبن (٧) ، وتُطرقَ الفحل (٨) .

وقد رواه أبو داود من حديث شعبة ، والنسائي من حديث سعيد بن أبي عَروبة ، كلاهما عن قتادة ، به (٩) .

---

(١) تفسير الطبري : ٤٥/٢٩ .

(٢) أي : كأسرع وأنشط .

(٣) في المسند : « وأسره » . وهي رواية في هذه الكلمة ، فقد رويت بالسين المهملة وتشديد الراء ، أي : كأسمن ما كانت وأوفره ، من سر كل شيء وهو لبه ومخه . وقيل : هو من السرور لأنها إذا سمنت سرت الناظر إليها . وروى « وآشره » بمد الهمزة وشين معجمة وتخفيف الراء ــ أي : أبطره وأنشطه .

(٤) أي : يلقى على وجهه . وقاع قرقر : مكان واسع مستو .

(٥) العقصاء : الملتوية القرنين . والعضباء : المكسورة القرن .

(٦) أي : العزيزة على صاحبها . والغزيرة : كثيرة اللبن . وأفقر البعير : أعاره للركوب . وأطرق الفحل : أعاره للضراب .

(٧) في المخطوط « وتسق الإبل » . والمثبت من المسند .

(٨) مسند الإمام أحمد : ٢ /٤٨٩ - ٤٩٠ .

(٩) أخرجاه في كتاب الزكاة ، انظر سنن أبي داود ، باب « في حقوق المال » . والنسائي ، باب « التغليظ في حبس الزكاة » : ٥ /١٢ - ١٤ .

طريق أخرى لهذا الحديث ، قال الإمام أحمد : حدثنا أبو كامل ، حدثنا حماد ، عن سُهَيْل بن أبي صالح ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من صاحب كنز لا يؤدي حقه إلا جعل صفائح تحمى عليها في نار جهنم ، فتكوى بها جبهته وجنبه وظهره ، حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار » ... وذكر بقية الحديث في الغنم والإبل كما تقدم ، وفيه : « الخيل لثلاثة [لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر » إلى آخره (١)] .

ورواه مسلم في صحيحه بتمامه منفردا به دون البخاري ، من حديث سُهَيْل ، عن أبيه ، عن أبي هُرَيْرة (٢) ، وموضع استقصاء طرقه وألفاظه في كتاب الزكاة في « الأحكام » ، والغرض من إيراده هاهنا قوله : « حتى يحكم الله بين عباده ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » .

وقد روى ابن جرير عن يعقوب عن ابن عُلَيَّة وعبد الوهاب ، عن أيوب ، عن ابن أبي مليكة قال : سأل رجلٌ ابن عباس عن قوله : (في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) ، قال : فاتهمه ، فقيل له فيه ، فقال : ما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ؟ فقال : إنما سألتك لتحدثني . قال : هما يومان ذكرهما الله ، الله أعلم بهما ، وأكره أن أقول في كتاب الله بما لا أعلم (٣) .

وقوله : (فاصبر صبرا جميلا) ، أي : اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك ، واستعجالهم العذاب استبعادا لوقوعه ، كقوله : (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق (٤)) . ولهذا قال : (إنهم يرونه بعيدا) ، أي : وقوع العذاب وقيام الساعة يراه الكفرة بعيدَ الوقوع ، بمعنى مستحيل الوقوع ، (ونراه قريبا) ، أي : المؤمنون يعتقدون كونه قريبا ، وإن كان له أمد لا يعلمه إلا الله عز وجل ، لكن كل ما هو آت فهو قريب وواقع لا محالة .

يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾

يقول تعالى : العذابُ واقع بالكافرين ، (يوم تكون السماء كالمهل) — قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعطاء ، وسعد ابن جبير ، وعكرمة ، والسدي ، وغير واحد : كدُرْديِّ الزيت ، (وتكون الجبال كالعهن) ، أي : كالصوف [المنفوش ،] قاله مجاهد ، وقتادة ، والسدي . وهذه الآية كقوله تعالى : (وتكون الجبال كالعهن المنفوش (٥)) .

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٦٢/٢ .
(٢) مسلم ، كتاب الزكاة ، باب « إثم مانع الزكاة » : ٧١/٣ — ٧٢ . وانظر فيما تقدم : ٨٣/٤ .
(٣) تفسير الطبري : ٤٥/٢٩ .
(٤) سورة الشورى ، آية : ١٨ .
(٥) سورة القارعة ، آية : ٥ .

وقوله : (ولا يسأل حميم حميما : يبصرونهم) ، أى : لا يسأل القريب قريبه عن حاله ، وهو يراه فى أسوأ الأحوال، فتشغله نفسه عن غيره .

قال العوفى عن ابن عباس : يعرف بعضهم بعضا ، ويتعارفون بينهم ، ثم يفر بعضهم من بعض بعد ذلك ، يقول : (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) (١) .

وهذه الآية الكريمة كقوله : (يا أيها الناس ، اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ، إن وعد الله حق) (٢) : وكقوله : (وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى)(٣) ، وكقوله : (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون (٤) ، وكقوله : (يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) (٥) .

وقوله : (يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه . وصاحبته وأخيه . وفصيلته التى تؤويه . ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه . كلا) ، أى : لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض وبأعز ما يجده من المال ، ولو بملء الأرض ذهبا ، أو من ولده الذى كان فى الدنيا حشاشة كبده، يود يوم القيامة إذا رأى الأهوال أن يفتدى من عذاب الله به، ولا يقبل منه، قال مجاهد والسدى : (فصيلته) : قبيلته وعشيرته . وقال عكرمة : فخذه الذى هو منهم . وقال أشهب ، عن مالك : (فصيلته) أمه .

وقوله (إنها لظى) ، يصف النار وشدة حرها ، (نزاعة للشوى) ـ قال ابن عباس ، ومجاهد : جلدة الرأس ، وقال العوفى ، عن ابن عباس : (نزاعة للشوى) : الجلود والهام . وقال مجاهد : ما دون العظم من اللحم . وقال سعيد بن جبير : العصب . وقال أبو صالح : (نزاعة للشوى) ، يعنى أطراف اليدين والرجلين . وقال أيضا : نزاعة لحم الساقين . وقال الحسن البصرى ، وثابت البنانى : (نزاعة للشوى) ، أى : مكارم وجهه . وقال الحسن أيضا : تحرق كل شىء فيه ، ويبقى فؤاده يصيح . وقال قتادة : (نزاعة للشوى) ، أى : نزاعة لهامته ومكارم وجهه وخلقه وأطرافه . وقال الضحاك : تبرى اللحم والجلد عن العظم ، حتى لا تترك منه شيئا . وقال ابن زيد : الشوى : الآراب العظام (٦) . فقوله : نزاعة ، قال : تقطع عظامهم ، ثم يجدد خلقهم وتبدل جلودهم (٧)

وقوله : (تدعو من أدبر وتولى . وجمع فأوعى) ، أى : تدعو النار إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها ، وقدر لهم أنهم فى الدار الدنيا يعملون عملها ، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذلق (٨) ، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطير الحب . وذلك أنهم كما قال الله ـ عز وجل ـ كانوا ممن (أدبر وتولى) ، أى : كذب بقلبه ، وترك العمل بجوارحه

(١) تفسير الطبرى : ٢٩/٤٦ .
(٢) سورة لقمان ، آية : ٣٣ .
(٣) سورة فاطر ، آية : ١٨ .
(٤) سورة « المؤمنون » ، آية : ١٠١ .
(٥) سورة عبس ، الآيات : ٣٤ ـ ٣٧ .
(٦) الآراب : الأعضاء ، واحدها : إرب ، بكسر فسكون .
(٧) فى المخطوطة : « ثم تبدل جلودهم وخلقهم وتبدل جلودهم » والمثبت من تفسير الطبرى : ٢٩/٤٨ .
(٨) أى : فصيح بليغ .

(وجمع فأوعى) ، أى : جمع المال بعضه على بعض فأوعاه ، أى : أوكاه ومنع حق الله منه من الواجب عليه فى النفقات ومن إخراج الزكاة . وقد ورد فى الحديث : « ولا تُوعى (١) فيُوعى الله عليك (٢) » ؛ وكان عبد الله بن عُكيم (٣) لا يربط له كيسا ويقول : سمعت الله يقول : (وجمع فأوعى) (٤) .

وقال الحسن البصرى : يا ابن آدم ، سمعتَ وعيدَ الله ثم أوعيتَ الدنيا .

وقال قتادة فى قوله : (وجمع فأوعى) ، قال : كان جَمُوعاً قَمُوماً للخبيث (٥) .

* إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ (٢٢)
ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ (٢٣) وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ (٢٥) وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ
بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (٢٦) وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَٱلَّذِينَ هُمْ
لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ
ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ (٣١) وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ (٣٢) وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ
قَآئِمُونَ (٣٣) وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ (٣٥)

يقول تعالى مخبرا عن الإنسان وما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة : (إن الإنسان خلق هلوعا) ، ثم فسره بقوله : (إذا مسه الشر جزوعا) ، أى : إذا أصابه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب ، وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير ، (وإذا مسه الخير منوعا) ، أى : إذا حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره ، ومنع حق الله فيها .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا موسى بن عُلَىّ بن رَبَاح : سمعت أبى يحدث عن عبد العزيز ابن مروان بن الحكم قال : سمعت أبا هُرَيرة يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شر ما فى رجل : شُحٌ هالع، وجبن خالع (٦) » .

ورواه أبو داود عن عبد الله بن الجراح ، عن أبى عبد الرحمن المقرى ، به ؛ وليس لعبد العزيز عنده [سواه] (٧) .

(١) الإيعاء : جعل الشيء فى الوعاء . والمراد هنا : منع الفضل عن افتقر إليه . ومعنى « يوعى عليك » : يمنعك فضله ويقتر عليك كما منعت وقترت .
(٢) البخارى ، كتاب الزكاة ، باب « الصدقة فيما استطاع » : ٢/١٤٠ - ١٤١ . ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب « الحث على الإنفاق وكراهة الإحصاء » : ٣/٩٢ .
(٣) صحابى ، أدرك النبى صلى الله عليه وسلم ولم يره ، قاله ابن منده وأبو نعيم . وقال أبو عمر : اختلف فى سماعه من النبى صلى الله عليه وسلم . انظر أسد الغابة : ٣/٣٣٩ ، بتحقيقنا .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٩/٤٩ .
(٥) قم الشيء : كنسه . وقم ما على المائدة : أكله كله فلم يدع منه شيئاً . يريد أن هذا الجموع لا يتحرى الطيب من الكسب ، بل يجمع المال من كل طريق ، وبأى وجه .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٢٠ .
(٧) سنن أبى داود ، كتاب الجهاد ، باب « فى الجرأة والجبن » .

ثم قال : (إلا المصلين) ، أى : الإنسان من حيث هو متصف بصفات الذم إلا من عصمه الله ووفقه ، وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه ، وهم المصلون : (الذين هم على صلاتهم دائمون) . قيل : معناه يحافظون على أوقاتها وواجباتها ، قاله ابن مسعود ، ومسروق ، وإبراهيم النخعى .

وقيل : المراد بالدوام هاهنا السكون والخشوع ، كقوله : (قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون) (١) ، قاله عتبة بن عامر . ومنه الماء الدائم ، أى : الساكن الراكد .

وقيل : المراد بذلك الذين إذا عملوا عملا داوموا عليه وأثبتوه ، كما جاء فى الصحيح عن عائشة ، عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ » ـ وفى لفظ : « ما داوم عليه صاحبه » ؛ قالت : وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إذا عمل عملا داوم عليه . وفى لفظ : أثبته (٢) .

وقال قتادة فى قوله : (الذين هم على صلاتهم دائمون) : ذُكّر لنا أن دانيال ـ عليه السلام ـ نعت أمة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يصلون صلاة لو صلاها قوم نوح ما غرقوا ، أو قوم عاد ما أرسلت عليهم الريح العقيم ، أو ثمود ما أخذتهم الصيحة . فعليكم بالصلاة فإنها خلق للمؤمنين حسن .

وقوله : (والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم) ، أى : فى أموالهم نصيب مقرر لذوى الحاجات ؛ وقد تقدم الكلام على ذلك فى « سورة الذاريات » .

وقوله : (والذين يصدقون بيوم الدين) ، أى : يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء ، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ويخاف العقاب . ولهذا قال : (والذين هم من عذاب ربهم مشفقون) ، أى : خائفون وجلون ، (إن عذاب ربهم غير مأمون) ، أى : لا يأمنه أحد ممن عقَل عن الله أمره إلا بأمان من الله تبارك وتعالى .

وقوله : (والذين هم لفروجهم حافظون) ، أى : يكفونها عن الحرام ويمنعونها أن توضع فى غير ما أذن الله ؛ ولهذا قال : (إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم) ، أى : من الإماء ، (فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) . وقد تقدم تفسير هذا فى أول سورة : (قد أفلح المؤمنون) بما أغنى عن إعادته هاهنا .

وقوله : (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) أى : إذا اؤتمنوا لم يخونوا ، وإذا عاهدوا لم يغدروا ؛ وهذه صفات المؤمنين ، وضدها صفات المنافقين ، كما ورد فى الحديث الصحيح « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » ـ وفى رواية : « إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر (٣) » .

---

(١) سورة « المؤمنون » ، آية : ١ ـ ٢ .

(٢) انظر البخارى ، كتاب الإيمان ، باب « أحب الدين إلى الله أدومه » : ١/١٧ . وكتاب الرقاق ، باب « القصد والمداومة على العمل » : ٨/١٢٢ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره » : ٢/١٨٨ ـ ١٨٩ وسنن أبى داود ، كتاب التطوع ، باب « ما يؤمر به من القصد فى الصلاة » .

(٣) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية الثامنة من سورة « المؤمنون » : ٥/٤٥٨ .

وقوله : (والذين هم بشهاداتهم قائمون) ، أى : محافظون عليها لا يزيدون فيها ، ولا ينقصون منها ، ولا يكتمونها ، (ومن يكتمها فإنه آثم قلبه (١)) .

ثم قال : (والذين هم على صلواتهم يحافظون) (٢) ، أى : على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها ، فافتتح الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها ، فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها ، كما تقدم فى أول سورة : (قد أفلح المؤمنون) ، سواء : ولهذا قال هناك: (أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون)(٣)، وقال هاهنا : (أولئك فى جنات مكرمون) ، أى : مكرمون بأنواع الملاذ والمسار .

فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ
جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ
أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ
يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى
كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

يقول تعالى منكرا على الكفار الذين كانوا فى زمن النبى —صلى الله عليه وسلم — وهم مشاهدون له، ولما أرسله الله به من الهدى وأيده الله به من المعجزات الباهرة ، ثم هم مع هذا كله فارون منه ، متفرقون عنه ، شاردون يمينا وشمالا ، فرقا فرقا ، وشيعا شيعا ، كما قال تعالى : (فما لهم عن التذكرة معرضين . كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة)(٤) .. الآية وهذه مثلها ، فإنه قال تعالى : (فما للذين كفروا قبلك مهطعين) ، أى : فما لهؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد (مهطعين) ، أى : مسرعين نافرين منك ، كما قال الحسن البصرى : (مهطعين) ، أى : منطلقين ، (عن اليمين وعن الشمال عزين) ، واحدها عزة ، أى : متفرقين : وهو حال من مهطعين ، أى : فى حال تفرقهم واختلافهم ، كما قال الإمام أحمد فى أهل الأهواء : فهم مخالفون للكتاب ، مختلفون فى الكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : (فما للذين كفروا قبلك مهطعين) ، قال : قبلك ينظرون ، (عن اليمين وعن الشمال عزين) ، قال : العزين : العصب من الناس ، عن يمين وشمال معرضين يستهزئون به (٥) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا أبو عامر ، حدثنا قرة ، عن الحسن فى قوله : (عن اليمين وعن الشمال عزين (، متفرقين ، يأخذون يمينا وشمالا يقولون : ما قال هذا الرجل (٦) ؟ .

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٨٣ .
(٢) كذا فى مخطوطة الأزهر بالجمع وهى قراءة الحسن . انظر البحر المحيط ٨/٣٣٥ .
(٣) سورة « المؤمنون » ، آية : ١٠ — ١١ .
(٤) سورة المدثر ، الآيات : ٤٩ — ٥١ .
(٥) تفسير الطبرى : ٢٩/٥٣ .
(٦) تفسير الطبرى : ٢٩/٥٤ .

وقال قتادة : (مهطعين) : عامدين ، (عن اليمين وعن الشمال عزين) ، أى : فِرَقاً حول النبي — صلى الله عليه وسلم — لا يرغبون فى كتاب الله ، ولا فى نبيه — صلى الله عليه وسلم

وقال الثورى ، وشعبة ، وعيسى بن يونس وعبثر بن القاسم ومحمد بن فضيل ، ووكيع ، ويحيى القطان ، وأبو معاوية ، كلهم عن الأعمش ، عن المسيب بن رافع ، عن تميم بن طرفة ، عن جابر بن سمرة : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خرج عليهم وهم حلق ، فقال : « مالى أراكم عزين ؟ » .

رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن جرير ، من حديث الأعمش ، به (١) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا مؤمل ، حدثنا سفيان (٢) ، عن عبد الملك بن عمير ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خرج على أصحابه وهم حِلَق حِلَق ، فقال : « مالى أراكم عزين ؟ » .

وهذا إسناد جيد ، ولم أره فى شيء من الكتب الستة من هذا الوجه .

وقوله : (أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم . كلا) ، أى : أيطمع هؤلاء — والحالة هذه — من فرارهم عن الرسول ونفارهم عن الحق — أن يدخلوا جنات النعيم ؟ بل مأواهم نار الجحيم .

ثم قال تعالى مقررا لوقوع المعاد والعذاب بهم الذى أنكروا كونه واستبعدوا وجوده ، مستدلا عليهم بالبداءة التى الإعادة أهون منها وهم معترفون بها ، فقال : (إنا خلقناهم مما يعلمون) ، أى : من المنى الضعيف ، كما قال : (ألم نخلقكم من ماء مهين (٣)) ، وقال : (فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب . إنه على رجعه لقادر . يوم تبلى السرائر . فما له من قوة ولا ناصر (٤)) .

ثم قال : (فلا أقسم برب المشارق والمغارب) ، أى : الذى خلق السموات والأرض ، وجعل مشرقا ومغربا ، وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب فى مغاربها . وتقرير الكلام : ليس الأمر كما تزعمون أن لا معاد ولا حساب ولا بعث ولا نشور ، بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة . ولهذا أتى بـ « لا » فى ابتداء القسم ليدل على أن المقسم عليه نفى ، وهو مضمون الكلام ، وهو الرد على زعمهم الفاسد فى نفى يوم القيامة ، وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله تعالى ما هو أبلغ من إقامة القيامة ، وهو خلق السموات والأرض ، وتسخير ما فيهما من المخلوقات من الحيوانات والجمادات ، وسائر صنوف الموجودات ، ولهذا قال تعالى : (لَخَلْقُ السموات والأرض أكبر من خلق الناس(٥)) وقال تعالى : (أولم يروا

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٩٣/٥ ، ١٠١ ، ١٠٧ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « الأمر بالسكون فى الصلاة والنهى عن الإشارة باليد . . » : ٢٩/٢ وسنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « فى التحلق » .

(٢) فى تفسير الطبرى ٥٤/٢٩ : « عن شقيق » .

(٣) سورة المرسلات ، آية : ٢٠ .

(٤) سورة الطارق ، الآيات : ٥ — ١٠ .

(٥) سورة غافر ، آية : ٥٧ .

أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ؟ بلى إنه على كل شىء قدير) ؛ وقال تعالى فى الآية الأخرى : (أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم ، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون (١)) . وقال هاهنا (فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون . على أن نبدل خيرا منهم) ، أى : يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه ، فان قدرته صالحة لذلك ، (وما نحن بمسبوقين) ، أى : بعاجزين . كما قال تعالى : (أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه ؟ بلى قادرين على أن نسوى بنانه (٢)) ؛ وقال تعالى : (نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون (٣)) .

واختار ابن جرير (على أن نبدل خيرا منهم) ، أى : أمة تطيعنا ولا تعصينا وجعلها (٤) ، كقوله : (وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم (٥)) . والمعنى الأول أظهر لدلالة الآيات الأخر عليه ، والله أعلم .

ثم قال تعالى : (فذرهم) ، أى : يا محمد (يخوضوا ويلعبوا) ، أى : دعهم فى تكذيبهم وكفرهم وعنادهم ، (حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) ، أى : فسيعلمون غب ذلك ويذوقون وباله ، (يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون) ، أى : يقومون من القبور إذا دعاهم الرب تبارك وتعالى لموقف الحساب ، ينهضون سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك : إلى علَم يسعون (٦) ؛ وقال أبو العالية ، ويحيى بن أبى كثير : إلى غاية يسعون إليها .

وقد قرأ الجمهور : (نَصْب) ، بفتح النون وإسكان الصاد ، وهو مصدر بمعنى المنصوب ، وقرأ الحسن البصرى : (نُصُب) بضم النون والصاد ، وهو الصنم ، أى : كأنهم فى إسراعهم إلى الموقف كما كانوا فى الدنيا يهرولون إلى النصب إذا عاينوه يوفضون ، يبتدرون . (أيهم) يستلمه أول ؟ وهذا مروى عن مجاهد ، ويحيى بن أبى كثير ، ومسلم البَطِين ، وقتادة ، والضحاك ، والربيع بن أنس ، وأبى صالح ، وعاصم بن بهدلة ، وابن زيد ، وغيرهم .

وقوله : (خاشعة أبصارهم) ، أى : خاضعة (ترهقهم ذلة) ، أى : فى مقابلة ما استكبروا فى الدنيا عن الطاعة ، (ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون) .

آخر تفسير « سورة سأل سائل » ولله الحمد والمنة

---

(١) سورة غافر ، آية ٥٧ .
(٢) سورة القيامة ، آية : ٣ – ٤ .
(٣) سورة الواقعة ، آية : ٦٠ – ٦١ .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٩/٥٥ .
(٥) سورة محمد ، آية : ٣٨ .
(٦) تفسير الطبرى : ٢٩/٦ .

تفسير سورة نوح

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾

يقول تعالى مخبرا عن نوح – عليه السلام – أنه أرسله إلى قومه آمرا له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم ، فان تابوا وأنابوا رفع عنهم ، ولهذا قال : (أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم . قال : يا قوم ، إنى لكم نذير مبين) أى : بيّن النذارة ، ظاهر الأمر واضحه ، (أن اعبدوا الله واتقوه) ، أى : اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه ، (وأطيعون) فيما آمركم به وأنهاكم عنه . (يغفر لكم من ذنوبكم) ، أى : إذا فعلتم ما أمرتكم به وصدقتم ما أرسلت به إليكم ، غفر الله لكم ذنوبكم .

« ومن » هاهنا قيل : إنها زائدة . ولكن القول بزيادتها فى الإثبات قليل . ومنه قول بعض العرب : « قد كان من مطر » . وقيل : إنها بمعنى « عن » ، تقديره يصفح لكم عن ذنوبكم . واختاره ابن جرير(١) . وقيل : إنها للتبعيض ، أى يغفر لكم الذنوب العظام التى وعدكم على ارتكابكم إياها الانتقام .

(ويؤخركم إلى أجل مسمى) ، أى : يمد فى أعماركم ويدرأ عنكم العذاب الذى إن لم تنزجروا عما نهاكم عنه ؛ أوقعه بكم .

وقد يستدل بهذه الآية من يقول : إن الطاعة والبر وصلة الرحم ، يزاد بها فى العمر حقيقة ؛ كما ورد به الحديث : « صلة الرحم تزيد فى العمر » .

وقوله : (إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون) ، أى : بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة ، فانه إذا أمر تعالى بكون ذلك لا يرد ولا يمانع ، فانه العظيم الذى قهر كل شىء ، العزيز الذى دانت لعزته جميع المخلوقات .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٩/٥٧ .

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ
جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا
(٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ
عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَّا لَكُمْ
لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥)
وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ
فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠)

يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح — عليه السلام — أنه اشتكى إلى ربه — عز وجل — ما لقى من قومه ، وما صبر عليهم فى تلك المدة الطويلة التى هى ألف سنة إلا خمسين عاما ، وما بين لقومه ووضح لهم ودعاهم إلى الرشد والسبيل الأقوم ، فقال : (رب ، إنى دعوت قومى ليلا ونهارا) ، أى : لم أترك دعاءهم فى ليل ولا نهار ، امتثالا لأمرك وابتغاء لطاعتك ، (فلم يزدهم دعائى إلا فرارا) ، أى : كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق فرّوا منه وحادُوا عنه ، (وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم ، جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم) ، أى : سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه . كما أخبر تعالى عن كفار قريش : (وقال الذين كفروا : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون (١)) .

(واستغشوا ثيابهم) — قال ابن جريج ، عن ابن عباس : تنكروا له لئلا يعرفهم . وقال سعيد بن جبير ، والسدى : غطوا رءوسهم لئلا يسمعوا ما يقول .

(وأصروا) ، أى : استمروا على ماهم فيه من الشرك والكفر العظيم الفظيع ، (واستكبروا استكبارا) ، أى : واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له .

(ثم إنى دعوتهم جهارا) ، أى : جهرة بين الناس . (ثم إنى أعلنت لهم) ، أى : كلاما ظاهرا بصوت عال ، (وأسررت لهم إسرارا) ، أى : فيما بينى وبينهم ، فنوّع عليهم الدعوة لتكون أنجع فيهم ، (فقلت : استغفروا ربكم إنه كان غفارا) ، أى: ارجعوا إليه وارجعوا عما أنتم فيه وتوبوا إليه من قريب ، فانه من تاب إليه تاب عليه ، ولو كانت ذنوبه مهما كان فى الكفر والشرك ، ولهذا قال : (فقلت : استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا) ، أى : متواصلة الأمطار . ولهذا يستحب قراءة هذه السورة فى صلاة الاستسقاء ، لأجل هذه الآية . وهكذا روى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه صعد المنبر ليستسقى، فلم يزد على الاستغفار ، وقرأ الآيات فى الاستغفار . ومنها هذه الآية :

(١) سورة فصلت ، آية : ٣٦ .

(فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا) ثم قال : لقد طلبت الغيث بمجاديح (١) السماء التى يستنزل بها المطر .

وقال ابن عباس وغيره : يتبع بعضه بعضا .

وقوله : (ويمددكم بأموال وبنين ، ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) ، أى : إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه ، كثر الرزق عليكم ، وأسقاكم من بركات السماء ، وأنبت لكم من بركات الأرض ، وأنبت لكم الزرع ، وأدرّ لكم الضرع ، وأمدكم بأموال وبنين ، أى : أعطاكم الأموال والأولاد ، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار ، وخللها بالأنهار الجارية بينها .

هذا مقام الدعوة بالترغيب ، ثم عدل بهم إلى دعوتهم بالترهيب فقال : (مالكم لا ترجون لله وقارا ؟) ، أى : عظمة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقال ابن عباس : لا تعظمون الله حق عظمته(٢) . أى : لا تخافون من بأسه ونقمته ، (وقد خلقكم أطوارا) ، قيل : معناه من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة . قاله ابن عباس ، وعكرمة وقتادة ، ويحيى بن رافع ، والسدى ، وابن زيد .

وقوله : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ؟) ، أى : واحدة فوق واحدة ، وهل هذا يتلقى من جهة السمع فقط ؟ أو هو من الأمور المدركة بالحس ، مما علم من التسيير والكسوفات ، فان الكواكب السبعة السيارة يكسف بعضها بعضا ، فأدناها القمر فى السماء الدنيا وهو يكسف ما فوقه ، وعطارد فى الثانية ، والزهرة فى الثالثة ، والشمس فى الرابعة ، والمريخ فى الخامسة ، والمشترى فى السادسة ، وزحل فى السابعة : وأما بقية الكواكب ــ وهى الثوابت ــ ففى فلك ثامن يسمونه فلك الثوابت : والمتشرعون منهم يقولون : هو الكرسى ، والفلك التاسع ، وهو الأطلس ، والأثير عندهم الذى حركته على خلاف حركة سائر الأفلاك ، [وذلك أن حركته مبدأ الحركات ، وهى من المغرب إلى المشرق ، وسائر الأفلاك] عكسه من المشرق إلى المغرب ، ومعها يدور سائر الكواكب تبعا ، ولكن للسيارة حركة معاكسة لحركة أفلاكها ، فانها تسير من المغرب إلى المشرق : وكل يقطع فلكه بحسبه ، فالقمر يقطع فلكه فى كل شهر مرة ، والشمس فى كل سنة مرة ، وزحل فى كل ثلاثين سنة مرة ، وذلك بحسب اتساع أفلاكها ، وإن كانت حركة الجمع فى السرعة متناسبة . هذا ملخص ما يقولونه فى هذا المقام ، على اختلاف بينهم فى مواضع كثيرة ، لسنا بصدد بيانها ، وإنما المقصود أن الله سبحانه : (خلق سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا) ، أى : فاوت بينهما فى الاستنارة ، فجعل كلا منهما أنموذجا على حدة ، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها ، وقدر القمر منازل وبروجا ، وفاوت نوره ، فتارة يزداد حتى يتناهى ثم يشرع فى النقص حتى يستسرّ ، ليدل على مضى الشهور والأعوام ، كما قال : (هو الذى جعل الشمس ضياء ، والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون (٣)) .

(١) المجاديح : جمع مجدح ــ بكسر فسكون ــ وهو : نجم من النجوم .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٩/٥٩ ــ ٦٠ .
(٣) سورة يونس ، آية : ٥ .

وقوله : (والله أنبتكم من الأرض نباتا) : هذا اسم مصدر ، والإتيان به هاهنا أحسن ، (ثم يعيدكم فيها) ، أى : إذا متم (ويخرجكم إخراجا) ، أى : يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة ، (والله جعل لكم الأرض بساطا) ، أى : بسطها ومهدها وقررها وثبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات ، (لتسلكوا منها سبلا فجاجا) ، أى : خلقها لكم لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم ، من نواحيها وأرجائها وأقطارها ، وكل هذا مما ينبههم [به] نوح — عليه السلام — على قدرة الله وعظمته فى خلق السموات والأرض ، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية ، فهو الخالق الرازق ، جعل السماء بناء ، والأرض مهادا ، وأوسع على خلقه من رزقه ، فهو الذى يجب أن يعبد ويوحد ولا يشرك به أحد ، لأنه لا نظير له ولا عديل له ، ولا ندّ ولا كفء ، ولا صاحبة ولا ولد ، ولا وزير ولا مشير ، بل هو العلى الكبير .

قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾

يقول تعالى مخبرا عن نوح — عليه السلام — أنه أنهى إليه ، وهو العليم الذى لا يعزب عنه شىء ، أنه مع البيان المتقدم ذكره ، والدعوة المتنوعة المشتملة على الترغيب تارة والترهيب أخرى : أنهم عصوه وكذبوه وخالفوه ، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر الله ، ومتع بمال وأولاد ، وهى فى نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام . ولهذا قال : (واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا) — قرىء (ووُلْده) بالضم وبالفتح ، وكلاهما متقارب .

وقوله : (ومكروا مكرا كبارا) ، قال مجاهد : (كبارا) ، أى : عظيما . وقال ابن زيد (كبارا) ، أى : كبيرا ، والعرب تقول : أمر عجيب وعُجَاب وعُجَّاب . ورجل حُسَان . وحُسَّان : وجُمَال وجُمَّال ، بالتخفيف والتشديد ، بمعنى واحد (١) .

والمعنى فى قوله : (ومكروا مكرا كبارا) ، أى : بأتباعهم فى تسويلهم لهم أنهم على الحق والهدى ، كما يقولون لهم يوم القيامة : (بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا (٢)) . ولهذا قال هاهنا : (ومكروا مكرا كبارا . وقالوا : لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا) . وهذه أسماء أصنامهم التى كانوا يعبدونها من دون الله .

قال البخارى : حدثنا إبراهيم ، حدثنا هشام ، عن ابن جريج ، وقال عطاء ، عن ابن عباس : صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد : أما ودّ فكانت لكلب بدومة الجندل ، وأما سواع فكانت لهذيل ، وأما يغوث

---

(١) انظر تفسير الطبرى : ٢٩/٦١ — ٦٢ .
(٢) سورة سبأ ، آية : ٣٣ .

فكانت لمراد ، ثم لبني غُطَيف بالجُرُف عند سبأ ، وأما يَعوقُ فكانت لهَمْدان ، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي كَلاَع وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبُوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها بأسمائهم ، ففعلوا . فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتَنَسَّخَ العلم عبدت (١) .

وكذا رُوِي عن عكرمة ، والضحاك ، وقتادة ، وابن إسحاق ، نحو هذا .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : هذه أصنام كانت تعبد في زمن نوح(٢) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن موسى ، عن محمد بن قيس (ويعوق ونسرا) ، قال : كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح(٣) ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صَوّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم . فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دَبّ إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقَوْن المطر . فعبدوهم (٤) .

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة شيث — عليه السلام — من طريق إسحاق بن بشر قال : وأخبرني جُوَيْبِر ومقاتل ، عن الضحاك ، عن ابن عباس أنه قال : ولد لآدم عليه السلام أربعون ولدا ، عشرون غلاما وعشرون جارية ، فكان ممن عاش منهم : هابيل ، وقابيل ، وصالح ، وعبد الرحمن — والذي(٥) كان سماه عبد الحارث — ووَدّ ، وكان وَدّ يقال له « شيث » ، ويقال له « هبة الله » ، وكان اخوته قد سَوّدوه ، وولد له سُوَاع ويغوث ويعوق ونسر (٦) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو عُمَر الدّوريّ ، حدثني أبو إسماعيلَ المؤدِّب ، عن عبدالله بن مسلم بن هُرمز ، عن أبي حَزْرَة ، عن عروة بن الزّبير قال : اشتكى آدم — عليه السلام — وعنده بنوه : ود ، ويغوث ، وسواع ونسر — وكان وَدّ أكبرَهم وأبرّهم به .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن منصور ، حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا يعقوب ، عن أبي المطهر قال : ذكروا عند أبي جعفر — وهو قائم يصلي — يزيدَ بن المهلب ، قال : فلما انفتل من صلاته قال : ذكرتم يزيدَ بن المهلب ، أما إنه قتل في أول أرض عُبِد فيها غيرُ الله . قال : ثم ذكر [ودّا — قال : وكان وَدّ (٧)] رجلا مسلما ، وكان محببا في قومه ، فلما مات عسكروا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه ، فلما رأى إبليس جزَعهم عليه ، تشبه

---

(١) البخاري ، تفسير سورة « إنا أرسلنا » : ١٩٩/٦ .

(٢) تفسير الطبري : ٦٢/٢٩ .

(٣) في المخطوطة : « عن آدم » . وفي تفسير الطبري : « من بني آدم » . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٤) تفسير الطبري : ٦٢/٢٩ .

(٥) في المخطوطة : « وعبد الرحمن الذين كان سماهم » . والمثبت عن تاريخ مدينة دمشق .

(٦) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية برقم ١٢٥ تاريخ الجزء الخامس من مكتبة أحمد الثالث .

(٧) في المخطوطة : « ثم ذكروا رجلا مسلما » . والمثبت عن المنثور السيوطي ، وقد أخرجه عن عبد بن حميد عن أبي المطهر انظر : ٢٦٩/٦ .

فى صورة إنسان ، ثم قال : إنى أرى جزعكم على هذا الرجل، فهل لكم أن أصوِّر لكم مثله، فيكونَ فى ناديكم فتذكرونه؟ قالوا : نعم . فصوّر لهم مثله ، قال : ووضعوه فى ناديهم وجعلوا يذكرونه . فلما رأى ما بهم من ذكره قال: هل لكم أن أجعل فى منزل كل واحد منكم تمثالا مثله ، فيكون له فى بيته فتذكرونه ؟ قالوا : نعم : قال: فمثل لكل أهل بيت تمثالا مثله ، فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به ، قال : وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به، وتناسلوا ودَرَس أمر ذكرهم إياه ، حتى (١) اتخذوه ، إلها يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم ، فكان أول ما عبد غير الله: الصنم الذى سموه وَدّا .

وقوله : (وقد أضلوا كثيرا) ، يعنى الأصنام التى اتخذوها أضلوا بها خلقا كثيرا ، فانه استمرت عبادتها فى القرون إلى زماننا هذا فى العرب والعجم وسائر صنوف بنى آدم . وقد قال الخليل — عليه السلام — فى دعائه : (واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام . رب ، إنهن أضللن كثيرا من الناس (٢)) .

وقوله : (ولا تزد الظالمين إلا ضلالا) : دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم ، كما دعا موسى على فرعون وملئه فى قوله : (ربنا ، اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم (٣)) . وقد استجاب الله لكل من النبيين فى قومه ، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاءهم به :

مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾

يقول تعالى : (مما خطاياهم) وقرىء : (خطيئاتهم) (٤) (أغرقوا) ، أى : من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ، (أغرقوا فأدخلوا نارا) ، أى : نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار، (فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا) ، أى : لم يكن لهم معين ولا مُغيث ولا مُجير ينقذهم من عذاب الله كقوله : (قال : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم) (٥) .

(وقال نوح : رب ، لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا)، أى: لا تترك على الأرض منهم أحدا ولا تُومُريًّا(٦) وهذه من صيغ تأكيد النفي .

قال الضحاك : (ديارا) : واحدا . وقال السدى : الديار : الذى يسكن الدار .

---

(١) لفظ الدر المنثور ٦/٢٧٠ : « حتى اتخذوه إلها يعبدونه من دون الله ، قال : وكان أول ... » .
(٢) سورة إبراهيم ، آية : ٣٥ – ٣٦ .
(٣) سورة يونس ، آية : ٨٨ .
(٤) انظر البحر المحيط لأبى حيان : ٨/٣٤٣ . والطبرى : ٢٩/٦٣ .
(٥) سورة هود ، آية : ٤٣ .
(٦) فى المخطوطة : « ولا دومريا » . والمثبت عن إصلاح المنطق لابن السكيت : ٤٣٣ . والمعنى : ما بها أحد .

فاستجاب الله له ، فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين ، حتى ولد نوح لصلبه الذى اعتزل عن أبيه ، وقال : (سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء . قال : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين) .

وقال ابن أبى حاتم : قرىء (١) على يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى شبيب بن سعيد ، عن أبى الجوزاء ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « لو رحم الله من قوم نوح أحدا ، لرحم امرأة ، لما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل ، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها ، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها ، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها . فلو رحم الله منهم أحدا لرحم هذه المرأة » .

هذا حديث غريب ، ورجاله ثقات . ونجى الله أصحاب السفينة الذين آمنوا مع نوح – عليه السلام – وهم الذين أمره الله بحملهم معه .

وقوله : (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك) ، أى : إنك إن أبقيت منهم أحدا أضلوا عبادك ، [أى : الذين] تخلفهم بعدهم ، (ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا) ، أى : فاجرا فى الأعمال كافر القلب ، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاما .

ثم قال : (رب ، اغفرلى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا) ، قال الضحاك : يعنى مسجدى . ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها ، وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن ، وقد قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حيوة ، أنبأنا سالم بن غيلان : أن الوليد بن قيس التجيبى أخبره : أنه سمع أبا سعيد الخدرى – أو : عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد : – أنه سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : « لا تصحب إلا مؤمنا ، ولا يأكل طعامك إلا تقى (٢) » .

ورواه أبو داود والترمذى ، من حديث عبد الله بن المبارك ، عن حيوة بن شريح ، به . ثم قال الترمذى : « إنما نعرفه من هذا الوجه (٣) » .

وقوله : (وللمؤمنين والمؤمنات) : دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات ، وذلك يعم الأحياء منهم والأموات ؛ ولهذا يستحب مثل هذا الدعاء ، اقتداء بنوح عليه السلام ، وبما جاء فى الآثار والأدعية المشروعة .

وقوله : (ولا تزد الظالمين إلا تبارا) – قال السدى : إلا هلاكا . وقال مجاهد : إلا خسارا (٤) . أى : فى الدنيا والآخرة .

آخر تفسير سورة نوح

(١) فى المخطوطة : « لما قرىء » .
(٢) مسند الإمام أحمد ٣٨/٣
(٣) سنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « من يؤمر أن يجالس » . وتحفة الأحوذى ، أبواب الزهد ، باب « ماجاء فى صحبه المؤمن » ، الحديث ٢٥٠٦ – ٧٥/٧ – ٧٦ .
(٤) تفسير الطبرى : ٦٤/٢٩ .

تفسير سورة الجن

وهى مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ
بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤)
وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ
فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧)

يقول تعالى آمرا رسوله — صلى الله عليه وسلم — أن يخبر قومه : أن الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وصدقوه وانقادوا له فقال تعالى : (قل : أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد) ، أى : إلى السداد والنجاح ، (فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا) . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن) (١) . وقد قدمنا الأحاديث الواردة فى ذلك بما أغنى عن إعادتها هاهنا (٢) .

وقوله : (وأنه تعالى جد ربنا) — قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : (جدّ ربنا) ، أى : فعله وأمره وقدرته (٣) .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : جد الله : آلاؤه وقدرته ونعمته على خلقه .

ورُوى عن مجاهد وعكرمة : جلال ربنا . وقال قتادة : تعالى جلاله وعظمته وأمره . وقال السدى : تعالى أمر ربنا . وعن أبى الدرداء ومجاهد أيضا وابن جريج : تعالى ذكره . وقال سعيد بن جبير (تعالى جد ربنا) ، أى : تعالى ربنا .

فأما ما رواه ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرىء ، حدثنا سفيان ، عن عمرو ، عن عطاء ، عن ابن عباس قال : الجد أب . ولو علمت الجن أن فى الإنس جدا ما قالوا تعالى جَدّ ربنا .

فهذا إسناد جيد ، ولكن لست أفهم ما معنى هذا الكلام ، ولعله قد سقط شىء ، والله أعلم .

وقوله : (ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) ، أى : تعالى عن اتخاذ الصاحبة والأولاد . [أى : قالت] الجن : تنزه الرب تعالى جلاله وعظمته ، حين أسلموا وآمنوا بالقرآن ، عن اتخاذ الصاحبة والولد .

---

(١) سورة الأحقاف ، آية ٢٩ .
(٢) انظر : ٧/٢٧٢ — ٢٨٧ .
(٣) تفسير الطبرى : ٦٥/٢٩ .

ثم قالوا : (وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا) ــ قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والسدى : (سفيهنا) يعنون إبليس (شططا) ، قال السدى ، عن أبي مالك : (شططا) ، أى : جورا . وقال ابن زيد : ظلما(١) كبيرا .

ويحتمل أن يكون المراد بقولهم (سفيهنا) : اسم جنس لكل من زعم أن لله صاحبة أو ولدا . ولهذا قالوا : (وأنه كان يقول سفيهنا) ، أى : قبل إسلامه (على الله شططا) ، أى : باطلا وزورا . ولهذا قالوا : (وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا) ، أى : ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالئون على الكذب على الله فى نسبة الصاحبة والولد إليه . فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به ، علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله فى ذلك .

وقوله : (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) ، أى : كنا نرى أن لنا فضلا على الإنس ، لأنهم كانوا يعوذون بنا ، أى : إذا نزلوا واديا أو مكانا موحشا من البرارى وغيرها كما كان عادة العرب فى جاهليتها ، يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان ، أن يصيبهم بشىء يسوؤهم كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه فى جوار رجل كبير وذمامه وخفارته ، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم (زادوهم رهقا) ، أى : خوفا وإرهابا وذعرا ، حتى تبقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذا بهم ، كما قال قتادة : (فزادوهم رهقا) ، أى : إثما ، وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة (٢) .

وقال الثورى ، عن منصور عن إبراهيم : (فزادوهم رهقا) ، أى : ازدادت الجن عليهم جرأة .

وقال السدى : كان الرجل يخرج بأهله فيأتى الأرض فينزلها فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادى من الجن أن أضر أنا فيه أو مالى أو ولدى أو ما شيتى ، قال : فاذا عاذ بهم من دون الله ، رهقتهم الجن الأذى عند ذلك .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا وهب بن جرير ، حدثنا أبى ، حدثنا الزبير ابن الخريت ، عن عكرمة قال : كان الجن يفرقون من الإنس كما يفرق الإنس منهم أو أشد ، وكان الإنس إذا نزلوا واديا هرب الجن ، فيقول سيد القوم : نعوذ بسيد أهل هذا الوادى . فقال الجن : نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم . فدنوا من الإنس فأصابوهم بالخبل والجنون ، فذلك قول الله : (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا) .

وقال أبو العالية ، والربيع ، وزيد بن أسلم : (رهقا) ، أى : خوفا . وقال العوفى ، عن ابن عباس : (فزادوهم رهقا) ، أى : إثما . وكذا قال : قتادة . وقال مجاهد : زاد الكفار طغيانا .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا فروة بن أبى المغراء الكندى ، حدثنا القاسم بن مالك ــ يعنى المزنى ــ عن عبد الرحمن بن إسحاق ، عن أبيه ، عن كردم بن أبى السائب الأنصارى قال : خرجت مع أبى من المدينة فى حاجة ، وذلك اول ما ذكر رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بمكة ، فآوانا المبيت إلى راعى غنم . فلما انتصف الليل جاء ذئب

---

(١) تفسير الطبرى ٢٩/٦٧ .
(٢) تفسير الطبرى ٢٩/٦٩ .

فأخذ حَمَلا من الغنم ، فوثب الراعي فقال : يا عامر الوادي ، جارك . فنادى مناد لا نراه ، يقول : يا سِرْحان (١) ، أرسله . فأتى الحمل يشتدّ (٢) حتى دخل في الغنم لم تصبه كدمة . وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة : (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً) (٣) .

ثم قال : ورُوى عن عبيد بن عمير ، ومجاهد ، وأبي العالية ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، وإبراهيم النخعي ، نحوه .

وقد يكون هذا الذئب الذي أخذ الحمل — وهو ولد الشاة — كان جنّيا حتى يُرهب الإنسي ويخاف منه ، ثم ردّه عليه لما استجار به ، ليضله ويهينه ، ويخرجه عن دينه ، والله أعلم .

وقوله : (وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً) ، أي : لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولا . قاله الكلبي ، وابن جرير (٤) .

وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾

يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً — صلى الله عليه وسلم — وأنزل عليه القرآن ، وكان من حفظه له أن السماء مُلِئَت حرسا شديداً ، وحفظت من سائر أرجائها ، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك ، لئلا يسترقوا شيئا من القرآن . فيلقوه على ألسنة الكهنة ، فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدرى من الصادق . وهذا من لطف الله بخلقه ، ورحمته بعباده ، وحفظه لكتابه العزيز ، ولهذا قالت الجن : (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا) ، [أي : من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهابا مرصدا] له ، لا يتخطاه ولا يتعداه ، بل يمحقه ويهلكه ، (وأنا لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا) ، أي : ما ندرى هذا الأمر الذي قد حدث في السماء ، لا ندرى أشر أريد بمن في الأرض ، أم أراد بهم ربهم رشدا ؟ وهذا من أدبهم في العبارة حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل ، والخير أضافوه إلى الله عز وجل ؛ وقد ورد في الصحيح : « والشر ليس إليك » . وقد كانت الكواكب يُرمَى بها قبل ذلك ، ولكن ليس بكثير بل في الأحيان بعد الأحيان ، كما في حديث (٥) ابن عباس : بينما نحن جلوس مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا رمى بنجم فاستنار ، فقال : « ما كنتم تقولون في هذا ؟ » فقلنا : كنا نقول : يولد عظيم ، يموت عظيم . فقال : « ليس كذلك ولكن الله إذا قضى الأمر في السماء » ... وذكر تمام الحديث ، وقد أوردناه في « سورة (٦) سبأ » بتمامه . وهذا هو السبب

(١) السرحان — بكسر فسكون — : الذئب ، وقيل : الأسد .
(٢) أي : يسرع .
(٣) انظر أسد الغابة ، ترجمة كردم بن أبي السنابل ، وقيل : ابن أبي السائب : ٤٦٤/٤ ، بتحقيقنا .
(٤) تفسير الطبري : ٦٩/٢٩ .
(٥) في المخطوطة : «كما في حديث العباس» . وقد تقدم الحديث في سورة سبأ عن ابن عباس .
(٦) انظر تفسير الآية الثالثة والعشرين من سورة سبأ : ٥٠٣/٦ — ٥٠٤ .

الذى حملهم على تطلب السبب فى ذلك ، فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، فوجدوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقرأ بأصحابه فى الصلاة ، فعرفوا أن هذا هو الذى حُفظت من أجله السماء ، فآمن من آمن منهم ، وتمرد فى طغيانه من بقى ، كما تقدم حديث ابن عباس فى ذلك ، عند قوله فى « سورة الأحقاف » : (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن) (١) ... الآية . ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر ، وهو كثرة الشهب فى السماء والرمى بها ، هال ذلك الإنس والجن وانزعجوا له وارتاعوا لذلك ، وظنوا أن ذلك لخراب العالم ـ كما قال السدى : لم تكن السماء تحرس إلا أن يكون فى الأرض نبى أو دين لله ظاهر ، وكانت الشياطين قبل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد اتخذت المقاعد فى السماء الدنيا ، يستمعون ما يحدث فى السماء من أمر : فلما بعث الله محمداً نبيا ، رُجموا ليلة من الليالى ، ففزع لذلك أهل الطائف ، فقالوا : هلك أهل السماء ؛ لما رأوا من شدة النار فى السماء واختلاف الشهب ، فجعلوا يعتقون أرقاءهم ويُسيِّبون مواشيهم ، فقال لهم عبد ياليل بن عمرو بن عمير : ويحكم يا معشر أهل الطائف ، أمسكوا عن أموالكم ، وانظروا إلى معالم النجوم ، فان رأيتموها مستقرة فى أمكنتها فلم يهلك أهل السماء ، إنما هذا من أجل ابن أبى كبشة ـ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم ـ وإن أنتم لم تروها فقد هلك أهل السماء . فنظروا فرأوها ، فكفوا عن أموالهم . وفزعت الشياطين فى تلك الليلة ، فأتوا إبليس فحدثوه بالذى كان من أمرهم ، فقال : ائتونى من كل أرض بقبضة من تراب أشمها . فأتوه فشمّ فقال : صاحبكم بمكة . فبعث سبعة نفر من جن نصيبين ، فقدموا مكة فوجدوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائما يصلى فى المسجد الحرام يقرأ القرآن ، فدنوا منه حرصا على القرآن حتى كادت كلاكلهم (٢) تصيبه ، ثم أسلموا . فأنزل الله ـ تعالى ـ أمرهم على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد ذكرنا هذا الفصل مستقصى فى أول البعث من (كتاب السيرة) المطول ، والله أعلم ، ولله الحمد والمنة :

وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾

يقول مخبرا عن الجن : إنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم : (وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك) [أى ، غير ذلك] (كنا طرائق قدداً) ، أى : طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : (كنا طرائق قدداً) ، أى : منا المؤمن ومنا الكافر :

وقال أحمد بن سليمان النّجاد فى أماليه ، حدثنا أسلم بن سهل بَحْشَلُ ، حدثنا على بن الحسن بن سليمان ـ وهو أبو الشعثاء الحضرمى ، شيخ مسلم ـ حدثنا أبو معاوية قال : سمعتُ الأعمش يقول : تروح إلينا جنى ، فقلت له :

---

(١) سورة الأحقاف ، آية : ٢٩ . وانظر : ٢٧٢/٧ ـ ٢٧٣ .

(٢) أى : صدورهم .

ما أحب الطعام إليكم ؟ فقال الأرز . قال : فأتيناهم به ، فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحدا : فقلت : فيكم من هذه الأهواء التي فينا ؟ قال : نعم . قلت : فما الرافضة فيكم ؟ قال : شرنا .

عرضت هذا الإسناد على شيخنا الحافظ أبي الحجاج المزّي فقال : هذا إسناد صحيح إلى الأعمش .

وذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة العباس بن أحمد الدمشقي قال : سمعتُ بعض الجنّ(١) وأنا في منزلي بالليل ينشد :

قُلوبٌ بَرَاها الحبّ حتّى تعلّقت مَذَاهِبُها في كُلّ غَرْبٍ وشَارِقِ
تَهِيمُ بَحبّ الله ، والله رَبُّها مُعَلَّقَةٌ بالله دُونَ الخَلائقِ(٢)

وقوله : (وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا) ، أي : نعلم أن قدرة الله حاكمة علينا وأنا لا نعجزه في الأرض ، ولو أمعنا في الهرب ، فانه علينا قادر ، لا يعجزه أحد منا .

(وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به) : يفتخرون بذلك ، وهو مفخر لهم ، وشرف رفيع ، وصفة حسنة .

وقولهم : (فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا) — قال ابن عباس ، وقتادة ، وغيرهما : فلا يخاف أن يُنقص من حسناته أو يحمل عليه غير سيئاته ، كما قال تعالى : (فلا يخاف ظلما ولا هضما (٣)) .

(وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون) ، أي : منا المسلم ومنا القاسط ، وهو : الجائر عن الحق الناكب عنه ، بخلاف المقسط فانه العادل ، (فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا) ، أي : طلبوا لأنفسهم النجاة . (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) أي : وقودا تُسعر بهم .

وقوله : (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا . لنفتنهم فيه) — اختلف المفسرون في معنى هذا على قولين :

أحدهما : وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها ، (لأسقيناهم ماء غدقا) ، أي : كثيرا . والمراد بذلك سعَة الرزق ، كقوله تعالى : (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم (٤)) . وكقوله : (ولو أن أهل القُرى آمنوا واتقَوا ، لفتَحنا عليهم بركات من السماء والأرض)(٥) . وعلى هذا يكون معنى قوله : (لنفتنهم فيه) ، أي : لنختبرهم ، كما قال مالك، عن زيد بن أسلم : (لنفتنهم) : لنبتليهم ، مَن يستمر على الهداية ممن يرتد إلى الغواية ؟ .

ذكر من قال بهذا القول : قال العوفي، عن ابن عباس : (وأن لو استقاموا على الطريقة) : يعني بالاستقامة الطاعة (٦) . وقال مجاهد : (وأن لو استقاموا على الطريقة) ، قال : الإسلام . وكذا قال سعيد بن جُبَير ، وسعيد ابن المسيب ، وعطاء ، والسدي ، ومحمد بن كعب القرظي .

(١) في تاريخ مدينة دمشق : « الحي » .
(٢) تاريخ مدينة دمشق ميكروفيلم بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية ، برقم ١٢٥ تاريخ الجزء الخامس ، من مكتبة أحمد الثالث .
(٣) سورة طه ، آية : ١١٢ .
(٤) سورة المائدة ، آية : ٦٦ .
(٥) سورة الأعراف ، آية : ٩٦ .
(٦) تفسير الطبري : ٢٩/٧٢ .

وقال قتادة : (وأن لو استقاموا على الطريقة) ، يقول : لو آمنوا كلهم لأوسعنا عليهم من الدنيا .

وقال مجاهد : (وأن لو استقاموا على الطريقة) ، أى : طريقة الحق . وكذا قال الضحاك ، واستشهد على ذلك بالآيتين اللتين ذكرناهما ، وكل هؤلاء أو أكثرهم قالوا فى قوله : (لنفتنهم فيه) ، أى : لنبتليهم به .

وقال مقاتل : نزلت فى كفار قريش حين مُنعوا المطر سبع سنين .

والقول الثانى : (وأن لو استقاموا على الطريقة) : الضلالة (لأسقيناهم ماء غدقا) ، أى : لأوسعنا عليهم فى الرزق استدراجا ، كما قال : (فلما نسوا ما ذكروا به ، فتحنا عليهم أبواب كل شىء ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ، فإذا هم مبلسون(١)) . وكقوله : (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات؟ بل لا يشعرون(٢)) وهذا قول أبى مِجْلَز لاحق بن حُمَيد ؛ فانه قال فى قوله : (وأن لو استقاموا على الطريقة) ، أى : طريقة الضلالة . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وحكاه البغوى عن الربيع بن أنس ، وزيد بن أسلم ، والكلبى ، وابن كيسان . وله اتجاه ويتأيد بقوله : (لنفتنهم فيه) .

وقوله : (ومن يعرض عن ذكر ربه نَسلُكه (٣) عذابا صعدا) ، أى : عذابا شاقاً شديداً موجعا مؤلما .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، وابن زيد : (عذابا صعدا) ، أى : مشقة لا راحة معها .

وعن ابن عباس : جبل فى جهنم . وعن سعيد بن جبير : [بئر] فيها .

وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾

يقول تعالى آمرا عباده أن يُوَحِّدوه فى محال عبادته ، ولا يُدْعى معه أحد ولا يشرك به ، كما قال قتادة فى قوله : (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا) — قال : كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبيعهم ، أشركوا بالله، فأمر الله نبيه — صلى الله عليه وسلم — أن يوحدوه وحده (٤) .

وقال ابن أبى حاتم : ذكر على بن الحسين : حدثنا إسماعيل ابن بنت السدى ، أخبرنا رجل سماه ، عن السدى ، عن أبى مالك — أو : أبى صالح — عن ابن عباس فى قوله : (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا) ، قال : لم يكن يوم نزلت هذه الآية فى الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ، ومسجد إيليا : بيت المقدس .

(١) سورة الأنعام ، آية : ٤٤ .
(٢) سورة « المؤمنون » ، آية : ٥٥ — ٥٦ .
(٣) كذا فى مخطوطة الأزهر (نسلكه) ، بالنون . ويقول أبوحيان فى البحر المحيط ٨/٣٥٢ : «وقرأ الجمهور (يسلكه) بالياء ، وباقى السبعة بالنون» .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٩/٧٣ .

وقال الأعمش : قالت الجن : يا رسول الله ، ائذن لنا نشهد معك الصلوات فى مسجدك . فأنزل الله : (وأن المساجدلله فلا تدعوا مع الله أحدا) ، يقول : صلوا ، لا تخالطوا الناس .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران ، حدثنا سفيان ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، عن محمود ، عن سعيد ابن جبير : (وأن المساجد لله) قال : قالت الجن لنبى الله صلى الله عليه وسلم : كيف لنا أن نأتى المسجد ونحن ناءون ؟ [وكيف نشهد الصلاة ونحن ناءون عنك ؟] فنزلت : (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا (١)) .

وقال سفيان ، عن خُصَيف ، عن عكرمة : نزلت فى المساجد كلها .

[وقال (٢) سعيد بن جبير : نزلت فى أعضاء السجود ، أى : هى لله فلا تسجدوا بها لغيره . وذكروا عند هذا القول الحديث الصحيح ، من رواية عبد الله بن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس (٣) — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « أمرت أن أسجد على سبعة أعظم : على الجبهة — أشار بيده إلى أنفه — واليدين والركبتين وأطراف القدمين (٤)] .

وقوله : (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا) — قال العوفى ، عن ابن عباس يقول : لما سمعوا النبى — صلى الله عليه وسلم — يتلو القرآن كادوا يركبونه ؛ من الحرص ، لما سمعوه يتلو القرآن ، ودنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه : (قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن) ، يستمعون القرآن .

هذا قول ، وهو مروى عن الزبير بن العوام ، رضى الله عنه .

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن معمر ، حدثنا [أبو مسلم (٥)] ، عن أبى عوانة ، عن أبى بشر ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس قال : قال الجن لقومهم : (لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا) ، قال : لما رأوه يصلى وأصحابه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده ، قال : عجبوا من طواعية أصحابه له ، قال : فقالوا لقومهم : (لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا (٦)) .

وهذا قول ثان ، وهو مروى عن سعيد بن جبير أيضا .

وقال الحسن : لما قام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « لا إله إلا الله » ، ويدعو الناس إلى ربهم ، كادت العرب تَلَبَّدُ عليه جميعا (٧) .

وقال قتادة فى قوله : (وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا) ، قال : تَلَبَّدت الإنس والجنّ على هذا الأمر ليطفئوه ، فأبى الله إلا أن ينصره ويُمضيَه ويظهره على من ناوأه .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٩ : /٧٣ .

(٢) من هنا غير ثابت فى مخطوطة الأزهر .

(٣) البخارى ، كتاب مواقيت الصلاة ، باب « السجود على الأنف » : ٢٠٦/١ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « أعضاء السجود ، والنهى عن كف الشعر والثوب وعقص الرأس فى الصلاة » : ٥٢/٢ .

(٤) إلى هنا ينتهى ما أثبت عن الطبعات السابقة .

(٥) فى المخطوطة : « حدثنا ابن هشام » . والمثبت عن تفسير الطبرى ، والطبعات السابقة من ابن كثير .

(٦) تفسير الطبرى : ٧٤/٢٩ .

(٧) تفسير الطبرى : ٧٥/٢٩ . وفيه : « كادت العرب تكون عليه جميعاً » .

وهذا قول ثالث ، وهو مَرْوِيّ عن ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقول ابن زيد ، واختيار ابن جرير ، وهو الأظهر لقوله بعده : (قال(١) : إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا) ، أي : قال لهم الرسول — لما آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ، ليبطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته : (إنما ادعو ربي) ، أي : إنما أعبد ربي وحده لا شريك له ، وأستجير به وأتوكل عليه ، (ولا أشرك به أحدا) .

وقوله : (قل : إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا) ، أي : إنما أنا بشر مثلكم يوحىَ إليّ ، وعبد من عباد الله ليس إليّ من الأمر شيء فى هدايتكم ولا غوايتكم ، بل المرجع فى ذلك كله إلى الله عز وجل .

ثم أخبر عن نفسه أيضا أنه لا يجيره من الله أحد ، أي : لو عصيته فإنه لا يقدر أحد على إنقاذي من عذابه ، (ولن أجد من دونه ملتحدا) ، قال مجاهد ، وقتادة ، والسدي : لا ملجأ . وقال قتادة أيضا : (قل : إني لن يُجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا) ، أي : لا نصير ولا ملجأ . وفى رواية : لا وليّ ولا مَوْئِلَ .

وقوله تعالى : (إلا بلاغا من الله ورسالاته) ، قال بعضهم : هو مستثنى من قوله (لا أملك لكم ضرا ولا رشدا إلا بلاغا) ويحتمل أن يكون استثناء من قوله : (لن يجيرني من الله أحد) ، أي : لا يجيرني منه ويخلصني إلا إبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها عليّ ، كما قال تعالى : (يا أيها الرسول ، بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس (٢)) .

وقوله : (ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا) أي إنما أبلغكم رسالة الله فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نارُ جهنم خالدين فيها أبداً ، لا محيد لهم عنها ، ولا خروج لهم منها .

وقوله : (حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا) ، أي : حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس ما يُوعَدون يوم القيامة ، فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصرا وأقل عددا ؟ هم أم المؤمنون الموحدون لله عز وجل ، أي : بل المشركين لا ناصرَ لهم بالكلية ، وهم أقل عددا من جنود الله عز وجل .

قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾
إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ
وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

يقول تعالى آمراً رسوله — صلى الله عليه وسلم — أن يقول للناس : إنه لا علم له بوقت الساعة ، ولا يدري أقريب وقتها أم بعيد ؟ (قل : إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدا ؟) ، أي : مدة طويلة .

وفى هذه الآية الكريمة دليل على أن الحديث الذي يتداوله كثير ، من الجهلة من أنه — عليه السلام — لا يُؤَلِّف تحت الأرض ، كذب لا أصل له ، ولم نره فى شيء من الكتب . وقد كان — صلى الله عليه وسلم — يُسأل عن وقت الساعة فلا يجيب عنها ، ولما تبدى له جبريل فى صورة أعرابي كان فيما سأله أن قال : يا محمد ، فأخبرني عن الساعة ؟

(١) كذا فى مخطوطة الأزهر (قال) . وهي قراءة الجمهور ، انظر البحر المحيط لأبي حيان : ٣٥٣/٨ .
(٢) سورة المائدة ، آية : ٦٧ .

قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » . ولما ناداه ذلك الأعرابى بصوت جَهْورىّ فقال : يا محمد ، متى الساعة ؟ قال : « ويحك . إنها كائنة ، فما أعددت لها ؟ » . قال : أما إنى لم أعد لها كثير صلاة ولا صيام ، ولكنى أحب الله ورسوله . قال : « فأنت مع من أحببت » . قال أنس : فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن (٢) مُصَفّى ، حدثنا محمد بن حمير (٣) ، حدثنى أبو بكر بن أبى مريم ، عن عطاء بن أبى رباح ، عن أبى سعيد الخُدْرىّ ، عن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : « يا بنى آدم ، إن كنتم [تعقلون (٤)] فعدوا أنفسكم من الموتى ، والذى نفسى بيده إنما توعدون لآت » .

وقد قال أبو داود فى آخر « كتاب الملاحم » : حدثنا موسى بن سهل ، حدثنا حجاج بن إبراهيم ، حدثنا ابن وهب ، حدثنى معاوية بن صالح ، عن عبد الرحمن بن جُبَيْر ، عن أبيه ، عن أبى ثعلبة الخُشَنى قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « لن يعجز الله هذه الأمة (٥) من نصف يوم (٦) » .

انفرد به أبو داود ، ثم قال أبو داود :

حدثنا عمرو بن عثمان ، حدثنا أبو المغيرة ، حدثنى صفوان ، عن شُرَيح بن عبيد ، عن سعد بن أبى وقاص عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « إنى لأرجو أن لا تعجز أمتى عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم » . قيل لسعد : وكم نصف يوم ؟ قال : خمسمائة عام . انفرد به أبو داود(٦) .

وقوله : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول) : هذه كقوله تعالى : (ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء (٧)) . وهكذا قال هاهنا : إنه يعلم الغيب والشهادة ، وإنه لا يطلع أحد من خلقه على شى من علمه إلا مما أطلعه تعالى عليه ، ولهذا قال : (فلا يظهر على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول) ، وهذا يعم الرسول الملكى والبشرى .

ثم قال : (فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا) ، أى : يَخْتَصّه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من أمر الله ، ويساوقونه على ما معه من وحى الله . ولهذا قال : (ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وأحاط بما لديهم ، وأحصى كل شيء عددا) .

وقد اختلف المفسرون فى الضمير الذى فى قوله : (ليعلم) إلى من يعود ؟ فقيل : إنه عائد على النبى صلى الله عليه وسلم .

---

(١) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١٨٧ من سورة الأعراف وخرجناه هنالك ، انظر : ٥٢٣/٣ .

(٢) فى المخطوطة : « محمد بن مصا » . ولم نجده . والمثبت عما تقدم فى تفسير آية الأنعام ١٣٤ : ٣٣٥/٣ . ويقول ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل ١٠٤/١/٤ : «محمد بن المصفى الحمصى ، روى عن محمد بن حمير ... كتب عنه أبى وروى عنه » .

(٣) فى المخطوطة : « محمد بن جبير » ، انظر التعليق المتقدم .

(٤) فى المخطوطة : « تعلمون » . والمثبت عن السياقة التى تقدمت فى سورة الأنعام : ٣٣٥/٣ .

(٥) فى المخطوطة : « هذه الآية » . والمثبت عن سنن أبى داود .

(٦) سنن أبى داود ، كتاب الملاحم ، باب « قيام الساعة » .

(٧) سورة البقرة ، آية : ٢٢٥ .

قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يعقوب القُمّى ، عن جعفر ، عن سعيد بن جبير فى قوله : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا) ، قال : أربعة حفظة من الملائكة مع جبريل ، (ليعلم) محمد صلى الله عليه وسلم (أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وأحاط بما لديهم ، وأحصى كل شىء عدداً (١)) .

ورواه ابن أبى حاتم من حديث يعقوب القمى ، به : وهكذا رواه الضحاك ، والسدى ، ويزيد بن أبى حبيب .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة : (ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم) ، قال : ليعلم نبى الله أن الرسل قد بلغت عن الله ، وأن الملائكة حفظتها ودفعت عنها . وكذا رواه سعيد بن أبى عروبة ، عن قتادة . واختاره ابن جرير .

وقيل غير ذلك ، كما رواه العَوفى عن ابن عباس فى قوله : (إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا) ، قال : هى معقبات من الملائكة يحفظون النبى من الشيطان ، حتى يتبين (٢) الذى أرسل [به] إليهم ، وذلك حين يقول ، ليعلم أهل الشرك (٣) أن قد أبلغوا رسالات ربهم (٤) .

وكذا قال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : (ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم)، قال : ليعلم من كذب الرسل أن قد أبلغوا رسالات ربهم . وفى هذا نظر .

وقال البغوى : قرأ يعقوب : (ليُعلَم) ، بالضم ، أى : ليعلم الناس أن الرسل قد بلّغوا .

ويحتمل أن يكون الضمير عائداً إلى الله — عز وجل — وهو قول حكاه ابن الجوزى فى « زاد المسير (٥) » ، ويكون المعنى فى ذلك : أنه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من أداء رسالاته ، ويحفظ ما يُنَزّل إليهم من الوحى ؛ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، ويكون ذلك كقوله : (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه (٦)) ، وكقوله : (وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين (٧)) ، إلى أمثال ذلك ، مع العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعا لا محالة ، ولهذا قال بعد هذا : (وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا) .

آخر تفسير سورة الجن ، ولله الحمد والمنة

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٩/٧٧ .
(٢) فى المخطوطة : « حتى يتبين الذين أرسل إليهم » . والمثبت عن تفسير الطبرى . ولفظ الدر المنثور ٦/٢٧٥ : « حتى يبين الذى أرسل إليهم به » .
(٣) لفظ الطبرى : « وذلك حين يقول ، ليعلم أن قد أبلغوا ... » . ولفظ الدر المنثور : « وذلك حين يقول أهل الشرك : قد أبلغوا رسالات ربهم » . ويبدو أنه لا بد من هذه الزيادة ، وهى « أهل الشرك » بدليل أثر مجاهد الذى يلى أثر ابن عباس .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٩/٧٧ .
(٥) زاد المسير ، تفسير سورة الجن : ٨/٣٨٦ .
(٦) سورة البقرة ، آية : ١٤٣ .
(٧) سورة العنكبوت ، آية : ١١ .

تفسير سورة المزمل

وهى مكية

قال الحافظ أبو بكر بن عمرو بن عبد الخالق البزار : حدثنا محمد بن موسى القطان الواسطى ، حدثنا معلى بن عبدالرحمن حدثنا شريك ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن جابر قال : اجتمعت قريش فى دار الندوة فقالوا : سموا هذا الرجل اسما تَصْدُرُ الناس عنه . فقالوا : كاهن . قالوا : ليس بكاهن . قالوا : مجنون . قالوا : ليس بمجنون . قالوا : ساحر . قالوا : ليس بساحر . فتفرق المشركون على ذلك ، فبلغ ذلك النبى — صلى الله عليه وسلم — فتزمل فى ثيابه وتدثر فيها ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : (يا أيها المزمل) ، (يا أيها المدثر) .

ثم قال البزار : معلى بن عبد الرحمن : قد حدث عنه جماعة من أهل العلم ، واحتملوا حديثه ، لكنه تفرد بأحاديث لا يتابع عليها .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾

يأمر تعالى رسوله — صلى الله عليه وسلم — أن يترك التزمل ، وهو : التغطى فى الليل ، وينهض إلى القيام لربه — عز وجل — كما قال تعالى : (تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفا وطمعا ، ومما رزقناهم ينفقون(١)) ، وكذلك كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم ممتثلا ما أمره الله تعالى به من قيام الليل ، وقد كان واجبا عليه وحده ، كما قال تعالى : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً (٢)) . وهاهنا بين له مقدار ما يقوم فقال تعالى : (يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليلا) .

قال ابن عباس ، والضحاك ، والسدى : (يا أيها المزمل) ، يعنى : يا أيها النائم . وقال قتادة : المزمل فى ثيابه . وقال إبراهيم النخَعىّ : نزلت وهو متزمِّل بقطيفة .

---

(١) سورة السجدة ، آية : ١٦ .

(٢) سورة الإسراء ، آية : ٧٩ .

وقال شَبِيب بن بِشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : (يا أيها المزمل) ، قال : يا محمد ، زُمِّلتَ القرآن .

وقوله : (نصفه) : بدل من الليل ، (أو انقص منه قليلا . أو زد عليه) ، أي : أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل ، لا حرج عليك فى ذلك .

وقوله : (ورتل القرآن ترتيلا) ، أي : اقرأه على تمهل ، فانه يكون عونا على فهم القرآن وتدبره . وكذلك كان يقرأ صلوات الله وسلامه عليه ، قالت عائشة : كان يقرأ السورة فيرتلها ، حتى تكون أطول من أطول منها . وفى صحيح البخارى ، عن أنس : أنه سُئِل عن قراءة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : كانت مداً ، ثم قرأ : (بسم الله الرحمن الرحيم) ، يمد بسم الله ، ويمد الرحمن ، ويمد الرحيم (١) .

وقال ابن جريج ، عن ابن أبى مليكة عن أم سلمة : أنها سُئلت عن قراءة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقالت : كان يقطّع قراءته آية آية (بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين) . رواه أحمد ، وأبو داود : والترمذى (٢) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، عن سفيان ، عن عاصم ، عن زرّ ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارق (٣) ورتل كما كنت تُرتّل فى الدنيا ، فان منزلتك عند آخر آية تقرؤها (٤) » .

ورواه أبو داود ، والترمذى والنسائى ، من حديث سفيان الثورى ، به . وقال الترمذى : « حسن صحيح (٥) » .

وقد قدمنا فى أول التفسير الأحاديث الدالة على استحباب الترتيل وتحسين الصوت بالقراءة ، كما جاء فى الحديث : « زينوا (٦) القرآن بأصواتكم » ، و « ليس منا من لم يتغن بالقرآن (٧) » ، و « لقد أوتى هذا مزمارا من مزامير آل داود » (٨) . يعنى أبا موسى ، فقال أبو موسى : لو كنت أعلم أنك كنت تسمع قراءتى لحبرته لك تحبيرا .

---

(١) البخارى ، كتاب فضائل القرآن ، باب « مد القراءة » : ٦/٢٤١ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٦/٣٠٢ . وسنن أبى داود ، كتاب الحروف . وتحفة الأحوذى ، أبواب فضائل القرآن ، باب « ما جاء كيف كانت قراءة النبى صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ٣٠٩١ : ٨/٢٤٠-٢٤١ .

(٣) كذا فى المخطوطة ، ومثله فى الترمذى . وفى سنن أبى داود : « وارتق » . وفى مسند الإمام احمد : « وارقا » . والمعنى : اصعد إلى درجات الجنة .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٢/١٩٢ .

(٥) سنن أبى داود ، كتاب الوتر ، باب « استحباب الترتيل فى القراءة » . وتحفة الأحوذى ، أبواب فضائل القرآن ، الحديث ٣٠٨١ : ٨/٢٣٢ .

(٦) سنن أبى داود ، كتاب الوتر ، باب « استحباب الترتيل فى القراءة » . والنسائى ، كتاب الافتتاح ، باب « تزيين القرآن بالصوت » : ٢/١٧٩ . وابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب « فى حسن الصوت بالقرآن » ، الحديث ١٣٤٢ : ١/٤٢٦ . ومسند الإمام أحمد ، عن البراء بن عازب : ٤/٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٤ .

(٧) البخارى ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : (وأسروا قولكم أو اجهروا به) : ٩/١٨٨ . وسنن أبى داود ، كتاب الوتر ، باب « استحباب الترتيل فى القراءة » . ومسند الإمام أحمد عن سعد بن أبى وقاص : ١/١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٩ .

(٨) البخارى ، كتاب فضائل القرآن ، باب « حسن الصوت بالقراءة » : ٦/٢٤١ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « استحباب تحسين الصوت بالقرآن » : ٢/١٩٢ - ١٩٣ .

وعن ابن مسعود أنه قال : لا تنثروه نثر الرمل ، ولا تهذّوه هذّ الشعر(١) ، قفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة . رواه البغوى .

وقال البخارى : حدثنا آدم ، حدثنا شعبة ، حدثنا عمرو بن مرة : سمعت أبا وائل قال : جاء رجل إلى ابن مسعود فقال : قرأت المفصل الليلة فى ركعة . فقال : هذّاً كهذّ الشعر : لقد عرفت النظائر التى كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقرن بينهن . فذكر عشرين سورة من المُفَصّل ، سورتين فى ركعة . (٢)

وقوله : (إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا) ، قال الحسن ، وقتادة : أى العمل به (٣) .

وقيل : ثقيلٌ وقتَ نزوله ؛ من عظمته . كما قال زيد بن ثابت : أنزل على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وفَخِذُه على فخذى ، فكادت تُرض فَخِذى (٤) .

وقال الامام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن يزيد بن أبى حَبِيب ، عن عَمرو بن الوليد ، عن عبد الله ابن عمرو قال : سألتُ النبيّ — صلى الله عليه وسلم — فقلت : يا رسول الله ، هل تحس بالوحى ؟ فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « أسمعُ صَلاصِلَ ، ثم أسكتُ عند ذلك ، فما من مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسى تَفيض(٥) » ، تفرد به أحمد (٦) .

وفى أول صحيح البخارى عن عبد الله بن يوسف ، عن مالك ، عن هشام ، عن أبيه ، عن عائشة : أن الحارث ابن هشام سأل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : كيف يأتيك الوحى ؟ فقال : « أحيانا يأتينى فى مثل صَلصلة الجرس ، وهو أشده علىّ ، فيفصِمُ (٧) عنى وقد وَعَيت عنه ما قال : ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول » ، قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى — صلى الله عليه وسلم — فى اليوم الشديد البرد ، فيفصِم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا ، هذا لفظه (٨) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود ، أخبرنا عبد الرحمن ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : إن كان ليوحَى إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو على راحلته ، فتضربُ بجِرانها (٩) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته ، وضعت جِرانها ، فما تستطيع أن تحرك حتى يُسَرّى عنه (١٠) .

---

(١) أى : لا تسرعوا فى قراءته كما تسرعوا فى قراءة الشعر ، والهذ : سرعة القطع .
(٢) البخارى ، كتاب الصلاة ، باب « الجمع بين السورتين فى ركعة » : ١٩٧/١ .
(٣) تفسير الطبرى : ٨٠/٢٩ .
(٤) البخارى ، كتاب الصلاة ، باب « ما يذكر فى الفخذ » : ١٠٣/١ . وتفسير سورة النساء : ٥٩/٦ — ٦٠ .
(٥) أى : تخرج .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٢٢٢/٢ .
(٧) أى : يقلع . يقال : أفصم المطر ، إذا أقلع وانكشف .
(٨) البخارى : ٢/١ — ٣ .
(٩) مسند الإمام أحمد : ١١٨/٦ . والجران : باطن العنق . والمعنى : أنها تثبت فى مكانها .
(١٠) تفسير الطبرى : ٨٠/٢٩ .

وهذا مرسل : الجران ، هو باطن العنق .

واختار ابن جرير أنه ثقيل من الوجهين معا ، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كما ثقل فى الدنيا ثقل يوم القيامة فى الموازين (١) .

وقوله : (إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا) ـ قال أبو إسحاق ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : نشأ : قام ، بالحبشة .

وقال عمر ، وابن عباس ، وابن الزبير : الليل كله ناشئة . وكذا قال مجاهد ، وغير واحد ، يقال : نشأ : إذا قام من الليل . وفى رواية عن مجاهد : بعد العشاء . وكذا قال أبو مجلز ، وقتادة ، وسالم و [أبو] حازم ، ومحمد ابن المنكدر .

والغرض أن ناشئة الليل هى : ساعاته وأوقاته ، وكل ساعة منه تسمى ناشئة ، وهى الآنات . والمقصود أن قيام الليل هو أشدّ مواطأة بين القلب واللسان ، وأجمع على التلاوة . ولهذا قال : (هى أشدّ وطأ وأقوم قيلا) ، أى : أجمع للخاطر فى أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار ؛ لأنه وقتُ انتشار الناس ولَغَط الأصوات وأوقات المعاش .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهرى ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنا الأعمش : أن أنس ابن مالك قرأ هذه الآية : (إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأصوب قيلا) ، فقال له رجل : إنما نقرؤها (وأقوم قيلا) . فقال له : إن أصوب وأقوم وأهيأ وأشباه هذا واحد .

ولهذا قال : (إن لك فى النهار سبحا طويلا) ، قال ابن عباس ، وعكرمة ، وعطاء بن أبى مُسلم : الفراغ والنوم .

وقال أبو العالية ، ومجاهد ، وأبو مالك ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، وسفيان الثورى : فراغا طويلا .

وقال قتادة : فراغا وبغية ومُنْقَلَباً .

وقال السدى : (سبحا طويلا) : تطوعا كثيرا .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : (سبحا طويلا) ، قال : لحوائجك ، فَأَفْرِغ لدينك الليل . قال: وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة ، ثم إن الله من على العباد فخففها ووضعها ، وقرأ : (قم الليل إلا قليلا) إلى آخر الآية ، ثم قال : (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل) حتى بلغ : (فاقرءوا ماتيسر منه) [الليل نصفه أو ثلثه . ثم جاء أمر أوسع وأفسح وضع الفريضة عنه وعن أمته (٢)] فقال (٣) : وقال : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) . وهذا الذى قاله كما قاله(٤) .

والدليل عليه ما رواه الامام أحمد فى مسنده حيث قال : حدثنا يحيى ، حدثنا سعيد بن أبى عَرُوبة ، عن قتادة ، عن زرارة بن أوفى ، عن سعد بن هشام (٥) : أنه طلق امرأته ثم ارتحل إلى المدينة ليبيع عقاراً له بها ويجعله فى الكُرَاع (٦)

(١) تفسير الطبرى : ٢٩/٨٠.
(٢) ما بين القوسين عن تفسير الطبرى . ونخشى أن يكون سقط نظر .
(٣) فى المخطوطة : «وقال» . والمثبت عن تفسير الطبرى أيضاً .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٩/٨٣ .
(٥) فى المخطوطة : «سعيد بن هشام» . والمثبت عن المسند والجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢/١/٩٦ .
(٦) أى : فيشترى بدله الأسلحة والخيل ؛ وذلك لعزمه التجرد للجهاد .

والسلاح ، ثم يجاهد الروم حتى يموت . فلقى رهطا من قومه فحدثوه أن رهطا من قومه ستة أرادوا ذلك على عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : « أليس لكم فى أسوة ؟ فنهاهم عن ذلك ، فأشهدهم على رجعتها ، ثم رجع إلينا فأخبرنا أنه أتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال : ألا أنبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم ؛ قال : ائت عائشة فاسألها ثم ارجع إلىّ فأخبرنى بردّها عليك . قال : فأتيت على حكيم بن أفلح فاستلحقته (١) إليها ، فقال : ما أنا بقاربها (٢) ؛ إنى نهيتها أن تقول فى هاتين الشيعتين (٣) شيئا ، فأبت فيهما إلا مُضياً . فأقسمتُ عليه ، فجاء معى ، فدخلنا عليها فقالت : حكيم ؟ وعرفته ، قال : نعم . قالت : من هذا معك ؟ قال : سعد بن هشام ؛ قالت : من هشام ؟ قال : ابن عامر . قال : فترحمت عليه وقالت : نعم المرء كان عامر . قلت : يا أم المؤمنين ، أنبئينى عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : ألست تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى . قالت : فإن خلق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان القرآن . فهممتُ أن أقوم ، ثم بدا لى قيامُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت: يا أم المؤمنين ، أنبئينى عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت : ألست تقرأ هذه السورة : (يا أيها المزمل) ؟ قلت : بلى . قالت : فإن الله افترض قيام الليل فى أول هذه السورة ، فقام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم ، وأمسك الله خاتمتها فى السماء اثنى عشر شهرا ، ثم أنزل الله التخفيف فى آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد فريضة (٤) . فهممتُ أن أقومَ ، ثم بدا لى وتر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلت : يا أم المؤمنين ، أنبئينى عن وتر رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت : كنا نعد له سواكه وطَهُوره ، فيبعثه (٥) الله لما شاء أن يبعثه من الليل ، فيتسوك ثم يتوضأ ثم يصلى ثمانى ركعات لا يجلس فيهن إلا عند الثامنة ، فيجلس ويذكر ربه ويدعو [ويستغفر ثم ينهض ولا يسلم . ثم يصلى التاسعة فيقعد فيحمد ربه ويذكره ويدعو (٦)] ثم يسلم تسليما يسمعنا ، ثم يصلى ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم . فتلك إحدى عشرة [ركعة] يا بنى . فلما أسن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأخذ (٧) اللحم ، أوتر بسبع ، ثم صلى ركعتين وهو جالس بعد ما يسلم ، فتلك [تسع] يا بنى . وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها ، وكان إذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض ، صلى من النهار ثنتى عشرة ركعة ، ولا أعلم نبى الله — صلى الله عليه وسلم — قرأ القرآن كله فى ليلة [ولا قام (٦) ليلة] حتى أصبح ، ولا صام شهرا كاملا غير رمضان .

فأتيت ابن عباس فحدثته بحديثها ، فقال : صدقت ، أما لو كنت أدخل عليها لأتيتها حتى تشافهنى مشافهة (٨) .

---

(١) أى : طلبت منه مرافقته إياى فى الذهاب إليها .
(٢) أى : لا أريد قربها .
(٣) يريد : شيعة على وأصحاب الجمل .
(٤) فى المسند : « فريضته » . وما فى مسلم يوافق ما هنا .
(٥) أى : يوقظه ؛ لأن النوم أخو الموت .
(٦) ما بين القوسين سقط من المخطوطة ، والمثبت عن المسند .
(٧) فى بعض روايات مسلم : « وأخذه » . والمعنى : وكثر لحمه . هذا ما قيل ، وهو خلاف صفته عليه السلام ، فانه لم يكن لحيما سميناً ، نعم جاء فى صفته — صلى الله عليه وسلم — أنه بادن متماسك ، والبادن : الضخم ، فلما قيل « بادن » أردف بـ « متماسك » ، وهو الذى يمسك بعض أعضائه بعضاً ، فهو معتدل الخلق . على أنه قد قيل فى « وأخذ اللحم » : ضعف .
(٨) مسند الإمام أحمد : ٦/٥٤ .

هكذا رواه الامام أحمد بتمامه ، وقد أخرجه مسلم فى صحيحه ، من حديث قتادة ، بنحوه (١) .

طريق أخرى عن عائشة فى هذا المعنى ، قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا زيد (٢) بن الحُبَاب ــ وحدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران قالا جميعا ، واللفظ لابن وكيع : عن موسى بن عُبيدة ، حدثنى محمد بن طحلاء ، عن أبى سلمة ، عن عائشة قالت : كنت أجعل لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ حصيرا يُصَلِّى عليه من الليل ، فتسامع الناس به فاجتمعوا ، فخرج كالمغضَب ــ وكان بهم رحيما ، فخشى أن يكتب عليهم قيام الليل ــ فقال : « أيها الناس ، اكلَفُوا (٣) من الأعمال ما تطيقون ، فان الله لا يَمَلّ من الثواب حتى تملوا من العمل ، وخير الأعمال ماديمَ عليه » ، ونزل القرآن : (يا أيها المزمل : قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه) ، حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق ، فمكثوا بذلك ثمانية أشهر ، فرأى الله ما يبتغون من رضوانه ، فرحمهم فردهم إلى الفريضة ، وترك قيام الليل (٤) .

ورواه ابن أبى حاتم من طريق موسى بن عبيدة الربذى ، وهو ضعيف . والحديث فى الصحيح(٥) بدون زيادة نزول هذه السورة ، وهذا السياق قد يُوهم أن نزول هذه السورة بالمدينة ، وليس كذلك ، وإنما هى مكية . وقوله فى هذا السياق : إن بين نزول أولها وآخرها ثمانية أشهر ــ غريب ؛ فقد تقدم فى رواية أحمد أنه كان بينهما سنة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن مسعر ، عن سماك الحنفى ، سمعت ابن عباس يقول : أول ما نزل أول المزمل ، كانوا يقومون نحوا من قيامهم فى شهر رمضان ، وكان بين أولها وآخرها قريب من سنة .

وهكذا رواه ابن جرير عن أبى كريب ، عن أبى أسامة ، به(٦) .

وقال الثورى ومحمد بن بشر العبدى ، كلاهما عن مسعر ، عن سماك ، عن ابن عباس : كان بينهما سنة . وروى ابن جرير ، عن أبى كريب ، عن وكيع ، عن إسرائيل ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، مثله (٧) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن قيس بن وهب ، عن أبى عبد الرحمن قال : لما نزلت : (يا أيها المزمل) ، قاموا حولا حتى ورمت أقدامهم وسُوقُهم ، حتى نزلت : (فاقرءوا ما تيسر منه) قال : فاستراح الناس (٨) .

وكذا قال الحسن البصرى .

---

(١) مسلم ، كتاب الصلاة ، باب « جامع صلاة الليل ، ومن نام عنه أو مرض » : ٢/١٦٨ ــ ١٧٠ .
(٢) فى تفسير الطبرى : « يزيد بن حيان » . ويبدو أن الصواب ما هنا .
(٣) أى : خذوا وتحملوا .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٩/٧٩ .
(٥) انظر البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « القصد والمداومة على العمل » : ٨/١٢٢ . وانظر مسند الإمام أحمد : ٦/٤٠ ، ٦١ ، ١٧٦ ، ١٨١ ، ٢٤١ ، ٢٦٧ .
(٦) تفسير الطبرى : ٢٩/٧٨ .
(٧) تفسير الطبرى : ٢٩/٨٠ .
(٨) تفسير الطبرى : ٢٩/٧٩ .

وقال ابن أبي حاتم : [حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عُبَيد الله بن عمر القواريرى ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثنا أبي (١)] عن قتادة ، عن زُرارة بن أوفى ، عن سعد بن هشام قال : فقلت — يعنى لعائشة — : أخبرينا عن قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت : ألست تقرأ : (يا أيها المزمل) ؟ قلت : بلى . قالت : فإنها كانت قيام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه حتى انتفخت أقدامهم ، وحُبس آخرها فى السماء ستة عشر شهرا ، ثم نزل .

وقال معمر ، عن قتادة : (قم الليل إلا قليلا) ، قاموا حولا أو حولين ، حتى انتفخت سُوقهم وأقدامهم ، فأنزل الله تخفيفها بعد فى آخر السورة .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حُميد ، حدثنا يعقوب القمى ، عن جعفر ، عن سعيد — هو ابن جبير — قال : لما أنزل الله على نبيه — صلى الله عليه وسلم — : (يا أيها المزمل) ، قال : مكث النبى — صلى الله عليه وسلم — على هذه الحال عشر سنين يقوم الليل ، كما أمره ، وكانت طائفة من أصحابه يقومون معه ، فأنزل الله عليه بعد عشر سنين : (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك) إلى قوله : (وأقيموا الصلاة) ، فخفف الله تعالى عنهم بعد عشر سنين (٢) .

ورواه ابن أبي حاتم ، عن أبيه ، عن عمرو بن رافع ، عن يعقوب القمى ، به .

وقال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس فى قوله : (قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا [أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا) ، فأمر الله نبيه والمؤمنين بقيام الليل إلا قليلا (٣)] فشق ذلك على المؤمنين ، ثم خفف الله عنهم ورحمهم ، فأنزل بعد هذا : (علم أن سيكون منكم مرضى ، وآخرون يضربون فى الأرض) إلى قوله : (فاقرءوا ما تيسر منه) ، فوسع الله — وله الحمد — ولم يضيق (٤) .

وقوله : (واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا) ، أى : أكثر من ذكره ، وانقطع إليه ، وتفرغ لعبادته إذا فرغت من أشغالك ، وما تحتاج إليه من أمور دنياك ، كما قال : (فإذا فرغت فانصب (٥)) ، أى : إذا فرغت من مهامِّك (٦) فانصب فى طاعته وعبادته ، لتكون فارغ البال ، قاله ابن زيد بمعناه أو قريب (٧) منه .

قال ابن عباس ومجاهد ، وأبو صالح ، وعطية ، والضحاك ، والسدى : (وتبتل إليه تبتيلا) ، أى : أخلص له العبادة .

وقال الحسن : اجتهد وبتّل إليه نفسك .

---

(١) ما بين القوسين من الطبعات السابقة .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٩/٧٩ .
(٣) ما بين القوسين من تفسير الطبرى . وهو سقط نظر .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٩/٧٩ .
(٥) سورة الشرح ، آية : ٧ .
(٦) فى المخطوطة : « مهامتك » .
(٧) انظر تفسير الطبرى : ٢٩/٨٤ .

وقال ابن جرير : يقال للعابد : متبتل ، ومنه الحديث المروى [أنه] نهى عن التبتل (١) . يعنى الانقطاع إلى العبادة وترك التزوج .

وقوله : (رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) ، أى : هو المالك المتصرف فى المشارق والمغارب ، الذى لا إله إلا هو ، وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل (فاتخذه وكيلا) ، كما قال فى الآية الأخرى : (فاعبده وتوكل عليه (٢)) ، وكقوله : (إياك نعبد وإياك نستعين) ، وآيات كثيرة فى هذا المعنى ، فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة لله ، وتخصيصه بالتوكل عليه .

وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾

يقول تعالى آمرا رسوله — صلى الله عليه وسلم — بالصبر على ما يقوله من كذبه من سفهاء قومه ، وأن يهجرهم هجرا جميلا ، وهو الذى لا عتاب معه . ثم قال له متوعداً لكفار قومه ومتهدداً — وهو العظيم الذى لا يقوم لغضبه شىء . (وذرنى والمكذبين أولى النعمة) ، أى : دعنى والمكذبين المترفين أصحابَ الأموال ، فانهم أقدر على الطاعة من غيرهم ، وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عند غيرهم ، (ومهلهم قليلا) ، أى : رويدا ، كما قال : (نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) . ولهذا قال هاهنا : (إن لدينا أنكالا) ، وهى : القيود . قاله ابن عباس ، وعكرمة ، وطاوس ، ومحمد بن كعب ، وعبد الله بن بُرَيدة ، وأبو عمران الجونى ، وأبو مجلز ، والضحاك ، وحماد بن أبى سلمان ، وقتادة ، والسدى ، وابن المبارك ، والثورى ، وغير واحد (وجحيما) ، وهى السعير المضطرمة . (وطعاما ذا غصة) — قال ابن عباس : ينشب فى الحلق فلا يدخل ولا يخرج ، (وعذابا أليما . يوم ترجف الأرض والجبال) ، أى : تزلزل ، (وكانت الجبال كثيبا مهيلا) ، أى : تصير ككثبان الرمل بعد ما كانت حجارة صماء ، ثم إنها تنسف نسفا فلا يبقى منها شىء إلا ذهب ، حتى تصير الأرض قاعاً صفصفا ، لا ترى فيها عوجا ، أى : واديا ، ولا أمتا ، أى : رابية . ومعناه : لا شىء ينخفض ولا شىء يرتفع (٣) .

ثم قال مخاطبا لكفار قريش ، والمراد سائر الناس : (إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم) ، أى : بأعمالكم ، (كما أرسلنا إلى فرعون رسولا . فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا) — قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ،

---

(١) انظر تفسير الطبرى : ٢٩ / ٨٣ .
(٢) سورة هود ، آية : ١٢٣ .
(٣) انظر تفسير سورة طه ، آية : ١٠٧ ، ق : ٥ / ٣٠٩ — ٣١٠ .

والسدى ، والثورى : (أخذا وبيلا) ، أى : شديدا (١) . أى : فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول ، فيصيبكم ما أصابَ فرعونَ ، حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، كما قال تعالى : (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى (٢)) ، وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتم ؛ لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران . ويُروَى عن ابن عباس ، ومجاهد .

وقوله : (فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا) ، يحتمل أن يكون (يوما) معمولا لتتقون ، كما حكاه ابن جرير عن قراءة ابن مسعود : « فكيف تخافون أيها الناس يوما يجعل الولدان شيبا إن كفرتم بالله ولم تصدقوا به » ؟ ويحتمل أن يكون معمولاً لكفرتم ، فعلى الأول : كيفَ يحصلُ لكم أمان من يوم هذا الفزع العظيم إن كفرتم ؟ وعلى الثاني : كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه ؟ وكلاهما معنى حسن ، ولكن الأول أولى ، والله أعلم .

ومعنى قوله : (يوما يجعل الولدان شيبا) ، أى : من شدة أهواله وزلازله وبلابله ، وذلك حين يقول الله لآدم : ابعَثْ بعثَ النار . فيقول : مِنْ كم ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة (٣) .

قال الطبرانى : حدثنا يحيى بن أيوب العلاف ، حدثنا سعيد بن أبى مريم ، حدثنا نافع بن يزيد ، حدثنا عثمان بن عطاء الخراسانى ، عن أبيه ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ : (يوما يجعل الولدان شيبا)، قال : « ذلك يوم القيامة ، وذلك يوم يقول الله لآدم : قم فابعث من ذريتك بعثا إلى النار . قال : من كم يا رب ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون ، وينجو واحد » . فاشتد ذلك على المسلمين ، وعرف ذلك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثم قال حين أبصر ذلك فى وجوههم : « إن بنى آدم كثير ، وإن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ، وإنه لا يموت منهم رجل [حتى ينتشر] لصلبه ألف رجل ففيهم وفى أشباههم جنة لكم » .

هذا حديث غريب ، وقد تقدم فى أول سورة الحج ذكر هذه [الأحاديث] .

وقوله : (السماء منفطر به) — قال الحسن ، وقتادة : أى بسببه من شدته [وهوله] : ومنهم من يعيد الضمير على الله عز وجل . [وروى عن ابن عباس ومجاهد (٤)] ، وليس بقوى ؛ لأنه لم يجر له ذكر هاهنا .

وقوله تعالى : (كان وعده مفعولا) ، أى . كان وعد هذا اليوم مفعولا ، أى : واقعا لا محالة ، وكائنا لا محيد عنه .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٩/٨٦ .

(٢) سورة النازعات ، آية : ٢٥ .

(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية الثانية من سورة الحج ، وخرجناه هنالك ، انظر : ٥/٣٨٥ — ٣٨٨ .

(٤) انظر تفسير الطبرى : ٢٩/٨٧ .

إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ * إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

يقول تعالى : (إن هذه) ، أى : السورة (تذكرة) ، أى : يتذكر بها أولو الألباب . ولهذا قال : (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) ، أى : ممن شاء الله هدايته ، كما قيده فى السورة الأخرى : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله ، إن الله كان عليما حكيما(١)) :

ثم قال : (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك) ، أى : تارة هكذا ، وتارة هكذا ، وذلك كله من غير قصد منكم ، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل ، لأنه يشق عليكم ، ولهذا قال : (والله يقدر الليل والنهار) ، أى : تارة يعتدلان ، وتارة يأخذ هذا من هذا ، أو هذا من هذا ، (علم أن لن تحصوه) ، أى : الفرض الذى أوجبه عليكم (فاقرءوا ما تيسر من القرآن) ، أى : من غير تحديد بوقت ، أى : ولكن قوموا من الليل ما تيسر : وعبر عن الصلاة بالقراءة ، كما قال فى سورة سبحان : (ولا تجهر بصلاتك) ، أى : بقراءتك ، (ولا تخافت بها) (٢) :

وقد استدل أصحاب الإمام أبى حنيفة — رحمه الله — بهذه الآية ، وهى قوله : (فاقرءوا ما تيسر من القرآن) ، على أنه لا يتعين قراءة الفاتحة فى الصلاة ، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن ، ولو بآية ، أجزأه ؛ واعتضدوا بحديث المسىء صلاته الذى فى الصحيحين : « ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن (٣) » .

وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت ، وهو فى الصحيحين أيضا : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب (٤) » . وفى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداج ، فهى خداج ، فهى خداج : غير تمام (٥) » . وفى صحيح ابن خزيمة عن أبى هريرة مرفوعا : « لا تجزىء صلاةُ مَن لم يقرأ بأم القرآن » .

---

(١) سورة الإنسان ، آية : ٣٠ .

(٢) سورة الإسراء ، آية : ١١٠ .

(٣) البخارى ، كتاب الاستئذان ، باب « من رد فقال : عليك السلام » : ٨/٦٨ — ٦٩ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « وجوب قراءة الفاتحة فى كل ركعة » : ٢/١١ .

(٤) البخارى ، كتاب الصلاة ، باب « وجوب القراءة للإمام والمأموم فى الصلاة كلها ، فى الحضر والسفر ، وما يجهر فيها وما يخافت » : ١/١٩٢ . ومسلم ، فى الكتاب والباب المتقدمين — فى التعليق السابق — : ٢/٩ .

(٥) مسلم ، فى الكتاب والباب المتقدمين : ٢/١٠ .

وقوله : (علم أن سيكون منكم مرضى ، وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله) ، أى : علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار فى ترك قيام الليل ، من مرضى لا يستطيعون ذلك ، ومسافرين فى الأرض يبتغون من فضل الله فى المكاسب والمتاجر ، وآخرين مشغولين بما هو الأهم فى حقهم من الغزو فى سبيل الله . وهذه الآية — بل السورة كلها — مكية ، ولم يكن القتال شُرِع بعدُ ، فهى من أكبر دلائل النبوة ، لأنه من باب الإخبار بالمغيبات المستقبلة . ولهذا قال : (فاقرءوا ما تيسر منه) ، أى : قوموا بما تيسر عليكم منه .

قال ابن جرير : حدثنا يعقوب ، حدثنا ابن علية ، عن أبى رجاء محمد قال : قلت للحسن : يا أبا سعيد ، ما تقول فى رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه ، ولا يقوم به ، إنما يصلى المكتوبة ؟ قال : يتوسَّدُ القرآن (١) ، لعن الله ذاك ، قال الله تعالى للعبد الصالح : (وإنه لذو علم لما علمناه) ، (وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) . قلت : يا أبا سعيد ، قال الله : (فاقرءوا ما تيسر من القرآن) ؟ قال : نعم ، ولو خمس آيات (٢) .

وهذا ظاهر من مذهب الحسن البصرى : أنه كان يرى حقا واجبا على حَمَلَة القرآن أن يقوموا ولو بشىء منه فى الليل ، ولهذا جاء فى الحديث : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سُئل عن رجل نام حتى أصبح ، فقال : « ذاك رجل بال الشيطان فى أذنه (٣) » . فقيل : معناه : نام عن المكتوبة . وقيل : عن قيام الليل . وفى السنن : « أوتِرُوا يا أهل القرآن (٤) » . وفى الحديث الآخر : « من لم يوتر فليس منا(٥) » .

وأغرب من هذا ما حكى عن أبى بكر عبد العزيز (٦) ، من الحنابلة ، من إيجابه قيام شهر رمضان ، فالله أعلم .

وقال الطبرانى : حدثنا أحمد بن سعيد بن فرقد الجُدّى ، حدثنا أبو محمد بن يوسف الزَّبيدى ، حدثنا عبد الرحمن . [عن محمد بن عبد الله بن (٧)] طاوس — من ولد طاوس — عن أبيه ، عن طاوس ، عن ابن عباس ، عن النبى صلى الله عليه وسلم : (فاقرءوا ما تيسر منه) ، قال : « مائة آية » .

وهذا حديث غريب جدا لم أره إلا فى معجم الطبرانى رحمه الله .

---

(١) متوسد القرآن : هو الذى ينام الليل عن القرآن ولم يتهجد به .

(٢) فى تفسير الطبرى ٢٩/ ٨٩ : « ولو خمسين آية » .

(٣) البخارى ، كتاب الصلاة ، باب « إذا نام ولم يصل بال الشيطان فى أذنه » : ٢/ ٦٦ . ومسلم ، كتاب المساجد ، باب « ما روى فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح » : ٢/ ١٨٧ .

(٤) تحفة الأحوذى ، أبواب الوتر ، الحديث ٤٥٢ : ٢/ ٦ — ٥٣٨ . وسنن أبى داود ، كتاب الوتر ، باب « استحباب الوتر » . والنسائى ، كتاب قيام الليل ، باب « الأمر بالوتر » : ٣/ ٢٢٨ — ٢٢٩ . وابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب « ما جاء فى الوتر » ، الحديث ١١٦٩ ، ١١٧٠ : ١/ ٣٧٠ . ومسند الإمام أحمد عن على رضى الله عنه : ١/ ١١٠ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٨ .

(٥) سنن أبى داود ، كتاب الوتر ، باب « فيمن لم يوتر » . ومسند الإمام أحمد عن أبى هريرة : ٢/ ٤٤٣ وعن بريدة : ٥/ ٣٥٧ .

(٦) هو عبد العزيز بن جعفر بن أحمد الحنبلى ، أبو بكر . صاحب الخلال ، وشيخ الحنابلة ، وعالمهم ، وصاحب التصانيف . روى عن موسى بن هارون ، وأبى خليفة الجمحى وجماعة . توفى فى شوال سنة ٣٦٣ وله ثمان وسبعون سنة . وكان صاحب زهد وعبادة . انظر العبر للذهبى : ٢/ ٣٣٠ .

(٧) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة .

وقوله : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) ، أى : أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم ، وآتوا الزكاة المفروضة . وهذا يدل لمن قال : إن فرض الزكاة نزل بمكة ، لكن مقادير النّصب والمَخْرَج لم تُبيّن إلا بالمدينة . والله أعلم .

وقد قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وغير واحد من السلف : إن هذه الآية نَسَخت الذى كان الله قد أوجبه على المسلمين أولا من قيام الليل . واختلفوا فى المدة التى بينهما على أقوال كما تقدم . وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لذلك الرجل : « خمس صلوات فى اليوم والليلة » . قال : هل على غيرها ؟ قال : « لا ، إلا أن تَطَوّع (١) » .

وقوله تعالى : (وأقرضوا الله قرضا حسنا) ، يعنى من الصدقات ، فان الله يجازى على ذلك أحسن الجزاء وأوفره ، كما قال : (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) (٢) .

وقوله : (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا) ، أى : جميع ما تقدموه بين أيديكم فهو لكم حاصل ، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم فى الدنيا .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا أبو خيثمة ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن الحارث ابن سُوَيد قال : قال عبد الله : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه ؟ » . قالوا : يا رسول الله ، ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه . قال : « اعلموا ما تقولون » . قالوا : ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله ؟ قال : « إنما مال أحدكم ما قدّم ومال وارثه ما أخر » .

ورواه البخارى من حديث حفص بن غياث والنسائى من حديث أبى معاوية ، كلاهما عن الأعمش ، به (٣) .

ثم قال تعالى : (واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) ، أى : أكثروا من ذكره واستغفاره فى أموركم كلها ؛ فانه غفور رحيم لمن استغفره .

آخر تفسير « سورة المزمل » ولله الحمد

---

(١) البخارى ، كتاب الإيمان ، باب « الزكاة من الإسلام » : ١٨/١ . ومسلم ، كتاب الإيمان أيضاً ، باب « بيان الصلوات التى هى أحد أركان الإسلام » : ٣١/١ – ٣٢ .

(٢) سورة البقرة ، آية : ٢٤٥ .

(٣) البخارى ، كتاب الزكاة ، باب « ما قدم من ماله فهو له » : ١١٦/٨ . والنسائى ، كتاب الوصايا ، باب « الكراهية فى تأخير الوصية » : ٢٣٧/٦ .

تفسير سورة المدثر

وهى مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠).

ثبت فى صحيح البخارى ، عن جابر أنه كان يقول : أول شىء نزل من القرآن : (يا أيها المدثر) .

وخالفه الجمهور فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولا قوله تعالى : (اقرأ باسم ربك الذى خلق) ، كما سيأتى ذلك هنالك :

قال البخارى : حدثنا يحيى ، حدثنا وكيع ، عن على بن المبارك ، عن يحيى بن أبى كثير قال : سألت أبا سلمة ابن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن ، قال : (يا أيها المدثر) . قلت : يقولون : (اقرأ باسم ربك الذى خلق) ؟ فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك ، وقلت له مثل ما قلتَ لى ، فقال جابر : لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « جاورت بحراء ، فلما قضيت جوارى هبطتُ فنُوديت فنظرت عن يمينى فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئا ، ونظرت أمامى فلم أر شيئا ، ونظرت خلفى فلم أر شيئا ، فرفعت رأسى فرأيت شيئا ، فأتيت خديجة فقلت : دثّرونى . وصُبّوا على ماء باردا . قال : فدثّرونى وصبّوا على ماء باردا قال : فنزلت (يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر) (١) » .

هكذا ساقه من هذا الوجه ، وقد رواه مسلم من طريق عُقَيل ، عن ابن شهاب ، عن أبى سلمة قال : أخبرنى جابر ابن عبد الله : أنه سمع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يحدث عن فترة الوحى : « فبينا أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء ، فرفعت بصرى قِبَلَ السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض ، فَجَثَثْتُ (٢) منه حتى هَوَيْتُ إلى الأرض ، فجئت إلى أهلى ، فقلت : زملونى زملونى . فزملونى ، فأنزل الله (يا أيها المدثر : قم فأنذر) إلى : (فاهجر) . — قال أبو سلمة : والرجز الأوثان — ثم حَمِيَ الوحيُ وتتابع » .

هذا لفظ البخارى (٣) ، وهذا السياق هو المحفوظ ، وهو يقتضى أنه قد نزل الوحى قبل هذا ، لقوله : « فإذا الملك الذى جاءنى بحراء » ، وهو جبريل حين أتاه بقوله : (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك

---

(١) البخارى ، تفسير سورة المدثر : ٦/٢٠٠ — ٢٠١ .

(٢) أى : فزعت منه وخفت . ويروى : « فجئت » بالهمز مكان الثاء الأولى ، وهو بمعناه .

(٣) البخارى ، تفسير سورة المدثر : ٦/٢٠٢ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « بدء الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم » : ١/٩٩ .

الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم) . ثم إنه حصل بعد هذا فترة ، ثم نزل الملك بعد هذا . ووجه الجمع أن أول شيء نزل بعد فترة الوحى هذه السورة ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا حجاج ، حدثنا ليث ، حدثنا عُقَيل ، عن ابن شهاب قال : سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن يقول : أخبرنى جابر بن عبد الله : أنه سمع رسول — الله صلى الله عليه وسلم — يقول : « ثم فتر الوحى عنى فترة ، فبينا أنا أمشى سمعتُ صوتاً من السماء ، فرفعت بصرى قِبَلَ السماء ، فاذا الملك الذى جاءنى [بحراء الآن(١)] قاعد على كرسى بين السماء والأرض ، فَجُئِثْتُ منه فرقا ، حتى هَوَيت إلى الأرض ، فجئت أهلى فقلت لهم : زملونى زملونى . فزملونى ، فأنزل الله: (يا أيها المدثر . قم فأنذر. وربك فكبر . وثيابك فطهر. والرجز فاهجر). ثم حمى الوحى[بعدُ(١)] وتتابع(٢)» . أخرجاه من حديث الزهرى ، به (٣) .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن على بن شعيب السمسار ، حدثنا الحسن بن بِشر البَجَلى ، حدثنا المعافى بن عمران ، عن إبراهيم بن يزيد ، سمعت ابن أبى مليكة يقول : سمعت ابن عباس يقول : إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاما ، فلما أكلوا . قال : ما تقولون فى هذا الرجل ؟ فقال بعضهم : ساحر . وقال بعضهم : ليس بساحر . وقال بعضهم : كاهن . وقال بعضهم : ليس بكاهن . وقال بعضهم : شاعر . وقال بعضهم : ليس بشاعر . وقال بعضهم : سحر يؤثر . فأجمع رأيهم على أنه سحر يُؤثر . فبلغ ذلك النبى — صلى الله عليه وسلم — فحزن وقَنَعَ رأسه (٤) ، وتَدَثّر ، فأنزل الله (يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر) .

فقوله : (قم فأنذر) ، أى : شمر عن ساق العزم ، وأنذر الناس . وبهذا حصل الإرسال ، كما حصل بالأول النبوة . (وربك فكبر) أى عظم . وقوله : (وثيابك فطهر) — قال الأجلح الكندى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : أنه أتاه رجل فسأله عن هذه الآية : (وثيابك فطهر) ، قال : لا تلبسها على معصية ولا على غَدْرة . ثم قال : أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفى :

فَانى بحمد الله لاَ ثوبَ فَاجر لبستُ ،ولامن غَدْرَة أتقَنَّعَ(٥)

وقال ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس : (وثيابك فطهر) ، قال : فى كلام العرب : نَقِىّ الثياب. وفى رواية بهذا الإسناد : فطهر من الذنوب . وكذا قال إبراهيم ، والشعبى ، وعطاء .

وقال الثورى ، عن رجل (٦) ، عن عطاء ، عن ابن عباس فى هذه الآية : (وثيابك فطهر) ، قال : من الاثم . وكذا قال إبراهيم النخعى .

---

(١) ما بين القوسين عن المسند .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٣٢٥/٣ .
(٣) البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب « إذا قال أحدكم : آمين ، والملائكة فى السماء ... » : ١٤١/٤ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « بدء الوحى ... » : ٩٩/١ .
(٤) يقال : أقنع رأسه وقنعه : رفعه وشخص ببصره نحو الشيء لا يصرفه عنه . وأقنع فلان رأسه : وهو أن يرفع بصره ووجهه إلى ما حيال رأسه من السماء .
(٥) تفسير الطبرى : ٩١/٢٩ . وانظر البحر المحيط : ٣٧٨/٨ .
(٦) فى تفسير الطبرى ٩٢/٢٩ : « سفيان عن ابن جريج ، عن عطاء » .

وقال مجاهد : (وثيابك فطهر) ، قال : نفسك ، ليس ثيابه . وفى رواية عنه : (وثيابك فطهر) : عملك فأصلح . وكذا قال أبو رزين . وقال فى رواية أخرى : (وثيابك فطهر) ، أى : لست بكاهن ولا ساحر ، فأعرض عما قالوا .

وقال قتادة : (وثيابك فطهر) ، أى : طهرها من المعاصى ، وكانت العرب تسمى الرجل إذا نكث ولم يَفِ بعهد الله إنه لَمُدَنَّس الثياب ، وإذا وفى وأصلح : إنه لمطهر الثياب .

وقال عكرمة ، والضحاك : لا تلبسها على معصية .

وقال الشاعر (١) :

إذا المرءُ لم يَدْنَسْ منَ اللُّؤم عرضُه فَكُلُّ رداء يَرْتَديه جَميلُ

وقال العوفى ، عن ابن عباس : (وثيابك فطهر) : لاتك ثيابك التى تلبس من مكسب غير طائب، ويقال: لا تلبس ثيابك على معصية .

وقال محمد بن سيرين : (وثيابك فطهر) ، أى : اغسلها بالماء .

وقال ابن زيد : كان المشركون لا يتطهرون ، فأمره الله أن يتطهر وأن يطهر ثيابه .

وهذا القول اختاره ابن جرير ، وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب ، فإن العرب تطلق الثياب عليه ، كما قال امرؤ القيس (٢) :

أفاطمَ مَهلاً بعض هَذا التَدَلُّل وَإن كُنت قَد أزْمَعْت هَجْرى (٣) فأجْملى

وَإن تَكُ قَدْ سَاءتك منى خَليقَةٌ فَسُلّى ثِيابى مِن ثِيابك تَنسُلِ (٤)

وقال سعيد بن جبير : (وثيابك فطهر) : وقلبك ونيتك فطهر .

وقال محمد بن كعب القرظى ، والحسن البصرى : وخُلُقك فحسّن .

وقوله : (والرجز فاهجر) ، قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (والرجز) وهو الأصنام فاهجر (٥) . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والزهرى ، وابن زيد : إنها الأوثان .

وقال إبراهيم ، والضحاك : (والرجز فاهجر) ، أى : اترك المعصية .

وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشىء من ذلك ، كقوله : (يا أيها النبى ، اتق الله ولاتطع الكافرين والمنافقين) (٦) ، (وقال موسى لأخيه هارون : اخلفنى فى قومى ، وأصلح ، ولا تتبع سبيل المفسدين) (٧) .

---

(١) هو دكين بن رجاء ، انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة : ٦١٢/٢ .

(٢) من المعلقة ، انظر ديوانه ، ط بيروت : ٣٧ .

(٣) فى الديوان : « صرمى » .

(٤) يقول: إنه إن ساءك خلق من أخلاق ، وكرهت خصلة من خصالى ، فردى على قلبى أفارقك. والمعنى على هذا القول: استخرجى قلبى من قلبك يفارقه . والنسول : سقوط الريش والوبر والصوف والشعر .

(٥) تفسير الطبرى : ٩٣/٢٩ .

(٦) سورة الأحزاب ، آية : ١ .

(٧) سورة الأعراف ، آية : ١٤٢ .

وقوله : (ولا تمنن تستكثر) ، قال ابن عباس : لا تعط العطية تلتمس أكثر منها (١) . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، وعطاء ، وطاوس ، وأبو الأحوص ، وإبراهيم النخعي ، والضحاك ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم .

وروى عن ابن مسعود أنه قرأ : (ولا تمنن أن تستكثر) (٢) .

[وقال الحسن البصرى : لا تمنن بعملك على ربك تستكثره] (٣) . وكذا قال الربيع بن أنس ، واختاره ابن جرير .

وقال خُصَيف ، عن مجاهد فى قوله : (ولا تمنن تستكثر) ، قال : لا تضعف أن تستكثر من الخير ، قال : تمنن فى كلام العرب : تضعف (٢) .

وقال ابن زيد : لا تمنن بالنبوة على الناس ، تستكثرهم بها ، تأخذ عليه عوضا من الدنيا .

فهذه أربعة أقوال ، والأظهر القول الأول ، والله أعلم .

وقوله : (ولربك فاصبر) ، أى : اجعل صبرك على أذاهم لوجه الله عز وجل ، قاله مجاهد .

وقال إبراهيم النخعى : اصبر [على](٣) عطيتك لله تعالى .

وقوله : (فإذا نقر فى الناقور . فذلك يومئذ يوم عسير . على الكافرين غير يسير) — قال ابن عباس : ومجاهد ، والشعبى ، وزيد بن أسلم ، والحسن، وقتادة ، والضحاك، والربيع بن أنس، والسدى، وابن زيد: (الناقور): الصور ، قال مجاهد : وهو كهيئة القرن .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أسباط بن محمد ، عن مُطَرِّف ، عن عطية العوفى ، عن ابن عباس : (فاذا نقر فى الناقور) ، فقال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ، ينتظر متى يؤمر فينفخ ؟ » فقال أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » .

وهكذا رواه الإمام أحمد عن أسباط ، به (٤) . ورواه ابن جرير عن أبى كريب ، عن ابن فضيل وأسباط ، كلاهما عن مطرف ، به . ورواه من طريق أخرى ، عن العوفى ، عن ابن عباس ، به (٥) .

وقوله : (فذلك يومئذ يوم عسير) ، أى : شديد ، (على الكافرين غير يسير) ، أى : غير سهل عليهم . كما قال تعالى : (يقول الكافرون : هذا يوم عَسِر) (٦) .

وقد روينا عن زُرَارة بن أوفى — قاضى البصرة — : أنه صلى بهم الصبح ، فقرأ هذه السورة ، فلما وصل إلى قوله : (فإذا نقر فى الناقور . فذلك يومئذ يوم عسير . على الكافرين غير يسير) : شَهِقَ شهقة ، ثم خر ميتا رحمه الله (٧)

(١) فى المخطوطة : « تلتمس المن معها » . والمثبت عن الطبعات السابقة ، وتفسير الطبرى : ٢٩/ ٩٣ .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٩/ ٩٤ .
(٣) ما بين القوسين عن تفسير الطبرى : ٢٩/ ٩٥ .
(٤) تقدم حديث المسند عند تفسير آية آل عمران ١٧٣ . وخرجناه هنالك ، انظر : ٢/ ١٤٨ .
(٥) انظر تفسير الطبرى : ٢٩/ ٩٥ .
(٦) سورة القمر ، آية : ٨ .
(٧) ذكر ذلك الذهبى فى كتاب العبر ، انظر : ١/ ١٠٩ .

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى متوعدا لهذا الخبيث الذى أنعم الله عليه بنعم الدنيا ، فكفر بأنعم الله ، وبدلها كفرا ، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها ، وجعلها من قول البشر . وقد عدد الله عليه نعمه حيث قال : (ذرنى ومن خلقت وحيدا) ، أى : خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد ، ثم رزقه الله (مالا ممدودا) ، أى : واسعا كثيراً . قيل : ألف دينار . وقيل : مائة ألف دينار . وقيل : أرضا يستغلها . وقيل غير ذلك . وجعل له (بنين شهودا) ، قال مجاهد : لا يغيبون ، أى : حضورا عنده لا يسافرون فى التجارات ، بل مواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم وهم قعود عند أبيهم ، يتمتع بهم ويتملّى بهم . وكانوا — فيما ذكره السدى ، وأبو مالك ، وعاصم بن عمر بن قتادة — ثلاثة عشر ؛ وقال ابن عباس ، ومجاهد : كانوا عشرة . وهذا أبلغ فى النعمة [وهو إقامتهم (١) عنده] .

(ومهدت له تمهيداً) ، أى : مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك ، (ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيداً) ، أى : معاندا ، وهو : الكفر على نعمه بعد العلم . قال الله : (سأرهقه صعودا) ، قال الإمام أحمد :

حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، عن دراج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد ، عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « ويل : فى جهنم ، يهوى فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره ، والصَّعُود جبل من نار يصعد فيه سبعين خريفا ، ثم يهوى به كذلك فيه أبدا (٢) » .

وقد رواه الترمذى عن عبد بن حُميد ، عن الحسن بن موسى الأشيب ، به ، ثم قال : « غريب ، لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة عن دراج (٣) » كذا قال . وقد رواه ابن جرير ، عن يونس ، عن عبد الله بن وهب ، عن عمرو ابن الحارث ، عن درّاج . وفيه غرابة ونكارة (٤) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة وعلى بن عبد الرحمن — المعروف بعلان المصرى (٥) — قال : حدثنا منجاب ، أخبرنا شريك ، عن عمار الدُّهنىّ ، عن عطية العوفى ، عن أبى سعيد ، عن النبى — صلى الله عليه وسلم — : (سأرهقه صعوداً) ، قال : « هو جبل فى النار من نار يكلف أن يصعده ، فإذا وضع يده ذابت ، وإذا رفعها عادت ، وإذا وضع رجله ذابت ، وإذا رفعها عادت » .

ورواه البزار وابن جرير (٦) ، من حديث شريك ، به .

وقال قتادة ، عن ابن عباس : صعود : صخرة عظيمة يسحب عليها الكافر على وجهه .

---

(١) ما بين القوسين من الطبعات السابقة .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٣/٧٥ .
(٣) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الأنبياء ، الحديث ٣٢١٣ : ٩/٥ .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٩/٩٧ .
(٥) فى المخطوطة : « البصرى » . والمثبت عن الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٣/١/١٩٥ .
(٦) تفسير الطبرى : ٢٩/٩٧ .

وقال السدي : صعودا : صخرة ملساء في جهنم ، يكلف أن يصعدها .

وقال مجاهد : (سأرهقه صعوداً) ، أي : مشقة من العذاب . وقال قتادة : عذابا لا راحة فيه : واختاره ابن جرير .

وقوله : (إنه فكر وقدر) ، أي : إنما أرهقناه صعودا ، أي : قربناه من العذاب الشاق ؛ لبعده عن الإيمان ، لأنه فكر وقدر ، أي : تروّى ماذا يقول في القرآن حين سُئل عن القرآن ، ففكر ماذا يختلق من المقال ، (وقدر) ، أي : تروى ، (فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر) ، دعاء عليه ، (ثم نظر) ، أي : أعاد النظرة والتروى ، (ثم عبس) ، أي : قبض بين عينيه وقطب (وبسر) ، أي : كلح وكره ، ومنه قول توبة بن الحُميِّر الشاعر (١) :

وَقَدْ رَابَنِي مِنْها صُدُودٌ رَأَيْتُه وَإِعرَاضُها عَنْ حاجَتِي وبُسُورُها

وقوله : (ثم أدبر واستكبر) ، أي : صُرِف عن الحق ورجع القهقرى مستكبرا عن الانقياد للقرآن ، (فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر) ، أي : هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ويحكيه عنهم ، ولهذا قال : (إن هذا إلا قول البشر) ، أي : ليس بكلام الله .

وهذا المذكور في هذا السياق هو : الوليد بن المغيرة المخزومي ، أحد رؤساء قريش ــ لعنه الله ــ وكان من خبره في هذا ما رواه العوفي ، عن ابن عباس قال : دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة فسأله عن القرآن ، فلما أخبره خرج على قريش فقال : يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة : فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهَذْيٍ من الجنون ، وإن قوله لمن كلام الله . فلما سمع بذلك النفرُ من قريش ائتمروا فقالوا : والله لئن صبا الوليد لتصبُوَنَّ قريش . فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال : أنا والله أكفيكم شأنه . فانطلق حتى دخل عليه بيته فقال للوليد : ألم تر قومك قد جمعوا لك الصدقة ؟ فقال : ألستُ أكثرهم مالا وولدا . فقال له أبو جهل : يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه . فقال الوليد : أقد تحدث به عشيرتي ؟ ! فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ، ولا عمر ، ولا ابن أبي كبشة ، وما قوله إلا سحر يؤثر ، فأنزل الله على رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : (ذرني ومن خلقت وحيدا) إلى قوله : (لا تبقي ولا تذر) .

وقال قتادة : زعموا أنه قال : والله لقد نظرت فيما قال الرجل فإذا هو ليس بشعر ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو وما يُعلَى ، وما أشك أنه سحر . فأنزل الله : (فقتل كيف قدر) ... الآية (ثم عبس وبسر) : قبض ما بين عينيه وكلح (٢) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، أخبرنا محمد بن ثور ، عن معمر ، عن عبّاد بن منصور ، عن عكرمة : أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رق له . فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام ، فأتاه فقال : أي عم ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا . قال : لم ؟ قال : يعطونكه ، فإنك أتيت محمداً تتعرّض لما قبله . قال : قد علمت قريش أني أكثرها مالا . قال : فقل فيه قولا يعلم قومك أنك منكر لما قال ، وأنك كاره له ، قال : فماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من ذلك . والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة ، وإنه ليحطِمُ (٣) ما تحته ، وإنه ليعلو وما يعلى ،

(١) مجاز القرآن لأبي عبيدة : ٢/٢٧٥ . ولعله من القصيدة التي ذكرها ابن قتيبة في الشعر والشعراء : ٤٤٥ . وانظر تفسير الطبري : ٢٩/٩٨ .

(٢) تفسير الطبري : ٢٩/٩٨ .

(٣) في المخطوطة «وإنه أعظم » . والمثبت من تفسير الطبري والطبعات السابقة .

قال : والله لا يرضى قومك حتّى تقول فيه . قال : فدعني حتى أفكر فيه . فلما فكر قال : هذا سحر يأثُره عن غيره : فنزلت : (ذرني ومن خلقت وحيدا) [قال قتادة : خرج من بطن أمه وحيداً] (١) حتى بلغ : (تسعة عشر) (٢) .

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغير واحد نحوا من هذا . وقد زعم السدى أنهم لما اجتمعوا فى دار الندوة ليجمعوا رأيهم على قول يقولونه فيه ، قبل أن يقدَم عليهم وفودُ العرب للحج ليصدّوهم عنه ، فقال قائلون : شاعر . وقال آخرون : ساحر . وقال آخرون : كاهن . وقال آخرون : مجنون . كما قال تعالى : (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) (٣) ، كل هذا والوليد يفكر فيما يقوله فيه ، ففكر وقدر ، ونظر وعبس وبسر ، فقال : (إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر) ، قال الله — عز وجل — : (سأصليه سقر) ، أى : سأغمره فيها من جميع جهاته ؛ ثم قال : (وما أدراك ما سقر) ؟ وهذا تهويل لأمرها وتفخيم . ثم فسر ذلك بقوله : (لا تبقى ولا تذر) ، أى : تأكل لحومهم وعروقهم وعَصَبهم وجلودهم ، ثم تبدل غير ذلك ، وهم فى ذلك لا يموتون ولا يحيون ، قاله ابن بريدة وأبو سنان وغيرهما ؛

وقوله : (لواحة للبشر) ، قال مجاهد : للجلد ، وقال أبو رزين : تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل ؛ وقال زيد بن أسلم : تلوح أجسادهم عليها . وقال قتادة : (لواحة للبشر) ، أى : حراقة للجلد . وقال ابن عباس : تحرق بشرة الإنسان (٤) .

وقوله : (عليها تسعة عشر) ، أى : من مُقَدَّمى الزبانية ، عَظيم خَلْقهم ، غليظ خُلُقُهم ؛

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا ابن أبى زائدة ، أخبرنى [حارث عن](٥) عامر عن البراء فى قوله : (عليها تسعة عشر) ، قال : إن رهطا من اليهود سألوا رجلاً من أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن خزنة جهنم ، فقال : الله ورسوله أعلم . فجاء رجل فأخبر النبى — صلى الله عليه وسلم — فنزل عليه ساعتئذ : (عليها تسعة عشر) . فأخبر أصحابه وقال : « ادعهم ، أما إنى سائلهم عن تُرْبَة الجنة إن أتونى ، أما إنها دَرْمَكَة (٦) بيضاء » . فجاءوه فسألوه عن خزنة جهنم ، فأهوى بأصابع كفيه مرتين وأمسك الإبهام فى الثانية ، ثم قال : « أخبرونى عن تربة الجنة » . فقالوا : أخبرهم يا ابن سلام . فقال : كأنها خُبْزَة بيضاء . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « أما إن الخبز إنما يكون من الدَّرْمَك » ؛

هكذا وقع عند ابن أبى حاتم عن البراء ، والمشهور عن جابر بن عبد الله ، كما قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا منده ، حدثنا أحمد بن عَبْدَة ، أخبرنا سفيان ويحيى بن حكيم ، حدثنا سفيان ، عن مجالد ، عن الشعبى ، عن جابر ابن عبد الله قال : جاء رجل إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — فقال : يا محمد ، غُلِب أصحابك اليوم . فقال :

(١) ما بين القوسين المعقوفين من تفسير الطبرى ، وهو سقط نظر .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٩/٩٨ .
(٣) سورة الإسراء ، آية : ٤٨ .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٩/١٠٠ .
(٥) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة . ومكانه فى المخطوطة : « مرثب بن » . ويبدو أنه خطأ .
(٦) الدرمك : الدقيق الحوارى ، وهو الذى نخل مرة بعد أخرى .

« بأى شيء » ؟ قال : سألتهم يهودُ هل أعلمكم نبيكم عدة خزنة أهل النار ؟ قالوا : لا نعلم حتى نسأل نبينا صلى الله عليه وسلم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفغلب قوم سُئلوا عما لا يدرون فقالوا : لا ندرى حتى نسأل نبينا ؟ علىّ بأعداء الله، لكن سألوا نبيهم أن يريهم الله جهرة » . فأرسل إليهم فدعاهم قالوا: يا أبا القاسم ، كم عدة خزنة أهل النار ؟ قال : « هكذا » ، وطبق كفيه ، ثم طبق كفيه ، مرتين ، وعقد واحدة ، وقال لأصحابه : « إن سُئلتم عن تُربة الجنة فهى الدَّرمك » . فلما سألوه فأخبرهم بعدة خزنة أهل النار ، قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماتربة الجنة؟ » . فنظر بعضهم إلى بعض ، فقالوا : خبزة يا أبا القاسم . فقال : « الخبز من الدَّرمَك » .

وهكذا رواه الترمذى عند هذه الآية عن ابن أبى عمر ، عن سفيان ، به . وقال : هو والبزار : « لا نعرفه إلا من حديث مجالد » (١) . وقد رواه الإمام أحمد ، عن على بن المديني ، عن سفيان ، فقص (٢) الدرمك فقط .

﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾

يقول تعالى : (وما جعلنا أصحاب النار) ، أى : خزَّانها (إلا ملائكة) ، أى : غلاظا شدادا. وذلك رد على مشركى قريش حين ذكر عدد الخزنة ، فقال أبو جهل : يا معشر قريش ، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم ؟ فقال الله : (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) ، أى : شديدى الخَلْق لا يقاومون ولا يغالبون . وقد قيل : إن أبا الأشدين ـــ واسمه : كَلَدة بن أسيد بن خلف ـــ قال : يا معشر قريش ، اكفونى منهم اثنين وأنا أكفيكم سبعة عشر ، إعجابا منه بنفسه ، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينتزعوه من تحت قدميه ، فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه . قال السهيلى : وهو الذى دعا رسولَ الله إلى مصارعته وقال : إن صرعتنى آمنت بك . فصرعه النبى ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ مرارا ، فلم يؤمن . قال : وقد نَسَب ابنُ إسحاق خبر المصارعة إلى ركانة ابن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب (٣) .

قلت : ولا منافاة بين ما ذكراه والله أعلم .

(وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) ، أى : إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعةَ عشرَ اختباراً منّا للناس ، (ليستيقن الذين أوتوا الكتاب) ، أى : يعلمون أن هذا الرسول حق ؛ فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله .

---

(١) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة المدثر ، الحديث ٣٣٨٣ : ٩٠٪٢٤٦ – ٢٤٧ .

(٢) فى المخطوطة : « نقص الدرمك » . ولعل الصواب ما أثبتناه . وانظر مسند الإمام أحمد : ٣٦١٪٣ .

(٣) الروض الأنف للسهيلى : ٢٠٠٪١ .

(ويزداد الذين آمنوا إيمانا) ، أى : إلى إيمانهم ، أى : بما يشهدون من صدق اخبار نبيهم محمد – صلى الله عليه وسلم – (ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، وليقول الذين فى قلوبهم مرض) ، أى : من المنافقين (والكافرون : ماذا أراد الله بهذا مثلا) ؟ أى يقولون : ما الحكمة فى ذكر هذا هاهنا ؟ قال الله تعالى : (كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) ، أى : من مثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان فى قلوب أقوام ، ويتزلزل عند آخرين ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة .

وقوله : (وما يعلم جنود ربك إلا هو) ، أى : ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى ، لئلا يتوهم متوهم أنما هم تسعة عشر فقط كما قد قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة من الفلاسفة اليونانيين . ومن تابعهم من الملتين الذين سمعوا هذه الآية ، فأرادوا تنزيلها على العقول العشرة والنفوس التسعة ، التى اخترعوا دعواها وعجزوا عن إقامة الدلالة على مقتضاها ، فأفهموا صدر الآية وقد كفروا بآخرها ، وهو قوله : (وما يعلم جنود ربك إلا هو) .

وقد ثبت فى حديث الإسراء المروى فى الصحيحين وغيرهما ، عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال فى صفة البيت المعمور الذى فى السماء السابعة : « فاذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه آخرَ ما عليهم (١) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أسود ، حدثنا إسرائيل ، عن إبراهيم بن مهاجر ، عن مجاهد ، عن مورق ، عن أبى ذر قال : قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : إنى أرى مالا ترون ، وأسمع مالا تسمعون ، أطّت السماء وحُقَّ لها أن تئطّ (٢) ، مافيها موضع [أربع] أصابع إلا عليه ملك ساجد ، لو علمتم ماأعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ، ولا تلذذتم بالنساء على الفُرُشات ، ولخرجتم إلى الصُّعُدات (٣) تجأرون إلى الله عز وجل . فقال أبو ذر : والله لوددتُ أنى شجرة تُعضَد (٤) .

ورواه الترمذى وابن ماجه ، من حديث إسرائيل ، وقال الترمذى : « حسن غريب ، ويروى عن أبى ذر موقوفاً » (٥) .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا خير (٦) بن عرفة المصري ، حدثنا عروة بن مروان الرقى ، حدثنا عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الكريم بن مالك ، عن عطاء بن أبى رباح ، عن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – « ما فى السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم ، أو ملك ساجد ، أو ملك راكع ، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً : سبحانك ! ما عبدناك حقَّ عبادتك إلا أنا لم نشرك بك شيئاً » .

وقال محمد بن نصر المروزى فى « كتاب الصلاة » : حدثنا عمرو بن زرارة ، أخبرنا عبد الوهاب بن (٧) عطاء ، عن

---

(١) تقدمت أحاديث الإسراء أول سورة الإسراء ، وخرجناها هنالك ، انظر : ٥/٢ – ٤٢ . وانظر أيضاً أول سورة الطور : ٤٠٣/٧ .

(٢) تقدم تفسير غريب هذا الحديث عند الآية ١٦٥ من سورة الصافات : ٣٨/٧ .

(٣) أى : الطرق . وفى المسند : « ولخرجتم على أو إلى الصعدات » . ولفظ الترمذى كما هنا .

(٤) أى تقطع وتستأصل . انظر المسند : ١٧٣/٥ .

(٥) تحفة الأحوذى ، أبواب الزهد ، باب ما جاء فى قول النبى – صلى الله عليه وسلم – : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا » ، الحديث ٢٤١٤ : ٦٠١/٦ – ٦٠٣ . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب الحزن والبكاء ، الحديث ٤١٩٠ : ١٤٠٢/٢ .

(٦) فى المخطوطة : « حسين بن عرفة » . والمثبت عن المعجم الصغير للطبرانى : ١٦٠/١ .

(٧) فى المخطوطة : « عبد الوهاب ، عن عطاء » . والمثبت من رواية ابن أبى حاتم ، وقد تقدمت فى سورة الأنبياء : ٣٢٦/٥ . وسورة براءة : ١٦٤/٤ . وعبد الوهاب بن عطاء يروى عن سعيد بن أبى عروبة ، انظر الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٧٢/١/٣ .

سعيد ، عن قتادة ، عن صفوان بن محرز ، عن حكيم بن حزام قال : بينما رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ مع أصحابه إذ قال لهم : « هل تسمعون ما أسمع ؟ » قالوا : ما نسمع من شيء . فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « [أسمع] أطيط السماء وما تلام أن تئط ، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك راكع أو ساجد » .

وقال أيضاً : حدثنا محمد بن عبد الله بن قهزاذ ، حدثنا أبو معاذ الفضل بن خالد النحوى ، حدثنا عبيد بن سليمان الباهلي ، سمعت الضحاك بن مزاحم ، يحدث عن مسروق بن الأجدع ، عن عائشة أنها قالت : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « ما فى السماء الدنيا موضع قدم إلا عليه ملك ساجد أو قائم ، وذلك قول الملائكة : (وما منا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون (١)) » .

وهذا مرفوع غريب جداً رواه عن محمود بن آدم ، عن أبي معاوية ، عن الأعمش ، عن أبى الضحى ، عن مسروق ، عن ابن مسعود أنه قال : إن من السموات سماء ما فيها موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك أو قدماه قائماً ، ثم قرأ : (وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون) .

ثم قال : حدثنا أحمد بن سيار : حدثنا أبو جعفر بن محمد بن خالد الدمشقى المعروف بابن أمه ، حدثنا المغيرة بن عمر بن عطية من بنى عمرو بن عوف ، حدثنى سليمان بن أيوب ، عن سالم بن عوف ، حدثنى عطاء بن زيد(٢) بن مسعود من بنى الحبلى(٣) ، حدثنى سليمان بن عمرو بن الربيع ، من بنى سالم ، حدثنى عبد الرحمن بن العلاء ، من بنى ساعدة ، عن أبيه العلاء بن سعد ــ وقد شهد الفتح وما بعده ــ : أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال يوما لجلسائه : « هل تسمعون ما أسمع ؟ » : قالوا وما تسمع يارسول الله ؟ قال : « أطت السماء وحق لها أن تئط ، إنه ليس فيها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد ، وقال الملائكة : (وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون) » . وهذا إسناد غريب جداً .

ثم قال : حدثنا إسحاق بن محمد بن إسماعيل الفروى ، حدثنا عبد الملك بن قدامة ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار ، عن أبيه ، عن عبد الله بن عمر : أن عمر جاء والصلاة قائمة ، ونفر ثلاثة جلوس ، أحدهم أبو جحش الليثى ، فقال : قوموا فصلوا مع رسول الله . فقام اثنان وأبى أبو جحش أن يقوم ، وقال : لا أقوم حتى يأتى رجل هو أقوى منى ذراعين (٤) ، وأشد منى بطشاً فيصرعنى ، ثم يدس وجهى فى التراب : قال عمر : فصرعته ودسست وجهه فى التراب فأتى عثمان بن عفان فحجزنى عنه ، فخرج عمر مغضباً حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ما رأيك يأبا حفص ؟ » . فذكر له ما كان منه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إن رضى عمر رحمة (٥)] والله لوددت أنك جئتنى برأس الخبيث ، فقام عمر يوجه (٦) نحوه ، فلما أبعد ناداه فقال : « اجلس حتى أخبرك بغنى الرب ــ عز وجل ــ عن صلاة أبى جحش ، إن لله فى السماء الدنيا ملائكة خشوعاً لا يرفعون رءوسهم حتى تقوم الساعة . فإذا قامت رفعوا

(١) انظر تفسير الآية ١٦٥ من سورة الصافات ، فقد أخرجه ابن كثير عن الضحاك فى تفسيره : ٣٨/٧ .
(٢) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وفى أسد الغابة : « يزيد » .
(٣) فى المخطوطة : « من بنى الحكم » . والمثبت عن أسد الغابة ٧٦/٤ ، والطبعات السابقة من هذا التفسير .
(٤) فى المستدرك : « ذراعاً » .
(٥) ما بين القوسين عن المستدرك ، والطبعات السابقة ، وفى مخطوطة الأزهر مكانه : « إن ... » ثم بياض .
(٦) أى : يتوجه نحوه .

رءوسهم، ثم قالوا: ربنا ، ماعبدناك حق عبادتك ، وإن لله فى السماء الثانية ملائكة سجوداً لا يرفعون رءوسهم حتى تقوم الساعة ، فإذا قامت الساعة رفعوا رءوسهم ، وقالوا : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك » فقال له عمر : وما يقولون يارسول الله ؟ فقال : « أما أهل السماء الدنيا فيقولون : سبحان ذى الملك والملكوت . وأما أهل السماء الثانية فيقولون : سبحان ذى العزة والجبروت . وأما أهل السماء الثالثة فيقولون : سبحان الحى الذى لا يموت . فقلها ياعمر فى صلاتك » . فقال عمر : يارسول الله ، فكيف بالذى كنت علمتنى وأمرتنى أن أقوله فى صلاتى ؟ فقال : « قل هذا مرة وهذا مرة » ، وكان الذى أمره به أن يقوله : « أعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ برضاك من سَخَطك ، وأعوذ بك منك ، جل وجهك».

هذا حديث غريب جداً(١) ، بل منكر نكارة شديدة، وإسحاق الفَروى روى عنه البخارى، وذكره ابن حبان فى الثقات وضعفه أبو داود والنسائى والعقيلى والدارقطنى . وقال أبو حاتم الرازى : «كان صدوقاً إلا أنه ذهب بصره فربما [لقن] وكتبه صحيحة (٢) » . وقال مرة : هو مضطرب ، وشيخه عبد الملك بن قدامة أبو قتادة الجمحى: تكلم فيه أيضاً . والعجب من الإمام محمد بن نصر كيف رواه ولم يتكلم عليه ، ولا عَرّف بحاله ، ولا تعرض لضعف ، بعض رجاله ؟ ! غير أنه رواه من وجه آخر عن سعيد بن جبير مرسلا بنحوه . ومن طريق أخرى عن الحسن البصرى مرسلا ، قريباً منه ، ثم قال محمد بن نصر :

حدثنا محمد بن عبد الله بن قهزاذ أخبرنا النضر ، أخبرنا عباد بن منصور قال : سمعت عدى بن أرطاة وهو يخطبنا على منبر المدائن قال : سمعت رجلا من أصحاب النبى — صلى الله عليه وسلم — ، عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « إن لله تعالى ملائكة تُرعَد فرائصهم من خيفته ، ما منهم ملك تقطر منه دمعة من عينه إلا وقعت على ملك يصلى ، وإن منهم ملائكة سجوداً منذ خلق الله السموات والأرض لم يرفعوا رءوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة . وإن منهم ملائكة ركوعاً لم يرفعوا رءوسهم منذ خلق الله السموات والأرض ولا يرفعونها إلى يوم القيامة ، فإذا رفعوا رءوسهم نظروا إلى وجه الله — عز وجل — قالوا : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك » .

وهذا إسناد لا بأس به .

وقوله : (وما هى إلا ذكرى للبشر) ، قال مجاهد وغير واحد : (وما هى) ، أى : النار التى وصفت ، (إلا ذكرى للبشر) .

ثم قال: (كلا والقمر . والليل إذ أدبر) ، أى : ولى ، (والصبح إذا أسفر) ، أى : أشرق ، (إنها لإحدى الكبر)، أى : العظائم ، يعنى النار ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وغير واحد من السلف : (نذيراً للبشر . لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر) ، أى : لمن شاء أن يقبل النِّذارة ويهتدى للحق ، أو يتأخر عنها ويولى ويردها .

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك فى كتاب معرفة الصحابة : ٨٧/٣ ، ٨٨ ، بإسناده إلى إسحاق الفروى نحوه .
(٢) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢٣٣/١/١ .

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

يقول تعالى مخبراً أن (كل نفس بما كسبت رهينة)، أي: معتقلة بعملها يوم القيامة، قاله ابن عباس وغيره، (إلا أصحاب اليمين) فإنهم في جنات يتساءلون عن المجرمين أي يسألون المجرمين وهم في الغرفات وأولئك في الدركات قائلين لهم: (ماسلككم في سقر؟ قالوا: لم نك من المصلين. ولم نك نطعم المسكين)، أي: ما عبدنا ربنا ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا، (وكنا نخوض مع الخائضين)، أي: نتكلم فيما لا نعلم. وقال قتادة: كلما غوى غاو غوينا معه، (وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين)، يعني الموت. كقوله: (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين(١)) وقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم —: «أما هو — يعني عثمان بن مظعون — فقد جاءه اليقين من ربه (٢)».

قال الله تعالى: (فما تنفعهم شفاعة الشافعين)، أي: من كان متصفاً بهذه الصفات فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه؛ لأن الشفاعة إنما تنجع إذا كان المحل قابلا، فأما من وافى الله كافراً يوم القيامة فإنه له النار لا محالة، خالداً فيها.

ثم قال تعالى: (فما لهم عن التذكرة معرضين؟) أي: فما لهؤلاء الكفرة الذين قبلك مما تدعوهم إليه وتذكرهم به معرضين) (كأنهم حمر مستنفرة. فرت من قسورة)، أي: كأنهم في نفارهم عن الحق وإعراضهم عنه حُمُر من حمر الوحش إذا فرت ممن يريد صيدها من أسد، قاله أبو هريرة، وابن عباس — في رواية عنه — وزيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن. أو: رام، وهو رواية عن ابن عباس، وهو قول الجمهور (٣).

وقال حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن(٤) مهران، عن ابن عباس: الأسد بالعربية، ويقال له بالحبشية قسورة، وبالفارسية شير، وبالنبطية أويا.

وقوله: (بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة)، أي: بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن

---

(١) سورة الحجر، آية: ٩٩.
(٢) تقدم الحديث عند تفسير آية الحجر المتقدمة. وخرجناه هنالك، انظر: ٤/٤٧٢.
(٣) انظر تفسير الطبري: ٢٩/١٠٦ — ١٠٧.
(٤) في المخطوطة: «يوسف بن مهران». والمثبت عن تفسير الطبري: ٢٩/١٠٧. والجرح والتعديل لابن أبي حاتم: ٤/٢/٢٢٩.

ينزل عليه كتاباً كما أنزل على النبي : قاله مجاهد وغيره ، كقوله : (وإذا جاءتهم آية قالوا : لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالاته(١)) — وفى رواية عن قتادة : يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل (٢) ،

فقوله (كلا ، بل لا يخافون الآخرة) ، أى : إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها ، وتكذيبهم بوقوعها .

ثم قال تعالى : (كلا إنه تذكره) أى : حقاً إن القرآن تذكرة (فمن شاء ذكره ، وما يذكرون إلا أن يشاء الله) الله (كقوله :) وما تشاءون إلا أن يشاء الله (٣) .

وقوله : (هو أهل التقوى وأهل المغفرة) ، أى : هو أهل أن يُخاف منه ، وهو أهل أن يغفر ذنب من تاب إليه وأناب . قاله قتادة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا زيد بن الحباب ، أخبرنى سهيل — أخو حزم — حدثنا ثابت البُنانى ، عن أنس بن مالك قال : قرأ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — هذه الآية : (هو أهل التقوى وأهل المغفرة) ، وقال : قال ربكم : أنا أهل أن أتقى ، فلا يجعل معى إله ، فمن اتقى أن يجعل معى إلهاً كان أهلاً أن أغفر له (٤) .

ورواه الترمذى وابن ماجه من حديث زيد بن الحباب ، والنسائى من حديث المعافى بن عمران ، كلاهما عن سُهيل بن عبد الله القُطَعى ، به . وقال الترمذى : « حسن غريب ، وسهيل ليس بالقوى(٥) . ورواه ابن أبى حاتم عن أبيه ، عن هُدبَة بن خالد ، عن سُهَيل ، به . وهكذا رواه أبو يعلى والبَزار والبَغَوى ، وغيرهم ، من حديث سُهَيل القُطَعى ، به .

آخر تفسير سورة المدثر ولله الحمد والمنة

(١) سورة الأنعام ، آية : ١٢٤ . و(رسالاته) هكذا فى مخطوطة الأزهر ، وقد نبهنا عليها فى موضعها من هذا التفسير ، انظر : ٣/٣٢٤ .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٩/١٠٧ .
(٣) سورة الإنسان ، آية : ٣٠ ، والتكوير ، آية : ٢٩ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٣/١٤٢ وانظر : ٣/٢٤٣ .
(٥) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة المدثر ، الحديث ٣٣٨٤ : ٩/٢٤٧ — ٢٤٨ . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب وما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ، الحديث ٤٢٩٩ : ٢/١٤٣٧ .

تفسير سورة القيامة

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ
عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤) بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ (٥) يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ
الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠)
كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ
الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (١٥)

قد تقدم غير مرة أن المقسم عليه متى كان منتفياً ، جاز الإتيان بلا قبل القسم لتأكيد النفي . والمقسوم عليه هاهنا هو إثبات المعاد ، والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بعث الأجساد ، ولهذا قال تعالى : (لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة) — قال الحسن : أقسم بيوم القيامة ولم يقسم بالنفس اللوامة (١) . وقال قتادة : بل أقسم بهما جميعاً. هكذا حكاه ابن أبي حاتم. وقد حكى ابن جرير ، عن الحسن والأعرج أنهما قرآ: (لأقسم)(٢) وهذا يوجه قول الحسن؛ لأنه اثبت القسم بيوم القيامة ونفى القسم بالنفس اللوامة. والصحيح أنه أقسم بهما جميعاً كما قاله قتادة رحمه الله، وهو المروى عن ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، واختاره ابن جرير .

فأما يوم القيامة فمعروف ، وأما النفس اللوامة فقال قرة بن خالد ، عن الحسن البصرى فى هذه الآية: إن المؤمن— والله— ما نراه إلا يلوم نفسه : ما أردت بكلمتى ؟ ما أردت بأكلتى ؟ ما أردت بحديث نفسى ؟ وإن الفاجر يمضى قدُماً قدُماً ما يعاتب نفسه .

وقال جويبر : بلغنا عن الحسن أنه قال فى قوله : (ولا أقسم بالنفس اللوامه) ، قال : ليس أحد من أهل السموات والأرض إلا يلوم نفسه يوم القيامة .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن صالح بن مسلم، عن إسرائيل، عن سماك : أنه سأل عكرمة عن قوله : (ولا أقسم بالنفس اللوامة) ، قال : يلوم على الخير والشر : لو فعلت كذا وكذا .

---

(١) أخرج الطبرى هذا الأثر عن الحسن ، انظر : ٢٩/١٠٩ .

(٢) فى المخطوطة : « لا أقسم » . وهو خطأ . وقد ثبت على هامشها فى هذا الموضع : (لعله ولا أقسم بالنفس) على أحد الوجهين عن ابن كثير . » هذا وانظر القراءات فى المحتسب لابن جنى : ٢/٣٤١ . وتفسير الطبرى : ٢٩/١٠٨ — ١١٠ . وتفسير القرطبى : ١٩/٩٢ . والبحر المحيط : ٨/٢٦٢ .

ورواه ابن جرير ، عن أبي كُرَيب ، عن وكيع عن إسرائيل به(١) .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا مؤمل ، حدثنا سفيان ، عن ابن جُرَيج ، عن الحسن بن مسلم ، عن سعيد بن جبير في : (ولا أقسم بالنفس اللوامة) ، قال : تلوم على الخير والشر(١) .

ثم رواه من وجه آخر عن سعيد أنه سأل ابن عباس عن ذلك : فقال : هي النفس اللئوم(١) .

وقال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد : تندم على ما فات وتلوم عليه .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : اللوامة : المذمومة .

وقال قتادة : (اللوامة) : الفاجرة .

قال ابن جرير : وكل هذه الأقوال متقاربة بالمعنى ، والأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر ، وتندم على ما فات .

وقوله : (أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ؟) ، أي : يوم القيامة ، أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه وجمعها من أماكنها المتفرقة ؟ (بلى ، قادرين على أن نسوى بنانه) — قال سعيد بن جُبَير والعَوفي ، عن ابن عباس : أن نجعله خفا أو حافراً (٢) . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، وابن جرير . ووجَّهه ابنُ جرير بأنه تعالى لو شاء لجعل ذلك في الدنيا .

والظاهر من الآية أن قوله (قادرين) حال من قوله : (نجمع) ، أي: أيظن الإنسان أنا لا نجمع عظامه ؟ بلى سنجمعها قادرين على أن نُسَوِّى بنانه ، أي : قدرتنا صالحة لجمعها ، ولو شئنا لبعثناه أزيد مما كان ، فنجعل بنانه — وهي أطراف أصابعه — مستوية . وهذا معنى قول ابن قتيبة ، والزجاج .

وقوله : (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه) — قال سعيد ، عن ابن عباس : يعني يمضي قدما .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : (ليفجر أمامه) يعني الأمل ، يقول الإنسان : أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة ، ويقال : هو الكفر بالحق بين يدى القيامة (٣) .

وقال مجاهد : (ليفجر أمامه) : يمضي أمامه راكبا رأسه . وقال الحسن : لا يلقى ابنُ آدم إلا تنزع نفسه إلى معصية الله قُدُماً قُدُماً ، إلا من عصمه (٣) الله .

ورُوِى عن عكرمة ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، والسدى ، وغير واحد من السلف : هو الذي يُعجِّل الذنوبَ ويُسوِّف التوبة .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : هو الكافر يكذب بيوم الحساب . وكذا قال ابن زيد ، وهذا هو الأظهر من المراد ، ولهذا قال بعده : (يسأل أيان يوم القيامة ؟) ، أي : يقول متى يكون يوم القيامة ؟ وإنما سؤاله سؤال استبعاد لوقوعه وتكذيب لوجوده ، كما قال تعالى : (ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . قل : لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون (٤)) .

---

(١) تفسير الطبرى : ٢٩/١٠٩ .
(٢) في المخطوطة : « أو حائطا » . والمثبت من تفسير الطبرى : ٢٩/١١٠ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٩/١١١ .
(٤) سورة سبأ ، آية : ٢٩ — ٣٠ .

وقال تعالى هاهنا : (فاذا برق البصر) ــ قال أبو عمرو بن العلاء : (بَرِق) ــ بكسر الراء ــ أى : حار (١) . وهذا الذى قاله شبيه بقوله تعالى : (لا يرتد إليهم طرفهم) (٢) ، بل ينظرون من الفزع هكذا وهكذا ، لا يستقر لهم بصر على شيء ؛ من شدة الرعب .

وقرأ آخرون : (بَرَق) بالفتح ، وهو قريب فى المعنى من الأول . والمقصود أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخشع وتحار وتذل من شدة الأهوال ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من الأمور .

وقوله : (وخسف القمر) ، أى : ذهب ضوؤه ، (وجمع الشمس والقمر) ــ قال مجاهد : كُوِّرا . وقرأ ابن زيد عند تفسير هذه الآية : (إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت) . ورُوِى عن ابن مسعود أنه قرأ : (وجُمِع بين الشمس والقمر) (٣) .

وقوله : (يقول الإنسان يومئذ : أين المفر) ، أى : إذا عاين ابنُ آدمَ هذه الأهوال يوم القيامة حينئذ [يريد أن](٤) يفر ويقول : أين المفر ؟ أى : هل من ملجأ أو موئل ؟ قال الله تعالى : (كلا ، لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر) ــ قال ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وغير واحد ، من السلف : أى لا نجاة .

وهذه كقوله : (مالكم من ملجأ يومئذ ومالكم من نكير) (٥) ، أى : ليس لكم مكان (تتنكرون فيه ، وكذا قال هاهنا : (لا وَزَر) ، أى : ليس لكم مكان (٤)] تعتصمون فيه . ولهذا قال : (إلى ربك يومئذ المستقر) ، أى : المرجع والمصير .

ثم قال تعالى : (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) ، أى : يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها ، أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها ، كما قال تعالى : (ووجدوا ما عملوا حاضراً ، ولا يظلم ربك أحداً)(٤) . وهكذا قال هاهنا : (بل الإنسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره) ، أى : هو شهيد على نفسه ، عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر ، كما قال تعالى : (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) (٦) .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (بل الإنسان على نفسه بصيرة) ، يقول : سمعُه وبصرُه ويداه ورجلاه (٧) وجوارحُه .

وقال قتادة : شاهد على نفسه . وفى رواية قال : إذا شئت ــ والله ــ رأيته بصيرا بعيوب الناس وذنوبهم غافلا عن ذنوبه ، وكان يقال : إن فى الانجيل مكتوبا : يا ابن آدم ، تُبصر القَذَاة فى عين أخيك ، وتترك الجِذْل (٨) فى عينك لا تبصره (٩) .

---

(١) تفسير الطبرى : ١١٢/٢٩ .
(٢) سورة إبراهيم ، آية : ٤٣ .
(٣) تفسير الطبرى : ١١٣/٢٩ .
(٤) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة .
(٥) سورة الشورى ، آية : ٤٧ .
(٦) سورة الإسراء ، آية : ١٤ .
(٧) فى المخطوطة : «ويديه ورجليه» . والمثبت عن تفسير الطبرى : ١١٥/٢٩ .
(٨) فى المخطوطة : «وتترك الجذع» . والمثبت عن تفسير الطبرى . وفى النهاية لابن الأثير ــ وقد ذكر الأثر ــ : «والجذل ــ بالكسر والفتح ــ : أصل الشجرة يقطع ، وقد يجعل العود جذلا» .
(٩) تفسير الطبرى : ١١٥/٢٩ .

وقال مجاهد : (ولو ألقى معاذيره) : ولو جادل عنها فهو بصير عليها . وقال قتادة : (ولو ألقى معاذيره) : ولو اعتذر يومئذ بباطل لا يقبل منه . وقال السدى : (ولو ألقى معاذيره) : حجته . وكذا قال ابن زيد ، والحسن البصري ، وغيرهم . واختاره ابن جرير .

وقال قتادة ، عن زرارة ، عن ابن عباس : (ولو ألقى معاذيره) ، يقول : لو ألقى ثيابه (١) .

وقال الضحاك : ولو أرخى ستوره ، وأهل اليمن يسمون الستر : المعذار (٢) .

والصحيح قول مجاهد وأصحابه ، كقوله : (ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين (٣)) ، وكقوله : (يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ، ويحسبون أنهم على شيء ، ألا إنهم هم الكاذبون (٤)) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : (ولو ألقى معاذيره) ، هي : الاعتذار ، ألم تسمع أنه قال : (لا ينفع الظالمين معذرتهم) ، وقال : (وألقوا إلى الله يومئذ السلم) ، (فألقوا السلم (٥) ما كنا نعمل من سوء) وقولهم : (والله ربنا ما كنا مشركين) .

لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾

هذا تعليم من الله — عز وجل — لرسوله — صلى الله عليه وسلم — في كيفية تلقيه الوحي من الملك ، فانه كان يبادر إلى أخذه ويسابق الملك في قراءته ، فأمره الله — عز وجل — إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له ، وتكفل له أن يجمعه في صدره ، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه ، وأن يبينه له ويفسره ويوضحه . فالحالة الأولى جمعه في صدره ، والثانية تلاوته ، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه . ولهذا قال : (لا تحرك به لسانك لتعجل به) ، أي : بالقرآن ، كما قال : (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ، وقل : رب زدني علما (٦)) .

ثم قال : (إن علينا جمعه) ، أي : في صدرك ، (وقرآنه) ، أي : أن تقرأه ، (فاذا قرأناه) ، أي : إذا تلاه عليك الملك عن الله عز وجل (فاتبع قرآنه) ، أي : فاستمع له ثم اقرأه كما أقرأك ، (ثم إن علينا بيانه) ، أي : بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه ، ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، عن أبي عوانة ، عن موسى بن أبي عائشة ، عن سعيد بن جبير ، عن

---

(١) في المخطوطة : « لو ألقى بهتانه » . والمثبت عن الطبعات السابقة ، والأثر — كما في تفسير الطبري ٢٩/١١٦ — : « ولو تجرد » .

(٢) انظر البحر المحيط لأبي حيان : ٨/٣٨٧ .

(٣) سورة الأنعام ، آية : ٢٣ .

(٤) سورة المجادلة ، آية : ١٨ .

(٥) في المخطوطة وتفسير الطبري ٢٩/١١٦ : « وألقوا إلى الله يومئذ السلم ما كنا نعمل » . وهما آيتان لا آية واحدة ، أما الأولى فمن سورة النحل : ٨٧ . والثانية من السورة نفسها : ٢٨ . ولعله سقط نظر .

(٦) سورة طه ، آية : ١١٤ .

ابن عباس قال : كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يعالج من التنزيل شدة ، فكان يحرك شفتيه ، ــ قال : فقال لى ابن عباس : أنا أحرك شفتى كما كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يحرك شفتيه . وقال لى سعيد : وأنا أحرك شفتى كما رأيت ابن عباس يحرك شفتيه ــ فأنزل الله عز وجل : (لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه) ، قال : جمعه فى صدرك ، ثم تقرأه ، (فإذا قرأناه فاتبع قرآنه) : فاستمع له وأنصت ، (ثم إن علينا بيانه) . فكان بعد ذلك إذا انطلق جبريل قرأه كما أقرأه (١) .

وقد رواه البخارى ومسلم ، من غير وجه ، عن موسى بن أبى عائشة ، به . ولفظ البخارى : فكان إذا أتاه جبريل أطرق ، فاذا ذهب قرأه كما وعده الله عزوجل (٢) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو يحيى التيمى ، حدثنا موسى بن أبى عائشة ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إذا نزل عليه الوحى يلقى منه شدة ، وكان إذا نزل عليه عُرف فى تحريكه شفتيه ، يتلقى أوله ويحرك شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره ، فأنزل الله : (لا تحرك به لسانك لتعجل به) .

وهكذا قال الشعبى ، والحسن البصرى ، وقتادة ، ومجاهد ، والضحاك ، وغير واحد : إن هذه الآية نزلت فى ذلك .

وقد روى ابن جرير من طريق العوفى ، عن ابن عباس : (لا تحرك به لسانك لتعجل به) ، قال : كان لا يفتر من القراءة (٣) مخافة أن ينساه ، فقال الله : (لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا) أن نجمعه لك ، (وقرآنه) ، أن نقرئك فلا تنسى (٤) .

وقال ابن عباس وعطية العوفى : (ثم إن علينا بيانه) : تبيين حلاله وحرامه . وكذا قال قتادة .

وقوله : (كلا ، بل تحبون العاجلة . وتذرون الآخرة) ، أى : إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزله الله ــ عز وجل ــ على رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من الوحى الحق والقرآن العظيم : أنهم إنما همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة ، وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة .

ثم قال تعالى : (وجوه يومئذ ناضرة) ، من النضارة ، أى : حسنة بهية مشرقة مسرورة ، (إلى ربها ناظرة) ، أى : تراه عيانا ، كما رواه البخارى رحمه الله فى صحيحه : « إنكم سترون ربكم عيانا (٥) » . وقد ثبتت رؤية المؤمنين الله ــ عز وجل ــ فى الدار الآخرة [فى] الأحاديث الصحاح ، من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ولا منعها ؛ لحديث أبى سعيد وأبى هريرة ــ وهما فى الصحيحين ــ : أن ناسا قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١/٣٤٣ .

(٢) البخارى ، تفسير سورة القيامة : ٦/٢٠٣ . وانظر فيما تقدم تفسير آية طه ج٤ : ١١٤ : ٥/٣١٣ ، فقد خرجنا الحديث هنالك عن الصحيحين .

(٣) فى تفسير الطبرى : « من القرآن » .

(٤) تفسير الطبرى : ٢٩/١١٧ .

(٥) البخارى ، كتاب التوحيد : ٩/١٥٦ .

فقال : « هل تضارون فى رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب ؟ » قالوا : لا . قال : « فانكم تَرَوْنَ ربكم كذلك (١) » وفى الصحيحين عن جرير قال : نظر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى القمر ليلة البدر فقال : « إنكم ترَوْن ربكم كما ترَوْن هذا القمر ، فان استطعتم أن لا تُغلَبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا (١) » وفى الصحيحين عن أبى موسى قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، ومابين القوم وبين أن ينظروا إلى الله إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن (٢) » ؛ وفى أفراد مسلم ، عن صهيب ، عن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : « إذا دخل أهلُ الجنة الجنة قال : يقول الله تعالى : تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تُبَيّض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئا أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم ، وهى الزيادة » . ثم تلا هذه الآية : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) (٣) .

وفى إفراد مسلم ، عن جابر فى حديثه : « إن الله يتَجلّى للمؤمنين يضحك (٤) » — يعنى فى عرصات القيامة — ففى هذه الأحاديث أن المؤمنين ينظرون إلى ربهم — عز وجل — فى العرصات ، وفى روضات الجنات .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا عبد الملك بن أبجر ، حدثنا ثُوَيْر بن أبى فاخته ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر فى ملكه ألفى سنة ، يرى أقصاه كما يرى أدناه ، ينظر إلى أزواجه وخدمه . وإن أفضلهم منزلة لينظر فى وجه الله كل يوم مرتين (٥) » .

ورواه الترمذى عن عبد بن حميد ، عن شبابة ، عن إسرائيل ، عن ثُوَيْر قال : « سمعت ابن عمر ... » . فذكره ، قال : « ورواه عبد الملك بن أبجر ، عن ثُوَيْر ، عن مجاهد ، عن ابن عمر ، قوله » . وكذلك رواه الثورى ، عن ثُوَيْر ، عن مجاهد ، عن ابن عمر ، ولم يرفعه (٦) . ولو لا خشية الإطالة لأوردنا الأحاديث بطرقها وألفاظها من الصحاح والحسان والمسانيد والسنن ، ولكن ذكرنا ذلك مفرقا فى مواضعَ من هذا التفسير ، وبالله التوفيق . وهذا بحمد الله مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة ، كما هو متفق عليه بين أئمة الإسلام . وهُداة الأنام .

ومن تأول ذلك بأن المراد بـ (إلى) مفرد الآلاء ، وهى النعم ، — كما قال الثورى ، عن منصور ، عن مجاهد : (إلى ربها ناظرة) ، فقال : تنتظر الثواب من ربها . رواه ابن جرير — من غير وجه — عن مجاهد . (٧) وكذا قال أبو صالح أيضا — فقد أبعد هذا القائل النجعة ، وأبطل فيما ذهب إليه . وأين هو من قوله تعالى : (كلا إنهم عن ربهم

---

(١) البخارى ، الكتاب المتقدم . ١٥٦/٩ — ١٥٨ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « معرفة طريق الرؤية » : ١١٢/١ — ١١٥ .

(٢) البخارى ، الكتاب المتقدم : ١٦٢/٩ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة ربهم سبحانه وتعالى » : ١١٢/١ .

(٣) مسلم ، فى الكتاب والباب المتقدمين : ١١٢/١ . وانظر تفسير الآية السادسة والعشرين من سورة يونس : ١٩٩/٤ .

(٤) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « أدنى أهل الجنة منزلة » : ١٢٢/١ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ١٣/٢ .

(٦) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة القيامة ، الحديث ٣٣٨٦ : ٢٤٩/٩ — ٢٥٠ .

(٧) تفسير الطبرى : ١٢٠/٢٩ .

يومئذ لمحجوبون ؟ (١)) قال الشافعي: رحمه الله : ما حَجَبَ الفجار إلا وقد علِم أن الأبرار يرونه عز وجل . ثم قد تواترت الأخبار عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بما دل عليه سياق الآية الكريمة ، وهى قوله : (إلى ربها ناظرة) قال ابن جرير حدثنا محمد بن إسماعيل البخارى ، حدثنا آدم ، حدثنا المبارك ، عن الحسن : « (وجوه يومئذ ناضرة) ، قال : حسنة ، (إلى ربها ناظرة) ، قال : تنظر إلى الخالق ، وحُقّ لها أن تَنضُر وهى تنظر إلى الخالق (٢) .

وقوله : (ووجوه يومئذ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة) : هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة . قال قتادة : كالحة . وقال السدى : تغير ألوانها . وقال ابن زيد (باسرة) ، أى : عابسة .

(تظن) ، أى : تستيقن (أن يفعل بها فاقرة) ، قال مجاهد : داهية . وقال قتادة : شر . وقال السدى : تستيقن أنها هالكة . وقال ابن زيد : تظن أن ستدخل النار .

وهذا المقام كقوله : (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه (٣)) ، وكقوله : (وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة . ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها قترة . أولئك هم الكفرة الفجرة (٤)) . وكقوله : (وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة . تصلى نارا حامية) إلى قوله : (وجوه يومئذ ناعمة . لسعيها راضية . فى جنة عالية (٥)) ، فى أشباه ذلك من الآيات والسياقات .

كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

يخبر تعالى عن حالة الاحتضار وما عنده من الأهوال — ثبتنا الله هناك بالقول الثابت — فقال تعالى : (كلا إذا بلغت التراقى) ، إن جعلنا (كلا) رادعة فعناها : لست يا ابن آدم تكذب هناك بما أخبرت به ، بل صار ذلك عندك عيانا . وإن جعلناها بمعنى (حقا) فظاهر ، أى : حقا إذا بلغت التراقى ، أى : انتزعت روحك من جسدك وبلغت تراقيك . والتراقى : جمع ترقوة ، وهى العظام التى بين ثغرة النحر والعاتق ، كقوله : (فلولا إذا بلغت الحلقوم . وأنتم حينئذ تنظرون . ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون . فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها إن كنتم صادقين (٦)) .

---

(١) سورة المطففين ، آية : ١٥ .
(٢) تفسير الطبرى : ٢٩/١١٩ — ١٢٠ .
(٣) سورة آل عمران ، آية : ١٠٦ .
(٤) سورة عبس ، الآيات : ٣٨ — ٤٢ .
(٥) سورة الغاشية ، الآيات : ٢ — ١٠ .
(٦) سورة الواقعة ، الآيات : ٨٣ — ٨٧ .

وهكذا قال هاهنا : (كلا إذا بلغت التراقى) ، ويذكر هاهنا حديث بُسْر بن جِحَاش (١) الذى تقدم فى سورة « يس » ، والتراقى : جمع ترقوة وهى قريبة من الحلقوم .

(وقيل : من راق ؟) قال : عكرمة ، عن ابن عباس : أى مَن راق يرق ؟ وكذا قال أبو قلابة : (وقيل من راق) ، أى : من طبيب شاف . وكذا قال قتادة ، والضحاك ، وابن زيد (٢) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا نصر بن على ، حدثنا روح بن المسيب أبو رجاء الكلبى ، حدثنا عمرو ابن مالك ، عن أبى الجوزاء ، عن ابن عباس : (وقيل : من راق) ، قال : قيل : من يرقى بروحه ملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب (٣) ؟ فعلى هذا يكون من كلام الملائكة .

وبهذا الإسناد ، عن ابن عباس فى قوله : (والتفت الساق بالساق) ، (قال : التفت عليه الدنيا والآخرة ؛ وكذا قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (والتفت الساق بالساق) ، يقول : آخر يوم من أيام الدنيا ، وأول يوم من أيام الآخرة ، فتلتقى الشدة بالشدة إلا من رحم الله (٤) .

وقال عكرمة : (والتفت الساق بالساق) : الأمر العظيم بالأمر العظيم . وقال مجاهد : بلاء ببلاء : وقال الحسن البصرى فى قوله : (والتفت الساق بالساق) : هما ساقاك إذا التفتا . وفى رواية عنه : ماتت رجلاه فلم تحملاه ، وقد كان عليهما جوالا (٥) . وكذا قال السدى ، عن أبى مالك .

وفى رواية عن الحسن : هو لفهما فى الكفن .

وقال الضحاك : (والتفت الساق بالساق) ، اجتمع عليه أمران : الناس يجهزون جسده ، والملائكة يجهزون روحه .

وقوله : (إلى ربك يومئذ المساق) ، أى : المرجع والمآب ، وذلك أن الروح ترفع إلى السموات ، فيقول الله — عز وجل — : ردّوا عبدى إلى الأرض ، فإنى منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى . كما ورد فى حديث البراء الطويل (٦) . وقد قال الله تعالى : (وهو القاهر فوق عباده ، ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون . ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين (٧)) .

وقوله : (فلا صدق ولا صلى . ولكن كذب ، وتولى) : هذا إخبار عن الكافر الذى كان فى الدار الدنيا مكذبا للحق بقلبه ، متوليا عن العمل بقالبه ، فلا خير فيه باطنا ولا ظاهرا ، ولهذا قال : (فلا صدق ولا صلى ، . ولكن كذب وتولى . ثم ذهب إلى أهله يتمطى) ، أى : جذلاً أشرا بطرا كسلانا ، لا همة له ولا عمل ، كما قال : (وإذا انقلبوا

---

(١) فى المخطوطة : « بسر بن حجاج » . انظر تفسير سورة « يس » : ٦/٥٨٠ .
(٢) انظر تفسير الطبرى : ٢٩/١٢١ .
(٣) أخرجه الطبرى ، من طريق عمرو بن مالك النكرى ، به ، انظر : ٢٩/١٢١ .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٩/١٢٢ .
(٥) تفسير الطبرى : ٢٩/١٢٣ .
(٦) تقدم حديث البراء بن عازب ، عند تفسير الآية الأربعين من سورة الأعراف ، انظر : ٣/٤٠٧ — ٤١٠ .
(٧) سورة الأنعام ، آية : ٦١ — ٦٢ .

إلى أهلهم انقلبوا فكهين) (١) ، وقال : (إنه كان فى أهله مسرورا . إنه ظن أن لن يحور) ، أى : يرجع ، (بلى إن ربه كان به بصيرا) (٢) .

وقال الضحاك ، عن ابن عباس : (ثم ذهب إلى أهله يتمطى) : يختال . وقال قتادة ، وزيد بن أسلم : يتبختر .

قال الله تعالى : (أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى) : وهذا تهديد ووعيد أكيد منه تعالى للكافر به المتبختر فى مشيته ، أى : يحق لك أن تمشى هكذا وقد كفرت بخالقك وبارئك ، كما يقال فى مثل هذا على سبيل التهكم والتهديد ، كقوله : (ذق إنك أنت العزيز الكريم) (٣) ، وكقوله : (كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون) (٤) ، وكقوله : (فاعبدوا ما شئتم من دونه) (٥) ، وكقوله : (اعملوا ما شئتم) (٦) . إلى غير ذلك .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطى ، حدثنا عبد الرحمن ــ يعنى ابن مهدى ــ عن إسرائيل عن موسى بن أبى عائشة قال : سألت سعيد بن جبير قلت : (أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى) ؟ قال : قال النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ لأبى جهل ، ثم نزل به القرآن .

وقال أبو عبد الرحمن النسائى : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا أبو النعمان ، حدثنا أبو عوانة ــ (ح) وحدثنا أبو داود : حدثنا محمد بن سليمان ، حدثنا أبو عوانة ــ عن موسى بن أبى عائشة ، عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : (أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى) ؟ قال : قاله رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ثم أنزله الله عز وجل .

قال ابن أبى حاتم : وحدثنا أبى حدثنا ، هشام بن خالد ، حدثنا شعيب بن إسحاق ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : (أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى) ، وعيد على أثر وعيد ، كما تسمعون ، وزعموا أن عدوّ الله أبا جهل أخذ نبىّ الله بمجامع ثيابه ، ثم قال : « أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى » . فقال عدو الله أبو جهل: أتوعدنى يا محمد ؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئا ، وإنى لأعز من مشى بين جبليها .

وقوله : (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) ، قال السدى : يعنى لا يبعث .

وقال مجاهد ، والشافعى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى لا يؤمر ولا ينهى :

والظاهر أن الآية تعم الحالين ، أى : ليس يترك فى هذه الدنيا مهملا لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك فى قبره سدى لا يبعث ، بل هو مأمور منهى فى الدنيا ، محشور إلى الله فى الدار الآخرة. والمقصود هنا إثبات المعاد ، والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد ، ولهذا قال مستدلا على الإعادة بالبداءة فقال : (ألم يك نطفة من منى يمنى) ؟ أى : أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين ، يمنى يراق من الأصلاب فى الأرحام . (ثم كان علقة فخلق فسوى) ،

(١) سورة المطففين ، آية : ٣٤ .
(٢) سورة الانشقاق ، آية : ١٣ ــ ١٥ .
(٣) سورة الدخان ، آية : ٤٩ .
(٤) سورة المرسلات ، آية : ٤٦ .
(٥) سورة الزمر ، آية : ١٥ .
(٦) سورة فصلت ، آية : ٤٠ .

أى : فصا علقة ، ثم مضغة ، ثم شُكّل ونفخ فيه الروح ، فصار خلقا آخر سَوِياً سليم الأعضاء ، ذكرا أو أنثى باذن الله وتقديره . ولهذا قال : (فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى) .

ثم قال : (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) ، أى : أما هذا الذى أنشأ هذا الخلق السوى من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده كما بدأه ؟ وتناولُ القدرة للإعادة إما بطريق الأولى بالنسبة إلى البداءة ، وإما مساوية على القولين فى قوله : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه (١)) . والأول أشهر كما تقدم فى « سورة الروم » بيانه وتقريره ، والله أعلم(٢) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا شبابة ، عن شعبة ، عن موسى بن أبى عائشة ، عن آخر : أنه كان فوق سطح يقرأ ويرفع صوته بالقرآن، فاذا قرأ : (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟) قال : سبحانك اللهم فبلى . فسئل عن ذلك فقال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول ذلك .

وقال أبو داود رحمه الله : حدثنا محمد بن المثنى ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن موسى بن أبى عائشة قال : كان رجل يصلى فوق بيته ، فكان إذا قرأ : (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟) . قال : سبحانك ، فبلى (٣) فسألوه عن ذلك فقال : سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) .

تفرد به أبو داود ، ولم يسم هذا الصحابى ، ولا يضر ذلك .

وقال أبو داود أيضا : حدثنا عبد الله بن محمد الزهرى ، حدثنا سفيان ، حدثنى إسماعيل بن أمية : سمعت أعرابيا يقول : سمعت أبا هُرَيرة يقول : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « من قرأ منكم بالتين والزيتون فانتهى إلى آخرها : (أليس الله بأحكم الحاكمين ؟) فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين . ومن قرأ : (لا أقسم بيوم القيامة) فانتهى إلى : (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟) فليقل : بلى . ومن قرأ : (والمرسلات) فبلغ : (فبأى حديث بعده يؤمنون ؟)فليقل : آمنا بالله (٥) » .

ورواه أحمد ، عن سفيان بن عيينة . ورواه الترمذى عن ابن أبى عمر ، عن سفيان بن عيينة (٦) . وقد رواه شعبة ، عن إسماعيل بن أمية قال : قلت له : من حدثك ؟ قال رجل صدق ، عن أبى هريرة .

وقال ابن جرير حدثنا بشر ، حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) : ذُكِرَ لنا أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان إذا قرأها قال : « سبحانك وبلى (٧) » .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطى ، حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، حدثنا سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن مسلم البطين ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس أنه مر بهذه الآية : (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟) ، قال : سبحانك ؛ فبلى .

[آخر تفسير سورة القيامة ولله الحمد والمنة]

---

(١) سورة الروم ، آية : ٢٧ .
(٢) انظر : ٣١٨/٦ .
(٣) فى سنن أبى داود : « فبكى » . والصواب ما هنا ، انظر الأحاديث التالية .
(٤) سنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « الدعاء فى الصلاة » .
(٥) سنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « مقدار الركوع والسجود » .
(٦) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة التين ، الحديث ٣٤٠٥ : ٢٧٦/٩ .
(٧) تفسير الطبرى : ١٢٥/٢٩ .

تفسير سورة الانسان

وهى مكيـة

قد تقدّم في صحيح مسلم ، عن ابن عباس : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان يقرأ فى صلاة الصبح يومَ الجمعة (الم . تنزيل) السجدة ، و (هل أتى على الإنسان ؟ (١)) .

وقال عبد الله بن وهب ، أخبرنا ابن زيد : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قرأ هذه السورة : (هل أتى على الإنسان حين من الدهر) ، وقد أنزلت عليه وعنده رجل أسود ، فلما بلغ صفة الجنان ، زفر زفرة فخرجت نفسه . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « أخرج نفس صاحبكم — أو قال : أخيكم — الشوق إلى الجنة » . مرسل غريب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾

يقول تعالى مخبرا عن الإنسان أنه اوجده بعد ان لم يكن شيئا يذكر ، لحقارته وضعفه ، فقال : (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ؟) .

ثم بين ذلك فقال : (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) ، أى : أخلاط . والمشج والمشيج : الشىء الخليط ، بعضه فى بعض .

قال ابن عباس فى قوله : (من نطفة أمشاج) ، يعنى : ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا ، ثم ينتقل بعدُ من طور إلى طور وحال إلى حال ولون إلى لون . وهكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والحسن ، والربيع بن أنس : الأمشاج هو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة (٢) .

وقوله : (نبتليه) ، أى : نختبره ، كقوله : (ليبلوكم أيكم أحسن عملا (٣)) . (فجعلناه سمعا بصيراً) ، أى : جعلنا له سمعا وبصرا يتمكن بهما من الطاعة والمعصية .

وقوله : (إنا هديناه السبيل) ، أى : بيناه له ووضحناه وبصرناه به ، كقوله : (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا

---

(١) تقدم الحديث أول تفسير سورة السجدة ، عن أبى هريرة وخرجناه هنالك ، انظر : ٦/٢٦١ . وانظر الحديث عن ابن عباس فى صحيح مسلم ، كتاب الجمعة ، باب « ما يقرأ فى يوم الجمعة » : ٣/١٦ .

(٢) انظر تفسير الطبرى : ٢٩/١٢٦ .

(٣) سورة الملك ، آية : ٢ .

العمى على الهدى (١)) ؛ وكقوله . (وهديناه النجدين (٢)) ، أى : بينا له طريق الخير وطريق الشر . وهذا قول عكرمة ، وعطية ، وابن زيد ، ومجاهد — فى المشهور عنه — والجمهور .

ورُوى عن مجاهد ، وأبى صالح ، والضحاك ، والسدى أنهم قالوا فى قوله : (إنا هديناه السبيل) : يعنى خروجه من الرحم . وهذا قول غريب ، والصحيح المشهور الأول .

وقوله : (إما شاكرا وإما كفورا) منصوب على الحال من « الهاء » فى قوله : (إنا هديناه السبيل) : تقديره فهو فى ذلك إما شقى وإما سعيد (٣) ، كما جاء فى الحديث الذى رواه مسلم ، عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « كل الناس يغدو ، فبائعٌ نفسه فموبقها أو معتقها (٤) » . وتقدم فى « سورة الروم » ، عند قوله : (فطرة الله التى فطر الناس عليها) من رواية جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يُعربَ عنه لسانه فاذا أعرب عنه لسانه ، فاما شاكراً وإما كفوراً (٥) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر ، حدثنا عبد الله بن جعفر ، عن عثمان بن محمد ، عن المقبرى ، عن أبى هُرَيرة عن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : « مامن خارج يخرج إلا ببابه (٦) رايتان : رايةٌ بيد مَلَك ، وراية بيد شَيطان ، فان خرج لما يُحبّ اللهُ اتبعَه المَلَك برايته ، فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته . وإن خرج لما يُسخِط الله اتبعه الشيطان برايته ، فلم يزل تحت راية الشيطان ، حتى يرجع إلى بيته (٧) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن ابن خُثَيم ، عن عبد الرحمن بن سابط ، عن جابر ابن عبد الله : أن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال لكعب بن عُجْرَة : « أعاذك الله من إمارة السفهاء » . قال : وما إمارة السفهاء ؟ قال : « أمراء يكونون من بعدى ، لا يهتدون بهداى ، ولا يستَنّون بسنتى ، فمن صدّقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم ، فأولئك ليسوا منى ولست منهم ، ولا يَردُون على حوضى . ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يُعنهم على ظلمهم ، فأولئك منى وأنا منهم ، وسيردون على حوضى . يا كعب بن عُجْرَة : الصوم جنة ، والصدقة تطفىء

---

(١) سورة فصلت ، آية : ١٧ .

(٢) سورة البلد ، آية : ١٠ .

(٣) انظر تفسير الطبرى : ١٢٧/٢٩ — ١٢٨ .

(٤) مسلم كتاب الطهارة باب فضل الوضوء ١٤٠/١ ومعنى الحديث ، فبائع نفسه أى حظها باعطائها وأخذ عرضها ، وهو عمله وكسبه ، فهو مهلكها إن كسب الشر ، وهو معتقها إن كسب الخير .

(٥) انظر الحديث عند تفسير آية الروم الثلاثين : ٣٢١/٦ ، وقد أخرجناه هناك .

(٦) فى المسند : « إلا بيده » .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٣٢٣/٢ .

الخطيئة ، والصلاة قُربانٌ ــ أو قال : برهان . يا كعبَ بنَ عجرةَ : إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سُحت ، النار أولى به : يا كعب : الناس غاديان ، فبتاعٌ نفسَه فعتقها ، وبائع نفسه فوبقها (١) ».

ورواه عن عفّان ، عن وُهيب (٢) ، عن عبد الله بن عثمان بن خُثيم ، به .

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَا۟ وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢ ﴾

يخبر تعالى عما أرصدَه للكافرين من خلقه به من السلاسل والأغلال والسعير ، وهو اللهيب والحريق فى نار جهنم ، كما قال : (إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون . فى الحميم ثم فى النار يُسْجرون) (٣) .

ولما ذكر ما أعدّه لهؤلاء الأشقياء من السعير قال بعده : (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا) ، وقد علم مافى الكافور من التبريد والرائحة الطيبة ، مع ما يضاف إلى ذلك من اللذاذة فى الجنة .

قال الحسن : برد الكافور فى طيب الزنجبيل . ولهذا قال : (عينا يشرب بها عباد الله ، يفجّرونها تفجيراً) ، أى : هذا الذى مُزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفا بلا مزج ويَرْوَوْنَ (٤) بها ؛ ولهذا ضمن يشرَب « يروى » حتى عداه بالباء ، ونصب (عينا) على التمييز .

قال بعضهم : هذا الشراب فى طيبه كالكافور . وقال بعضهم : هو من عين كافور . وقال بعضهم : يجوز أن يكون منصوبا بـ (يشرب) . حكى هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير (٥) .

وقوله : (يفجرونها تفجيراً) ، أى : يتصرفون فيها حيث شاءوا وأين شاءوا ، من قصورهم ودورهم ومجالسهم ومحالهم .

والتفجير هو الإنباع ، كما قال تعالى : (وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجُر لنا من الأرض ينبوعا) (٧) وقال : (وفجرنا خلالهما نهراً) (٦) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣/٣٢١ .
(٢) فى المسند : « حدثنا وهيب ، حدثنا عبد الله بن وهيب ، حدثنا عبد الله بن خثيم . ويبدو أنه خطأ » .
(٣) سورة غافر ، آية : ٧١ – ٧٢ .
(٤) فى المخطوطة : « ويسرون بها » . والمثبت عن الطبقات السابقة ، والسياق يقتضيه .
(٥) انظر تفسير الطبرى : ٢٩/١٢٨ .
(٦) سورة الإسراء ، آية : ٩٠ .
(٧) سورة الكهف ، آية : ٣٣ .

قال مجاهد : (يفجرونها تفجيراً) يقودونها حيث شاءوا (١) . وكذا قال عكرمة ، وقتادة : وقال الثورى : يصرفونها حيث شاءوا (٢) .

وقوله : (يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا) ، أى : يتعبدون لله فيما أوجبه عليهم من الطاعات الواجبة] بأصل الشرع ، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر .

قال الإمام مالك : عن طلحة بن عبد الملك الأيلى ، عن القاسم بن مالك ، عن عائشة — رضى الله عنها — أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصىَ الله فلا يعصه » . رواه البخارى ، من حديث مالك (٣) .

ويتركون المحرمات التى نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد ، وهو اليوم الذى شره مستطير ، أى : منتشر عام على الناس إلا من رحِمَ الله .

قال ابن عباس : فاشياً . وقال قتادة : استطار — والله — شرّ ذلك اليوم حتى ملأ السموات والأرض (٤) .

قال ابن جرير : ومنه قولهم : استطار الصّدع فى الزجاجة واستطال (٥) . ومنه قول الأعشى :

فبَانَتْ وقَدْ أسْأرت(٦) فى الفُؤا د صَدْعاً ،على نأيِها ، مُستَطِيراً

يعنى : ممتدا فاشيا .

وقوله : (ويطعمون الطعام على حبه) ، قيل : على حب الله تعالى . وجعلوا الضمير عائدا إلى الله — عز وجل — لدلالة السياق عليه . والأظهر أن الضمير عائد على الطعام ، أى : ويطعمون الطعام فى حال محبتهم وشهوتهم له ، قاله مجاهد ، ومقاتل ، واختاره ابن جرير ، كقوله تعالى : (وآتى المال على حبه) (٦) . وكقوله تعالى : (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) (٧) .

وروى البيهقى ، من طريق الأعمش ، عن نافع قال : مرض ابن عمر فاشتهى عنبا — أول ما جاء العنب — فأرسلت صفية — يعنى امرأته — فاشترت عنقودا بدرهم ، فاتبع الرسولَ السائلُ ، فلما دخل به قال السائل : السائل . فقال ابن عمر أعطوه إياه . فأعطوه إياه . ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت عنقودا فاتبع الرسولَ السائلُ ، فلما دخل قال السائل : السائل . فقال ابن عمر : أعطوه إياه . فأعطوه إياه . فأرسلت صفية إلى السائل فقالت : والله إن عدت لا تصيب منه خيرا أبداً . ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به .

---

(١) انظر الدر المنثور للسيوطى : ٢٩٨/٦ .

(٢) تفسير الطبرى : ١٢٨/٢٩ — ١٢٩ .

(٣) البخارى ، كتاب الأيمان ، باب « النذر فى الطاعة » ، باب « النذر فيما لا يملك وفى معصية » : ١٧٦/٨ — ١٧٧ .

(٤) تفسير الطبرى : ١٢٩/٢٩ .

(٥) بعده فى تفسير الطبرى : « ولا يقال ذلك فى الحائط ، ومنه ... » .

(٦) كذا فى المخطوطة مضبوطاً . ورواية الديوان ٨٥ : « وبانت ، وقد أورثت فى الفؤاد »... ويستعمل فى الطعام والشراب وغيرهما » .

(٧) سورة البقرة ، آية : ١٧٧ .

(٨) سورة آل عمران ، آية : ٩٢ .

وفى الصحيح : « أفضلُ الصدقة أن تَصَدَّقَ وأنت صحيح ، شحيح ، تأمل الغنى وتخشى الفقر (١) » ، أى : فى حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه ولهذا قال تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيرا » أما المسكين واليتيم فقد تقدم بيانهما وصفتهما (٢) . وأما الأسير فقال سعيد بن جبير ، والحسن ، والضحاك : الأسير : من أهل القبلة (٣) . وقال ابن عباس : كان أسراؤهم يومئذ مشركين . ويشهد لهذا أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى ، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الغداء . وهكذا قال سعيد بن جبير ، وعطاء ، والحسن ، وقتادة .

وقد وصى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالإحسان إلى الأرقاء فى غير ما حديث ، حتى إنه كان آخر ما أوصى أن جعل يقول : « الصلاةَ وما ملكت أيمانكم (٤) » .

وقال عكرمة : هم العبيد — واختاره ابن جرير — لعموم الآية للمسلم والمشرك .

وقال مجاهد : هو المحبوس . أى : يطعمون لهؤلاء الطعام وهم يشتهونه ويحبونه ، قائلين بلسان الحال : (إنما نطعمكم لوجه الله) ، أى : رجاءَ ثواب الله ورضاه ، (لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) ، أى : لا نطلب منكم مجازاة تكافئونا بها ولا أن تشكرونا عند الناس .

قال مجاهد وسعيد بن جبير : أما والله ما قالوه بألسنتهم ، ولكن علم الله به من قلوبهم ، فأثنى عليهم به ليرغب فى ذلك راغب (٥) .

(إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا) ، أى : إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه ، فى اليوم العبوس القمطرير .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (عبوسا) : ضيقا ، (قمطريرا) : طويلا .

وقال عكرمة وغيره ، عنه ، فى قوله : (يوما عبوسا قمطريرا) ، أى : يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من بين عينيه عَرَق مثل القَطِران .

وقال مجاهد : (عبوسا) ، العابس الشفتين (قمطريرا) ، قال : تقبيض الوجه بالبُسُور .

وقال سعيد بن جبير ، وقتادة : تعبس فيه الوجوه من الهول ، (قمطريرا) : تقليص الجبين وما بين العينين ، من الهول .

وقال ابن زيد : العبوس : الشر . والقمطرير : الشديد .

وأوضح العبارات وأجلاها وأحلاها ، وأعلاها وأولاها — قولُ ابن عباس رضى الله عنه .

---

(١) مسلم ، كتاب الزكاة ، باب « بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح » : ٩٣/٣ .

(٢) انظر تفسير الآية الثالثة والثمانين من سورة البقرة : ١٧٢/١ ، وآية النساء السادسة والثلاثين : ٢٦١/٢ .

(٣) انظر تفسير الطبرى : ١٣٠/٢٦ .

(٤) سنن ابن ماجه ، كتاب الوصايا ، باب « هل أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ٢٦٩٧ : ٩٠٠/٢-٩٠١ . وكتاب الجنائز ، باب « ما جاء فى ذكر مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ١٦٢٥ : ٥١٩/١ . ومسند الإمام أحمد عن على رضى الله عنه : ٧٨/١ . وعن أنس بن مالك : ١١٧/٣ . وعن أم سلمة : ٢٩٠/٦ ، ٣١١ ، ٣١٥ ، ٣٢١ .

(٥) تفسير الطبرى : ١٣٠/٢٩ .

قال ابن جرير : والقمطرير هو : الشديد ؛ يقال :هو يوم قمطرير ويوم قُماطِر ،ويوم عَصِيب وعَصَبْصَب ، وقد اقمطرّ اليومُ يقمطرّ اقمطرارا ، وذلك أشد الأيام وأطولها فى البلاء والشدة ، ومنه قول بعضهم .

بَنِى عَمِّنا ، هل تَذْكُرونَ بَلاءَنا ؟ عَلَيْكم إذا ما كَانَ يَومُ قُماطِرُ(١)

قال الله تعالى : (فوقاهم الله شر ذلك اليوم ، ولقاهم نضرة وسرورا) ، وهذا من باب التجانس البليغ ، (فوقاهم الله شر ذلك اليوم) ، أى : آمنهم مما خافوا منه ، (ولقاهم نضرة) ، أى : فى وجوههم ، (وسرورا) ، أى : فى قلوبهم ؛ قاله الحسن البصرى ، وقتادة ، وأبو العالية ، والربيع بن أنس . وهذه كقوله تعالى : (وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة (٢)) وذلك أن القلب إذا سر استنار الوجه ، قال كعب بن مالك فى حديثه الطويل : « وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا سُرّ ،استنار وجهه حتى كأنه [قطعة] (٣) قَمَر (٤) » . وقالت عائشةُ : « دخل عَلَىّ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مسرورا تَبرُقُ أسَارِيرُ وَجْهِه (٥) ... » الحديث .

وقوله : (وجزاهم بما صبروا) ، أى : بسبب صبرهم أعطاهم وَنَوّلهم وَبوأهم (جنةً وحريرا) ، أى : منزلا رحبا ، وعيشا رَغَداً ، ولباسا حَسَناً .

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة هشام بن سُلَيمان الدّارَانى قال : قرىء على أبى سليمان الدارانى سورة : (هل أتى على الإنسان ؟) ، فلما بلغ القارىء إلى قوله : (وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا) ، قال : بما صبروا على ترك الشهوات فى الدنيا ، ثم أنشد :

كَم قَتِيلٍ بشَهوةٍ وأسيرٍ أفّ مِنْ مُشْتَهِى خلافَ الجَمِيل
شَهَواتُ الإنْسان تورثه الذّلّ وَتُلْقيه فى البَلاَء الطَّوِيل

مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم ، وما أسبغ عليهم من الفضل العَمِيم فقال : (متكئين فيها على الأرائك) . وقد تقدم الكلام على ذلك فى « سورة (٦) الصافات » وذكر الخلاف فى الاتكاء : هل هو الاضطجاع ، أو التمرفق ، أو التربع ، أو التمكن فى الجلوس ؟ وأن الأرائك هى السّرر تحت الحجال .

(١) تفسير الطبرى ١٣١/٢٩ ، والبيت فى اللسان ، مادة قمطر ، غير منسوب .

(٢) سورة عبس ، آية : ٣٨ — ٣٩ .

(٣) فى المخطوطة : «كأنه فلقة» . انظر تخريجنا لهذا الحديث .

(٤) تقدم الحديث عند تفسير الآية ١١٨ من سورة براءة ، وخرجناه هنالك ، انظر : ١٦٥/٤ — ١٦٩ .

(٥) البخارى ، كتاب المناقب ، باب «صفة النبى صلى الله عليه وسلم» : ٢٢٩/٤ . ومسلم ، كتاب الرضاع ، باب «العمل بالحاق القائف الولد» : ١٧٢/٤ .

(٦) كذا ، وقد تقدم ذلك فى سورة الكهف ، عند تفسير الآية الحادية والثلاثين : ١٥٢/٥ .

وقوله : (لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا) ، أى : ليس عندهم حرّ مزعج ، ولا برد مؤلم ، بل هى مزاج واحد دائم سرْمَدِىّ ، (لا يبغون عنها حولا) .

(ودانية عليهم ظلالها) ، أى : قريبة إليهم أغصانها ، (وذللت قطوفها تذليلا) ، أى : متى تعاطاه دنا القطْفُ إليه وتدلى من أعلى غصنه ، كأنه سامع طائع ، كما قال فى الآية الأخرى : (وجنى الجنتين دان (١)) . وقال تعالى : (قطوفها دانية (٢)) .

قال مجاهد : (وذللت قطوفها تذليلا) : إن قام ارتفعت بقَدْره (٣) ، وإن قعد تَدَلَّتْ (٤) له حتى ينالها ، وإن اضطجع تَدَلَّت (٤) له حتى ينالها ، فذلك قوله : (تذليلا (٥)) .

وقال قتادة : لا يرد أيديَهم عنها شوكٌ ولا بُعدٌ .

وقال مجاهد : أرض الجنة من وَرِق ، وترابها المسك ، وأصول شجرها من ذهب وفضة ، وأفنانها من اللؤلؤ الرطب والزبرجد والياقوت ، والوَرَقُ والثمر بين ذلك . فمن أكل منها قائما لم يؤذه ، ومن أكل منها قاعدا لم يؤذه ، ومن أكل منها مضطجعا لم يؤذه .

وقوله : (ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب) ، أى : يطوف عليهم الخدَم بأوانى الطعام ، وهى من فضة ، وأكواب الشراب وهى الكيزان التى لا عرى لها ولا خراطيم .

وقوله : (قواريرَ قوارير من فضة) ، فالأول منصوب بخبر « كان » ؛ أى : كانت قوارير . والثانى منصوب إما على البدلية ، أو تمييز ؛ لأنه بينه بقوله : (قوارير من فضة) .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن البصرى ، وغير واحد : بياض الفضة فى صفاء الزجاج ، والقوارير لا تكون إلا من زجاج . فهذه الأكواب هى من فضة ، وهى مع هذا شفافة يرى ما فى باطنها من ظاهرها ، وهذا مما لا نظير له فى الدنيا .

قال ابن المبارك ، عن إسماعيل ، عن رجل ، عن ابن عباس : ليس فى الجنة شىء إلا قد أعطيتم فى الدنيا شبهه إلا قوارير من فضة . رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : (قدروها تقديرا) ، أى : على قدر ريّهم ، لا تزيد عنه ولا تنقص ، بل هى مُعَدَّة لذلك ، مقدرة بحسب رىّ صاحبها . هذا معنى قول ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبى صالح ، وقتادة ، وابن أبزى ، وعبد الله بن عُبَيد بن عمير ، وقتادة ، والشعبى ، وابن زيد . وقاله ابن جرير وغير واحد . وهذا أبلغ فى الاعتناء والشرف والكرامة .

---

(١) سورة الرحمن ، آية : ٥٤ .
(٢) سورة الحاقة آية : ٢٣ .
(٣) فى المخطوطة : « بقدر » ، دون هاء . والمثبت عن الطبرى ، والدر المنثور .
(٤) فى المخطوطة : « تذلت » . والمثبت عن المرجعين المتقدمين .
(٥) تفسير الطبرى : ٢٩/١٣٢ – ١٣٣ . والدر المنثور : ٦/٣٠٠ .

وقال العَوفي ، عن ابن عباس : (قدروها تقديرا) ، قدرت للكف . وهكذا قال الربيع بن أنس . وقال الضحاك على قدر أكفَ الخُدّام . وهذا لا ينافى القول الأول ، فإنها مقدرة فى القَدْر والرّى .

وقوله : (وَيُسقَون فيها كأساً كان مزاجُها زَنجبيلا) ، أى : ويسقون — يعنى الأبرار أيضا — فى هذه الأكواب (كأسا) ، أى : خمرا ، (كان مزاجها زنجبيلا) ، فتارة يُمزَج لهم الشراب بالكافور وهو بارد ، وتارة بالزنجبيل وهو حار ، ليعتدل الأمر ، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة . وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صرْفاً ، كما قاله قتادة وغير واحد . وقد تقدم قوله : (عينا يشرب بها عباد الله) ، وقال هاهنا : (عينا فيها تسمى سلسبيلا) [أى : الزنجبيل عين فى الجنة تسمى سلسبيلا] .

قال عكرمة : اسم عين فى الجنة . وقال مجاهد : سميت بذلك لسلاسة سيلها وحدّة جَريها ،

وقال قتادة : (عينا فيها تسمى سلسبيلا) : عين سَلِسَة مُستَقِيد ماؤها .

وحكى ابنُ جرير عن بعضهم أنها سميت بذلك لسلاستها فى الحَلْق . واختار هو أنها تَعُمّ ذلك كلَّه ، وهو كما قال .

وقوله تعالى : (ويطوف عليهم ولدان مخلدون . إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا) ، أى : يطوف على أهل الجنة للخدْمَة ولدانٌ من ولدان الجنة (مخلدون) ، أى : على حالة واحدة مُخَلَّدون عليها ، لا يتغيرون عنها ، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن . ومن فسرهم بأنهم مُخَرّصُونَ فى آذانهم الأقرطة ، فإنما عبر عن المعنى بذلك ، لأن الصغير هو الذى يليق له ذلك دون الكبير .

وقوله : (إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا) ، أى : إذا رأيتهم فى انتشارهم فى قضاء حوائج السادة ، وكثرتهم ، وصباحة وجوههم ، وحُسن ألوانهم وثيابهم وحليهم ، حسبتهم لؤلؤا منثورا . ولا يكون فى التشبيه أحسن من هذا ، ولا فى المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن .

قال قتادة ، عن أبى أيوب ، عن عبد الله بن عمرو : ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف خادم ، كل خادم على عمل ما عليه صاحبه (١) .

وقوله : (وإذا رأيت) ، أى : وإذا رأيت يا محمد (ثَمّ) ، أى : هناك ، يعنى فى الجنة ونعيمها وسَعَتها وارتفاعها وما فيها من الحَبْرَة والسرور ، (رأيت نعيا وملكا كبيرا) ، أى : مملكةً لله هُناك عظيمةً وسلطاناً باهراً .

وثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجا منها ، وآخر أهل الجنة دخولا إليها : إن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها .

وقد قَدّمنا (٢) فى الحديث المَروىّ من طريق ثُوَيْر بن أبى فاختة ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر فى ملكه مسيرة ألفى سنة ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه » — فإذا كان هذا عطاؤه تعالى لأدنى من يكون فى الجنة ، فما ظنك بما هو أعلى منزلة ، وأحظى عنده تعالى .

(١) تفسير الطبرى : ١٣٦/٢٩ .

(٢) انظر تفسير الآية الثالثة والعشرين من سورة القيامة ، وقد تقدمت من قريب .

وقد روى الطبرانى هاهنا حديثاً غريبا جدا فقال : حدثنا على بن عبد العزيز ، حدثنا محمد بن عمار الموصلى ، حدثنا عقبة بن سالم ، عن أيوب بن عتبة ، عن عطاء ، عن ابن عمر قال : جاء رجل من الحبشة إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال له رسول الله : « سل واستفهم » . فقال : يا رسول الله ، فُضِّلتُم علينا بالصور والألوان والنبوة ، أفرأيتَ إن آمنتُ بما آمنتَ به وعملتُ بمثل ما عملتَ به ، إنى لكائن معكَ فى الجنة ؟ قال : « نعم والذى نفسى بيده إنه لَيُرَى بياض الأسود فى الجنة من مسيرة ألف عام » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قال : لا إله إلا الله ، كان له بها عَهدَ عند الله ، ومن قال : سبحان الله وبحمده ، كتب له مائة ألف حسنة ، وأربعة وعشرون ألف حسنة » . فقال رجل : كيف نهالك بعد هذا يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الرجل ليأتى يوم القيامة بالعمل لو وُضِعَ على جبل لأثقله ، فتقوم النعمة ــ أو : نِعَمَ الله ــ فتكاد تستنفد ذلك كله ، إلا أن يتَغَمَّده الله برحمته » . ونزلت هذه السورة : (هل أتى على الإنسان حين من الدهر) إلى قوله : (ملكا كبيرا) ــ فقال الحبشى : وإن عينى لترى ما ترى عيناك فى الجنة ؟ قال : « نعم » . فاستبكى حتى فاضت نفسه . قال ابن عمر : فلَقَد رأيت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يُدليه فى حُفرَته بيده (١) .

وقوله : (عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق) ، أى : لباس أهل الجنة فيها الحرير ، ومنه سندس ، وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلى أبدانهم ، والإستبرق منه ما فيه بريق ولمعان ، وهو مما يلى الظاهر ، كما هو المعهود فى اللباس ، (وحلوا أساور من فضة) وهذه صفة الأبرار ،وأما المقربون فكما قال : (يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ، ولباسهم فيها حرير (٢)) .

ولما ذكر تعالى زينةَ الظاهر بالحرير والحلى قال بعده : (وسقاهم ربهم شرابا طهورا) ، أى : طهر بواطنهم من الحَسَد [والحقد] والغل والأذى وسائر الأخلاق الرّديّة ، كما روينا عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه قال : إذا انتهى أهل الجنة إلى باب الجنة وَجَدوا هنالك عينين فكأنما ألهموا ذلك فشربوا من إحداهما [فأذهب الله (٣)] مافى بطونهم من أذى ، ثم اغتسلوا من الأخرى فَجَرت عليهم نضرةُ النعيم (٤) .

وقوله : (إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا) ، أى : يقال لهم ذلك تكريما لهم وإحسانا إليهم كقوله : (كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية (٥)) ، وكقوله :(ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) (٦)

وقوله : (وكان سعيكم مشكورا) ، أى : جزاكم الله على القليل بالكثير .

---

(١) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن الطبرى ، وابن مردوية ، وابن عساكر : ٢٩٧/٦ .
(٢) سورة الحج ، آية : ٢٣ .
(٣) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، ومكانه فى المخطوطة كلمة غير واضحة .
(٤) انظر تفسير الآية الثالثة والأربعين من سورة الأعراف : ٤١١/٣ ، والثالثة والسبعين من سورة الزمر : ١١٤/٥ .
(٥) سورة الحاقة ، آية : ٢٤ .
(٦) سورة الأعراف ، آية : ٤٣ .

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾

يقول تعالى ممتنا على رسوله – صلى الله عليه وسلم – بما نزّله عليه من القرآن العظيم تنزيلا : (فاصبر لحكم ربك) ، أى : كما أكرمتُكَ بما أنزلتُ عليك ، فاصبر على قضائه وقدَره ، واعلم أنه سيُدبّرك بحسن تدبيره ، (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) ، أى : لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدّك عما أنزل إليك ، بل بلّغ ما أنزل إليك من ربك ، وتوكل على الله ؛ فإن الله يعصمك من الناس . فالآثم هو الفاجر فى أفعاله والكفور هو الكافر بقلبه .

(واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا) ، أى : أولَ النهار وآخره . (ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا) ، كقوله : (ومن الليل فتهجد به نافلة لك ، عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا (١)) ، وكقوله : (يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليلا . نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا (٢)) .

ثم قال تعالى منكرا على الكفار ومن أشبههم فى حُبّ الدنيا والإقبال عليها والانصباب إليها ، وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم : (إن هؤلاء يحبون العاجلة . ويذرون وراءهم يوما ثقيلا) ، يعنى يوم القيامة .

ثم قال : (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم) – قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغير واحد : يعنى خَلْقَهم (٣) ، (وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا) ، أى : وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة ، وبدّلناهم فأعدناهم خلقا جديدا . وهذا استدلال بالبداءة على الرجعة .

وقال ابن زيد ، وابن جرير : (وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا) : وإذا شئنا أتينا بقوم آخرين غيرهم (٣) . كقوله : (إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين ، وكان الله على ذلك قديرا (٤)) ، وكقوله : (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز (٥)) .

ثم قال تعالى (إن هذه) – يعنى هذه السورة (تذكرة ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) ، أى : طريقا ومسلكا ، أى : من شاء اهتدى بالقرآن كقوله : (وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله ، وكان الله بهم عليما) .

ثم قال : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) ، أى : لا يقدر أحد أن يَهدىَ نفسه ، ولا يدخل فى الإيمان ولا يجر لنفسه نفعا ، (إلا أن يشاء الله ، إن الله كان عليما حكيما) ، [أى : عليم بمن يستحق الهداية فَيُيَسّرها له ، ويقيض له أسبابها ، ومن يستحق الغَوَاية فيصرفه عن الهدى ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ، ولهذا قال تعالى : (إن الله كان عليما حكيما) .

ثم قال : (يدخل من يشاء فى رحمته ، والظالمين أعد لهم عذابا أليما) ، أى : يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، ومن يهده فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادىَ له .

[آخر سورة الانسان]

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ٧٩ .
(٢) سورة المزمل ، الآيات : ١ – ٤ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٣٩/٢٩ .
(٤) سورة النساء ، آية : ١٣٣ .
(٥) سورة إبراهيم ، آية : ١٩ – ٢٠ . سورة فاطر ، آية : ١٦ – ١٧ .

تفسير سورة والمرسلات

وهى مكية

قال البخارى (١) ، حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، [حدثنا أبى](٢) ، حدثنا الأعمش ، حدثنى إبراهيم ، عن الأسود عن عبد الله — هو ابن مسعود — قال : بينما نحن مع النبي — صلى الله عليه وسلم — ، فى غار بمنى ، إذ نزلت عليه : (والمرسلات) ، فإنه ليتلوها وإنى لأتلقاها من فيه ، وإن فاه لرطب بها ، إذ وثبت علينا حيّة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « اقتلوها » ، فابتدرناها فذهبت ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « وُقِيَتْ شركم كما وُقيتم شرّها (٣) ».

وأخرجه مسلم أيضا ، من طريق الأعمش (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان بن عُيَينة ، عن الزّهْرىّ ، عن عُبَيد الله ، عن ابن عباس ، عن أمه : أنها سمعت النبيّ — صلى الله عليه وسلم — يقرأ فى المغرب بالمرسلات عُرفاً (٥) .

وفى رواية مالك ، عن الزهرى ، عن عُبَيد الله ، عن ابن عباس : أن أم الفضل سمعته يقرأ : (والمرسلات عرفا) ، فقالت : يا بنى ، ذكّرتنى بقراءتك هذه السورة ، إنها لآخر ما سمعتُ رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم — يقرأ بها فى المغرب .

أخرجاه فى الصحيحين ، من طريق مالك ، به (٦) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا زكريا بن سهل المروزى ، حدثنا على بن الحسن بن شقيق ، أخبرنا الحسين ابن واقد ، حدثنا الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هُرَيرة : (والمرسلات عرفا) ، قال : الملائكة .

---

(١) فى المخطوطة : « قال البخارى : حدثنا أحمد ، حدثنا عمر ... » . وهو خطأ .

(٢) ما بين القوسين عن البخارى ، وهو ساقط من المخطوطة .

(٣) البخارى ، تفسير سورة (المرسلات) : ٢٠٥/٦ . وقوله « فى غار بمنى » . كلمة « بمنى » غير ثابتة فى هذه الرواية . وانظر فتح البارى : ٤٨٧/٨ .

(٤) مسلم ، كتاب قتل الحيات وغيرها : ٤٠/٧ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣٣٨/٦ .

(٦) البخارى ، كتاب الأذان ، باب « القراءة فى المغرب » : ١٩٣/١ — ١٩٤ ، ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « القراءة فى الصبح » : ٤٠/٢ — ٤١ .

قال : ورُوى عن مسروق ، وأبى الضحى ، ومجاهد – فى إحدى الروايات – والسّدّى ، والربيع بن أنس ، مثلُ ذلك .

ورُوِىَ عن أبى صالح أنه قال : هى الرسل . وفى رواية عنه : هى الملائكة . وهكذا قال أبو صالح فى (العاصفات) و (الناشرات) و (الملقيات) : أنها الملائكة .

قال الثورى ، عن سلمة بن كُهَيل ، عن مُسلم البَطِين ، عن أبى العُبَيدَيْن قال : سألت ابنَ مسعود عن (المرسلات عرفا)، قال : الريح(١). وكذا قال فى : (العاصفات عصفا . والناشرات نشرا) : إنها الريح . وكذا قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وأبو صالح – فى رواية عنه – وتوقف ابن جرير فى (المرسلات عُرفا) : هل هى الملائكة أرسلت بالعُرْف (٢) ، أو كعُرْف الفَرَس يتبع بعضهم بعضا (٣)؟ أو : هى الريح إذا هَبَّت شيئا فشيئا ؟ وقطع بأن العاصفات عصفا هى الرياح ، كما قاله ابن مسعود ومن تابعه . وممن قال ذلك فى العاصفات أيضا : علىّ بن أبى طالب ، والسدى . وتوقف فى (الناشرات نشرا) ، هل هى الملائكة أو الريح ؟ كما تقدم . وعن أبى صالح : أن الناشرات نشرا : المطر .

والأظهر أن « المرسلات » هى الرياح ، كما قال تعالى : (وأرسلنا الرياح لواقح (٤)) . وقال تعالى : (وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته (٥)) . وهكذا العاصفات هى : الرياح ، يقال : عصفت الريح إذا هَبَّت بتصويت . وكذا الناشرات هى : الرياح التى تنشر السحاب فى آفاق السماء ، كما يشاء الرب عز وجل .

وقوله : (فالفارقات فرقا . فالملقيات ذكرا . عذرا أو نذرا) ، يعنى : الملائكة . قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق ، ومجاهد ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، والسّدّى ، والثورى . ولا خلاف هاهنا ؛ فإنها تنزل بأمر الله على الرسل ، تفرق بين الحق والباطل ، والهدى والغَىّ ، والحلال والحرام ، وتلقى إلى الرسل وحيا فيه إعذار إلى الخلق ، وإنذارٌ لهم عقابَ الله إن خالفوا أمره .

وقوله : (إنما توعدون لواقع) : هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام ، أى : ماوعدتم به من قيام الساعة ، والنفخ فى الصور ، وبعث الأجساد ، وجمع الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، ومجازاة كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، إن هذا كله – (لواقع) ، أى : لكائن لا محالة .

ثم قال : (فإذا النجوم طمست) ، أى : ذهب ضوؤها ، كقوله : (وإذا النجوم انكدرت (٦)) . وكقوله : (وإذا الكواكب انتثرت (٧)) .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٤٠/٢٩ .

(٢) أى : بالمعروف .

(٣) قال الطبرى ١٤١/٢٩ : «وقال بعضهم : عنى بقوله (عرفا) متتابعة كعرف الفرس ، كما قالت العرب : الناس إلى فلان عرف واحد ، إذا توجهوا إليه فأكثروا » . وقال ذلك أبو عبيدة فى مجاز القرآن : عرفاً : يتبع بعضه بعضاً ، يقال : جاءونى عرفاً » .

(٤) سورة الحجر ، آية : ٢٢ .

(٥) سورة الأعراف ، آية : ٥٧ .

(٦) سورة التكوير ، آية : ٢ .

(٧) سورة الانفطار ، آية : ٢ .

(وإذا السماء فرجت) ، أى : انفطرت وانشقت ، وتدلت أرجاؤها ، ووَهَت أطرافها .

(وإذا الجبال نُسفت) ، أى : ذُهب بها ، فلا يبقى لها عين ولا أثر ، كقوله : (ويسألونك عن الجبال فقل : ينسفها ربى نسفا . فيذرها قاعاً صفصفاً . لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً (١)) وقال تعالى : (ويوم نُسيِّر الجبال، وترى الأرض بارزة ، وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا (٢)) .

وقوله : (وإذا الرسل أقتت) — قال العوفى ، عن ابن عباس : جمعت . وقال ابن زيد (٣) : وهذه كقوله تعالى : (يوم يجمع الله الرسل) . وقال مجاهد : (أقتت) : أجلت .

وقال الثورى ، عن منصور ، عن إبراهيم : (أقتت) : أوعدت . وكأنه يجعلها كقوله : (وأشرقت الأرض بنور ربها ، ووضع الكتاب ، وجيء بالنبيين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون (٤)) .

ثم قال : (لأى يوم أجلت ؟ ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل ؟ ويل يومئذ للمكذبين) ، يقول تعالى : لأى يوم أجلت الرسل وأرجىء أمرها ؟ حتى تقوم الساعة ، كما قال تعالى : (فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ، إن الله عزيز ذو انتقام . يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار (٥)) . وهو يوم الفصل ، كما قال : (ليوم الفصل) .

ثم قال معظما لشأنه : (وما أدراك ما يوم الفصل ؟ ويل يومئذ للمكذبين) ، أى : ويل لهم من عذاب الله غدا . وقد قدمنا فى الحديث أن « ويل » : واد فى جهنم (٦) . ولا يصح .

أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾
أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ
وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى : (ألم نهلك الأولين) ؟ يعنى من المكذبين للرسل المخالفين لما جاءوهم به ، (ثم نتبعهم الآخرين) ، أى : ممن أشبههم . ولهذا قال : (كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذ للمكذبين) . قاله ابن جرير (٧) .

ثم قال ممتنا على خلقه ومحتجا على الإعادة بالبداءة : (ألم نخلقكم من ماء مهين) ؟ أى : ضعيف حقير بالنسبة إلى

(١) سورة طه ، الآيات : ١٠٥ — ١٠٧ .
(٢) سورة الكهف ، آية : ٤٧ .
(٣) أثر ابن زيد كما فى تفسير الطبرى ٢٩/١٤٣ : «وإذا الرسل أقتت ، قال : أقتت ليوم القيامة ، وقرأ : (يوم يجمع الله الرسل» ، قال : والأجل : الميقات ، وقرأ : (يسألونك عن الأهلة ، قل : هى مواقيت الناس) ...» .
(٤) سورة الزمر ، آية : ٦٩ .
(٥) سورة إبراهيم ، آية : ٤٧ — ٤٨ .
(٦) انظر تفسير الآية ٧٩ من سورة البقرة : ١/١٦٨ .
(٧) تفسير الطبرى : ٢٩/١٤٤ .

قُدرة البارى عز وجل ، كما تقدم فى سورة (يس) فى حديث بُسْر بن جحَاش : « ابنَ آدم ، أنَّى تُعجزُنى وقد خلقتك من مثل هذه ؟ ! » (١) .

(فجعلناه فى قرار مكين) ، يعنى : جمعناه فى الرّحم . وهو قرار الماء من الرجل والمرأة ، والرحم معد لذلك ، حافظ لما أودع فيه من الماء .

وقوله : (إلى قدر معلوم) ، يعنى إلى مدة معينة من ستة أشهر أو تسعة أشهر . ولهذا قال : (فقدرنا فنعم القادرون ، ويل يومئذ للمكذبين) .

ثم قال : (ألم نجعل الأرض كفاتا . أحياء وأمواتا) — قال ابن عباس : (كفاتا) : كنّا . وقال مجاهد : يُكفَتُ الميِّت فلا يُرَى منه شىء . وقال الشعبى : بطنها لأمواتكم ، وظهرها لأحيائكم . وكذا قال مجاهد وقتادة (٢) .

(وجعلنا فيها رواسى شامخات) ، يعنى : الجبال أرسى بها الأرض لئلا تميد وتضطرب .

(وأسقيناكم ماء فراتا) : عذبا زُلالا من السحاب ، أو مما أنبعه الله من عيون الأرض .

(ويل يومئذ للمكذبين) ، أى : ويل لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها ، ثم بعد هذا يستمر على تكذيبه وكفره .

ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَـٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ .

يقول تعالى مخاطبا للكفار المكذبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار ، أنهم يقال لهم يوم القيامة : (انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب) ، يعنى لَهَب النار إذا ارتفع وصعدَ معه دخان ، فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب ، (لا ظليل ولا يغنى من اللهب) ، أى : ظل الدخان المقابل للهب لا ظليل هو فى نفسه ، ولا يغنى من اللهب ، يعنى ولا يقيهم حر اللهب .

وقوله : (إنها ترمى بشرر كالقصر) ، أى : يتطاير الشرر من لهبها كالقصر . قال ابن مسعود : كالحصون . وقال ابن عباس وقتادة ، ومجاهد ، ومالك عن زيد بن أسلم ، وغيرهم : يعنى أصول الشجر .

(كأنه جمالات (٣) صفر) ، أى : كالإبل السود . قاله مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك . واختاره ابن جرير .

---

(١) انظر تفسير الآية السابعة والسبعين من سورة (يس) ، فقد خرجنا الحديث هنالك : ٥٨٠/٦ .

(٢) انظر تفسير الطبرى : ١٤٥/٢٩ .

(٣) كذا فى مخطوطة الأزهر (جمالات) ، وهى قراءة الجمهور . ويقول أبو حيان فى البحر المحيط ٤٠٧/٨ : « جمالات — بكسر الجيم ، وبالألف والتاء — : جمع جمال ، جمع الجمع ، وهى الإبل ، كقولهم : رجالات قريش » ، ويذكر ابو حيان أن ابن عباس وقتادة وابن جبير والحسن وأبو رجاء قرأوا (جمالات) بضم الجيم ، وهى جمال السفن [كذا ، ولعله حبال السفن] الواحد منها جملة ، لكونه جملة من الطاقات والقوى ، ثم جمع على جمل وجمال ، ثم جمع جمال ثانياً جمع صحة فقالوا : جمالات » .

وعن ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيدبن جبير : (جمالات صفر) ، يعنى : حبال السفن : وعنه — أعنى ابن عباس —: (جمالات صفر) : قطع نحاس .

وقال البخارى : حدثنا عمرو بن على ، حدثنا يحيى أخبرنا سفيان ، عن عبد الرحمن بن عابس قال : سمعت ابن عباس : (إنها ترمى بشرر كالقصر) ، قال : كنا نعمد إلى الخشبة ثلاثة أذرع وفوق ذلك ، فنرفعه للشتاء ،فنسميه القَصَرَ(١) ، (كأنه جمالاتُ صفر) : حبال السفن ، تجمع حتى تكون كأوساط الرجال (٢) .

(ويل يومئذ للمكذبين) . ثم قال تعالى : (هذا يوم لا ينطقون) ، أى : لا يتكلمون . (ولا يؤذن لهم فيعتذرون) ، أى : لا يقدرون على الكلام ، ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا ، بل قد قامت عليهم الحجة ووقع القولُ عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون . وعرصات القيامة حالات ، والرب تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة ، وعن هذه الحالة تارة ؛ ليدل على شدة الأهوال والزلازل يومئذ . ولهذا يقول بعد كل فصل من هذا الكلام : (ويل يومئذ للمكذبين) .

وقوله : (هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيدون) : وهذه مخاطبة من الخالق لعباده يقول لهم : (هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين) ، يعنى أنه جمعهم بقدرته فى صعيد واحد ، يُسمعُهم الداعى وينفُذُهم البصر (٣) .

وقوله : (فإن كان لكم كيد فكيدون) : تهديد شديد ووعيد أكيد ، أى : إن قدرتم على أن تتخلصوا من قبضتى ، وتنجُوا من حكمى فافعلوا ، فإنكم لا تقدرون على ذلك ، كما قال تعالى : (يا معشر الجن والإنس ، إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان (٤) . وقد قال تعالى : (ولا تضرونه شيئا (٥)) . وفى الحديث : « يا عبادى ، إنكم لن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، ولن تبلغوا ضَرّى فتضرونى » .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن المنذر الطريقى الأودى ، حدثنا محمد بن فضيل ، حدثنا حُصَين بن عبد الرحمن، عن حسان بن أبى (٦) المخارق ، عن أبى عبد الله الجدَلى قال : أتيت بيت المقدس ، [فإذا عُبادة بن الصامت وعبد الله ابن عمرو ، وكعب الأحبار يتحدثون فى بيت المقدس] ، فقال عبادة : إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين بصعيد واحد ، ينفذهم البصر ويُسمعهم الداعى ، ويقول الله : (هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيدون) ، اليوم لا ينجو منى جبار عنيد ، ولا شيطان مريد . فقال عبد الله بن عمرو : فإنا (٧) ، نحدث يومئذ [أنه] يخرج عُنُق (٨) من النار فتنطلق حتى إذا كانت بين ظهرانى الناس نادت : أيها الناس ، إنى بُعثتُ إلى ثلاثة أنا أعرف

(١) فى النهاية : يريد قصر النخل ، وهو ما غلظ من أسفلها ، أو أعناق الإبل ، واحدتها قصرة » .
(٢) البخارى ، تفسير سورة (والمرسلات) : ٢٠٥/٦ .
(٣) هذا اقتباس من حديث تقدم تخريجنا له عند تفسير الآية الثامنة والسبعين من سورة الإسراء : ١٠٦/٥ .
(٤) سورة الرحمن ، آية : ٣٣ .
(٥) سورة هود ، آية : ٥٧ .
(٦) كذا ، وفى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢٣٥/٢/١ : «حسان بن المخارق» . ويبدو أنه يقال فيه أيضاً : « ابن أبى المخارق » . انظر التاريخ الكبير للبخارى : ٣٢/١/٢ .
(٧) فى المخطوطة : «كأنها تحدث » والمثبت عن الطبعات السابقة . وفى الدر المنثور ٣٠٥/٦ : « إنا نجد فى الكتاب أنه تخرج ... » . وما بين القوسين عن الدر المنثور .
(٨) أى طائفة .

بهم من الأب بولده ومن الأخ بأخيه ، لا يُغَيِّبهم عن وَزَر ، ولا تُخفيهم عن خافية : الذى جعل مع الله إلها آخر ، وكلَّ جبار عنيد ، وكلَّ شيطان مريد . فتنطوى عليهم فتقذف بهم فى النار قبل الحساب بأربعين سنة .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ (٤١) وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٤٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٥) كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ (٤٦) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٧) وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ (٤٨) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٩) فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (٥٠)

يقول تعالى مخبراً عن عباده المتقين الذين عبدوه بأداء الواجبات ، وترك المحرمات : أنهم يوم القيامة يكونون فى جنات وعيون ، أى : بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه ، من ظل اليحموم ، وهو : الدخان الأسود المنتن .

(وفواكه مما يشتهون) ، أى : ومن سائر أنواع الثمار ، مهما طلبوا وجدوا . (كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون) ، أى : يقال لهم ذلك على سبيل الإحسان إليهم .

ثم قال تعالى مخبراً خبراً مستأنفا : (إنا كذلك نجزى المحسنين) ، أى : هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل ، (ويل يومئذ للمكذبين) .

وقوله : (كلوا وتمتعوا قليلا ، [إنكم (١) مجرمون) خطاب للمكذبين بيوم الدين ، وأمَرَهم أمر تهديد ووعيد فقال تعالى : (كلوا وتمتعوا قليلا] ، أى : مدة قليلة قريبة قصيرة ، (إنكم مجرمون) ، أى : ثم تساقون إلى نار جهنم التى تقدم ذكرها ، (ويل يومئذ للمكذبين) ، كما قال تعالى : (نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ (٢)) ، وقال تعالى : (إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع فى الدنيا ، ثم إلينا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون (٣)) .

وقوله : (وإذا قيل لهم : اركعوا ، لا يركعون) ، أى : إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة ، امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه . ولهذا قال : (ويل يومئذ للمكذبين) .

ثم قال : (فبأى حديث بعده يؤمنون ؟) ، أى : إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فبأى كلام يؤمنون به ؟ ! كقوله تعالى : (فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون (٤) ؟ !)

قال ابن أبى حاتم : حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن إسماعيل بن أمية : سمعت رجلا أعرابيا بدَويا يقول : سمعت أبا هريرة يرويه إذا قرأ : (والمرسلات عرفا) ، فقرأ : (فبأى حديث بعده يؤمنون ؟) فليقل : آمنت بالله وبما أنزل .

وقد تقدم هذا الحديث فى « سورة القيامة » .

آخر تفسير سورة والمرسلات

---

(١) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة .

(٢) سورة لقمان ، آية : ٢٤ .

(٣) سورة يونس ، آية : ٦٩ — ٧٠ .

(٤) سورة الجاثية ، آية : ٦ .

تفسير سورة النبأ

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)

يقول تعالى منكرا على المشركين فى تساؤلهم عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعها : (عم يتساءلون ؟ عن النبأ العظيم) ، أى : عن أى شىء يتساءلون ؟ عن أمر القيامة ، وهو النبأ العظيم ، يعنى : الخبر الهائل المفظع الباهر .

قال قتادة ، وابن زيد : النبأ العظيم : البعث بعد الموت . وقال مجاهد : هو القرآن (١) . والأظهر الأول لقوله : (الذى هم فيه مختلفون) ، يعنى الناس فيه على قولين مؤمن به وكافر .

ثم قال تعالى متوعداً لمنكرى القيامة : (كلا سيعلمون . ثم كلا سيعلمون) ، وهذا تهديدٌ شديد ووعيد أكيد .

ثم شرع تعالى يُبَيِّن قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة والأمور العجيبة ، الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره ، فقال : (ألم نجعل الأرض مهادا) ؟ أى : ممهدة للخلائق ذَلُولاً لهم ، قارةً ساكنة ثابتة ، (والجبال أوتادا) ، أى : جعلها لها أوتاداً أرساها بها وثبتها وقرّرها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها .

ثم قال : (وخلقناكم أزواجا) ، يعنى : ذكرا وأنثى يستمتع كل منهما بالآخر ، ويحصل التناسل بذلك ، كقوله : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة (٢)) .

وقوله : (وجعلنا نومكم سباتا) ، أى : قَطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة التّرداد والسعى . [فى المعايش (٣)] فى عرض النهار . وقد تقدم مثل هذه الآية فى « سورة الفرقان (٤) » .

---

(١) انظر تفسير الطبرى : ٣٠/٢ - ٣ .

(٢) سورة الروم ، آية : ٢١ .

(٣) فى المخطوطة : « ... والسعى فى أرض النهار » . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٤) سورة الفرقان آية : ٤٧ ، وانظر : ١٢٣/٦ .

(وجعلنا الليل لباسا) ، أى : يغشى الناس ظلامه وسواده ، كما قال : (والليل إذا يغشاها (١)) ، وقال الشاعر (٢):

فلما لبسن الليل (٣) ، أو حين نَصّبَتْ   لَهُ من خذا آذانها وهْوَ جانِحُ

وقال قتادة فى قوله : (وجعلنا الليل لباسا) ، أى : سكنا .

وقوله : (وجعلنا النهار معاشا) ، أى : جعلناه مشرقا مُنيراً مضيئا ، ليتمكن الناس من التصرف فيه والذهاب والمجيء للمعاش والتكسب والتجارات ، وغير ذلك .

وقوله : (وبنينا فوقكم سبعاً شدادا) ، يعنى : السموات السبع ، فى اتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها ، وتزيينها بالكواكب [الثوابت] والسيارات . ولهذا قال : (وجعلنا سراجا وهاجا) ، يعنى : الشمس المنيرة على جميع العالم التى يتوهج ضوؤها لأهل الأرض كلهم .

وقوله : (وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا) – قال العوفى ، عن ابن عباس : (المعصرات) : الريح (٤) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد ، حدثنا أبو داود الحَفَرى ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن المنهال ، عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس : (وأنزلنا من المعصرات) ، قال : الرياح . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، وقتادة ، ومقاتل، والكلبى ، وزيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن : إنها الرياح . ومعنى هذا القول أنها تستدر المطر من السحاب .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (من المعصرات) ، أى : من السحاب . وكذا قال عكرمة أيضا ، وأبو العالية ، والضحاك والحسن ، والربيع بن أنس ، والثورى . واختاره ابن جرير .

وقال الفراء : هى السحاب التى تتحلب بالمطر ولم تمطر بعد ، كما يقال : امرأة معصر : إذا دنا حيضها ولم تحض .

وعن الحسن ، وقتادة : (من المعصرات) : يعنى السموات . وهذا قول غريب .

والأظهر ان المراد بالمعصرات السحاب ، كما قال تعالى : (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا ، فيبسطه فى السماء كيف يشاء ، ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله) ، أى : من بينه .

وقوله (ماء ثجاجا) – قال مجاهد ، وقتادة ، والربيع بن انس : (ثجاجا) : منصبا . وقال الثورى : متتابعا . وقال ابن زيد : كثيرا .

قال ابن جرير : ولا يعرف فى كلام العرب فى صفة الكثرة الثج ، وإنما الثج : الصب المتتابع . ومنه قول النبى – صلى الله عليه وسلم – : « أفضل الحج العج والثج » . يعنى . صب دماء البدن (٥) . هكذا قال . قلت . وفى حديث

(١) سورة الشمس ، آية : ٤ .

(٢) هو ذو الرمة ، والبيت فى ديوانه ط كبردج : ١٠٨ . وكتاب خلق الإنسان لثابت : ٩٣ . وتفسير الطبرى : ٣/٣٠ .

(٣) قال الطبرى : « يعنى بقوله (لبسن الليل) : أدخلن فى سواده فاستترن به » . فأما « خذا الآذان » ، فهو : استرخاؤها . والأخذى : المسترخى الأذن . وهو جانح ، يعنى الليل .

(٤) تفسير الطبرى : ٤/٣٠ .

(٥) تفسير الطبرى : ٥/٣٠ .

المستحاضة حين قال لها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « أنعتُ لك الكُرسُفَ » – يعني : أن تحتشي بالقطن – : قالت : يا رسول الله،هو أكثر من ذلك، إنما أثج ثجاً(١) . وهذا فيه دلالة على استعمال الثجّ فى الصبّ المتتابع الكثير ، والله أعلم .

وقوله : (لنخرج به حبا ونباتا . وجنات ألفافا) ، أى : لنخرجَ بهذا الماء الكثير الطيب النافع المُبارَك (حبّاً) يدخر للأناسى والأنعام ، (ونباتا) ، أى : خضرا يؤكل رطبا ، (وجنات) ، أى : بساتين وحدائقَ من ثمرات متنوعة ، وألوان مختلفة ، وطعوم وروائح متفاوته ، وإن كان ذلك فى بقعة واحدة من الأرض مجتمعا ، ولهذا قال : (وجنات ألفافا) – قال ابن عباس ، وغيره : (ألفافا) : مجتمعة . وهذه كقوله تعالى : (وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان ، تُسقَى (٢) بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل (٣)) ... الآية .

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

يقول تعالى مخبرا عن يوم الفصل ، وهو يوم القيامة ، أنه مؤقت بأجل معدود ، لا يزاد عليه ولا ينقص منه ، ولا يعلم وقته على التعين إلا الله عز وجل ، كما قال : (وما نُؤخره إلا لأجل معدود (٤)) .

(يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا) – قال مجاهد : زُمَراً . قال ابن جرير : يعنى تأتى كل أمة مع رسولها ، كقوله : (يوم ندعو كل أناس بإمامهم (٥)) .

وقال البخارى : (يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا) ، حدثنا محمد ، حدثنا أبو معاوية ، عن الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « ما بين النفختين أربعون » . قالوا : أربعون يوما ؟ قال : « أبيتَ » . قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : « أبيتُ » . قالوا : أربعون سنة ؟ قال : « أبيت » . قال :

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الطهارة ، باب « إذا أقبلت الحيضةتدع الصلاة » . وتحفة الأحوذى، أبواب الطهارة ، باب « ما جاء فى المستحاضة: أنها تجمع بين الصلاتين بغسل واحد » ، الحديث ١٢٨ : ٣٩٥/١ – ٤٠٤ . وابن ماجه ، كتاب الطهارة ، باب « ما جاء فى المستحاضة التى قد عدت أيام إقرائها قبل أن يستمر بها الدم » ، الحديث ٦٢٢ : ٢٠٣/١ – ٢٠٤ . ومسند الإمام أحمد عن حمنة بنت جحش : ٤٣٩/٦ .

(٢) كذا فى مخطوطة الأزهر (تسق) بالتاء . وهى قراءة ثابتة فى السبعة . انظر البحر المحيط : ٣٦٣/٥ .

(٣) سورة الرعد ، آية : ٤ .

(٤) سورة هود ، آية : ١٠٤ .

(٥) تفسير الطبرى : ٦/٣٠ .

« ثم يُنزِلُ الله من السماء ماءَ فينبتُون كما ينبتُ البقْل ، ليس من الإنسان شيءٌ إلا يَبْلَى ، إلا عظماً واحداً ، وهو عَجْبَ الذنَب ومنه يُرَكّبُ الخَلْقُ يومَ القيامة (١) » .

(وفتحت السماء فكانت أبوابا) ، أى : طرقا ومسالك لنزول الملائكة ، (وسيرت الجبال فكانت سرابا) كقوله : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب (٢)) . وكقوله : (وتكون الجبال كالعهن المنفوش (٣)) .

وقال هاهنا : (فكانت سرابا) ، أى : يخيل إلى الناظر أنها شىءٌ ، وليست بشىء ، وبعد هذا تذهب بالكلية ، فلا عين ولا أثر ، كما قال : (ويسألونك عن الجبال ، فقل : ينسفها ربى نسفا . فيذرها قاعا صفصفا . لا ترى فيها عوجاولا أمتا (٤)) . وقال : (ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة (٥)) .

وقوله : (إن جهنم كانت مرصادا) ، أى : مرصدة مُعَدّة (للطاغين) ، وهم : المَرَدة العصاة المخالفون للرسل ، (مآبا) ، أى : مرجعا ومنقلبا ومصيرا ونُزُلا . وقال الحسن ، وقتادة فى قوله : (إن جهنم كانت مرصادا) ، يعنى : أنه لا يدخل [أحد] الجنة حتى يجتاز بالنار ، فان كان معه جواز نجا والا احتبس . وقال سفيان الثورى : عليها ثلاث قناطر (٦) .

وقوله : (لابثين فيها أحقابا) ، أى : ماكثين فيها أحقابا ، وهى جمع « حُقْب » ، وهو : المدة من الزمان ؛ وقد اختلفوا فى مقداره ، فقال ابن جرير ، عن ابن حميد ، عن مهران ، عن سفيان الثورى ، عن عمّار الدُّهنىّ ، عن سالم بن أبى الجعد قال : قال على بن أبى طالب لهلال الهَجَرى : ما تجدونَ الحُقْبَ فى كتاب الله المنزل ؟ قال : نجده ثمانين سنة ، كل سنة اثنا عشر شهرا ، كل شهر ثلاثون يوما ، كل يوم ألف سنة (٧) .

وهكذا رُوِىَ عن أبى هُرَيرة ، وعبد الله بن عَمرو ، وابن عباس ، وسعيد بن جُبَير ، وعَمرو بن ميمون ، والحسن ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، والضحاك . وعن الحسن والسّدّى أيضا : سبعون سنة كذلك . وعن عبد الله ابن عمرو : الحُقْبُ أربعون سنة ، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون . رواهما ابن أبى حاتم .

وقال بُشَير بنُ كعب : ذُكِر لى أن الحُقْب الواحد ثلاثمائةسنة ، كل سنة ثلاثمائة وستون يوما ، كل يوم ألف سنة ؛ رواه ابن جرير (٧) ، وابن أبى حاتم .

ثم قال ابن أبى حاتم : ذكر عن عُمَر بن على بن أبى بكر الأسْفَذْنىّ : حدثنا مروان بن معاوية الفزارى ، عن جعفر بن الزبير ، عن القاسم ، عن أبى أمامة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : (لابثين فيها أحقابا) ، قال : فالحقب شهر ، الشهر ثلاثون يوما ، والسنة اثنا عشر شهرا ، والسنة ثلاثمائة وستون يوما ، كل يوم منها ألف سنة

---

(١) البخارى ، تفسير سورة (عم يتساءلون) : ٦/٢٠٥ .
(٢) سورة النمل ، آية : ٨٨ .
(٣) سورة القارعة ، آية : ٥ .
(٤) سورة طه ، الآيات : ١٠٥ - ١٠٧ .
(٥) سورة الكهف ، آية : ٤٧ .
(٦) تفسير الطبرى : ٣٠/٧ .
(٧) تفسير الطبرى : ٣٠/٨ .

مما تعدون ، فالحقب ثلاثون ألف ألف سنة . وهذا حديث منكر جدا . والقاسم والراوى عنه وهو جعفر بن الزبير كلاهما متروك .

وقال البزار : حدثنا محمد بن مرداس ، حدثنا سليمان بن مسلم أبو المُعَلّى قال : سألت سليمان التيمى هل يخرج من النار أحد ؟ فقال : حدثنى نافع ، عن ابن عمر ، عن النبى - صلى الله عليه وسلم - انه قال : « والله لا يخرج من النار أحد حتى يمكث فيها أحقابا » . قال : والحُقُب : بضع وثمانون سنة ، والسنة ثلاثمائة وستون يوما مما تعدون .

ثم قال : سليمان بن مسلم بصرى مشهور

وقال السدّى : (لا بثين فيها أحقابا) : سبعمائة حقب ، كل حُقُب سبعون سنة ، كل سنة ثلاثمائة وستون يوما ، كل يوم كألف سنة مما تعدون .

وقد قال مقاتل بن حيّان : إن هذه الآية منسوخة بقوله : (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) .

وقال خالد بن معدان : هذه الآية وقوله : (إلا ما شاء ربك) فى أهل التوحيد . رواهما ابن جرير (١) .

ثم قال : ويحتمل أن يكون قوله : (لابثين فيها أحقابا) متعلقاً بقوله : (لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا) ، ثم يحدث الله لهم بعد ذلك عذابا من شكل آخر ونوع آخر . ثم قال : والصحيح أنها لا انقضاء لها كما قال قتادة والربيع ابن أنس. وقد قال قبل ذلك :

حدثنى محمد بن عبد الرحيم البرقى ، حدثنا عمرو بن أبى سلمة ، عن زهير ، عن سالم : سمعت الحسن يسأل عن قوله : (لابثين فيها أحقابا) ، قال : أما الأحقاب فليس لها عدة إلا الخلود فى النار ، ولكن ذكروا أن الحُقُب سبعون سنة ، كل يوم منها كألف سنة مما تعدون .

وقال سعيد ، عن قتادة : قال الله تعالى : (لا بثين فيها أحقابا) ، وهو : مالا انقطاع له ، وكلما مضى حُقُب جاء حقب بعده ، ، وذكر لنا أن الحُقُب ثمانون سنة .

[وقال الربيع بن أنس : (لا بثين فيها أحقابا) : لا يعلم عدة هذه الأحقاب إلا الله ، ولكن الحُقْب الواحد ثمانون سنة (٢)] والسنة ثلاثمائة وستون يوما ، كل يوم كألف سنة مما تعدون . رواهما أيضا ابن جرير .

وقوله : (لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا) ، أى : لا يجدون فى جهنم برداً لقلوبهم ، ولا شرابا طيبا يتغذون به ، ولهذا قال : (إلا حميما وغساقا) . - قال أبو العالية : استثنى من البرد الحميم ومن الشراب الغساق . وكذا قال الربيع ابن أنس .

فأما الحميم فهو الحار الذى قد انتهى حره وحموّه . والغسّاق : هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم ، فهو بارد لا يستطاع من برده ولا يواجه من نتنه . وقد قدمنا الكلام على الغساق فى سورة (ص) بما أغنى عن إعادته (٣) أجارنا الله من ذلك ، بمنه وكرمه .

---

(١) تفسير الطبرى : ٩/٣٠ .
(٢) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة وإن كان فى غير مكانه فيها ، وتفسير الطبرى .
(٣) انظر تفسير الآية السابعة والخمسين من سورة (ص) : ٦٩/٧ .

قال ابن جرير : وقيل : المراد بقوله : (لا يذوقون فيها بردا) ، يعنى : النوم ، كما قال الكندىّ :

بَرَدَتْ مَرَاشفها عَلَيَّ فصدّنى عنها وَعَنْ قُبُلَاتِها ، البَرْدُ

يعنى بالبرد : النعاس والنوم (١) . هكذا ذكره ولم يَعْزُه إلى أحد . وقد رواه ابن أبى حاتم ، من طريق السدى ، عن مرة الطيب . ونقله عن مجاهد أيضا . وحكاه البغوى عن أبى عُبَيدة (٢) ، والكسائى أيضا .

وقوله : (جزاء وفاقا) ، أى : هذا الذى صاروا إليه من هذه العقوبة وَفق أعمالهم الفاسدة التى كانوا يعملونها فى الدنيا . قاله مجاهد ، وقتادة ، وغير واحد .

ثم قال : (إنهم كانوا لا يرجون حسابا) ، أى : لم يكونوا يعتقدون أن ثم دارا يجازون فيها ويحاسبون ، (وكذبوا بآياتنا كذابا) ، أى : وكانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التى أنزلها على رسله ، فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة .

وقوله : (كذابا) ، أى : تكذيبا ، وهو مصدر من غير الفعل . قالوا : وقد سُمع أعرابى يستفتى الفَرّاءَ على المروة : الحلقُ أحبّ إليك أو القِصّار ؟ وأنشد بعضهم (٣) :

لَقَدْ طالَ ما ثَبَّطْتَنِى عَن صَحَابَتِى وعن حوَجٍ قِضَّاؤها مِن شِفَائيا

وقوله تعالى : (وكل شيء أحصيناه كتابا) ، أى : وقد علمنا أعمالَ العباد كلهم ، وكتبناها عليهم ، وسنجزيهم على ذلك ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وقوله : (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) ، أى : يقال لأهل النار : ذوقوا ما أنتم فيه ، فلن نزيدكم إلا عذابا من جنسه (وآخر من شكله أزواج (٤)) .

قال قتادة ، عن أبى أيوب الأزدى ، عن عبد الله بن عمرو قال : لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه : (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) . قال : فهم فى مزيد من العذاب أبدا (٥) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن محمد بن مصعب الصّورى ، حدثنا خالد بن عبد الرحمن ، حدثنا جَسر ابن فَرقد ، عن الحسن قال : سألت أبا برزة الأسلمى عن أشد آية فى كتاب الله على أهل النار . قال : سمعتُ رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم — قرأ : (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) ، فقال : « هلك القوم بمعاصيهم الله عزّ وجل » .

جسرُ بن فَرقد : ضعيف الحديث بالكلية .

---

(١) تفسير الطبرى : ٩/٣٠ .

(٢) مجاز القرآن لأبى عبيدة : ٢٨٢/٢ .

(٣) البيت للأعور بن براء الكلابى ، انظر تصريف الأسماء للشيخ الطنطاوى : ٩٤ ، وقد أحال على تهذيب ألفاظ ابن السكيت ، باب الحوائج . وقد ذكر الفراء البيت فى « معانى القرآن » منسوباً إلى بعض بنى كلاب ، انظر : ٢٢٩/٣ ، وانظر أيضاً الطبرى : ١١/٣٠ .

(٤) سورة ص ، آية : ٥٨ .

(٥) تفسير الطبرى : ١٢/٣٠ .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾

يقول تعالى مخبرا عن السعداء وما أعد لهم تعالى من الكرامة والنعيم المقيم ، فقال : (إن للمتقين مفازا) . قال ابن عباس، والضحاك : متنزها . وقال مجاهد ، وقتادة : فازوا فنجوا من النار . والأظهر هاهنا قولُ ابن عباس ؛ لأنه قال بعده : (حدائق) ، وهى البساتين من النخيل وغيرها (وأعنابا . وكواعب أترابا) ، أى : وحورا كواعب . قال ابن عباس ومجاهد ، وغير واحد : (كواعب) ، أى : نواهد ، يعنون أن ثُدُيَّهن [نواهد (١)] لم يتدلين لأنهن أبكار عُرُب أتراب ، أى : فى سن واحدة ، كما تقدم بيانه فى « سورة الواقعة(٢) » .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا عبد (٣) الله بن أحمد بن عبد الرحمن الدَّشْتَكِى ، حدثنى أبى ، عن أبى سفيان عبد الرحمن ابن عبد الله بن تيم (٤) ، حدثنا عطية بن سليمان أبو الغيث ، عن أبى عبد الرحمن القاسم بن أبى القاسم الدمشقى ، عن أبى أمامة : أنه سمعه يحدث عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه قال : « إن قُمُص أهل الجنة لتبدو من رضوان الله، وإن السحابة لتمر بهم فتناديهم : يا أهل الجنة ، ماذا تريدون أن أمطركم ؟ حتى إنها لتمطرهم الكواعب الأتراب » .

وقوله : (وكأسا دهاقا) ــ قال ابن عباس : مملوءة متتابعة . وقال عكرمة : صافية . وقال مجاهد، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد : (دهاقا) : الملأى المترعة . وقال مجاهد ، وسعيد بن جبير : هى المتتابعة .

وقوله : (لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا) كقوله : (لا لغو فيها ولا تأثيم (٥)) ، أى : ليس فيها كلام لاغ عار عن الفائدة ، ولا إثم كذب ، بل هى دار السلام ، وكل كلام فيها سالم من النقص .

وقوله : (جزاء من ربك عطاء حسابا) ، أى : هذا الذى ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهموه، بفضله ومَنّه وإحسانه ورحمته ؛ (عطاء) : حساباً ، أى : كافيا وافراً شاملاً كثيرا ؛ تقول العرب : « أعطانى فأحسبنى » ، أى : كفانى . ومنه « حسبى الله » ، أى : الله كافىّ .

---

(١) فى المخطوطة : « ثديهن كواعب » . والمثبت من الطبعات السابقة .

(٢) انظر تفسير الآية السابعة والثلاثين من سورة الواقعة : ١١/٨ ــ ١٢ .

(٣) كذا فى المخطوطة ، ويبدو أنه خطأ ، وأن صوابه : « أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الدشتكى » وهو مترجم له فى الجرح والتعديل : ٥٩/١/١ . على أن ابن أبى حاتم لم يذكر أنه روى عنه ، وإنما قال : « وسمعت أبى يقول : كتبت عنه ، وكان صدوقاً » . فأما أبو أحمد هذا فهو : « عبد الرحمن بن عبد الله بن سعد الدشتكى » . وهو مترجم له فى الجرح : ٢٥٤/٢/٢ ــ ٢٥٥ .

(٤) فى المخطوطة تحولت « تيم » إلى « تمم » وبقى نقط التاء والياء كما هو . ولم نجده، وفى التهذيب فى ترجمة « عبدالرحمن بن عبد الله بن سعد » أنه يروى عن أنه سفيان قاضى نيسابور ، وهو : عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد ربه .

(٥) سورة الطور ، آية : ٢٣ .

رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله ، وأنه رب السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ، وأنه الرحمن الذى شملت رحمته كل شىء .

وقوله : (لا يملكون منه خطابا) ، أى : لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه ، كقوله : (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه (١)) ، وكقوله : (يوم يأتى لا تكلم نفس إلا بإذنه (٢)) .

وقوله : (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون) : اختلف المفسرون فى المراد بالروح هاهنا ، ما هو ؟ على أقوال :

أحدها : رواه العوفى ، عن ابن عباس : أنهم أرواح بنى آدم .

الثانى : هم بنو آدم . قاله الحسن ، وقتادة ، وقال قتادة : هذا مما كان ابن عباس يكتمه .

الثالث : أنهم خلق من خلق الله ، على صُوَرِ بنى آدم ، وليسوا بملائكة ولا ببشر ، وهم يأكلون ويشربون . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وأبو صالح والأعمش .

الرابع : هو جبريل . قاله الشعبى ، وسعيد بن جبير ، والضحاك . ويستشهد لهذا القول بقوله : (نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين (٣)) . وقال مقاتل بن حيان : الروح : أشرف الملائكة ، وأقرب إلى الرب — عز وجل — وصاحب الوحى .

والخامس : أنه القرآن . قاله ابن زيد ، كقوله : (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا (٤)) ... الآية .

والسادس : أنه ملك من الملائكة بقدر جميع المخلوقات ؛ قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : قوله (يوم يقوم الروح) ، قال : هو ملك من أعظم الملائكة خلقا .

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن خلف العسقلانى ، حدثنا رَوَّاد بن الجراح ، عن أبى حمزة ، عن الشعبى ، عن علقمة عن ابن مسعود قال : « الروح : فى السماء الرابعة هو أعظم من السموات ومن الجبال ومن الملائكة ، يسبح كل يوم اثنى عشر ألف تسبيحة ، يخلق الله من كل تسبيحة ملكاً من الملائكة يجىء يوم القيامة صفا وحده (٥) » . وهذا قول غريب جداً .

---

(١) سورة البقرة ، آية : ٢٥٥ .
(٢) سورة هود ، آية : ١٠٥ .
(٣) سورة الشعراء ، آية : ١٩٣ — ١٩٤ .
(٤) سورة الشورى ، آية : ٥٢ .
(٥) تفسير الطبرى : ٣٠/١٥ .

وقد قال الطبراني : حدثنا محمد بن عبد الله [بن] عِرْس المصرى ، حدثنا وهب . [الله بن روق بن هُبَيْرة ، حدثنا بشر بن بكر (١)] ، حدثنا الأوزاعى ، حدثنى عطاء ، عن عبد الله بن عباس : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : « إن لله ملكا لو قيل له : التقم السموات السبع والأرضين بلقمة واحدة ، لفعل ، تسبيحه : سبحانك حيث كنت » .

وهذا حديث غريب جداً ، وفى رفعه نظر ، وقد يكون موقوفا على ابن عباس ، ويكون مما تلقاه من الإسرائيليات ، والله أعلم .

وتَوَقَّفَ ابنُ جرير فلم يَقطع بواحد من هذه الأقوال كلها ، والأشبه – والله أعلم – أنهم بنو آدم .

وقوله : (إلا من أذن له الرحمن) ، كقوله : (لا تكلم نفس إلا بإذنه (٢)) . وكما ثبت فى الصحيح : « ولا يتكلم يومئذ إلا الرسلُ (٣) » .

وقوله : (وقال صوابا) ، أى : حقا ، ومن الحق : « لا إله إلا الله » ، كما قاله أبو صالح ، وعكرمة .

وقوله : (ذلك اليوم الحق) ، أى : الكائن لا محالة ، (فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا) ، أى : مرجعا وطريقا يهتدى إليه ومنهجا يمر به عليه .

وقوله : (إنا أنذرناكم عذابا قريبا) ، يعنى : يوم القيامة لتأكد وقوعه صار قريبا ، لأن كل ما هو آت آت .

(يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) ، أى : يعرض عليه جميع أعماله ، خيرها وشرها ، قديمها وحديثها ، كقوله : (ووجدوا ما عملوا حاضرا (٤)) وكقوله ، (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر (٥)) .

(ويقول الكافر : يا ليتنى كنت ترابا) ، أى : يود الكافر يومئذ أنه كان فى الدار الدنيا ترابا ، ولم يكن خلق ، ولا خرج إلى الوجود . وذلك حين عاين عذابَ الله ، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سُطِّرت عليه بأيدى الملائكة السَّفَرة الكرام البَرَرة . وقيل : إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التى كانت فى الدنيا ، فيفصل بينها بحكمه العدل الذى لا يجور ، حتى إنه ليقتص للشاة الجمَّاء من القرناء (٦) . فإذا فرغ من الحكم بينها قال لها : كونى ترابا . فتصير ترابا ، فعند ذلك يقول الكافر : (يا ليتنى كنت ترابا)، أى : كنت حيوانا فأرجع إلى التراب . وقد ورد معنى هذا فى حديث الصُّور المشهور (٧) ، وورد فيه آثار عن أبى هُرَيرة ، وعبد الله بن عمرو ، وغيرهما .

[آخر تفسير سورة (عم)]

---

(١) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، ولم تقع لنا ترجمة « وهب هذا » ، فأما « بشر بن بكر » فهو التنيسى ، مترجم فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ١/١/٣٥٢ .

(٢) سورة هود ، آية : ١٠٥ .

(٣) تقدم الحديث عند آية هود المتقدمة ، وخرجناه هنالك ، انظر : ٤/٢٧٩ .

(٤) سورة الكهف ، آية : ٤٩ .

(٥) سورة القيامة ، آية : ١٣ .

(٦) انظر : ٢/٢٩٨ ، ٥/١٦٣ ، ٣١١ .

(٧) تقدم حديث الصور عند تفسير الآية الثالثة والسبعين من سورة الأنعام . انظر : ٣/٢٧٦ – ٢٨٢ . وانظره أيضاً أول سورة الحج : ٥/٣٨٤ – ٣٨٥ .

تفسير سورة النازعات

وهى مكيـــة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ
أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ
أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ
وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤)

قال ابن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق ، وسعيد بن جبير ، وأبو صالح ، وأبو الضحى ، والسدّى : (النازعات غرقا) : الملائكة ، يعنون حين تنزع أرواح بنى آدم ، فمنهم من تأخذ روحه بعُنف فتُغرق فى نزعها ، ومَن تأخذ روحه بسهولة وكأنما حلّته من نشاط (١) ، وهو قوله : (والناشطات نشطا) قاله ابن عباس .

وعن ابن عباس : (والنازعات) : هى أنفس الكفار ، تُنزَع ثم تُنشَط ، ثم تغرق فى النار . رواه ابن أبى حاتم .

وقال مجاهد : (والنازعات غرقا) : الموت . وقال الحسن ، وقتادة : (والنازعات غرقاً ، والناشطات نشطا) : هى النجوم .

وقال عَطاءُ بنُ أبى رَباح فى قوله : (والنازعات) و (الناشطات) : هى القِسىّ فى القتال . والصحيح الأول ، وعليه الأكثرون .

وأما قوله : (والسابحات سبحا) فقال ابن مسعود : هى الملائكة . ورُوى عن على ، ومجاهد ، وسعيد بن جُبَير ، وأبى صالح مثلُ ذلك .

وعن مجاهد : (والسابحات سبحا) : الموت . وقال قتادة : هى النجوم . وقال عطاء بن أبى رباح : هى السفن .

وقوله : (فالسابقات سبقا) — رُوى عن على ، ومسروق ، ومجاهد ، وأبى صالح ، والحسن البصرى : يعنى الملائكة ؛ قال الحسن : سبقت إلى الإيمان والتصديق به . وعن مجاهد : الموت . وقال قتادة : هى النجوم . وقال عطاء : هى الخيلُ فى سبيل الله .

وقوله : (فالمدبرات أمرا) ، قال على ، ومجاهد ، وعطاء ، وأبو صالح ، والحسن ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، والسدى : هى الملائكة — زاد الحسن : تدبر الأمر من السماء إلى الأرض . يعنى بأمر ربها عز وجل . ولم يختلفوا فى هذا ، ولم يقطع ابن جرير بالمراد فى شىء من ذلك ، إلا أنه حكى فى (المدبرات أمرا) أنها الملائكة ، ولا أثبت ولا نفى .

---

(١) كذا ، وفى اللسان : ونشطه بالنشاط : عقده .

وقوله : (يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة) ــ قال ابن عباس : هما النفختان الأولى والثانية . وهكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، وغير واحد .

وعن مجاهد : أما الأولى ــ وهي قوله ــ : (يوم ترجف الراجفة) ، فكقوله جلت عظمته : (يوم ترجف الأرض والجبال) ، والثانية ــ وهي الرادفة ــ فهي كقوله : (وحُمِلَتِ الأرض والجبالُ فَدُكَّتا دكةً واحدةً (١)) .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن الطفيل بن أبي بن كعب ، عن أبيه قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » ؛ فقال رجل : يا رسول الله ، أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك ؟ قال : « إذاً يكفيك الله ما أهمَّك من دنياك وآخرتك (٢) » .

وقد رواه الترمذي ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، من حديث سفيان الثوري ، بإسناده مثله ، ولفظ الترمذي وابن أبي حاتم : « كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : « يا أيها الناس ، اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه (٣) » .

وقوله : (قلوب يومئذ واجفة) ــ قال ابن عباس : يعني خائفة . وكذا قال مجاهد ، وقتادة .

(أبصارها خاشعة) ، أي : أبصار أصحابها وإنما أضيفَ إليها ، للملابسة . أي : ذليلة حقيرة ؛ مما عاينت من الأهوال .

وقوله : (يقولون : أئنا لمردودون في الحافرة) ؟ يعني مشركي قريش ومن قال بقولهم في إنكار المعاد ، يستبعدون وقوعَ البعث بعد المصير إلى الحافرة وهي القبور ، قاله مجاهد . وبعد تمزق أجسادهم وتفتت عظامهم ونخورها ، ولهذا قالوا : (أئذا كنا عظاما نخرة ؟) وقرئ : ناخرة (٤) .

وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : أي بالية ــ قال ابن عباس : وهو العظم إذا بلى ودَخَلت الريح فيه .

(قالوا : تلك إذاً كرة خاسرة) .

وعن ابن عباس ، ومحمد بن كعب ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وأبي مالك ، والسدي ، وقتادة : الحافرة الحياة بعد الموت . وقال ابن زيد : الحافرة : النار . وما أكثر أسماءها ! هي النار ، والجحيم ، وسقر ، وجهنم ، والهاوية ، والحافرة ، ولظى ، والحُطَمة .

وأما قولهم : (تلك إذاً كرة خاسرة) ، فقال محمد بن كعب : قالت قريش : لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرن .

---

(١) تفسير الطبري : ٣٠/٢١ . وقد اضطرب الأثر في مخطوطة الأزهر ، فدخل أثر ابن عباس المتقدم في هذا الأثر ، وما أثبت عن الطبعات السابقة .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٥/١٣٦ .

(٣) تحفة الأحوذي ، أبواب صفة القيامة ، الحديث ٢٥٧٤ : ٧/١٥٢ – ١٥٤ . وقال الترمذي : « هذا حديث حسن » . وتفسير الطبري : ٣٠/٢١ .

(٤) انظر تفسير الطبري : ٣٠/٢٣ .

قال الله تعالى : (فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة) ، أى : فإنما هو أمر من الله لا مثنوية فيه ولا تأكيد ، فإذا الناس قيام ينظرون ، وهو أن يأمر تعالى إسرافيلَ فينفخ فى الصّور نفخةَ البعث ، فاذا الأولون والآخرون قيامٌ بين يدَىِ الربِّ — عز وجل — ينظرون ، كما قال : (يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلا (١)) ؛ وقال تعالى : (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر (٢)) . وقال تعالى : (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب(٣)

قال مجاهد : (فإنما هى زجرة واحدة) : صيحة واحدة .

وقال إبراهيم التيمى : أشد ما يكون الرب غَضَباً على خلقه يوم يبعثهم .

وقال الحسن البصرى : زجرة من الغضب . وقال أبو مالك ، والربيع بن أنس : زجرة واحدة : هى النفخة الآخرة .

وقوله : (فإذا هم بالساهرة) — قال ابن عباس : (الساهرة) الأرض كلها . وكذا قال سعيد بن جُبَير ، وقتادة، وأبو صالح .

وقال عكرمة ، والحسن ، والضحاك ، وابن زيد : (الساهرة) وجه الأرض .

وقال مجاهد : كانوا بأسفلها فأخرجوا إلى أعلاها — قال : و (الساهرة) : المكان المستوى (٤) .

وقال الثورى: (الساهرة) أرض الشام، وقال عثمان بن أبى العاتكة : (الساهرة) : أرض بيت المقدس . وقال وهب ابن مُنَبِّه : (الساهرة) : جبل إلى جانب بيت المقدس . وقال قتادة أيضا (الساهرة) : جهنم .

وهذه أقوال كلها غريبة ، والصحيح أنها الأرض وجهها الأعلى .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا خَزَر (٥) بن المبارك الشيخ الصالح ، حدثنا بشر بن السرى ، حدثنا مصعب بن ثابت ، عن أبى حازم ، عن سهل بن سعد الساعدى : (فاذا هم بالساهرة) ، قال : أرض بيضاء عفراء كالخُبزة النَّقِىِّ .

وقال الربيع بن أنس : (فإذا هم بالساهرة) ، يقول الله عز وجل : (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار) . ويقول : (ويسألونك عن الجبال فقل : ينسفها ربى نسفا . فيذرها قاعا صفصفا . لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا) . وقال : (ويوم نسير الجبال وترَى الأرض بارزة) : وبرزت الأرض التى عليها الجبال ، وهى لا تعد من هذه الأرض ، وهى أرض لم يعمل عليها خطيئة ، ولم يُهَراق عليها دم .

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ٥٢ .
(٢) سورة القمر ، آية : ٥٠ .
(٣) سورة النحل ، آية : ٧٧ .
(٤) تفسير الطبرى : ٢٤/٣٠ .
(٥) فى المخطوطة «حرر» دون نقط . وفى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ١/٢/٤٠٦ : «خزر» بزاءين . والمثبت من المشبه للذهبى : ١/٢٢٥ .

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾
فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾
فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ
نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾

يخبر تعالى رسوله محمدا ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن عبده ورسوله موسى ــ عليه السلام ــ أنه ابتعثه إلى فرعون ، وأيده بالمعجزات ، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه ، حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر . وكذلك عاقبةَ من خالفك وكذب بما جئت به ، ولهذا قال فى آخر القصة : (إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) .

فقوله : (هل أتاك حديث موسى) ؟ أى : هل سمعت بخبره ؟ (إذ ناداه ربه) ، أى : كلمه نداء ، (بالواد المقدس) ، أى : المطهر : (طوى) ، وهو اسم الوادى على الصحيح ، كما تقدم فى سورة (طه (١)) . فقال له : (اذهب إلى فرعون إنه طغى) ، أى : تجبر وتمرد وعتا ، (فقل : هل لك إلى أن تزكى) ؟ أى : قل له : هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك تزَكَّى به ، أى : تسلم وتطيع . (وأهديك إلى ربك) ، أى : أدلك إلى عبادة ربك ، (فتخشى) ، أى : فيصير قلبك خاضعا له مطيعا خاشياً بعد ما كان قاسيا خبيثا بعيدا من الخير . (فأراه الآية الكبرى) ، يعنى : فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحقّ حجة قويةَ ودليلا واضحا على صدق ما جاءه به من عند الله ، (فكذب وعصى) ، أى : فكذب بالحق وخالف ما أمره به من الطاعة . وحاصلُه أنه كفَر قلبُه فلم ينفعل لموسى بباطنه ولا بظاهره ، وعلمُه بأن ما جاء به أنه حق لا يلزم منه أنه مؤمن به ؛ لأن المعرفة علمُ القلب ، والإيمان عمله ، وهو الانقياد للحق والخضوع له ؛

وقوله : (ثم أدبر يسعى) ، أى : فى مقابلة الحق بالباطل ، وهو جَمْعُهُ السحرةَ ليقابلوا ما جاء به موسى ــ عليه السلام ــ من المعجزة الباهرة ، (فحشر فنادى) ، أى : فى قومه (فقال : أنا ربكم الأعلى) .

قال ابن عباس ، ومجاهد : وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله (ما علمت لكم من إله غيرى) ، بأربعين سنة (٢) ؛

قال الله تعالى : (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) ، أى : انتقم الله منه انتقاما جعله به عبرةَ و نكالا لأمثاله من المتمردين فى الدنيا (ويوم القيامة ، بئس الرفد المرفود (٣)) ، كما قال تعالى : (وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون (٤)) . هذا هو الصحيح فى معنى الآية أن المراد بقوله : (نكال الآخرة والأولى) ، أى : الدنيا والآخرة . وقيل : المراد بذلك كلمتاه الأولى والثانية . وقيل : كفره وعصيانه . والصحيح الذى لا شك فيه الأول .

وقوله : (إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) ، أى : لمن يتعظ وينزجر .

---

(١) انظر : ٢٧١/٥ .
(٢) سورة القصص ، آية : ٣٨ .
(٣) سورة هود ، آية : ٩٩ .
(٤) سورة القصص ، آية : ٤١ .

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى محتجا على منكرى البعث فى إعادة الخلق بعد بدئه : (أأنتم) أيها الناس (أشدّ خلقا أم السماء) ؟ يعنى بل السماءُ أشدّ خلقاً منكم ، كما قال تعالى : (لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس (١)) . وقال : (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ، بلى ، وهو الخلاق العليم (٢)) . فقوله : (بناها) فسره بقوله : (رفع سمكها فسواها) ، أى : جعلها عالية البناء ، بعيدة الفناء ، مستوية الأرجاء ، مكللة بالكواكب فى الليلة الظلماء .

وقوله : (وأغطش ليلها وأخرج ضحاها) ، أى : جعل ليلها مظلماً أسود حالكا ، ونهارها مضيئا مشرقا نيرا واضحا .

قال ابن عباس : أغطش ليلها : أظلمه . وكذا قال مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وجماعة كثيرون ؛ (وأخرج ضحاها) ، أى : أنار نهارها .

وقوله : (والأرض بعد ذلك دحاها) ، فسره بقوله : (أخرج منها ماءها ومرعاها) : وقد تقدم فى سورة « حم السجدة (٣) » أن الأرض خلقت قبل السماء ، ولكن إنما دُحيت بعد خلق السماء ، بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل . وهذا معنى قول ابن عباس ، وغير واحد ، واختاره ابن جرير .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن جعفر الرقى ، حدثنا عبيد الله — يعنى ابن عَمْرو — عن زيد ابن أبى أنيسة ، عن المنهال بن عَمْرو ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (دحاها) : وَدَحْيُها أن أخرج منها الماء والمرعى ، وشقق الأنهار ، وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام ، فذلك قوله : (والأرض بعد ذلك دحاها) . وقد تقدم تقرير ذلك هنالك .

وقوله : (والجبال أرساها) ، أى : قررها وأثبتها وأكَّدها فى أماكنها ، وهو الحكيم العليم . الرءوف بخلقه الرحيم .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا العوام بن حَوْشب ، عن سليمان بن أبى سليمان ، عن أنس بن مالك ، عن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : « لما خلق الله الأرض جعلت تميد ، فخلق الجبال فألقاها عليها ، فاستقرت ، فتعجبت الملائكةُ من خَلق الجبال فقالت : يا رب ، فهل من خلقك شىء أشد من الجبال ؟ قال : نعم ، الحديد ؛ قالت : يا رب ، فهل من خلقك شىء أشد من الحديد ؟ قال : نعم ، النار . قالت : يا رب ، فهل من خلقك شىء

(١) سورة غافر ، آية : ٥٧ .
(٢) سورة يس ، آية : ٨١ .
(٣) انظر تفسير الآية التاسعة من سورة فصلت : ١٥٥/٧ .

أشد من النار ؟ قال : نعم ، الماء : قالت : يا رب ، فهل من خلقك شيء أشد من الماء ؟ قال : نعم ، الريح . قالت : يا رب ، فهل من خلقك شيء أشد من الريح ؟ قال : نعم ، ابن آدم ، يتصدق بيمينه يخفيها من شماله (١) » .

وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا ابنُ حميد ، حدثنا جرير ، عن عطاء ، عن أبي عبد الرحمن السلَمى ، عن على قال : لما خلق الله الأرض [قمصت(٢)] وقالت: تخلق علَيّ آدم وذريته ، يلقون على نتنهم ويعملون علَيّ بالخطايا . فأرساها الله بالجبال ، فنها ما ترون ، ومنها ما لا ترون ، وكان أول قَرَار الأرض كلحم الجزور إذا نُحِر ، يختلج لحمه . غريب (٣) .

وقوله : (متاعا لكم ولأنعامكم) ، أى : دحا الأرض فأنبع عيونها ، وأظهر مكنونها ، وأجرى أنهارها ، وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها ، وثبت جبالها لتستقر بأهلها ويقر قرارها ، كل ذلك متاعاً لخلقه ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدّةَ احتياجهم إليها فى هذه الدار إلى أن ينتهى الأمد ، وينقضى الأجل .

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

يقول تعالى : (فإذا جاءت الطامة الكبرى) ، وهو يوم القيامة . قاله ابن عباس ، سميت بذلك لأنها تَطُمّ على كل أمر هائل مفظع ، كما قال تعالى : (والساعة أدهى وأمر(٤)) .

(يوم يتذكر الإنسان ماسعى) ، أى : حينئذ يتذكرُ ابنُ آدم جميع [عمله] خيره وشره ، كما قال : (يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى (٥)) ؟ .

(وبرزت الجحيم لمن يرى) ، أى : أظهرت للناظرين فرآها الناس عيانا . (فأما من طغى) ، أى : تمرّد وعتا ، (وآثر الحياة الدنيا) ، أى : قدمها على أمر دينه وأخراه ، (فإن الجحيم هى المأوى) ، أى : فإن مصيرَه إلى الجحيم ، وإن مطعمه من الزقوم ومشربه من الحميم . (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى) ، أى : خاف القيامَ

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١٢٤/٣ . وقد أخرجه الترمذى عن محمد بن بشار ، عن يزيد ، باسناده مثله . وقال : « هذا حديث غريب ، لا يعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه » . انظر تحفة الأحوذى ، تفسير المعوذتين : ٣٠٧/٩ – ٣٠٨ .

(٢) أى : اضطربت .

(٣) تفسير الطبرى : ٣٠/٣٠ . وقد تقدم عن الإمام على من طريق أخرى نحوه ، عند تفسير الآية الخامسة عشرة من سورة النحل : ٤٨١/٤ – ٤٨٢ .

(٤) سورة القمر ، آية : ٤٦ .

(٥) سورة الفجر ، آية : ٢٣ .

بين يدى الله – عز وجل – حُكْمَ الله فيه ، ونهى نفسه عن هواها ، وردّها إلى طاعة مولاها ، (فإن الجنة هى المأوى) أى : منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء .

ثم قال تعالى : (يسئلونك عن الساعة أيان مرساها . فيم أنت من ذكراها . إلى ربك منتهاها) ، أى : ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق ، بل مَرَدّها ومَرجعها إلى الله عز وجل ، فهو الذى يعلم وقتها على التعيين ؛ (ثقُلت فى السموات والأرض ، لا تأتيكم إلا بغتة ، يسئلونك كأنك حَفِىٌّ عنها ، قل : إنما علمها عند الله (١)) . وقال هاهنا (إلى ربك منتهاها) . ولهذا لما سأل جبريلُ رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم – عن وقت الساعة قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل (٢) » .

وقوله : (إنما أنت منذر من يخشاها) ، أى : إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه ، فمن خشى الله وخاف مقامه ووعيده ، اتبعك فأفلح وأنجح ، والخيبة والخسار على من كذبك وخالفك

وقوله : (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) ، أى : إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مُدّة الحياة الدنيا ، حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو ضُحى من يوم .

قال جويبر ، عن الضحاك ، عن ابن عباس : (كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها) ، أما عَشِيَّة فما بين الظهر إلى غروب الشمس ، (أو ضحاها) ، ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار .

وقال قتادة : وقت الدنيا فى أعين القوم حين عاينوا الآخرة (٣) .

[آخر تفسير سورة النازعات]

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ١٨٧ .

(٢) تقدم الحديث عند تفسير آية الأعراف المتقدمة ، وخرجناه هنالك ، انظر : ٣/٥٢٢ – ٥٢٣ .

(٣) تفسير الطبرى : ٣٠/٣٢ .

تفسير سورة عبس

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ
اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾
فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾
بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾

ذكر غيرُ واحدٍ من المفسرين أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان يوماً يخاطبُ بعض عظماء قريش ، وقد طَمع فى إسلامه ، فبينما هو يخاطبه ويناجيه إذ أقبل ابنُ أم مكتوم — وكان ممن أسلم قديما — فجعل يسأل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن شىء ويلح عليه ، وودّ النبى — صلى الله عليه وسلم — أن لو كف ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل ؛ طمعا ورغبة فى هدايته . وعَبَس فى وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه ، وأقبل على الآخر ، فأنزل الله عز وجل : (عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى) ؟ أى : يحصل له زكاة وطهارة فى نفسه ، (أو يذكر فتنفعه الذكرى) ، أى : يحصل له اتعاظ وانزجار عن المحارم ، (أما من استغنى فأنت له تصدى) ، أى : أما الغنىّ فأنت تتعرض له لعله يهتدى ، (وما عليك ألا يزكى) ؟ أى : ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة . (وأما من جاءك يسعى. وهو يخشى) ، أى : يقصدك ويؤمك ليهتدى بما تقول له ، (فأنت عنه تلهى) ، أى : تتشاغل . ومن هاهنا أمر الله — عز وجل — رسوله — صلى الله عليه وسلم — أن لا يخص بالإنذار أحداً ، بل يساوى فيه بين الشريف والضعيف ، والفقير والغنى ، والسادة والعبيد ، والرجال والنساء ، والصغار والكبار . ثم الله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، وله الحكمة [البالغة] والحجة [الدامغة] .

قال الحافظ أبو يعلى فى مسنده : حدثنا محمد — هو ابن مهدى — حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن قتادة عن أنس فى قوله : (عبس وتولى) ، جاء ابن أم مكتوم إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — وهو يكلم أبى بن خلف ، فأعرض عنه ، فأنزل الله : (عبس وتولى . أن جاءه الأعمى) ، فكان النبىّ — صلى الله عليه وسلم — بعد ذلك يكرمه .

قال قتادة : وأخبرنى أنس بن مالك قال : رأيته يوم القادسية وعليه درع ومعه راية سوداء — يعنى ابن أم مكتوم (١) .

---

(١) تفسير الطبرى : ٣٠/٣٣ .

وقال أبو يعلى وابن جرير : حدثنا سعيد بن يحيى الأموى ، حدثنى أبى ، عن هشام بن عروة [مما عرضه (١)] عليه عن عروة ، عن عائشة قالت : أنزلت : (عبس وتولى) فى ابن أم مكتوم الأعمى ، أتى إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فجعل يقول : أرشدنى — قالت : وعند رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من عظماء المشركين — قالت : فجعل النبى — صلى الله عليه وسلم — يُعرض عنه ويقبل على الآخر ، ويقول : « أترى بما أقول بأسا ؟ » . فيقول : لا . فى هذا أنزلت : (عبس وتولى (٢)) .

وقد روى الترمذى هذا الحديثَ ، عن سعيد بن يحيى الأموى ، بإسناده ، مثله ، ثم قال : « وقد رواه بعضهم عن هشام بن عروة ، عن أبيه قال : أنزلَت (عبس وتولى) فى ابن أم مكتوم ، ولم يذكر فيه عن عائشة (٣) » .

قلت : كذلك هو فى الموطأ (٤) .

ثم روى ابن جرير وابن أبى حاتم أيضا من طريق العوفى ، عن ابن عباس قوله : (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) ، قال : بينا رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — يناجى عتبةَ بن ربيعة ، وأبا جهل بنَ هشام ، والعباس بن عبد المطلب — وكان يتصدى لهم كثيرا ، ويحرص عليهم أن يؤمنوا — فأقبل إليه رجل أعمى — يقال له عبد الله بن أم مكتوم — يمشى وهو يناجيهم ، فجعل عبد الله يستقرىءُ النبى — صلى الله عليه وسلم — آية من القرآن ، وقال : يا رسول الله ، علمنى مما علمك الله . فأعرض عنه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وعبس فى وجهه ، وتولى وكَرِهَ كلامَه ، وأقبل على الآخرين ؛ فلما قضى رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — نجواه وأخذ ينقلب إلى أهله ، أمسك الله بعض بصره ، ثم خَفَقَ(٥) برأسه، ثم أنزل الله : (عبس وتولى . أن جاءه الأعمى. وما يدريك لعله يَزَّكَّى . أو يذكر فتنفعه الذكرى) . فلما نزل فيه ما نزل ، أكرمه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكلمه وقال له النبى — صلى الله عليه وسلم — « ما حاجتك ؟ هل تريد من شىء ؟ وإذا ذهب من عنده قال : هل لك حاجة فى شىء ؟ » . وذلك لما أنزل الله تعالى : (أما من استغنى . فأنت له تصدى . وما عليك ألا يزكى (٥) ؟ ! .) .

فيه غرابة ونكارة ، وقد تُكُلِّم فى إسناده .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن منصور الرّمادى ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنا الليث ، حدثنى يونس ، عن ابن شهاب قال : قال سالم بن عبد الله ، عن عبد الله بن عمر : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « إن بلالا يؤذن بليل ، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم » . وهو الأعمى الذى أنزل الله فيه : (عبس وتولى . أن جاءه الأعمى) ، وكان يؤذن مع بلال قال سالم : وكان رَجُلاً ضريرَ البصر ، فلم يك يؤذن حتى يقول له الناس — حين ينظرون إلى بزوغ الفجرَ : أذّن .

---

(١) ما بين القوسين عن تفسير الطبرى ، ومكانه بياض فى المخطوطة .
(٢) تفسير الطبرى : ٣٠/٣٢ .
(٣) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة عبس ، الحديث ٣٣٨٧ : ٩/٢٥٠ — ٢٥١ .
(٤) انظر تنوير الحوالك : ١/١٦٠ — ١٦١ .
(٥) أى : سقطت ذقنه على صدره .
(٦) تفسير الطبرى : ٣٠/٣٢ — ٣٣ .

وهكذا ذكر عروة بن الزبير ، ومجاهد ، وأبو مالك ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، وغير واحد من السلف والخلف : أنها نزلت فى ابن أم مكتوم . والمشهور أن اسمه عبد الله ، ويقال : عمرو (١) . والله أعلم

وقوله : (كلا إنها تذكرة) ، أى : هذه السورة ، أو الوصية بالمساواة بين الناس فى إبلاغ العلم من شريفهم ووضيعهم .

وقال قتادة والسدى : (كلا إنها تذكرة) ، يعنى القرآن . (فمن شاء ذكره) ، أى : فمن شاء ذكر الله فى جميع أموره . ويحتمل عود الضمير على الوحى ؛ لدلالة الكلام عليه .

وقوله : (فى صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة) ، أى : هذه السورة أو العظة ، وكلاهما متلازم ، بل جميع القرآن (فى صحف مكرمة) ، أى : معظمة موقرة . (مرفوعة) ، أى : عالية القدر ، (مطهرة) أى : من الدنس والزيادة والنقص .

وقوله : (بأيدى سفرة) . قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وابن زيد : هى الملائكة .

وقال وهب بن منبه : هم أصحاب محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقال قتادة : هم القراء . وقال ابن جريج ، عن ابن عباس : السفرة بالنبطية : القراء .

وقال ابن جرير : الصحيح أن السفرة الملائكة ، والسفرة يعنى بين الله وبين خلقه ، ومنه يقال : السفير : الذى يسعى بين الناس فى الصلح والخير ، كما قال الشاعر :

وَمَا أَدَعُ السِّفَارَةَ بَيْنَ قَوْمِى   وَمَا أَمْشِى بغش إن مَشَيْتُ (٢)

وقال البخارى : « سَفَرَةُ : الملائكة (٣) . سَفَرتُ : أصلحت بينهم . وجعلت الملائكةُ إذا نَزَلَتْ بوَحْىِ الله وتأديته كالسفير الذى يصلح بين القوم (٤) .

وقوله : (كرام بررة) ، أى : خُلُقهم كريم حَسَنٌ شريف ، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة . ومن هاهنا ينبغى لحامل القرآن أن يكون فى أفعاله وأقواله على السداد والرشاد .

قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا هشام ، عن قتادة ، عن زُرَارة بن أوفى ، عن سعد بن هشام ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « الذى يقرأ القرآن ــ وهو ما هر به ــ مع السَفَرَة الكرام البَرَرَة ، والذى يقرؤه ــ وهو عليه شاق ــ له أجران (٥) » .

أخرجه الجماعة من طريق قتادة ، به (٦) .

---

(١) انظر أسد الغابة ، ترجمة « عبد الله بن زائدة بن الأصم » : ٣/٢٣٨ . وترجمة « عمرو بن زائدة بن الأصم » : ٤/٢٢٣.

(٢) تفسير الطبرى : ٣٠/٣٥ . ومعانى القرآن للفراء : ٣/٢٣٦ . والبحر المحيط : ٨/٤٢٥ .

(٣) بعده فى الصحيح : « واحدهم سافر » .

(٤) فى المخطوطة : « بين الناس » . والمثبت عن الصحيح ، انظر البخارى ، تفسير سورة (عبس) : ٦/٢٠٦ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٦/٤٨ . وانظر أيضاً : ٦/٩٤ ، ٩٨ ، ١١٠ ، ١٧٠ ، ١٩٢ ، ٢٣٩ ، ٢٦٦ .

(٦) البخارى ، تفسير سورة (عبس) : ٦/٢٠٦ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب فضل الماهر بالقرآن والذى يتتعتع به » ٢/١٩٥ . وسنن أبى داود ، كتاب الوتر ، باب « فى ثواب قراءة القرآن » . وتحفة الأحوذى ، أبواب فضائل القرآن ، باب « ماجاء فى فضل قارىء القرآن » ، الحديث ٣٠٦٨ : ٨/٢١٥ – ٢١٦ . وقال : « هذا حديث حسن صحيح » . وابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب « ثواب القرآن » ، الحديث ٣٧٧٩ : ٢/١٢٤٢ .

﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى ذاماً لمن أنكر البعث والنشور من بني آدم : (قتل الإنسان ما أكفره) . قال الضحاك ، عن ابن عباس : (قتل الإنسان) : لعن الإنسان . وكذا قال أبو مالك . وهذا لجنس الإنسان المكذب ؛ لكثرة تكذيبه بلا مستند ، بل بمجرد الاستبعاد وعدم العلم .

قال ابن جرير(١) : (ما أكفره) : ما أشد كفره ! وقال ابن جرير : ويحتمل أن يكون المراد أيّ شيء جعله كافراً ؟ أي : ما حمله على التكذيب بالمعاد .

وقال قتادة — وقد حكاه البغوي عن مقاتل والكلبي — : (ما أكفره) ما ألعنه .

ثم بين تعالى له كيف خلَقَه اللهُ من الشيء الحقير ، وأنه قادر على إعادته كما بدأه ، فقال : (من أي شيء خلقه ؟ من نطفة خلقه فقدره) ، أي : قدر أجله ورزقه وعمله وشقي أو سعيد . (ثم السبيل يسره) — قال العوفي ، عن ابن عباس : ثم يسر عليه خروجه من بطن أمه . وكذا قال عكرمة ، والضحاك ، وأبو صالح ، وقتادة ، والسدي ، واختاره ابن جرير (٢) .

وقال مجاهد : هذه كقوله : (إنا هديناه السبيل : إما شاكرا وإما كفورا) . أي : بيّنّا له ووضّحناه وسهّلنا عليه علمه ، وهكذا قال الحسن ، وابن زيد . وهذا هو الأرجح ، والله أعلم .

وقوله : (ثم أماته فأقبره) ، أي : إنه بعد خلقه له (أماته فأقبره) ، أي : جعله (٣) ذا قبر . والعرب تقول :

---

(١) كذا في مخطوطة الأزهر . وفي الطبعات السابقة : « ابن جريج » . ولعل الصواب ما في المخطوطة ، فقد قال ابن جرير الطبري ٣٠/٣٥ : « وفي قوله (أكفره) وجهان ، أحدهما : التعجب من كفره مع إحسان الله إليه وأياديه عنده . والآخر : ما الذي أكفره ، أي : أي شيء أكفره ؟ » . والوجه الأول يعني ما ذكره ابن كثير أولا : « ما أشد كفره » . فذكر مراد الطبري من التعجب . والوجه الثاني استفهام .

(٢) تفسير الطبري : ٣٠/٣٦ .

(٣) كل ذلك ذكره الفراء في معاني القرآن : ٣/٢٣٧ ، وأخذه عنه الطبري : ٣٠/٣٦ . وهذا المعنى الذي تفيده الهمزة يسميه علماء الصرف : التعريض ، يقول الأستاذ محمد عبد الخالق عضيمه في كتابه « المغني في تصريف الأفعال » ٨٢ : « تفيد الهمزة أنك جعلت ما كان مفعولا معرضاً لأن يقع عليه الحدث ، سواء صار مفعولا أم لا ، نحو أقتلته : أي عرضته لأن يكون مقتولا ، قتل أولا . وأبعت الفرس أي : عرضته للبيع ، وأسقيته ، أي : جعلت له ماء وسقيا ، شرب أولم يشرب ، وأقبرته جعلت له قبرا ، قبر أولا ، وقبرته دفنته . وأشفيته : عرضته للشفاء » . وانظر كتاب سيبويه : ٢/٢٣٥ . والشافية للرضي : ١/٨٨ .

«قبرتُ الرجل»: إذا وَلِى ذلك منه، وأقبره الله. «وعَضَبتُ قرن الثور، وأعضبه الله، وبترت ذنب البعير وأبتره الله»، وطردت عني فلاناً، وأطرده الله. أي: جعله طريدا، قال الأعشى (١):

لَو أَسْنَدَتْ مَيتاً إلى نَحْرِها(٢) عَاش، ولَم يُنقَل إلى قَابِر

وقوله: (ثم إذا شاء أنشره)، أي: بعثه بعد موته، ومنه يقال: البعث والنشور، (ومن آياته: أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون (٣))، (وانظر إلى العظام كيف نُنْشِرُها (٤) ثم نكسوها لحما (٥)).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أصبغُ بنَ الفَرَج، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث: أن دراجا أبا السمح أخبره، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: «يأكل التراب كلَّ شيء من الإنسان إلا عَجْبَ ذَنَبه». قيل: وما هو يا رسول الله؟ قال: «مثل حبة خردل منه ينشأون».

وهذا الحديث ثابت في الصحيح من رواية الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، بدون هذه الزيادة، ولفظه: «كل ابن آدم يبلى إلا عَجْبَ الذنب، منه خلق وفيه يركب (٦)».

وقوله: (كلا، لَمَّا يقض ما أمره) – قال ابن جرير: يقول: كلا، ليس الأمر كما يقول هذا الإنسان الكافر؛ من أنه قد أدى حق الله عليه في نفسه وماله، (لما يقض ما أمره)، يقول: لم يؤدِّ ما فرض عليه من الفرائض لربه عز وجل (٧).

ثم روى هو وابن أبي حاتم من طريق ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد قوله: (كلا، لما يقض ما أمره)، قال: لايقضي أحد أبدا كل ما افتُرض عليه. وحكاه البغوي، عن الحسن البصري، بنحو من هذا. ولم أجد للمتقدمين فيه كلاماً سوى هذا. والذي يقع لي في معنى ذلك – والله أعلم – أن المعنى: (ثم إذا شاء أنشره)، أي: بعثه، (كلا لما يقض ما أمره): لا يفعله الآن حتى تنقضي المدة، ويفرغ القدر من بني آدم ممن كَتب تعالى له [أن] سيُوجَدُ منهم، ويخرج إلى الدنيا، وقد أمر به تعالى كونا وقدرا، فإذا تناهى ذلك عند الله أنشر الله الخلائق وأعادهم كما بدأهم.

وقد روى ابنُ أبي حاتم، عن وهب بن مُنَبِّه قال: قال عُزَير عليه السلام: قال الملك الذي جاءني: فان القبور هي بطنُ الأرض، وإن الأرض هي أم الخلق، فإذا خلق الله ما أراد أن يخلق، وتمت هذه القبورُ التي مَدَّ الله لها،

---

(١) ديوانه، ط بيروت: ٩٣، من قصيدة يهجو بها علقمة بن علاثة، ويمدح عامر بن الطفيل.

(٢) في المخطوطة: «إلى خدرها». وفي الطبعات السابقة: «إلى صدرها». والمثبت عن ديوان الأعشى، وتفسير الطبري: ٣٦/٣٠.

(٣) سورة الروم، آية: ٢٠.

(٤) هي قراءة نبه عليها ابن كثير في سورة البقرة: ٤٦٥/١. وقال ابن خالويه في الحجة ٧٦: «يقرأ بالراء والزاي».

(٥) سورة البقرة، آية: ٢٥٩.

(٦) البخاري، تفسير سورة الزمر: ١٥٨/٦. ومسلم، كتاب الفتن، باب «ما بين النفختين»: ٢١٠/٨. وانظر تفسير الآية الرابعة عشرة من «سورة الزمر»: ٤٦١/٥.

(٧) تفسير الطبري: ٣٦/٣٠.

انقطعت الدنيا ومات من عليها ، ولفظت الأرض ماء جوفها ، وأخرجت القبورُ ما فيها ، وهذا شبيه بما قلناه من معنى الآية ، والله — سبحانه وتعالى — أعلم بالصواب .

وقال : (فلينظر الإنسان إلى طعامه) : فيه [امتنان وفيه] استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام بعد ما كانت عظاما بالية وترابا متمزقا : (أنا صببنا الماء صبا) ، أى : أنزلناه من السماء على الأرض ، (ثم شققنا الأرض شقا) ، أى : أسكناه فيها فَدَخل فى تُخومها وتَخَلّل فى أجزاء الحب المودَع فيها ، فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض ، (فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا) ، فالحب : كل ما يذكر من الحبوب ، والعنب معروف ، والقضب هو : الفصْفصة التى تأكلها الدواب رطبة . ويقال لها : القَتّ أيضا . قال ذلك ابن عباس ، وقتادة ، والضحاك ، والسدى .

وقال الحسن البصرى : القضب : العلف .

(وزيتونا) ، وهو معروف ، وهو أدْمٌ وعصيره أدم ، ويستصبح به ، ويدهن به . (ونخلا) يؤكل بلحا [بسرا] ورطبا ، وتمرا ، ونيئا ، ومطبوخا ، ويعتصر منه رُبّ وخل . (وحدائق غلبا) : أى بساتين . قال الحسن ، وقتادة : (غلبا) : نخل غلاظ كرام . وقال ابن عباس ، ومجاهد : (الحدائق) : كل ما التف واجتمع . وقال ابن عباس أيضا : (غلبا) : الشجر الذى يستظل به . وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (وحدائق غلبا) ، أى : طوال (١) . وقال عكرمة : (غلبا) ، أى : غلاظ الأوساط . وفى رواية : غلاظ الرقاب ، ألم تر إلى الرجل إذا كان غليظ الرقبة قيل : والله إنه لأغلب . رواه ابن أبى حاتم ، وأنشد ابن جرير للفرزدق (٢) :

عوَى فأثارَ أغلب ضَيْغَميا فَويلَ ابن المَراغة ما استثَارا (٣)

وقوله : (وفاكهة وأبا) ، أما الفاكهة فهو ما يتفكه به من الثمار . قال ابن عباس : الفاكهة : كل ما أكل رطبا ؛ والأب ما أنبتت الأرض ، مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس — وفى رواية عنه : هو الحشيش للبهائم . وقال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وأبو مالك : الأب : الكلأ . وعن مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد: الأب للبهائم كالفاكهة لبنى آدم . وعن عطاء : كل شيء نبت على وجه الأرض فهو أبّ . وقال الضحاك : كل شيء أنبتته الأرض سوى الفاكهة فهو أبّ .

وقال ابن إدريس ، عن عاصم بن كليب ، عن أبيه ، عن ابن عباس : الأب : نبت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس . ورواه ابن جرير من ثلاث طرق ، عن ابن إدريس ، ثم قال :

---

(١) تفسير الطبرى : ٣٠/٣٧ .

(٢) ديوانه ، ط بيروت : ٣٥٥ . من قصيدة يرد فيها على جرير ويناقضه .

(٣) الضمير فى « عوى » يعود إلى جرير . والأغلب : الأسد الضيغمى : الشديد الضغم ، وهو العض . واستثاره : هاجه .

حدثنا أبو كريب وأبو السائب قالا : حدثنا ابن إدريس ، حدثنا عبد الملك ، عن سعيد بن جبير قال : عدّ (١) ابن عباس وقال : الأب : ما أنبتت الأرض للأنعام . هذا لفظ أبي كريب وقال أبو السائب : ما أنبتت الأرض مما يأكل الناس و تأكل الأنعام .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : الأب : الكلأ والمرعى . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة، وابن زيد ، وغير واحد (٢) .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : حدثنا محمد بن يزيد ، حدثنا العوام بن حَوشَب ، عن إبراهيم التّيمى قال : سُئِلَ أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — عن قوله تعالى : (وفاكهة وأبا) فقال : أىّ سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إن قلتُ فى كتاب الله مالا أعلم .

وهذا منقطع بين إبراهيم التيمى والصدّيق . فأما ما رواه ابن جرير حيث قال :

حدثنا ابن بشار ، حدثنا ابن أبى عَدىّ ، حدثنا حُمَيد ، عن أنس قال : قرأ عمر بن الخطاب (عبس وتولى) فلما أتى على هذه الآية : (وفاكهة وأبا) قال : عرفنا ما الفاكهة ، فما الأب ؟ فقال : لعمرك يا ابن الخطاب إن هذا لهو التكلف (٢) .

فهو إسناد صحيح ، وقد رواه غير واحد عن أنس ، به . هو محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وجنسه وعينه ، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض ، لقوله : (فأنبتنا فيها حبا . وعنبا وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا وفاكهة وأبا) .

وقوله : (متاعا لكم ولأنعامكم) ، اى : عيشة لكم ولانعامكم فى هذه الدار إلى يوم القيامة .

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

قال ابن عباس : (الصاخة) : اسم من أسماء يوم القيامة ، عظمه الله ، وحذّره عباده (٣) .

قال ابن جرير : لعله اسم للنفخة فى الصور . وقال البَغَوىّ : (الصاخة) : يعنى صيحة القيامة ، سميت بذلك لأنها تَصُخّ الأسماع ، أى : تبالغ فى إسماعها حتى تكاد تُصِمّها .

(يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه) ، أى : يراهم ، ويفر منهم ، ويبتعد عنهم ، لأن الهول عظيم ، والخطب جليل .

---

(١) تقدم قبل هذا فى رواية أخرى ٣٨/٣٠ : « عن ابن عباس — قال : عد سبعا ، و جعل رزقه فى سبعة ، وجعله من سبعة ، وقال فى آخر ذلك : الأب ما انبتت الأرض مما لا يأكل الناس » .

(٢) تفسير الطبرى : ٣٨/٣٠ .

(٣) تفسير الطبرى : ٣٩/٣٠ .

قال عكرمة : يلقى الرجل زوجته فيقول لها : يا هذه ، أىّ بعل كنتُ لك ؟ فتقول : نعم البعل كنتَ ! وتثنى بخير ما استطاعت ، فيقول لها : فإنى أطلبُ إليك اليومَ حسنةً واحدةً تهبينها لى لعلى أنجو مما ترين . فتقول له : ما أيسر ما طلبتَ ، ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئا أتخوف مثل (١) الذى تخاف . قال : وإن الرجل ليلقى ابنه فيتعلق به فيقول : يا بنى ، أىّ والد كنتُ لك ؟ فيثنى بخير . فيقول له : يا بنى ، إنى احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك لعلى أنجو بها مما ترى . فيقول ولده : يا أبت ، ما أيسر ما طلبت ، ولكنى أتخوف مثل الذى تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئا ؛ يقول الله تعالى : (يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه).

وفى الحديث الصحيح – فى أمر الشفاعة – : أنه إذا طلب إلى كل من أولى العزم أن يشفع عند الله فى الخلائق ، يقول : نفسى نفسى ، لا أسأله اليوم إلا نفسى ، حتى إن عيسى ابن مريم يقول : لا أسأله اليومَ إلا نفسى ، لا أسأله مريم التى ولدتنى . ولهذا قال تعالى : (يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه) .

قال قتادة : الأحب فالأحبّ ، والأقرب فالأقربَ ، من هول ذلك اليوم .

وقوله : (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) ، أى : هو فى شُغُل شاغل عن غيره .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عمار بن الحارث ، حدثنا الوليد بن صالح ، حدثنا ثابت أبو زيد العبادانى ، عن هلال بن خبَّاب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « تحشرون حفاة عراة مشاة غُرلاَ (٢) » . قال : فقالت زوجته : يا رسول الله ، أوَ يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال : « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) . أو قال : « ما أشغله عن النظر » .

وقد رواه النسائى منفردا به ، عن أبى داود ، عن عارم ، عن ثابت بن يزيد – وهو أبو زيد الأحول البصرى ، أحد الثقات – عن هلال بن خبَّاب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، به . وقد رواه الترمذى عن عَبد بن حُمَيد ، عن محمد بن الفضل ، عن ثابت بن يزيد ، عن هلال بن خبَّاب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « تحشرون حفاة عراة غُرلاَ » . فقالت امرأة : أيبصر – أو : يرى – بعضنا عورة بعض ؟ قال : « يا فلانة ، (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) . ثم قال الترمذى : « وهذا حديث حسن صحيح ، وقد روى من غير وجه عن ابن (٣) عباس رضى الله عنه .

وقال النسائى : أخبرنى عمرو بن عثمان ، حدثنا بقية ، حدثنا الزبيدى ، أخبرنى الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرلا » . فقالت عائشة : يا رسول الله ، فكيف بالعورات ؟ فقال : (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه (٤)) .

انفرد به النسائى من هذا الوجه .

---

(١) فى المخطوطة : « أتخوف من قبل الذى . . » والمثبت من الطبعات السابقة .
(٢) غرل – بضم فسكون – : جمع أغرل ، وهو الأقلف غير المختون .
(٣) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة عبس ، الحديث ٣٣٨٨ : ٩/٢٥١ – ٢٥٢ .
(٤) النسائى ، كتاب الجنائز ، باب « البعث » : ٤/١١٤ .

ثم قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أزهر بن حاتم ، حدثنا الفضل بن موسى ، عن عائذ بن شُرَيح ، عن أنس ابن مالك قال : سألت عائشة رضى الله عنها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقالت : يا رسول الله ، بأبي أنتَ وأمى ، إنى سائلتك عن حديث فتخبرنى أنتَ به . قال : « إن كان عندى منه علم » . قالت : يا نبى الله ، كيف يُحشر الرجال ؟ قال : « حفاة عراة » . ثم انتظرَتْ ساعة فقالت : يا نبى الله ، كيف يحشر النساء ؟ قال : « كذلك حفاة عراة » : قالت : واسوأتاه من يوم القيامة ! قال : « وعن أى ذلك تسألين ، إنه قد نزل على آية لا يضرك كان عليك ثياب أولا يكون » . قالت : أيةُ آية هى يا نبى الله ؟ قال : (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) .

وقال البغوى فى تفسيره : أخبرنا أحمد بن إبراهيم الشّريحى ، أخبرنا أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبى ، أخبرنى الحسين بن عبد الله ، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن ، حدثنا محمد بن عبد العزيز ، حدثنا ابن أبى أويس ، حدثنا أبى ، عن محمد بن أبى عياش ، عن عطاء بن يسار ، عن سودة زوج النبى – صلى الله عليه وسلم – قالت : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « يبعث الناس حفاة عراة غُرلا قد ألجمهم العرق ، وبلغ شحوم الآذان » . فقلت : يا رسول الله ، واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض ؟ فقال : « قد شُغِل الناس ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » .

هذا حديث غريب من هذا الوجه جدا ، وهكذا رواه ابن جرير عن أبى عمار الحسين بن حريث المروزى ، عن الفضل بن موسى ، به (١) . ولكن قال أبو حاتم الرازى : « عائذ بن شريح ضعيف ، فى حديثه ضعف (٢) » .

وقوله : (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة) ، أى : يكون الناس هنالك فريقين (وجوه مسفرة) ، أى : مستنيرة (ضاحكة مستبشرة) ، أى : مسرورة فرحة من سرور قلوبهم ، قد ظهر البشر على وجوههم ، وهؤلاء أهل الجنة . (ووجوه يومئذ عليها غبرة . ترهقها قترة) ، أى : يعلوها ويغشاها قترة ، أى : سواد .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا سهل بن عثمان العسكرى ، حدثنا أبو على محمد مولى جعفر بن محمد ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يلجم الكافرَ العرقُ ، ثم تقع الغَبَرة على وجوههم » . قال فهو قوله : (ووجوه يومئذ عليها غبرة) .

وقال ابن عباس : (ترهقها قترة) ، أى : يغشاها سواد الوجوه .

وقوله : (أولئك هم الكفرة الفجرة) ، أى : الكفرة قلوبهم ، الفجرة فى أعمالهم ، كما قال تعالى : (ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا (٣)) .

آخر تفسير سورة عبس ، ولله الحمد والمنة

---

(١) تفسير الطبرى : ٣٠/٣٩ .
(٢) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ١٦/٢/٣ .
(٣) سورة نوح ، آية : ٢٧ .

تفسير سورة التكوير

وهى مكيـــة

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، أخبرنا عبد الله بن بحير القاص : أن عبد الرحمن بن يزيد الصنعانى أخبره : أنه سمع بن عمر يقول : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ : (إذا الشمس كورت) ، و (إذا السماء انفطرت) ، و (إذا السماء انشقت (١)) .

وهكذا رواه الترمذى ، عن العباس بن عبد العظيم العنبرى ، عن عبد الرزاق ، به (٢) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (إذا الشمس كورت) ، يعنى : أظلمت . وقال العوفى ، عنه : ذهبت . وقال مجاهد : اضمحلّت وذَهَبت . وكذا قال الضحاك .

وقال قتادة : ذهب ضوؤها . وقال سعيد بن جبير : (كورت) : غُوِّرت .

وقال الربيع بن خُثَيم (كورت) : يعنى رمى بها .

وقال أبو صالح (كورت) : ألقيت . وعنه أيضا : نكست . وقال زيد بن أسلم : تقع فى الأرض .

قال ابن جرير : والصواب من القول عندنا فى ذلك أن التكوير جمع الشىء بعضه إلى بعض . ومنه تكوير العمامة [وهو لفها على الرأس ، وكتكوير الكاره (٣)] و [هى (٤)] جمع الثياب بعضها إلى بعض ، فمعنى قوله : (كورت) : جمع بعضها إلى بعض ، ثم لفت فرمى بها ، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوؤها (٥) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٧/٢ ، ٣٦ ، ١٠٠ .
(٢) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة إذا الشمس كورت : ٢٥٢/٩ – ٢٥٣ .
(٣) الكارة : الغرارة التى تكون فيها الأمتعة وغيرها .
(٤) ما بين الأقواس عن تفسير الطبرى .
(٥) تفسير الطبرى : ٤١/٣٠ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج وعمرو بن عبد الله الأودى ، حدثنا أبو أسامة ، عن مجالد ، عن شيخ من بَجيلة ، عن ابن عباس : (إذا الشمس كورت) ، قال : يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة فى البحر ، ويبعث الله ريحا دبورا فتضرمها نارا . وكذا قال عامر الشعبي . ثم قال ابن أبي حاتم :

حدثنا أبي ، حدثنا أبو صالح ، حدثني معاوية بن صالح ، عن ابن يزيد بن أبي مريم ، عن أبيه أن رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ قال فى قول الله : (إذا الشمس كورت) ، قال : « كورت فى جهنم . » .

وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده : حدثنا موسى بن محمد بن حَيَّان ، حدثنا دُرُسْتُ بن زياد ، حدثنا يزيد الرقاشي ، حدثنا أنس قال : قال رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ : « الشمس والقمر ثُوران عَقيران (١) فى النار » .

هذا حديث ضعيف ، لأن يزيد الرقاشي ضعيف ، والذى رواه البخارى فى الصحيح بدون هذه الزيادة ، ثم قال البخارى :

حدثنا مسدد ، حدثنا عبد العزيز بن المختار ، حدثنا عبد الله الداناجُ ، حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة ، عن النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ : « الشمس والقمر يكوران (٢) يوم القيامة (٣) » .

انفرد به البخارى وهذا لفظه ، وإنما أخرجه فى كتاب « بدء الخلق » ، وكان جديرا أن يذكره هاهنا أو يكرره ، كما هى عادته فى أمثاله ! وقد رواه البزار فَجَوَّد إيراده ، فقال :

حدثنا إبراهيم بن زياد البغدادى ، حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا عبد العزيز بن المختار ، عن عبد الله الداناج قال : سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن خالد بن عبد الله القسرى فى هذا المسجد مسجد الكوفة ، وجاء الحسن فجلس إليه فَحدّث قال : حدثنا أبو هريرة أن رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ قال : « إن الشمس والقمر ثوران فى النار يوم القيامة » . فقال الحسن : وما ذنبهما ؟ فقال : أحدثك عن رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وتقول : أحسبه قال : وما ذنبهما .

ثم قال : لا يروى عن أبي هُرَيرة إلا من هذا الوجه ، ولم يرو عبد الله الداناج عن أبي سلمة سوى هذا الحديث .

وقوله : (وإذا النجوم انكدرت) ، أى : انتثرت ، كما قال تعالى : (وإذا الكواكب انتثرت (٤)) ، وأصل الانكدار : الانصباب .

قال الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي بن كعب قال : ست آيات قبل يوم القيامة ، بينا الناس فى أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم ، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض فتحركت واضطربت واختلطت ، ففزعت الجن إلى الإنس والإنس إلى الجن ، واختلطت الدواب والطير والوحوش ، فماجوا

---

(١) فى النهاية : « وفى حديث كعب : (إن الشمس والقمر ثوران عقيران فى النار) ، قيل : لما وصفهما الله تعالى بالسباحة فى قوله : (كل فى فلك يسبحون) . ثم أخبر أنه يجعلهما فى النار ، يعذب بهما أهلها بحيث لا يبرحانها ، صارا كأنهما زمنان عقيران . حكى ذلك أبو موسى ، وهو كما تراه ! » .

(٢) فى البخارى : مكوران .

(٣) البخارى ، كتاب بدء الخلق ، باب « صفة الشمس والقمر بحسبان » : ١٣١/٤ .

(٤) سورة الانفطار ، آية : ٢ .

بعضهم في بعض . (وإذا الوحوش حشرت) ، قال : اختلطت ، (وإذا العشار عطلت) ، قال : أهملها أهلها ، (وإذا البحار سجرت) ، قال : قالت الجن : نحن نأتيكم بالخبر . قال : فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تأجّجُ ، قال : فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا ، قال فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم .

رواه ابن جرير (١) — وهذا لفظه — وابن أبي حاتم ، ببعضه ، وهكذا قال مجاهد والربيع بن خُثَيم ، والحسن البصري وأبو صالح ، وحماد بن أبي سليمان ، والضحاك في قوله : (وإذا النجوم انكدرت) ، أي : تناثرت .

وقال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (وإذا النجوم انكدرت) ، أي : تغيرت . وقال يزيد بن أبي مريم ، عن النبي — صلى الله عليه وسلم — : (وإذا النجوم انكدرت) ، قال : « انكدرت في جهنم ، وكل من عبد من دون الله فهو في جهنم ، إلا ما كان من عيسى وأمه ، ولو رضيا أن يُعبَدا لدخلاها » . رواه ابن أبي حاتم بالإسناد المتقدم .

وقوله : (وإذا الجبال سيرت) ، أي : زالت عن أماكنها ونُسفت ، فتركت الأرض قاعا صفصفا .

وقوله : (وإذا العشار عطلت) ، قال عكرمة ، ومجاهد : عشار الإبل . قال مجاهد : (عطلت) : تركت وسُيِّبت .

وقال أبي بن كعب ، والضحاك : أهملها أهلها . وقال الربيع بن خُثَيم : لم تحلب ولم تُصَرّ (٢) ، تخلى منها أربابها .

وقال الضحاك : تركت لا راعي لها .

والمعنى في هذا كله متقارب . والمقصود أن العشار من الإبل — وهي : خيارها والحوامل منها التي قد وَصَلت في حملها إلى الشهر العاشر ، واحدها : عُشَراء ، ولا يزال ذلك اسمها حتى تضع — قد اشتغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها ، بعد ما كانوا أرغب شيء فيها ، بما دَهَمَهم من الأمر العظيم المُفظِع الهائل ، وهو أمر القيامة وانعقاد أسبابها ، ووقوع مقدماتها .

وقيل : بل يكون ذلك يوم القيامة يراها أصحابها كذلك ولا سبيل لهم إليها . وقد قيل في العشار : إنها السحاب يُعطَّل عن المسير بين السماء والأرض ، لخراب الدنيا . وقيل : إنها الأرض التي تُعشَّر (٣) . وقيل : إنها الديار التي كانت تسكن تُعَطَّل لذهاب أهلها . حكى هذه الأقوال كلها الإمام أبو عبد الله القرطبي في كتابه « التذكرة » ، ورجح أنها الإبل ، وعزاه إلى أكثر الناس (٤) .

قلت : بل لا يعرف عن السلف والأئمة سواه ، والله أعلم .

---

(١) تفسير الطبري : ٣٠/٤١ .

(٢) كان من عادة العرب أن تصر ضروع الحلوبات إذا أرسلوها إلى المرعى ، ويسمون ذلك الرباط صرارا ، فإذا راحت عشياً حلت تلك الأصرة وحلبت .

(٣) في التذكرة القرطبي : « » وقيل : الأرض التي يعشر زرعها تعطل فلا تزرع » .

(٤) انظر التذكرة : ٢١٢ — ٢١٣ .

وقوله : (وإذا الوحوش حُشِرت) ، أى : جمعت . كما قال تعالى : (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، مافرطنا فى الكتاب من شىء ، ثم إلى ربهم يحشرون (١)) — قال ابن عباس : يحشر كل شىء حتى الذباب : رواه ابن أبى حاتم . وكذا قال الربيع بن خُثَيم والسدّى ، وغير واحد . وكذا قال قتادة فى تفسير هذه الآية : إن هذه الخلائق [موافية] فيقضى الله فيها ما يشاء .

وقال عكرمة : حشرها موتها .

وقال ابن جرير : حدثنى على [بن مسلم] الطوسى ، حدثنا عباد بن العوام ، أخبرنا حُصَين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله : (وإذا الوحوش حشرت) ، قال : حَشرُ البهائم موتها ، وحشر كل شىء الموت غير الجن والإنس ، فإنهما يوقفان يوم القيامة .

حدثنا أبو كريب ، حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن أبيه ، عن أبى يعلى ، عن الربيع بن خُثَيم : (وإذا الوحوش حشرت) ، قال : أتى عليها أمر الله . قال سفيان : قال أبى : فذكرته لعكرمة ، فقال : قال ابن عباس : حشرها موتها .

وقد تقدم عن أبى بن كعب أنه قال : (وإذا الوحوش حُشِرت) : اختلطت .

قال ابن جَرير : والأولى قَولُ من قال : (حُشِرت) : جمعت ، قال الله تعالى : (والطير محشورة) ، أى : مجموعة (٢) .

وقوله : (وإذا البحار سُجِّرت) ، قال ابن جَرير : حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن عُليّة ، عن داود ، عن سعيد ابن المسيّب قال : قال على — رضى الله عنه — لرجل من اليهود : أين جهنم ؟ قال : البحر . فقال : ما أراه إلا صادقا : (والبحر المسجور) ، (وإذا البحار سُجِرت) [مُخَفَّفة (٣)] .

وقال ابن عباس وغير واحد : يرسل الله عليها الدَبور فتسعرها ، وتصير نارا تأجج . وقد تقدم الكلام على ذلك عند قوله : (والبحر المسجور (٤)) .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين بن الجنيد ، حدثنا أبو طاهر حدثنى عبد الجبار بن سليمان أبو سليمان النفاط — شيخٌ صَالح يُشبهُ مالكَ بن أنس — عن معاوية بن سعيد قال : إن هذا البحر بركة — يعنى بحر الروم — وسط الأرض ، والأنهار كلها تصب فيه ، والبحر [الكبير] يصب فيه ، وأسفله آبار مطبقة بالنحاس ، فإذا كان يوم القيامة أسجر .

وهذا أثر غريب عجيب . وفى سنن أبى داود : « لايركب البحر إلا حاج أو معتمر أو غاز ، فإن تحت البحر نارا ، وتحت النار بحرا » الحديث ، وقد تقدم الكلام عليه فى « سورة فاطر (٥) » .

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ٣٨ .

(٢) تفسير الطبرى : ٤٣/٣٠ .

(٣) ما بين القوسين عن تفسير الطبرى : ٤٣/٣٠ .

(٤) انظر تفسير الآية السادسة من سورة الطور : ٤٠٥/٧ .

(٥) لم يتقدم الحديث ذكر فى سورة فاطر ، وقد أخرجه أبوداود فى كتاب الجهاد ، باب « فى ركوب البحر فى الغزو » ونصه كما هنا .

وقال مجاهد ، والحسن بن مسلم : (سجرت) أوقدت . وقال الحسن : يبست . وقال الضحاك ، وقتادة : غاض ماؤها فذهب ولم يبق فيها قطرة . وقال الضحاك أيضا : (سجرت) فجرت . وقال السدى : فتحت وسيرت . وقال الربيع ابن خُثَيم : (سجرت) : فاضت .

وقوله : (وإذا النفوس زوجت) ، أى : جمع كل شكل إلى نظيره ، كقوله : (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم (١)) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن الصباح البزار ، حدثنا الوليد بن أبى ثور ، عن سماك ، عن النعمان ابن بَشير أنه قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « (وإذا النفوس زوجت) ، قال : الضرباء ، كلّ رجل مع كل قوم كانوا يعملون عمله » ، وذلك بأن الله عز وجل يقول : (وكنتم أزواجا ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة . وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة . والسابقون السابقون) ، قال : هم الضرّباء .

ثم رواه بن أبى حاتم من طرق أخر ، عن سماك بن حرب ، عن النعمان بن بشير أن عُمَر خطب الناس فقرأ : (وإذا النفوس زوجت) ، فقال : تزَوّجها أن تؤلف كل شيعة إلى شيعتهم — وفى رواية : هما الرجلان يعملان العمل فيدخلان به الجنة أو النار .

وفى رواية عن النعمان قال : سئل عمر عن قوله تعالى : (وإذا النفوس زوجت) ، فقال : يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح ، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء فى النار ، فذلك تزويج الأنفس .

وفى رواية عن النعمان أن عمر قال للناس : ما تقولون فى تفسير هذه الآية : (وإذا النفوس زوجت) ؟ فسكتوا ، قال : ولكن هو الرجل يزوج نظيره من أهل الجنة ، والرجل يزوج نظيره من أهل النار ، ثم قرأ : (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) .

وقال العوفى ، عن ابن عباس فى قوله : (وإذا النفوس زوجت) ، قال : ذلك حين يكون الناس أزواجا ثلاثة .

وقال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : (وإذا النفوس زوجت) ، قال : الأمثال من الناس جمع بينهم . وكذا قال الربيع بن خُثَيم والحسن ، وقتادة . واختاره ابن جرير ، وهو الصحيح (٢) .

قول آخر فى قوله : (وإذا النفوس زوجت) ، قال ابن أبى حاتم :

حدثنا على بن الحسين بن الجنيد ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن أشعث ، عن جعفر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : يسيل واد من أصل العرش من ماء فيما بين الصيحتين ، ومقدار ما بينهما أربعون عاما ، فينبت منه كل خلق بلى ، من الإنسان أو طير أو دابة ، ولو مر عليهم مار قد عرفهم قبل ذلك لعرفهم على الأرض قد نبتوا ، ثم تُرسَل الأرواح فتزوّج الأجساد ، فذلك قول الله تعالى : (وإذا النفوس زوجت) .

وكذا قال أبو العالية ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والشعبى ، والحسن البصرى أيضا فى قوله : (وإذا النفوس

---

(١) سورة الصافات ، آية : ٢٢ .
(٢) تفسير الطبرى : ٣٠/٤٥ .

زوجت) ، أى : زوجت بالأبدان : وقيل : زوج المؤمنون بالحور العين ، وزوج الكافرون بالشياطين : حكاه القرطبى فى « التذكرة (١) » .

وقوله : (وإذا الموءودة سئلت : بأى ذنب قتلت) : هكذا قراءة الجمهور (سئلت (٢)) . والموءودة هى التى كان أهل الجاهلية يدسونها فى التراب كراهية البنات ، فيوم القيامة تسأل الموءودة على أى ذنب قتلت ، ليكون ذلك تهديداً لقاتلها ، فاذا سئل المظلوم فما ظن الظالم إذا ؟ !

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (وإذا الموءودة سئلت (٣)) ، أى : سألت . وكذا قال أبو الضحى (سألت) ، أى : طلبت بدمها . وعن السدى ، ، وقتادة ، مثله .

وقد وردت أحاديث تتعلق بالموءودة ، فقال الإمام أحمد :

حدثنا عبد الله بن يزيد ، [حدثنا سعيد] بن أبى أيوب ، حدثنى أبو الأسود – وهو : محمد بن عبد الرحمن بن نوفل – عن عروة ، عن عائشة ، عن جُدَامة بنت وهب – أخت عكاشة – قالت : حضرتُ رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم – فى ناس وهو يقول : « لقد هممت أن أنهى عن الغيلة(٤) ، فنظرت فى الروم وفارس فإذا هم يُغيلُونَ أولادهم ، ولا يضر أولادَهم ذلك شيئاً » . ثم سألوه عن العزل ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « ذلك الوأد الخفى ، وهو الموءودة سئلت (٥) » .

ورواه مسلم من حديث أبى عبد الرحمن المقرىء – وهو عبد الله بن يزيد – عن سعيد بن أبى أيوب : ورواه أيضا ابن ماجه ، عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن يحيى بن إسحاق السيلحينى ، عن يحيى بن أيوب . ورواه مسلم أيضا وأبو داود والترمذى والنسائى ، من حديث مالك بن أنس ، ثلاثتهم عن أبى الأسود ، به (٦) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا ابن أبى عَدِىّ ، عن داود بن أبى هند ، عن الشعبى ، عن علقمة ، عن سلمة بن يزيدَ الجُعْفىّ قال : انطلقتُ أنا وأخى إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقلنا : يا رسول الله ، إن أمنا مليكة كانت تَصِل الرحم وتقرى الضيف ، وتفعل [وتفعل (٧)] هلكت فى الجاهلية ، فهل ذلك نافعها شيئا ؟ قال : « لا » . قلنا : فإنها

---

(١) التذكرة : ٢١٣ .

(٢) قال الطبرى ٣٠/٤٥ : « اختلفت القرأة فى قراءة ذلك ، فقرأه أبو الضحى مسلم بن صبيح (وإذا الموءودة سألت . بأى ذنب قتلت) بمعنى : سألت الموءودة الوائدة : بأى ذنب قتلوها ؟ » هذا و (قتلت) على هذه القراءة بسكون اللام وضم التاء . انظر البحر المحيط : ٨/٤٣٣ .

(٣) كذا فى المخطوطة ، وانظر البحر المحيط : ٨/٤٣٣ ، وتفسير الطبرى : ٣٠/٤٥ .

(٤) الغيلة – بكسر الغين – : أن يجامع الرجل زوجته وهى ترضع » .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٦/٤٣٤ .

(٦) مسلم ، كتاب النكاح ، باب « جواز الغيلة ، وهى : وطء المرضع وكراهة العزل » : ٤/١٦١ . وابن ماجه ، كتاب النكاح ، باب « الغيل » ، الحديث ٢٠١١ : ١/٦٤٨ . وسنن أبى داود ، كتاب الطب ، باب « فى الغيل » . وتحفة الأحوذى ، أبواب الطب ، باب « ماجاء فى الغيلة » ، الحديث ٢١٥٩ : ٦/٢٤٩ – ٢٥٠ . والنسائى ، كتاب النكاح ، باب « الغيلة » : ٦/١٠٦ – ١٠٧ .

(٧) ما بين القوسين عن المسند .

كانت وأدت أختا لنا فى الجاهلية ، فهل ذلك نافعُها شيئا ؟ قال : « الوائدةُ والموءودةُ فى النار ، إلا أن يدركَ الوائدةَ الإسلام ، فيعفوَ الله عنها (١) » .

ورواه النسائى ، من حديث داود بن أبى هند ، به .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطى ، حدثنا أبو أحمد الزبيرى ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن علقمة وأبى الأحوص ، عن ابن مسعود قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « الوائدة والموءودة فى النار » .

وقال أحمد أيضا : حدثنا إسحاق الأزرق ، أخبرنا عوف ، حدثتنى حسناء ابنة معاوية الصُّرَيمية ، عن عمها (٢) قال : قلت : يا رسول الله ، من فى الجنة ؟ قال : « النبى فى الجنة ، والشهيد فى الجنة ، والمولود فى الجنة ، والموءودة فى الجنة » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا قرة قال : سمعت الحسن يقول : قيل: يا رسول الله ، من فى الجنة ؟ قال : « الموءودة فى الجنة » .

هذا حديث مرسل من مراسيل الحسن ، ومنهم من قبله .

وقال ابن أبى حاتم : [حدثنى] أبو عبد الله الظهرانى ، حدثنا حفص بن عمر العدنى ، حدثنا الحكم بن أبان ، عن عكرمة قال : قال ابن عباس : أطفال المشركين فى الجنة ، فمن زعم أنهم فى النار فقد كذب ، يقول الله عز وجل : (وإذا الموءودة سئلت . بأى ذنب قتلت) ، قال ابن عباس : هى المدفونة .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا إسرائيل ، عن سماك بن حرب ، عن النعمان بن بشير ، عن عمر بن الخطاب فى قوله : (وإذا الموءودة سئلت) ، قال : جاء قيس بن عاصم إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : يا رسول الله ، إنى وأدت بنات لى فى الجاهلية ، فقال : « أعتق عن كل واحدة منهن رقبة » . قال : يا رسول الله ، إنى صاحب إبل ؟ قال : « فانحر عن كل واحدة منهن بدنة » .

قال الحافظ أبو بكر البزار : خولف فيه عبد الرزاق ، ولم يكتبه إلا عن الحسين بن مهدى ، عنه (٣) .

وقد رواه ابن أبى حاتم فقال : أخبرنا أبو عبد الله الظهرانى — فيما كتب إلى — قال : حدثنا عبد الرزاق ... فذكره بإسناده مثله ، إلا أنه قال : « وأدت ثمان بنات لى فى الجاهلية » . وقال فى آخره : « فأهد إن شئت عن كل واحدة بدنة » . ثم قال :

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٤٧٨/٣ .

(٢) فى المخطوطة : « عن عمتها قالت » . والمثبت عن المسند ، وأسد الغابة : ٣٦٦/٦ بتحقيقنا . هذا وقد تقدمت سياقة هذا الحديث فى سورة الإسراء : ٥٤/٥ .

(٣) كذا فى المخطوطة والطبعات السابقة ، ونحسب أنه قد وقع فى نص البزار تحريف ، فالحسين بن مهدى ، يروى عن عبد الرزاق ، انظر التهذيب : ٣٧٢/٢ .

حدثنا أبي ، حدثنا عبد الله بن رجاء ، حدثنا قيس بن الربيع ، عن الأغر بن الصباح ، عن خليفة بن حُصَين قال : قدم قيس بن عاصم على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : يا رسول الله ، إنى وأدتُ اثنتى عشرة ابنةً لى فى الجاهلية ــ أو : ثلاث عشرة ــ قال : « أعتق عددهن نَسَما » ؛ قال : فأعتق عددهن نسما ، فلما كان فى العام المقبل جاء بمائة ناقة ، فقال : يا رسول الله ، هذه صدقة قومى على أثر ما صنعت بالمسلمين . قال على ابن أبى طالب : فكنا نريحها ، ونسميها القيسية .

وقوله : (وإذا الصحف نشرت) ، قال الضحاك : أعطى كل إنسان صحيفته بيمينه أو بشماله .

وقال قتادة : [صحيفتك (١)] يا ابن آدم ، تُملى فيها ، ثم تطوى ، ثم تنشر عليك يوم القيامة ، فلينظر رجل ماذا يملى فى صحيفته .

وقوله : (وإذا السماء كشطت) ــ قال مجاهد : اجتذبت . وقال السدى : كشفت . وقال الضحاك : تنكشط فتذهب .

وقوله : (وإذا الجحيم سعرت) ــ قال السدى : أحميت . وقال قتادة : أوقدت . قال : وإنما يسعرها غضب الله وخطايا بنى آدم .

وقوله : (وإذا الجنة أزلفت) ــ قال الضحاك ، وأبو مالك ، وقتادة ، والربيع بن خُثَيم : أى قربت إلى أهلها .

وقوله : (علمت نفس ما أحضرت) : هذا هو الجواب ، أى : إذا وقعت هذه الأمور حينئذ تعلم كل نفس ما عملت وأحضر ذلك لها ، كما قال تعالى : (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا (٢)) . وقال تعالى : (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر (٣)) .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبدة ، حدثنا ابن المبارك ، أخبرنا محمد بن مُطَرِّف ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه قال : لما نزلت : (إذا الشمس كورت) ، قال عمر : لما بلغ (علمت نفس ما أحضرت) ، قال : لهذا أجرىَ الحديثُ .

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

روى مسلم فى صحيحه ، والنسائى فى تفسيره عند هذه الآية ، من حديث مسعر بن كدام ، عن الوليد بن سَرِيع ، عن عمرو بن حُرَيث قال : صليت خلف النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ الصبح ، فسمعته يقرأ : (فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس . والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس (٤)) .

(١) ما بين القوسين عن تفسير الطبرى : ٣٠/٤٦ .
(٢) سورة آل عمران ، آية : ٣٠ .
(٣) سورة القيامة ، آية : ١٣ .
(٤) مسلم ، كتاب الصلاة ، باب « القراءة فى الصبح » : ٢ / ٣٩ . وانظر النسائى ، كتاب الإمامة ، باب « القراءة فى الصبح بإذا الشمس كورت » : ٢ / ١٥٧ .

ورواه النسائى عن بندار ، عن غندر ، عن شعبة ، عن الحجاج بن عاصم ، عن أبى الأسود ، عن عمرو بن حُوَيث ، به نحوه .

قال ابن أبى حاتم وابن جرير ، من طريق الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن رجل من مراد ، عن على : (فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس) ، قال : هى النجوم تَخنِس بالنهار ، وتظهر بالليل .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن المثنى حدثنا محمد بن [جعفر (١) قال : حدثنا] شعبة ، عن سماك بن حرب ، سمعت خالد بن عرعرة ، سمعت عليا وسئل عن (لا أقسم بالخنس . الجوار الكنس) ، فقال : هى النجوم ، تَخنِس بالنهار وتكنس بالليل (٢) .

وحدثنا أبو كريب ، حدثنا وكيع ، عن إسرائيل (٣) ، عن سماك ، عن خالد ، عن على قال : هى النجوم .

وهذا إسناد جيد صحيح إلى خالد بن عرعرة ، وهو السهمى الكوفى ، قال أبو حاتم الرازى : « روى عن على ، وروى عنه سماك والقاسم بن عوف (٤) الشيبانى » . ولم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا ، والله أعلم .

وروى يونس ، عن أبى إسحاق ، عن الحارث ، عن على : أنها النجوم . رواه ابن أبى حاتم . وكذا رُوى عن ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة والسدى ، وغيرهم : أنها النجوم .

وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا هَوذَة بن خليفة ، حدثنا عوف ، عن بكر بن عبد الله فى قوله : (فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس) ، قال : هى النجوم الدراريّ ، التى تجرى تستقبل المشرقَ (٥) .

وقال بعض الأئمة : إنما قيل للنجوم « الخنس » ، أى : فى حال طلوعها ، ثم هى جوار فى فلكها ، وفى حال غيبوبتها يقال لها « كُنَّس » ، من قول العرب : أوى الظبى إلى كِناسة (٦) : إذا تغيب فيه .

وقال الأعمش ، عن إبراهيم قال : قال عبد الله (فلا أقسم بالخنس) ، قال : بقر الوحش .

وكذا قال الثورى ، عن أبى إسحاق ، عن أبى ميسرة (٧) ، عن عبد الله : (فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس) ، ما هى يا عمرو ؟ قلت : البقر . قال : وأنا أرى ذلك .

وكذا روى يونس بن أبى إسحاق ، عن أبيه .

وقال أبو داود الطيالسى ، عن عمرو ، عن أبيه ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : [الجوار الكنس] ، قال : البقر تكنس إلى الظل . وكذا قال سعيد بن جبير .

(١) ما بين القوسين عن تفسير الطبرى : ٤٧/٣٠ .
(٢) أى : تغيب .
(٣) فى تفسير الطبرى ٤٧/٣٠ : حدثنا وكيع «عن سماك» والصواب ما هنا ، وانظر التهذيب : ٢٦١/١ .
(٤) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٣٤٣/٢/١ .
(٥) تفسير الطبرى : ٤٨/٣٠ .
(٦) الكناس : الموضع الذى يأوى إليه الظبى .
(٧) أبوميسرة هو : عمرو بن شرحبيل .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : هى الظباء . وكذا قال سعيد أيضا ، ومجاهد ، والضحاك .

وقال أبو الشعثاء جابر بن زيد : هى الظباء والبقر .

وقال ابن جرير : حدثنا يعقوب ، حدثنا هشيم ، أخبرنا مغيرة ، عن إبراهيم ومجاهد : أنهما تذاكرا هذه الآية : (فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس) ، فقال إبراهيم لمجاهد : قل فيها بما سمعت . قال : فقال مجاهد : كنا نسمع فيها شيئا ، وناس يقولون : إنها النجوم . قال : فقال إبراهيم : قل فيها بما سمعت . قال : فقال مجاهد : كنا نسمع أنها بقر الوحش حين تكنس فى حُجُرِها . قال : فقال إبراهيم : إنهم يكذبون على علىّ ، هذا كما رووا عن على أنه ضمن الأسفل الأعلى ، والأعلى الأسفل (١) .

وتوقف ابن جرير فى قوله : (الخنس . الجوار الكنس) : هل هو النجوم ، أو الظباء وبقر الوحش ؟ قال : ويحتمل أن يكون الجميع مرادا .

وقوله : (والليل إذا عسعس) ، فيه قولان :

أحدهما : إقباله بظلامه . قال مجاهد : أظلم . وقال سعيد بن جبير : إذا نشأ . وقال الحسن البصرى : إذا غَشِىَ الناس . وكذا قال عطية العوفى .

وقال على بن أبى طلحة ، والعوفى عن ابن عباس : (إذا عسعس) : إذا أدبر . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وكذا قال زيد بن أسلم ، وابنه عبد الرحمن : (إذا عسعس) ، أى : إذا ذهب فتولى .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى البَخْتَرى سمع أبا عبد الرحمن السلمى قال : خرج علينا على ــ رضى الله عنه ــ حين ثَوَّب المثوِّبُ بصلاة الصبح فقال : أين السائلون عن الوتر : (والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس ؟) هذا حين أدبر حسن .

وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله : (إذا عسعس) : إذا أدبر . قال لقوله : (والصبح إذا تنفس) ، أى : أضاء ، واستشهد بقول الشاعر (٢) أيضا :

حتّى إذا الصُّبحُ له تَنَفَّسَا ... وانجابَ عَنها لَيلُها وعَسعَسَا

أى : أدبر . وعندى أن المراد بقوله . (عسعس) : إذا أقبل ، وإن كان يصح استعماله فى الإدبار ، لكن الإقبال هاهنا أنسب ؛ كأنه أقسم تعالى بالليل وظلامه إذا أقبل ، وبالفجر وضيائه إذا أشرق ، كما قال : (والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى (٣)) . وقال : (والضحى . والليل إذا سجى (٤)) . وقال : (فالق الإصباح وَجَاعِلُ الليل سكناً) ، وغير ذلك من الآيات .

وقال كثير من علما الأصول : إن لفظة « عسعس » تستعمل فى الإقبال والإدبار على وجه الاشتراك ، فعلى هذا يصح أن يراد كل منهما ، والله أعلم .

---

(١) تفسير الطبرى : ٤٩/٣٠ ، وقد وقع فى نص الطبرى سقط .

(٢) تفسير الطبرى : ٥٠/٣٠ ، وقد نسب إلى علقمة بن قرط ، وانظر مجاز القرآن لأبى عبيدة : ٢٨٧/٢ – ٢٨٨ .

(٣) سورة الليل ، آية : ١ – ٢ .

(٤) سورة الضحى ، آية : ١ – ٢ .

قال ابن جرير : وكان بعض أهل المعرفة بكلام العرب يزعم أن « عسعس » : دنا من أوله وأظلم ، وقال الفراء : كان ابو البلاد النحوي ينشد بيتاً :

عَسعَس حتّى لو يشاء ادّنا كَانَ له من ضَوئِه مَقبِس

يريد : لو يشاء إذ دنا ، أدغم الذال في الدال . وقال الفراء : وكانوا يرون أن هذا البيت مصنوع (١) .

وقوله : (والصبح إذا تنفس) ، قال الضحاك : إذا طلع . وقال قتادة : إذا أضاء وأقبل . وقال سعيد بن جبير : إذا نشأ . وهو المروى عن على رضى الله عنه .

وقال ابن جرير : يعنى : وَضَوءُ النهار إذا أقبل وتَبَيَّن .

وقوله : (إنه لقول رسول كريم) ، يعنى : إن هذا القرآن لتبليغُ رسولٍ كريم ، أى : ملك شريف حَسَن الخلق ، بهى المنظر ، وهو جبريل عليه الصلاة والسلام . قاله ابن عباس ، والشعبي ، وميمون بن مهران ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك ، والربيع بن أنس ، وغيرهم .

(ذى قوة) كقوله : (علمه شديد القوى . ذو مرة (٢)) ، أى : شديد الخَلْق ، شديد البطش والفعل ، (عند ذى العرش مكين) ، أى : له مكانة عند الله — عز وجل — ومنزلة رفيعة .

قال أبو صالح في قوله : (عند ذى العرش مكين) ، قال : جبريل يدخل في سبعين حجاباً من نور بغير إذن (٣) ، (مطاع ثم) ، أى : له وجاهة ، وهو مسموع القول مطاع في الملأ الأعلى .

قال قتادة : (مطاع ثم) ، أى : في السموات ، يعنى : ليس هو من أفناء (٤) الملائكة ، بل هو من السادة والأشراف ، مُعتنَى به ، انتخب لهذه الرسالة العظيمة .

وقوله : (أمين) : صفة لجبريل بالأمانة ، وهذا عظيم جدا أن الرب — عز وجل — يزكى عبده ورسوله الملكى جبريل ، كما زكى عبده ورسوله البشرى محمدا — صلى الله عليه وسلم — بقوله : (وما صاحبكم بمجنون) .

قال الشعبي ، وميمون بن مهران ، وأبو صالح ، ومن تقدم ذكرهم : المراد بقوله : (وما صاحبكم بمجنون) ، يعنى : محمدا صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : (ولقد رآه بالأفق المبين) ، يعنى : ولقد رأى محمدٌ جبريلَ الذى يأتيه بالرسالة عن الله — عز وجل — على الصورة التى خلقه الله عليها له ستمائة جناح ، (بالأفق المبين) ، أى : البين ، وهى الرؤية الأولى التى كانت بالبطحاء ، وهى المذكورة في قوله : (علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى (٥)) ، كما تقدم (٦) تفسيرُ ذلك وتقريره . والدليلُ أن المرادَ بذلك جبريل

---

(١) تفسير الطبرى : ٣٠/٥٠ ، ومعانى القرآن للفراء : ٣/٢٤٢ .
(٢) سورة النجم ، آية : ٥—٦ .
(٣) تفسير الطبرى : ٣٠/٥١ .
(٤) يقال : رجل من أفناء الناس ، أى : لم يعلم من هو ؟
(٥) سورة النجم ، الآيات : ٥ — ١٠ .
(٦) انظر : ٧/٤١٩ وما بعدها .

عليه السلام : والظاهر ـــ والله أعلم ـــ أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الإسراء ، لأنه لم يذكر فيها إلا هذه الرؤية وهى الأولى ، وأما الثانية وهى المذكورة فى قوله : (ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى (١)) ، فتلك إنما ذكرت فى « سورة النجم » ، وقد نزلت بعد الإسراء .

وقوله : (وما هو على الغيب بظنين) ، [أى : وما محمد على ما أنزله الله إليه بظنين] ، أى : بمتهم . ومنهم من قرأ ذلك بالضاد ، أى : ببخيل ، بل يبذله لكل أحد .

قال سفيان بن عُيَينة : ظنين وضنين سواء ، أى : ماهو بكاذب ، وماهو بفاجر . والظنين : المتهم ، والضنين : البخيل .

وقال قتادة : كان القرآن غيبا ، فأنزله الله على محمد ، فما ضَنّ به على الناس ، بل بلّغه ونشره وبذله لكل من أراده . وكذا قال عكرمة ، وابن زيد ، وغير واحد . واختار ابنُ جرير قراءة الضاد (٢) .

قلت : وكلاهما متواتر ، ومعناه صحيح كما تقدم .

وقوله : (وما هو بقول شيطان رجيم) ، أى : وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم ، أى : لا يقدر على حمله ، ولا يريده ، ولا ينبغى له ، كما قال : (وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغى لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون (٣)) .

وقوله : (فأين تذهبون ؟) ، أى : فأين تذهب عقولكم فى تكذيبكم بهذا القرآن ، مع ظهوره ووضوحه ، وبيان كونه جاء من عند الله عز وجل ، كما قال الصديق ـــ رضى الله عنه ـــ لوفد بنى حنيفة حين قدموا مسلمين ، وأمرهم فتلوا عليه شيئا من قرآن مسيلمة الذى هو فى غاية الهذيان والركاكة ، فقال : ويحكم . أين يُذهَب بعقولكم ؟ والله إن هذا الكلام لم يخرج من إلّ ، أى : من إله .

وقال قتادة : (فأين تذهبون) ، أى : عن كتاب الله وعن طاعته .

وقوله : (إن هو إلا ذكر للعالمين) ، أى : هذا القرآن ذكر لجميع الناس ، يتذكرون به ويتعظون ، (لمن شاء منكم أن يستقيم) ، أى : من أراد الهداية فعلية بهذا القرآن ، فإنه منجاةٌ له وهداية ، ولا هداية فيما سواه ، (وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) ، أى : ليست المشيئة موكولة إليكم ، فمن شاء اهتدى ومن شاء ضل ، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله ـــ عز وجل ـــ رب العالمين :

قال سفيان الثورى ، عن سعيد بن عبد العزيز ، عن سليمان بن موسى : لما نزلت هذه الآية : (لمن شاء منكم أن يستقيم) ، قال أبو جهل : الأمر إلينا ، إن شئنا استقمنا ، وإن شئنا لم نستقم . فأنزل الله : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين (٤) » .

آخر تفسير سورة التكوير ، ولله الحمد

---

(١) سورة النجم ، الآيات : ١٣ – ١٦ .
(٢) تفسير الطبرى : ٥٣/٣٠ .
(٣) سورة الشعراء ، الآيات : ٢١٠ – ٢١٢ .
(٤) تفسير الطبرى : ٥٣/٣٠ .

تفسير سورة الانفطار

وهى مكيـــة

قال النسائي : أخبرنا محمد بن قدامة ، حدثنا جرير عن الأعمش ، عن محارب بن دثار ، عن جابر قال : قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطوّل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أفتان يا معاذ ؟ ، [أفتان يا معاذ ؟ ! (١)] أين كنت عن سبح اسم ربك الأعلى ، والضحى ، وإذا السماء انفطرت (٢) ؟ » ! .

وأصل الحديث مخرج فى الصحيحين (٣) ولكن ذُكِرَ (إذا السماء انفطرت) فى أفراد النسائى . وتقدم (٤) من رواية عبد الله بن عمر ، عن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : « من سرّه أن ينظُرَ إلى القيامة رأىَ عين فليقرأ : (إذا الشمس كورت) و (إذا السماء انفطرت) و (إذا السماء انشقت) » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ
بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ
فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠)
كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)

يقول تعالى : (إذا السماء انفطرت) ، أى : انشقت ، كما قال : (السماء منفطر به (٥)) .

(وإذا الكواكب انتثرت) ، أى : تساقطت .

(وإذا البحار فجرت) ، قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس : فجر الله بعضها فى بعض . وقال الحسن : فجر الله بعضها فى بعض ، فذهب ماؤها . وقال قتادة : اختلط مالحها بعذبها (٦) . وقال الكلبى : ملئت .

(وإذا القبور بعثرت) ، قال ابن عباس : بُحِثَت . وقال السدى : تُبعثر : تُحرّك فيخرج من فيها .

---

(١) ما بين القوسين عن النسائى .

(٢) سنن النسائى ، كتاب الافتتاح ، باب « القراءة فى العشاء الآخرة (سبح اسم ربك الأعلى) : ٢/١٧٢ .

(٣) البخارى ، كتاب الأدب ، باب « من لم ير إكفار من قال ذلك متأولا أو جاهلا » : ٨/٣٢ – ٣٣ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « القراءة فى العشاء » : ٢/٤١ – ٤٢ .

(٤) تقدم ذلك أول سورة التكوير ، وخرجناه هنالك .

(٥) سورة . المزمل ، آية : ١٨

(٦) تفسير الطبرى : ٣٠/٥٤ .

(علمت نفس ما قدمت وأخرت) ، أى : إذا كان هذا حصل َ هذا .

وقوله : (يا أيها الإنسان ، ما غرك بربك الكريم ؟) : هذا تهديد ، لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب ؛ حيث قال (الكريم) ، حتى يقول قائلهم : غره كرمه . بل المعنى فى هذه الآية : ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم — أى : العظيم — حتى أقدمت على معصيته ، وقابلته بما لا يليق ؟ كما جاء فى الحديث : « يقول الله يوم القيامة : ابن َ آدم ، ما غرك بى ؟ ابن آدم ، ماذا أجبتَ المرسلين ؟ » .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان : [أن عمر] سمع رجلا يقرأ : (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم) ، فقال عمر : الجهل .

وقال أيضا : حدثنا عمر بن شبَّة ، حدثنا أبو خلف ، حدثنا يحيى البكاء ، سمعت ابن عمر يقول وقرأ هذه الآية : (يا أيها الإنسان ، ما غرك بربك الكريم) ، قال ابن عمر : غره — والله — جهله .

قال : ورُوى عن ابن عباس ، والربيع بن خُثَيم ، والحسن ، مثلُ ذلك .

وقال قتادة : (ما غرك بربك الكريم) : شىءٌ مَّا غَرّ ابن آدم غير ، وهذا العدو الشيطان (١)(٢) .

وقال الفضيل بن عياض : لو قال لى « ما غرك بى » ، لقلت : ستُورك المرُخاة .

وقال أبو بكر [الوراق] : لو قال لى (ما غرك بربك الكريم) ، لقلت : غرنى كرم الكريم .

قال البغوى : وقال بعض أهل الإشارة : إنما قال (بربك الكريم) دون سائر أسمائه وصفاته ، كأنه لقنه الإجابة .

وهذا الذى تخيله هذا القائل ليس بطائل ، لأنه إنما أتى باسمه (الكريم) ، لينبه على أنه لا ينبغى أن يُقابلَ الكريم بالأفعال القبيحة ، وأعمال السوء .

وحكى البغوى ، عن الكلبى ومقاتل أنهما قالا : نزلت هذه الآية فى الأخنس (٣) بن شَرِيق ، ضرب النبى — صلى الله عليه وسلم — ولم يعاقب فى الحالة [الراهنة] ، فأنزل الله : (ما غرك بربك الكريم ؟) .

وقوله : (الذى خلقك فسواك فعدلك) ، أى : ما غرك بالرب الكريم (الذى خلقك فسواك فعدلك) ، أى : جعلك سَوِيّا معتدل القامة منتصبها ، فى أحسن الهيئات والأشكال .

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو النضر (٤) حدثنا حَرِيزُ ، حدثنى عبد الرحمن بن مَيسرة ، عن جُبَير بن نُفَير ، عن بُسْر بن جحَاش القرشى : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بصق يوما فى كفه ، فوضع عليها إصبعه ، ثم قال : « قال الله عز وجل : ابنَ آدم ، أنَّى تُعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه؟ حتى إذا سَوّيتك وعدلتك ، مشيت بين بردين وللأرض منك وَئيد ، فجَمَعت ومَنعت ، حتى إذا بلغت التراقى قلتَ : أتصدقُ ، وأنَّى أوانُ الصدقة (٥) »

وكذا رواه ابن ماجه ، عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن يزيد بن هارون ، عن حَرِيز بن عثمان ، به (٦) .

---

(١) لفظ الطبرى : « لفظ ما غر ابن آدم هذا العدو الشيطان » .

(٢) تفسير الطبرى : ٣٠/٥٥ .

(٣) فى المخطوطة : « الأسود بن شريق » . ولم نجده ، انظر سيرة ابن هشام : ١/٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٦٠

(٤) هو أبو النضر هاشم بن القاسم الليثى .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٤/٢١٠ .

(٦) سنن ابن ماجه ، كتاب الوصايا ، باب « النهى عن الإمساك فى الحياة والتبذير عند الموت » ، الحديث ٢٧٠٧ : ٢/٩٠٣ .

قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزّى : وتابعه يحيى بن حمزة ، عن ثور بن يزيد ، عن عبد الرحمن بن ميسرة .

وقوله : (فى أى صورة ما شاء ركبك) — قال مجاهد : فى أى شَبَه أب أو أم أو خال أو عم ؟ .

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن سنان القزاز ، حدثنا مُطَهَّر بن الهيثم ، حدثنا موسى بنُ عُلَىّ بن رَبَاح ، حدثنى أبى ، عن جدى : أن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال له : « ما ولد لك » ؟ قال : يا رسول الله ، ما عسى أن يُولَد لى ؟ إما غلام وإما جارية . قال : « فمن يشبه » . قال : يا رسول الله ، من عسى أن يشبه ؟ إما أباه وإما أمه : فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — عندها : « مه . لا تقولَنّ هكذا ، إن النطفة إذا استقرت فى الرحم أحضرها الله كل نسب بينها وبين آدم ؟ أما قرأت هذه الآية فى كتاب الله : (فى أى صورة ما شاء ركبك) ، قال : سلكك » .

وهكذا رواه ابن أبى حاتم والطبرانى، من حديث مُطهر بن الهيثم ، به . وهذا الحديث لو صح لكان فيصلا فى هذه الآية ، ولكن إسناده ليس بالثابت ، لأن « مُطَهَّر بن الهيثم » قال فيه أبو سعيد بن يونس : كان متروك الحديث ؛ وقال ابن حبان : يَرْوِى عن موسى بنُ عُلَىّ وغيره ما لا يُشْبِهُ حَدِيثَ الأثبات . ولكن فى الصحيحين عن أبى هُرَيرة أن رَجُلاً قال : يا رسولَ الله ، إن امرأتى وَلَدت غُلاماً أسودَ ؟ . قال : « هل لك من إبل ؟ » . قال : نعم . قال : « فما ألوانها ؟ » . قال : حُمر . قال : « فهل فيها من أورق ؟ » . قال : نعم . قال : « فأنى أتاها ذلك ؟ » : قال : عسى أن يكون نَزَعه عِرْق . قال : « وهذا عسى أن يكون نزعه عرق [1] » .

وقد قال عكرمة فى قوله : (فى أى صورة ما شاء ركبك) : إن شاء فى صورة قرد ، وإن شاء فى صورة خنزير [2] ؛ وكذا قال أبو صالح : إن شاء فى صورة كلب ، وإن شاء فى صورة حمار ، وإن شاء فى صورة خنزير .

وقال قتادة : (فى أى صورة ما شاء ركبك) ، قال : قادر — والله — ربنا على ذلك . ومعنى هذا القول عند هؤلاء : أن الله — عز وجل — قادرٌ على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات المنكرة الخلق ، ولكن بقدرته ولطفه وحلمه يخلقه على شكل حسن مستقيم معتدل تام ، حَسَن المنظر والهيئة .

وقوله : (كلا بل تكذبون بالدين) ، أى : بل إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصى ، تكذيب فى قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب .

وقوله تعالى : (وإن عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون) ، يعنى : وإن عليكم لملائكةً حفَظَةً كراما فلا تقابلوهم بالقبائح ، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن محمد الطنافسى ، حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ومسعر ، عن علقمة ابن مرثد ، عن مجاهد قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين : الجنابة والغائط . فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجرم حائط أو ببعيره ، أو ليستره أخوه » .

وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار ، فوصله بلفظ آخر ، فقال : حدثنا محمد بن عثمان بن كرامة ، حدثنا عبيد الله ابن موسى ، عن حفص بن سليمان ، عن علقمة بن مرثد ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله

---

(١) البخارى ، كتاب الطلاق ، باب « إذا عرض بنفى الولد » : ٦٨/٧ — ٦٩ . ومسلم ، كتاب اللعان : ٢١١/٤ — ٢١٢ .

(٢) تفسير الطبرى : ٥٥/٣٠ — ٥٦ .

عليه وسلم : « إن الله ينهاكم عن التعرّي ، فاستحيوا من ملائكة الله الذين معكم ، الكرام الكاتبين ، الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى ثلاث حالات : الغائط ، والجنابة ، والغسل . فاذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه ، أو بجرم حائط ، أو ببعيره » .

ثم قال : حفص بن سليمان لين الحديث ، وقد روى عنه ، واحتمل حديثه .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا زياد بن أيوب ، حدثنا مُبَشّر بن إسماعيل الحلبي ، حدثنا تمام بن نجيح ، عن الحسن — يعني البصري — عن أنس قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ما من حافظين يرفعان إلى الله — عز وجل — ما حفظا في يوم فيرى في أول الصحيفة وفي آخرها استغفارا إلا قال الله تعالى : قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة » .

ثم قال : تفرد به تمام بن نجيح ، وهو صالح الحديث .

قلت : وثقه ابن معين وضعفه البخاري ، وأبو زرعة ، وابن أبي حاتم والنسائي ، وابن عدي . ورماه ابن حبان بالوضع . وقال الإمام أحمد : لا أعرف حقيقة أمره (١) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا إسحاق بن سليمان البغدادي المعروف بالقَلُوسيّ ، حدثنا بيان بن حمران ، حدثنا سلام ، عن منصور بن زاذان ، عن محمد بن سيرين ، عن أبي هُرَيرة قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « إن لله ملائكة يعرفون بني آدم — وأحسبه قال : ويعرفون أعمالهم — فاذا نظروا إلى عبد يعمل بطاعة الله ذكروه بينهم وسموه ، وقالوا : أفلح الليلة فلان ، نجا الليلة فلان . وإذا نظروا إلى عبد يعمل بمعصية الله ذكروه بينهم وسمّوه ، وقالوا : هلك الليلة فلان » .

ثم قال البزار : سلام هذا ، أحسبه سلام المدائني ، وهو لين الحديث .

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾ ﴾

يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم ، وهم الذين أطاعوا الله عز وجل ، ولم يقابلوه بالمعاصي .

وقد روى ابن عساكر في ترجمة « موسى بن محمد » ، عن هشام بن عمار ، عن عيسى بن يونس بن أبي إسحاق ، عن عبيد الله عن محارب ، عن ابن عمر ، عن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : « إنما سماهم الله الأبرار لأنهم بَرّوا الآباء والأبناء » .

ثم ذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم ، ولهذا قال : (يصلونها يوم الدين) ، أي : يوم الحساب والجزاء والقيامة ، (وما هم عنها بغائبين) ، أي : لا يغيبون عن العذاب ساعةً واحدة ، ولا يخفف عنهم من عذابها ، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ، ولو يوما واحدا .

---

(١) انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ١/١/٤٤٥ .

وقوله : (وما أدراك ما يوم الدين) تعظيم لشأن يوم القيامة ، ثم أكده بقوله : (ثم ما أدراك ما يوم الدين) . ثم فسره بقوله : (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا) ، أى : لا يقدر واحدٌ على نفع أحد ولا خلاصه مما هو فيه ، إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى .

ونذكر هاهنا حديث : « يا بنى هاشم ، أنقذوا أنفسكم [من النار] ، لا أملك لكم من الله شيئا » : وقد تقدم فى آخر تفسير سورة الشعراء (١). ولهذا قال : (والأمر يومئذ لله) ، كقوله : (لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار (٢)) ، وكقوله : (الملك يومئذ الحق للرحمن (٣)) ، وكقوله : (مالك يوم الدين (٤)) .

قال [قتادة] : (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله) ، والأمر — والله — اليوم لله ، ولكنه يومئذ لا ينازعه أحد (٥).

آخر تفسير سورة الانفطار ، ولله الحمد

---

(١) انظر تفسير الآية ٢١٤ من سورة الشعراء : ١٧٦/٦ وما بعدها .
(٢) سورة غافر ، آية : ١٦ .
(٣) سورة الفرقان ، آية : ٢٦ .
(٤) سورة الفاتحة ، آية : ٤ .
(٥) تفسير الطبرى : ٥٧/٣٠ .

تفسير سورة المطففين

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

قال النسائي وابن ماجه : أخبرنا محمد بن عقيل — زاد ابن ماجه : وعبد الرحمن بن بشر — قالا : حدثنا على بن الحسين ابن واقد ، حدثني أبي ، عن يزيد — هو ابن أبي سعيد النحوي ، مولى قريش — عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما قدم نبي الله — صلى الله عليه وسلم — المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا ، فأنزل الله : (ويل للمطففين) ، فحسّنوا الكيل بعد ذلك (١) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا جعفر بن النضر بن (٢)بن حماد ، حدثنا محمد بن عبيد ، عن الأعمش ، عن عمرو بن مُرّة ، عن عبد الله بن الحارث ، عن هلال بن طلق(٣) قال : بينا أنا أسير مع ابن عمر فقلت : من أحسن الناس هيئة وأوفاه كيلا ؟ أهل مكة أو المدينة ؟ قال : حق لهم ، أما سمعت الله يقول : (ويل للمطففين) .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو السائب ، حدثنا ابن فضيل ، عن ضرار ، عن عبد الله المكتب ، عن (٤) رجل ، عن عبد الله قال : قال له رجل : يا أبا عبد الرحمن ، إن أهل المدينة ليوفون الكيل . قال : وما يمنعهم أن يوفوا الكيل وقد قال الله عز وجل : (ويل للمطففين) ، حتى بلغ : (يوم يقوم الناس لرب العالمين (٥)) .

فالمراد بالتطفيف هاهنا : البخس في المكيال والميزان ، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس ، وإما بالنقصان إن قضاهم ؛ ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخسار والهلاك وهو الويل ، بقوله : (الذين إذا اكتالوا على الناس) ، أي : من الناس (يستوفون) ، أي : يأخذون حقهم بالوافي والزائد ، (وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) ، أي : ينقصون .

---

(١) سنن ابن ماجه ، كتاب التجارات ، باب « التوقي في الكيل والوزن » ، الحديث ٢٢٢٣ : ٢/ ٧٤٨ .

(٢) كذا ، ولم تقع لنا ترجمة جعفر هذا في الجرح لابن أبي حاتم .

(٣) لم تقع لنا أيضاً ترجمة هلال هذا .

(٤) في تفسير الطبري : « عن ضرار ، عن عبد الله قال : قال له رجل : يا أبا عبد الرحمن » . ويبدو أن الصواب ما هنا فضرار هذا هو ابن مرة ، يروى عن عبد الله بن الحارث الزبيدي المكتب . وهذه الكنية وهو « أبوعبد الرحمن » كنية عبد الله بن مسعود » . انظر الجرح والتعديل : ٢/١/ ٤٦٥ .

(٥) تفسير الطبري : ٣٠/ ٥٨ .

والأحسن أن يجعل « كالوا » و « وزنوا » متعديا ، ويكون هم فى محل نصب : ومنهم من يجعلها ضميرا مؤكدا للمستتر فى قوله « كالوا » و « وزنوا » ، ويحذف المفعول لدلالة الكلام عليه ، وكلاهما متقارب .

وقد أمر الله — تعالى — بالوفاء فى الكيل والميزان ، فقال : (وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا (١)) ، وقال : (وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفسا إلا وسعها (٢)) ، وقال : (وأقيموا الوزن بالقسط ، ولا تخسروا الميزان (٣)) . وأهلك الله قوم شعيب ودَمَّرهم (٤) على ما كانوا يبخسون الناس فى المكيال والميزان .

ثم قال تعالى متوعدا لهم : (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون : ليوم عظيم ؟) ، أى : أما يخافُ أولئك من البعث والقيام بين يَدَىّ من يعلم السرائر والضمائر ، فى يوم عظيم الهول ، كثير الفزع ، جليلِ الخطب ، مَن خسر فيه أدخل نارا حامية ؟

وقوله : (يوم يقوم الناس لرب العالمين) ، أى : يقومون حفاة عراة غُرلاً ، فى موقف صعب حَرِج ضيق ضَنك على المجرم ، ويغشاهم من أمر الله — ما تَعجِزُ القوى والحواس عنه :

قال الإمام مالك : عن نافع ، عن ابن عمر أن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : (يوم يقوم الناس لرب العالمين) حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه » .

رواه البخارى ، من حديث مالك وعبد الله بن عون ، كلاهما عن نافع ، به . (٥) : ورواه مسلم من الطريقين أيضا ، وكذلك رواه صالح وأيوب بن يحيى ، وعبد الله وعبيد الله ابنا عمر ، ومحمد بن إسحاق ، عن نافع ، عن ابن عمر ، (٦) به

ولفظ الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، أخبرنا ابن إسحاق ، عن نافع ، عن ابن عمر : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : (يوم يقوم الناس لرب العالمين) : لعظمة الرحمن — عز وجل — يوم القيامة ، حتى إن العرقَ ليُلجِمُ الرجالَ إلى أنصاف آذانهم (٧) .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن إسحاق ، حدثنا ابن المبارك ، عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، حدثنى سليم بن عامر ، حدثنى المقداد — يعنى ابن الأسود الكندى — قال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « إذا كان يومُ القيامة أدنيَت الشمس من العباد ، حتى تكون قِيدَ ميل أو ميلين ، قال : فتصهرهم الشمس ،

---

(١) سورة الإسراء آية : ٣٥ .

(٢) سورة الأنعام ، آية : ١٥٢ .

(٣) سورة الرحمن ، آية : ٩ .

(٤) فى المخطوطة « وذمهم على ما . . » والمثبت من الطبعات السابقة .

(٥) البخارى ، تفسير سورة (ويل للمطففين) : ٦/٢٠٧ . وكتاب الرقاق ، باب قول الله تعالى : (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين) : ٨/١٣٨ .

(٦) مسلم ، كتاب الجنة ، باب « فى صفة القيامة ، أعاننا الله على أهوالها » : ٨/١٥٧ — ١٥٨ . ومسند الإمام أحمد : ١٣/٢ ، ١٩ .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٢/٣١ .

فيكونون فى العرق كقدر أعمالهم ، منهم من يأخذه إلى عقبيه ، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من يأخذه إلى حقويه (١) ، ومنهم من يلجمه إلجاما(٢) » .

رواه مسلم ، عن الحكم بن موسى ، عن يحيى بن حمزة — والترمذى ، عن سويد ، عن ابن المبارك — كلاهما عن ابن جابر ، به .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا الحسن بن سوار ، حدثنا الليث بن سعد ، عن معاوية بن صالح : أن أبا عبد الرحمن حدثه ، عن أبى أمامة : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل ، ويزاد فى حرها كذا وكذا ، تغلى منها الهوام كما تغلى القدور ، يعرقون فيها على قدر خطاياهم ، منهم من يبلغ إلى كعبيه ، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه ، ومنهم من يبلغ إلى وسطه ، ومنهم من يلجمه العرق » . انفرد به أحمد (٣) .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا أبو عُشَّانة حَىّ بن يُؤْمِن ، أنه سمع عقبة بن عامر يقول : سمعتُ رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « تدنو الشمس من الأرض فيعرق الناس ، فمن الناس من يبلغ عرقه عقبيه ، ومنهم من يبلغ إلى نصف الساق ، ومنهم من يبلغ إلى ركبتيه ، [ومنهم من يبلغ العَجُز ، ومنهم من يبلغ الخاصرة ، ومنهم من يبلغ منكبيه] ، ومنهم من يبلغ وسط فيه وأشار بيده فألجمها فاه — رأيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يشير هكذا — « ومنهم من يغطيه عرقه » . وضرب بيده إشارة انفرد به أحمد (٤) .

وفى حديث : أنهم يقومون سبعين سنة لا يتكلمون . وقيل : يقومون ثلاثمائة سنة . وقيل : يقومون أربعين ألف سنة ، ويقضى بينهم فى مقدار عشرة آلاف سنة ، كما فى صحيح مسلم عن أبى هُرَيرة مرفوعا : « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة (٥) » .

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو عون الزيادى ، أخبرنا عبد السلام بن عجلان ، سمعت أبا يزيد المدنى ، عن أبى هريرة قال : قال النبى — صلى الله عليه وسلم — لبشير الغفارى : « كيف أنت صانع فى يوم يقوم الناس فيه ثلاثمائة سنة لرب العالمين ، من أيام الدنيا ، لا يأتيهم فيه خبر من السماء ولا يؤمر فيه بأمر ؟ » . قال بشير : المستعان الله . قال : « فاذا أويت إلى فراشك فتعوذ بالله من كرب يوم القيامة ، وسوء الحساب » .

ورواه ابن جرير من طريق عبد السلام ، به (٦) .

وفى سنن أبى داود : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان يتعوذ بالله من ضيق المقام يوم القيامة (٧) .

وعن ابن مسعود : يقومون أربعين سنة رافعى رءوسهم إلى السماء ، لا يكلمهم أحد ، قد ألجم العرق برّهم وفاجرهم .

---

(١) الحقو : معقد الإزار .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٦/٣ — ٤ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٥/٢٥٤ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٤/١٥٧ .

(٥) تقدم الحديث فى : ٤/٨٣ ، ٨/٢٥١ ، وخرجناه هنالك .

(٦) تفسير الطبرى : ٣٠/٥٩ . وانظر أسد الغابة ١/٢٣٤ ، بتحقيقنا .

(٧) سنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « ما يستفتح به الصلاة من الدعاء » .

وعن ابن عمر : يقومون مائة سنة : رواهما ابن جرير (١) :

وفي سنن أبي داود والنسائي وابن ماجه ، من حديث زيد بن الحباب ، عن معاوية بن صالح ، عن أزهر بن سعيد الحوارى ، عن عاصم بن حميد ، عن عائشة : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان يفتتح قيام الليل : يكبر عشرا ، ويحمد عشرا ، ويسبح عشرا ، ويستغفر عشرا ، ويقول : « اللهم اغفرلي واهدني ، وارزقني وعافني » : ويتعوذ من ضيق المقام يوم القيامة :

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧﴾

يقول : حقا (إن كتاب الفجار لفي سجين) ، أي : إن مصيرهم ومأواهم لفي سجين – فعيل من السّجن ، وهو الضيق – كما يقال : فسّيق وشرّيب وخمّير وسكّير ، ونحو ذلك . ولهذا عظم أمره فقال : (وما أدراك ما سجين ؟) ، أي : هو أمر عظيم ، وسجن مقيم وعذاب أليم :

ثم قد قال قائلون : هي تحت الأرض السابعة : وقد تقدم في حديث البراء بن عازب ، في حديثه الطويل : يقول الله عز وجل في روح الكافر : اكتبوا كتابه في سجين (٢) :

وسجين : هي تحت الأرض السابعة . وقيل : صخرة تحت السابعة خضراء : وقيل : بئر في جهنم ،

وقد روى ابن جرير في ذلك حديثا غريبا منكرا لا يصح فقال : حدثنا إسحاق بن وهب الواسطي ، حدثنا مسعود ابن موسى بن مُشكان الواسطي ، حدثنا نَصر بن خُزَيمة الواسطي ، عن شعيب بن صفوان ، عن محمد بن كعب القرظي ، عن أبي هريرة ، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : « الفلق : جب في جهنم مغطى ، وأما سجين فمفتوح (٣) » :

والصحيح أن « سجينا » مأخوذ من السّجن ، وهو الضيق ، فإن المخلوقات كل ما تسافل منها ، [ضاق » وكل ما تعالى منها اتسع ، فان الأفلاك السبعة كل واحد منها] أوسع وأعلى من الذى دونه ، وكذلك الأرضون كل واحدة أوسع من التي دونها ، حتى ينتهى السفول المطلق والمحل الأضيق إلى المركز في وسط الأرض السابعة ، ولما كان مصير الفجار إلى جهنم وهي أسفل السافلين ، كما قال تعالى : (ثم رددناه أسفل سافلين : إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات (٤)) .

---

(١) تفسير الطبري : ٣٠/٥٩ .
(٢) انظر الحديث في مسند الإمام أحمد : ٤/٢٨٧ – ٢٨٨ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٣٠/٦١ .
(٤) سورة التين ، آية : ٥ .

وقال هاهنا : (كلا إن كتاب الفجار لفى سجين . وما أدراك ما سجين) ، وهو يجمع الضيق والسفول ، كما قال : (وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دَعَوا هنالك ثبورا (١)) .

وقوله : (كتاب مرقوم) ليس تفسيرا لقوله ، (وما أدراك ما سجين) ، وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين ، أى : مرقوم مكتوب مفروغ منه ، لا يزاد فيه أحد ولا ينقص منه أحد ؛ قاله محمد بن كعب القرظى .

ثم قال : (ويل يومئذ للمكذبين) ، أى : إذا صاروا يوم القيامة إلى ما أوعدهم الله من السّجن والعذاب المهين ، وقد تقدم الكلام على قوله (ويل (٢)) بما أغنى عن إعادته ، وأن المراد من ذلك الهلاك والدمار ، كما يقال : ويل لفلان. وكما جاء فى المسند والسنن من رواية بهز بن حكيم بن معاوية بن حَيْدَة ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ويل للذى يحدث فيكذب ، ليضحكَ الناس ، ويل له ، ويل له (٣) » .

ثم قال تعالى مفسرا للمكذبين الفجار الكفرة : (الذين يكذبون بيوم الدين) ، أى : لا يصدقون بوقوعه ، ولا يعتقدون كونه ويستبعدون أمره . قال الله تعالى : (وما يكذب به إلا كل معتد أثيم) ، أى : معتد فى أفعاله ؛ من تعاطى الحرام والمجاوزة في تناول المباح والأثيم فى أقواله : إن حدث كذب ، وإن وعد أخلف ، وإن خاصم فجر .

وقوله : (إذا تتلى عليه آيتنا قال أساطير الأولين) ، أى : إذا سمع كلام الله من الرسول ، يكذب به ، ويظن به ظن السوء ، فيعتقد أنه مفتعل مجموع من كتب الأوائل ، كما قال تعالى : (وإذا قيل لهم : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : أساطير الأولين (٤)) . وقال : (وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها ، فهى تملى عليه بكرة وأصيلا (٥)) . قال الله تعالى : (كلا ، بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) ، أى : ليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا ، إن هذا القرآن أساطير الأولين ، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الريب الذى قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا ، ولهذا قال تعالى : (كلا ، بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) . والرين يعترى قلوبَ الكافرين ، والغيم للأبرار ، والغين للمقربين .

وقد روى ابن جرير والترمذى والنسائى وابن ماجه . من طرق ، عن محمد بن عجلان ، عن القعقاع بن حكيم ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن العبد إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء فى قلبه ، فان تاب منها صُقِل (٦) قلبه ، وإن زاد زادت ، فذلك قول الله : (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) » .

وقال الترمذى : « حسن صحيح (٧) » . ولفظ النسائى : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِتَ فى قلبه نكتة ، فان

---

(١) سورة الفرقان ، آية : ١٣ .
(٢) انظر تفسير سورة البقرة ، الآية التاسعة والسبعين : ١٦٨/١ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٥/٥ – ٦ ، ٧ . وسنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب « فى الكذب » .
(٤) سورة النحل ، آية : ٢٤ .
(٥) سورة الفرقان ، آية : ٥ .
(٦) أى : جلى ، يقال : صقله : جلاه .
(٧) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة (ويل المطففين) : ٢٥٤/٩ . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « ذكر الذنوب » الحديث : ٤٢٤٤ ، ١٤١٨/٢ .

هو نزع واستغفر وتاب صُقِل قلبه ، فإن عاد زيد فيها حتى يعلو قلبه ، فهو الران الذى قال الله : (كلا ، بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) .

وقال أحمد : حدثنا صفوان بن عيسى ، أخبرنا ابن عجلان ، عن القعقاع بن حكيم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء فى قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صُقِل قلبه . فإن زاد زادت حتى يعلو قلبه ، وذاك الران الذى ذكر الله فى القرآن : (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) » (١) .

وقال الحسن البصرى : هو الذنب على الذنب ، حتى يعمى القلب ، فيموت . وكذا قال مجاهد بن جبر وقتادة ، وابن زيد ، وغيرهم .

وقوله : (كلا ، إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) ، أى : لهم يوم القيامة منزل ونزل سجين ، ثم هم [يوم] القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم .

قال الإمام أبو عبد الله الشافعى : هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه — عز وجل — يومئذ .

وهذا الذى قاله الإمام الشافعى — رحمه الله — فى غاية الحسن ، وهو استدلال بمفهوم هذه الآية ، كما دل عليه منطوق قوله : (وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة (٢)) . وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة فى رؤية المؤمنين ربهم — عز وجل — فى الدار الآخرة ، رؤية بالأبصار فى عرصات القيامة ، وفى روضات الجنان الفاخرة .

وقد قال ابن جرير [محمد بن (٣) عمار الرازى] : حدثنا أبو معمر المنقرىّ ، حدثنا عبد الوارث بن سعيد ، عن عمرو بن عبيد ، عن الحسن فى قوله : (كلا ، إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) ، قال : يكشف الحجاب ، فينظر إليه المؤمنون والكافرون ، ثم يحجب عنه الكافرون وينظر إليه المؤمنون . كلّ يوم غدوة وعشية — أو كلاما هذا معناه (٤) .

قوله : (ثم إنهم لصالوا الجحيم) ، أى : ثم هم مع هذا الحرمان عن رؤية الرحمن من أهل النيران ، (ثم يقال : هذا الذى كنتم به تكذبون) ، أى : يقال لهم [ذلك] على وجه التقريع والتوبيخ ، والتصغير والتحقير .

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾
إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ
مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا
يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾

يقول تعالى : حقا (إن كتاب الأبرار) ، وهم بخلاف الفجار ، (لفى عليين) . أى : مصيرهم إلى عليين ، وهو بخلاف سجّين .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢٩٧/٢ .
(٢) سورة القيامة ، آية : ٢٢ — ٢٣ .
(٣) ما بين القوسين عن تفسير الطبرى .
(٤) تفسير الطبرى : ٦٤/٣٠ ، وقد وقع فى تفسير الطبرى سقط نظر .

قال الأعمش ، عن شمر بن عطية ، عن هلال بن يساف قال : سأل ابن عباس كعبا وأنا حاضر عن سجين ، قال : هي الأرض السابعة ، وفيها أرواح الكفار . وسأله عن عِلّيينَ فقال : هي السماء السابعة ، وفيها أرواح المؤمنين . وهكذا قال غيرُ واحد : إنها السماء السابعة .

وقال عليّ بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : (كلا ، إن كتابَ الأبرار لفي علّيين) ، يعني : الجنة .

وفي رواية العَوفي ، عنه : أعمالهم في السماء عند الله . وكذا قال الضحاك .

وقال قتادة : عليون : ساق العرش اليمنى . وقال غيره : عليون عند سدرة المنتهى .

والظاهر : أن عليين مأخوذ ، من العلو ، وكلما علا الشيء وارتفع عظم واتسع ، ولهذا قال معظمًا أمره ومفخما شأنه : (وما أدراك ما عليون) . ثم قال مؤكدا لما كتب لهم : (كتاب مرقوم . يشهده المقربون) ، وهم الملائكة، قاله قتادة .

وقال العَوْفي ، عن ابن عباس : يشهده من كل سماء مقربوها (١) .

ثم قال تعالى : (إن الأبرار لفي نعيم) ، أي : يوم القيامة هم في نعيم مقيم ، وجنات فيها فضل عميم . (على الأرائك) ، وهي : السرر تحت الحِجَال ، (ينظرون) ، قيل : معناه ينظرون في مُلكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذي لا ينقضي ولا يبيد . وقيل : معناه (على الأرائك ينظرون) إلى الله عز وجل . وهذا مقابلةٌ لما وُصِفَ به أولئك الفجار : (كلا ، إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) ، فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلى الله عز وجل وهم على سررهم وفرشهم ، كما تقدم في حديث ابن عمر : « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة ، يرى أقصاه كما يرى أدناه ، وإن أعلاه لمن ينظر إلى الله في اليوم مرتين (٢) » .

وقوله : (تعرف في وجوههم نضرة النعيم) ، أي : تعرف إذا نظرت إليهم في وجوههم نضرةَ النعيم ، أي: صفة التَرافة والحشمة والسرور والدَّعة والرياسة ؛ مما هم فيه من النعيم العظيم .

وقوله : (يسقون من رحيق مختوم) ، أي : يسقون من خمر من الجنة . والرحيق : من أسماء الخمر . قاله ابن مسعود، وابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وابن زيد .

قال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا زهير ، عن سعد أبي المجاهد الطائي ، عن عطية بن سعد العوفي ، عن أبي أبي سعيد الخدري — أراه قد رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم — قال : « أيما مؤمن سقى مؤمنا شربةً على ظمأ ، سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم . وأيما مؤمن أطعم مؤمنا على جوع ، أطعمه الله من ثمار الجنة . وأيما مؤمن كسا مؤمنا ثوبا على عُرى كساه الله من خُضْر الجنة (٣) » .

وقال ابن مسعود في قوله : (ختامه مسك) ، أي : خلطه مسك .

وقال العوفي ، عن ابن عباس : طيب الله لهم الخمر ، فكان آخر شيء جعل فيها مسك ، خُتِم بمسك . وكذا قال قتادة والضحاك .

---

(١) تفسير الطبري : ٣٠/٦٦ .
(٢) تقدم الحديث عند تفسير آيتي القيامة : ٢٢ — ٢٣ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٣/١٣ — ١٤ .

وقال إبراهيم والحسن : (ختامه مسك) ، أى : عاقبته مسك .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يحيى بن واضح ، حدثنا أبو حمزة ، عن جابر ، عن عبد الرحمن ابن سابط ، عن أبى الدرداء : (ختامه مسك) ، قال : شراب أبيض مثل الفضة ، يختمون به شرابهم . ولو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل أصبعه فيه ثم أخرجها ، لم يبق ذو روح إلا وجد طيبها (١) .

وقال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد : (ختامه مسك) ، قال : طيبه مسك .

وقوله : (وفى ذلك فليتنافس المتنافسون) ، أى : وفى مثل هذا الحال فليتفاخر المتفاخرون ، وليتباهى ويكاثر ويستبق إلى مثله المستبقون . كقوله : (لمثل هذا فليعمل العاملون) .

وقوله : (ومزاجه من تسنيم) ، أى : ومزاج هذا الرحيق الموصوف من تسنيم ، أى : من شراب يقال له تسنيم ، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه . قاله أبو صالح والضحاك . ولهذا قال : (عينا يشرب بها المقربون) ، أى : يشربها المقربون صرفاً ، وتُمزَجُ لأصحاب اليمين [مَزجاً] . قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق ، وقتادة ، وغيرهم .

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ
أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ
﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا
كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا فى الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين ، أى : يستهزئون بهم ويحتقرونهم ، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم ، أى : محتقرين لهم ، (وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين(٢)) ، أى : إذا انقلب ، أى : رجع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم ، انقلبوا إليها فاكهين ، أى : مهما طلبوا وجدوا ، ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم ، بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين يحتقرونهم ويحسدونهم ، (وإذا رأوهم قالوا : إن هؤلاء لضالون) ، أى : لكونهم على غير دينهم ، قال الله تعالى : (وما أرسلوا عليهم حافظين) ، أى : وما بعث هؤلاء المجرمون حافظين على هؤلاء المؤمنين ما يصدر من أعمالهم وأقوالهم ، ولا كلفوا بهم ؟ فلم اشتغلوا بهم وجعلوهم نصب أعينهم ، كما قال تعالى : (قال : اخسئوا فيها ولا تكلمون . إنه كان فريق من عبادى يقولون : ربنا ، آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين . فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى ، وكنتم منهم تضحكون . إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون (٣)) .

---

(١) تفسير الطبرى : ٣٠/٦٨ .
(٢) كذا فى مخطوطة الأزهر (فاكهين) بالألف . وهى قراءة الجمهور ، انظر البحر المحيط : ٨/٤٤٣ .
(٣) سورة « المؤمنون » آيات : ١٠٨ — ١١١ .

ولهذا قال هاهنا : (فاليوم) يعنى يوم القيامة (الذين آمنوا من الكفار يضحكون) ، أى : فى مقابلة ماضحك بهم أولئك ، (على الأرائك ينظرون) ، أى : إلى الله – عز وجل – فى مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون ، ليسوا بضالين ، بل هم من أولياء الله المقربين ، ينظرون إلى ربهم فى دار كرامته .

وقوله : (هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ؟) ، أى : هل جوزى الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقص أم لا ؟ يعنى : قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله .

آخر المطففين

تفسير سورة الانشقاق

وهى مكيــة

قال مالك ، عن عبد الله بن يزيد ، عن أبي سلمة : أن أبا هريرة قرأ بهم : (إذا السماء انشقت) ، فسجد فيها ، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سجد فيها . رواه مسلم والنسائي ، من طريق مالك ، به (١) .

وقال البخاري : حدثنا أبو النعمان ، حدثنا معتمر ، عن أبيه ، عن بكر ، عن أبي رافع قال : صليت مع أبي هُرَيرة العتمة فقرأ : (إذا السماء انشقت) ، فسجد ، فقلت له ، قال سجدت خلف أبي القاسم — صلى الله عليه وسلم — فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه (٢) .

ورواه أيضا عن مسدد ، عن معتمر ، به : ثم رواه عن مسدد ، عن يزيد بن زُرَيع ، عن التيمي ، عن بكر عن أبي رافع ، فذكره (٣) . وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائي من طرق ، عن سليمان بن طرخان التيمي ، به . وقد روى مسلم وأهل السنن من حديث سفيان بن عُيَينة — زاد النَّسائيّ : وسفيان الثوري — كلاهما عن أيوب بن موسى ، عن عطاء بن ميناء ، عن أبي هريرة قال : سجدنا مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في (إذا السماء انشقت) ، و : (اقرأ باسم ربك الذى خلق (٤)) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤)
وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ
بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ
وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن
لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (١٥)

يقول تعالى : (إذا السماء انشقت) ، وذلك يوم القيامة ، (وأذنت لربها) ، أى : استمعت لربها وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقاق (وحقت) ، أى : وحق لها أن تطيع أمره ؛ لأنه العظيم الذى لا يُمانَع ولا يغالب ، بل قد قهر كل شيء وذل له كلّ شيء .

---

(١) مسلم ، كتاب الصلاة ، باب « سجود التلاوة » . ٢/٨٨ — ٨٩ . والنسائى ، كتاب الافتتاح ، باب السجود فى (إذا السماء انشقت) : ٢/١٦١ .

(٢) البخارى ، كتاب الأذان ، باب « الجهر فى العشاء » : ١/١٩٤ .

(٣) البخارى ، كتاب الأذان ، باب « القراءة فى العشاء » : ١/١٩٤ .

(٤) مسلم ، كتاب الصلاة ، باب « سجود التلاوة » : ٢/٨٩ .

ثم قال : (وإذا الأرض مدت) ، أى : بسطت وفرشت وَوسّعت .

قال ابن جرير رحمه الله : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن الزهرى ، عن على بن الحسين : أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « إذا كان يومُ القيامة مَدّ الله الأرض مَدّ الأديم ، حتى لا يكون لبشر من الناس إلا موضع قدميه ، فأكون أول من يدعى ، وجبريل عن يمين الرحمن ، والله ما رآه قبلها ، فأقول : يا رب إن هذا أخبرنى أنك أرسلته إلى ؟ فيقول الله عز وجل : صدق . ثم أشفع فأقول : يا رب ، عبادك عبدوك فى أطراف الأرض . قال : وهو المقام المحمود (١) » .

وقوله : (وألقت ما فيها وتخلت) ، أى : ألقت ما فى بطنها من الأموات ، وتخلت منهم . قاله مجاهد ، وسعيد ، وقتادة ، (وأذنت لربها وحقت) كما تقدم .

وقوله : (يا أيها الإنسان ، إنك كادح إلى ربك كدحا) ، أى : ساع إلى ربك سعيا ، وعامل عملا ، (فملاقيه) ، ثم إنك ستلقى ما عملتَ من خير أو شر . ويشهد له ما رواه أبو داود الطيالسى ، عن الحسن بن أبى جعفر ، عن أبى الزبير عن جابر قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « قال جبريل : يا محمد ، عش ما شئت فانك ميت ، وأحبب ما شئت فانك مفارقه . واعمل ما شئت فانك ملاقيه » .

ومن الناس من يعيد الضمير على قوله (ربك) ، أى : فلاق ربك ، ومعناه : فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك . وعلى هذا فكلا القولين متلازم .

قال العوفى ، عن ابن عباس : (يا أيها الإنسان ، إنك كادح إلى ربك كدحا) ، يقول : تعمل عملا تلقى [الله] به ، خيرا كان أو شرا (٢) .

وقال قتادة : (يا أيها الإنسان ، إنك كادح إلى ربك كدحا) : إن كدحك ــ يا ابن آدم ــ لضعيف ، فمن استطاع أن يكون كدحه فى طاعة الله فليفعل ، ولا قوة إلا بالله .

ثم قال : (فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا) ، أى : سهلا بلا تعسير ، أى : لا يحقق عليه جَميعُ دقائق أعماله ؛ فان من حوسب كذلك يهلك لا محالة .

قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، أخبرنا أيوب ، عن عبد الله بن أبى مليكة ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « من نوقش الحساب عذب » . قالت : فقلت : أليس قال الله : (فسوف يحاسب حسابا يسيرا) ؟ ، قال : « ليس ذاك بالحساب ، ولكن ذلك العرض ، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب (٣) » وهكذا رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن جرير ، من حديث أيوب السختيانى ، به (٤) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا روح بن عبادة ، حدثنا أبو عامر الخزّاز ، عن ابن أبى مُلَيكة ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « إنه ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا معذبا » . فقلت : أليس الله

(١) تفسير الطبرى : ٧٢/٣٠ .
(٢) تفسير الطبرى : ٧٢/٣٠ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٤٧/٦ .
(٤) البخارى ، تفسير سورة (إذا السماء انشقت) : ٢٠٧/٦ ــ ٢٠٨ . ومسلم ، كتاب الجنة ، باب « إثبات الحساب » ، ١٦٤/٨ . وتحفة الأحوذى تفسير سورة (إذا السماء انشقت) ، الحديث ٣٣٩٤ : ٢٥٦/٩ . وتفسير الطبرى : ٧٤/٣٠ .

يقول : (فسوف يحاسب حسابا يسيرا) ؟ . قال : « ذاك العرض ، إنه من نُوقش الحساب عُذّب » ، وقال بيده على إصبعه كأنه ينكت .

وقد رواه أيضا عن عمرو بن على ، عن ابن أبى عدى ، عن أبى يونس القُشَيرى ، عن ابن أبى مليكة ، عن القاسم ، عن عائشة — فذكر الحديث (١) . أخرجاه من طريق أبى يونس القُشَيرى ، واسمه حاتم بن أبى صغيرة ، به (٢) .

قال ابن جرير : وحدثنا نصر بن على الجهضمى ، حدثنا مسلم ، عن الحريش بن الخرّيت أخى الزبير ، عن ابن أبى مليكة ، عن عائشة قالت : من نُوقش الحساب — أو : من حُوسِب — عُذّبَ . قال : ثم قالت : إنما الحسابُ اليسيرُ عَرْض على الله — عز وجل — وهو يراهم (٣) .

وقال أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثنى عبد الواحد بن حمزة بن عبد الله بن الزبير ، عن [عباد بن عبد الله بن الزبير] ، عن عائشة قالت : سمعتُ رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم — يقول فى بعض صلاته : « اللهم حاسبنى حسابا يسيرا » . فلما انصرف قلت : يا رسول الله ، ما الحساب اليسير ؟قال : « أن ينظر فى كتابه فيتجاوز له عنه ، إنه من نُوقش الحسابَ يا عائشةَ يومئذ هلَكَ (٤) » . صحيح على شرط مسلم .

وقوله تعالى : (وينقلب إلى أهله مسرورا) ، أى : ويرجع إلى أهله فى الجنة . قاله قتادة ، والضحاك .

(مسروراً) ، أى : فرحان مغتبطا بما أعطاه الله عز وجل .

وقد روى الطبرانى عن ثوبان — مولى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : إنكم تعملون أعمالا لا تعرف ، ويوشك العارف (٥) أن يثوب إلى أهله ، فسرور ومكظوم .

وقوله : (وأما من أوتى كتابه وراء ظهره) ، أى : بشماله من وراء ظهره ، تُثْنى يده إلى ورائه ويعطى كتابه بها كذلك ، (فسوف يدعو ثبورا) ، أى : خسارا وهلاكا ، (ويصلى سعيرا . إنه كان فى أهله مسرورا) ، أى : فرحا لا يفكر فى العواقب ، ولا يخاف مما أمامه ، فأعقبه ذلك الفرحَ اليسير الحزنَ الطويل ، (إنه ظن أن لن يحور) ، أى : كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ولا يعيده بعد موته . قاله ابن عباس ، وقتادة ، وغيرهما . والحَوْرُ : هو الرجوع . قال الله : (بلى ، إن ربه كان به بصيرا) ، يعنى : بلى سيعيده الله كما بدأه ، ويجازيه على أعماله خيرها وشرها ، فانه كان به بصيرا ، أى : عليما خبيرا .

---

(١) تفسير الطبرى : ٣٠/٧٤ — ٧٥ .

(٢) البخارى ، تفسير سورة (إذا السماء انشقت) : ٦/٢٠٨ . ومسلم ، كتاب الجنة ، باب « إثبات الحساب » : ٨/١٦٤ .

(٣) تفسير الطبرى : ٣٠/٧٤ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٦/٤٨ .

(٥) كذا فى مخطوطة الأزهر ، وفى الطبعات السابقة : « ويوشك الغائب » .

فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (١٩) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥)

رُوى عن على ، وابن عباس ، وعُبادة بن الصامت ، وأبى هُرَيرة ، وشدّاد بن أوس ، وابن عمر ، ومحمد بن على ابن الحسين ، [ومكحول] ، وبكر بن عبد الله المزنى ، وبكير بن الأشج ، ومالك ، وابن أبى ذئب ، وعبد العزيز ابن أبى سلمة الماجشون أنهم قالوا : الشفق : الحمرة .

وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن ابن خُثَيم ، عن ابن لبيبة ، عن أبى هُرَيرة قال : الشفق البياض .

فالشفق هو حمرة الأفق إما قبل طلوع الشمس ــ كما قاله مجاهد ــ وإما بعد غروبها ــ كما هو معروف عند أهل اللغة .

قال الخليل بن أحمد : الشفق : الحمرة من غروب الشمس إلى وقت العشاء الآخرة ، فاذا ذهب قيل : غاب (١) الشفق .

وقال الجوهرى : الشفق : بقية ضوء الشمس وحمرتُها فى أول الليل إلى قريب من العَتَمة .

وكذا قال عكرمة : الشفق الذى يكون بين المغرب والعشاء .

وفى صحيح مسلم ، عن عبد الله بن عمرو ، عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه قال : « وقت المغرب مالم يغب الشفق (٢) » .

ففى هذا كله دليل على أن الشفق هو كما قاله الجوهرى والخليل . ولكن صح عن مجاهد أنه قال فى هذه الآية : (فلا أقسم بالشفق) : هو النهار كله . وفى رواية عنه أيضا أنه قال : الشفق الشمس . رواهما ابن أبى حاتم .

وإنما حمله على هذا قَرْنُهُ بقوله تعالى (والليل وما وسق) ، أى : جمع . كأنه أقسم بالضياء والظلام .

وقال ابن جرير : أقسم الله بالنهار مدبراً ، وبالليل مقبلا . قال ابن جرير : وقال آخرون : الشفق اسم للحمرة والبياض . وقالوا : هو من الأضداد (٣) .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة : (وما وسق) : وما جمع ــ قال قتادة : وما جمع من نجم ودابة . واستشهد ابن عباس بقول الشاعر (٤) :

مُسْتَوسِقات لو تَجِدْنَ سائقا .

---

(١) فى المخطوطة : « ذهب الشفق » . والمثبت عن الطبعات السابقة ، ولسان العرب ، مادة : شفق .

(٢) وقع لنا الحديث فى مسند الإمام أحمد : ٢/٢١٠ ، ٢٢٣ .

(٣) تفسير الطبرى : ٣٠/٧٦ .

(٤) نسب الرجز إلى العجاج ، انظر اللسان ، مادة : وسق . وانظر الرجز أيضاً فى مجاز القرآن لأبى عبيدة : ٢/٢٩١ ، وتفسير الطبرى : ٣٠/٧٦ ــ ٧٧ .

(٥) البخارى ، تفسير سورة (إذا السماء انشقت (: ٦/٢٠٨ .

قد قال عكرمة : (والليل وما وسق) ، يقول : ما ساق من ظلمة ، إذا كان الليل ذهب كل شيء إلى مأواه .

وقوله : (والقمر إذا اتسق) — قال ابن عباس : إذا اجتمع واستوى . وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، ومسروق ، وأبو صالح ، والضحاك ، وابن زيد .

(والقمر إذا اتسق) : إذا استوى . وقال الحسن : إذا اجتمع ، إذا امتلأ . وقال قتادة : إذا استدار .

ومعنى كلامهم : أنه إذا تكامل نوره وأبدر ، جعله مقابلا لليل وما وسق .

وقوله : (لتركبن طبقا عن طبق) — قال البخارى : أخبرنا سعيد بن النضر ، أخبرنا هُشَيم ، أخبرنا أبو بشر ، عن مجاهد قال : قال ابن عباس : (لتركبن طبقا عن طبق) : حالا بعد حال — قال هذا نبيكم صلى الله عليه وسلم (١) .

هكذا رواه البخارى بهذا اللفظ ، وهو محتمل أن يكون ابن عباس أسند هذا التفسير عن النبى — صلى الله عليه وسلم — كأنه قال : سمعت هذا من نبيكم صلى الله عليه وسلم ، فيكون قوله « نبيكم » مرفوعا على الفاعلية من « قال » وهو الأظهر ، والله أعلم ، كما قال أنس : لا يأتى عام إلا والذى بعده شر منه ، سمعته من نبيكم صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا هشيم ، أخبرنا أبو بشر ، عن مجاهد : أن ابن عباس كان يقول : (لتركبن طبقا عن طبق) ، قال : يعنى نبيكم صلى الله عليه وسلم ، يقول : حالا بعد حال . هذا لفظه (٢) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس (طبقا عن طبق) : حالا بعد حال . وكذا قال عكرمة ومُرّة الطَّيِّب ، ومجاهد ، والحسن ، والضحاك .

ويحتمل أن يكون المراد : (لتركبن طبقا عن طبق) : حالا بعد حال . قال : هذا (٣) يعنى المراد بهذا نبيكم — صلى الله عليه وسلم — فيكون مرفوعا على أن « هذا » و « نبيكم » يكونان مبتدأ وخبرا . والله أعلم ، ولعل هذا قد يكون هو المتبادر إلى كثير من الرواة ، كما قال أبو داود الطيالسى وغندر : حدثنا شعبة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (لتركبن طبقا عن طبق) قال : محمد صلى الله عليه وسلم .

ويؤيد هذا المعنى قراءةُ عمر ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وعامة أهل مكة والكوفة : (لَتَرْكَبَنَّ) بفتح التاء والباء (٤) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن إسماعيل ، عن الشعبى : (لتركبن طبقا عن طبق) ، قال : لتركَبَنّ يا محمد سماء بعد سماء . وهكذا رُوى عن ابن مسعود ، ومسروق ، وأبى العالية : (طبقا عن طبق) : سماء بعد سماء (٥) .

قلت : يعنون ليلة الإسراء ؟ .

---

(١) البخارى ، كتاب الفتن ، باب « لا يأتى زمان إلا الذى بعده شر منه » : ٦١/٩ — ٦٢ . وتحفة الأحوذى ، أبواب الفتن ، باب « ماجاء فى أشراط الساعة » ، الحديث ٢٣٠٢ : ٤٤٩/٦ — ٤٥٠ .

(٢) تفسير الطبرى : ٧٨/٣٠ .

(٣) هذا تفسير ثان للحديث الذى رواه البخارى من ابن عباس .

(٤) انظر كتاب السبعة لابن مجاهد : ٦٧٧ .

(٥) تفسير الطبرى : ٧٨/٣٠ .

وقال أبو إسحاق ، والسدى ، عن رجل ، عن ابن عباس : (طبقا عن طبق) : منزلا على منزل ؛ وكذا رواه العوفى ، عن ابن عباس مثله — وزاد : « ويقال : أمرا بعد أمر ، وحالا بعد حال (١) » .

وقال السدى نفسُه : (لتركبن طبقا عن طبق) : أعمال من قبلكم منزلا بعد منزل .

قلت : كأنه أراد معنى الحديث الصحيح : « لتركبن سنن من كان قبلكم ، حذو القُذّة بالقُذّة ، حتى لو دخلوا جُحر ضب لدخلتموه » ؛ قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن ؟ (٢) » . وهذا محتمل .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة ، حدثنا ابن جابر : أنه سمع مكحولا يقول فى قول الله : (لتركبن طبقا عن طبق) ، قال : فى كل عشرين سنة ، تحدثون أمرا لم تكونوا عليه .

وقال الأعمش : حدثنى إبراهيم قال : قال عبد الله : (لتركبن طبقا عن طبق) ، قال : السماء تنشق ثم تحمر ، ثم تكون لونا بعد لون .

وقال الثورى ، عن قيس بن وهب ، عن مرة ، عن ابن مسعود : (طبقا عن طبق) ، قال : السماء مرّةً كالدهان ، ومرة تنشق (٣)

وروى البزار من طريق جابر الجعفى ، عن الشعبى ، عن علقمة ، عن عبد الله بن مسعود : (لَتَرْكَبُنَّ طبقا عن طبق) ، يا محمد ، يعنى حالا بعد حال ؛ ثم قال : ورواه جابر ، عن مجاهد ، عن ابن عباس .

وقال سعيد بن جبير : (لتركبن طبقا عن طبق) ، قال : قوم كانوا فى الدنيا خسيس أمرهم ، فارتفعوا فى الآخرة . وآخرون كانوا أشرافا فى الدنيا ، فاتضعوا فى الآخرة .

وقال عكرمة : (طبقا عن طبق) : حالا بعد حال ، فطيما بعد ما كان رضيعا ، وشيخا بعد ما كان شابا .

وقال الحسن البصرى : (طبقا عن طبق) ، يقول : حالا بعد حال ، رخاء بعد شدة ، وشدة بعد رخاء ، وغنى بعد فقر ، وفقرا بعد غنى ، وصحة بعد سقم وسقَما بعد صحة .

وقال ابن أبى حاتم : ذكر عن عبد الله بن زاهر : حدثنى أبى ، عن عمرو بن شمر ، عن جابر — هو الجعفى — عن محمد بن على ، عن جابر بن عبد الله قال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « إن ابن آدم لفى غفلة مما خُلِقَ له ؛ إن الله إذا أراد خلقه قال للملك : اكتب رزقه ، اكتب أجله ، اكتب أثره ، اكتب شقيا أو سعيدا ؛ ثم يرتفع ذلك الملك ويبعث الله إليه ملَكا فيحفظه حتى يدرك ، ثم يرتفع ذلك الملك . ثم يوكل الله به ملكين يكتبان حسناته وسيئاته ، فاذا حضَره الموتُ ارتفع ذانك المكان ، وجاءه ملك الموت فقبض روحه ، فاذا دخل قبره ردّ الروح فى جسده ؛ ثم ارتفع ملك الموت وجاءه ، ملَكا القبر فامتحناه . ثم يرتفعان ، فاذا قامت الساعة انحط عليه ملك الحسنات

---

(١) تفسير الطبرى : ٣٠/٧٨ .

(٢) تقدم الحديث عند تفسير الآية الرابعة والثلاثين من سورة براءة ، وخرجناه هنالك ، وشرحنا غريبه ، انظر : ٤/٨٠ .

(٣) تفسير الطبرى : ٣٠/٧٩ .

وملك السيئات ، فانتشطا كتابا معقودا فى عنقه ، ثم حضرا معه : واحدٌ سائقا وآخر شهيدا ، ثم قال الله عز وجل : (لقد كنت فى غفلة من هذا) . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لتركبن طبقا عن طبق) . قال : « حالا بعد حال » . ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن قدامكم لأمرا عظيما لا تَقدُرونه ، فاستعينوا بالله العظيم » .

هذا حديث منكر ، وإسناده فيه ضعفاء ، ولكن معناه صحيح ، والله — سبحانه وتعالى — أعلم .

ثم قال ابن جرير بعد ما حكى أقوال الناس فى هذه الآية من القراء والمفسرين : والصواب من التأويل قول من قال لَتَرْكَبَنّ أنت — يا محمد — حالا بعد حال وأمراً بعد أمر من الشّدائد . والمراد بذلك — وإن كان [الخطاب (١)] إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مُوَجَّها — جَميعُ (٢) الناس ، وأنهم يلقون من شدائد يوم القيامة وأهواله أحوالا(٣) » .

وقوله : (فما لهم لا يؤمنون . وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون) ، أى : فماذا يمنعهم من الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ؟ . وما لهم إذا قرئت عليهم آيات الرحمن وكلامه — وهو هذا القرآن — لا يسجدون إعظاما وإكراما واحتراما . ؟ .

وقوله : (بل الذين كفروا يكذبون) ، أى : من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق .

(والله أعلم بما يوعون) — قال مجاهد وقتادة : يكتمون فى صدورهم (٣) .

(فبشرهم بعذاب أليم) ، أى : فأخبرهم — يا محمد — بأن الله — عز وجل — قد أعدّ لهم عذابا أليما .

وقوله : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) : هذا استثناء منقطع ، يعنى لكن الذين آمنوا — أى : بقلوبهم — وعملوا الصالحات بجوارحهم ، (لهم أجر) ، أى : فى الدار الآخرة .

(غير ممنون) — قال ابن عباس : غير منقوص . وقال مجاهد ، والضحاك : غير محسوب .

وحاصل قولهما أنه غير مقطوع ، كما قال تعالى : (عطاء غير مجذوذ (٤)) . وقال السدى : قال بعضهم : (غير ممنون) : غير منقوص . وقال بعضهم : (غير ممنون) عليهم .

وهذا القول الآخر عن بعضهم قد أنكره غير واحد ، فان الله عز وجل له المنة على أهل الجنة فى كل حال وآن ولحظة ، وإنما دخولها بفضله ورحمته لا بأعمالهم ، فله عليهم المنة دائما سرمدا ، والحمد لله وحده أبدا ، ولهذا يلهمون تسبيحه وتحميده كما يلهمون النَّفَس : (وآخر دعوهم : أن الحمدُ لله ربّ العالمين (٥)) .

آخر تفسير سورة الانشقاق ، ولله الحمد

---

(١) ما بين القوسين عن تفسير الطبرى .
(٢) كلمة « جميع » خبر لقوله : « والمراد بذلك » .
(٣) تفسير الطبرى : ٣٠/٨٠ .
(٤) سورة هود ، آية : ١٠٨ .
(٥) سورة يونس ، آية : ١٠ .

تفسير سورة البروج

وهى مكيـة

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا رُزَيق بن أبى سلمى حدثنا أبو المهزّم ، عن أبى هُرَيرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ فى العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج ، والسماء والطارق (١) .

وقال أحمد : حدثنا أبو سعيد (٢) — مولى بنى هاشم — حدثنا حماد بن عباد السدوسى ، سمعت أبا المهزم يحدث عن أبى هُرَيرة : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أمر أن يقرأ بالسموات فى العشاء (٣) . تفرد به أحمد .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤)
النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ
إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩)
إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠)

يقسم تعالى بالسماء وبروجها ، وهى : النجوم العظام . كما تقدم بيان ذلك فى قوله : (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا ، وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا (٤)) .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، والسدى : البروج : النجوم : وعن مجاهد أيضا : البروج التى فيها الحرس .

وقال يحيى بن رافع (٥) : البروج : قصور فى السماء . وقال المنهال بن عمرو : (والسماء ذات البروج) : الخلق الحسن .

واختار ابن جرير أنها : منازل الشمس والقمر ، وهى اثنا عشر برجا ، تسير الشمس فى كل واحد منها شهرا ، ويسير القمر فى كل واحد يومين وثلثا ، فذلك ثمانية وعشرون منزلة ، ويستسرّ ليلتين (٦) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٢٦ – ٣٢٧ .

(٢) فى المسند : « حدثنا سعيد » . والصواب أبوسعيد ، وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبيد النصرى ، انظر التهذيب : ٦/٢٠٩ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٢٧ .

(٤) سورة الفرقان ، آية : ٦١ .

(٥) هو أبو عيسى الثقفى . روى عن عثمان بن عفان ، وأبى هريرة . روى عنه إسماعيل بن أبى خالد . انظر الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٤/٢/١٤٣ .

(٦) انظر تفسير الطبرى : ٣٠/٨١ .

وقوله (واليوم الموعود ، وشاهد ومشهود) : اختلف المفسرون في ذلك ، وقد قال ابن أبي حاتم :

حدثنا عبد الله بن محمد بن عمرو الغزى ، حدثنا عُبَيد الله – يعنى ابن موسى – حدثنا موسى بن عبيدة ، عن أيوب ابن خالد بن صفوان بن أوس الأنصارى ، عن عبد الله بن رافع ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (واليوم الموعود)يوم القيامة ، (وشاهد) يوم الجمعة . وما طلعت شمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة ، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيرا إلا أعطاه إياه ، ولا يستعيذ فيها من شر إلا أعاذه ، (ومشهود) يوم عرفة » .

وهكذا روى هذا الحديث ابن خُزَيمة (١) من طرق عن موسى بن عُبَيدة الربذى – وهو ضعيف الحديث – وقد روى موقوفا (٢) على أبى هريرة ، وهو أشبه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد ، حدثنا شعبة ، سمعت على بن زيد ويونس بن عبيد يحدثان عن عمار – مولى بنى هاشم – عن أبى هريرة – أما على فرفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وأما يونس فلم يَعْدُ أباهريرة – أنه قال فى هذه الآية : (وشاهد ومشهود) ، قال : يعنى الشاهدَ يومُ الجمعة ، ويوم مشهود يوم القيامة (٣) .

وقال أحمد أيضا : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن يونس سمعت عمارا مولى بنى هاشم يحدث عن أبى هريرة وأنه قال فى هذه الآية (وشاهد ومشهود) ، قال : الشاهد يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة ، والموعود يوم القيامة (٤) .

وقد روى عن أبى هريرة أنه قال : اليوم الموعود يوم القيامة . وكذلك قال الحسن ، وقتادة ، وابن زيد . ولم أرهم يختلفون فى ذلك ولله الحمد .

ثم (٥) قال ابن جرير : حدثنا محمد بن عوف ، حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش ، حدثنى أبى ، حدثنا ضمضم ابن زُرعة ، عن شُرَيح بن عبيد ، عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « اليوم الموعود يوم القيامة ، وإن الشاهد يوم الجمعة ، وإن المشهود يوم عرفة ، ويوم الجمعةَ ذخره (٦) الله لنا (٧) » .

ثم قال ابن جرير : حدثنا سهل بن موسى الرازى ، حدثنا ابن أبى فديك ، عن ابن حرملة ، عن سعيد بن المسيب أنه قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « إن سيد الأيام يوم الجمعة ، وهو الشاهدُ ، والمشهود يوم عرفة (٨) » .

---

(١) فى المخطوطة : « ابن حزم » . والمثبت عن الطبعات السابقة .
(٢) فى المخطوطة : « روى مرفوعاً » . والمثبت أيضاً عن الطبعات السابقة .
(٣) كذا ، ولفظ المسند ٢٩٨/٢ : « قال : يعنى الشاهد يوم عرفة ، والموعود يوم القيامة » .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٢٩٨/٢ – ٢٩٩ .
(٥) هذا الحديث ساقط من مخطوطة الأزهر .
(٦) كذا فى الطبعات السابقة . وفى تفسير الطبرى : « وخيرة الله لنا » .
(٧) تفسير الطبرى : ٨٢/٣٠ – ٨٣ .
(٨) تفسير الطبرى : ٨٢/٣٠ .

وهذا مرسل من مراسيل سعيد بن المسيب ، ثم قال ابن جرير :

حدثنا أبو كريب ، حدثنا وكيع ، عن شعبة ، عن على بن زيد ، عن يوسف المكى ، عن ابن عباس قال : الشاهد هو محمد صلى الله عليه وسلم ، والمشهود يوم القيامة ، ثم قرأ : (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود (١)) .

وحدثنا ابن حميد ، حدثنا جرير ، عن مغيرة ، عن شباك قال : سأل رجل الحسن بن على عن : (وشاهد ومشهود)، قال : سألت أحدا قبلى ؟ قال : نعم ، سألت ابن عمر وابن الزبير ، فقالا : يوم الذبح ويوم الجمعة . فقال : لا ، ولكن الشاهد محمد صلى الله عليه وسلم . ثم قرأ : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) ، والمشهود يوم القيامة ، ثم قرأ : (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود (١)) .

وهكذا قال الحسن البصرى . وقال سفيان الثورى ، عن ابن حرملة ، عن سعيد بن المسيب : (ومشهود) يوم القيامة .

وقال مجاهد ، وعكرمة ، والضحاك : الشاهد ابن آدم ، والمشهود يوم القيامة .

وعن عكرمة أيضا : الشاهد محمد – صلى الله عليه وسلم – والمشهود يوم الجمعة .

[وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : الشاهد الله ، والمشهود يوم القيامة (٢)] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين ، حدثنا سفيان ، عن أبى يحيى القتات ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : (وشاهد ومشهود) قال : الشاهد الإنسان . والمشهود يوم الجمعة . هكذا رواه ابن أبى حاتم .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران ، عن سفيان عن [ابن أبى (٣) نجيح] ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : (وشاهد ومشهود) ، الشاهد : يوم عرفة ، والمشهود يوم القيامة (٤) .

وبه عن سفيان – هو الثورى – عن مغيرة ، عن إبراهيم قال : يوم الذبح ، ويوم عرفة يعنى الشاهد والمشهود .

قال ابن جرير : وقال آخرون : المشهود يوم الجمعة . ورووا فى ذلك ما حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ، حدثنى عمى عبد الله بن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث ، عن سعيد بن أبى هلال ، عن زيد بن أيمن ، عن عبادة بن نُسَىّ ، عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أكثروا على من الصلاة يوم الجمعة ، فانه يوم مشهود ، تشهده الملائكة (٤) » .

وعن سعيد بن جبير : الشاهد الله ، وتلا (وكفى بالله شهيدا) ، والمشهود نحن . حكاه البغوى ، وقال : الأكثرون على أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة .

---

(١) تفسير الطبرى : ٨٣/٣٠ .
(٢) هذا الأثر ساقط من مخطوطة الأزهر .
(٣) فى المخطوطة : « عن أبى يحيى القتات » . والمثبت عن الطبعات السابقة وتفسير الطبرى .
(٤) تفسير الطبرى : ٨٤/٣٠ .

وقوله : (قتل أصحاب الأخدود) ، أى : لعن أصحاب الأخدود ، وجمعه أخاديد ، وهى الحفر فى الأرض . وهذا خبر عن قوم من الكفار عَمَدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله — عز وجل — فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم ، فأبوا عليهم ، فحفروا لهم فى الأرض أخدُودا وأججوا فيه نارا ، وأعدوا لها وقودا يسعرونها به ، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم ، فقذفوهم فيها ، ولهذا قال تعالى : (قتل أصحاب الأخدود ۝ النار ذات الوقود ۝ إذهم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود) ، أى : مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين .

قال الله تعالى : (وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) ، أى : وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذى لا يضام من لاذ بجنابه ، المنيع الحميد فى جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ، وإن كان قد قدّر على عباده هؤلاء هذا الذى وقع بهم بأيدى الكفار به ، فهو العزيز الحميد ، وإن خفى سبب ذلك على كثير من الناس .

ثم قال : (الذى له ملك السموات والأرض) ، من تمام الصفة أنه المالك لجميع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ، (والله على كل شىء شهيد) ، أى : لا يغيب عنه شىء فى جميع السموات والأرض ، ولا تخفى عليه خافية .

وقد اختلف أهل التفسير فى أهل هذه القصة ، من هم ؟ فعن على — رضى الله عنه — أنهم أهل فارس حين أراد ملكهم تحليل تزويج المحارم ، فامتنع عليه علماؤهم ، فعمد إلى حفر أخدود فقذف فيه من أنكر عليه منهم ، واستمر فيهم تحليل المحارم إلى اليوم .

وعنه أنهم كانوا قوماً باليمن اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم ، فغلب مؤمنوهم على كفارهم ، ثم اقتتلوا فغلب الكفار المؤمنين ، فخدّوا لهم الأخاديد ، وأحرقوهم فيها .

وعنه أنهم كانوا من أهل الحبشة واحدهم حَبَشىّ .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : (قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود) ، قال : ناس من بنى إسرائيل ، خدّوا أخدوداً فى الأرض ، ثم أوقدوا فيه نارا ، ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالا ونساء ، فعُرِضوا عليها ، وزعموا أنه دانيال وأصحابه .

وهكذا قال الضحاك بن مزاحم ، وقيل غير ذلك . وقد قال الإمام أحمد :

حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن صُهيب : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « كان [ملك] فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر الساحر قال للملك : إنى قد كبرت سنى وحضر أجلى ، فادفع إلى غلاما لأعلمه السحر . فدفع إليه غلاما فكان يعلمه السحر ، وكان بين الساحر [وبين] الملك راهب ، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه ، فأعجبه نحوه وكلامه ، وكان إذا [أتى] (١) الساحر ضربه وقال : ما حبسك ؟ وإذا أتى أهله ضربوه وقالوا : ما حبسك ؟ فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال : إذا أراد الساحر أن يضربك فقل : حبسنى أهلى . وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل : حبسنى الساحر .

(١) فى المخطوطة : « رأى الساحر » . والمثبت من المسند .

قال : فبينا هو ذات يوم (١) إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة ، قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا ، فقال : اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى [الله] أم أمر الساحر ؟ قال : فأخذ حجرا فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحبَّ إليك وأرضى من أمر الساحر ، فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس . ورماها فقتلها ، ومضى الناس . فأخبر الراهب بذلك ، فقال : أيْ بُنَيّ ، أنت أفضل مني ، وإنك ستُبتلى ، فان ابتليت فلا تدل على . فكان الغلام يُبرِىءُ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم ، وكان جليس للملك فعمي ، فسمع به ، فأتاه بهدايا كثيرة فقال : اشفني ولك ما هاهنا أجمعُ . فقال : ما أنا أشفي أحداً ، إنما يشفي الله عز وجل ، فان آمنت به دعوت الله فشفاك . فآمن فدعا الله فشفاه . ثم أتى الملكَ فجلس منه نحو ما كان يجلس ، فقال له الملك : يا فلان ، من ردّ عليك بصرك ؟ فقال : ربي ؟ فقال : أنا ؟ قال : لا ، ربي وربك الله . قال : ولك رب غيري ؟ قال : نعم ، ربي وربك الله . فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فبعث إليه فقال : أيْ بُنَيّ ، بلغ من سحرك أن تبرىء الأكمه والأبرص وهذه الأدواء ؟ . قال : ما أشفي أنا أحداً ، إنما يشفي الله عز وجل . قال : أنا ؟ قال : لا . قال : أولك رب غيري ؟ قال : ربي وربك الله . فأخذه أيضا بالعذاب ، فلم يزل به حتى دل على الراهب ، فأتى بالراهب فقال : ارجع عن دينك . فأبى ، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه ، وقال للأعمى : ارجع عن دينك . فأبى ، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض . وقال للغلام : ارجع عن دينك . فأبى ، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا ، وقال : إذا بلغتم ذروته فان رجع عن دينه وإلا فدَهْدِهوه(٢) [من فوقه (٣)] فذهبوا به ، فلما علوا به الجبل قال : اللهم ، اكفنيهم بما شئت . فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون ، وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله . فبعث به مع نفر في قُرْقُور (٤) فقال : إذا لججتم به البحر فان رجع عن دينه وإلا فغرقوه في البحر . فلججوا به البحر فقال الغلام : اللهم ، اكفنيهم بما شئت . فغرقوا أجمعون ، وجاء الغلام حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ؟ فقال : كفانيهم الله . ثم قال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به ، فان أنتَ فعلت ما آمرك به قتلتني ، وإلا فانك لا تستطيع قتلي . قال : وما هو ؟ قال : تجمع الناس في صعيد واحد ثم تصلبني على جذع ، وتأخذ سهما من كنانتي ثم قل : « باسم الله ربّ الغلام » ، فانك إذا فعلت ذلك قتلتني . ففعل ، ووضع السهم في كبد قوسه(٥) ثم رماه ، وقال : « باسم الله رب الغلام » ، فوقع السهم في صدغه ، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات ، فقال الناس : آمنا برب الغلام . فقيل للملك : أرأيت ما كنت تحذر ؟ فقد — والله — نزل بك ، قد آمن الناس كلهم . فأمر بأفواه السكك فخُدّت فيها الأخاديد ، وأضرمت فيها النيران ، وقال : من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها . قال : فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون ، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه ، فكأنها تقاعست أن تقع في النار ، فقال الصبي : اصبري يا أماه ، فانك على الحق (٦) .

---

(١) لفظ المسند : « فبينا هو كذلك إذ أتى ذات يوم على . . . » .
(٢) أي : دحرجوه .
(٣) ما بين القوسين عن المسند .
(٤) القرقور — بضم القافين — : السفينة الصغيرة .
(٥) كبد القوس : مقبضها عند الرمي .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٦/١٦ — ١٨ .

وهكذا رواه مسلم (١) فى آخر الصحيح عن هُدبة بن خالد ، عن حماد بن سلمة [به نحوه : ورواه النسائى عن أحمد بن سليمان ، عن عفان ، عن حماد بن سلمة(٢)] ومن طريق حماد بن زيد ، كلاهما عن ثابت ، به واختصروا أوله . وقد جوّده الإمام أبو عيسى الترمذى ، فرواه فى تفسير هذهالسورة عن محمود بن غَيلانَ وعَبد بن حُمَيد – [المعنى واحد] – قالا : أخبرنا عبد الرزّاق ، عن معمر ، عن ثابت البُنَانى ، عنعبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن صُهَيب قال: كان رسول الله – صلىالله عليه وسلم– إذا صلىالعصر هَمَس – والهَمسفىقول بعضهم(٣): تحريك شفتيه كأنه يتكلم – فقيل له : [إنك] – يا رسول الله – إذا صليت العصر همست ؟ قال : « إن نبيا من الأنبياء كان أُعجِبَ (٤) بأمته فقال : من يقوم لهؤلاء ؟ . فأوحى الله إليه أن خيرهم بين أن أنتقم [منهم] ، وبين أن أسلط عليهم عدوهم . فاختاروا النقمة ، فسلّط عليهم الموت، فمات منهم فى يوم سبعون ألفا » . قال : وكان إذا حدّث بهذا الحديث، حدّث بهذا الحديث الآخر قال : كان مَلِك من الملوك ، وكان لذلك المَلك كاهن يتكهن له ، فقال الكاهن : انظروا لى غلاما فَهِماً – أو قال : فطنا لَقِناً (٥) – فأعلّمَه علمى هذا .. فذكر القصة بتمامها ، وقال فى آخره : « يقول الله عز وجل : (قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود) حتى بلغ : (العزيز الحميد) . قال : فأما الغلام فإنه دفن [قال] : فيذكر أنه أخرج فى زمان عمر بن الخطاب ، وإصبعه على صُدغه كما وضعها حين قتل » . ثم قال الترمذى : «حسن غريب (٦) » .

وهذا السياق ليس فيه صراحة أن سياق هذه القصة من كلام النبى – صلى الله عليه وسلم – قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزّى : فيحتمل أن يكون من كلام صُهَيب الرومى ، فانه كان عنده علم من أخبار النصارى ، والله أعلم .

وقد أورد محمد بن إسحاق بن يَسَار هذه القصة فى السيرة بسياق آخر ، فيها مخالفة لما تقدم ، فقال :

حدثنى يزيد بن زياد ، عن محمد بن كعب القُرَظى – وحدثنى أيضاً بعض أهل نجران ، عن أهلها – : أن أهل نجران كانوا أهل شرك يعبدون الأوثان ، وكان فى قرية من قراها قريبا من نجران – ونجران هى القرية العظمى التى إليها جمَاعُ أهل تلك البلاد – ساحرٌ يعلم غلمان أهل نجران السحر ، فلما نزلها فَيمُون (٧) – ولم يسموه لى بالاسم الذى سماه ابن منبه ، قالوا : رجل نزلها – ابتنى (٨) خيمة بين نجران وبين تلك القرية التى فيها الساحر ، وجعل أهل نجران يرسلون [غلمانهم] إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر ، فبعث الثامر ابنه عبد الله بن الثامر مع غلمان أهل نجران ، فكان إذا مر بصاحب

---

(١) مسلم ، كتاب الزهد والرقائق ، باب « قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام » : ٨/٢٢٩ – ٢٣١ .
(٢) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة – وكان فيها : « أحمد بن سليمان ، عن عثمان » . والمثبت عن التهذيب ، ترجمة عفان ابن مسلم : ٧/٢٣٠ – ٢٣١ .
(٣) فى المخطوطة : « بعض قولهم » . والمثبت عن الترمذى .
(٤) أعجب – بصيغة المبنى للمجهول – وإعجابه بأمته من جهة الكثرة .
(٥) الفهم – بفتح فسكون – : سريع الفهم والفطن : الحاذق . واللقن : حسن التلقن لما يسمعه .
(٦) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة البروج ، الحديث ٣٣٩٨ : ٩/٢٥٩ – ٢٦٥ .
(٧) فى سيرة ابن هشام : « فيميون » .
(٨) فى المخطوطة : « فابتنى » . والمثبت عن السيرة ، وهو الصواب .

الخيمة أعجبه ما يرى من عبادته وصلاته ، فجعل يجلس إليه ويسمع منه ، حتى أسلم فوحد الله وعبده ، وجعل يسأله عن شرائع الإسلام حتى إذا فقه فيه جعل يسأله عن الاسم الأعظم ، وكان يعلمه ، فكتمه إياه وقال له : يا ابن أخى ، إنك لن تحمله ، أخشى ضعفك عنه . والثامر أبو عبد الله لا يظن إلا [أن] ابنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان ، فلما رأى عبد الله أن صاحبه قد ضن به عنه ، وتخوف ضعفه فيه ، عمد إلى أقداح فجمعها ، ثم لم يبق لله اسماً يعلمه إلا كتبه فى قدح (١) ، وكل اسم فى قدح ، حتى إذا أحصاها أوقد نارا ثم جعل يقذفها فيها قدحاً قدحاً ، حتى إذا مر بالاسم الأعظم قذف فيها بقدحه ، فوثب القدح حتى خرج منها لم يضرّه شىء ، فأخذه ثم أتى به صاحبه ، فأخبره أنه قد علم الاسم الأعظم الذى كتمه فقال : وما هو ؟ قال : هو كذا وكذا . قال : وكيف علمته ؟ فأخبره بما صنع . قال : أى ابن أخى ، قد أصبته فأمسك على نفسك ، وما أظن أن تفعل .

فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحدا به ضر إلا قال : يا عبد الله ، أتوحدُ الله وتدخلُ فى دينى وأدعوَ الله لك فيعافيَكَ مما أنت فيه من البلاء ؟ فيقول : نعم . فيوحد الله ويسلم ، فيدعو الله له فيُشفَى ، حتى لم يبق بنجران أحد به ضر إلا أتاه ، فاتبعه على أمره ودعا له فعوفى ، حتى رُفِع شأنه إلى ملك نجران ، فدعاه فقال له : أفسدت على أهل قريتى ، وخالفت دينى ودين آبائى ، لأُمثِّلنّ بك . قال : لا تقدر على ذلك . قال : فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل ، فيُطرح على رأسه ، فيقع إلى الأرض مابه بأس ، وجعل يبعث به إلى مياه بنجران ، بُحور لا يلقى فيها شىء إلا هلك ، فيلقى به فيها ، فيخرج ليس به بأس . فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر : إنك ــ والله ــ لا تقدر على قتلى حتى تُوَحِّدَ الله فتؤمن بما آمنت به ؛ فانك إن فعلتَ سُلِّطتَ علىّ فقتلتنى . قال : فوحّدَ الله ذلك الملك ، وشهد شهادة عبد الله بن الثامر ، ثم ضربه بعصا فى يده فشجه شجة غير كبيرة ، فقتله ، وهلك الملك مكانه . واستجمع أهلُ نجران على دين عبد الله بن الثامر ــ وكان على ما جاء به عيسى ابن مريم ــ عليه السلام ــ من الإنجيل وحُكمه ــ ثم أصابهم ما أصاب أهلَ دينهم من الأحداث ، فمن هنالك كان أصل دين النصرانية بنجران .

قال ابن إسحاق : فهذا حديثُ محمد بن كعب القرظى وبعض أهل نجران عن عبد الله بن الثامر ، والله أعلم أىّ ذلك كان .

قال : فسار إليهم ذو نواس بجنده ، فدعاهم إلى اليهودية ، وخيرهم بين ذلك أو القتل ، فاختاروا القتل ، فخدّ الأخدود ، فحرق بالنار وقتل بالسيف ومثل بهم ، حتى قتل منهم قريبا من عشرين ألفا ، ففى ذى نواس وجنده أنزل الله ــ عز وجل ــ على رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذهم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد (٢)) .

هكذا ذكر محمد بن إسحاق فى السيرة أن الذى قتل أصحاب الأخدود [هو] ذو نواس ، واسمه : زرعة ، ويسمّى فى زمان مملكته بيوسف ، وهو ابن (٣) تبان أسعد أبى كَرِب ، وهو تُبَّع الذى غزا المدينة وكسى الكعبة ، واستصحب

---

(١) القدح : السهم

(٢) سيرة ابن هشام : ١/٣٤ ــ ٣٦ .

(٣) وقع فى المخطوطة خطأ فى نسب ذى نواس . والمثبت من جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ٤٣٨ .

معه حبرين من يهود المدينة ، فكان تَهَوّدُ من تَهَوّدَ من أهل اليمن على يديهما ، كما ذكره ابن إسحاقَ مَبسوطاً ، فقتل ذو نواس فى غداة واحدة فى الأخدود عشرين ألفا ، ولم ينج منهم سوى رجل واحد يقال له دوس ذو ثَعلبان ، ذهب فارسا ، وطَرَدُوا وراءه فلم يُقدَر عليه ، فذهب إلى قيصر ملك الشام ، فكتب إلى النجاشى ملك الحبشة ، فأرسل معه جيشا من نصارى الحبشة يقدمهم أرياط وأبرهة ، فاستنقذوا اليمن من أيدى اليهود ، وذهب ذو نواس هاربا فَلَجَّج فى البحر ، فغرق . واستمر مُلْكُ الحبشة فى أيدى النصارى سبعين سنة ، ثم استنقذه سيف بن ذى يزن الحميرى من أيدى النصارى ، لما استجاش بكسرى ملك الفرس ، فأرسل معه من فى السجون ، وكانوا قريبا من سبعمائة ، ففتح بهم اليمن ، ورجع الملك إلى حمير . وسنذكر طرفا من ذلك — إن شاء الله — فى تفسير سورة : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) .

وقال ابن إسحاق : وحدثنى عبد الله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم : أنه حُدِّث : أن رجلا من أهل نجران كان فى زمان عمر بن الخطاب ، حفَر خَرِبةً من خَرِب نجران لبعض حاجته ، فوجد عبد الله بن التامر تحت دَفْن فيها قاعدا ، واضعا يده على ضربة فى رأسه ، ممسكا عليها بيده ، فاذا أخذت (١) يده عنها تَعبتْ (٢) دما ، وإذا أرسلت يده رُدّت عليها ، فأمسكت دمها ، وفى يده خاتم مكتوب فيه : ربى الله . فكُتِبَ فيه إلى عمر بن الخطاب يخبره بأمره ، فكتب عمر إليهم : أن أقرّوه على حاله ، وردّوا عليه (الدَّفْن (٣)) الذى كان عليه . ففعلوا (٤) .

وقد قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا رحمه الله : حدثنا أبو بلال الأشعرى ، حدثنا إبراهيم بن محمد ابن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، حدثنى بعض أهل العلم : أن أبا موسى لما افتتح أصبهان وجد حائطا من حيطان المدينة قد سقط ، فبناه فسقط ، ثم بناه فسقط ، فقيل له : إن تحته رجلا صالحا . فحفر الأساس فوجد فيه رجلا قائما معه سيف ، فيه مكتوب : أنا الحارث بن مضاض ، نقمت على أصحاب الأخدود . فاستخرجه أبو موسى ، وبنى الحائط ، فثبت .

قلت : هو الحارث بن مضاض بن عمرو بن مُضَاض بن عمرو الجرهمى ، أحد ملوك جرهم الذين ولوا أمر الكعبة بعد ولد نَبْت (٥) بن إسماعيل بن إبراهيم ، ووَلَدُ الحارث هذا هو : عمرو بن الحارث بن مضاض هو آخر ملوك جرهم بمكة ، لما أخرجتهم خزاعة وأجلوهم إلى اليمن ، وهو القائل فى شعره الذى قال ابن هشام (٦) إنه أول شعر قاله العرب :

كأن لَم يَكُنْ بَين الحَجُون إلى الصّفا أنيس ، ولم يَسْمُر بمكّةَ سامِرُ
بلَى ، نَحنُ كُنَّا أهلَهَا فَأبادَنَا صُروفُ اللّيَالى والجُدودُ العَوَاثِرُ

---

(١) فى سيرة ابن هشام : « أخرت » .
(٢) أى : تفجرت .
(٣) ما بين القوسين من سيرة ابن هشام .
(٤) سيرة ابن هشام : ١/٣٦ – ٣٧ .
(٥) فى المخطوطة : « ثابت بن إسماعيل » . والمثبت عن المعارف لابن قتيبة : ٣٤ .
(٦) سيرة ابن هشام : ١/١١٥ – ١١٦ .

وهذا يقتضى أن هذه القصة كانت قديما بعد زمان إسماعيل — عليه السلام — بقرب من خمسمائة سنة أو نحوها ، وما ذكره ابن إسحاق يقتضى أن قصتهم كانت فى زمان الفترة التى بين عيسى ومحمد — عليهما من الله السلام — وهو أشبه ، والله أعلم .

وقد يحتمل أن ذلك قد وقع فى العالم كثيراً ، كما قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبى ، حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا صفوان ، عن عبد الرحمن بن جبير قال : كانت الأخدود فى اليمن زمان تبع ، وفى القسطنطينية زمان قسطنطين حين صرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد ، فاتخذوا أتونا ، وألقى فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد . وفى العراق فى أرض بابل بختنصر ، الذى وضع الصنم وأمر الناس أن يسجدوا له ، فامتنع دانيال وصاحباه : عزريا وميشائيل ، فأوقد لهم أتونا وألقى فيه الحطب والنار ، ثم ألقاهما فيه ، فجعلها الله عليهما برداً وسلاما ، وأنقذهما منها ، وألقى فيها الذين بغوا عليه وهم تسعة رهط ، فأكلتهم النار .

وقال أسباط ، عن السدى فى قوله : (قتل أصحاب الأخدود) ، قال : كانت الأخدود ثلاثة : خَدّ بالعراق ، وخَدّ بالشام ، وخد باليمن . رواه ابن أبى حاتم .

وعن مقاتل قال : كانت الأخدود ثلاثة : واحدة بنجران باليمن ، والأخرى بالشام ، والأخرى بفارس ، أما التى بالشام فهو انطنانوس الرومى ، وأما التى بفارس فهو بختنصر ، وأما التى بأرض العرب فهو يوسف ذو نواس ؛ فأما التى بفارس والشام فلم ينزل الله فيهم قرآنا ، وأنزل فى التى كانت بنجران .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكى ، حدثنا عبد الله بن أبى جعفر ، عن أبيه ، عن الربيع — هو ابن أنس — فى قوله : (قتل أصحاب الأخدود) ، قال : سمعنا أنهم كانوا قوما فى زمان الفترة ، فلما رأوا ما وقع فى الناس من الفتنة والشر وصاروا أحزابا ، (كل حزب بما لديهم فرحون) ، اعتزلوا إلى قرية سكنوها ، وأقاموا على عبادة الله (مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) ، وكان هذا أمرهم حتى سمع بهم جبار من الجبارين ، وحُدِّث حديثهم ، فأرسل إليهم فأمرهم أن يعبدوا الأوثان التى اتخذوا ، وأنهم أبوا عليه كلهم وقالوا : لا نعبد إلا الله وحده ، لا شريك له . فقال لهم : إن لم تعبدوا هذه الآلهة التى عبدتُ فإنى قاتلكم . فأبوا عليه ، فخدّ أخدودا من نار ، وقال لهم الجبار — ووَقَفهم عليها — : اختاروا هذه أو الذى نحن فيه . فقالوا : هذه أحب إلينا . وفيهم نساء وذرية ، ففزعت الذرّية ، فقالوا لهم : لا نار من بعد اليوم . فوقعوا فيها ، فقبضت أرواحهم من قبل أن يمسهم حرّها ، وخرجت النار من مكانها فأحاطت بالجبارين ، فأحرقهم الله بها ، ففى ذلك أنزل الله عز وجل : (قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذهم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد . الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شئ شهيد .) .

ورواه ابن جرير : حُدِّثت عن عمار ، عن عبد الله بن أبى جعفر ، به نحوه (١) .

---

(١) تفسير الطبرى : ٣٠/٨٨ .

وقوله : (إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات) ، أى : حرّقوا . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن أبزى .

(ثم لم يتوبوا) ، أى : لم يقلعوا عما فعلوا ، ويندموا على ما أسلفوا ؛

(فلهم عذاب جهنم ، ولهم عذاب الحريق) ، وذلك أن الجزاء من جنس العمل - قال الحسن البصرى : انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين أن (لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) ، بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم ، ولهذا قال : (ذلك الفوز الكبير) .

ثم قال : (إن بطش ربك لشديد) ، أى : إن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كذّبوا رسله وخالفوا أمره ، لشديد عظيم قوى ؛ فانه تعالى ذو القوة المتين ، الذى ما شاء كان كما يشاء فى مثل لمح البصر ، أو هو أقرب . ولهذا قال : (إنه هو يبدىء ويعيد) ، أى : من قوته وقدرته التامة يبدىء الخلق ثم يعيده كما بدأه ، بلا ممانع ولا مدافع : (وهو الغفور الودود) ، أى : يغفر ذنب من تاب إليه وخضع لديه ، ولو كان الذنب من أى شىء كان .

والودود - قال ابن عباس وغيره - : هو الحبيب (ذو العرش) ، [أى : صاحب العرش] المعظم العالى على جميع الخلائق .

والمجيد : فيه قراءتان ، الرفع على أنه صفة للرب - عز وجل - والجر على أنه صفة للعرش ، وكلاهما معنى صحيح .

(فعال لما يريد) ، أى : مهما أراد فعله ، لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل ؛ لعظمته وقهره وحكمته وعدله ، كما روينا عن أبى بكر الصديق أنه قيل له - وهو فى مرض الموت - : هل نظر إليك الطبيب ؟ قال : نعم : قالوا : فما قال لك ؟ قال : قال لى : إنى فعال لما أريد .

وقوله : (هل أتاك حديث الجنود : فرعون وثمود) ، أى : هل بلغك ما أحلّ الله بهم من البأس ، وأنزل عليهم من النقمة التى لم يردها عنهم أحد ؟ .

وهذا تقرير لقوله : (إن بطش ربك لشديد) ، أى : إذا أخذ الظالم أخذه أخذا أليما شديدا ، أخذ عزيز مقتدر .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا على بن محمد الطنافسى ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو ابن ميمون قال : مر النبى صلى الله عليه وسلم على امرأة تقرأ : (هل أتاك حديث الجنود) ، فقام يسمع ، فقال : « نعم ، قد جاءنى » .

وقوله : (بل الذين كفروا فى تكذيب) ، أى : هم فى شك وريب وكفر وعناد ، (والله من ورائهم محيط) ، أى : هو قادر عليهم ، قاهر لا يفوتونه ولا يعجزونه ، (بل هو قرآن مجيد) ، أى : عظيم كريم ، (فى لوح محفوظ) ، أى : هو فى الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل .

قال ابن جرير : حدثنا عمرو بن على ، حدثنا قرة بن سليمان ، حدثنا حرب بن سُرَيْج ، حدثنا عبد العزيز بن صهيب عن أنس بن مالك فى قوله : (بل هو قرآن مجيد . فى لوح محفوظ) قال : إن اللوح المحفوظ الذى ذكر الله : (بل هو قرآن مجيد . فى لوح محفوظ) ، فى جبهة إسرافيل (١) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح ، حدثنا معاوية بن صالح : أن أبا الأعْيَس ــ هو عبد الرحمن ابن سَلْمان قال : ما من شىء قضى الله ــ القرآن فما قبله وما بعده ــ إلا وهو فى اللوح المحفوظ . واللوح المحفوظ بين عينى إسرافيل ، لا يؤذن له بالنظر فيه .

وقال الحسن البصرى : إن هذا القرآن المجيد عند الله فى لوح محفوظ ، ينزل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه .

وقد روى البغوى من طريق إسحاق بن بشر : أخبرنى مقاتل وابن جريج ، عن مجاهد ، عن ابن عباس قال : إن فى صدر اللوح لا إله إلا الله وحده ، دينه الإسلام ، ومحمد عبده ورسوله ، فمن آمن بالله وصدق بوعده واتبع رسله ، أدخله الجنة ــ قال : واللوح لوح من درة بيضاء ، طوله ما بين السماء والأرض ، وعرضه ما بين المشرق والمغرب ، وحافتاه الدر والياقوت ، ودفتاه ياقوتة حمراء ، وقلمه نور ، وكلامه معقود بالعرش ، وأصله فى حجر ملك .

قال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن عثمان [بن أبى شيبة ، حدثنا منجاب بن الحارث] ، حدثنا إبراهيم بن يوسف ، حدثنا زياد بن عبد الله ، عن ليث ، عن عبد الملك بن سعيد بن جبير ، عن أبيه ، عن ابن عباس : أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « إن الله خلق لوحا محفوظا من درة بيضاء ، صفحاتها من ياقوتة حمراء ، قلمه نور وكتابه نور ، لله فيه فى كل يوم ستون وثلاثمائة لحظة ، يخلق ويرزق ، ويميت ويحيى ، ويعز ويذل ، ويفعل ما يشاء » .

آخر تفسير « سورة البروج » ولله الحمد .

---

(١) تفسير الطبرى : ٣٠/٩٠ .

تفسير سورة الطارق

وهى مكيـــة

قال عبد الله ابن الإمام أحمد : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن محمد — قال : عبد الله وسمعته أنا منه — حدثنا مروان ابن معاوية الفزارى ، عن عبد الله بن عبد الرحمن الطائفى ، عن عبد الرحمن بن خالد بن أبى جبَل العُدْوانى ، عن أبيه : أنه أبصر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى مُشَرَّق ثَقيف (١) وهو قائم على قوس — أو : عصى — حين أتاهم يبتغى عندهم النصر ، فسمعته يقول : (والسماء والطارق) ، حتى ختمها — قال : فوعيتها فى الجاهلية وأنا مشرك ، ثم قرأتها فى الإسلام — قال : فدعتنى ثقيف فقالوا : ماذا سمعتَ من هذا الرجل ؟ فقرأتها عليهم ، فقال من معهم من قريش : نحن أعلم بصاحبنا ، لو كنا نعلم ما يقول حقا لا تبعناه (٢) ؛

وقال النسائى : حدثنا عمرو بن منصور ، حدثنا أبو نعيم ، عن مسعر ، عن محارب بن دثار ، عن جابر قال : صلى معاذ المغرب ، فقرأ البقرة والنساء ، فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — : « أفتان يا معاذ ؟ » ما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق ، والشمس وضحاها ، ونحو هذا (٣) ؛

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾

يقسم تعالى بالسماء وما جعل فيها من الكواكب النيرة . ولهذا قال : (والسماء والطارق) ، ثم قال : (وما أدراك ما الطارق) ، ثم فسره بقوله : (النجم الثاقب) .

---

(١) المشرق : سوق ثقيف .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٤/ ٣٣٥ . وانظر ترجمة « خالد بن أبى جبل » فى أسد الغابة : ٢/ ٩١ — ٩٢ ، بتحقيقنا .

(٣) انظر النسائى ، كتاب الافتتاح ، باب « القراءة فى المغرب » (سبح اسم ربك الأعلى) : ٢/ ١٦٨ .

قال قتادة وغيره : إنما سمى النجم طارقا ، لأنه إنما يرى بالليل ويختفى بالنهار . ويؤيده ما جاء فى الحديث الصحيح : نهى أن يطرق الرجل أهله طروقا (١) . أى : يأتيهم فجأة بالليل . وفى الحديث الآخر المشتمل على الدعاء : « إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن (٢) ».

وقوله : (الثاقب) ـــ قال ابن عباس : المضىء . وقال السدى : يثقب الشياطين إذا أرسل عليها . وقال عكرمة : هو مضىء ومحرق للشيطان .

وقوله : (إن كل نفس لما عليها حافظ) ، أى : كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات ، كما قال تعالى (له مُعَقِّبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله (٣)) ... الآية .

وقوله : (فلينظر الإنسان مم خلق) ؟ : تنبيه للإنسان على ضَعف أصله الذى خُلق منه ، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد ؛ لأن من قدر على البَداءة فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى ، كما قال : (وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه (٤)) .

وقوله : (خلق من ماء دافق) ، يعنى المنى ؛ يخرج دفقاً من الرجل ومن المرأة ، فيتولد منهما الولد باذن الله عز وجل ولهذا قال : (يخرج من بين الصلب والترائب) ، يعنى صلب الرجل وترائب المرأة ، وهو صدرها .

قال شبيب بن بشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : (يخرج من بين الصلب والترائب) : صلب الرجل وترائب المرأة ، أصفر رقيق ، لا يكون الولد إلا منهما . وكذا قال سعيد بن جُبَير ، وعكرمة ، وقتادة والسدى ، وغيرهم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة ، عن مسعر : سمعت الحكم ذكر عن ابن عباس : (يخرج من بين الصلب والترائب) ، قال : هذه الترائب . ووضع يده على صدره .

وقال الضحاك وعطية ، عن ابن عباس : تَريبة المرأة موضع القلادة . وكذا قال عكرمة ، وسعيد بن جُبَير .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : الترائب : بين ثدييها .

وعن مجاهد : الترائب ما بين المنكبين إلى الصدر . وعنه أيضا : الترائب أسفل من التراقى .

وقال سفيان الثورى : فوق الثديين . وعن سعيد بن جُبَير : الترائب أربعة أضلاع من هذا الجانب الأسفل .

وعن الضحاك : الترائب بين الثديين والرجلين والعينين .

---

(١) البخارى ، كتاب النكاح ، باب « لا يطرق أهله ليلا إذا أطال الغيبة ، مخافة أن يخونهم أو يلتمس عثراتهم » : ٧/٥٠ . ومسلم ، كتاب الإمارة ، باب «كراهة الطروق ـ وهو الدخول ليلا ـ لمن ورد من سفر » : ٦/٥٥ ـ ٥٦ .
(٢) مسند الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن خنبش : ٣/٤١٩ .
(٣) سورة الرعد ، آية : ١١ .
(٤) سورة الروم ، آية : ٢٧ .

وقال الليث بن سعد ، عن معمر بن أبي حبيبة المدني : أنه بلغه في قول الله عز وجل : (يخرج من بين الصلب والترائب) ، [قال (١) : هو عصارة القلب ، من هناك يكون الولد (٢) .

وعن قتادة : (يخرج من بين الصلب والترائب) من بين صلبه ونحره .

وقوله : (إنه على رجعه لقادر) ، فيه قولان :

أحدهما : على رجع هذا الماء الدافق إلى مقره الذي خرج منه لقادر على ذلك : قاله مجاهد ، وعكرمة ، وغيرهما .

والقول الثاني : إنه على رجع هذا الإنسان المخلوق من ماء دافق ، أي : إعادته وبعثه إلى الدار الآخرة لقادر ؛ لأن من قدر على البداءة قدر على الإعادة .

وقد ذكر الله عز وجل هذا الدليل في القرآن في غير ما موضع ، وهذا القول قال به الضحاك ، واختاره ابن جرير ؛ ولهذا قال : (يوم تبلى السرائر) ، أي : يومُ القيامة تبلى فيه السرائر ، أي : تظهر وتبدو ، ويبقى السر علانية والمكنون مشهورا . وقد ثبت في الصحيحين ، عن ابن عمر : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « يرفع لكل غادر لواء عند استه ، يقال : هذه غَدْرَةُ فلان بن فلان (٣) » .

وقوله : (فماله) ، أي : الإنسان يوم القيامة (من قوة) ، أي : في نفسه ، (ولا ناصر) ، أي : من خارج منه ، أي : لا يقدر على أن ينقذ نفسه من عذاب الله ، ولا يستطيع له أحد ذلك .

وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾

قال ابن عباس : الرجع : المطر . وعنه : هو السحاب فيه المطر . وعنه : (والسماء ذات الرجع) ، تمطر ثم تمطر .

وقال قتادة : ترجع رزق العباد كل عام ، ولولا ذلك لهلكوا وهلكت مواشيهم (٤) .

وقال ابن زيد : ترجع نجومها وشمسها وقمرها ، يأتين من هاهنا .

(والأرض ذات الصدع) — قال ابن عباس : هو انصداعها عن النبات . وكذا قال سعيد بن جُبَيْر ، وعكرمة ، وأبو مالك ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، والسدي ، وغير واحد .

---

(١) ما بين القوسين المعقوفين ساقط من مخطوطة الأزهر وما أثبتناه عن الطبعات السابقة .
(٢) تفسير الطبري : ٣٠/٩٢ — ٩٣ .
(٣) البخاري ، كتاب الجزية ، باب « إثم الغادر للبر والفاجر » : ٤/١٢٧ . وكتاب الأدب ، باب « ما يدعى الناس بآبائهم » : ٨/٥١ . ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب « تحريم الغدر » : ٥/١٤١ — ١٤٣ .
(٤) تفسير الطبري : ٣٠/٩٥ .

وقوله : (إنه لقول فصل) — قال ابن عباس : حق . وكذا قال قتادة .

وقال آخر : حكم عدل .

(وما هو بالهزل) ، أى : بل هو حق جد .

ثم أخبر عن الكافرين بأنهم يكذبون به ويصدون عن سبيله ، فقال : (إنهم يكيدون كيدا) ، أى : يمكرون بالناس فى دعوتهم إلى خلاف القرآن .

ثم قال : (فمهل الكافرين) ، أى : أنظرهم ولا تستعجل لهم ، (أمهلهم رويدا) ، أى : قليلا . أى : وترى ماذا أحل بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك ، كما قال : (نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ [1]) .

آخر تفسير « سورة الطارق » ولله الحمد

(١) سورة لقمان ، آية : ٢٤ .

تفسير سورة سبح

وهى مكيــة

والدليلُ على ذلك ما رواه البخارى : حدثنا عبدان : أخبرنى أبى ، عن شعبة ، عن أبى إسحاق ، عن البراء بن عازب قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبى — صلى الله عليه وسلم — مصعب بن عمير وابنُ أمّ مكتوم ، فجعلا يُقرئاننا القرآن . ثم جاء عمار وبلال وسعد . ثم جاء عمر بن الخطاب فى عشرين . ثم جاء النبى — صلى الله عليه وسلم — فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء فرحهم به ، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون : هذا رسول الله قد جاء ، فما جاء حتى قرأت : (سبح اسم ربك الأعلى) فى سُوَر مثلها(١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا إسرائيل ، عن ثُوَيْر بن أبى فاختة ، عن أبيه ، عن على قال : كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يحب هذه السورة : (سبح اسم ربك الأعلى) . تفرد به أحمد (٢) .

وثبت فى الصحيحين : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ : « هلا صلّيت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها . والليل إذا يغشى (٣) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سفيان ، عن إبراهيم بن محمد بن المنتشر ، عن أبيه ، عن حبيب بن سالم ، عن أبيه ، عن النعمان بن بشير : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قرأ فى العيدين : (سبح اسم ربك الأعلى) ، و (هل أتاك حديث الغاشية) ، وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعا (٤) .

هكذا وقع فى مسند الإمام أحمد إسناد هذا الحديث . وقد رواه مسلم — فى صحيحه — وأبو داود والترمذى والنسائى ، من حديث أبى عوانة وجرير وشعبة ، ثلاثتهم عن [إبراهيم بن (٥)] محمد بن المنتشر ، عن أبيه ، عن حبيب بن سالم ، عن النعمان بن بشير ، به . قال الترمذى : « وكذا رواه الثورى ومسعر ، عن إبراهيم — قال : ورواه سفيان بن عيينة عن إبراهيم — عن أبيه ، عن حبيب بن سالم ، عن أبيه ، عن النعمان . ولا يعرف لحبيب رواية عن أبيه (٦) » .

---

(١) البخارى ، تفسير سورة (سبح اسم ربك الأعلى) : ٦/٢٠٨ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ١/٩٦ .

(٣) البخارى ، كتاب الأذان ، باب « من شكا إمامه إذا طول » : ١/١٨٠ — ١٨١ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « القراءة فى العشاء » : ٢/٤١ — ٤٢ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٤/٢٧١ .

(٥) ما بين القوسين عن مسلم ، وسنن أبى داود ، والترمذى ، والنسائى .

(٦) مسلم ، كتاب الجمعة ، باب « ما يقرأ فى صلاة الجمعة » : ٣/١٥ — ١٦ . وسنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « ما يقرأ فى الجمعة » . وتحفة الأحوذى ، أبواب العيدين ، الحديث ٥٣١ : ٣/٧٦ . والنسائى ، كتاب الجمعة ، باب « ذكر الاختلاف على النعمان بن بشير فى القراءة فى صلاة الجمعة » : ٣/١١٢ .

وقد رواه ابن ماجه عن محمد بن الصباح ، عن سفيان بن عيينة ، عن إبراهيم بن المنتشر ، عن أبيه عن حبيب بن سالم ، عن النعمان (١) به . كما رواه الجماعة ، والله أعلم .

ولفظ مسلم وأهل السنن : كان يقرأ فى العيدين ويوم الجمعة بـ (سبح اسم ربك الأعلى) ، و (هل أتاك حديث الغاشية) ، وربما اجتمعا فى يوم واحد فقرأهما .

وقد روى الإمام أحمد فى مسنده من حديث أبى بن كعب ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الرحمن بن أبزى ، وعائشة أم المؤمنين : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان يقرأ فى الوتر بـ (سبح اسم ربك الأعلى) ، و (قل : يا أيها الكافرون) ، و (قل هو الله أحد) — زادت عائشة : والمعوذتين .

وهكذا روى هذا الحديث — من طريق — جابر وأبى أمامة صُدَىّ بن عجلان ، وعبد الله بن مسعود ، وعمران ابن حصين ، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم . ولولا خشية الإطالة لأوردنا ما تيسر لنا من أسانيد ذلك ومتونه ولكن في الارشاد بهذا الاختصار كفاية ، والله أعلم .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى (١) ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ (٤) فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ (٦) إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ (٨) فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ (٩) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى (١١) ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (١٣)

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا موسى — يعنى ابن أيوب الغافقى — حدثنا عمى إياس بن عامر ، سمعت عقبة بن عامر الجهنى لما نزلت : (فسبح باسم ربك العظيم) ، قال لنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « اجعلوها فى ركوعكم » . فلما نزلت (سبح اسم ربك الأعلى) ، قال : « اجعلوها فى سجودكم (٢) » .

ورواه أبو داود وابن ماجه ، من حديث ابن المبارك ، عن موسى بن أيوب ، به (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن مسلم البَطين ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان إذا قرأ :(سبح اسم ربك الأعلى)، قال: « سبحان ربى الأعلى » .

وهكذا رواه أبو داود عن زُهَير بن حرب ، عن وكيع ، به . وقال : « خولف فيه وكيع ، رواه أبو وكيع وشعبة ، عن أبى إسحاق ، عن سعيد ، عن ابن عباس ، موقوفا (٤) » .

---

(١) ابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب « ماجاء فى القراءة فى صلاة العيدين » ، الحديث ١٢٨١ : ١/٤٠٨ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٤/١٥٥ .

(٣) سنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « ما يقول الرجل فى ركوعه وسجوده » . وابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب التسبيح فى الركوع والسجود ، الحديث ٨٨٧ : ١/٢٨٧ .

(٤) سنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « الدعاء فى الصلاة » .

وقال الثورى ، عن السدى ، عن عبد خير قال : سمعت عليا قرأ : (سبح اسم ربك الأعلى) ، فقال: سبحان ربى الأعلى .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حُمَيد ، حدثنا حَكَّام عن عنبسة ، عن أبى إسحاق الهَمْدانى : أن ابن عباس كان إذا قرأ : (سبح اسم ربك الأعلى) ، يقول : سبحان ربى الأعلى ، وإذا قرأ : (لا أقسم بيوم القيامة) فأتى على آخرها : (أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) ، يقول : سبحانك وبلى (١) .

وقال قتادة : (سبح اسم ربك الأعلى) : ذُكِرَ لنا أن نَبِىَّ الله — صلى الله عليه وسلم — كان إذا قرأها ، قال : سبحانَ ربِّىَ الأعلى (٢) .

وقوله : (الذى خلق فسوى) ، أى : خلق الخليقة وسَوَّى كل مخلوق فى أحسن الهيئات .

وقوله : (والذى قدر فهدى) — قال مجاهد : هدى الإنسان للشقاوة والسعادة ، وهدى الأنعام لمراتعها .

وهذه الآية كقوله تعالى إخبارا عن موسى أنه قال لفرعون : (ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى (٣)) ، أى : قدر قدرا ، وهدى الخلائق إليه ، كما ثبت فى صحيح مسلم ، عن عبد الله بن عَمرو : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء (٤) » .

وقوله : (والذى أخرج المرعى) ، أى : من جميع صنوف النباتات والزروع ، (فجعله غثاء أحوى) — قال ابن عباس : هشيما متغيرا . وعن مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد ، نحوه .

قال ابن جرير : وكان بعض أهل العلم بكلام العرب يرى أن ذلك من المؤخر الذى معناه التقدم ، وأن معنى الكلام : والذى أخرج المرعى ، أحوى ، أى : أخضر إلى السواد ، فجعله غثاء بعد ذلك . ثم قال ابن جرير : وهذا وإن كان محتملا إلا أنه غير صواب ، لمخالفته أقوال أهل التأويل (٥) .

وقوله : (سنقرئك) — أى : يا محمد — (فلا تنسى) . وهذا إخبار من الله — عز وجل — ووعد منه له : بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها ، (إلا ما شاء الله) . وهذا اختيار ابن جرير .

وقال قتادة : كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لا ينسى شيئا إلا ما شاء الله .

وقيل : المراد بقوله : (فلا تنسى) طلب ، وجعلوا معنى الاستثناء على هذا ما يقع من النسخ ، أى : لا تنسى ما نقرئك إلا ما يشاء الله رفعه ، فلا عليك أن تتركه .

---

(١) تفسير الطبرى : ٣٠/٩٦ .
(٢) تفسير الطبرى : ٣٠/٩٦ – ٩٧ .
(٣) سورة طه ، آية : ٥٠ .
(٤) تقدم الحديث عند تفسير الآية السابعة من سورة هود ، وخرجناه هنالك ، انظر : ٤/٢٤٠ .
(٥) تفسير الطبرى : ٣٠/٩٨ .

وقوله : (إنه يعلم الجهر وما يخفى) أى : يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من أقوالهم وأفعالهم ، لا يخفى عليه من ذلك شيء .

وقوله تعالى : (ونيسرك لليسرى) ، أى : نسهل عليك أفعال الخير وأقواله ، ونشرع لك شرعا سهلا سمحا مستقيما عدلا ، لا اعوجاج فيه ولا حرج ولا عسر .

وقوله : (فذكر إن نفعت الذكرى) ، أى : ذكّر حيث تنفع التذكرة . ومن هاهنا يؤخذ الأدب فى نشر العلم ، فلا يضعه عند غير أهله ، كما قال أمير المؤمنين على رضى الله عنه : ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة لبعضهم . وقال : حدث الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يُكَذَّب اللهُ ورسوله .

وقوله : (سيذكر من يخشى) ، أى : سيتعظ بما تبلغه ــ يا محمد ــ من قلبه يخشى الله ويعلم أنه ملاقيه ، (ويتجنبها الأشقى . الذى يصلى النار الكبرى . ثم لا يموت فيها ولا يحيى) ، أى : لا يموت فيستريح ولا يحيى حياة تنفعه ، بل هى مضرة عليه ، لأن بسببها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب ، وأنواع النكال .

قال الإمام أحمد : حدثنا ابن أبى عدى ، عن سليمان ــ يعنى التيمى ــ عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « أما أهل النار الذين هم أهلها لا يموتون ولا يحيون ، وأما أناس يريد الله بهم الرحمة فيميتهم فى النار فيدخل عليهم الشفعاء ، فيأخذ الرجلُ أنصاره فينبتهم ــ أو قال : ينبتون ــ فى نهر الحياء ــ أو قال : الحياة ــ أو قال : الحيوان ــ أو قال : نهر الجنة فينبتون ــ نبات الحِبَّة (١) فى حَميل السيل » ــ قال : وقال : النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « أما ترون الشجرة تكون خضراء ، ثم تكون صفراء ، [أو (٢) قال : تكون صفراء] ثم تكون خضراء ؟ » ــ قال : فقال بعضهم : كأن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان بالبادية (٣) .

وقال أحمد أيضا : حدثنا إسماعيل حدثنا سعيد بن يزيد ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « أما أهل النار الذين هم أهلها ، فانهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن أناس ــ أو كما قال ــ تصيبهم النار بذنوبهم ــ أو قال : بخطاياهم ــ فيميتهم إماتة ، حتى إذا صاروا فحما أذن فى الشفاعة ، فجيء بهم ضبائر ضبائر (٤) ، فنُبِّتوا على أنهار الجنة ، فيقال : يا أهل الجنة ، أفيضوا عليهم . فينبتون نبات الحِبَّة تكون فى حميل السيل » . قال : فقال رجل من القوم حينئذ : كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بالبادية (٥) .

---

(١) الحبة ــ بكسر الحاء ــ بذور البقول وحب الرياحين . وقيل : نبت أصفر ينبت فى الحشيش . والحميل : ما يجيء به السيل من طين أو غثاء . فاذا اتفقت فيه حبة واستقرت على شط مجرى السيل فانها تنبت فى يوم وليلة . فشبه به سرعة عود أجسامهم إليهم بعد احتراقها .

(٢) ما بين القوسين عن المسند .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣/٥ .

(٤) أى : جماعات .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٣/١١ .

ورواه مسلم من حديث بشر بن المفضل وشعبة ، كلاهما عن أبي مَسْلَمَة سعيد بن يزيد ، به مثله (١) : ورواه [أحمد] أيضا عن يزيد ، عن سعيد بن إياس الجريري ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن أهل النار الذين لا يريد الله إخراجهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، وإن اهل النار الذين يريد الله إخراجهم يميتهم فيها إماتة ، حتى يصيروا فحما، ثم يخرجون ضبائر فيلقون على أنهار الجنة ، [أو : يرش](٢) عليهم من أنهار الجنة فينبتون كما تنبت الحبَّة فى حَميل السيل (٣) » .

وقد قال الله إخبارا عن أهل النار : (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك ، قال : إنكم ماكثون (٤)) ، وقال تعالى : (لا يقضى عليهم فيموتوا ، ولا يخفف عنهم من عذابها (٥)) ... إلى غير ذلك من الآيات فى هذا المعنى .

قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

يقول تعالى : (قد أفلح من تزكى) ، أى : طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة ، وتابع ما أنزل الله على الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — (وذكر اسم ربه فصلى) ، أى : أقام الصلاة فى أوقاتها ؛ ابتغاء رضوان الله وطاعة لأمر الله وإمتثالا لشرع الله . وقد قال الحافظ أبو بكر البزار :

حدثنا عباد بن أحمد العزرمى ، حدثنا عمى محمد بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن عطاء بن السائب ، عن عبد الرحمن ابن سابط ، عن جابر بن عبد الله ، عن النبي — صلى الله عليه وسلم — : (قد أفلح من تزكى) ، قال : « من شهد أن لا إله إلا الله ، وخلع الأنداد ، وشهد أنى رسول الله » ، (وذكر اسم ربه فصلى) ، قال : « هى الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بها » .

ثم قال : لا يروى عن جابر الا من هذا الوجه :

وكذا قال ابن عباس : إن المراد بذلك الصلوات الخمس . واختاره ابن جرير .

وقال ابن جرير : حدثنى عَمرو بن عبد الحميد الآملى (٦) ، حدثنا مروان بن معاوية ، عن أبي خلدة قال : دخلت على أبي العالية فقال لى : إذا غدوت غدا إلى العيد فمرّ بى . قال : فمررت به فقال : هل طعمت شيئا ؟ قلت : نعم .

---

(١) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار» . ١١٨/١ .
(٢) ما بين القوسين عن المسند .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٢٠/٣ .
(٤) سورة الزخرف ، آية : ٧٧ .
(٥) سورة فاطر ، آية : ٣٦ .
(٦) فى المخطوطة : « الأيلى » . والمثبت عن تفسير الطبرى ط بولاق ، وط المعارف ، الأثر ١٠٣٧٨ : ١٠٩/٩ ، وانظر تعليق السيد محقق تفسير الطبرى هنالك .

قال : أفضت على نفسك من الماء ؟ قلت : نعم . قال : فأخبرني ما فعلت بزكاتك (١) ؛ قلت : وكأنك قُلت (٢) : قد وَجَّهتهَا ؟ قال : إنما أردتك لهذا . ثم قرأ : (قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى) . وقال : إن أهل المدينة لا يرون صدقة أفضل منها ومن سقاية الماء .

قلت : وكذلك روينا عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه كان يأمر الناس باخراج صدقة الفطر ، ويتلو هذه الآية (قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى) .

وقال أبو الأحوص : إذا أتى أحدكم سائل وهو يريد الصلاة ، فليقدم بين يدى صلاته زكاته ، فان الله يقول : (قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى) .

وقال قتادة فى هذه الآية : (قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى) : زكى ماله ، وأرضى خالقه .

ثم قال تعالى : (بل تؤثرون الحياة الدنيا) ، أى : تقدمونها على أمر الآخرة ، وتبدونها على مافيه نفعهم وصلاحهم فى معاشهم ومعادهم ، (والآخرة خير وأبقى) ، أى : ثواب الله فى الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى ، [فان الدنيا] دنيَّة فانية ، والآخرة شريفة باقية ، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى . ويهتم بما يزول عنه قريبا ، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد .

قال الإمام أحمد : حدثنا حُسَيْن بن محمد ، حدثنا ذُوَيد ، عن أبى إسحاق ، عن عروة (٣) ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « الدنيا دَارُ من لا دارَ له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له (٤) » .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يحيى بن واضح ، [حدثنا] أبو حمزة ، عن عطاء ، عن عرفجة الثقفى قال : استقرأت ابن مسعود : (سبح اسم ربك الأعلى) فلما بلغ : (بل تؤثرون الحياة الدنيا) ترك القراءة ، وأقبل على أصحابه وقال : آثرنا الدنيا على الآخرة . فسكت القوم ، فقال : آثرنا الدنيا لأنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها ، وزُويت عنا الآخرة فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل (٥) .

وهذا منه على وجه التواضع والهضم ، أو هو إخبار عن الجنس من حيث هو ، والله أعلم .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود الهاشمى ، حدثنا إسماعيل بن جعفر ، أخبرنى عمرو بن أبى عمرو ، عن المطلب بن عبد الله ، عن أبى موسى الأشعرى : أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « من أحب دنياه أضر بآخرته ، ومَن أحبَّ آخرته أضرّ بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى » تفرد به أحمد (٦) .

وقد رواه أيضا عن أبى سلمة الخزاعى ، عن الدّراوردى ، عن عمرو بن أبى عمرو ، به مثله سواء (٦) .

---

(١) فى المخطوطة : « فعلت زكاتك » ، دون « باء » . والمثبت عن الطبرى .

(٢) كذا فى المخطوطة . وفى تفسير الطبرى : « قلت : قد وجهتها » .

(٣) فى مسند الإمام أحمد : « عن زرعة » .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٧١/٦ .

(٥) تفسير الطبرى : ١٠٠/٣٠ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٤١٢/٤ .

وقوله : (إن هذا لفى الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى) — قال الحافظ أبو بكر البزار :

حدثنا نصر بن على ، حدثنا معتمر بن سليمان ، عن أبيه عن عطاء بن السائب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : (إن هذا لفى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى) — قال النبى صلى الله عليه وسلم : « كان كل هذا — أو : كان هذا — فى صحف إبراهيم وموسى » .

ثم قال : لا نعلم اسند الثقات عن عطاء بن السائب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس غير هذا ، وحديثا آخر أورده قبل هذا .

وقال النسائى : أخبرنا زكريا بن يحيى ، أخبرنا نصر بن على ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، عن عطاء ابن السائب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : (سبح اسم ربك الأعلى) ، قال : كلها فى صحف إبراهيم وموسى . فلما نزلت (وإبراهيم الذى وفى) قال : وفّى (ألا تزر وازرة وزر أخرى) .

يعنى أن هذه الآية كقوله فى « سورة النجم » (أم لم ينبأ بما فى صحف موسى . وإبراهيم الذى وفى . ألا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للانسان إلا ماسعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى . وأن إلى ربك المنتهى (١)) .. الآيات إلى آخرهن . وهكذا قال عكرمة — فيما رواه ابن جرير ، عن ابن حميد ، عن مهران ، عن سفيان الثورى ، عن أبيه ، عن عكرمة — فى قوله : (إن هذا لفى الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى) ، يقول : الآيات التى فى سبح اسم ربك الأعلى (٢) .

وقال أبو العالية : قصة هذه السورة فى الصحف الأولى .

واختار ابن جرير أن المراد بقوله : (إن هذا) إشارة إلى قوله : (قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى . بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى) ، ثم قال : (إن هذا) ، أى : مضمون هذا الكلام (لفى الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى (٣)) .

وهذا اختيار حسن قوى . وقد رُوى عن قتادة وابن زيد ، نحوُه . والله أعلم .

آخر تفسير « سورة سبح » ، ولله الحمد والمنة .

(١) سورة النجم ، الآيات : ٣٦ — ٤٢ .
(٢) تفسير الطبرى : ٣٠/١٠٠ .
(٣) تفسير الطبرى : ٣٠/١٠١ .

تفسير سورة الغاشية

وهى مكيـــة

قد تقدم عن النعمان بن بشير : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان يقرأ بـ (سبح اسم ربك الأعلى) ، والغاشية فى صلاة العيد ويوم الجمعة .

وقال الإمام مالك ، عن ضمرة بن سعيد ، عن عُبَيد الله بن عبد الله : أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير : بم كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقرأ فى الجمعة مع سورة الجمعة ؟ قال : (هل أتاك حديث الغاشية (١)) .

رواه أبو داود عن القعنبى ، والنسائى عن قتيبة ، كلاهما عن مالك ، به . ورواه مسلم وابن ماجه ، من حديث سفيان بن عيينة ، عن ضمرة بن سعيد ، به (٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ① وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ② عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ③ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ④ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ⑤ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ⑥ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ⑦

الغاشية : من أسماء يوم القيامة . قاله ابن عباس ، وقتادة ، وابن زيد ؛ لأنها تغشى الناس وتعمّهم . وقد قال ابن أبى حاتم :

حدثنا أبى ، حدثنا على بن محمد الطنافسى ، حدثنا أبو بكر بن عياش ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو بن ميمون قال : مر النبى — صلى الله عليه وسلم — على امرأة تقرأ : (هل أتاك حديث الغاشية) ، فقام يستمع ويقول : « نعم قد جاءنى » .

وقوله : (وجوه يومئذ خاشعة) ، أى : ذليلة . قاله قتادة .

وقال ابن عباس : تخشع ولا ينفعها عملها .

وقوله : (عاملة ناصبة) ، أى : قد عملت عملا كثيراً ، ونَصِبت فيه ، وصَليت يوم القيامة ناراً حامية .

وقال الحافظ أبو بكر البرقانى : حدثنا إبراهيم بن محمد المُزَكّى ، حدثنا محمد بن إسحاق السراج ، حدثنا هارون ابن عبد الله ، حدثنا سيار ، حدثنا جعفر قال : سمعت أبا عمران الجَوْنيّ يقول : مر عمر بن الخطاب — رضى الله عنه —

---

(١) انظر تنوير الحوالك ، شرح موطأ الإمام مالك ، للسيوطى ، كتاب الصلاة ، باب « القراءة فى صلاة الجمعة » : ١٠٢/١ .

(٢) سنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « ما يقرأ فى الجمعة » . والنسائى ، كتاب الجمعة ، باب « ذكر الاختلاف على النعمان بن بشير فى القراءة فى صلاة الجمعة » : ١١٢/٣ . ومسلم ، كتاب الجمعة ، باب « مايقرأ فى صلاة الجمعة » : ١٦/٣ . وسنن ابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب « ماجاء فى القراءة فى الصلاة يوم الجمعة » ، الحديث ١١١٩ : ٣٥٥/١ .

بدير راهب ، قال : فناداه : يا راهب . فأشرف ، قال : فجعل عمر ينظر إليه ويبكي : فقيل له : يا أمير المؤمنين ، ما يبكيك من هذا ؟ قال : ذكرت قول الله — عز وجل — في كتابه (عاملة ناصبة . تصلى ناراً حامية) ، فذاك الذي أبكاني .

وقال البخاري : قال ابن عباس : (عاملة ناصبة) النصارى (١) .

وعن عكرمة ، والسدي : (عاملة) في الدنيا بالمعاصي ، (ناصبة) في النار بالعذاب والأغلال .

قال ابن عباس ، والحسن ، وقتادة : (تصلى ناراً حامية) ، أي : حارة شديدة الحر . (تسقى من عين آنية) ، أي : قد انتهى حرّها وغليانها . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، والسدّي .

وقوله : (ليس لهم طعام إلا من ضريع) — قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : شجر من نار .

وقال سعيد بن جبير : هو الزقوم . وعنه : أنها الحجارة .

وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وأبو الجوزاء ، وقتادة : هو الشِّبْرِقُ — قال قتادة : قريش تسميه في الربيع الشِّبْرِق ، وفي الصيف الضريع — قال عكرمة : وهو شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض .

وقال البخاري : قال مجاهد : الضريعُ نبتٌ يقال له : الشبرق ، يسميه أهل الحجاز : الضريعَ إذا يبس ، وهو سم (١) .

وقال معمر ، عن قتادة : (إلا من ضريع) ، هو الشّبرق ، إذا يبس سُمّي الضريع .

وقال سعيد ، عن قتادة : (ليس لهم طعام إلا من ضريع) : من شر الطعام وأبشعه وأخبثه .

وقوله : (لا يسمن ولا يغني من جوع) ، يعني : لا يحصل به مقصود ، ولا يندفع به محذور .

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾

لما ذكر حالَ الأشقياء ، ثنّى بذكر السعداء فقال : (وجوه يومئذ) ، أي : يوم القيامة (ناعمة) ، أي : يعرف النعيم فيها ، وإنما حصّل لها ذلك بسعيها .

وقال سفيان : (لسعيها راضية) : قد رضيت عملها .

وقوله : (في جنة عالية) ، أي : رفيعة بهية في الغرفات آمنون ، (لا تسمع فيها لاغية) ، أي : لا يسمع في الجنة التي هم فيها كلمة لغو . كما قال : (لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما (٢)) . وقال : (لا لغو فيها ولا تأثيم (٣)) . وقال : (لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما . إلا قيلا سلاما سلاما (٤)) .

---

(١) البخاري ، تفسير سورة « هل أتاك حديث الغاشية » : ٦/٢٠٩ .
(٢) سورة مريم ، آية : ٦٢ .
(٣) سورة الطور ، آية : ٢٣ .
(٤) سورة الواقعة ، آية : ٢٥ — ٢٦ .

(فيها عين جارية) ، أى : سارحة . وهذه نكرة فى سياق الإثبات ، وليس المراد بها عينا واحدة ، وإنما هذا جنس ، يعنى : فيها عيون جاريات .

وقال ابن أبى حاتم : قُرىء على الربيع بن سليمان : حدثنا أسد بن موسى ، حدثنا ابن ثوبان ، عن عطاء بن قرة ، عن عبد الله بن ضمرة ، عن أبى هُرَيرة قال : قال النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « أنهار الجنة تفجر من تحت تلال ــ أو : من تحت جبال ــ المسك » .

(فيها سرر مرفوعة) ، أى : عالية ناعمة كثيرة الفرش مرتفعة السَّمْك ، عليها الحور العين . قالوا : فاذا أراد وَليّ الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له ، (وأكواب موضوعة) ، يعنى : أوانى الشراب معدة مُرصَدة لمن أرادها من أربابها ، (ونمارق مصفوفة) ــ قال ابن عباس : النمارق الوسائد . وكذا قال عكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، والسدى ، والثورى ، وغيرهم .

وقوله : (وزرابى مبثوثة) ــ قال ابن عباس : الزرابى البسط . وكذا قال الضحاك ، وغير واحد .

ومعنى مبثوثة ، أى : هاهنا وهاهنا لمن أراد الجلوس عليها .

ونذكر هاهنا الحديث الذى رواه أبو بكر بن أبى داود : حدثنا عمرو بن عثمان ، حدثنا أبى ، عن محمد بن مهاجر ، عن الضحاك المعافرى ، عن سليمان بن موسى : حدثنى كريب أنه سمع أسامة بن زيد يقول : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ « ألا هل من مُشَمِّر للجنة فان الجنة لا خَطَر (١) لها ، هى ورب الكعبة نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحُلَل كثيرة ، ومقام فى أبد فى دار سليمة ، وفاكهة وخضرة ، وحبرة ونعمة ، فى محلة عالية بهية ؟ » . قالوا : نعم يا رسول الله ، نحن المشمرون لها . قال : « قولوا إن شاء الله » . [قال القوم : إن شاء الله] .

ورواه ابن ماجه عن العباس بن عثمان الدمشقى ، عن الوليد بن مسلم ، عن محمد بن مهاجر ، به (٢) .

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

يقول تعالى آمرا عباده بالنظر فى مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته : (أفلا ينظرون إلى الإبل : كيف خلقت ؟) ، فانها خَلْق عجيب ، وتركيبها غريب ، فانها فى غاية القوة والشدة ، وهى مع ذلك تلين للحمل الثقيل ، وتنقاد للقائد الضعيف ، وتؤكل ، وينتفع بوبرها ، ويشرب لبنها . ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل ، وكان شريح

(١) أى : لا مثل لها .

(٢) تقدم تخريج الحديث عند تفسير الآية السابعة والخمسين من سورة « يس » : ٦/٥٦٩ .

القاضي يقول : اخرجوا بنا حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ؟ أي : كيف رفعها الله — عز وجل — عن الأرض هذا الرفع العظيم ، كما قال تعالى : (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم : كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج (١)) .

(وإلى الجبال كيف نصبت) ؛ أي : جعلت منصوبة قائمة ثابتة راسية لئلا تميد الأرض بأهلها ، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن .

(وإلى الأرض : كيف سطحت ؟) ، أي : كيف بسطت ومدت ومهدت ، فنبَّه البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه ، والسماء التي فوق رأسه ، والجبل الذي تجاهه ، والأرض التي تحته — على قدرة خالق ذلك وصانعه ، وأنه الرب العظيم الخالق المتصرف المالك ، وأنه الإله الذي لا يستحق العبادة سواه ؛ وهكذا أقسم « ضِمَام » في سؤاله على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كما رواه الإمام أحمد حيث قال :

حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا سليمان بن المغيرة ، عن ثابت ، عن أنس قال : كنا نُهينا أن نسأل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن شيء ، فكان يُعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع ، فجاء رجل من أهل البادية فقال : يا محمد ، إنه أتانا رسولُك فزعَمَ لنا أنك تزعُمُ أن الله أرسلك ؟ قال : « صدق » ، قال : فمن خلق السماء ؟ قال : « الله » . قال : فمن خلق الأرض ؟ قال : « الله » . قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : « الله » . قال : فبالذي خلق السماء والأرض ونصب هذه الجبال ، آللهُ أرسلك ؟ قال : « نعم » ، قال وزعم رسولُكَ أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا ؟ قال : « صدق » . قال : فبالذي أرسلك ، آلله أمرك بهذا ؟ قال : « نعم » . قال : وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا ؟ قال : « صدق » : قال : فبالذي أرسلك ، آلله أمرك بهذا ؟ قال : « نعم » . قال : وزعم رسولك أن علينا حَجَّ البيت من استطاع إليه سبيلا ؟ قال : « صدق » . قال : ثم ولى فقال : والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن شيئا ولا أنقص منهن شيئا . فقال النبي — صلى الله عليه وسلم — : « إن صَدَقَ ليدخُلَنَّ الجنة (٢) » .

وقد رواه مسلم ، عن عمرو الناقد : عن أبي النضر هاشم بن القاسم ، به ؛ وعلَّقه البخاري ، ورواه الترمذي والنسائي ، [من حديث سليمان بن المغيرة ، به . ورواه الإمام أحمد والبخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجه (٣)] من حديث الليث بن سعد ، عن سعيد المقبري ، عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر ، عن أنس ، به بطوله ، وقال في آخره « وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر (٤) » .

---

(١) سورة « ق » ، آية : ٦ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣/١٤٣ . وانظر أيضاً : ٣/١٩٣ .

(٣) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة .

(٤) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « في بيان الإيمان بالله وشرائع الدين » : ١/٣٢ . والبخاري ، كتاب العلم ، باب « ماجاء في العلم » : ١/٢٤ — ٢٥ . وتحفة الأحوذي ، أبواب الزكاة ، باب « ماجاء إذا أديت الزكاة فقد قضيت ما عليك » ، الحديث ٦١٠ : ٣/٢٤٦ — ٢٤٨ ، والنسائي ، كتاب الصيام ، باب « وجوب الصيام » : ٤/١٢١ — ١٢٤ .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا إسحاق ، حدثنا عبد الله بن جعفر ، حدثنى عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر قال : كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كثيرا ما كان يحدث عن امرأة فى الجاهلية على رأس جبل ، معها ابن لها ترعى غنما ، فقال لها ابنها : يا أمه ، من خلقك ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق أبى ؟ قالت : الله . قال : فمن خلقنى ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق السماء ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق الأرض ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق الجبل ؟ قالت : الله . قال : فمن خلق هذه الغنم ؟ قالت : الله . قال : إنى لأسمع لله شأنا . وألقى نفسه من الجبل فتقطع .

قال ابن عمر : كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كثيرا ما يحدثنا هذا .

قال ابن دينار : كان ابن عمر كثيرا ما يحدثنا بهذا .

فى إسناده ضعف ، وعبد الله بن جعفر هذا هو المدينى ضَعّفه ولده الإمام على بن المدينى وغيره .

وقوله : (فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر) ، أى : فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب . ولهذا قال : (لست عليهم بمسيطر) – قال ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهما : (لست عليهم بجبار [(١)]) :

وقال ابن زيد : لست بالذى تكرههم على الإيمان .

قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن أبى الزبير ، عن جابر قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله عز وجل » . ثم قرأ : (فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر) .

وهكذا رواه مسلم فى كتاب « الإيمان » ، والترمذى والنسائى فى كتابى « التفسير » من سننيهما ، من حديث سفيان ابن سعيد الثورى ، به بهذه الزيادة . وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين من رواية أبى هريرة ، بدون ذكر هذه الآية [(٢)].

وقوله : (إلا من تولى وكفر) ، أى : تولى عن العمل بأركانه ، وكفر بالحق بجنانه ولسانه . وهذه كقوله : (فلا صدق ولا صلى . ولكن كذب وتولى [(٣)]) . ولهذا قال : (فيعذبه الله العذاب الأكبر) – قال الإمام أحمد :

---

(١) تفسير الطبرى : ١٠٦/٣٠ .

(٢) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » : ٣٩/١ . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة الغاشية ، الحديث ٣٣٩٩ : ٢٦٥/٩ – ٢٦٦ . والبخارى ، كتاب الزكاة ، باب « وجوب الزكاة » : ١٣١/٢ .

(٣) سورة القيامة ، آية : ٣١ – ٣٢ .

حدثنا قتيبة ، حدثنا ليث ، عن سعيد بن أبي هلال ، عن علي بن خالد : أن أبا أمامة الباهلي مَرّ على خالد بن يزيد ابن معاوية ، فسأله عن ألين كلمة سمعها من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « ألا كلكم يدخل الجنة ، إلا من شَرَد على الله شراد البعير على أهله (١) » .

تفرد باخراجه الإمام أحمد ، وعلي بن خالد هذا ذكره ابن أبي حاتم عن أبيه ، ولم يزد على ما هاهنا : « روى عن أبي أمامة ، وعنه سعيد بن أبي هلال (٢) » .

وقوله : (إن إلينا إيابهم) ، أي : مرجعهم ومنقلبهم ، (ثم إن علينا حسابهم) ، أي : نحن نحاسبهم على أعمالهم ونجازيهم بها ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

آخر تفسير سورة الغاشية ، ولله الحمد والمنة

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/٢٥٨ .

(٢) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٣/١/١٨٤ .

تفسير سورة الفجر

وهى مكيــة

قال النسائى : أخبرنا عبد الوهاب بن الحكم ، أخبرنى يحيى بن سعيد ، عن سليمان ، عن محارب بن دثار وأبى صالح ، عن جابر قال : صلى معاذ صلاةً ، فجاء رجل فصلى معه فطوّل ، فصلى فى ناحية المسجد ثم انصرف ، فبلغ ذلك معاذا فقال : منافق . فذكر ذلك لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — فسأل الفتى ، فقال : يا رسول الله ، جئت أصلى معه فطوّل علىّ ، فانصرفت وصليتُ فى ناحية المسجد ، فعلفت ناضحى . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « أفتان يا معاذ ؟ أين أنتَ مِن (سبِّح اسمَ ربِّك الأعلى) — و (الشمس وضُحاها) و (الفجر) — و (الليل إذا يغشى) (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا
الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾
فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾

أما الفجر فمعروف ، وهو : الصبح . قاله على ، وابن عباس ، ومجاهد وعكرمة ، والسدى .

وعن مسروق ، ومجاهد ، ومحمد بن كعب : المراد به فجر يوم النحر خاصة ، وهو خاتمة الليالى العشر .

وقيل : المراد بذلك الصلاة التى تفعل عنده ، كما قاله عكرمة .

وقيل : المراد به جميع النهار . وهو رواية عن ابن عباس . (٢)

والليالى العشر : المراد بها عشر ذى الحجة . كما قاله ابن عباس ، وابن الزبير ، ومجاهد ، وغير واحد من السلف والخلف . وقد ثبت فى صحيح البخارى ، عن ابن عباس مرفوعا : « ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام » — يعنى عشر ذى الحجة — قالوا : ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد فى سبيل الله ، إلا رجلا خرج بنفسه وماله ، ثم لم يرجع من ذلك بشىء (٣) » .

---

(١) لم يقع لنا هذا الحديث فى مجتبى النسائى . وانظر كتاب الإمامة ، باب « خروج الرجل من صلاة الإمام وفراغه من صلاته فى ناحية المسجد » : ٢/ ٩٧ – ٩٨ .

(٢) تفسير الطبرى : ٣٠/ ١٠٧ .

(٣) البخارى ، كتاب العيدين ، باب « فضل العمل فى أيام التشريق » : ٢/ ٢٤ – ٢٥ .

وقيل : المراد بذلك العشر الأُول من المحرم ، حكاه أبو جعفر بن جرير ولم يعزه إلى أحد.

وقد روى أبو كُدَينة ، عن قابوس بن أبي ظبيان ، عن أبيه ، عن ابن عباس : (وليال عشر) ، قال : هو العشر الأول من رمضان .

والصحيح القول الأول ؛ قال الإمام أحمد :

حدثنا زيد بن الحباب ، حدثنا عَيّاش بن عقبة ، حدثني خَيْر بن نُعَيم ، عن أبي الزبير ، عن جابر ، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : « إن العشر عشر الأضحى ، والوتر يوم عرفة ، والشفع يوم النحر (١) » .

ورواه النسائي عن محمد بن رافع وعبدة بن عبد الله ، كل منهما عن زيد بن الحباب ، به : ورواه بن جرير وابن أبي حاتم ، من حديث زيد بن الحباب ، به (٢) . وهذا إسناد رجاله لا بأس بهم ، وعندي أن المتن في رفعه نكارة ، والله أعلم .

وقوله : (والشفع والوتر) قد تقدم في هذا الحديث أن الوتر يوم عرفة ، لكونه التاسع ، وأن الشفع يوم النحر لكونه العاشر . وقاله ابن عباس ، وعكرمة ، والضحاك أيضا .

قول ثان ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثني عقبة بن خالد ، عن واصل بن السائب قال : سألت عطاء عن قوله : (والشفع والوتر) ، قلتُ : صلاتنا وترنا هذا ؟ قال : لا ، ولكن الشفع يوم عرفة ، والوتر ليلة الأضحى .

قول ثالث ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عامر بن إبراهيم الأصبهاني ، حدثني أبي ، عن النعمان – يعني ابن عبد السلام – عن أبي سعيد بن عوف ، حدثني بمكة قال : سمعتُ عبدَ الله بن الزبير يخطبَ الناس ، فقام إليه رجلٌ فقال : يا أمير المؤمنين ، أخبرني عن الشفع والوتر . فقال : الشفع قول الله عز وجل : (فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه) ، والوتر قوله : (ومن تأخر فلا إثم عليه) .

وقال ابن جريج : أخبرني محمد بن المرتفع أنه سمع ابن الزبير يقول : الشفع أوسط أيام التشريق ، والوتر آخر أيام التشريق .

وفي الصحيحين من رواية أبي هُرَيرة ، عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « إن لله تسعة وتسعين اسما ، مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر (٣) » .

قول رابع ، قال الحسن البصري ، وزيد بن أسلم : الخلق كلهم شفع ، ووتر ، أقسم تعالى بخلقه . وهو رواية عن مجاهد (٤) ، والمشهور عنه الأول .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣/٣٢٧ .
(٢) تفسير الطبري : ٣٠/١٠٨ .
(٣) تقدم الحديث عند تفسير الآية الثمانين بعد المائة من سورة الأعراف ، وخرجناه هنالك ، انظر : ٣/٥١٥ .
(٤) تفسير الطبري : ٣٠/١٠٩ .

وقال العَوفىّ ، عن ابن عباس : (والشفع والوتر) ، قال : الله وتر واحد ، وأنتم شفع . ويقال : الشفع صلاة الغداة ، والوتر : صلاة المغرب .

قول خامس ، قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عبيد الله بن موسى ، عن إسرائيل ، عن أبى يحيى ، عن مجاهد : (والشفع والوتر) ، قال : الشفع الزوج ، والوتر : الله عز وجل .

وقال أبو عبد (١) الله عن مجاهد : الله الوتر ، وخلقه الشفع ، الذكر والأنثى .

وقال ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد قوله : (والشفع والوتر) : « كل شىء خلقه الله شفع ، السماء والأرض ، والبر والبحر ، والجن والإنس ، والشمس والقمر ، ونحو هذا » . ونحا مجاهد فى هذا ما ذكروه فى قوله تعالى : (ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون (٢)) ، أى : لتعلموا أن خالق الأزواج واحد .

قول سادس ، قال قتادة ، عن الحسن : (والشفع والوتر) : هو العدد ، منه شفع ومنه وتر .

قول سابع ، فى الآية الكريمة رواه ابنُ أبى حاتم وابنُ جَرير من طريق ابن جُرَيج(٣)، ثم قال ابن جرير : وَرُوى عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خبر يؤيد القول الذى ذكرنا عن أبى الزبير : حدثنى عَبد الله بن أبى زياد القطوانى ، حدثنا زيد بن الحباب ، أخبرنى عياش بن عقبة ، حدثنى خير بن نُعَيم ، عن أبى الزبير ، عن جابر : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « الشفع اليومان ، والوتر اليوم الثالث (٤) » .

هكذا ورد هذا الخبر بهذا اللفظ ، وهو مخالف لما تقدم من اللفظ فى رواية أحمد والنسائى وابن أبى حاتم ، وما رواه هو أيضا ، والله أعلم .

قال أبو العالية ، والربيع بن أنس ، وغيرهما : هى الصلاة ، منها شفع كالرباعية والثنائية ، ومنها وتر كالمغرب ، فإنها ثلاث ، وهى وتر النهار . وكذلك صلاة الوتر فى آخر التهجد من الليل .

وقد قال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة ، عن عمران بن حصين : (والشفع والوتر) ، قال : هى الصلاة المكتوبة ، منها شفع ومنها وتر . وهذا منقطع وموقوف ، ولفظه خاص بالمكتوبة . وقد روى متصلا مرفوعا إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولفظه عام ؛ قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو داود هو الطيالسى ، حدثنا همام ، عن قتادة ، عن عمران بن عصام : أن شيخا حدثه من أهل البصرة ، عن عمران بن حصين : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سُئِل عن الشفع والوتر ، فقال : « هى الصلاة ، بعضها شفع ، وبعضها وتر (٥) » .

---

(١) كذا ، وفى تفسير الطبرى ٣٠/١٠٩ : « أبو يحيى عن مجاهد » ، وهو القتات ، وانظر التهذيب : ١٢/٢٧٧ .
(٢) سورة الذاريات ، آية : ٤٩ .
(٣) كذا ، ولا ندرى ما هذه الرواية ؟
(٤) تفسير الطبرى ، ٣٠/١٠٩ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٤/٤٣٧ .

هكذا وقع فى المسند ، وكذا رواه ابن جرير عن بندار ، عن عفان وعن أبى كريب ، عن عبيد الله بن موسى ، كلاهما عن همام – وهو ابن يحيى – عن قتادة ، عن عمران بن عصام ، عن شيخ ، عن عمران بن حصين (١) ، وكذا رواه أبو عيسى الترمذى ، عن عمرو بن على ، عن ابن مهدى وأبى داود ، كلاهما عن همام ، عن قتادة ، عن عمران بن عصام ، عن رجل من أهل البصرة ، عن عمران بن حصين . ، به . ثم قال : « غريب ، لا نعرفه إلا من حديث قتادة ، وقد رواه خالد بن قيس أيضا عن قتادة (٢) » .

وقد روى عن عمران بن عصام ، عن عمران نفسه ، والله أعلم .

قلت : ورواه ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطى ، حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا همام ، عن قتادة ، عن عمران بن عصام الضبعى ، – شيخ من أهل البصرة – عن عمران بن حصين ، عن النبى – صلى الله عليه وسلم – فذكره ، هكذا رأيته فى تفسيره ، فجعل الشيخ البصرى هو عمران بن عصام .

وهكذا رواه ابن جرير : حدثنا نصر بن على ، حدثنى أبى ، حدثنى خالد بن قيس ، عن قتادة ، عن عمران ابن عصام ، عن عمران بن حصين ، عن النبى – صلى الله عليه وسلم – فى الشفع والوتر قال : « هى الصلاة ، منها شفع ، ومنها وتر » .

فأسقط ذكر الشيخ المبهم ، وتفرد به عمران بن عصام الضبعى أبو عمارة البصرى ، إمام مسجد بنى ضُبَيْعة وهو والد أبى جَمْرَةَ نصر بن عمران الضُّبَعى . روى عنه قتادة ، وابنه أبو جمرة ، والمثنى بن سعيد ، وأبو التياح يزيد ابن حميد (٣) . وذكره ابن حبّان فى كتاب الثقات ، وذكره خليفة بن خيّاط فى التابعين من أهل البصرة ، وكان شريفا [نبيلا] حظيا عند الحجاج بن يوسف ، ثم قتله يوم الزّاوية (٤) سنة ثلاث (٥) وثمانين لخروجه مع ابن الأشعث ، وليس له عند الترمذى سوى هذا الحديث الواحد . وعندى أن وقفه على عمران بن حصين أشبه ، والله أعلم .

ولم يجزم ابن جرير بشىء من هذه الأقوال فى الشفع والوتر .

وقوله : (والليل إذا يسر) – قال العوفى ، عن ابن عباس : أى إذا ذهب .

وقال عبد الله بن الزبير : (والليل إذا يسر) : حتى يذهب بعضه بعضا .

وقال مجاهد ، وأبو العالية ، وقتادة ، ومالك ، عن زيد بن أسلم وابن زيد : (والليل إذا يسر) : إذا سار .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٠٩٣/٠ .
(٢) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الفجر ، الحديث ٣٤٠٠ : ٩/٢٦٦ – ٢٦٧ .
(٣) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٣/١/٣٠٠ .
(٤) انظر خبر هذا اليوم فى مروج الذهب للمسعودى : ٢/١٠٢ .
(٥) كذا ، وفى طبقات خليفة بن خياط ، ط بغداد ، ٢٠٤ : سنة أربع أوخمس وثمانين .

وهذا يمكن حمله على ما قال ابن عباس ، أى : ذهب . ويحتمل أن يكون المراد إذا سار ، أى : أقبل . وقد يقال : إن هذا أنسب ، لأنه فى مقابلة قوله (والفجر) ، فإن الفجر هو إقبال النهار وإدبار الليل . فإذا حمل قوله : (والليل إذا يسر) ، على إقباله كان قَسَماً بإقبال الليل وإدبار النهار ، وبالعكس ، كقوله (والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس (١)) ، وكذا قال الضحاك : (إذا يسر) ، أى : يجرى .

وقال عكرمة : (والليل إذا يسر) ، يعنى : ليلة جَمْع (٢) . رواه ابن جرير (٣) ، وابن أبى حاتم .

ثم قال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عصام ، حدثنا أبو عامر ، حدثنا كثير بن عبد الله بن عمرو قال : سمعت محمد بن كعب القرظى ، يقول فى قوله : (والليل إذا يسر) ، قال : اسر يا سار ولا تبيتن إلا بجَمْع .

وقوله : (هل فى ذلك قسم لذى حجر) ، أى : لذى عقل ولب وحجا ؛ وإنما سمى العقل حِجْراً لأنه يمنع الإنسان من تعاطى مالا يليق به من الأفعال والأقوال ، ومنه حِجْرُ البيت لأنه يمنع الطائف من اللصوق بجداره الشامى . ومنه حجر اليمامة ، وحَجَرَ الحاكم على فلان : إذا منعه التصرف ، (ويقولون حجرا محجورا (٤)) ، كل هذا من قبيل واحد ، ومعنى متقارب ، وهذا القسم هو بأوقات العبادة ، وبنفس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب التى يتقرب بها المتقون المطيعون له ، الخائفون منه ، المتواضعون لديه ، الخاشعون لوجهه الكريم .

ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم قال بعده : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد ؟) ، وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين ، خارجين عن طاعته مكذبين لرسله ، جاحدين لكتبه ، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم ، وجعلهم أحاديث وعبرا ، فقال : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد . إرم ذات العماد ؟) : وهؤلاء عاد الأولى ، وهم أولاد عاد ابن إرم بن عَوص (٥) بن سام بن نوح ، قاله ابن إسحاق وهم الذين بعث [الله] فيهم رسوله هودا عليه السلام فكذبوه وخالفوه ، فأنجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم ، وأهلكهم بريح صرصر عاتية ، (سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما . فترى القوم فيها صرعى . كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية (٦) ؟) . وقد ذكر الله قصتهم فى القرآن فى غير ما موضع ، ليعتبر بمصرعهم المؤمنون .

فقوله تعالى : (إرم ذات العماد) : عطف بيان ، زيادة تعريف بهم .

وقوله : (ذات العماد) لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشَّعَر التى ترفع بالأعمدة الشداد ، وقد كانوا أشد الناس فى زمانهم خلقة وأقواهم بطشا ، ولهذا ذكَّرهم [هود] بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها فى طاعة ربهم الذى خلقهم ، فقال : (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ، وزادكم فى الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا

(١) سورة التكوير ، آية : ١٧ – ١٨ .
(٢) يعنى ليلة المزدلفة .
(٣) تفسير الطبرى : ١١٠/٣٠ .
(٤) سورة الفرقان ، آية : ٢٢ .
(٥) فى سيرة ابن هشام ٧/١ : «عوص بن إرم بن سام» . وما فى تفسير الطبرى ١١١/٣٠ يوافق ما هنا .
(٦) سورة الحاقة ، الآيات : ٧ – ١٠ .

فى الأرض مفسدين(١)) : وقال تعالى : (فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق ، وقالوا : من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة(٢)) . وقال هاهنا : (التى لم يخلق مثلها فى البلاد) ، اى : القبيلة التى لم يخلق مثلها فى بلادهم ، لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم .

قال مجاهد : إرم : أمة قديمة (٣) . يعنى عادا الأولى ، كما قال قتادة بن دعامة ، والسدّىّ : إن إرم بيت مملكة عاد . وهذا قول حسن جيد قوى .

وقال مجاهد ، وقتادة ، والكلبى فى قوله : (ذات العماد) كانوا أهل عمود لا يقيمون . (٤)

وقال العوفى ، عن ابن عباس : إنما قيل لهم (ذات العماد) لطولهم .

واختار الأولَ ابنُ جرير ، ورد الثانى فأصاب (٥) .

وقوله : (التى لم يخلق مثلها فى البلاد) : أعاد ابن زيد الضميرَ على العماد ؛ لارتفاعها ، وقال : بنوا عُمُدا بالأحقاف لم يخلق مثلها فى البلاد . وأما قتادة وابن جرير فأعاد الضمير على القبيلة ، أى : لم يخلق مثل تلك القبيلة فى البلاد ، يعنى فى زمانهم . وهذا القول هو الصواب ، وقول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف ؛ لأنه لو كان أراد ذلك لقال : التى لم يعمل مثلها فى البلاد ، وإنما قال : (لم يخلق مثلها فى البلاد) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو صالح كاتب الليث ، حدثنى معاوية بن صالح ، عمن حدثه ، عن المقدام ، عن النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه ذكر إرم ذات العماد فقال : « كان الرجل منهم يأتى على الصخرة فيحملها على الحى فيهلكهم » .

ثم قال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا أبو الطاهر ، حدثنا أنس بن عياض ، عن ثور بن زيد الديلى . قال : قرأت كتابا — قد سمى حيث قرأه — : أنا شداد بن عاد ، وأنا الذى رفعت العماد ، وأنا الذى شددت بذراعى نظر (٦) واحد وأنا الذى كنزت كنزا على سبعة أذرع ، لا يخرجه إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : فعلى كل قول سواء كانت العماد أبنية بنوها ، أو أعمدة بيوتهم للبدو ، أو سلاحا يقاتلون به ، أو طول الواحد منهم — فهم قبيلة وأمة من الأمم ، وهم المذكورون فى القرآن فى غير ما موضع ، المقرونون بثمود كما هاهنا . والله أعلم . ومن زعم أن المراد بقوله (إرم ذات العماد) مدينة إما دمشق ، كما روى عن سعيد بن المسيب وعكرمة — أو اسكندرية

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ٦٩ .
(٢) سورة فصلت ، آية : ١٥ .
(٣) تفسير الطبرى : ١١١/٣٠ .
(٤) تفسير الطبرى : ١١٣/٣٠ .
(٥) قال الطبرى ١١٢/٣٠ — ١١٣ : « وأشبه الأقوال فى ذلك بما دل عليه ظاهر التنزيل قول من قال : عنى بذلك أنهم كانوا أهل عمود سيارة ، لأن المعروف فى كلام العرب من العماد : ماعمد الخيام من الخشب والسوارى التى يحمل عليها البناء . . »
(٦) كذا ، كلمة « نظر » فى المخطوطة دون نقط .

كما رُوى عن القُرَظى — أو غيرهما — ففيه نظر ، فإنه كيف يلتم الكلام على هذا : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد) ، إن جعل ذلك بدلا أو عطف بيان ، فإنه لا يتسق الكلام حينئذ . ثم المراد إنما هو الإخبار عن إهلاك القبيلة المسماة بعاد ، وما أحل الله بهم من بأسه الذى لا يُرَد ، لا أن المراد الإخبار عن مدينة أو إقليم .

وإنما نبهت على ذلك لئلا يُغتَر بكثير مما ذكره جماعة من المفسرين عند هذه الآية ، من ذكر مدينة يقال لها : (إرم ذات العماد) ، مبنية بلبن الذهب والفضة ، قصورها ودورها وبساتينها ، وأن حصباءها لآلىء وجواهر ، وترابها بنادق المسك ، وأنهارها سارحة ، وثمارها ساقطة ، ودورها لا أنيس بها ، وسورها وأبوابها تصفر ، ليس بها داع ولا مجيب . وأنها تنتقل فتارة تكون بأرض الشام ، وتارة باليمن ، وتارة بالعراق ، وتارة بغير ذلك من البلاد — فان هذا كله من خرافات الإسرائيليين ، من وضع بعض زنادقتهم ، ليختبروا بذلك عقول الجهلة من الناس أن تصدقهم (١) فى جميع ذلك .

وذكر الثعلبى وغيره أن رجلا من الأعراب — وهو عبد الله بن قلابة — فى زمان معاوية ذهب فى طلب أباعر له شردت ، فبينما هو يتيه فى ابتغائها ، إذ اطلع على مدينة عظيمة لها سور وأبواب ، فدخلها فوجد فيها قريبا مما ذكرناه من صفات المدينة الذهبية التى تقدم ذكرها ، وأنه رجع فأخبر الناس ، فذهبوا معه إلى المكان الذى قال فلم يروا شيئا .

وقد ذكر ابن أبى حاتم قصة (إرم ذات العماد) هاهنا مطولة جدا ، فهذه الحكاية ليس يصح إسنادها ، ولو صح إلى ذلك الأعرابى فقد يكون اختلق ذلك ، أو أنه أصابه نوع من الهَوَس والخبال ، فاعتقد أن ذلك له حقيقة فى الخارج ، وليس كذلك . وهذا مما يقطع بعدم صحته . وهذا قريب مما يخبر به كثير من الجهلة والطامعين والمتحيلين ، من وجود مطالب تحت الأرض ، فيها قناطير الذهب والفضة ، وألوان الجواهر واليواقيت واللآلىء والإكسير الكبير ، لكن عليها موانع تمنع من الوصول إليها والأخذ منها ، فيحتالون على أموال الأغنياء والضعفة والسفهاء ، فيأكلونها بالباطل فى صرفها فى بخاخير وعقاقير ونحو ذلك من الهذيانات ، ويَطْنِزُون (٢) بهم . والذى يجزم به أن فى الأرض دفائن جاهلية وإسلامية وكنوزا كثيرة ، من ظفر بشىء منها أمكنه تحويله (٣) ، فأما على الصفة التى زعموها فكذب وافتراء وبهت ، ولم يصح فى ذلك شىء مما يقولونه إلا عن نقلهم أو نقل من أخذ عنهم ، والله سبحانه وتعالى الهادى للصواب .

وقولُ ابن جرير : يحتمل أن يكون المراد بقوله (إرم) قبيلة أو بلدة كانت عاد تسكنها فلذلك لم تُصرَف (٤) — فيه نظرٌ ؛ لأن المراد من السياق إنما هو الإخبار عن القبيلة ، ولهذا قال بعده : (وثمود الذين جابوا الصخر بالواد) ، يعنى يقطعون الصخر بالوادى . قال ابن عباس : ينحتونها ويخرقونها . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، ومنه يقال « مُجتابى النِّمار » . إذا خرقوها ، واجتاب الثوب : إذا فتحه . ومنه الجيب أيضا . وقال الله تعالى : (وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين (٥)) .

---

(١) كذا فى الطبعات السابقة . وفى المخطوطة : « إن صدقتهم » .
(٢) أى : يسخرون منهم .
(٣) لفظ المخطوطة : « أمكنه تحويلها على الصفة . . . . » . والمثبت من الطبعات السابقة .
(٤) تفسير الطبرى : ٣٠/١١٢ .
(٥) سورة الشعراء ، آية : ١٤٩ .

وأنشد ابن جرير وابن أبي حاتم هاهنا قول الشاعر :

ألاَ كُلُّ شيء — ما خَلاَ الله — بائدٌ كَمَا بَادَ حَيٌّ من شنيف (١) ومارِدِ

هُم ضَرَبُوا في كُلِّ صَمَّاء صَعْدة بأيد شداد أيِّدات السَّواعِد

وقال ابن إسحاق : كانوا عربا ، وكان منزلهم بوادى القرى . وقد ذكرنا قصة (عاد) مستقصاة في سورة «الأعراف» ، بما أغنى عن إعادته .

وقوله : (وفرعون ذي الأوتاد) — قال العوفي ، عن ابن عباس : الأوتاد : الجنود الذين يشدون له أمره . ويقال : كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم في أوتاد من حديد يعلقهم بها (٢) . وكذا قال مجاهد : كان يوتد الناس بالأوتاد . وهكذا قال سعيد بن جبير ، والحسن ، والسدي . قال السدي : كان يربط الرجل ، كل قائمة من قوائمه في وتد ، ثم يرسل عليه صخرة عظيمة فتشدخه .

وقال قتادة : بلغنا أنه كانت له مَطَالّ وملاعب ، يلعب له تحتها ، من أوتاد وحبال .

وقال ثابت البناني ، عن أبي رافع : قيل لفرعون ذي الأوتاد ، لأنه ضرب لامرأته أربعة أوتاد ، ثم جعل على ظهرها رحى عظيمة حتى ماتت .

وقوله : (الذين طغوا في البلاد . فأكثروا فيها الفساد) ، أي : تمردوا وعتوا وعاثوا في الأرض بالإفساد والأذية للناس ، (فصب عليهم ربك سوط عذاب) ، أي : أنزل عليهم رجزا من السماء ، وأحل بهم عقوبة لا يردّها عن القوم المجرمين .

وقوله : (إن ربك لبا لمرصاد) — قال ابن عباس : يسمع ويرى ،

يعني : يرصد خلقه فيما يعملون ، ويجازي كلا بسعيه في الدنيا والأخرى ، وسيعرض الخلائق كلهم عليه ، فيحكم فيهم بعدله ، ويقابل كلا بما يستحقه . وهو المنزه عن الظلم والجور .

وقد ذكر ابن أبي حاتم هاهنا حديثا غريبا جدا — وفي إسناده نظر وفي صحته — فقال : حدثنا أبي ، حدثنا أحمد ابن أبي الحواري ، حدثنا يونس الحذاء ، عن أبي حمزة البيساني ، عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « يا معاذ ، إن المؤمن لدى الحق أسير . يا معاذ ، إن المؤمن لا يسكن روعه ولا يأمن اضطرابه حتى يُخَلِّف جسر جهنم خلف ظهره . يا معاذ ، إن المؤمن قيده القرآن عن كثير من شهواته ، وعن أن يهلك فيها هو بإذن الله — عز وجل — فالقرآن دليله ، والخوف محجته ، والشوق مطيته ، والصلاة كهفه ، والصوم جنته ، والصدقة فكاكه ، والصدق أميره ، والحياء وزيره ، وربه — عز وجل — من وراء ذلك كله بالمرصاد » .

---

(١) كذا ، وفي تفسير الطبري : « شنيق » ، ولم يقع لنا .

(٢) تفسير الطبري : ١١٤/٣٠ .

قال ابن أبي حاتم : [يونس الحذاء وأبو حمزة مجهولان ، وأبو حمزة عن معاذ مرسل : ولو كان عن أبي حمزة لكان حسنا : أي : لو كان من كلامه لكان حسنا . ثم قال ابن أبي حاتم (١)] .

حدثنا أبي ، حدثنا صفوان بن صالح ، حدثنا الوليد بن مسلم ، عن صفوان بن عمرو ، عن أيفع بن عبد الكلاعي : أنه سمعه وهو يعظ الناس يقول : إن لجهنم سبع قناطر — قال : والصراط عليهن ، قال : فيحبس الخلائق عند القنطرة الأولى ، فيقول : (قفوهم إنهم مسؤلون) ، قال : فيحاسبون على الصلاة ويُسألون عنها ، قال : فيهلك فيها من هلك ، وينجو من نجا : فاذا بلغوا القنطرة الثانية حُوسبوا على الأمانة كيف أدوها ، وكيف خانوها ؟ قال : فيهلك من هلك وينجو من نجا : فاذا بلغوا القنطرة الثالثة سُئلوا عن الرحم كيف وَصَلُوها وكيف قطعوها ؟ قال : فيهلك من هلك وينجو من نجا . قال : والرحم يومئذ متدلية إلى الهُوِيّ فى جهنم تقول : اللهم من وصلني فَصِلْه ، ومن قطعني فاقطعه . قال : وهى التى يقول الله — عز وجل — : (إن ربك لبالمرصاد) .

هكذا أورد هذا الأثر ، ولم يذكر تمامه :

فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

يقول تعالى منكرا على الإنسان فى اعتقاده إذا وسع الله عليه فى الرزق ليختبره فى ذلك ، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له وليس كذلك ، بل هو ابتلاء وامتحان . كما قال تعالى : (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون (٢)) . وكذلك فى الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضَيّق عليه فى الرزق ، يعتقد أن ذلك من الله إهانة له ؛ قال الله : (كلا) ، أى : ليس الأمر كما زعم ، لا فى هذا ولا فى هذا ؛ فان الله يعطى (٣) المال من يحب ومن لا يحب ، ويضيق على من يحب ومن لا يحب ، وإنما المدار فى ذلك على طاعة الله فى كل من الحالين ، إذا كان غنيا بأن يشكر الله على ذلك ، وإذا كان فقيرا بأن يصبر .

وقوله : (بل لا تكرمون اليتيم) ، فيه أمر بالإكرام له ، كما جاء فى الحديث الذى رواه عبد الله بن المبارك ، عن سعيد بن [أبى] أيوب ، عن يحيى بن [أبى] سليمان ، عن زيد بن أبى عتاب ، عن أبى هُرَيرة ، عن النبى — صلى الله عليه وسلم — : « خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يُساء إليه — ثم قال (٤) باصبعه — أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا » .

---

(١) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة .
(٢) سورة « المؤمنون » ، آية : ٥٥ — ٥٦ .
(٣) هذا مقتبس من حديث رواه الإمام أحمد ، وقد أخرجناه عند آيتى « المؤمنون » المتقدمتين ، انظر : ٥/٤٧٣ .
(٤) أى : أشار .

وقال أبو داود : حدثنا محمد بن الصباح بن سفيان ، أخبرنا عبد العزيز - يعني ابن أبي حازم - حدثني أبي ، عن سهل - يعني ابن سعد - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة » : وقرن بين إصبعيه : الوسطى والتي تلي الإبهام (١) .

(ولا تحاضون على طعام المسكين) ، يعني : لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ، ويحث بعضهم على بعض في ذلك ، (وتأكلون التراث) يعني الميراث (أكلا لما) ، أي : من أي جهة حصل لهم ، من حلال أو حرام ، (وتحبون المال حبا جما) ، أي : كثيرا - زاد بعضهم : فاحشا .

كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة ، فقال : (كلا) ، أي : حقا (إذا دكت الأرض دكا دكا) ، أي : وطئت ومهدت وسويت الأرض والجبال ، وقام الخلائق من قبورهم لربهم ، (وجاء ربك) ، يعني لفصل القضاء بين خلقه ، وذلك بعد ما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد - صلى الله عليه وسلم - بعد ما يسألون أولى العزم من الرسل واحداً بعد واحد ، فكلهم يقول : لست بصاحب ذاكم ، حتى تنتهي النوبة إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - فيقول : « أنا لها ، أنا لها » . فيذهب فيشفع عند الله في أن يأتي لفصل القضاء فيشفعه الله في ذلك ، وهي أول الشفاعات ، وهي المقام المحمود ، كما تقدم بيانه في سورة « سبحان (٢) » ، فيجيء الرب تعالى لفصل القضاء كما يشاء ، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفا صفوفا .

وقوله : (وجيء يومئذ بجهنم) - قال الإمام مسلم بن الحجاج في صحيحه : حدثنا عمر بن حفص بن غياث ، حدثنا أبي ، عن العلاء بن خالد الكاهلي ، عن شقيق ، عن عبد الله - هو ابن مسعود - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف [زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك] يجرونها (٣) » .

وهكذا رواه الترمذي عن عبد الله بن عبدالرحمن الدارمي ، عن عمر بن حفص ، به ، ورواه أيضا عن عبد بن حميد عن أبي عامر ، عن سفيان الثوري ، عن العلاء بن خالد ، عن شقيق بن سلمة - وهو أبو وائل - عن عبد الله بن مسعود ، قوله ولم يرفعه (٤) . وكذا رواه ابن جرير ، عن الحسن بن عرفة ، عن مروان بن معاوية الفزاري ، عن العلاء ابن خالد ، عن شقيق ، عن عبد الله ، قوله (٥) .

---

(١) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « في ضم اليتيم » .

(٢) انظر تفسير الآية التاسعة والسبعين من سورة الإسراء : ٥/١٠٠ - ١٠٨ .

(٣) مسلم ، كتاب الجنة ، باب « في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها ، وما تأخذ من المعذبين » : ٨/١٤٩ .

(٤) تحفة الأحوذي ، أبواب صفة جهنم ، باب « ماجاء في صفة النار » ، الحديث ٢٦٩٨ ، ٢٦٩٩ : ٧/٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٥) تفسير الطبري : ٣٠/١٢٠ .

وقوله : (يومئذ يتذكر الإنسان) ، أى : عمله وما كان أسلفه فى قديم دهره وحديثه ، (وأنى له الذكرى) ، أى : وكيف تنفعه الذكرى ؟ (يقول : يا ليتنى قدمت لحياتى) ، يعنى يندم على ما كان سلف منه من المعاصى ـ إن كان عاصيا ـ ويود لو كان ازداد من الطاعات ـ (إن كان طائعا) ـ كما قال الإمام أحمد بن حنبل :

حدثنا على بن إسحاق ، حدثنا عبد الله ـ يعنى ابن المبارك ـ حدثنا ثور بن يزيد ، عن خالد بن معدان ، عن جبير ابن نفير ، عن محمد بن [أبى عَمِيرَةَ] (١) ـ وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال : لو أن عبدا خر على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت [هَرِماً] (٢) فى طاعة الله ، لَحَقَرَه يوم القيامة ، ولودّ أنه يُرَدّ إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب (٣) .

ورواه [بَحِيرُ بنُ سَعد] (٤) ، عن خالد بن مَعْدَانَ ، عن عتبة بن عبد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٥) .

قال الله تعالى : (فيومئذ لا يعذب عذابه أحد) ، أى : ليس أحد أشد عذابا من تعذيب الله من عصاه ، (ولا يوثق وثاقه أحد) ، أى : وليس أحد أشد قبضا ووثقا من الزبانية لمن كفر بربهم عز وجل ، هذا فى حق المجرمين من الخلائق والظالمين ، فأما النفس الزكية المطمئنة وهى الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق فيقال لها : (يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك) ، أى : إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده فى جنته ، (راضية) ، أى : فى نفسها (مرضية) ، أى : قد رضيت عن الله ورضى عنها وأرضاها ، (فادخلى فى عبادى) ، أى : فى جملتهم ، (وادخلى جنتى) . وهذا يقال لها عند الاحتضار ، وفى يوم القيامة أيضا ، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره ، وكذلك هاهنا .

ثم اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية ، فروى الضحاك ، عن ابن عباس : نزلت فى عثمان بن عفان . وعن بُرَيدة بن الحُصَيب : نزلت فى حَمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه .

وقال العَوفىّ ، عن ابن عباس : يقال للأرواح المطمئنة يوم القيامة : (يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك) ، يعنى صاحبك ، وهو بدنها الذى كانت تعمره فى الدنيا ، (راضية مرضية) .

وروى عنه أنه كان يقرَؤها : (فادخلى فى عَبْدى وادخلى جنتى) . وكذا قال عكرمة والكلبى ، واختاره ابن جرير (٦) ، وهو غريب ، والظاهر الأول ، لقوله : (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) (٧) (وأن مَرَدّنا إلى الله (٨)) أى : إلى حكمه والوقوف (٩) بين يديه .

(١) فى المخطوطة : « محمد بن عمرة » . والمثبت عن المسند ، وأسد الغابة : ٥/١٠٨ ، بتحقيقنا .
(٢) ما بين القوسين عن المسند وأسد الغابة .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٤/١٨٥ .
(٤) فى المخطوطة : « وقال » وبعده بياض . والمثبت عن المسند ، وانظر أسد الغابة أيضاً : ٥/١٠٩ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٤/١٨٥ .
(٦) انظر تفسير الطبرى : ٣٠/١٢٢ ـ ١٢٣ .
(٧) سورة الأنعام ، آية : ٦٢ .
(٨) سورة غافر ، آية : ٤٣ .
(٩) فى المخطوطة مكان كلمة « والوقوف » : « وعوره » دون نقط . والمثبت عن الطبعات السابقة .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله الدشتكي ، حدثني أبي ، عن أبيه ، عن أشعث ، عن جعفر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله : (يا أيتها النفس المطمئنة : ارجعي إلى ربك راضية مرضية) ، قال : نزلت وأبو بكر جالس ، فقال : يا رسول الله ، ما أحسن هذا ؟ فقال : « أما إنه سيقال لك هذا » .

ثم قال : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا ابن يمان ، عن أشعث ، عن سعيد بن جبير قال : قرأت عند النبي – صلى الله عليه وسلم – : (يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية مرضية) ، فقال أبو بكر – رضي الله عنه – : إن هذا لحسن . فقال له النبي – صلى الله عليه وسلم – : « أما إن الملك سيقول لك هذا عند الموت » .

وكذا رواه ابن جرير ، عن أبي كريب ، عن ابن يمان ، به : وهذا مرسل حسن (١) .

ثم قال ابن أبي حاتم : وحدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا مَرْوان بن شجاع الجزري ، عن سالم الأفطس ، عن سعيد ابن جبير قال : مات ابن عباس بالطائف ، فجاء طير لم ير على خَلْقه ، فدخل نعشه ، ثم لم ير خارجا منه فلما دفن تُليت هذه الآية على شفير القبر ، ما يدرى من تلاها : (يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) .

رواه الطبراني عن عبد الله بن أحمد عن أبيه ، عن مَرْوان بن شجاع ، عن سالم بن عجلان الأفطس ، به فذكره .

وقد ذكر الحافظ محمد بن المنذر الهروي – المعروف بشَكَّر – في كتاب العجائب بسنده عن قُبَاث بن رَزِين أبي هاشم قال : أسرتُ في بلاد الروم ، فجمعَنا الملك وعرَض علينا دينه ، على أن من امتنع ضربت عنقه . فارتد ثلاثة ، وجاء الرابع فامتنع ، فضربت عنقه ، وألقي رأسه في نهر هناك ، فرسب في الماء ثم طفا على وجه الماء ، ونظر إلى أولئك الثلاثة فقال : يا فلان ، ويا فلان ، ويا فلان – يناديهم بأسمائهم – قال الله تعالى في كتابه : (يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) . ثم غاص في الماء ، فكادت النصارى أن يسلموا ، ووقع (٢) سرير الملك ، ورجع أولئك الثلاثة إلى الإسلام – قال : وجاء الفداء من عند الخليفة أبي جعفر المنصور فخلصنا .

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة رواحة بنت أبي عمرو الأوزاعي ، عن أبيها : حدثني سليمان بن حبيب المحاربي ، حدثني أبو أمامة : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال لرجل : « قل : اللهم ، إني أسألك نفسا بك مطمئنة ، تؤمن بلقائك ، وترضى بقضائك ، وتقنع بعطائك » .

ثم روَى عن أبي سليمان بن زَبْر أنه قال : حديث رواحة هذا واحد أمّه .

آخر تفسير سورة الفجر ، ولله الحمد

---

(١) تفسير الطبري : ٣٠/١٢٢ .

(٢) في المخطوطة : « ورفع سرير ... » . والمثبت عن الطبعات السابقة .

تفسير سورة البلد

وهى مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)

هذا قسم من الله — عز وجل — بمكة أم القرى فى حال كون الساكن فيها حالاً ؛ لينبه على عظمة قدرها فى حال إحرام أهلها .

قال خصيف ، عن مجاهد (لا أقسم بهذا البلد) : لا : رد عليهم ؛ أقسم بهذا البلد .

وقال شبيب بن بشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : (لا أقسم بهذا البلد) ، يعنى مكة ، (وأنت حل بهذا البلد) ، قال أنت — يا محمد — يحل لك أن تقاتل به و كذا رُوى عن سعيد بن جُبَير ، وأبى صالح ، وعطية ، والضحاك ، وقتادة ، والسدى ، وابن زيد (١) .

وقال مجاهد : ما أصبت فيه فهو حلال لك .

وقال قتادة : (وأنت حل بهذا البلد) ، قال : أنت به من غير حَرَج ولا إثم .

وقال الحسن البصرى : أحلها الله له ساعة من نهار .

وهذا المعنى الذى قالوه قد ورد به الحديث المتفق على صحته : « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شجره ولا يختلى خلاه (٢) . وإنما أحلت لى ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب » . وفى لفظ : « فان أحد ترخص بقتال رسول الله فقولوا : إن الله اذن لرسوله ولم يأذن لكم (٣) » .

---

(١) انظر تفسير الطبرى : ٣٠/١٢٤ .

(٢) أى : لا يقطع شجرة . والخلا : النبات الرطب الرقيق ما دام رطباً ، واختلاؤه : قطعه .

(٣) البخارى ، كتاب العلم ، باب ليبلغ «الشاهد منكم الغائب» : ١/٣٧ . ومسلم ، كتاب الحج ، باب « تحريم مكة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها إلا لمنشد على الدوام » : ٤/١٠٩ .

وقوله : (ووالد وما ولد) — قال ابن جرير : حدثنا ابو كريب . حدثنا ابن عطية ، عن شريك ، عن خصيف ، عن عكرمة ، عن ابن عباس فى قوله : (ووالد وما ولد) ، الوالد : الذى يلد ، وما ولد : العاقر الذى لا يولد[١] له .

ورواه ابن أبى حاتم ، من حديث شريك — وهو ابن عبد الله القاضى — به .

وقال عكرمة : الوالد : العاقر ، وما ولد : الذى يلد . رواه ابن أبى حاتم .

وقال مجاهد ، وأبو صالح ، وقتادة ، والضحاك ، وسفيان الثورى ، وسعيد بن جبير ، والسدى ، والحسن البصرى ، وخُصَيف ، وشرحبيل بن سعد وغيرهم : يعنى بالوالد آدم ، وما ولد ولده .

وهذا الذى ذهب إليه مجاهد وأصحابه حَسَنٌ قوى ؛ لأنه تعالى لما أقسم بأم القرى وهى المساكن أقسم بعده بالساكن ، وهو آدم أبو البشر وولده .

وقال أبو عمران الجونى : هو إبراهيم وذريته . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم .

واختار ابنُ جرير أنه عام فى كل والد وولده . وهو محتمل أيضا .

وقوله : (لقد خلقنا الإنسان فى كبد) : رُوِى عن ابن مسعود ، وابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، وإبراهيم النخَعى ، وخيثمة ، والضحاك ، وغيرهم : يعنى منتصبا — زاد ابن عبّاس فى رواية عنه — فى بطن أمه .

والكبد : الاستواء والاستقامة . ومعنى هذا القول : لقد خلقنا الإنسان سويا مستقيما كقوله : (يا أيها الإنسان ، ما غرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك [٢]) وكقوله : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم [٣]) .

وقال ابن جريج وعطاء ، عن ابن عباس : فى كبد ، قال : فى شدة خلق ، ألم تر إليه ... وذكر مولده ونبات أسنانه [٤] .

وقال مجاهد : (فى كبد) : نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة يتكبد فى الخلق — قال مجاهد : وهو كقوله : (حملته أمه كرها ووضعته كرها) ، وأرضعته كرها ، ومعيشته كره ، فهو يكابد ذلك .

وقال سعيد بن جبير : (لقد خلقنا الإنسان فى كبد) : فى شدة وطَلَب معيشة . وقال عكرمة : فى شدة وطول . وقال قتادة : فى مشقة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن عصام ، حدثنا أبو عاصم ، أخبرنا عبد الحميد بن جعفر ، سمعت محمد بن على أبا جعفر الباقر سأل رجلا من الأنصار عن قول الله : (لقد خلقنا الإنسان فى كَبَد) ، قال : فى قيامه واعتداله . فلم ينكر عليه أبو جعفر .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٢٥/٣٠ .
(٢) سورة الانفطار ، آية : ٦/٧ .
(٣) سورة التين ، آية : ٤ .
(٤) تفسير الطبرى : ١٢٦/٣٠ .

وروى من طريق أبي مودود (١) : سمعت الحسن قرأ هذه الآية : (لقد خلقنا الإنسان فى كبد) ، قال : يكابد أمراً من أمر الدنيا ، وأمرا من أمر الآخرة — وفى رواية : يكابد مضايق الدنيا وشدائد الآخرة .

وقال ابن زيد : (لقد خلقنا الإنسان فى كبد) ، قال : آدم خلق فى السماء ، فسُمّى ذلك الكَبَد .

واختار ابن جرير أن المراد مكابدة الأمور ومشاقها .

وقوله :[(أيحسب أن لن يقدر عليه أحد) ، قال الحسن البصرى : يعنى (٢)] (أيحسب أن لن يقدر عليه أحد) [يأخذ (٢)] ماله .

وقال قتادة : (أيحسب أن لن يقدر عليه أحد) ، قال : ابن آدم يظن أن لن يُسأل عن هذا المال : من أين اكتسبه ؟ وأين أنفقه .

وقال السدى : (أيحسب أن لن يقدر عليه أحد) ؟ قال : الله عز وجل .

وقوله : (يقول : أهلكت مالا لبدا) ، أى : يقول ابن آدم : أنفقت مالا لبدا ، أى : كثيرا : قاله مجاهد ، وقتادة ، والسدى ، وغيرهم .

(أيحسب أن لم يره أحد) — قال مجاهد : أى أيحسب أن لم يره الله عز وجل : وكذا قال غيره من السلف .

وقوله : (ألم نجعل له عينين) ، أى : يبصر بهما ، (ولسانا) ، أى : ينطق به ، فيُعبّر عما فى ضميره ، (وشفتين) يستعين بهما على الكلام وأكل الطعام ، وجمالاً لوجهه وفمه .

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبى الربيع الدمشقى ، عن مكحول قال : قال النبى — صلى الله عليه وسلم :— « يقول الله تعالى : يا ابن آدم ، قد أنعمتُ عليك نعَماً عظاما لا تحصى عددها ولا تطيق شكرها ، وإن مما أنعمت عليك أن جعلت لك عينين تنظر بهما ، وجعلت لهما [غطاءً ، فانظر بعينيك إلى ما أحللت لك ، وإن رأيت ما حرمت عليك فأطبق عليهما] غطاءهما ؛ وجعلت لك لسانا ، وجعلت له غلافا ، فانطق بما أمرتك وأحللتُ لك ، فان عَرَض لك ما حرمت عليك فأغلق عليك لسانك . وجعلت لك فرجا ، وجعلت لك سترا ، فأصب بفرجك ما أحللت لك ، فان عَرَض لك ما حرمت عليك فأرْخ عليك سترك : يا ابن آدم ، إنك لا تحمل سخطى ، ولا تطيق انتقامى » .

(وهديناه النجدين) — قال سفيان الثورى ، عن عاصم ، عن زرّ ، عن عبد الله — هو ابن مسعود — : (وهديناه النجدين) ، قال : الخير والشر ؛ وكذا رُوى عن على ، وابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وأبى وائل ، وأبى صالح ، ومحمد بن كعب ، والضحاك ، وعطاء الخراسانى فى آخرين .

---

(١) هو بحر بن موسى . روى عن الحسن . روى عنه الثورى . انظر ترجمته فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ١/١/٤١٩

(٢) ما بين القوسين من الطبعات السابقة .

وقال عبد الله بن وهب : أخبرني ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبي حبيب ، عن سنان بن سعد ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « هما نجدان ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير ».

تفرد به سنان بن سعد — ويقال : سعد بن سنان — وقد وثقه ابن معين (١) . وقال الإمام أحمد والنسائي والجوزجاني : منكر الحديث ؛ وقال أحمد : تركت حديثه لاضطرابه . وروى خمسة عشر حديثا منكرة كلها ، ما أعرف منها حديثا واحدا . يشبه حديثه حديثَ الحسن — يعني البصري — لا يشبه حديثَ أنس .

وقال ابن جرير : حدثني يعقوب ، حدثنا ابن علية ، عن أبي رجاء قال : سمعت الحسن يقول : (وهديناه النجدين) قال : ذكر لنا أن نبي الله — صلى الله عليه وسلم — كان يقول : « يا أيها الناس ، إنهما النجدان ، نجد الخير ونجد الشر ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير ».

وكذا رواه حبيب بن الشهيد ، ويونس بن عبيد ، وأبو وهب ، عن الحسن مرسلا . وهكذا أرسله قتادة ؛

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن عصام الأنصاري ، حدثنا أبو أحمد الزبيري ، حدثنا عيسى بن عقال ، عن أبيه ، عن ابن عباس في قوله : (وهديناه النجدين) ، قال : الثديين .

وروى عن الربيع بن خُثَيم ، وقتادة وأبي حازم ، مثل ذلك . ورواه ابن جرير عن أبي كريب ، عن وكيع ، عن عيسى بن عقَال ، به (٢) ثم قال : والصواب القول الأول .

ونظير هذه الآية قوله : (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه، فجعلناه سميعا بصيرا : إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا(٣)) ؛

فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾
يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾
أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

قال ابن جرير : حدثني عمر بن إسماعيل بن مجالد ، حدثنا عبد الله بن إدريس ، عن أبيه، عن عطية (٤) عن ابن عمر في قوله : (فلا اقتحم العقبة) ، قال : جبل في جهنم (٥) .

---

(١) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٢٠١/١/٢ .
(٢) تفسير الطبري ١٢٨/٣٠ .
(٣) سورة الإنسان ، آية : ٢ - ٣ .
(٤) في المخطوطة : « عن أبي عطية » . والمثبت عن تفسير الطبري . والتهذيب ، ترجمة عطية بن سعد العوفي : ٢٢٤/٧ - ٢٢٥ .
(٥) في المخطوطة : « جبل في جهنم أزل » . وكلمة « أزل » هذه غير ثابتة في الدر المنثور : ٦/ ٣٥٤ .

وقال كعب الأحبار : (فلا اقتحم العقبة) : هو سبعون درجة فى جهنم . وقال الحسن البصرى : (فلا اقتحم العقبة) ، قال : عقبة فى جهنم . وقال قتادة : إنها قحمة شديدة فاقتحموها بطاعة الله عز وجل . وقال قتادة[1] (وما أدراك ما العقبة ؟) : ثم أخبر عن اقتحامها[2] فقال (فك رقبة أو إطعام) .

وقال ابن زيد : (اقتحم العقبة) ، أى : أفلا سلك الطريق التى فيها النجاة والخير . ثم بينها فقال : (وما أدراك ما العقبة : فك رقبة : أو إطعام) .

قرئ (فكُّ رقبة) بالإضافة ، وقُرئ على أنه فعل ، وفيه ضمير الفاعل والرقبة مفعوله . وكلتا القراءتين معناهما متقارب .

قال الإمام أحمد : حدثنا على[3] بن إبراهيم ، حدثنا عبد الله — يعنى ابن سعيد بن أبى هند — عن إسماعيل بن أبى حكيم — مولى آل الزبير — عن سعيد بن مرجانة : أنه سمع أبا هُرَيرة يقول : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « من أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل إرْب[4] منها إربا منه من النار ، حتى إنه ليعتق باليد اليد ، وبالرجل الرجل ، وبالفرج الفرج » . فقال على بن الحسين : أنتَ سَمِعتَ هذا من أبى هُرَيرة ؟ فقال سعيد : نعم . فقال على بن الحسين لغلام له : — أفْرَهَ[5] غلمانه — ادعُ مِطْرَفاً : فلما قام بين يديه قال : اذهب فأنتَ حرٌّ لوجه الله[6] .

وقد رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى ، من طرق ، عن سعيد بن مرجانه ، به . وعند مسلم أن هذا الغلام الذى أعتقه على بن الحسين زين العابدين كان قد أعطى فيه عشرة آلاف درهم[7] .

وقال قتادة ، عن سالم بن أبى الجعد ، عن مَعْدانَ بن أبى طلحة ، عن أبى نَجيح قال : سمعتُ رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « أيّما مسلم أعتقَ رَجُلاً مسلما ، فان الله جاعلٌ وفاء كل عظم من عظامه عظماً من عظام محرَّره من النار ، وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة فان الله جاعل وفاء كل عظم من عظامها عظما من عظامها من النار » .

رواه ابن جرير هكذا : وأبو نجيح هذا هو عمرو بن عَبَسَة السلمى ، رضى الله عنه[8] .

---

(١) فى المخطوطة : « وقال قتادة وقوله (وما أدراك . .) . فحذفنا كلمة « وقوله » .

(٢) فى المخطوطة : « ثم فسر من اقتحامها » . والمثبت من الطبعات السابقة .

(٣) كذا فى المسند ، وفى رواية أخرى ٢/٤٢٠ : « حدثنا مكى بن ابراهيم » .

(٤) أى : عضو .

(٥) أى حسن الوجه .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٢/٤٢٢ .

(٧) البخارى ، كتاب الكفارات ، باب قول الله تعالى : (أو تحرير رقبة) : ٨/١٨١ . ومسلم ، كتاب العتق ، باب « فضل العتق » : ٤/٢١٧ — ٢١٨ . وتحفة الأحوذى ، أبواب النذور ، باب « فى ثواب من أعتق رقبة » ، الحديث ١٥٨١ : ٥/١٤٤ — ١٤٦ .

(٨) تفسير الطبرى : ٣٠/١٢٩ .

قال الإمام أحمد : حدثنا حيوة بن شُرَيح ، حدثنا بقية ، حدثني بَحير بن سعد ، عن خالد بن معدان ، عن كثير ابن مرّة ، عن عمرو بن عَبَسَة : أنه حدثهم : أن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : « من بنى مسجدا ليذكر الله فيه ، بنى الله له بيتا فى الجنة . ومن أعتق نفساً مسلمة ، كانت فديته من جهنم . ومن شاب شيبة فى الإسلام ، كانت له نورا يوم القيامة (١) » .

طريق آخرى ، قال أحمد : حدثنا الحكم بن نافع ، حدثنا حَرِيز ، عن سُلَيم بن عامر : أن شرحبيل بن السِّمط قال لعمرو بن عَبَسَة : حَدّثنا حديثاً ليس فيه تَزَيّدُ ولا نسيان . قال عمرو : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من أعتق رقبة مسلمة كانت فكاكه من النار ، عضوا بعضو . ومن شاب شيبة فى سبيل الله ، كانت له نورا يوم القيامة ، ومن رمى بسهم فبلغ فأصاب أو أخطأ ، كان كمعتق رقبة من بنى إسماعيل (٢) » .

وروى أبو داود ، والنسائى بعضه (٣) .

طريق أخرى ، قال أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا الفرج ، حدثنا لقمان ، عن أبى أمامة عن عمرو بن عَبَسَة : قال السلمى : قلت له : حدثنا حديثا سمعته من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليس فيه انتقاص ولا وَهَم . قال : سمعته يقول : « من وُلد له ثلاثة أولاد فى الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحنث ، أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم ؛ ومن شاب شيبة فى سبيل الله كانت له نورا يوم القيامة ، ومن رَمَى بسهم فى سبيل الله ، بلغ به العدو ، أصاب أو أخطأ ، كان له عتق رقبة . ومن أعتق رقبة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منه عضوا منه من النار ، ومن أنفق زوجين فى سبيل الله ، فإن للجنة ثمانية أبواب ، يدخله الله من أىّ باب شاء منها »

وهذه أسانيد جيدة قوية ، ولله الحمد .

حديث آخر ، قال أبو داود : حدثنا عيسى بن محمد الرملى ، حدثنا ضمرة ، عن ابن أبى عَبْلَة ، عن الغريف ابن الديلمى قال : أتينا واثلة بن الأسقع فقلنا له : حَدّثنا حديثا ليس فيه زيادة ولا نقصان . فغضب وقال : إن أحدكم ليقرأ ومصحفه معلق فى بيته ، فيزيد وينقص . قلنا : إنما أردنا حديثاً سمعتَه من رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : أتينا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى صاحب لنا قد أوجب — يعنى النار — بالقتل ، فقال : « أعتقوا عنه يُعتق الله بكل عضو منه عضوا منه من النار(٤) » .

وكذا رواه النسائى من حديث إبراهيم بن أبى عَبْلة ، عن الغَرِيف بن عياش الديلمى ، عن واثلة ، به .

حديث آخر ، قال أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا هشام ، عن قتادة ، عن قيس الجذامى ، عن عقبة بن عامر الجهنى : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « من أعتق رقبة مسلمة فهو فداؤه من النار (٥) » .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٤/٣٨٦ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٤/١١٣ .
(٣) سنن أبى داود ، كتاب العتاق ، باب « أى الرقاب أفضل »
(٤) سنن أبى داود ، كتاب العتاق ، باب « فى ثواب المعتق » .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٤/١٥٠ .

وحدثنا عبد الوهاب الخفاف ، عن سعيد ، عن قتادة قال : ذكر أن قيسا الجذامي حدّث عن عقبة بن عامر أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « من أعتق رقبة مؤمنة فهي فكاكه من النار (١) » .

تفرد به أحمد من هذا الوجه .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم وأبو أحمد قالا : حدثنا عيسى بن عبد الرحمن البجلي — من بني بجيلة — من بني سليم — عن طلحة — قال أبو أحمد : حدثنا طلحة بن مصرف — عن عبد الرحمن بن عوسجة ، عن البراء بن عازب قال : جاء أعرابي إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : يا رسول الله ، علمني عملا يدخلني الجنة . فقال : « لئن كنت أقصرتَ الخطبة لقد أعرضت المسألة . أعتق النسمة ، وفك الرقبة » . فقال : يا رسول الله ، أو ليستا بواحدة؟ قال : « لا ، إن عتق النسمة أن تتفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين في عتقها . والمنحة الوكوف (٢) ، والفيء على ذي الرحم الظالم ، فان لم تُطِق ذلك فأطعم الجائع ، واسق الظمآن وأمر بالمعروف وانه عن النكر ، فان لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من الخير (٣) » .

وقوله : (أو إطعام في يوم ذي مسغبة) — قال ابن عباس : ذي مجاعة ؛ وكذا قال عكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وغير واحد : والسغب : هو الجوع .

وقال إبراهيم النخعي : في يوم الطعامُ فيه عزيزٌ .

وقال قتادة : في يوم [يُشتهى] فيه الطعام (٤) .

وقوله : (يتيما) ، أي : أطعم في مثل هذا اليوم يتيما ، (ذا مقربة) ، أي : ذا قرابة منه : قاله ابن عباس ، وعكرمة والحسن ، والضحاك ، والسدي ؛ كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد :

حدثنا يزيد ، أخبرنا هشام ، عن حفصة بنت سيرين عن سلمان بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذي الرحم اثنتان ، صدقة وصلة (٥) » .

وقد رواه الترمذي والنسائي ، وهذا إسناد صحيح (٦) .

وقوله : (أو مسكينا ذا متربة) ، أي : فقيرا مُدقعاً لا صقا بالتراب ، وهو الدقعاء أيضا .

قال ابن عباس : (ذا متربة) هو المطروح في الطريق ، الذي لا بيت له ، ولا شيء يقيه من التراب — وفي رواية : هو الذي لصق بالدقعاء من الفقر والحاجة ، ليس له شيء — وفي رواية عنه : هو البعيد التربة .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٤/١٤٧ .

(٢) المنحة الوكوف : غزيرة اللبن .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٤/٢٩٩ .

(٤) تفسير الطبري : ٣٠/١٣٠ . وما بين القوسين منه .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٤/٢١٤ .

(٦) تحفة الأحوذي ، أبواب الزكاة ، باب « ماجاء في الصدقة على ذي القرابة » الحديث ٦٥٣ : ٣/٣٢٤ — ٣٢٥ . وقال الترمذي : « حديث سلمان بن عامر حديث حسن » . والنسائي ، كتاب الزكاة ، باب « الصدقة على الأقارب » : ٥/٩٢ .

قال ابن أبي حاتم : يعني الغريب عن وطنه ؛

وقال عكرمة : هو الفقير المديون المحتاج ؛

وقال سعيد بن جبير : هو الذى لا أحد له ؛

وقال ابن عباس ، وسعيد ، وقتادة ، ومقاتل بن حيان : هو ذو العيال .

وكل هذه قريبة المعنى .

وقوله : (ثم كان من الذين آمنوا) ، أى : ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة ، مؤمنٌ بقلبه ، محتسب ثواب ذلك عند الله عز وجل . كما قال تعالى : (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكورا (١)) . وقال : (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن (٢)) ... الآية .

وقوله : (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) ، أى : كان من المؤمنين العاملين صالحا ، المتواصين بالصبر على أذى الناس ، وعلى الرحمة بهم . كما جاء فى الحديث : الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء (٣) » . وفى الحديث الآخر : « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » ؛

وقال أبو داود : حدثنا بن أبي شيبة ، حدثنا سفيان ، عن ابن أبي نجيح ، عن ابن عامر ، عن عبد الله بن عَمْرو – يرويه – قال : من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا ، فليس منا (٤) » .

وقوله : (أولئك أصحاب الميمنة) أى : المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين ؛

ثم قال : (والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة) ، أى : أصحاب الشمال ، (عليهم نار مؤصدة) ، أى : مطبقة عليهم ، فلا محيد لهم عنها ، ولا خروج لهم منها ؛

قال أبو هريرة ، وابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، ومحمد بن كعب القرظى ، وعطية العوفى ، والحسن ، وقتادة ، والسدى : (مؤصدة) ، أى : مطبقة – قال ابن عباس : مغلقة الأبواب . وقال مجاهد : أصد الباب بلغة [قريش] : أى أغلقه ؛

وسيأتى فى ذلك حديث فى سورة : (ويل لكل هُمَزة لمزة) .

---

(١) سورة الإسراء ، آية : ١٩ .

(٢) سورة النحل ، آية : ٩٧ .

(٣) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « فى الرحمة » . وتحفة الأحوذى ، أبواب البر ، باب « ماجاء فى رحمة الناس ، الحديث ١٩٨٩ : ٦/٥١ . وقال الترمذى : « حسن صحيح » .

(٤) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « فى الرحمة » .

وقال الضحاك : (مؤصدة) : حيط لا باب له .

وقال قتادة : (مؤصدة) : مطبقة فلا ضوء فيها ولا فُرَج ، ولا خروج منها آخر الأبد .

وقال أبو عمران الجونى : إذا كان يوم القيامة أمر الله بكل جبار وكل شيطان وكل من كان يخاف الناس فى الدنيا شره ، فأوثقوا فى الحديد ، ثم أمر بهم إلى جهنم ، ثم أوصدوها عليهم ،أى : أطبقوها — قال : فلا والله لا تستقر أقدامهم على قرار أبدا ، ولا والله لا ينظرون فيها إلى أديم سماء أبدا ، ولا والله لا تلتقى جفون أعينهم على غمض نوم أبدا ، ولا والله لا يذوقون فيها بارد شراب أبدا . رواه ابن أبى حاتم .

آخر تفسير « سورة البلد » ، ولله الحمد والمنة

تفسير سورة والشمس وضحاها

وهى مكيـة

تقدم حديث جابر الذى فى الصحيحين : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال لمعاذ : « هلا صليت : (سبح اسم ربك الأعلى) ، و (الشمس وضحاها) و (الليل إذا يغشى) ؟ » .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ
وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ
مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾

قال مجاهد : (والشمس وضحاها) ، أى : وضوئها . وقال قتادة : (وضحاها) ، النهار كله .

قال ابن جرير : والصواب أن يقال : أقسم الله بالشمس ونهارها ، لأن ضوء الشمس الظاهر هو النهار (١) .

(والقمر إذا تلاها) ، قال مجاهد : تبعها . وقال العوفى ، عن ابن عباس : (والقمر إذا تلاها) ، قال : يتلو النهار . وقال قتادة : (إذا تلاها) ليلة الهلال ، إذا سقطت الشمس رؤى الهلال .

وقال ابن زيد : هو يتلوها فى النصف الأول من الشهر ، ثم هى تتلوه . وهو يتقدمها فى النصف الأخير من الشهر .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : إذا تلاها ليلة القدر .

وقوله : (والنهار إذا جلاها) ، قال مجاهد : أضاء . وقال قتادة : (والنهار إذا جلاها) ، « إذا غشيها النهار » .

قال ابن جرير : وكان بعض أهل العربية يتأول ذلك بمعنى : والنهار إذا جلا الظلمة ، لدلالة الكلام عليها .

قلت : ولو أن هذا القائل تأول بمعنى (والنهار إذا جلاها) ، أى : البسيطة ، لكان أولى ولصح قوله الله : (والليل إذا يغشاها) ، فكان أجود وأقوى ، والله أعلم . ولهذا قال مجاهد : (والنهار إذا جلاها) إنه كقوله : (والنهار إذا تجلى) . وأما ابن جرير فاختار عود الضمير فى ذلك كله على الشمس ، لجريان ذكرها . وقالوا فى قوله : (والليل إذا يغشاها) ، يعنى إذا يغشى الشمس حين تغيب ، فتظلم الآفاق .

---

(١) تفسير الطبرى : ٣٠/١٣٣ .

وقال بقية بن الوليد ، عن صفوان ، حدثني يزيد بن ذى حمامة قال : إذا جاء الليل قال الرب جل جلاله : غشى عبادى خلقى العظيم ، فالليل يهابه ، والذى خلقه أحق أن يهاب . رواه ابن أبى حاتم .

وقوله : (والسماء وما بناها) : يحتمل أن تكون « ما » هاهنا مصدرية ، بمعنى : والسماء وبنائها : وهو قول قتادة ، ويحتمل أن تكون بمعنى « مَن » يعنى : والسماء وبانيها . وهو قول مجاهد ، وكلاهما متلازم والبناء هو الرفع ، كقوله : (والسماء بنيناها بأيد) ، أى : بقوة (وإنا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون (١)) .

وهكذا قوله : (والأرض وما طحاها) ، قال مجاهد : (طحاها) دحاها . وقال العوفى ، عن ابن عباس : (وما طحاها) ، أى : خلق فيها .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : (طحاها) قسمها .

وقال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، والسدى ، والثورى ، وأبو صالح ، وابن زيد : (طحاها) : بسطها .

وهذا أشهر الأقوال ، وعليه الأكثر من المفسرين ، وهو المعروف عند أهل اللغة ، قال الجوهرى : طحوته مثل دحوته ، أى : بسطته .

وقوله : (ونفس وما سواها) ، أى : خلقها سوية مستقيمه على الفطره القويمة ، كما قال تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله (٢)) . وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يُمَجّسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جَمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ » .

أخرجاه من رواية أبى هريرة (٣) .

وفى صحيح مسلم من رواية عياض بن حمار المجاشعى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال« يقول الله عز وجل : إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم » (٤) .

وقوله : (فألهمها فجورها وتقواها) ، أى : فأرشدها إلى فجورها وتقواها ، أى : بين لها ذلك ، وهداها إلى ما قدر لها .

قال ابن عباس : (فألهمها فجورها وتقواها) : بين لها الخير والشر . وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، والثورى .

وقال سعيد بن جبير : ألهمها الخير والشر . وقال ابن زيد : جعل فيها فجورها وتقواها .

(١) سورة الذاريات ، آية : ٤٧ ـ ٤٨ .
(٢) سورة الروم ، آية : ٣٠ .
(٣) تقدم الحديث عند تفسير آية الروم المتقدمة : ٦/٣٢٠ ، وانظره أيضاً فى : ٢/٣٦٨ ، ٤/٢٤٥ . وقد شرحنا غريبه هنالك .
(٤) تقدم أيضاً عند تفسير آية الروم : ٦/٣٢٢ ، وخرجناه هنالك ، وانظره أيضاً فى : ٣/٦٦ .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار ، حدثنا صفوان بن عيسى وأبو عاصم النبيل قالا : حدثنا عزرة بن ثابت ، حدثني يحيي بن عقيل ، عن يحيي بن يعمر ، عن أبي الأسود الدّيلي قال : قال لي عمران بن حصَين : أرأيت ما يعمل فيه الناس ويتكادحون فيه ، أشيء قضي عليهم ومضى عليهم مِن قَدَرٍ قد سبق ، أو فيما يُستَقبلُون مما أتاهم به نبيهم — صلى الله عليه وسلم — وأكدت عليهم الحجة ؟ قلت : بل شيء قضي عليهم . قال : فهل يكون ذلك ظلما ؟ قال : ففزعت منه فزعاً شديدا ، قال : قلت له : ليس شيء إلا وهو خلقُه وملكُ يده ، لا يسألُ عما يفعل وهم يسئلون ، قال : سددك الله ، إنما سألت لأخبر عقلك ، إن رجلا من مُزَينة — أو : جهينة — أتى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : يا رسول الله ، أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون ، أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق ، أم شيء مما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم . وأكدت به عليهم الحجة ؟ قال : « بل شيء قد قضي عليهم » : قال : ففيم نعمل ؟ قال : « من كان الله خلقه لإحدى المنزلتين يهيّئه لها ، وتصديق ذلك في كتاب الله : (ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها (١) » .

رواه أحمد ومسلم ، من حديث عزرة بن ثابت به (٢) .

وقوله : (قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها) : يحتمل أن يكون المعنى : قد أفلح من زكى نفسه ، أي : بطاعة الله — كما قال قتادة — وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل . ويُروَى نحوه عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد ابن جبير . وكقوله : (قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى (٣)) .

(وقد خاب من دساها) ، أي : دسسها ، أي : أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهُدَى ، حتى ركب المعاصي وترك طاعة الله عز وجل .

وقد يحتمل أن يكون المعنى : قد أفلح من زكى الله نفسه ، وقد خاب من دَسَّى الله نفسه ، كما قال العوفي وعلي ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي وأبو زرعة قالا : حدثنا سهل بن عثمان ، حدثنا أبو مالك — يعني عمرو بن هشام (٤) — عن جُوَيبر ، عن الضحاك ، عن ابن عباس قال : سمعتَ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول في قول الله : (قد أفلح من زكاها) ، قال النبي — صلى الله عليه وسلم — : « أفلحت نفس زكاها الله »

ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي مالك ، به . وجويبر : هو ابن سعيد ، متروك الحديث ، والضحاك لم يلق ابن عباس .

---

(١) تفسير الطبري : ١٣٥/٣٠ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٤٣٨/٤ . ومسلم ، كتاب القدر : ٤٨/٨ — ٤٩ .

القدر : ٤٨/٨ — ٤٩ .

(٣) سورة الأعلى ، آية : ١٤ — ١٥ .

(٤) في المخطوطة « يعني عمرو بن الحارث بن هشام » . ولم نجده . والمثبت عن الجرح والتعديل ، ترجمة « عمرو بن هاشم بن مالك الجنبي » : ٢٦٧/١/٣ .

وقال الطبراني : حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح ، حدثنا أبي ، حدثنا ابن لهيعة ، عن عمرو بن دينار ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ إذا مر بهذه الآية : (ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها) وقف ، ثم قال : « اللهم آت نفسي تقواها ، أنت وليها ومولاها ، وخير من زكاها » .

حديث آخر ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا يعقوب بن حميد المدني ، حدثنا عبد الله بن عبد الله الأموي ، حدثنا معن بن محمد الغفاري ، عن حنظلة بن علي الأسلمي ، عن أبي هريرة قال : سمعت النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقرأ : (فألهمها فجورها وتقواها) ، قال : اللهم آت نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » ، لم يخرجوه من هذا الوجه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن نافع ــ يعني (١) ابن عمر ــ عن صالح بن سعيد ، عن عائشة : أنها فقدت النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ من مضجعه ، فلمسته بيدها ، فوقعت عليه وهو ساجد ، وهو يقول : « رب ، أعط نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها (٢) » . تفرد به .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا عاصم الأحول ، عن عبد الله ابن الحارث ، عن زيد بن أرقم : قال كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول : « اللهم ، إني أعوذ بك من العجز والكسل والهرم ، والجبن والبخل وعذاب القبر . اللهم ، آت نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها . اللهم ، إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، وعلم لا ينفع ، ودعوة لا يستجاب لها » قال زيد : كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يعلمناهن ونحن نعلمكوهن(٣) .

رواه مسلم من حديث أبي معاوية ، عن عاصم الاحول ، عن عبد الله بن الحارث ــ وأبي عثمان النهدي ، عن زيد ابن أرقم ، به (٤) .

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾ ﴾

يخبر تعالى عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم ، بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغي .

وقال محمد بن كعب : (بطغواها) ، أي : بأجمعها .

والأول أولى ، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما . فأعقبهم ذلك تكذيباً في قلوبهم بماجاءهم به رسولهم من الهدى واليقين .

---

(١) في المخطوطة : « عن نافع ، عن ابن عمر » . والمثبت من المسند .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٢٠٩/٦ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٣٧١/٤ .
(٤) مسلم ، كتاب الذكر ، باب « التعوذ من شر ما عمل ، ومن شر ما لم يعمل » : ٨١/٨ ــ ٨٢ .

(إذا انبعث أشقاها) ، أى : أشقى القبيلة ، وهو قدار بن سالف عاقرُ الناقة ، وهو أحيمر ثمود ، وهو الذى قال تعالى . (فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر)(١) . وكان هذا الرجل عزيزاً فيهم ، شريفاً فى قومه ، نسيباً رئيساً مطاعاً ، كما قال الإمام أحمد .

حدثنا ابن نمير ، حدثنا هشام ، عن ابيه ، عن عبد الله بن زَمْعَةَ قال : خطب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فذكر الناقة ، وذكر الذى عقرها ، فقال : (إذ انبعث أشقاها) : انبعث لها رجل عارم (٢) عزيز منيع فى رهطه ، مثل أبى زمعة (٣) .

ورواه البخارى فى التفسير ، ومسلم فى صفة النار ، والترمذى والنسائى فى التفسير من سننهما ، وكذا ابن جرير وابن أبى حاتم عن هشام بن عروة ، به (٤) .

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زرعة ، حدثنا إبراهيم بن موسى ، حدثنا عيسى بن يونس، حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثنى يزيد بن محمد بن خُثَيم ، عن محمد بن كعب القرظى ، عن محمد بن خُثَيم أبى يزيد عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم — لعلى : « ألا أحدثك بأشقى الناس ؟ » : قال : بلى : قال « رجلان أحيمر ثمود الذى عَقَرَ الناقة ، والذى يضربك ياعلى على هذا — يعنى قَرنه — حتى تبتل منه هذه » يعنى لحيته :

وقوله : (فقال لهم رسول الله) ، يعنى : صالحاً عليه السلام : (ناقة الله) ، أى : احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء (وسقياها) ، أى : لا تعتدوا عليها فى سقياها ، فان لها شِرب يوم ولكم شرب يوم معلوم ، قال الله : (فكذبوه فعقروها) ، أى : كذبوه فيما جاءهم به فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التى أخرجها الله من الصخرة آية لهم وحجة عليهم ، (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم)، أى: غضب عليهم ، فدمّر عليهم ،(فسواها)، أى :فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء ؛

قال قتادة : بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم ، وذكرهم وأنثاهم ، فلما اشترك القوم فى عقرها دمدم الله عليهم بذنوبهم فسواها (٥) .

وقوله : (ولا يخاف عقباها) ، وقرىء (فلا يخاف عقباها) (٦) ؛

قال ابن عباس : لا يخاف الله من أحد تبعة ، وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وبكر بن عبد الله المزنى ، وغيرهم ؛

وقال الضحاك والسُدّى : (ولا يخاف عقباها) ، أى : لم يخف الذى عقرها عاقبة ما صنع (٧) ؛

والقول الأول أولى ، لدلالة السياق عليه ، والله أعلم .

آخر تفسير ((والشمس وضحاها))

---

(١) سورة القمر ، آية : ٢٩ .

(٢) أى : صعب على من يرومه ، كثير الشر .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٤/١٧ .

(٤) البخارى ، تفسير سورة (والشمس وضحاها) : ٦/٢١٠ . ومسلم ، كتاب صفة الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب « النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء » : ٨/١٥٤ — ١٥٥ . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة (والشمس وضحاها) ، الحديث ٣٤٠١ : ٩/٢٦٨ — ٢٧٠ ، وقال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » . وتفسير الطبرى : ٣٠/١٣٧ .

(٥) تفسير الطبرى : ٣٠/١٣٧ .

(٦) هى قراءة نافع وابن عامر ، قال ابن مجاهد : « وكذلك هى فى مصاحف أهل المدينة والشام » انظر كتاب السبعة لابن مجاهد : ٦٨٩ .

(٧) تفسير الطبرى : ٣٠/١٣٨ .

تفسير سورة الليل

وهي مكيــة

تقدم قوله — عليه الصلاة والسلام — لمعاذ : « فهلا صليت بـ (سبح اسم ربك الأعلى) ، و (الشمس وضحاها) ، و (الليل إذا يغشى) » .

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ (١١)

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا شعبة ، عن مغيرة ، عن إبراهيم ، عن علقمة : أنه قدم الشام فدخل مسجد دمشق ، فصلى فيه ركعتين وقال : اللهم ، ارزقني جليساً صالحاً . قال : فجلس إلى أبي الدرداء ، فقال له أبو الدرداء : ممن أنت قال : من أهل الكوفة . قال : كيف سمعت ابن أم عبد يقرأ : (والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى ؟) قال علقمة : (والذكر والأنثى) . فقال أبو الدرداء : لقد سمعتها من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فما زال هؤلاء حتى شككوني . ثم قال : ألم يكن فيكم صاحب الوساد (١) وصاحب السر الذي لا يعلمه أحد غيره ، والذي أجير من الشيطان على لسان النبي صلى الله عليه وسلم (٢) .

وقد رواه البخاري هاهنا ومسلم ، من طريق الأعمش ، عن إبراهيم قال : قدم أصحاب عبد الله على أبي الدرداء ، فطلبهم فوجدهم ، فقال : أيكم يقرأ على قراءة عبد الله ؟ قالوا : كلنا ، قال : أيكم أحفظ ؟ فأشاروا إلى علقمة ، فقال : كيف سمعته يقرأ : (والليل إذا يغشى ؟) قال (٣) (والذكر والأنثى) : قال : أشهد أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم — يقرأ هكذا وهؤلاء يريدوني (٤) أن أقرأ : (وما خلق الذكر والأنثى) ، والله لا أتابعهم (٥) .

---

(١) الوساد : المخدة . وفي رواية البخاري : « صاحب السواك ، أو السرار » . وروى في البخاري أيضاً : « صاحب الوساد » مثل ما هنا ، وتكملة الحديث في المسند : « صاحب الوساد : ابن مسعود ، وصاحب السر : حذيفة ، والذي أجير من الشيطان : عمار » .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٦/٤٤٩ .

(٣) في البخاري : « قال علقمة » .

(٤) في المخطوطة : « يريدون » .

(٥) البخاري ، تفسير سورة (والليل إذا يغشى) : ٦/٢١٠ .

هذا لفظ البخارى . هكذا قرأ ذلك ابن مسعود، وأبو الدرداء — ورفعه أبو الدرداء — وأما الجمهور فقرأوا ذلك كما هو مُثْبَتٌ فى المصحف الإمام العثمانى فى سائر الآفاق : (وما خلق الذكر والأنثى) ، فأقسم تعالى (بالليل إذا يغشى) ، أى : إذا غَشِيَ الخليقةَ بظلامه ، (والنهار إذا تجلى) ، أى : بضيائه وإشراقه ، (وما خلق الذكر والأنثى) ، كقوله : (وخلقناكم أزواجاً (١)) ، وكقوله : (ومن كل شيء خلقنا زوجين) (٢) .

ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان القسم عليه أيضاً متضادا ، ولهذا قال : (إن سعيكم لشتى) ، أى : أعمال العباد التى اكتسبوها متضادة أيضاً ومتخالفة ، فمن فاعل خيرا ومن فاعل شرا ، قال الله تعالى : (فأما من أعطى [واتقى) أى : أعطى] ما أمر بإخراجه ، واتقى الله فى أموره ، (وصدق بالحسنى) ، أى : بالمجازاة على ذلك — قاله قتادة . وقال خُصَيف : بالثواب . وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وأبو صالح ، وزيد بن أسلم : (وصدق بالحسنى (٣) [أى : بالخلف . وقال أبو عبد الرحمن السلمى ، والضحاك : (وصدق بالحسنى)] أى : بلا إله إلا الله . وفى رواية عن عكرمة : (وصدق بالحسنى) ، أى : بما أنعم الله عليه . وفى رواية عن زيد بن أسلم : (وصدق بالحسنى) ، قال : الصلاة والزكاة والصوم . وقال مرة : وصدقة الفطر .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا صفوان بن صالح الدمشقى ، حدثنا الوليد بنُ مسلم ، حدثنا زُهَيْر ابن محمد، حدثنى مَنْ سَمِع أبا العالية الرياحى يُحدث عن أبى بن كعب قال : سألت رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم — عن الحسنى قال : « الحسنى : الجنة » .

وقوله : (فسنيسره لليسرى) — قال ابن عباس : يعنى للخير . وقال زيد بن أسلم : يعنى للجنة .

وقال بعض السلف : من ثواب الحسنة الحسنةُ بعدها ، ومن جزاء السيئة السيئةُ بعدها . ولهذا قال تعالى : (وأما من بخل) ، أى : بما عنده ، (واستغنى) — قال عكرمة ، عن ابن عباس ، أى بخل بماله ، واستغنى عن ربه عز وجل ، رواه ابن أبى حاتم .

(وكذب بالحسنى) ، أى : بالجزاء فى الدار الآخرة ، (فسنيسره للعسرى) ، أى لطريق الشر ، كما قال تعالى : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون (٤)) . والآيات فى هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله — عز وجل — يُجازى مَن قصد الخير بالتوفيق له ، ومن قصد الشر بالخذلان . وكل ذلك بقدر مُقدَّر ، والأحاديثُ الدالة على هذا المعنى كثيرة .

رواية أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، قال الإمام أحمد : حدثنا على بن عَيَّاش ، حدثنى العطاف بن خالد ، حدثنى رجل من أهل البصرة ، عن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ، عن أبيه قال : سمعت أبى يذكر أن

---

(١) سورة النبأ ، آية : ٨ .
(٢) سورة الذاريات ، آية : ٤٩ .
(٣) انظر تفسير الطبرى : ١٤٢/٣٠ .
(٤) سورة الأنعام ، آية : ١١٠ .

أباه سمع أبا بكر وهو يقول: قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يارسول الله، أنعمل(١) على ما فرغ منه أو على أمر مؤتنف؟ قال: «بل على أمر قد فُرغ منه». قال: ففيم العملُ يارسول الله؟ قال: «كل ميسر لما خلق له(٢)».

رواية على رضى الله عنه، قال البخارى، حدثنا أبو نعيم: حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن سعد بن عبيدة، عن أبى عبد الرحمن السلمى، عن على بن أبى طالب قال: كنا مع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى بقيع الغَرقد فى جنازة، فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مقعده من الجنة ومقعده من النار». فقالوا: يارسول الله، أفلا نتكل؟ فقال: «اعملوا، فكل ميسر لما خلق(٣) له» قال: ثم قرأ: (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى) إلى قوله: (للعسرى)(٤).

وكذا رواه من طريق شعبة ووكيع، عن الأعمش، بنحوه. ثم رواه عن عثمان بن أبى شيبة، عن جرير، عن منصور، عن سعد بن عبيدة عن أبى عبد الرحمن، عن على بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ: كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد، فأتى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقعد وقعدنا حوله، ومعه مِخْصَرَةٌ(٥) فنَكَّس فجعل ينكُت بمخصرته، ثم قال: «ما منكم من أحد ــ أو: ما من نفس منفوسة(٦) إلا كتب مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة». فقال رجل: يارسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاء فسيصير إلى أهل الشقاء؟ فقال «أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاء فييسرون إلى عمل أهل الشقاء». ثم قرأ: (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى) الآية(٧).

وقد أخرجه بقية الجماعة، من طرق، عن سعد بن عبيدة، به(٨).

رواية عبد الله بن عمر، وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا شعبة عن عاصم بن عبيد الله قال: سمعتُ سالم بنَ عبد الله يُحدث عن ابن عُمرَ: قال: قال عُمر: يارسول الله أرأيت ما نعمل فيه؟ أفى أمر قد فُرغ أو مبتدأ أو مبتدع؟ قال: «فيما قد فُرِغَ منه، فاعمل يا ابنَ الخطاب فان كُلا مُيَسَّر، أما من كان من أهل السعادة فانه يعمل للسعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فانه يعمل للشقاء(٩)».

---

(١) فى المسند: «العمل...».
(٢) مسند الإمام أحمد: ١/٥ ــ ٦.
(٣) لفظ البخارى: «فكل ميسر، ثم قرأ...».
(٤) البخارى، تفسير سورة «والليل إذا يغشى»: ٦/٢١١.
(٥) المخصرة: ما أخذه الإنسان بيده من عصا، أو عكازة، أو مقرعة، أو قضيب، وقد يتكىء عليه. ونكس: خفض رأسه على هيئة المهموم.
(٦) أى: مولودة، يقال: نفست المرأة ــ بالبناء للمجهول ــ ونفست ــ بفتح فكسر ــ فهى نفساء ومنفوسة: إذا ولدت.
(٧) البخارى، تفسير سورة (والليل إذا يغشى): ٦/٢١١ ــ ٢١٢.
(٨) مسلم، كتاب القدر: ٨/٤٦ ــ ٤٧. وسنن أبى داود، كتاب السنة، باب «فى القدر». وتحفة الأحوذى، أبواب القدر، باب «ما جاء فى الشقاء والسعادة»، الحديث ٢٢١٩: ٦/٣٤٠ ــ ٣٤١ وقال الترمذى: «هذا حديث حسن صحيح». وابن ماجه، المقدمة، باب «فى القدر»، الحديث ٨: ١/٣٠ ــ ٣١.
(٩) مسند الإمام أحمد: ٢/٥٢.

ورواه الترمذي في القدر ، عن بندار ، عن ابن مهدي ، به وقال : « حسن صحيح (١) » .

حديث آخر من رواية جابر ، قال ابن جرير : حدثني يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث ، عن أبي الزبير ، عن جابر بن عبد الله أنه قال : يارسول الله ، أنعمل لأمر قد فرغ منه ، أو لأمر نستأنفه ؟ فقال : « لأمر قد فرغ منه » . فقال سراقة (٢) : ففيم العمل إذاً ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل عامل مُيَسَّرٌ لعمله » (٣) .

ورواه مسلم عن أبي الطاهر ، عن ابن وهب ، به (٤) .

حديث آخر ، قال ابن جرير : حدثني يونس ، حدثنا سفيان ، عن عمرو بن دينار ، عن طلق بن حبيب ، عن بشير بن كعب العدوي قال : سأل غلامان شابان النبي — صلى الله عليه وسلم — فقالا : يارسول الله ، أنعمل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ، أو في شيء يستأنف ؟ فقال : « بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير » . قالا : ففيم العمل إذاً ؟ قال : « اعملوا فكل عامل ميسر لعمله الذي خلق له » . قالا : [فالآن] نجد ونعمل (٥) .

رواية أبي الدرداء ، قال الإمام أحمد : حدثنا هَيْثَم بن خارجة ، حدثنا أبو الربيع سليمان بن عتبة السلمي ، عن يونس بن ميسرة بن حَلْبَس ، عن أبي إدريس ، عن أبي الدرداء قال : قالوا : يارسول الله ، أرأيت ما نعمل ، أمر قد فُرغ منه أم شيء نستأنفه ؟ قال : « بل أمر قد فرغ منه » . قالوا : فكيف بالعمل يارسول الله ؟ قال : « كل امرىء مهيأ لما خلق له (٦) » .

تفرد به أحمد من هذا الوجه .

حديث آخر ، قال ابن جرير : حدثني الحسن بن سلمة بن أبي كبشة ، حدثنا عبد الملك بن عمرو ، حدثنا عباد بن راشد ، عن قتادة ، حدثني خُلَيد العَصَري ، عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ما من يوم غربت فيه شمسه إلا وبجَنْبَتَيْها ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، وأعط ممسكاً تلفاً » . وأنزل الله في ذلك القرآن : (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) (٧) .

ورواه ابن أبي حاتم ، عن أبيه ، عن ابن أبي كبشة ، باسناده مثله .

حديث آخر ، قال ابن أبي حاتم : حدثني أبو عبد الله الطهراني ، حدثنا حفص بن عُمرَ العَدَني ، حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن رجلا كان له نخل ، ومنها نخلة فرعها إلى دار رجل صالح فقير ذي عيال فاذا جاء الرجل فدخل داره وأخذ الثمر من نخلته ، فتسقط الثمرة فيأخذها صبيان الفقير فنزل من نخلته فَنَزَع الثمرة من أيديهم ،

---

(١) تحفة الأحوذي ، أبواب القدر ، باب « ما جاء في الشقاء والسعادة » ، الحديث ٢٢١٨ : ٦/٣٣٩ — ٣٤٠ .

(٢) ليس لسراقة ذكر في رواية الطبري ، ولا في رواية مسلم من طريق أبي الطاهر ، وإنما هي فيه من رواية أخرى .

(٣) تفسير الطبري : ٣٠/١٤٤ .

(٤) مسلم ، كتاب القدر : ٨/٤٨ .

(٥) تفسير الطبري : ٣٠/١٤٤ ، وما بين القوسين منه .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٦/٤٤١ .

(٧) تفسير الطبري : ٣٠/١٤١ — ١٤٢ .

وإن أدخل أحدهم الثمرة فى (١) فمه أدخل أصبعه فى حلق الغلام ونزع الثمرة من حلقه . فشكا ذلك الرجلُ إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — وأخبره بما هو فيه من صاحب النخلة ، فقال له النبى — صلى الله عليه وسلم — : « اذهب » ، ولقى النبى — صلى الله عليه وسلم — صاحب النخلة ، فقال له النبى — صلى الله عليه وسلم « أعطنى نخلتك التى فرعها فى دار فلان ولك بها نخلة فى الجنة » فقال له : لقد أعطيت ، ولكن يعجبنى ثمرها ، وإن لى لنخلا كثيراً ما فيها نخلة أعجبُ إلى ثمرة من ثمرها . فذهب النبى — صلى الله عليه وسلم — فتبعه رجل كان يسمع الكلام من رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ومن صاحب النخلة ، فقال الرجل : يارسول الله ، إن أنا أخذت النخلة فصارت لى النخلة فأعطيتها أتعطينى بها ما أعطيته بها نخلة فى الجنة ؟ قال : « نعم » ، ثم إن الرجل لقى صاحب النخلة ، ولكلاهما نخل، فقال له : أخبرك أن محمداً أعطانى بنخلتى المائلة فى دار فلان نخلة فى الجنة ، فقلت ، له : قد أعطيتُ ولكن يعجبنى ثمرها . فسكت عنه الرجل فقال له : أتُراك إذا بعتَها ؟ قال : لا ، إلا أن أعطى بها شيئاً ، ولا أظننى أعطاه . قال : وما مناك بها؟ قال : أربعون نخلة . فقال الرجل : لقد جئتَ بأمر عظيم ، نخلتك تطلب بها أربعين نخلة ؟! ثم سكتا وأنشآ فى كلام، ثم قال : أنا أعطيتك أربعين نخلة ، فقال : أشهِدْ لى إن كنت صادقاً . فأمر بأناس فدعاهم فقال : اشهدوا أنى قد أعطيته من نخلى أربعين نخلة بنخلته التى فرعها فى دار فلان بن فلان ، ثم قال : ما تقول ؟ فقال صاحب النخلة : قد رضيت . ثم قال بعدُ : ليس بينى وبينك بيع لم تفترق قال له قد أقالك الله ، ولست بأحمقَ حين أعطيتك أربعين نخلة بنخلتك المائلة . فقال صاحب النخلة : قد رضيتُ على أن تعطينى الأربعين على ما أريد . قال : تعطينيها على ساق . [ثم مكث ساعة ثم قال : هى لك على ساق ، وأوقف له شهوداً وعد له أربعين نخلة على ساق] فتفرقا فذهب الرجل إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : يارسول الله ، إن النخلة المائلة فى دار فلان قد صارت لى ، فهى لك . فذهب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى الرجل صاحب الدار فقال له : « النخلة لك ولعيالك » . قال عكرمة : قال ابن عباس : فأنزل الله عز وجل : (والليل إذا يغشى) إلى قوله : (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى) إلى آخر السورة .

هكذا رواه ابن أبى حاتم ، وهو حديث غريب جداً .

قال ابن جرير : وذكر أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه : حدثنى هارون بن إدريس الأصم ، حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى ، حدثنا محمد بن إسحاق ، عن محمد بن عبد الله(٢) بن محمد بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال : كان أبو بكر يعتق على الإسلام بمكة ، فكان يعتق عجائز ونساء إذا أسلمن فقال له أبوه : أى بنى ، أراك تعتق أناساً ضعفاء ، فلو أنك تعتق رجالا جُلداء(٣) يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك ؟! فقال : أىْ أبَتِ ، إنما أريد — أظنه قال — ما عند الله : قال : فحدثنى بعض أهل بيتى أن هذه الآية أنزلت فيه : (فأما من أعطى واتقى وصَدّق بالحسنى فسنيسّره لليُسرى)(٤) .

---

(١) فى المخطوطة : « وإن أدخل الثمرة فى فم أحدهم » . والمثبت من الطبعات السابقة .
(٢) فى تفسير الطبرى : « عبيد الله » . والصواب ما هنا ، انظر ترجمة « محمد » هذا فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٣/٢/٢٩٩ . وانظر أيضاً سيرة ابن هشام فى سند ابن إسحاق : ١/٣١٩ .
(٣) أى : أشداء .
(٤) تفسير الطبرى : ٣٠/١٤٢ .

وقوله : (وما يغني عنه ماله إذا تردّى) – قال مجاهد : أي : إذا مات ، وقال أبو صالح ، ومالك عن زيد بن أسلم : إذا تردى في النار .

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

قال قتادة : (إن علينا للهدى) ، أي : نبين الحلالَ والحرامَ ، وقال غيره : من سلك طريق الهدى وَصَلَ إلى الله . وجعله كقوله تعالى : (وعلى الله قصد السبيل) ، حكاه ابن جرير .

وقوله : (وإن لنا للآخرة والأولى) ، أي : الجميع ملكنا وأنا المتصرف فيهما .

وقوله : (فأنذرتكم ناراً تلظى) – قال مجاهد : أي توهج .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن سماك بن حرب ، سمعت النعمان بن بشير يخطب يقول : سمعتُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يخطب يقول : « أنذرتكم النار [أنذرتكم النار ، أنذرتكم النار (٢)] حتى لو أن رجلا كان بالسوق لسمعه من مقامي هذا ، قال : حتى وقعت خَميصة (٣) كانت على عاتقه عند رجليه (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، حدثني أبو إسحاق : سمعت النعمان بن بشير يخطب ويقول : سمعتُ رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجلٌ توضع في أخمص قدميه جَمرتان يغلي منها دماغه » (٥) . رواه البخاري (٦) .

وقال مسلم : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا أبو أسامة ، عن الأعمش ، عن أبي إسحاق ، عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم : « إن أهون [أهل] النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يَغلي منهما دماغه كما يَغلي المرجَل ، ما يرى أن أحداً أشد منه عذاباً ، وإنه لأهونهم عذاباً (٧) .

وقوله (لا يصلاها إلا الأشقى) ، أي : لايدخلها دخولا يحيط به من جميع جوانبه إلا الأشقى ، ثم فسره فقال : (الذي كذب) ، أي : بقلبه ، (وتولى) ، أي : عن العمل بجوارحه وأركانه .

---

(١) نسبه الطبري إلى بعض أهل العربية : ٣٠/١٤٥ .
(٢) ما بين القوسين عن المسند .
(٣) الخميصة ثوب من خز أو صوف . وقيل : لا تكون خميصة حتى تكون سوداء .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٤/٢٧٢ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ٤/٢٧٤ .
(٦) البخاري ، كتاب الرقائق ، باب « صفة الجنة والنار » : ٨/١٤٤ .
(٧) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب « أهون أهل النار عذابا » : ١/١٣٥ – ١٣٦ .

قال الإمام أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا عبد ربّه بن سعيد ، عن المقبرى ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – « لا يدخل النار إلا شقى » . قيل : ومن الشقى ؟ قال : « الذى لا يعمل بطاعة ، ولا يترك لله معصية » (١) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يونس وسُريج قالا : حدثنا فُلَيح ، عن هلال بن على ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى هُريرة قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – « كل أمتى تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى » . قالوا : ومن يأبى يارسول الله ؟ قال « من أطاعنى دخل الجنة ، ومن عصانى فقد أبى »(٢) .

ورواه البخارى عن محمد بن سنان ، عن فُلَيح ، به (٣) .

وقوله : (وسيجنبها الأتقى) ، أى : وسيُزَحزح عن النار التقى النقى الأتقى : ثم فسره بقوله : (الذى يؤتى ماله يتزكى) أى : يصرف ماله فى طاعة ربه ، ليزكى نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا ، (وما لأحد عنده من نعمة تجزى) ، أى : ليس بَذْله ماله فى مكافأة من أسدى إليه معروفاً ، فهو يعطى فى مقابلة ذلك ، وإنما دفعه ذلك (ابتغاء وجه ربه الأعلى)، أى : طمعاً فى أن يحصل له رؤيته فى الدار الآخرة فى روضات الجنات ، قال الله تعالى : (ولسوف يرضى) ، أى : ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات .

وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فى أبى بكر الصديق – رضى الله عنه – حتى إن بعضهم حكى الاجماع من المفسرين على ذلك . ولا شك أنه داخل فيها ، وأولى الأمة بعمومها ، فان لفظها لفظ العموم ، وهو قوله تعالى : (وسيجنبها الأتقى . الذى يؤتى ماله يتزكى . وما لأحد عنده من نعمة تجزى) ، ولكنه مقدم الأمة وسابقهم فى جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة ، فانه كان صديقاً تقياً كريماً جواداً بذالا لأمواله فى طاعة مولاه ، ونصرة رسول الله ، فكم من دارهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم ، ولم يكن لأحد من الناس عنده منَّة يحتاج إلى أن يكافئه بها ، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل ، ولهذا قال له عروة بن مسعود – وهو سيد ثقيف ، يوم صلح الحديبية – أما والله لولا يد لك كانت عندى لم أجزك بها لأجبتك (٤) . وكان الصديق قد أغلظ له فى المقالة ، فاذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل ، فكيف بمن عداهم ؟ ولهذا قال : (وما لأحد عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى) . وفى الصحيحين أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « من أنفق زوجين (٥) فى سبيل الله دعته خزنة الجنة : ياعبد الله ، هذا خير » فقال أبو بكر : يارسول الله ، ما على من يُدعى منها ضرورة (٦) فهل يدعى منها كلها أحد ؟ قال نعم ، وأرجو أن تكون منهم (٧) » .

آخر تفسير سورة الليل ، ولله الحمد والمنة

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣٤٩/٢ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٣٦١/٢ .
(٣) البخارى ، كتاب الاعتصام ، باب « الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم » : ١١٤/٩ .
(٤) انظر الخبر فى سيرة ابن هشام ، فى أمر الحديبية : ٣١٣/٢ .
(٥) أى : شفعا من جنس ، كدرهمين ، أو دينارين أو قرشين ... » .
(٦) يسأل : هل هو مخير فى دخول أى باب منها ؟
(٧) البخارى ، كتاب فضائل الصحابة ، باب « فضل أبى بكر » : ٧/٥ . ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب « من جمع الصدقة وأعمال البر » : ٩١/٣ .

تفسير سورة الضحى

وهى مكيـــة

روينا من طريق أبى الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبى بزّة المقرىء قال : قرأت على عكرمة بن سليمان ، وأخبرنى أنه قرأ على إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عبّاد ، فلما بلغت والضحى قالا لى : كبّر حتى تختم مع خاتمة كل سورة ، فإنا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك . وأخبرنا أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك . وأخبره [مجاهد أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك . وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أبى بن كعب فأمره بذلك . وأخبره أبى] أنه قرأ على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأمره بذلك .

فهذه سُنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزى، من ولد القاسم بن أبى بزة، وكان إماماً فى القراءات . فأما فى الحديث فقد ضعّفه أبوحاتم الرازى وقالا: لا أحدث عنه(١) وكذلك أبو جعفر العقيلى قال : هو منكر الحديث. لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة فى شرح الشاطبية عن الشافعى أنه سمع رجلا يكبر هذا التكبير فى الصلاة ، فقال له : أحسنت وأصبت السنة . وهذا يقتضى صحة هذا الحديث .

ثم اختلف القراء فى موضع هذا التكبير وكيفيته ، فقال بعضهم : يكبر من آخر (والليل إذا يغشى) ، وقال آخرون : من آخر (والضحى) : وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول : الله أكبر ويقتصر ، ومنهم من يقول : الله أكبر ، لا إله إلا الله والله أكبر .

وذكر القراء فى مناسبة التكبير من أول « سورة الضحى » : أنه لما تأخر الوحى عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وفتر تلك المدة جاءه الملك فأوحى إليه : (والضحى . والليل إذا سجى) . . . السورة بتمامها — كبر فرحاً وسروراً ، ولم يرو ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف ، فالله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم : حدثنا سفيان ، عن الأسود بن قيس قال : سمعت جُندُبا يقول : اشتكى النبى — صلى الله عليه وسلم — فلم يقم ليلة أو ليلتين ، فأتت امرأة فقالت : يامحمد ، ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، فأنزل الله عز وجل : (والضحى والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى) (٢) .

---

(١) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ١/١/٧١ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٤/٣١٢ – ٣١٣ .

رواه البخارى، ومسلم، والترمذى، والنسائى، وابن أبى حاتم، وابن جرير، من طرق، عن الأسود بن قيس، عن جندب ــ هو ابن عبد الله البَجَلى ثم العَلَقى (١) به وفى رواية سفيان بن عيينة عن الأسود بن قيس : سمع جندباً قال : أبطأ جبريل على رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال المشركون : وُدِّعَ محمد . فأنزل الله (والضحى . والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى)(٢) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج وعمرو بن عبد الله الأودى قالا : حدثنا أبو أسامة ، حدثنى سفيان ، حدثنى الأسود بن قيس ، أنه سمع جندباً يقول : رمى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بحجر فى أصبعه فقال :

[هل أنت إلا أصبع دميت * وفى سبيل الله ما لقيت ؟] .

قال : فمكث ليلتين أو ثلاثا لا يقوم ، فقالت له امرأة : ما أرى شيطانك إلا قد تركك . فنزلت : (والضحى . والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى) ــ والسياق لأبى سعيد .

قيل : إن هذه المرأة هى أم جميل امرأة أبى لهب، وذكر أن إصبعه عليه السلام دميت . وقوله ــ هذا الكلام الذى اتفق أنه موزون ــ ثابت فى الصحيحين(٣)، ولكن الغريب هاهنا جعله سبباً لتركه القيام ، ونزول هذه السورة . فأما ما رواه ابن جرير :

حدثنا ابن أبى الشوارب ، حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا سليمان الشيبانى ، عن عبد الله بن شداد : أن خديجة قالت للنبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ ما أرى ربك إلا قد قلاك . فأنزل الله : (والضحى . والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى) .

وقال أيضاً : حدثنا أبو كريب ، حدثنا وكيع ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه قال : أبطأ جبريل على النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فجزع جزعاً شديداً فقالت خديجة : إنى أرى ربك قد قلاك مما نَرَى من جزعك . قال : فنزلت : (والضحى . والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى) . . . إلى آخرها (٤) .

فانه حديث مرسل من [هذين الوجهين (٥)] ولعل ذكر خديجة ليس محفوظا ، أو قالته على وجه التأسف والتحزن ، والله أعلم .

---

(١) البخارى ، تفسير سورة (والضحى) : ٢١٣/٦ . وكتاب التهجد ، باب « ترك القيام للمريض » : ٦٢/٢ ، وكتاب فضائل القرآن : ٢٢٤/٦ . ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب « ما لقى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ من أذى المشركين والمنافقين » : ١٨٢/٥ . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة الضحى ، الحديث ٣٤٠٣ : ٢٧٢/٩ ــ ٢٧٣ . وتفسير الطبرى : ١٤٨/٣٠ .

(٢) انظر هذه الرواية فى مسلم والترمذى . وتقدم تخرجها فيهما .

(٣) انظر تفسير الآية التاسعة والستين من سورة (يس) : ٥٧٧/٦ ، فقد خرجنا الحديث هنالك .

(٤) تفسير الطبرى : ١٤٨/٣٠ .

(٥) ما بين القوسين من الطبعات السابقة ، ومكانه بياض فى المخطوطة .

وقد ذكر بعض السلف – منهم ابن إسحاق – أن هذه السورة هي التي أوحاها جبريل إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حين تبدى له في صورته التي خلقه الله عليها ، ودنا إليه وتدلى منهبطاً عليه وهو بالأبطح ، (فأوحى إلى عبده ما أوحى) – قال : قال له هذه السورة : (والضحى والليل إذا سجى) .

قال العوفي ، عن ابن عباس : لما نَزَل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – القرآن ، أبطأ عنه جبريل أياما ، فتغير بذلك ، فقال المشركون : ودعه ربه وقلاه . فأنزل الله : (ما ودعك ربك وما قلى)(١) .

وهذا قسم منه تعالى بالضحى وما جعل فيه من الضياء ، (والليل إذا سجى) ، أي : سكن فأظلم وادلَهَمّ : قاله مجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، وغيرهم . وذلك دليل ظاهر على قدرة خالق هذا وهذا كما قال : (والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى (٢)) وقال : (فالق الإصباح ، وجاعل الليل سكنا ، والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم) (٣) .

وقوله : (ما ودعك ربك) ، أي : ما تركك ، (وما قلى) أي : وما أبغضك ، (وللآخرة خير لك من الأولى) ، أي وللدار الآخرة خير لك من هذه الدار . ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم – أزهد الناس في الدنيا ، وأعظمهم لها إطراحاً ، كما هو معلوم من سيرته . ولما خُيِّرَ – عليه السلام – في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها ثم الجنة ، وبين الصيرورة إلى الله عز وجل ، اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا المسعودي ، عن عمرو بن مرة ، عن إبراهيم النخعي ، عن علقمة ، عن عبد الله – هو ابن مسعود – قال : اضطجع رسول الله – صلى الله عليه وسلم على حصير ، فأثر في جنبه ، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه وقلت : يارسول الله ، ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مالي وللدنيا ؟! ما أنا والدنيا ؟! إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظَلّ تحت شجرة ، ثم راح وتركها (٤) .

ورواه الترمذي وابن ماجة ، من الحديث المسعودي به . وقال الترمذي : حسن صحيح (٥) .

وقوله : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) أي : في الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه في أمته ، وفيما أعدّه له من الكرامة ، ومن جملته نهر الكوثر الذي حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ، وطينه مسك أذفر ، كما سيأتي (٦) .

وقال الإمام أبو عمرو الأوزعي ، عن إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي ، عن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه قال : عرض على رسول الله ماهو مفتوح على أمته من بعده كنزاً كنزاً ، فسر بذلك ، فأنزل الله (ولسوف يعطيك

---

(١) تفسير الطبري : ٣٠/١٤٨ .
(٢) سورة الليل ، آية : ١ – ٢ .
(٣) سورة الأنعام ، آية : ٩٦ . و (جاعل) هكذا في مخطوطة الأزهر ، وقد سبق التنبيه عليها في موضعها ، انظر : ٢٩٧/٣ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ١/٣٩١ .
(٥) تحفة الأحوذي ، أبواب الزهد ، الحديث ٢٤٨٣ : ٦/٤٨ – ٤٩ . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « مثل الدنيا » ، الحديث ٤١٠٩ : ٢/١٣٧٦ .
(٦) انظر : ٤/١١٧ ، ٧/٨٢ .

وربك فترضى) فأعطاه فى الجنة [ألف] ألف قصر ، فى كل قصر ما ينبغى له من الأزواج والخدام . رواه ابن جرير من طريقه ، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس . ومثل هذا ما يقال إلا عن توقيف .

وقال السدى ، عن ابن عباس : من رضا محمد – صلى الله عليه وسلم – ان لا يدخل احد من اهل بيته النار . رواه ابن جرير (١) ، وابن أبى حاتم .

وقال الحسن : يعنى بذلك الشفاعة . وهكذا قال أبو جعفر [الباقر] .

وقال أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا معاوية بن هشام ، عن على بن صالح ، عن زيد بن أبى زياد ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « إنا آهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) » .

ثم قال تعالى يعدد نعمه على عبده ورسوله محمد – صلوات الله وسلامه عليه – : (ألم يجدك يتيما فآوى) ، وذلك أن أن أباه تُوفى وهو حَمْلٌ فى بطن أمه ، وقيل : بعد آن ولد عليه السلام . ثم توفيت أمه آمنه بنت وهب وله من العمر ست سنين . ثم كان فى كفالة جده عبد المطلب ، إلى أن توفى وله من العمر ثمان سنين ، فكفله عمه أبو طالب . ثم لم يزل يحوطه وينصره ويَرفع من قَدره ويُوقره ، ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره ، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان ، وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره ، إلى أن تُوفى أبو طالب قبل الهجرة بقليل ، فأقدم عليه سفهاء قريش وجهالهم ، فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم الأنصار من الأوس والخزرج ، كما أجرى الله سُنته على الوجه الأتم الأكمل . فلما وصل إليهم أوَوه ونَصروه وحاطوه وقاتلوا بين يديه – رضى الله عنهم أجمعين ، وكل هذا من حفظ الله له وكَلاءته وعنايته به .

وقوله : (ووجدك ضالا فهدى) كقوله : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم (٢)) ومنهم من قال المراد بهذا أنه – عليه السلام – ضل فى شعاب مكة وهو صغير ، ثم رجع . وقيل : إنه ضل وهو مع عمه فى طريق الشام ، وكان راكباً ناقة فى الليل ، فجاء إبليس يعدل بها عن الطريق ، فجاء جبريل ، فنفخ إبليس نفخة ذهب منها إلى الحبشة ، ثم عدل بالراحلة إلى الطريق : حكاهما البغوى .

وقوله : (ووجدك عائلا فأغنى) ، أى : كنت فقيراً ذا عيال ، فأغناك الله عمن سواه ، فجمع له بين مقامى الفقير الصابر والغنى الشاكر ، صلوات الله وسلامه عليه .

وقال قتادة فى قوله : (ألم يجدك يتيما فآوى : ووجدك ضالا فهدى : ووجدك عائلا فأغنى) ، قال : كانت هذه منازل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قبل أن يبعثه الله عز وجل . رواه ابن جرير (٣) ، وابن أبى حاتم .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٤٩/٣٠ .

(٢) سورة الشورى ، آية : ٥٢ .

(٣) تفسير الطبرى : ١٤٩/٣٠ .

وفى الصحيحين – من طريق عبد الرزاق – عن معمر ، عن همام بن مُنَبّه قال : هذا ما حدّثنا أبو هُرَيرة قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – [: ليس (١) الغنى عن كثرة العَرَض ، ولكن الغنى غنى النفس » .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم (٢)] : « قد أفلح من أسلم ، ورُزق كفافاً ، وقَنّعه الله بما آتاه (٣) » . .

ثم قال : (فأما اليتيم فلا تقهر) أى : كما كنت يتيما فآواك الله فلا تقهر اليتيم ، أى : لا تذله وتنهره وتُهنه ، ولكن أحسنْ إليه ، وتلطف به .

قال قتادة : كن لليتيم كالأب الرحيم .

(وأما السائل فلا تنهر) ، أى : وكما كنت ضالا فهداك الله ، فلا تنهر السائل فى العلم المسترشد .

قال ابن إسحاق : (وأما السائل فلا تنهر) ، أى : فلا تكن جباراً ، ولا متكبراً ، ولا فَحّاشا ، ولا فَظّا على الضعفاء من عباد الله .

وقال قتادة: يعنى رَد المسكين برحمة ولين .

(وأما بنعمة ربك فحدث) ، أى : وكما كنت عائلا فقيراً فأغناك الله ، فحدث بنعمة الله عليك ، كما جاء فى الدعاء المأثور النبوى : « واجعلنا شاكرين لنعمتك ، مثنين بها ، قابليها ، وأتمها علينا (٤) » .

وقال ابن جرير :حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن عُلَيّة ، حدثنا سعيد بن [إياس] الجُرَيرىّ ، عن أبى نضرة قال : كان المسلمون يرون أن من شكر النعم أن يحدّث بها (٥) .

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد : حدثنا (٦) منصور بن أبى مزاحم ، حدثنا الجراح بن مَليح ، عن أبى عبد الرحمن ، عن الشعبى ، عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – [على المنبر] : « من لم يشكر القليل ، لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله . والتحدث بنعمة الله شكر ، وتركها كفر . والجماعة رحمة ، والفرقة عذاب (٧) » . إسناده ضعيف .

---

(١) ما بين القوسين ساقط من مخطوطة الأزهر ، والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٢) لم يقع لنا الحديث فى الصحيحين من هذه الطريق ، انظر البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « الغنى غنى النفس » : ١١٨/٨ . ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب « ليس الغنى عن كثرة العرض » : ١٠٠/٣ . وهذه الطريق فى مسند الإمام أحمد : ٣١٢/٢ – ٣١٥ .

(٣) مسلم ، كتاب الزكاة ، باب « فى الكفاف والقناعة » : ١٠٢/٣ .

(٤) سنن أبى داود ، كتاب الصلاة ، باب « التشهد » .

(٥) تفسير الطبرى : ١٥٠/٣٠ .

(٦) فى المسند : « حدثنا أبى ، حدثنا منصور ... » . ويبدو أن الصواب ما هنا ، انظر التهذيب ، ترجمة « منصور ابن أبى مزاحم » : ٣١١/١٠ – ٣١٢ .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٢٧٨/٤ ، ٣٧٥ .

وفى الصحيحين (١) ، عن أنس ، أن المهاجرين قالوا : يارسول الله،ذهب الأنصار بالأجر كله . قال: «لا،ما دعوتم الله لهم ، وأثنيتم عليهم (٢) ».

وقال أبو داود : حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا الربيع بن مسلم ، عن محمد بن زياد ، عن أبى هريرة ، عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : «لا يشكر الله من لا يشكر الناس »(٣) .

ورواه الترمذى عن أحمد بن محمد ، عن ابن المبارك ، عن الربيع بن مسلم ، وقال: صحيح (٤) .

وقال أبو داود : حدثنا عبد الله بن الجراح ، حدثنا جرير ، عن الأعمش ، عن أبى سفيان ، عن جابر ، عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : «من أبلى بلاء فذكره فقد شكره ، وإن كتمه فقد كفره » . تفرد به أبو داود (٥) .

وقال أبو داود : حدثنا مسدد ، حدثنا بشر ، حدثنا عمارة بن غَزْيّة ، حدثنى رجل من قومى ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : «من أعطى عَطاء فوَجَد فليَجزْ به ، فإن لم يجد فليُثْن به ، فمن أثنى به فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره ــ قال أبو داود : «ورواه يحيى بن أيوب ، عن عُمارة بن غَزِيّة ، عن شرحبيل عن جابر ــ كرهوه (٦) فلم يسموه » : تفرد به أبو داود (٧) .

وقال مجاهد : يعنى النبوة التى أعطاك ربك (٨) . وفى رواية عنه : القرآن .

وقال ليث، عن رجل ، عن الحسن(٩) بن على : (وأما بنعمة ربك فحدث) ، قال : ما عملت من خير فحدّث إخوانك .

وقال محمد بن إسحاق : ما جاءك الله من نعمة وكرامة من النبوة فحدّث بها واذكرها ، وادع إليها وقال : فجعل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يذكر ما أنعم الله به عليه من النبوة سرًّا إلى من يطمئن إليه من أهله، وافترضت عليه الصلاة ، فصلى .

آخر تفسير سورة الضحى

---

(١) كذا ، ولم يقع لنا الحديث فى الصحيحين . ولعل صوابه : «وفى الصحيح » .

(٢) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب ، باب «فى شكر المعروف» . والترمذى فى أبواب صفة القيامة ، انظر تحفة الأحوذى ، الحديث ٢١٠٤ : ٧/١٨٨ ــ ١٨٩ . والإمام أحمد فى مسنده : ٣/٢٠٠ ــ ٢٠٤ .

(٣) سنن أبى داود فى الكتاب والباب المتقدم .

(٤) تحفة الأحوذى ، أبواب البر ، باب «ما جاء فى الشكر لمن أحسن إليك» ، الحديث ٢٠٢٠ : ٦/٨٧ .

(٥) سنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب «فى شكر المعروف» .

(٦) لفظ أبى داود : «عن جابر . قال أبو داود : وهو شرحبيل ــ يعنى رجلا من قومى ، كأنهم كرهوه فلم يسموه» .

(٧) سنن أبى داود ، كتاب الأدب ، باب «فى شكر المعروف» .

(٨) تفسير الطبرى : ٣٠/١٤٩ ــ ١٥٠ .

(٩) فى المخطوطة : «والحسن ، عن على» . والمثبت عن الطبعات السابقة ، والدر المنثور للسيوطى : ٦/٣٦٢ .

تفسير سورة ألم نشرح

وهى مكيــة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾
فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾

يقول تعالى : : (ألم نشرح لك صدرك ؟) ، يعنى أما شرحنا لك صدرك ، أى : نورناه وجعلناه فسيحاً رحيباً واسعاً كقوله : (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) (١) ، وكما شرح الله صدره كذلك جعل شَرْعَهُ فسيحاً واسعاً سمحاً سهلا لا حرج فيه ولا إصر ولا ضيق .

وقيل: المراد بقوله : (ألم نشرح لك صدرك) ؟: شرح صدره ليلة الإسراء ، كما تقدم من رواية مالك بن صعصعة (٢) وقد أورده الترمذى هاهنا — وهذا وإن كان واقعاً ، ولكن لا منافاة ، فان من جملة شرح صدره الذى فُعل بصدره ليلة الإسراء ، وما نشأ عنه من الشرح المعنوى أيضاً ، والله أعلم .

قال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنى محمد بن عبد الرحيم أبو يحيى البزاز ، حدثنا يونس بن محمد ، حدثنا معاذ بن محمد ابن معاذ بن محمد بن أبى بن كعب ، حدثنى أبى محمد بن معاذ ، عن [معاذ] (٣) عن محمد ، عن أبى بن كعب : أن أبا هريرة كان جريئاً على أن يسأل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن أشياء لا يسأله عنها غيره ، فقال : يارسول الله ، ما أولُ ما رأيت من أمر النبوة ؟ فاستوى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — جالسا وقال : « لقد سألتَ ياأبا هُرَيرة ، إنى لفى الصحراء ابنَ عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسى ، وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ [قال نعم] (٣) فاستقبلانى بوجوه لم أرها [لخلق] (٣) قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط . فأقبلا إلى يمشيان ، حتى أخذ كل واحد منهما بعَضُدى ، لا أجد لأحدهما مسا ، فقال أحدهما لصاحبه : أضجعْه . فأضجعانى بلا قَصْر ولا هَصْر (٤) . فقال أحدهما لصاحبه: افلق صدره . فهوى أحدهما إلى صدرى ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع ، فقال له: أخرج الغل والحسد . فأخرج شيئاً كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها ، فقال له : أدخل الرأفة والرحمة ، فاذا مثل الذى أخرج شبهُ الفضة ، ثم هز إبهام رجلى اليمنى فقال : أغدُ واسلم . فرجعت بها أعدو ، رقةً على الصغير ، ورحمةً للكبير (٥) » .

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ١٢٥ .

(٢) انظر تفسير سورة الإسراء : ١٣/٥ — ١٥ .

(٣) ما بين القوسين عن المسند .

(٤) القصر : القهر والغلبة ، من القسر — بالسين — فأبدل السين صاداً ، وهما يتبادلان كثيراً فى الكلام . والهصر : الجذب .

(٥) مسند الإمام أحمد : ١٣٩/٥ .

وقوله : [(ووضعنا عنك وزرك) بمعنى : (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) . (الذى أنقض ظهرك) الانقاض : الصوت . وقال غير واحد من السلف فى قوله : (الذى أنقض ظهرك) ، أى أثقلك حمله .

وقوله (١)] (ورفعنا لك ذكرك)، قال مجاهد: لاأُذكَرُ إلا ذُكِرتَ معى : أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله (٢) .

وقال قتادة : رفع اللهُ ذكرَه فى الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ولا مُتشهد ولا صاحبُ صلاة إلا ينادى بها : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

قال ابن جرير : حدثنى يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنا عمرو بن الحارث ، عن دَرّاج ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد ، عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « أتانى جبريل فقال : إن ربى وربك يقول : كيف رفعت ذكرك ؟ قال : الله أعلم . قال : إذا ذُكِرتُ ذُكِرتَ معى (٣) » وكذا رواه ابن أبى حاتم عن يونس بن عبد الأعلى ، به . ورواه أبو يعلى من طريق ابن لَهيعة ، عن دَرّاج .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرعة حدثنا أبو عُمر الحَوضى ، حدثنا حماد بن زيد ، حدثنا عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال: قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « سألت ربى مسألة وَدِدتُ أنى لم أكن سألته قلت : قد كانت قبلى أنبياء ، منهم من سخرت له الريح ، ومنهم من يحيى الموتى . قال : يامحمد ، ألم أجدك يتيما فآويتك ؟ قلت : بلى يارب . قال : ألم أجدك ضالا فهديتك ؟ قلت : بلى يارب . قال : ألم أجدك عائلا فأغنيتك ؟ قال : قلت : بلى يارب . قال : ألم أشرح لك صدرك ؟ ألم أرفع لك ذكرك ؟ قلت : بلى يارب » .

وقال أبونعيم (٤) فى دلائل النبوة : حدثنا أبو أحمد الغطريفى ، حدثنا موسى بن سهل الجونى ، حدثنا أحمد بن القاسم بن بهرام الهيتى ، حدثنا نصر بن حماد ، عن عثمان بن عطاء ، عن الزهرى ، عن أنس قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : « لما فرغت مما أمرنى الله به من أمر السموات والأرض قلت : يارب ، إنه لم يكن نبى قبلى إلا وقد كرمته ، جعلت إبراهيم خليلا، وموسى كليما ، وسخرت لداودَ الجبال ، ولسليمان الريح [والشياطين] وأحييت لعيسى الموتى، فما جعلت لى ؟ قال : أو ليس قد أعطيتك أفضل من ذلك كله ، أنى لا أذكَر إلا ذُكِرتَ معى ، وجعلت صدور أمتك [أناجيل] يقرءون القرآن ظاهراً ، ولم أعطها أمة ، وأعطيتك كنزاً من كنوز عرشى : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

وحكى البغوى ، عن ابن عبّاس ومجاهد : أن المراد بذلك : الأذان . يعنى ذكره فيه ، وأورد من شعر حسانَ ابن ثابت :

---

(١) ما بين القوسين المعقوفين عن الطبعات السابقة .

(٢) تفسير الطبرى : ٣٠/١٥٠ — ١٥١ .

(٣) تفسير الطبرى : ٣٠/١٥١ .

(٤) لم يقع لنا هذا الحديث فيما طبع من دلائل النبوة لأبى نعيم ، وهذا يؤكد ما سبق أن ذكرناه من أن طبعة حيدر أباد هذه غير كاملة .

أغَرُّ ، عَلَيه للنبوة خاتَم مِنَ الله(١) مِن نُور يَلوحُ وَيشهَد
وَضم الإلهُ اسم النبي إلى اسمه إذا قَالَ فِي الخَمْسِ المؤذنُ : أشهدُ
وَشَقَ لَهُ مِنَ اسمه ليُجِلَّه فَذُو العَرْشِ محمودٌ، وَهَذا مُحَمَّدُ(٢)

وقال آخرون : رفع الله ذكره فى الأولين والآخرين ، ونوه به ، حين أخذ الميثاق على جميع النبيين أن يؤمنوا به ، وأن يأمروا أممهم بالإيمان به، ثم شهر ذكره فى أمته فلا يُذكر الله إلا ذُكر معه .

وما أحسن ما قال الصرصرى رحمه الله : .

لا يَصِحُّ الأذَانُ فى الفَرْضِ إلا . باسمِه العَذْب [فى الفم] المرْضِى (٣)

وقال أيضاً :

[ألَمْ تَر أنَّا لا يَصحُّ أذَانُنَا وَلا فَرْضُنا إنْ لم نُكَرِّرْه فيهما] (٤)

وقوله : (فان مع العسر يسراً . إن مع العسر يسراً) ، أخبر تعالى أن مع العسر يُوجَدُ اليسر ، ثم أكد هذا الخبر

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا حُميد بن حماد بن خوّار(٥) أبو الجهم ، حدثنا عائذ بن شُريح قال : سمعت أنس بن مالك يقول : كان النبى — صلى الله عليه وسلم — جالساً وحياله حجر ، فقال : « لو جاء العسر فدخل هذا الحجر لجاء اليسر حتى يدخل عليه [فيخرجه] ، فأنزل الله عز وجل : (إن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسراً) .

ورواه أبو بكر البزار فى مسنده عن محمد بن معمر ، عن حُميد بن حماد ، به ولفظه : « لو جاء العسر حتى يدخل هذا الحجر لجاء اليسر حتى يخرجه » ثم قال : (فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسراً) ، ثم قال البزار : لا نعلم رواه عن أنس إلا عائذ بن شريح .

قلت : وقد قال فيه أبو حاتم الرازى : فى حديثه ضعف (٦) ولكن رواه شعبة عن معاوية بن قرة ، عن رجل ، عن عبد الله ابن مسعود موقوفا ؛

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا أبو قطن ، حدثنا المبارك بن فضالة ، عن الحسن قال : كانوا يقولون : لا يغلب عسر واحد يسرين (٧) اثنين .

---

(١) رواية الديوان : « من الله مشهود يلوح ... » .
(٢) ديوان حسان ، ط بيروت : ٤٧ .
(٣) فى المخطوطة : « باسمه العذب المرضى به » . ولا يستقيم البيت ، والمثبت عن الطبعات السابقة .
(٤) هذا البيت ساقط فى مخطوطة الأزهر .
(٥) فى المخطوطة : « بن أبى خوار » . والمثبت عن الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢٢٠/٢/١ .
(٦) الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ١٦/٢/٣ .
(٧) أخرج مالك فى الموطأ ، كتاب الجهاد ، باب الترغيب فى الجهاد أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبى عبيدة بن الجراح . « ... وإنه لن يغلب عسر يسرين » . انظر تنوير الحوالك للسيوطى : ٢٩٦/١ .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن الحسن قال : خرج النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يوماً مسروراً فرحاً وهو يضحك ، وهو يقول : « لن يغلب عسر يسرين . لن يغلب عسر يسرين ، إن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً » .

وكذا رواه من حديث عوف الأعرابي ويونس بن عبيد ، عن الحسن مرسلا . (١)

وقال سعيد ، عن قتادة : ذُكر لنا أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بشر أصحابه بهذه الآية فقال : « لن يغلب عسر يسرين » .

ومعنى هذا أن العسر معرف فى الحالين ، فهو مفرد ، واليسر منكر فتعدد ، ولهذا قال : (لن يغلب عسر يسرين) ، يعنى قوله : (فإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً) ، فالعسر الأول عين الثانى ، واليسر تعدد .

وقال الحسن بن سفيان : حدثنا يزيد بن صالح ، حدثنا خارجة ، عن عباد بن كثير ، عن أبى الزناد ، عن أبى صالح عن أبى هريرة : أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « نزل المعونة من السماء على قدر المئونة ، ونزل الصبر على قدر المصيبة » .

ومما يروى عن الشافعى ــ رضى الله عنه أنه قال (٢) :

صَبراً جَميلاً ما أقرَبَ الفرَجا مَن راقَبَ اللهَ فى الأمُورِ نَجا
مَن صَدَقَ اللهَ لم يَنَلْه أذًى وَمَن رَجاه يكونُ حَيثُ رَجا

وقال ابن دُرَيد : أنشدنى أبو حاتم السجستانى :

إذا اشتَمَلت علَى اليأسِ القُلوبُ وَضاقَ لِما بِه الصّدْرُ الرَّحيبُ
وَأوطَنَت المكارِهُ واطمَأنَّتْ ، وَأرْسَتْ فى أماكِنِها الخُطُوبُ
وَلَم تَرَ لانكشافِ الضُّرِّ وَجْهاً وَلا أغنَى بِحيلَتِه الأريبُ
أتاكَ على قُنُوطٍ مِنكَ غَوثٌ يَمُنُّ بِه اللطيفُ المستجيبُ
وَكُلُّ الحادِثاتِ إذا تَناهَتْ فَمَوصُولٌ بِها الفَرَجُ القَرِيبُ

وقال آخر :

وَلَرُبَّ نازِلَةٍ يَضيقُ بِها الفَتَى ذَرْعاً وعِندَ اللهِ مِنها المَخْرَجُ
كَمُلَتْ ، فلَمّا استحكَمَتْ حَلَقاتُها فُرِجَتْ ، وكانَ يَظُنُّها لا تُفْرَجُ

(١) تفسير الطبرى : ٣٠/١٥١ .
(٢) البيتان فى كتاب مناقب الشافعى البيهقى : ٢/٣٦٢ ، مع خلاف يسير ، منسوبين إلى الربيع بن سليمان .

وقوله : (فإذا فرغت فانصب ، وإلى ربك فارغب) ، أى : إذا فرّغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها ، فانصب فى العبادة ، وقم إليها نشيطاً فارغ البال ، وأخلصْ لربك النيةَ والرغبةَ . ومن هذا القبيل قولهُ – صلى الله عليه وسلم – فى الحديث المتفق على صحتّه : « لا صلاةَ بحضرة طعام ، ولا وهو يدافعه الأخبثان(١) » ; وقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا أقيمت الصلاة وحضر العشاء ، فابدءوا بالعَشَاء (٢) » .

قال مجاهد فى هذه الآية : إذا فرغت من أمر الدنيا فقمتَ إلى الصلاة ، فانصب لربك ، وفي رواية عنه : إذا قمت إلى الصلاة فانصب في حاجتك(٣) ، وعن ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض فانصب فى قيام الليل . وعن ابن عباس نحوه ، وفى رواية عن ابن مسعود : (فانصب ، وإلى ربك فارغب) بعد فراغك من الصلاة وأنت جالس ،

وقال على بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (فإذا فرغت فانصب) ، يعنى فى الدعاء .

وقال زيد بن أسلم ، والضحاك : (فإذا فرغت) ، أى : من الجهاد (فانصب) ، أى : فى العبادة ،

(وإلى ربك فارغب) ، قال الثورى : اجعل نيتك ورغبتك إلى الله عز وجل ،

آخر تفسير سورة (ألم نشرح) ولله الحمد

---

(١) الأخبثان : البول والغائط . والحديث أخرجه مسلم فى كتاب المساجد ، باب « كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذى يريد أكله فى الحال ، وكراهة الصلاة مع مدافعة الأخبثين » : ٢/٧٨ – ٧٩ . وأبو داود فى كتاب الطهارة ، باب « أيصلى الرجل وهو حاقن ؟ » . والإمام أحمد فى مسنده ، عن عائشة رضى الله عنها : ٦/٤٣ ، ٥٤ ، ٧٣ .

(٢) البخارى ، كتاب الأذان ، باب « إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة » : ١/١٧١ ، وكتاب الأطعمة ، باب « إذا حضر العشاء فلا يعجل عن عشائه » : ٧/١٠٧ . ومسلم ، كتاب المساجد ، باب « كراهة الصلاة بحضرة الطعام ... » : ٢/٧٨ . وسنن أبي داود ، كتاب الأطعمة ، باب « إذا حضرت الصلاة والعشاء » . وتحفة الأحوذى ، أبواب الصلاة ، باب « ما جاء إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة ، فابدأوا بالعشاء » ، الحديث ٣٥١ : ٢/٣٣٤ – ٣٣٦ . وقال الترمذى : « حديث أنس حديث حسن صحيح » . والنسائى ، كتاب الإمامة ، باب « العذر فى ترك الإمامة » : ٢/١١٠ – ١١١ . وابن ماجه ، كتاب الإقامة ، باب « إذا حضرت الصلاة ووضع العشاء » ، الأحاديث ٩٣٣ – ٩٣٥ : ١/٣٠١ . ومسند الإمام أحمد ، عن أنس رضى الله عنه : ٣/١٠٠ ، ١١٠ ، ١٦١ ، ٢٣٠ – ٢٣١ ، ٢٣٨ ، ٢٤٩ . وعن سلمة بن الأكوع : ٤/٤٩ ، ٥٤ . وعن عائشة رضى الله عنها : ٦/٣٩ – ٤٠ ، ٥١ ، ١٩٤ . وعن أم سلمة رضى الله عنها : ٦/٢٩١ ، ٣٠٣ ، ٣١٤ .

(٣) تفسير الطبرى : ٣٠/١٥٢ .

تفسير سورة والتين والزيتون

وهى مكيـة

قال مالك وشعبة ، عن عدى بن ثابت ، عن البراء بن عازب : كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يقرأ فى سَفَر فى إحدى الركعتين بالتين والزيتون ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه . أخرجه الجماعة فى كتبهم (١) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾

اختلف المفسرون هاهنا على أقوال كثيرة فقيل : المراد بالتين مسجد دمشق . وقيل : هى نفسها . وقيل : الجبل الذى عندها .

وقال القرطبى (٢) : هو مسجد أصحاب الكهف .

وروى العَوفى، عن ابن عباس : أنه مسجد نوح الذى على الجودى .

وقال مجاهد : هو تينكم هذا .

(والزيتون) ، قال كعب الأحبار ، وقتادة ، وابن زيد ، وغيرهم : هو مسجد بيت المقدس .

وقال مجاهد ، وعكرمة : هو هذا الزيتون الذى تعصرون .

(وطور سينين) ، قال كعب الأحبار وغير واحد: هو الجبل الذى كلم الله عليه موسى (٣) .

(وهذا البلد الأمين) : يعنى مكة . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وإبراهيم النخعى ، وابن زيد ، وكعب الأحبار . ولا خلاف فى ذلك .

---

(١) انظر البخارى ، كتاب الأذان ، باب « القراءة فى العشاء » : ١/١٩٤ . وكتاب التوحيد ، باب « قول النبى صلى الله عليه وسلم : (الماهر بالقرآن مع الكرام البررة ، وزينوا أصواتكم بالقرآن» : ٩/١٩٤ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « القراءة فى العشاء » : ٢/٤١ . وابن ماجه ، كتاب الإقامة ، باب « القراءة فى صلاة العشاء » ، الحديث ٨٣٤ – ٨٣٥ : ١/٢٧٢ – ٢٧٣ . ومسند الإمام أحمد : ٤/٢٩٨ ، ٣٠٢ .

(٢) نقله القرطبى عن محمد بن كعب ، انظر : ٢٠/١١١ .

(٣) تفسير الطبرى : ٣٠/١٥٤ .

وقال بعض الأئمة : هذه محالّ ثلاثة ، بعث الله فى كل واحد منها نبياً مرسلا من أولى العزم أصحاب الشرائع الكبار ، فالأول : محلة التين والزيتون ، وهى بيت المقدس التى بعث الله فيها عيسى عيسى بن مريم ؛ والثانى : طور سينين ، وهو طور سيناء الذى كلم الله عليه موسى بن عمران . والثالث : مكة ، وهو البلد الأمين الذى من دخله كان آمنا ، وهو الذى أرسل فيه محمداً — صلى الله عليه وسلم — قالوا : وفى آخر التوراة ذكر هذه الأماكن الثلاثة : جاء الله من طور سيناء — يعنى الذى كلم الله عليه موسى — وأشرق من ساعير (١) — يعنى جبل بيت المقدس الذى بعث الله منه عيسى واستعلن من جبال فاران — يعنى جبال مكة التى أرسل الله منها محمداً فذكرهم على الترتيب الوجودى بحسب ترتيبهم فى الزمان ، ولهذا أقسم بالأشرف ، ثم الأشرف منه ، ثم بالأشرف منهما . .

وقوله (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم) : هذا هو المقسم عليه ، وهو أنه تعالى خلق الإنسان فى أحسن صورة ، وشكل منتصب القامة ، سوىّ الأعضاء حسَنها .

(ثم رددناه أسفل سافلين) أى : إلى النار . قاله مجاهد ، وأبو العالية ، والحسن ، وابن زيد ، وغيرهم : ثم بعد هذا الحسن والنضارة مصيره إلى النار إن لم يطع الله ويتبع الرسل . ولهذا قال : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) .

وقال بعضهم : (ثم رددناه أسفل سافلين) ، أى : إلى أرذل العمر . رُوىَ هذا عن ابن عباس ، وعكرمة — حتى قال عكرمة : من جمع القرآن لم يُرَدّ إلى أرذل العمر . واختار ذلك ابن جرير . ولو كان هذا هو المراد لما حسُن استثناء المؤمنين من ذلك ، لأن الهَرَم قد يصيبُ بعضهم ، وإنما المراد ما ذكرناه ، كقوله : (والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) .

وقوله : (فلهم أجر غير ممنون) ، أى : غير مقطوع كما تقدم .

ثم قال : (فما يكذبك) ، يعنى يا ابن آدم (بعدُ بالدين ؟) أى : بالجزاء فى المعاد وقد علمت البدأة ، وعرفت أن من قدر على البدأة ، فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى ، فأى شىء يحملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا ؟ .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان ، حدثنا عبد الرحمن ، عن سفيان ، عن منصور قال : قلت لمجاهد : (فما يكذبك بعد بالدين) ، عنى به النبى صلى الله عليه وسلم ؟ قال : معَاذ الله ! عنى به الإنسان . وهكذا قال عكرمة وغيره .

وقوله : (أليس الله بأحكم الحاكمين) ، أى : أما هو أحكم الحاكمين ، الذى لا يجوز ولا يظلم أحداً ، ومن عدْله أن يقيم القيامة فينصف المظلوم فى الدنيا ممن ظلمه . وقد قدمنا فى حديث أبى هريرة مرفوعاً « فإذا قرأ أحدكم (والتين والزيتون) فأتى على آخرها : (أليس الله بأحكم الحاكمين) ، فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين (٢) » .

آخر تفسير ((والتين والزيتون)) ولله الحمد

---

(١) فى مراصد الاطلاع : (ساعير) فى التوراة ، اسم لجبال فلسطين ، وهى قرية من الناصرة ، بين عكا وطبرية .

(٢) انظر تفسير سورة القيامة : ٨/٣٠٩ .

تفسير سورة اقرأ

وهى أول شيء نزل من القرآن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة قالت : أول ما بدئ به رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء ، فكان يأتى حراء فيتحنث فيه — وهو : التعبد — الليالىَ ذواتَ العدد ، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فتزوِّده لمثلها حتى فَجأه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فيه فقال : اقرأ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقلت : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذنى فغطَّنى (١) حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ فقلت : ما أنا بقارئ ، فغطَّنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارىء . فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : (اقرأ باسم ربك الذى خلق) حتى بلغ : (مالم يعلم) قال : فرجع بها ترجُف بوادره (٢) حتى دخل على خديجة فقال : « زملونى زملونى » . فزملوه حتى ذهب عنه الروع . فقال : ياخديجة ، مالى ؟ فأخبرها الخبر وقال : قد خشيت علىّ . فقالت له : كلا ، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا ؛ إنك لتصل الرحم ، وتصدُق الحديثَ ، وتحمل الكَلّ ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورَقة بن نوفل بن أسَد بن عبد العزى بن قُصى — وهو ابن عم خديجة ، أخى أبيها ، وكان امرأ تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربى ، وكتب بالعربية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِىَ — فقالت خديجة : أىْ ابْن عم ، اسمع من ابن أخيك . فقال ورَقة : ابنَ أخى ، ما ترى ؟ فأخبره رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما رأى ، فقال ورقة : هذا الناموس الذى أنزل على موسى ، ليتنى فيها جذَعا (٣) أكونُ حيا حين يخرجك قومك . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « أومخرجى هم ؟ » . فقال ورقة : نعم ،لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودى ، وإن يُدركْنى يومك أنصرْكَ نصراً مُؤزرا . لم ينشَب (٤) ورَقة أن تُوُفِّى ، وفتَرَ الوحي فترة حتى حزَن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيا بلغنا — حزنا غداً [منه] مرارا كى يتَردى من رءوس شوَاهق الجبال ، فكلما

---

(١) الغط : العصر الشديد .

(٢) أى : ترعد وتضطرب . والبوادر : جمع بادرة ، وهى اللحمة التى بين العنق والمنكب .

(٣) أى : شابا قويا .

(٤) أى : لم يلبث .

أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه ، تبدى له جبريل فقال له : يامحمد إنك رسولُ الله حقاً . فيسكن بذلك(١) جأشه ، وتقرّ نفسه فيرجع . فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة جبل تبدّى له جبريل، فقال له مثل ذلك(٢) .

وهذا الحديث مخرج في الصحيحين من حديث الزهري(٣) وقد تكلمنا على هذا الحديث من جهة سنده ومتنه ومعانيه في أول شرحنا للبخاري مستقصى ، فمن أراده فهو هناك محرر ، ولله الحمد والمنة .

فأول شيء من القرآن هذه الآيات الكريمات المباركات ، وهُنّ أول رحمة رحِم الله بها العباد ، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم . وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقة ، وأن من كرَمه تعالى أن علّم الإنسان ما لم يعلم ، فشرفه وكرمه بالعلم ، وهو القدر الذي امتاز به أبو البرية آدم على الملائكة ، والعلم تارة يكون في الأذهان ، وتارة يكون في اللسان وتارة يكون في الكتابة بالبنان ، ذهني ولفظي ورسمي ، والرسمي يستلزمهما من غير عكس ، فلهذا : قال (اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم • علم الإنسان ما لم يعلم) . وفي الأثر : قيدوا العلم بالكتابة (٤) . وفيه أيضاً « من عمل بما علم رزقه [الله] علم ما لم يكن » .

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾ ۩ ﴾

يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان ، إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله ؛ ثم تهدده وتوعده ووعظه فقال ؛ (إن إلى ربك الرجعى) ، أي ؛ إلى الله المصير والمرجع ، وسيحاسبك على مالك : من أين جمعته ؟ وفيم صرفته ؟ .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا زيد بن إسماعيل الصائغ ، حدثنا جعفر بن عون ، حدثنا أبو عُميس ، عن عون قال : قال عبد الله : منهومان لا يشبعان ، صاحب العلم وصاحب الدنيا ، ولا يستويان ، فأما صاحب العلم فيزداد رضى الرحمن ، وأما صاحب الدنيا فيتمادى في الطغيان . قال : ثم قرأ عبد الله : (إن الإنسان ليطغى • أن رآه استغنى) . وقال للآخر : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) .

وقد رُوي هذا مرفوعاً إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « منهومان لا يشبعان : طالب علم ، وطالب دنيا (٥) » .

---

(١) في المسند : « فيسكن ذلك » . وما هنا موافق البخاري ، كتاب التعبير : ٣٨/٩ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٦/٢٣٢ – ٢٣٣ .
(٣) البخاري ، كتاب بدء الوحي : ١/٣ – ٤ . وتفسير سورة (اقرأ باسم ربك الذي خلق) : ٦/٢١٤ – ٢١٥ . وكتاب التعبير : ٣٨/٩ . ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب « بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم » : ١٠/٩٧ – ٩٨ .
(٤) سنن الدارمي ، المقدمة ، باب « من رخص في كتابة العلم » ، الحديث ٥٠٣ : ١/١٠٥ .
(٥) سنن الدارمي ، المقدمة ، باب « في فضل العلم والعالم » ، الحديث ٣٤١ : ١/٨١ .

ثم قال تعالى : (أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلى) : نزلت فى أبى جهل لعنه الله ، توعد النبى — صلى الله عليه وسلم — على الصلاة عند البيت ، فوعظه الله — تعالى — بالتى هى أحسن أولا فقال : (أرأيت إن كان على الهدى) ، أى : فما ظنك إن كان هذا الذى تنهاه على الطريق المستقيمة فى فعله ، أو (أمر بالتقوى) بقوله ، وأنت تزجره وتتوعده على صلاته ، ولهذا قال : (ألم يعلم بأن الله يرى ؟) أى : أما علم هذا الناهى لهذا المهتدى أن الله يراه ويسمع كلامه ، وسيجازيه على فعله أتم الجزاء .

ثم قال تعالى متوعداً ومتهدداً : (كلا لئن لم ينته) ، أى : لئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد ، (لنسفعا بالناصية) أى : لنَسمنَّها سوادا يوم القيامة .

ثم قال : (ناصية كاذبة خاطئة) ، يعنى : ناصيةُ أبى جهل كاذبة فى مقالها خاطئة فى فعالها .

(فليدع ناديه) ، أى : قومه وعشيرته ، أى : ليدعهم يستنصر بهم ، (سندع الزبانية) ، وهم ملائكة العذاب ، حتى يعلم من يغلبْ : أحزبُنا أو حزبه .

قال البخارى : حدثنا يحيى ، حدثنا عبد الرزاق ، عن معمر ، عن عبد الكريم الجزَرى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلّى عند الكعبة لأطأنّ على عنقه . فبلغ النبى — صلى الله عليه وسلم — فقال : « لئن فعله لأخذته الملائكة » . ثم قال : تابعه عمرو بن خالد ، عن عبيد الله — يعنى ابن عمرو — عن عبد الكريم(١)

وكذا رواه الترمذى والنسائى فى تفسيرهما من طريق عبد الرزاق ، به(٢) . وهكذا رواه ابن جرير ، عن أبى كريب ، عن زكريا بن عدى ، عن عبيد الله بن عمرو ، به (٣) .

وروى أحمد ، والترمذى ، وابن جرير — وهذا لفظه — من طريق داود بن أبى هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يصلى عند المقام ، فمر به أبو جهل بن هشام فقال : يامحمد ، ألم أنهك عن هذا ؟ — وتوعّده — فأغلظ له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وانتهره ، فقال : يامحمد ، بأى شىء تهددنى ؟ أما والله إنى لأكثر هذا الوادى ناديا ! فأنزل الله : (فليدع ناديه . سندع الزبانية) — قال ابن عباس : لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته (٤) وقال الترمذى : حسن صحيح (٥) .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا إسماعيل بن زيد أبو يزيد ، حدثنا فُرات ، عن عبد الكريم ، عن عكرمة ، عن عن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن رأيت رسول الله [يصلى] عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه . قال : فقال ،

---

(١) البخارى ، تفسير سورة (اقرأ باسم ربك ...) : ٢١٦/٦ .
(٢) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة (اقرأ باسم ربك) ، الحديث ٣٤٠٦ : ٢٧٧/٩ — ٢٧٨ . وقال الترمذى : « هذا حديث حسن غريب صحيح » .
(٣) تفسير الطبرى : ١٦٥/٣٠ .
(٤) تفسير الطبرى : ١٦٤/٣٠ .
(٥) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة (اقرأ باسم ربك) ، الحديث ٣٤٠٧ : ٢٧٨/٩ — ٢٧٩ ، ولفظ الترمذى : « هذا حديث حسن غريب صحيح » . وانظر الحديث فى مسند الإمام أحمد : ٣٢٩/١ .

« لو فعل لأخذته الملائكة عيانا، ولو أن اليهود تمنَّوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يُباهلون(١) رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا(٢) ».

وقال ابن جرير أيضاً : حدثنا ابن حميد ، حدثنا يحيى بن واضح ، أخبرنا يونس بن أبي إسحاق ، عن الوليد بن العيزار ، عن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن عاد محمد يصلي عند المقام لأقتلنه . فأنزل الله – عز وجل – : (اقرأ باسم ربك الذى خلق) ، حتى بلغ هذه الآية : (لنسفعا بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة . فليدع ناديه . سندع الزبانية) ؛ فجاء النبي – صلى الله عليه وسلم – فصلى ، فقيل : ما يمنعك ؟ قال : قد اسودّ ما بيني وبينه من الكتائب . قال ابن عباس : والله لو تحرك لأخذته الملائكة والناس ينظرون إليه (٣) .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى ، حدثنا المعتمر (٤) عن أبيه ، حدثنا نعيم بن أبي هند ، عن أبي حازم، عن أبي هُرَيرة قال : قال أبو جهل : هل يعفّر محمد وجهه بين أظهركم ؟ قالوا : نعم . قال : فقال : واللات والعزى ، لئن رأيته يصلي كذلك لأطأن على رقبته ، ولأعفّرن وجهه في التراب ، فأتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو يُصَلي ليطأ على رقبته ، قال : فما فَجِئَهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه ، قال : فقيل له : مالك؟ فقال: إن بيني وبينه خندقا من نار وهَولا وأجنحة . قال : فقال رسول الله : « لودنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضواً ». قال: وأنزل الله – لا أدرى فى حديث أبي هريرة أم لا (كلا إن الإنسان ليطغى) . . . إلى آخر السورة (٥).

وقد رواه أحمد بن حنبل ، ومسلم ، والنسائي ، وابن أبي حاتم ، من حديث معتمر بن سليمان ، به(٦) .

وقوله (كلا لا تطعه) ، يعني : يامحمد ، لا تطعه فيما ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها ، وصلّ حيث شئت ولا تباله ، فإن الله حافظك وناصرك ، وهو يعصمك من الناس ، (واسجد واقترب) ، كما ثبت فى الصحيح – عند مسلم – من طريق عبد الله بن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، عن عمارة بن غزية ، عن سُمَىّ ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء (٧) .

وتقدم أيضاً : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان يسجد فى : (إذا السماء انشقت) ، (واقرأ باسم ربك الذى خلق) .

(آخر تفسير سورة اقرأ)

---

(١) المباهلة : الملاعنة ، وهى : أن يجتمع القوم – إذا اختلفوا فى شيء – فيقولوا : لعنة الله على الظالم منا .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٢٤٨/١ .
(٣) تفسير الطبرى : ١٦٥/٣٠ .
(٤) فى تفسير الطبرى : « ابن عبد الأعلى قال : ثنا ابن ثور ، عن أبيه » . وانظر تخريج ابن كثير الحديث فيما يأتى .
(٥) تفسير الطبرى : ١٦٥/٣٠ .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٣٧٠/٢ . ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب قوله : (إن الإنسان ليطغى) : ١٣٠/٨ .
(٧) مسلم ، كتاب الصلاة ، باب «ما يقال فى الركوع والسجود» : ٤٩/٢ – ٥٠ .

تفسير سورة القدر

وهى مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

يخبر الله تعالى أنه أنزل القرآن ليلة القدر ، وهى الليلة المباركة التى قال الله عز وجل: (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) (١)، وهى ليلة القدر ، وهى من شهر رمضان ، كما قال تعالى : (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) (٢) .

قال ابن عباس وغيره : أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزّة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفصلا بحسب الوقائع فى ثلاث وعشرين سنة على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم قال تعالى مُعَظّما لشأن ليلة القدر ، التى اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها ، فقال : (وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر) .

قال أبو عيسى الترمذى عند تفسير هذه الآية : حدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا أبو داود الطيالسى ، حدثنا القاسم ابن الفضل الحُدّانى ، عن يوسف بن سعد قال : قام رجل إلى الحسن بن على بعد ما بايع معاوية فقال : سوّدتَ وجوهَ المؤمنين — أو : يامُسوّد وجوه المؤمنين — فقال : لاتُؤنّبنى — رحمك الله — فإن النبى — صلى الله عليه وسلم — أُرِىَ بنى أمية على منبره ، فساءه ذلك ، فنزلت : (إنا أعطيناك الكوثر) يامحمد ، يعنى نهرا فى الجنة ، ونزلت : (إنا أنزلناه فى ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر) ، يملكها بعدك بنو أمية يامحمد . قال القاسم(٣): فعددنا فإذا هى ألف شهر ، لا تزيد يوماً ولا تنقص يوماً .

ثم قال الترمذى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من [هذا الوجه من] حديث القاسم بن الفضل ، وهو ثقة وثقه يحيى القطان وابن مهدى . قال : وشيخه يوسف بن سعد — ويقال : يوسف بن مازن — رجل مجهول ، ولا نعرف هذا الحديث ، على هذا اللفظ إلا من هذا الوجه(٤) .

وقد روى هذا الحديث الحاكم فى مستدركه ، من طريق القاسم بن الفضل ، عن يوسف بن مازن ، به : وقول الترمذى : إن يوسف هذا مجهول — فيه نظر ؛ فإنه قد روى عنه جماعة ، منهم : حماد بن سلمة ، وخالد الحذاء ،

---

(١) سورة الدخان ، آية : ٣

(٢) سورة البقرة ، آية : ١٨٥ .

(٣) هو ابن الفضل الحدانى المذكور فى الإسناد .

(٤) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة ليلة القدر ، الحديث ٣٤٠٨ : ٩/ ٢٨٠ — ٢٨٢ .

ويونس بن عبيد ، وقال فيه يحيى بن معين : هو مشهور ، وفى رواية عن ابن معين : هو ثقة . ورواه ابن جرير من طريق القاسم بن الفضل ، عن عيسى (١) بن مازن ، كذا قال ، وهذا يقتضى اضطراباً فى هذا الحديث ، والله أعلم ، ثم هذا الحديث على كل تقدير منكر جداً ، قال شيخنا الإمام الحافظ [الحجة] أبو الحجاج المزّى : هو حديث منكر .

قلت : وقول القاسم بن الفضل الحُدّانى : إنه حسب مُدّة بنى أمية فوجدها ألف شهر لا تزيد يوماً ولا تنقص ، ليس بصحيح ؛ فإنّ معاويةَ بن أبى سفيان — رضى الله عنه — استقل بالملك حين سلّم إليه الحسن بن على الإمرة سنةَ أربعين ، واجتمعت البيعة لمعاوية ، وسمى ذلك عام الجماعة ، ثم استمروا فيها متتابعين بالشام وغيرها ، لم تخرج عنهم إلا مدة دولة عبد الله بن الزبير فى الحرمين والأهواز وبعض البلاد قريباً من تسع سنين ، لكن لم تزُل يدهم عن الإمرة بالكلية ، بل عن بعض البلاد ، إلى أن استلبهم بنو العباس الخلافة فى سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، فيكون مجموع مدتهم اثنتين وتسعين سنة ، وذلك أزيد من ألف شهر ، فإن الألف شهر عبارة عن ثلاث وثمانين سنة وأربعة أشهر ، وكأن القاسم ابن الفضل أسقط من مدتهم أيام ابن الزبير ، وعلى هذا فتقارب ما قاله للصحة فى الحساب ، والله أعلم .

ومما يدلّ على ضَعف هذا الحديث أنّه سيقَ لذم دولة بنى أمية ، ولو أريد ذلك لم يكن بهذا السياق ؛ فإن تفضيل ليلة القدر على أيامهم لا يدل على ذَم أيامهم ، فإنّ ليلةَ القَدْر شريفة جداً ، والسورة الكريمة إنما جاءت لمدح ليلة القدر ، فكيف تُمدح بتفضيلها على أيام بنى أمية التى هى مذمومة ، بمقتضى هذا الحديث ، وهل هذا إلا كما قال القائل :

أَلَمْ تَرَ أَنّ السَّيفَ يَنقُصُ قَدْرُه إذا قِيلَ : إنّ السيفَ أَمْضَى مِن العَصَا

وقال آخر :

إذا أنتَ فَضّلْتَ امرأً ذا بَرَاعَةٍ عَلَى نَاقِصٍ ، كَانَ المديحُ مِنَ التَّنَقُّصِ

ثم الذى يفهم من ولاية الألف الشهر المذكورة فى الآية هى أيام بنى أمية ، والسورة مكية ، فكيف يحال على ألف شهر هى دولة بنى أمية ، ولا يدل عليها لفظ الآية ولا معناها ؟! والمنبر إنما صنع بالمدينة بعد مدة من الهجرة ، فهذا كله مما يدل على ضعف هذا الحديث ونكارته ، والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا : أبو زُرعَةَ ، حدثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا مسلم — يعنى ابن خالد — عن ابن أبى نَجيح ، عن مجاهد : أن النبى — صلى الله عليه وسلم — ذكر رجلا من بنى إسرائيل لَبِس السلاح فى سبيل الله ألف شهر ، قال : فَعَجِبَ المسلمون من ذلك ، قال : فأنزل الله عز وجل : (إنا أنزلناه فى ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خير من ألف شهر) التى لبس ذلك الرجل السلاح فى سبيل الله ألف شهر .

---

(١) تفسير الطبرى : ٣٠/١٦٧ . هذا وفى الطبعات السابقة من تفسير ابن كثير : «عن يوسف بن مازن» . وهو خطأ لا شك فيه ، ففى تفسير الطبرى : «عن عيسى بن مازن» ، ومثله فى مخطوطة الأزهر . وقد نبه الحافظ أبو العلى صاحب تحفة الأحوذى : ٦/٢٨٣ ، على ما وقعت فيه الطبعات السابقة من الخطأ ، وصوبه كما فى المخطوطة . وقد ذكرنا ذلك — وإن كان ليس من منهجنا الإشارة إلى خطأ الطبعات السابقة ، فهو أمر يطول — ذكرناه ليعلم صواب ما ذكره الحافظ أبو العلى ، وبالله التوفيق .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد ، حدثنا حكام بن سَلْم عن المثنى بن الصباح ، عن مجاهد قال : كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح ، ثم يجاهد العدو بالنهار حتى يمسي ، ففعل ذلك ألف شهر ، فأنزل الله هذه الآية : (ليلة القدر خير من ألف شهر)(١) قيام تلك الليلة خير من عمل ذلك الرجل (٢) .

وقال ابن أبي حاتم : أخبرنا يونس ، أخبرنا ابن وهب ، حدثني مسلمة بن عُلَيّ ، عن علي بن عروة قال : ذكر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوما أربعة من بني إسرائيل ، عبدوا الله ثمانين عاماً ، لم يعصوه طرفة عين : فذكر أيوب ، وزكريا ، وحِزْقيلَ بنَ العجوز (٣) ، ويوشع بن نون ـ قال : فعجب أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ذلك ، فأتاه جبريل فقال : يا محمد ، عَجِبَتْ أمتك من عبادة هؤلاء النفر ثمانين سنة ، لم يعصوه طرفة عين : فقد أنزل الله خيراً من ذلك : فقرأ عليه : (إنا أنزلناه في ليلة القدر ، وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر) ، هذا أفضل مما عَجِبْتَ أنت وأمتك . قال : فَسُرَّ بذلك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والناس معه .

وقال سفيان الثوري : بلغني عن مجاهد : ليلةُ القدر خير من ألف شهر . قال : عَمَلُها ، صيامها وقيامها خير من ألف شهر . رواه ابن جرير (٤) .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا ابن أبي زائدة ، عن ابن جُرَيج ، عن مجاهد : ليلة القدر خير من ألف شهر ، ليس في تلك الشهور ليلة القدر . وهكذا قال قتادة بن دعامة ، والشافعي ، وغير واحد .

وقال عمرو بن قيس الملائي : عمل فيها خير من عمل ألف شهر (٤) .

وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر ـ وليس فيها ليلة القدر ـ هو اختيارُ ابن جرير . وهو الصواب لا ما عداه ، وهو كقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « رباط ليلة في سبيل الله خير من ألف ليلة فيما سواه من المنازل » . رواه أحمد(٥) . وكما جاء في قاصد الجمعة بهيئة حسنة ، ونية صالحة : أنه يُكْتَبُ له عمل سنة ، أجر صيامها(٦) وقيامها ، إلى غير ذلك من المعاني المشابهة لذلك .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنا أيوب ، عن أبي قِلابة ، عن أبي هُريرة قال : لما حضر رمضان قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « قد جاءكم شهر رمضان ، شهر مبارك ، افترض الله عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب الجنة ، وتغلق فيه أبواب الجحيم ، وتغل فيه الشياطين ، فيه ليلة خير من ألف شهر ، من حُرِم خيرَها فقد حُرِم (٧) .

---

(١) تحفة الأحوذي ، تفسير سورة « ليلة القدر » ، الحديث : ٣٤٠٨ : ٩/٢٨٠ ـ ٢٨٢ .
(٢) تفسير الطبري : ٣٠/١٦٧ .
(٣) في المعارف لابن قتيبة ٥١ : « حزقيل بن بوذي » .
(٤) تفسير الطبري : ٣٠/١٦٧ .
(٥) مسند الإمام أحمد عن عثمان رضي الله عنه : ١/٦٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٥ .
(٦) تقدم الحديث في سورة الجمعة وخرجناه هنا لك ، انظر : ٨/١٤٧ .
(٧) مسند الإمام أحمد : ٢/٢٣٠ . وانظر أيضاً : ٢/٣٨٥ ، ٤٢٥ .

ورواه النسائى ، من حديث أيوب ، به (١) .

ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر ، ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه » (٢) .

وقوله : (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) ، أى : يكثر تَنَزُّلُ الملائكة فى هذه الليلة لكثرة بركتها ، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة ، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ويحيطون بحلق الذكر ، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيما له .

وأما الروح فقيل : المراد به هاهنا جبريل عليه السلام ، فيكون من باب عطف الخاص على العام ؛ وقيل : هم ضرب من الملائكة . كما تقدم فى سورة النبأ . والله أعلم .

وقوله : (من كل أمر) قال مجاهد : سلام هى من كل أمر .

وقال سعيد بن منصور : حدثنا عيسى بن يونس ، حدثنا الأعمش ، عن مجاهد فى قوله : (سلام هى) ، قال : هى سالمة ، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءا أو يعمل فيها أذى .

وقال قتادة وغيره : تقضى فيها الأمور ، وتقدر الآجال والارزاق ، كما قال تعالى : (فيها يفرق كل أمر حكيم) (٣) .

وقوله : (سلام هى حتى مطلع الفجر) — قال سعيد بن منصور : حدثنا هشيم ، عن أبى إسحاق ، عن الشعبى فى قوله تعالى : (من كل أمر . سلام هى حتى مطلع الفجر) قال : تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد ، حتى يطلع الفجر .

وروى ابن جرير عن ابن عباس أنه كان يقرأ : (من كل امرىء . سلام هى حتى مطلع الفجر) (٤) .

وروى البيهقى فى كتابه « فضائل الأوقات » عن على أثراً غريباً فى نزول الملائكة ، ومرورهم على المصلين ليلة القدر ، وحصول البركة للمصلين .

وروى ابن أبى حاتم عن كعب الأحبار أثراً غريباً عجيباً مطولا جداً ، فى تنزل الملائكة من سدرة المنتهى صحبة جبريل عليه السلام إلى الأرض ، ودعائهم للمؤمنين والمؤمنات .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا عمران — يعنى القطان — عن قتادة ، عن أبى ميمونة ، عن أبى هُريرة : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال فى ليلة القدر : « إنها ليلة سابعة — أو : تاسعة — وعشرين ، وإن الملائكة تلك الليلة فى الأرض أكثر من عدد الحصى (٥) » .

---

(١) النسائى ، كتاب الصيام : ٤/١٢٩ .

(٢) البخارى ، كتاب الإيمان ، باب « قيام ليلة القدر من الإيمان » : ١/١٥ . وكتاب الصوم ، باب « من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونية » : ٣/٢٣ . ومسلم ، كتاب الصلاة ، باب « الترغيب فى قيام رمضان » : ٢/١٧٧ .

(٣) سورة الدخان ، آية : ٤ .

(٤) تفسير الطبرى : ٣٠/١٦٨ .

(٥) منحة المعبود ١/٢٠٠

وقال الأعمش ، عن المنهال ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى فى قوله : (من كل امرء سلام) قال : لا يحدث فيها أمر .

وقال قتادة وابن زيد فى قوله : (سلام هى) ، يعنى : هى خير كلها ، ليس فيها شر إلى مطلع الفجر . ويؤيد هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد :

حدثنا حيوة بن شريح ، حدثنا بقية ، حدثنى بَحِير بن سعد ، عن خالد بن معدان ، عن عبادة بن الصامت : أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « ليلة القدر فى العشر البواقى ، من قامهن ابتغاء حسبتهن فان الله يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهى ليلة وتر : تسع ، أو سبع ، أوخامسة ، أوثالثة ، أو آخر ليلة . وقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « أن أمارة ليلة القدر أنها صافية بَلْجَة (١)، كأن فيها قمراً ساطعاً ، ساكنة ساجية ، لا برد فيها ولا حر ، ولا يحل لكوكب يُرمَى به [فيها] حتى تصبح . وأن أمارتها أن الشمس صبيحتها تخرج مستوية ، ليس لها شعاع مثل القمر ليلة البدر ، ولا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذ (٢) » .

وهذا إسناد حسن ، وفى المتن غرابة ، وفى بعض ألفاظه نكارة .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا زمعة ، عن سلمة بن وهرام ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال فى ليلة القدر : « ليلة سمحة طلقة ، لا حارة ولا باردة ، وتصبح شمس صبيحتها ضعيفة حمراء (٣) » .

وروى ابن أبى عاصم النبيل باسناده عن جابر بن عبد الله ، أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « إنى رأيت ليلة القدر فأنسيتها ، وهى فى العشر الأواخر من لياليها [ليلة] طلقة بلجة ، لا حارة ولا باردة ، كأن فيها قمراً ، لا يخرج شيطانها حتى يضىء فجرها » .

فصل

اختلف العلماء : هل كانت ليلة القدر فى الأمم السالفة ، أو هى من خصائص هذه الأمة ؟ على قولين :

قال أبو مصعب أحمد بن أبى بكر الزهرى : حدثنا مالك : أنه بلغه : أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أُرى أعمار الناس قبله ــ أو : ما شاء الله من ذلك ــ فكأنه تقاصر أعمار أمته أن لا يبلغوا من العمل الذى بلغ غيرهم فى طول العمر فأعطاه الله ليلة القدر ، خيراً من ألف شهر . وقد أسند من وجه آخر . وهذا الذى قاله مالك يقتضى تخصيص هذه الأمة بليلة القدر ، وقد نقله صاحب « العُدّة » أحد أئمة الشافعية عن جمهور العلماء ، فالله اعلم . وحكى الخطابى عليه الإجماع والذى دل عليه الحديث أنها كانت فى الأمم الماضين كما هى فى أمتنا .

قال أحمد بن حنبل : حدثنا يحيى بن سعيد ، عن عكرمة بن عمار : حدثنى أبو زُمَيل سماك الحنفى : حدثنى مالك بن مرثد بن عبد الله ، حدثنى مرثد قال : سألت أبا ذر قلت : كيف سألت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن ليلة القدر ؟ قال : أنا كنت أسأل الناس عنها ، قلت : يارسول الله ، أخبرنى عن ليلة القدر ، أفى رمضان هى أو

---

(١) أى : مشرقة .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣٢٤/٥ .

(٣) فى منحة المعبود . « صفيقة » بدل « ضعيفة » أنظر : ٢٠١/١ .

فى غيره ؟ قال : « بل هى فى رمضان » . قلت : تكون مع الأنبياء ما كانوا ، فاذا قبضوا رفعت ؟ أم هى إلى يوم القيامة ؟ قال ؟ : « بل هى إلى يوم القيامة » . قلت : . فى أى رمضان هى ؟ قال : « التمسوها فى العشر الأول ، والعشر الأواخر » . ثم حدّثَ رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — وحدّث ، ثم اهتبلت غفلته قلت : فى أى العشرينَ هيَ ؟ قال : « ابتغوها فى العشر الأواخر ، لا تسألنى عن شىء بعدها » . ثم حدّث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثم اهتبلت غفلته فقلت : يارسول الله ، أقسمت عليك بحقى عليك لـمَا أخبرتنى فى أى العشر هى ؟ فغضب على غضباً لم يغضب مثله منذ صحبته ، وقال : « التمسوها فى السبع الأواخر ، لا تسألنى عن شىء بعدها (١) .

ورواه النسائىُّ عن الفلاس ، عن يحيى بن سعيد القطان ، به .

ففيه دلالة على ما ذكرناه ، وفيه أنها تكون باقية إلى يوم القيامة فى كل سنة لا كما زعمه بعض طوائف الشيعة من رفعها بالكلية ، على ما فهموه من الحديث الذى سنورده بعدُ من قوله عليه السلام : « فرفعت ، وعسى أن يكون خيرا لكم» لأن المراد رفعُ علـْم وقتها عيناً . وفيه دلالة على أن ليلة القدر يختص وقوعها بشهر رمضان من بين سائر الشهور ، لا كما رُوِىَ عن ابن مسعود ومن تابعه من علماء أهل الكوفة ، من أنها توجد فى جميع السنة ، وترتجى فى جميع الشهور على السواء .

وقد ترجم أبو داود فى سننه على هذا فقال : « باب بيان أن ليلة القدر فى كل رمضان » : حدثنا حُمَيْد بن زَنْجُويَه النسائىُّ ، أخبرنا سعيد بن أبى مريم ، حدثنا محمد بن جعفر بن أبى كثير ، حدثنى موسى بن عقبة ، عن أبى إسحاق ، عن سعيد بن جبير ، عن عبد الله بن عمر قال : سُئل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأنا أسمع عن ليلة القدر ، فقال : هى فى كل رمضان(٢) .

وهذا إسناد رجاله ثقات إلا أن أبا داود قال : « رواه شعبة وسفيان عن أبى إسحاق فأوقفاه (٢) » .

وقد حكى عن أبى حنيفة — رحمه الله — رواية أنها ترجى فى جميع شهر رمضان . وهو وجه الغزالى ، واستغربه الرافعى جداً .

فصل

ثم قد قيل : إنها تكون فى أول ليلة من شهر رمضان ، يحكى هذا عن أبى رَزِين . وقيل : إنها تقع ليلة سبع عشرة . وروى فيه أبو داود حديثاً مرفوعاً عن ابن مسعود (٣) . وروى موقوفاً عليه ، وعلى زيد بن أرقم ، وعثمان بن أبى العاص .

وهو قول عن محمد بن إدريس الشافعى ، ويحكى عن الحسن البصرى . ووجهوه بأنها ليلة بدر ، وكانت ليلة جمعة هى السابعةَ عشرةَ من شهر رمضان ، وفى صبيحتها كانت وقعةُ بدر ، وهو اليوم الذى قال الله تعالى فيه : (يوم الفرقان) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/١٧١ .

(٢) سنن أبى داود ، تفريع أبواب شهر رمضان ، باب « من قال : هى فى كل رمضان » .

(٣) سنن أبى داود ، تفريع أبواب شهر رمضان ، باب « من روى أنها ليلة سبع عشرة » .

وقيل : ليلة تسع عشرة ، يحكى عن على وابن مسعود أيضاً ، رضى الله عنهما .

وقيل : ليلة احدى وعشرين ، لحديث أبى سعيد الخدرى قال : اعتكف رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ العشر الأول من رمضان واعتكفنا معه ، فاتاه جبريل فقال إن الذى تطلب أمامك . فاعتكف العشر الأوسط واعتكفنا معه ، فأتاه جبريل فقال : الذى تطلب أمامك ثم قام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطيباً صبيحة عشرين من رمضان ، فقال : «من كان اعتكف معى فليرجع ، فانى رأيت ليلة القدر ، وإنى أنسيتها ، وإنها فى العشر الأواخر فى وتر ، وإنى رأيت كأنى أسجد فى طين وماء » . وكان سقف المسجد جريداً من النخل ، وما نَرى فى السماء شيئاً ، فجاءت قَزَعَةٌ (١) فَمُطرنا ، فصلى بنا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى رأيت أثر الطين والماء على جبهة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تصديق رؤياه(٢) . وفى لفظ « فى صبح إحدى وعشرين » أخرجاه فى الصحيحين .

قال الشافعى : وهذا الحديث أصح الروايات .

وقيل : ليلة ثلاث وعشرين ، لحديث عبد الله بن أنيس فى « صحيح مسلم » وهو قريب السياق من رواية أبى سعيد(٣) فالله أعلم .

وقيل : ليلة أربع وعشرين ، قال أبو داود الطيالسى : حدثنا حماد بن سلمة ، عن الجُرَيرى ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « ليلة القدر ليلة أربع وعشرين »(٤) . إسناده رجاله ثقات .

وقال أحمد : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا ابن لهيعة ، عن يزيد بن أبى حَبيب ، عن أبى الخير ، عن الصنابحى ، عن بلال قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « ليلة القدر ليلة أربع وعشرين »(٥) .

ابن لهيعة ضعيف . وقد خالفه ما رواه البخارى عن أصبغ ، عن ابن وهب ، عن عمرو بن الحارث ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن أبى الخير ، عن أبى عبد الله الصنابحى قال : قال : أخبرنى بلال مؤذنُ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم أنها أول السبع من العشر الأواخر . فهذا الموقوف أصح ، والله أعلم . وهكذا رُوىَ عن ابن مسعود ، وابن عباس ، وجابر والحسن ، وقتادة ، وعبد الله بن وهب : أنها ليلة أربع وعشرين . وقد تقدم فى « سورة البقرة(٦) » حديث واثلة ابن الأسقع مرفوعاً : « إن القرآن أنزل ليلة أربع وعشرين » .

---

(١) القزعة ـ بفتحات ـ : قطعة من الغيم .
(٢) البخارى ، كتاب الصلاة ، باب « السجود على الأنف والسجود على الطين » : ٢٠٦/١ ـ ٢٠٧ . وانظر مسلم ، كتاب الصوم ، باب « فضل ليلة القدر والحث على طلبها ، وبيان محلها ، وأرجى أوقات طلبها » : ١٧١/٣ .
(٣) مسلم فى الكتاب والباب المتقدمين : ١٧٣/١ .
(٤) منحة المعبود ٢٠١/١
(٥) مسند الإمام أحمد : ١٢/٦ .
(٦) انظر : ٣٠٩/١ .

وقيل : تكون ليلة خمس وعشرين ، لما رواه البخارى ، عن عبد الله بن عباس : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « التمسوها فى العشر الأواخر من رمضان ، فى تاسعة تبقى ، فى سابعة تبقى ، فى خامسة تبقى(١) فسّره كثيرون بليالى الأوتار ، وهو أظهر وأشهر . وحمله آخرون على الإشفاع كما رواه مسلم(٢) ، عن أبى سعيد ، أنه حمله على ذلك ، والله أعلم .

وقيل : إنها تكون ليلة سبع وعشرين لما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنها ليلة سبع وعشرين(٣) .

قال الإمام أحمد : حدثنا سفيان : سمعت عبدة وعاصماً ، عن زِرّ : سألت أبىّ بن كعب قلت : أبا المنذر ، إن أخاك ابن مسعود يقول : من يَقُم الحَوْلَ يُصبْ ليلةَ القدر . قال : يرحمه الله ، لقد علم أنها فى شهر رمضان ، وأنها ليلة سبع وعشرين . ثم حلف . قلت : وكيف تعلمون ذلك ؟ قال : بالعلامة — أو : بالآية — التى أخبرنا بها ، تطلع ذلك اليوم لا شعاع لها ، أعنى الشمس(٤) .

وقد رواه مسلم من طريق سفيان بن عيينة وشعبة والأوزاعى ، عن عبدة ، عن زِرّ ، عن أبى : » : فذكره ، وفيه فقال : « والله الذى لا إله إلا هو ، إنها لفى رمضان — يحلف ما يستثنى — والله إنى لأعلم أىّ ليلة القدر هى التى أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقيامها ، هى ليلة سبع وعشرين ، وأمارتها أن تطلع الشمس فى صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها .

وفى الباب عن معاوية ، وابن عمر ، وابن عباس ، وغيرهم ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنها ليلة سبع وعشرين . وهو قول طائفة من السلف ، وهو الجادّة من مذهب أحمد بن حنبل — رحمه الله — وهو رواية عن أبى حنيفة أيضاً . وقد حُكِىَ عن بعض السلف أنه حاول استخراج كونها ليلة سبع وعشرين من القرآن ، من قوله : (هى) لأنها الكلمة السابعة والعشرون من السورة ، والله أعلم .

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا إسحاق بن إبراهيم الدَّبَري ، أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر ، عن قتادة وعاصم : أنهما سمعا عكرمة يقول : قال ابن عباس : دعا عمر بن الخطاب أصحاب محمد — صلى الله عليه وسلم — فسألهم عن ليلة القدر ، فأجمعوا على أنها فى العشر الأواخر . قال ابن عباس : فقلت لعمر : إنى لأعلم — أو : إنى لأظن — أىّ ليلة القدر هى ؟ فقال عمر : أى ليلة هى : سابعة تمضى — أو : سابعة تبقى — من العشر الأواخر . فقال عمر : ومن أين علمت ذلك ؟ قال ابن عباس فقلت : خلق الله سبع سموات ، وسبع أرضين ، وسبعة أيام ، وإن الشهر يدور على سبع ، وخلق الإنسان من سبع ، ويأكل من سبع ، ويسجد على سبع ، والطواف بالبيت سبع ، ورمى الجمار سبع ... ، لأشياء ذكرها . فقال عمر : لقد فطنت لأمر ما فطنا له . وكان قتادة يَزيدُ عن ابن عباس فى قوله : ويأكل من سبع ، قال : هو قول الله تعالى : (فأنبتنا فيها حباً وعنباً) .... الآية .

---

(١) البخارى ، كتاب الصيام ، باب « تحرى ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر فيه عبادة » : ٦١/٣ .

(٢) مسلم ، كتاب الصوم ، باب « فضل ليلة القدر والحث على طلبها ... » : ١٧٢/٣ — ١٧٣ .

(٣) مسلم : فى الكتاب والباب المتقدمين : ١٧٤/٣ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ١٣٠/٥ .

وهذا إسناد جيد قوى ، ونص غريب جداً ، والله أعلم .

وقيل : إنها تكون فى ليلة تسع وعشرين : قال أحمد بن حنبل :

حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم ، حدثنا سعيد بن سلمة، حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن عُمرَ بن عبد الرحمن ، عن عبادة بن الصامت : أنه سأل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن ليلة القدر ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « فى رمضان ، فالتمسوها فى العشر الأواخر ، فانها فى وتْر إحدى وعشرين ، أو ثلاث وعشرين ، أو خمس وعشرين ، أو سبع وعشرين ، أو فى آخر ليلة (١) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود — وهو : أبو داود الطيالسى — حدثنا عمران القطان ، عن قتادة ، عن أبى ميمونة ، عن أبى هريرة : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال فى ليلة القدر : « إنها ليلةُ سابعة أو تاسعة وعشرين وإن الملائكة تلك الليلة فى الأرض أكثر من عدد الحصى (٢) » .

تفرد به أحمد ، وإسناده لا بأس به :

وقيل : إنها تكون فى آخر ليلة،لما تقدم من هذا الحديث آنفاً ، ولما رواه الترمذى والنسائى ، من حديث عُيَيْنة بن عبد الرحمن ، عن أبيه،عن أبى بكرة أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال: « فى تسع يبقين، أو سبع يبقين ، أو خمس يبقين، أو ثلاث ، أو آخر ليلة . يعنى : التمسوا ليلة القدر (٣) » :

وقال الترمذى : حسن صحيح . وفى المسند من طريق أبى سلمة عن أبى هريرة ، عن النبى — صلى الله عليه وسلم — فى ليلة القدر : « إنها آخر ليلة » :

فصل

قال الشافعى فى هذه الروايات: صدرت من النبى — صلى الله عليه وسلم — جواباً للسائل إذا قيل له أنلتمس ليلة القدر فى الليلة الفلانية ؟ يقول : « نعم » . وإنما ليلة القدر ليلة مُعَيَّنة : لا تنتقل. نقله الترمذى (٣) عنه بمعناه . ورُوى عن أبى قلابة أنه قال : [ليلة القدر] تنتقل فى العشر الأواخر (٤) :

وهذا الذى حكاه عن أبى قلابة نص عليه مالك ، والثورى ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، وأبو ثور والمزنى ، وأبو بكر بن خُزَيمة ، وغيرهم . وهو محكى عن الشافعى — نقله القاضى عنه ، وهو الأشبه — والله أعلم .

وقد يستأنس لهذا القول بما ثبت فى الصحيحين ، عن عبد الله بن عُمر : أن رجالا من أصحاب النبى — صلى الله عليه وسلم — أرَوا ليلة القدر فى المنام فى السبع الأواخر من رمضان ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « أرى رؤيا كم قد تواطأت فى السبع الأواخر ، فمن كان متَحريها فلْيتَحرها فى السبع الأواخر (٥) » .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/ ٣٢٠ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٢/ ٥١٩ .
(٣) تحفة الأحوذى ، أبواب الصوم ، باب « ماجاء فى ليلة القدر » ، الحديث ٧٩١ : ٣/ ٥٠٧ — ٥٠٨ .
(٤) تحفة الأحوذى فى الباب المتقدم ، الحديث ٧٨٩ : ٣/ ٥٠٦ .
(٥) البخارى ، كتاب الصوم ، باب « التماس ليلة القدر — فى السبع الأواخر » : ٣/ ٥٩ — ٦٠ . ومسلم ، كتاب الصوم ، باب « فضل ليلة القدر ... » : ٣/ ١٧٠ .

وفيهما أيضاً عن عائشة -رضى الله عنها- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «تحروا ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر من رمضان (١)» . ولفظه للبخارى .

ويحتج للشافعى أنها لا تنتقل ، وأنها معينة من الشهر ، بما رواه البخارى فى صحيحه ، عن عبادة بن الصامت قال: خرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليخبرنا بليلة القدر ، فتلاحى رجلان من المسلمين ، فقال: «خرجت لأخبركم بليلة القدر ، فتلاحى فلان وفلان ، فرفعت ، وعسى أن يكون خيراً لكم ، فالتمسوها فى التاسعة والسابعة والخامسة (٢)» .

وجه الدلالة منه : أنها لو لم تكن معينة مستمرة التعيين ، لما حصل لهم العلم بعينها فى كل سنة ، إذا لو كانت تنتقل لما علموا تعينها إلا ذلك العام فقط ، اللهم إلا أن يقال : إنه إنما خرج ليعلمهم بها تلك السنة فقط .

وقوله : «فتلاحى فلان وفلان فرفعت» : فيه استئناس لما يقال: إن المماراة تقطع الفائدة والعلم النافع ، وكما جاء فى الحديث : «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه (٣)» .

وقوله : «فرفعت» أى : رفع علم تعيينها لكم ، لا أنها رفعت بالكلية من الوجود ، كما يقوله جهلة الشيعة ، لأنه قد قال بعد هذا : «فالتمسوها فى التاسعة والسابعة والخامسة» .

وقوله : «وعسى أن يكون خيراً لكم» ، يعنى عدم تعينها لكم ، فإنها إذا كانت مبهمة اجتهد طلابها فى ابتغائها فى جميع محال رجائها ، فكان أكثر للعبادة ، بخلاف ما إذا علموا عينها فانها كانت الهمم تتقاصر على قيامها فقط . وإنما اقتضت الحكمة إبهامها لتعم العبادة جميعَ الشهر فى ابتغائها ، ويكون الاجتهاد فى العشر الأواخر أكثر . ولهذا كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعتكف العشر الأواخر من رمضان ، حتى توفاه الله عز وجل . ثم اعتكف أزواجه من بعده . أخرجاه (٤) من حديث عائشة .

ولهما عن ابن عمر : كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعتكف العشر الأواخر من رمضان(٤) .

وقالت عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم -إذا دخل العشر ، أحيا الليل ، وأيقظ أهله ، وشد المئزر» أخرجاه (٥) .

ولمسلم عنها : كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يجتهد فى العشر مالا يجتهد فى غيره (٦) .

وهذا معنى قولها «وشد المئزر» . وقيل : المراد بذلك : اعتزالَ النساء . ويحتمل أن يكون كناية عن الأمرين ، لما رواه الإمام أحمد :

---

(١) البخارى ومسلم ، فى الكتاب والباب المتقدمين . انظر البخارى : ٦٠/٣ . ومسلم : ١٧٣/٣ .

(٢) البخارى ، كتاب الصوم ، باب «تحرى ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر» : ٦١/٣ .

(٣) ابن ماجه ، المقدمة ، باب «فى القدر» ، الحديث ٩٠ : ٣٥/١ . وكتاب الفتن ، باب «العقوبات» ، الحديث ٤٠٢٢ : ١٣٣٤/٢ .

(٤) البخارى ، كتاب الصيام ، باب «الاعتكاف فى العشر الأواخر» : ٦٢/٣ . ومسلم ، كتاب الاعتكاف ، باب «اعتكاف العشر الأواخر من رمضان» : ١٧٥/٣ .

(٥) البخارى ، كتاب الصيام ، باب «العمل فى العشر الأواخر» : ٦١/٣ . ومسلم ، كتاب الاعتكاف ، «الاجتهاد فى العشر الأواخر من شهر رمضان» : ١٧٥/٣ - ١٧٦ .

(٦) مسلم فى الكتاب والباب المتقدمين : ١٧٦/٣ .

حدثنا سُريج ، حدثنا أبو معشر ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : كان رسول — الله صلى الله عليه وسلم — إذا بقى عشر من رمضان شدّ مئزره ، واعتزل نساءه . انفرد به أحمد (١) .

وقد حكى عن مالك — رحمه الله — أن جميع ليالي العشر [فى] تطلب ليلة القدر على السواء ، لا يترجح منها ليلة على أخرى ؛ رأيته فى شرح الرافعى رحمه الله .

والمستحب الإكثار من الدعاء فى جميع الأوقات ، وفى شهر رمضان أكثر ، وفى العشر الأخير منه ، ثم فى أوتاره أكثر : والمستحب أن يكثر من هذا الدعاء : « اللهم ، إنك عفُو تحب العفو ، فاعف عنى » ، لما رواه الإمام أحمد :

حدثنا يزيد — هو ابن هارون — حدثنا الجريرى — وهو : سعيد بن إياس — عن عبد الله بن بريدة : أن عائشة قالت : يارسول الله ، إن وافقت ليلة القدر فما أدعو ؟ قال : « قولى : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى (٢) » .

وقد رواه الترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، من طريق كهمس بن الحسن عن عبد الله بن بريدة ، عن عائشة قالت: قلت : يارسول الله ، أرأيت إن علمتُ أىّ ليلة القدر ، ما أقول فيها ؟ قال ؟ « قولى : اللهم ، إنك عفُو تحب العفو ، فاعف عنى » .

وهذا لفظ الترمذى ، ثم قال « هذا حديث حسن صحيح (٣) . وأخرجه الحاكم فى مستدركه ، وقال : « هذا صحيح على شرط الشيخين » . ورواه النسائى أيضاً من طريق سفيان الثورى ، عن علقمة بن مرثد ، عن سليمان بن بُريدة عن عائشة قالت : يارسول الله ، أرأيتَ إن وافقتُ ليلةَ القدر ، ما أقول فيها ؟ قال « قولى اللهم ، إنك عفُو تحب العفو ، فاعف عنى » :

ذكر أثر غريب ونبأ عجيب ، يتعلق بليلة القدر ، رواه الإمام أبو محمد بن أبى حاتم ، عند تفسير هذه السورة الكريمة فقال :

حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن أبى زياد(٤) القَطَوانى ، حدثنا سيار بن حاتم ، حدثنا موسى بن سعيد — يعنى الراسبى — عن هلال أبى جبلة(٥) ، عن أبى عبد السلام ، عن أبيه ، عن كعب أنه قال : إن سدرة المنتهى على حد السماء السابعة(٦) ، مما يلى الجنة ، فهى على حدّ هواء الدنيا وهواء الآخرة ، [علوُها] فى الجنة ، وعروقها وأغصانها من تحت الكرسى ، فيها ملائكة لا يعلم عدّتهم إلا الله عز وجل ، يعبدون الله — عز وجل — على أغصانها فى كل موضع شعرة منها ملَك . ومقامُ جبريل — عليه السلام — فى وسطها ، فينادى الله جبريل أن ينزل فى كل ليلة قدْر مع الملائكة الذين يسكنون سدرة المنتهى ، وليس فيهم ملك إلا قد أعطِىَ الرأفة والرحمة للمؤمنين ، فينزلون(٧) على جبريل فى ليلة القدر ،

(١) مسند الإمام أحمد : ٦/٦٦ — ٦٧ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٦/١٨٢ .

(٣) تحفة الأحوذى ، أبواب الدعوات ، الحديث ٣٥٨٠ : ٩/٤٩٥ . وابن ماجه ، كتاب الدعاء ، باب الدعاء بالعفو العافية » ، الحديث ٣٨٥٠ : ٢/١٢٦٥ .

(٤) هو عبد الله بن الحكم القطوانى . مترجم فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢/٢/٣٨ .

(٥) فى المخطوطة : « هلال بن أبى جبلة » . والمثبت عن الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٤/٢/٧٦ .

(٦) فى المخطوطة : « السماء الرابعة » . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٧) فى المخطوطة : « فيقولون على جبريل » . والمثبت عن الطبعات السابقة أيضاً .

حين تغرب الشمس ، فلا تبقى بقعة فى ليلة القدر إلا وعليها ملك ، إما ساجد وإما قائم ، يدعو للمؤمنين والمؤمنات ، إلا أن تكون كنيسة أو بيعة ، أو بيت نار أو وثن ، أو بعض أماكنكم التى تطرحون فيها الخبث ، أو بيت فيه سكران ،أو بيت فيه مسكر ، أو بيت فيه وثن منصوب ، أو بيت فيه جرس مُعلّق ، أو مبولة ، أو مكان فيه كساحة البيت . فلا يزالون ليلتهم تلك يدعون للمؤمنين والمؤمنات ، وجبريل لا يدع أحداً من المؤمنين إلا صافحه ، وعلامة ذلك مَن اقشعر جلده ورق قلبه ودمعت عيناه ، فان ذلك من مصافحة جبريل .

وذكر كعب أن من قال فى ليلة القدر : « لا إله إلا الله » ، ثلاث مرات ، غفر الله له بواحدة ، ونجاه من النار بواحدة ، وأدخله الجنة بواحدة . فقلنا لكعب الأحبار : يا أبا إسحاق ، صادقاً ؟ فقال كعب : وهل يقول « لا إله إلا الله » فى ليلة القدر إلا كل صادق ؟ ؟ والذى نفسى بيده ، إن ليلة القدر لتثقل على الكافر والمنافق، حتى كأنها على ظهره جبل ، فلا تزال الملائكة هكذا حتى يطلع الفجر . فأول من يصعد جبريل حتى يكون فى وجه الأفق الأعلى من الشمس ، فيبسط جناحيه — وله جناحان أخضران ، لا ينشرهما إلا فى تلك الساعة — فتصير الشمس لا شعاع لها ، ثم يدعو ملكاً فيصعد ، فيجتمع نور الملائكة ونور جناحى جبريل ، فلا تزال الشمس يومها ذلك متحيرة ، فيقيم جبريل ومن معه بين الأرض وبين السماء الدنيا يومهم ذلك ، فى دعاء ورحمة واستغفار للمؤمنين والمؤمنات ، ولمن صام رمضان احتساباً ، ودعا لمن حدث نفسه إن عاش إلى قابل صام رمضان لله . فاذا أمسوا دخلوا السماء الدنيا ، فيجلسون حلقاً ، فتجتمع إليهم ملائكة سماء الدنيا ، فيسألونهم عن رجل رجل، وعن امرأة امرأة ، فيحدثونهم حتى يقولوا : ما فعل فلان ؟ وكيف وجدتموه العام؟ فيقولون : وجدنا فلانا عام أول فى هذه الليلة متعبداً ووجدناه العام متعبداً ، ووجدنا فلانا مبتدعا ووجدناه العام عابداً قال : فيكفون عن الاستغفار لذلك ، ويقبلون على الاستغفار لهذا ، ويقولون : وجدنا فلانا وفلانا يذكران الله ، ووجدنا فلاناً راكعا ، وفلانا ساجداً ، ووجدناه تاليا لكتاب الله . قال : فهم كذلك يومهم وليلتهم ، حتى يصعدون إلى السماء الثانية ، ففى كل سماء يوم وليلة ، حتى ينتهوا مكانهم من سدرة المنتهى ، فتقول لهم سدرة المنتهى : يا سكانى ، حدثونى عن الناس وسموهم لى . فان لى عليكم حقاً ، وإنى أحب من أحب الله . فذكر كعب أنهم يعدون لها ، ويحكون لها الرجل والمرأة بأسمائهم وأسماء آبائهم . ثم تقبل الجنة على السدرة فتقول : أخبرينى بما أخبرك سكانك من الملائكة . فتخبرها ، قال : فتقول الجنة : رحمة الله على فلان ، ورحمة الله على فلانة ، اللهم عجلهم إلى ، فيبلغ جبريل مكانه قبلهم ، [فيلهمه] الله فيقول : وجدت فلانا ساجداً فاغفر له . فيغفر له ، فيُسمعُ جبريلُ جميعَ حملة العرش فيقولون : رحمة الله على فلان ورحمة الله على فلانة ، ومغفرته لفلان ، ويقول : يارب ، وجدت عبدك فلانا الذى وجدته عام أول على السنة والعبادة ، ووجدته العام قد أحدث حدثاً وتولى (٧) عما أمر به . فيقول الله : ياجبريل ، إن تاب فأعتبنى قبل أن يموت بثلاث ساعات غفرت له . فيقول جبريل : لك الحمد إلهى ، أنت أرحم من جميع خلقك ، وأنت أرحم بعبادك من عبادك بأنفسهم ؛ قال : فيرتج العرش وما حوله ، والحجب والسموات ومن فيهن ، تقول : الحمد لله الرحيم ، الحمد لله الرحيم .

قال وذكر كعب أنه من صام رمضان وهو يحدث نفسه إذا أفطر بعد رمضان أن لا يعصى الله ، دخل الجنة بغير مسألة ولا حساب .

آخر تفسير سورة « ليلة القدر »

(١) فى المخطوطة : « وتقل عما ... » .

تفسير سورة لم يكن

وهى مدنيـــة

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد — وهو ابن سلمة — أخبرنا على — هو ابن زيد — عن عمار بن أبى عمار قال : سمعت أبا حبَّة البدرى — وهو : مالك بن عمرو بن ثابت الأنصارى — قال : لما نزلت : (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب) إلى آخرها ، قال جبريل : يارسول الله ، إن ربك يأمرك أن تقرئها أُبَيّاً . فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — لأُبى : « إن جبريل أمرنى أن أقرئك هذه السورة » . قال أُبَى : وقد ذكرت ثم يارسول الله ؟ قال : « نعم » ، قال فبكى أُبى(١) .

حديث آخر ، وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، سمعت قتادة يحدث عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم لأبى بن كعب : « إن الله أمرنى أن أقرأ عليك : (لم يكن الذين كفروا) قال : وسمانى لك ؟ قال(٢) « نعم » . فبكى .

ورواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائى ، من حديث شعبة ، به(٣) .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا مؤمَّل ، حدثنا سفيان ، حدثنا أسلم المنقرى ، عن عبد الله بن عبد الرحمن ابن أبزى ، عن أبيه ، عن أبى بن كعب قال : قال لى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « إنى أمرت أن أقرأ عليك سورة كذا وكذا » . قلت : يارسول الله ، وقد ذُكرتُ هناك ؟ قال « نعم » فقلت له : ياأبا المنذر ، ففَرِحت بذلك . قال : وما يمنعنى والله يقول : (قل : بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون) قال مؤمل : قلت لسفيان : القراءة فى الحديث ؟ قال : نعم . تفرد به من هذا الوجه(٤) .

طريق أخرى ، قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا : حدثنا شعبة ، عن عاصم بن بهدلة ، عن زر ابن حبيش ، عن أبى بن كعب قال : إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال لى : « إن الله أمرنى أن أقرأ عليك القرآن قال : فقرأ : (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب) ، قال : فقرأ فيها : ولو أن ابن آدم سأل واديا من مال ، فأعطيه ، لسأل ثانياً ، ولو سأل ثانياً فأعطيه لسأل ثالثاً ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب . وإن ذلك الدين عند الله الحنيفية ، غير المشركة ولا اليهودية ولا النصرانية ، ومن يفعل خيراً فلن يكفره(٥) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣/٤٨٩ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣/١٣٠ .

(٣) البخارى ، تفسير سورة (لم يكن) : ٦/٢١٦ — ٢١٧ . ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب « من فضائل أبى بن كعب » : ٧/١٥٠ . وتحفة الأحوذى ، أبواب المناقب ، باب « فضل أبى بن كعب رضى الله عنه » ، الحديث ٣٩٨٩ : ٣٩٧ — ٣٩٨ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٥/١٢٣ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٥/١٣١ — ١٣٢ .

ورواه الترمذى من حديث أبى داود الطيالسى ، عن شعبة ، به . وقال : «حسن صحيح (١) » .

طريق أخرى، قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا أحمد بن خليد(٢) الحلبى ،حدثنا محمد بن عيسى(٣) الطباع ، حدثنا معاذ بن محمد بن معاذ بن أبى بن كعب ، عن أبيه ، عن جده ، عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : «يا أبا المنذر ، إنى أمرت أن أعرض عليك القرآن » قال : بالله آمنت (٤) ، وعلى يدك أسلمت ، ومنك تعلمت . قال : فرد النبي صلى الله عليه وسلم — القول ، فقال : يارسول الله ، أذكرت هناك ؟ قال : نعم ، باسمك ونسبك فى الملأ الأعلى » . قال : فاقرأ إذاً يارسول الله .

هذا غريب من هذا الوجه ، والثابت ما تقدم . وإنما قرأ عليه النبى — صلى الله عليه وسلم — هذه السورة تثبيتاً له ، وزيادة لإيمانه ، فانه — كما رواه أحمد والنسائى ، من طريق أنس ، عنه (٥) ، ورواه أحمد وأبو داود ، من حديث سليمان بن صُرَد عنه (٦) . ورواه أحمد عن عفان ، عن حماد ، عن حميد ، عن أنس ، عن عبادة بن الصامت، عنه(٧): ورواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى ، من حديث إسماعيل بن أبى خالد ، عن عبد الله بن عيسى ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عنه (٨) — كان قد أنكر على إنسان، وهو: عبد الله بن مسعود ، قراءة شىء من القرآن على خلاف ما أقرأه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فرفعه إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — فاستقرأهما ، وقال ، لكل منهما : « أصبت » ؛ قال أبىّ : فأخذنى من الشك ولا إذ كنت فى الجاهلية . فضرب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى صدره ، قال أبى : فَفِضْتُ عَرَقاً ، وكأنما أنظر إلى الله فرقاً . وأخبره رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن جبريل أتاه فقال : إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على حرف . فقلت : أسأل الله معافاته ومغفرته . فقال : على حرفين . فلم يزل حتى قال : إن الله يأمرك أن تقرىء أمتك القرآن على سبعة أحرف : كما قدمنا ذكر هذا الحديث بطرقه وألفاظه فى أول التفسير . فلما نزلت هذه السورة الكريمة وفيها : (رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة • فيها كتب قيمة) ، قرأها عليه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قراءة إبلاغ وتثبيت وإنذار ، لا قراءة تعلم واستذكار ، والله أعلم .

وهذا كما أن عمر بن الخطاب لما سأل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يوم الحديبية عن تلك الأسئلة ، وكان فيما قال : أولم تكن تخبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال : « بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا » . قال : لا ، قال : « فإنك آتيه ومُطوف به » . فلما رجعوا من الحديبية ، وأنزل الله على النبى — صلى الله عليه وسلم : « سورة الفتح » ، دعا عمر بن الخطاب وقرأها عليه ، وفيها قوله : (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين) . . . الآية ، كما تقدم .

---

(١) تحفة الأحوذى ، أبواب المناقب ، الحديث ٣٩٨٩ : ٣٩٧/١٠ — ٣٩٨ .

(٢) فى المعجم الصغير ١٥/١ : « بن خالد » .

(٣) فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم ٣٨/١/٤ : « عيسى بن الطباع » . وانظر الجرح أيضاً ، ترجمة « معاذ بن محمد » : ٢٤٧/١/٤ .

(٤) فى المخطوطة : « آمنت بالله » . والمثبت عن الطبعات السابقة .

(٥) مسند الإمام أحمد : ١٢/٢٥ . والنسائى ، كتاب الافتتاح ، باب « جامع ما جاء فى القرآن » : ٥٤/٢ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١٢٤/٥ . وسنن أبى داود ، كتاب الوتر ، باب « أنزل القرآن على سبعة أحرف » .

(٧) مسند الإمام أحمد : ١١٤/٥ .

(٨) مسند الإمام أحمد : ١٢٧/٥ . ومسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب « بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه » ، ٢٠٢/٢ — ٢٠٣ . وانظر سنن أبى داود والنسائى فى الكتاب والباب المتقدمين .

وروى الحافظ أبو نُعَيْم فى كتابه « أسماء الصحابة » ، من طريق محمد بن إسماعيل الجعفرى المدنى : حدثنا عبد الله ابن سلمة بن أسلم ، عن ابن شهاب ، عن إسماعيل بن أبى حكيم المدنى حدثنى فُضيل ـ سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « إن الله ليسمع قراءة (لم يكن الذين كفروا) ، فيقول : أبشر عبدى ، فوعزتى لأمكننه لك فى الجنة حتى ترضى » .

حديث غريب جداً . وقد رواه الحافظ أبو موسى المدينى وابن الأثير ، من طريق الزهرى ، عن إسماعيل بن أبى حكيم عن نَظير(١) المزنى ـ أو : المدنى ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم « إن الله ليسمع قراءة (لم يكن الذين كفروا) ويقول : أبشر عبدى ، فوعزتى لا أنساك على حال من أحوال الدنيا والآخرة ، ولأمكنن لك فى الجنة حتى ترضى » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥)

أما أهلُ الكتاب فهم : اليهود والنصارى ، والمشركون : عَبَدَةُ الأوثان والنيران ، من العرب ومن العجم ، وقال مجاهد : لم يكونوا (منفكين) يعنى : منتهين حتى يتبين لهم الحق وكذا . قال قتادة (٢) .

(حتى تأتيهم البينة) ، أى : هذا القرآن . ولهذا قال تعالى (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة) ، ثم فسر البينة بقوله : (رسولٌ من الله يتلو صحفاً مطهرة) ، يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم ، وما يتلوه من القرآن العظيم ، الذى هو مكتتب فى الملأ الأعلى ، فى صحف مطهرة ، كقوله : (فى صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بأيدى سفرة ، كرام بررة(٣)).

وقوله : (فيها كتب قيمة) ـ قال ابن جرير : أى فى الصحف المطهرة كتب من الله قيمة : عادلة مستقيمة ، ليس فيها خطأ ، لأنها من عند الله عز وجل (٢).

قال قتادة : (رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة) ، يذكر القرآن بأحسن الذكر ، ويثنى عليه بأحسن الثناء ، وقال ابن زيد : (فيها كتب قيمة) : مستقيمة معتدلة .

وقوله : (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة) ، كقوله : (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم)(٤) يعنى بذلك أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا ، بعد ما

---

(١) فى المخطوطة : « عن مطر » ، والمثبت من أسد الغابة ، الترجمة ٥٢٢٤ : ٥/٣٢٥ ، بتحقيقنا .
(٢) تفسير الطبرى : ٣٠/١٦٩ .
(٣) سورة عبس ، الآيات : ١٣ ـ ١٦ .
(٤) سورة آل عمران ، آية : ١٠٥ .

أقام الله عليهم الحجج والبينات تفرقوا واختلفوا فى الذى أراده الله من كتبهم ، واختلفوا اختلافاً كثيراً ، كما جاء فى الحديث المروى : من طرق : «إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة ، وإن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا واحدة » . قالوا : من هم يارسول الله ؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابى (١) » .

وقوله : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) ، كقوله : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فأعبدون(٢)) . ولهذا قال : حنفاء ، أى متحنفين عن الشرك إلى التوحيد . كقوله : (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا : أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت(٣)) . وقد تقدم تقرير الحنيف فى « سورة الأنعام(٤) » بما أغنى عن إعادته هاهنا .

(ويقيموا الصلاة) ، وهى أشرف عبادات البدن ، (ويؤتوا الزكاة) ، وهى الإحسان إلى الفقراء والمحاويج .
(وذلك دين القيمة) ، أى : الملة القائمة العادلة ، أو : الأمة المستقيمة المعتدلة .

وقد استدل كثير من الأئمة ، كالزهرى والشافعى ، بهذه الآية الكريمة على أن الأعمال داخلة فى الإيمان . ولهذا قال : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة) .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

يخبر تعالى عن مآل الفجار ، من كفرة أهل الكتاب ، والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة وأنبياء الله المرسلة : أنهم يوم القيامة (فى نار جهنم خالدين فيها) أى : ماكثين ، لا يحولون عنها ولا يزولون . (أولئك هم شر البرية) ، أى : شر الخليقة التى برأها الله وذرأها .

ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار — الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بأبدانهم — بأنهم خير البرية .

وقد استدل بهذه الآية أبو هريرة وطائفة من العلماء ، على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة ؛ لقوله : (أولئك هم خير البرية) .

ثم قال : (جزاؤهم عند ربهم) ، أى : يوم القيامة ، (جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبدا) ، أى : بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ .

---

(١) سنن أبى داود ، أول كتاب السنة . وتحفة الأحوذى ، كتاب الإيمان ، باب « افتراق هذه الأمة » ، الحديث ٢٧٧٨ ، ٢٧٧٩ : ٣٩٧/٧ — ٤٠٠ . وابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب « افتراق الأمم » ، الأحاديث ٣٩٩١ — ٣٩٩٣ : ١٣٢١/٢ — ١٣٢٢ . ومسند الإمام أحمد عن أبى هريرة : ٣٣٢/٢ . وعن أنس بن مالك : ١٢٠/٣ ، ١٤٥ .

(٢) سورة الأنبياء ، آية : ٢٥ .

(٣) سورة النحل ، آية : ٣٦ .

(٤) انظر تفسير الآية ١٦١ من سورة الأنعام : ٣٧٦/٣ .

(رضي الله عنهم ورضوا عنه) ، ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم ، (ورضوا عنه) فيما منحهم من الفضل العميم .

وقوله : (ذلك لمن خشي ربه) ، أي : هذا الجزاء حاصل لمن خشي الله واتقاه حق تقواه ، وعبده كأنه يراه ، وعلم أنه إن لم يره فانه يراه .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا أبومعشر ، عن أبي وهب[1] ــ مولى أبي هريرة ــ عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « ألا أخبركم بخير البرية ؟ » : قالوا : بلى ، يارسول الله : قال : « رجل آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، كلما كانت هيعة[2] استوى عليه : ألا أخبركم بخير البرية[3] . قالوا : بلى ، يا رسول الله . ال : « رجل في ثُلَّة من غَنَمه ، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة . ألا أخبركم بشر البرية ؟ : قالوا : بلى . قال : الذي يَسأل بالله ، ولا يُعطي به[4] » .

آخر تفسير سورة (لم يكن)

(١) في المسند : « ابن وهب » . والصواب ما هنا . انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٤/٢/٤٥١ ــ ٤٥٢ .

(٢) الهيعة : الصوت الذي تفزع منه وتخافه من عدو .

(٣) في المسند : « ألا أخبركم بالذي يليه » .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٩٦ . ومعنى « الذي يسأل ... » : الذي يجمع بين القبيحين ، أحدهما السؤال بالله ، والثاني عدم الإعطاء لمن يسأل به تعالى ، فيما يراعي حرمة اسمه تعالى في الوقتين جميعا .

تفسير سورة إذا زلزلت

وهي مكيـــة

قال الإمام(١) أحمد : حدثنا أبوعبدالرحمن، حدثنا سعيد ، حدثنا عياش بن عباس ، عن عيسى بن هلال الصَّدَفى ، عن عبد الله بن عمرو قال : أتى رَجُل إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : أقرئنى يارسول الله . قال له : « أقرأ ثلاثا من ذات آلر » . فقال له الرجل : كبر سنى واستد(٢) قلبى ، وغَلُظَ لسانى . قال : « فأقرأ من ذات حم » فقال ، مثل مقالته الأولى ، فقال : « اقرأ ثلاثا من المسبّحات » ، فقال مثل مقالته ، فقال الرجل : ولكن أقرئنى – يارسول الله – سورة جامعة . فأقرأه : (إذا زلزلت الأرض زلزالها) ، حتى إذا فَرَغَ منها قال الرجلُ : والذى بعثك بالحق لا أزيد عليها أبداً ، ثم أدبر الرجل فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – « أفلح الرُّوَيجل ! أفلح الرُّوَيجل ! ثم قال : عَلَيَّ به . فجاءه فقال له : أُمِرْتُ بيوم الأضحى جعله الله عيدا لهذه الأمة » ، فقال له الرجل : أرأيت إن لم أجد إلا مَنِيحَةَ أنثى(٣) فأضحى بها ؟ قال : « لا ، ولكنك تأخذ من شعرك ، وتقلم أظفارك ، وتقص شاربك ، وتحلق عانتك ، فذاك تمام أضحيتك عند الله عز وجل(٤) .

وأخرجه أبو داود والنسائى ، من حديث أبى عبد الرحمن المقرئ ، به(٥) .

وقال الترمذى : حدثنا محمد بن موسى الحَرَشِى(٦) البصرى : حدثنا الحسن بن سلْم(٧) بن صالح العجلى ، حدثنا ثابت البُنَانى ، عن أنس قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « من قرأ (إذا زلزلت) عُدِلَتْ له بنصف القرآن » . . . ثم قال : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسن(٨) بن سَلْم » .

---

(١) وقع فى المخطوطة والطبعات السابقة قبل هذا : « قال الترمذى : حدثنا محمد بن موسى الجوينى البصرى ، حدثنا الحسن ابن مسلم العجلى ، حدثنا ثابت » . وبعده : « قال الإمام أحمد ... » . وهذا السند سيأتى فى الحديث الثانى الذى يسوقه ابن كثير من الترمذى . ولعله – أعنى ابن كثير – عن له بعد أن ذكر هذا القدر من السند أن يسوق حديث الإمام أحمد أولا ، ثم سها عن هذا القدر ، والله أعلم .

(٢) كذا فى المخطوطة ، ومثله فى سنن أبى داود . ومعنى استد هنا : استقام على حالة لا يطيق معها أن يقرأ هذه السور .

(٣) فى المخطوطة والمسند : « منيحة ابنى » . والمثبت عن النسائى وسنن أبى داود ، والطبعات السابقة من هذا التفسير . وأصل المنيحة : ما يعطيه الرجل غيره ليشرب لبنها ثم يردها عليه ، ثم يقع على كل شاة ، لأن من شأنها أن يمنح بها . وهو المراد هنا . وإنما منعه لأنه لم يكن عنده غيرها ينتفع به . ويحتمل أن المراد هنا ما أعطاه غيره ليشرب اللبن . ومنعه لأنه ملك الغير .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٢/١٦٩ .

(٥) انظر سنن أبى داود ، تفريع أبواب شهر رمضان ، باب « تحزيب القرآن » . وأول كتاب الأضاحى . والنسائى ، كتاب الضحايا ، باب « من لم يجد الأضحية » : ٧/٢١٢ – ٢١٣ .

(٦) فى المخطوطة : « الجوينى » . والمثبت عن المشتبه للذهبى ١٤٨ . ووقع فى تحفة الأحوذى : « الجرشى » .

(٧) فى المخطوطة : « مسلم » . والمثبت عن تحفة الأحوذى ، والخلاصة .

(٨) تحفة الأحوذى ، أبواب فضائل القرآن ، باب « ما جاء فى (إذا زلزلت) ، الحديث ٣٠٥٧ : ٨/٢٠٣ – ٢٠٤ .

وقد رواه البزار عن محمد بن موسى الحَرَشي (١) عن الحسن بن سلم (٢)، عن ثابت، عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قل هو الله أحد) تَعدِلُ ثلث القرآن، و (إذا زلزلت) تَعدلُ ربع القرآن. هذا لفظه.

وقال الترمذي أيضاً: حدثنا علي بن حُجْر، حدثنا يزيد بنُ هارون، حدثنا يَمَانُ بن المغيرة العَنَزيُّ، حدثنا عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: «(إذا زلزلت) تَعْدلُ نصف القرآن، (وقل هو الله أحد) تَعْدلُ ثلث القرآن، و(قل يا أيها الكافرون) تَعْدلُ ربع القرآن». ثم قال: «غريب، لا نَعرفه إلا من حديث يَمَان بن المغيرة» (٣).

وقال أيضاً حدثنا عُقبةُ بن مُكْرَم العَمِّي البَصريّ، حدثني ابن أبي فديك، أخبرني سلمة بن وَرْدَان، عن أنس ابن مالك: أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال لرجل من أصحابه: «هل تزوجت يافلان؟». قال: لا والله يارسول الله، ولا عندي ما أتزوج؟! قال: «أليس معك (قل هو الله أحد) قال؟: بلى. قال: «ثلث القرآن»، قال: أليس معك (إذا جاء نصر الله والفتح؟). قال: بلى. قال: «ربع القرآن». قال: «أليس معك (قل: ياأيها الكافرون؟)». قال: بلى. قال: «رُبُع القرآن». قال: «أليس معك (إذا زلزلت الأرض؟)». قال: بلى، قال: «ربُع القرآن» تَزَوج، [تزوج] (٤) ثم قال: «هذا حديث حسن (٥)».

تفرد بهن ثلاثتهنّ الترمذي، لم يَروهنّ غيرهُ من أصحاب الكتب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

قال ابن عباس: (إذا زلزلت الأرض زلزالها)، أي: تحركت من أسفلها: (وأخرجت الأرض أثقالها)، يعني: ألقت ما فيها من الموتى (٦). قاله غير واحد من السلف. وهذه كقوله تعالى (ياأيها الناس، اتقوا ربكم، إن زلزلة الساعة شيء عظيم (٧))، وكقوله: (وإذا الأرض مُدّت. وألقت ما فيها وتخلت (٨)).

(١) في المخطوطة «الجوني». والمثبت من المشتبه للذهبي ١٤٨. ووقع في تحفة الأحوذي «الجرشي».

(٢) في المخطوطة «مسلم». والمثبت من تحفة الأحوذي، والخلاصة.

(٣) تحفة الأحوذي، أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء في سورة الإخلاص، وفي سورة (إذا زلزلت)، الحديث ٣٠٥٩: ٢٠٥/٨ – ٢٠٦.

(٤) ما بين القوسين عن الترمذي.

(٥) تحفة الأحوذي، أبواب فضائل القرآن، باب ما جاء في (إذا زلزلت)، الحديث ٣٠٥٨: ٢٠٤/٨.

(٦) انظر تفسير الطبري: ١٧١/٣٠ – ١٧٢.

(٧) سورة الحج، آية: ١.

(٨) سورة الانشقاق، آية: ٣ – ٤.

وقال مسلم في صحيحه : حدثنا واصل بن عبد الأعلى ، حدثنا محمد بن فُضَيل ، عن أبيه ، عن أبي حازم عن أبي هُرَيرة قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : تقىء(١) الأرض أفلاذ(٢) كبدها أمثال الأسطوان(٣) من الذهب والفضة ، فيجيء القاتل فيقول : « في هذا قتَلْتُ . ويجيء القاطع فيقول : في هذا قطَعْتُ رحمي . ويجيء السارق فيقول : في هذا قُطعتْ يَدي ، ثم يَدَعُونه فلا يأخذون منه شيئاً (٤) » .

وقوله : (وقال الإنسان : مالها ؟) أي : استنكر أمرها بعد ما كانت قارّة ساكنة ثابتة ، وهو مستقر على ظهرها ، أي : تقلبت الحال ، فصارت متحركة مضطربة ، قد جاءها من أمر الله ما قد أعَدّ لها من الزلزال الذي لا مَحيدَ لها عنه ، ثم ألقت ما في بطنها من الأموات من الأولين والآخرين ، وحينئذ استنكر الناس أمرها وتبدلت الأرضُ غيرَ الأرض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار .

وقوله : (يومئذ تحدث أخبارها) ، أي : تحدث بما عمل العاملون على ظهرها :

قال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم ، حدثنا ابن المبارك — وقال الترمذي وأبو عبد الرحمن النسائي ، واللفظ له : حدثنا سُوَيد بن نصر ، أخبرنا عبد الله — هو ابن المبارك — عن سعيد بن أبي أيوب ، عن يحيى بن أبي سُلَيمان ، عن سَعيد المقبُري عن أبي هُرَيرة قال : قرأ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — هذه الآية : (يومئذ تُحدِّثُ أخبارها) ، قال : « أتدرون ما أخبارها ؟ » : قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنّ أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عَمِلَ على ظهرها ، أن تقول : عمل كذا وكذا ، يوم كذا وكذا . فهذه أخبارها » .

ثم قال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح غريب(٥) » .

وفي معجم الطبراني من حديث ابن لهيعة : حدثني الحارث بن يزيد — سمع ربيعة الجُرَشي(٦) — : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « تحفظوا من الأرض ، فإنها أمكم ، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً ، إلا وهي مُخْبِرة » . وقوله (بأن ربك أوحى لها) — قال البخاري : أوحى لها وأوحى إليها ، ووَحَى لها ووحى إليها : واحد (٧) ، وكذا قال ابن عباس : (أوحى لها) ، أي : أوحى إليها (٨) .

والظاهر أن هذا مُضَمَّنٌ أذن لها .

---

(١) في المخطوطة : « تلقى الأرض » . والمثبت من مسلم .

(٢) أفلاذ : جمع فلذة — بكسر الفاء — وهي : قطعة من الكبد مقطوعة طولا .

(٣) الأسطوان : واحده أسطوانة ، وهي السارية والعمود ، وشبهه بالأسطوان لعظمه وكثرته .

(٤) مسلم ، كتاب الزكاة ، باب « الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها » : ٣/٨٤ — ٨٥ .

(٥) تحفة الأحوذي ، أبواب صفة القيامة ، الحديث ٢٥٤٦ : ٧/١١٦ . وتفسير سورة (إذا زلزلت) ، الحديث ٣٤١١ : ٩/٢٨٥ — ٢٨٦ . ومسند الإمام أحمد : ٢/٣٧٤ .

(٦) في المخطوطة : « الحمى » . والمثبت من أسد الغابة ، ترجمة « ربيعة بن الغاز » : ٢/٢١٥ — ، بتحقيقنا . والجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ١/٢/٤٧٢ — ٤٧٣ .

(٧) البخاري ، تفسير سورة (إذا زلزلت) : ٦/٢١٧ .

(٨) تفسير الطبري : ٣٠/١٧٢ .

وقال شيبان بن بشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : (يومئذ تحدث أخبارها) ، قال : قال لها ربها : قولى ، فقالت .

وقال مجاهد : (أوحى لها) أى : أمرها ، وقال القرظى : أمرها أن تنشق عنهم .

وقوله : (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً) ، أى : يرجعون عن موقف الحساب ، (أشتاتاً) ، أى : أنواعاً وأصنافاً ، ما بين شقى وسعيد ، مأمور به إلى الجنة ، ومأمور به إلى النار .

قال ابن جُرَيج : يتصدعون أشتاتاً فلا يجتمعون آخرَ ما عليهم .

وقال السدى : (أشتاتاً) : فرقا .

وقوله تعالى : (ليروا أعمالهم) ، أى : ليعملوا ويجازوا بما عملوه فى الدنيا ، من خير وشر ، ولهذا قال : (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) .

قال البخارى : حدثنا إسماعيل بن عبد الله ، حدثنى مالك عن زيد بن أسلم ، عن أبى صالح السَّمان عن أبى هُرَيرة : أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « الخيل لثلاثة ، لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وِزْر ، فأما الذى له أجر ، فرجل رَبَطها فى سبيل الله فأطال طِيَلَها[١] فى مرج أو روضة ، فما أصابت فى طِيَلها ذلك فى المرج والروضة كان له حسنات ، ولو أنها قطعت طِيَلَها فاستنَّت شَرَفًا أو شرفين[٢] ، كانت آثارها وأرواثها حسنات له ، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن يَسقى به كان ذلك حسنات له ، وهى لذلك الرجل أجر ، ورجل ربطها تَغَنِّيًا[٣] وتعففاً ، ولم ينس حق الله فى رقابها ولا ظهورها ، فهى له ستر ، ورجل ربطها فخراً ورئاء ونِواء[٤] فهى على ذلك وزر » ، فسُئِل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن الحُمُر ، فقال : « ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الفاذّة الجامعة : (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)[٥] » .

ورواه مسلم ، من حديث زيد بن أسلم ، به[٦] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون ، أخبرنا جَرِيرُ بن حازم ، حدثنا الحسن ، عن صعصعة بن معاوية ــ عم الفرزدق ــ : أنه أتى النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقرأ عليه : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ، قال : حسبى ! لا أبالى أن لا أسمع غيرها[٧] .

---

(١) فى البخارى : « فأطال لها » . والطيل ــ بكسر ففتح ــ الحبل الطويل يشد أحد طرفيه فى وتد أو غيره ، والطرف الآخر فى يد الفرس ليدور فيه ويرعى ولا يذهب لوجهه .
(٢) استن الفرس : عدا ــ لمرحه ونشاطه ــ شوطا أو شوطين ولا راكب عليه . والشرف : الشوط .
(٣) أى : استغناء بها عن الطلب من الناس .
(٤) أى : معاداة .
(٥) البخارى ، تفسير سورة (إذا زلزلت الأرض زلزالها) : ٢١٧/٦ .
(٦) مسلم ، كتاب الزكاة ، باب « إثم مانع الزكاة » : ٧١/٣ ــ ٧٣ .
(٧) مسند الإمام أحمد : ٥٩/٥ .

وهكذا رواه النسائى فى التفسير، عن إبراهيم بن يونس بن محمد المؤدب (١)، عن أبيه، عن جرير بن حازم، عن الحسن البصرى قال : حدثنا صعصعة عم الفرزدق . . . فذكره .

وفى صحيح البخارى، عن عدىّ مرفوعا : « اتقوا النار ولو بشق تمرة، ولو [بكلمة طيبة(٢)] » وفى الصحيح : لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستسقى، ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منبسط (٣) » ، وفى الصحيح أيضاً : « يانساء المؤمنات، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فِرْسِنَ شاة (٤) » : يعنى ظلفها — وفى الحديث الآخر : « ردوا السائل ولو بظلْف مُحرَق »(٥) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى، حدثنا كثير بن زيد، عن المطلب (٦) بن عبد الله، عن عائشة أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « قال : « ياعائشة، استترى من النار ولو بشق تمرة، فإنها تسد من الجائع مسدّها من الشبعان » . تفرد به أحمد (٧) .

ورُوىَ عن عائشة أنها تصدقت بعنبة، وقالت : كم فيها من مثقال ذرة (٨) .

وقال أحمد : حدثنا أبو عامر، حدثنا سعيد بن مسلم، سمعت عامر بن عبد الله بن الزبير : حدثنى عوف بن الحارث ابن الطفيل : أن عائشة أخبرته : أن النبى — صلى الله عليه وسلم كان يقول : « ياعائشة، إياك ومحقرات الذنوب، فان لها من الله طالباً (٩) » .

ورواه النسائى وابن ماجه، من حديث سعيد بن مسلم بن بَانَك، به (١٠) .

---

(١) فى المخطوطة : « إبراهيم بن محمد بن يونس » . والمثبت من كتب الرجال، انظر التهذيب : ١/ ١٨٥ .

(٢) البخارى، كتاب التوحيد : ٩/ ١٨١ . وما بين القوسين منه، ومكانه فى المخطوطة بياض . وانظر البخارى أيضاً، كتاب الزكاة، باب « اتقوا النار ولو بشق تمرة ... » : ٢/ ١٣٦ . وكتاب الأدب، باب « طيب الكلام » : ٨/ ١٤ . وكتاب الرقاق، باب « صفة الجنة والنار » : ٨/ ١٤٤ .

(٣) انظر سنن أبى داود، كتاب اللباس، باب « ما جاء فى إسبال الإزار » . ومسند الإمام أحمد عن أبى تميمة الهجيمى : ٣/ ٤٨٢ — ٤٨٣، ٥/ ٦٣، ٦٤ .

(٤) البخارى، أول كتاب الهبة : ٣/ ٢٠١ . وكتاب الأدب، باب « لا تحقرن جارة لجارتها » : ٨/ ١٢ — ١٣ . ومسلم، كتاب الزكاة، باب « الحث على الصدقة ولو بالقليل، ولا تمتنع من القليل لاحتقاره » : ٣/ ٩٣ . هذا وانظر « أمالى السهيلى » : ٦٩ — ٧٠، بتحقيقنا .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٥/ ٣٨١ . وانظر سنن أبى داود، كتاب الزكاة، باب « حق السائل » . وتحفة الأحوذى، أبواب الزكاة، باب « ما جاء فى حق السائل »، الحديث ٦٦٠ : ٣/ ٣٣٢ — ٣٣٣ . والنسائى، كتاب الزكاة، باب « تفسير المسكين » : ٥/ ٨٦ . وباب « رد السائل » : ٥/ ٨١ .

(٦) فى المخطوطة : « عبد المطلب » . والمثبت من المسند، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٤/ ١/ ٣٥٩ . وقال ابن أبى حاتم : « روى عن عائشة مرسل » .

(٧) مسند الإمام أحمد : ٦/ ٧٩ .

(٨) أخرجه مالك فى الموطأ، انظر كتاب الصدقة، باب « الترغيب فى الصدقة » الأثر ٦ : ٢/ ٩٩٧ .

(٩) مسند الإمام أحمد : ٦/ ١٥١ .

(١٠) سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب « ذكر الذنوب »، الحديث ٤٢٤٣ : ٢/ ١٤١٧ .

وقال ابن جرير : حدثني أبو الخطاب الحساني ، حدثنا الهيثم بن الربيع ، حدثنا سماك بن عطية ، عن أيوب ، عن أبي قلابة ، عن أنس قال : كان أبو بكر يأكل مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزلت هذه الآية : (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ، فرفع أبو بكر يده وقال : يارسول الله ، إني أُجزى بما عملتُ من مثقال ذرة من شر ؟ فقال : « يا أبا بكر ، ما رأيت في الدنيا مما تكره فبمثاقيل ذر الشر ويدخر الله لك مثاقيل ذَر الخير حتى تُوفّاه يوم القيامة [(١)] » .

ورواه ابن أبي حاتم ، عن أبيه أبي الخطاب ، به : ثم قال ابن جرير :

حدثنا ابن بشار ، حدثنا عبد الوهاب ، حدثنا أيوب قال : في كتاب أبي قلابة ، عن أبي إدريس : أن أبا بكر كان يأكل مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكره [(١)] » .

ورواه أيضاً عن يعقوب ، عن ابن علية ، عن أيوب ، عن قلابة : أن أبا بكر . . . وذكره .

طريق أخرى ، قال ابن جرير : حدثني يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني حُيَيّ [(٢)] بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : لما نزلت : (إذا زلزلت الأرض زلزالها) ، وأبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ قاعد ، فبكى حينَ أنزلت ، فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما يبكيك يا أبا بكر ؟ » . قال : يبكيني هذه السورة . فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لولا أنكم تخطئون وتذنبون ، فيغفر الله لكم ، لخلق الله أمة يخطئون ويذنبون فيغفر لهم [(٣)] » .

حديث آخر ، قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة وعلي بن عبد الرحمن بن [محمد بن [(٤)]] المغيرة ـ المعروف بعلان المصري ـ قالا : حدثنا عمرو بن خالد الحراني ، حدثنا ابن لهيعة ، أخبرني هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخدري قال : لما نزلت : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) قلت : يارسول الله ، إني لراء عملي ؟ قال : « نعم » . قلت : تلك الكبار الكبار ؟ قال : « نعم » . قلت : الصغار الصغار ؟ قال ؟ : « نعم » . قلت : واثُكلَ أُمّي ؟ قال : « أبشر يا سعيد ، فان الحسنةَ بعشر أمثالها ـ يعني إلى سبعمائة ضعف ـ ويضاعف الله لمن يشاء ، والسيئة بمثلها أو يغفر الله ، ولن ينجو أحد منكم بعمله » . قلت : ولا أنت يارسول الله ؟ ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة » . قال أبو زرعة : لم يرو هذا غيرَ ابن لَهيعة .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بُكَير ، حدثني ابن لهيعة ، حدثني عطاء بن دينار ، عن سعيد بن جبير في قول الله تعالى : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ، وذلك لما نزلت هذه الآية : (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً) كان المسلمون يرون أنهم لا يُؤجَرون على الشيء القليل إذا أعطَوه ، فيجيء المسكين إلى أبوابهم فيستقلّون أن يعطوه التمرة والكسرة والجوْزة ونحو ذلك ،

---

(١) تفسير الطبري : ١٧٣/٣٠ – ١٧٤
(٢) في تفسير الطبري : «يحيى بن عبد الله» . والصواب ما هنا ، انظر كتب الرجال .
(٣) تفسير الطبري : ١٧٥/٣٠ .
(٤) ما بين القوسين من الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ١٩٥/١/٣ .

فيردونه ويقولون: ما هذا بشيء ؟ إنما نُؤجَر على ما نعطي ونحن نحبه . وكان آخرون يرَوْنَ أنهم لا يُلامون على الذنب اليسير : الكذْبَة والنَظرة والغيبة وأشباه ذلك ، يقولون : إنما وعد الله النار على الكبائر . فرغبهم فى القليل من الخير أن يعملوه، فانه يوشك أن يكثر ، وحذرهم اليسير من الشر ، فانه يوشك أن يكثر ، فنزلت : (فمن يعمل مثقال ذرة) ، يعنى : وزن أصغر النمل (خيراً يره) يعنى فى كتابه ، ويَسُرّه ذلك . قال: يكتب لكل بر وفاجر بكل سيئة سيئة واحدة ، وبكل حسنة عشر حسنات ، فاذا كان يوم القيامة ضاعف الله حسنات المؤمنين أيضاً ، بكل واحدة عشر ، ويمحو عنه بكل حسنة عشر سيئات ، فمن زادت حسناته على سيئاته مثقال ذرة ، دخل الجنة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود ، حدثنا عمران ، عن قتادة ، عن عبد ربه ، عن أبى عياض، عن عبد الله ابن مسعود : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فانهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه » . وإن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ضرب لهن مثلا ، كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صَنيع (١) القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادا، وأجَّجوا نارا، وانضجوا ما قذفوا فيها (٢)

[آخر تفسير سورة اذا زلزلت]

(١) صنيع القوم : حاذقهم ، مثل : صناع .
(٢) مسند الإمام أحمد : ١/٤٠٢ – ٤٠٣ .

تفسير سورة العاديات

وهى مكيـة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (2) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (3) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (4) فَوَسَطْنَ
بِهِ جَمْعًا (5) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (7) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8)
* أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (9) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (10) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (11)

يقسم تعالى بالخيل إذا أجريت فى سبيله فعَدَت وضَبَحت ، وهو : الصوت الذى يسمع من الفرس حين تعدو ؛
(فالموريات قدحاً) ، يعنى : اصطكاك نعالها للصخر فتقدح منه النار :

(فالمغيرات صبحاً) ، يعنى الإغارة وقت الصباح ، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم — يغير صباحاً ويتسمّع أذانا فإن سمع والا أغار .

(فأثرن به نقعا) ، يعنى : غباراً فى معترك الخيول ،

(فوسطن به جمعاً) ، أى : توسطن ذلك المكان كُلُّهن جُمَعَ :

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا عبدة ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن عبد الله : (والعاديات ضبحاً) ، قال : الإبل ،

وقال على : هى الإبل ، وقال ابن عباس : هى الخيل : فبلغ عليا قولُ ابن عباس ، فقال : ما كانت لنا خيل يوم بدر ، قال ابن عباس : إنما كان ذلك فى سرية بعثت .

قال ابن أبى حاتم وابن جرير : حدثنا يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرنى أبو صخر ، عن أبى معاوية البجلى ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس حدثه قال : بينا أنا فى الحِجْر جالساً ، جاءنى رجل فسألنى عن : (العاديات ضبحاً) ، فقلت له : الخيل حين تغير فى سبيل الله ، ثم تأوى إلى الليل ، فيصنعون طعامهم ، ويورون نارهم ، فانفتل عنى فذهب إلى على — رضى الله عنه — وهو عند سقاية زمزم ، فسأله عن (العاديات ضبحاً) ، فقال : سألت عنها أحد قبلى ؟ قال : نعم ، سألت ابن عباس فقال : الخيل حين تغير فى سبيل الله ، قال : اذهب فادعه لى ، فلما وقف على رأسه قال : تفتى الناس بما لا علم لك ، والله لئن كان أولَ غزوة فى الإسلام بدر ، وما كان معنا إلا فَرَسَان : فرس للزبير وفرس للمقداد ، فكيف تكون العاديات ضبحاً ؛ إنما العاديات ضبحا من عرفة إلى المزدلفة ، ومن المزدلفة إلى منى ؛

قال ابن عباس : فنزعت عن قولى ورجعت إلى الذى قال على رضى الله عنه(١) .

وبهذا الإسناد عن ابن عباس قال : قال على : إنما (العاديات ضبحاً) من عرفة إلى المزدلفة ، فاذا أووا إلى المزدلفة أوروا النيران(٢) .

وقال العَوفيّ عن ابن عباس : هى الخيل .

وقد قال بقول على : إنها الإبل ، جماعة منهم : إبراهيم ، وعبيد بن عمير وبقول ابن عباس آخرون ، منهم : مجاهد ، وعكرمة ، وعطاء ، وقتادة ، والضحاك . واختاره ابن جرير .

قال ابن عباس ، وعطاء : ما ضبحت دابة قط إلا فرس أو كلب .

وقال ابن جريج ، عن عطاء : سمعت ابن عباس يصف الضبح : أح أح(١) .

وقال أكثر هؤلاء فى قوله : (فالموريات قدحاً) ، يعنى : بحوافرها . وقيل : أسعَرْنَ الحرب بين رُكبانهن : قاله قتادة (١) .

وعن ابن عباس ومجاهد : (فالموريات قدحاً) ، يعنى : مكر الرجال .

وقيل : هو إيقاد النار إذا رجعوا إلى منازلهم من الليل .

وقيل : المراد بذلك : نيران القبائل .

وقال من فسرها بالخيل : هو إيقاد النار بالمزدلفة .

قال ابن جرير : والصواب الأول : أنها الخيل حين تقدح بحوافرها .

وقوله : (فالمغيرات صبحا) قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : يعنى إغارة الخيل صبحا فى سبيل الله .

وقال من فسرها بالإبل : هو الدفع صبحا من المزدلفة إلى منى .

وقالوا كلهم فى قوله : (فأثرن به نقعا) هو : المكان الذى [إذا] (٣) حلت فيه أثارت به الغبار إما فى حج أو غزو .

وقوله : (فوسطن به جمعاً) ، قال العَوفى ، عن ابن عباس ، وعطاء ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك : يعنى جَمع الكفار من العدو .

ويحتمل أن يكون : فوسطن بذلك المكان جَميعُهُن ، ويكون (جَمْعا) منصوباً على الحال المؤكَّدة .

وقد روى أبو بكر البزار هاهنا حديثاً فقال : حدثنا أحمد بن عبدة ، حدثنا حفص بن جُمَيع ، حدثنا سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : بعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خيلا فأشهرت(٤) شهراً لا يأتيه منها خبر ، فنزلت : (والعاديات ضبحا) ، ضبحت بأرجلها ، (فالموريات قدحاً) ، قدحت بحوافرها الحجارة فأورت ناراً ، (فالمغيرات

---

(١) تفسير الطبرى : ١٧٦/٣٠ — ١٧٧ .
(٢) تفسير الطبرى : ١٧٧/٣٠ .
(٣) زدنا ما بين القوسين ليستقيم السياق .
(٤) أى : أتى عليها شهر .

صبحاً) : صبّحت القوم بغارة ، (فأثرن به نقعاً) ، أثارت بحوافرها التراب ، (فوسطن به جمعاً) ، قال: صبحت القوم جميعاً .

وقوله : (إن الإنسان لربه لكنود) ، هذا هو المقسم عليه، بمعنى أنه لنعم ربه لجحود كفور .

قال ابن عباس ، ومجاهد وإبراهيم النخعي ، وأبو الجوزاء ، وأبو العالية ، وأبو الضحى ، وسعيد بن جبير ، ومحمد ابن قيس ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، والربيع بن أنس، وابن زيد : الكنود : الكفور ـ قال الحسن : هو الذى الذى يعد المصائب ، وينسى نعم ربه .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو كريب ، حدثنا عبيد الله ، عن إسرائيل ، عن جعفر بن الزبير ، عن القاسم ، عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (إن الإنسان لربه لكنود) ، قال: الكفور الذى يأكل وحده ، ويضرب عبده ، ويمنع رفده (١).

ورواه ابن أبي حاتم ، من طريق جعفر بن الزبير ـ وهو متروك ـ فهذا إسناد ضعيف . وقد رواه ابن جرير أيضاً من حديث حريز بن عثمان ، عن حمزة بن هانى، عن أبي أمامة موقوفاً (١) .

وقوله : (وإنه على ذلك لشهيد) ، قال قتادة وسفيان الثورى : وإن الله على ذلك لشهيد .

ويحتمل أن يعود الضمير على الإنسان ، قاله محمد بن كعب القرظى ، فيكون تقديره : وإن الإنسان على كونه كنوداً لشهيد ، أى : بلسان حاله . أى : ظاهر ذلك عليه فى أقواله وأفعاله ، كما قال تعالى : (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر (٢)) .

وقوله : (وإنه لحب الخير لشديد) ، أى : وإنه لحب الخير ـ وهو : المال ـ لشديد : وفيه مذهبان : أحدهما : أن المعنى : وإنه لشديد المحبة للمال .

والثانى : وإنه لحريص بخيل ؛ من محبة المال : وكلاهما صحيح .

ثم قال تعالى مزهّدا فى الدنيا ، ومرغّبا فى الآخرة ، ومنبها على ما هو كائن بعد هذه الحال ، وما يستقبله الإنسان من الأهوال : (أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور ؟) أى : أخرج ما فيها من الأموات ، (وحصّل ما فى الصدور) ـ قال ابن عباس وغيره : يعنى أبرز وأظهر ما كانوا يسرون فى نفوسهم ، (إن ربهم بهم يومئذ لخبير) ، أى : لعالم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون ، ومجازيهم عليه أوفر الجزاء ، ولا يظلم مثقال ذرة .

آخر سورة (والعاديات) ولله الحمد

---

(١) أخرجه الطبرى من حديث أبي كريب : ٣٠/١٨٠ .

(٢) سورة التوبة ، آية : ١٧ .

تفسير سورة القارعة

وهى مكيــة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴿١١﴾ ﴾

(القارعة) : من أسماء يوم القيامة ، كالحاقة والطامة والصاخة والغاشية ، وغير ذلك .

ثم قال معظما أمرها ومهولا لشأنها : (وما أدراك ما القارعة) ، ثم فسر ذلك بقوله : (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث) ، أى : فى انتشارهم وتفرقهم ، وذهابهم ومجيئهم ، من حيرتهم مما هم فيه ، كأنهم فراش مبثوث . كما قال فى الآية الأخرى : (كأنهم جراد منتشر (١)) :

وقوله : (وتكون الجبال كالعهن المنفوش) ، يعنى : قد صارت كأنها الصوف المنفوش ، الذى قد شرع فى الذهاب والتمزق :

قال مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، والحسن ، وقتادة ، وعطاء الخراسانى ، والضحاك ، والسدى: (العهن) : الصوف :

ثم أخبر تعالى عما يؤول إليه عمل العاملين ، وما يصيرون إليه من الكرامة أو الإهانة ، بحسب أعمالهم ، فقال : (فأما من ثقلت موازينه) ، أى : رجحت حسناته على سيئاته ، (فهو فى عيشة راضية) ، يعنى : فى الجنة . (وأما من خفت موازينه) ، أى : رجحت سيئاته على حسناته .

وقوله : (فأمه هاوية) ، قيل: معناه : فهوساقط هاو بأم رأسه فى نار جهنم : وعبّر عنه بأمه ــ يعنى دماغه ــ رُوى نحو هذا عن ابن عباس ، وعكرمة ، وأبى صالح ، وقتادة ــ قال : قتادة : يهوى فى النار على رأسه : وكذا قال أبو صالح : يهوون فى النار على رؤوسهم .

وقيل : معناه : (فأمه) التى يرجع إليها ، ويصير فى المعاد إليها (هاوية) ، وهى اسم من أسماء النار :

قال ابن جرير : وإنما قيل : للهاوية أمه ، لأنه لا مأوى له غيرها(٢) .

---

(١) سورة القمر ، آية : ٧ .

(٢) تفسير الطبرى : ٣٠/١٨٣ .

وقال ابن زيد : الهاوية : النار ، هى أمه ومأواه التى يرجع إليها ويأوى إليها ، وقرأ : (ومأواهم النار) .

قال ابن أبى حاتم : وروى عن [قتادة] أنه قال : هى النار ، وهى مأواهم . ولهذا قال تعالى مفسرا للهاوية : (وما أدراك ماهية • نار حامية) .

قال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى : حدثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن الأشعث بن عبد الله الأعمى قال : إذا مات المؤمن ذهب بروحه إلى أرواح المؤمنين ، فيقولون : رَوِّحُوا أخاكم فانه كان فى غَمّ الدنيا . قال : ويسألونه : ما فعل فلان ؟ فيقول مات ، أو ما جاءكم ؟ فيقولون : ذهب به إلى أمه الهاوية (١) .

وقد رواه ابن مَرْدُويَه من طريق أنس بن مالك مرفوعاً ، بأبسط من هذا : وقد أوردناه فى كتاب صفة النار ، أجارنا الله منها بمنه وكرمه .

وقوله : (نار حامية) ، أى : حارة شديدة الحر ، قوية اللهيب والسعير .

قال أبو مصعب ، عن مالك ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة : أن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : « نار بنى آدم التى تُوقدون جزء من سبعين جزء من نار جهنم » . قالوا : يارسول الله ، إن كانت لكافية ؟ فقال : « إنها فُضِّلَتْ عليها بتسعة وستين جُزءاً » .

ورواه البخارى ، عن إسماعيل بن أبى أويس ، عن مالك : ورواه مسلم عن قُتَيْبة ، عن المغيرة بن عبد الرحمن ، عن أبى الزناد به . وفى بعض ألفاظه : « إنها فُضِّلَت عليها بتسعة وستين جزءا ، كلهن مثل حَرِّها(٢) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا حماد — وهو ابن سلمة — عن محمد بن زياد — سمع أبا هريرة يقول — : سمعت أبا القاسم — صلى الله عليه وسلم — يقول : «نار بنى آدم التى توقدون ، جزء من سبعين جزءا من نار جهنم » . فقال رجل : إن كانت لكافية ؟ فقال : « لقد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً حَرّاً فحَرّا(٣) » .

تفرد به أحمد من هذا الوجه ، وهو على شرط مسلم .

وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا سفيان ، عن أبى الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هُرَيْرة ، عن النبى — صلى الله عليه وسلم — وعمرو ، عن يحيى بن جَعْدَة — : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزء من نار جهنم ، وضربت بالبحر مرتين ، ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد(٤) » .

وهذا على شرط الصحة ، ولم يخرجوه من هذا الوجه : وقد رواه مسلم فى صحيحه من طريق(٥) .

---

(١) تفسير الطبرى : ١٨٢/٣٠ .
(٢) البخارى « كتاب بدء الخلق ، باب « صفة النار وأنها مخلوقة » : ١٤٧/٤ . ومسلم « كتاب الجنة ، باب « فى شدة حر نار جهنم ... » : ١٤٩/٨ — ١٥٠ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٤٦٧/٢ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٢٤٤/٢ .
(٥) كذا ، وبعده بياض فى المخطوطة . ولم يقع لنا هذا الحديث فى صحيح مسلم .

ورواه البزار من حديث عبد الله بن مسعود ، وأبي سعيد الخدري : « ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً » .

وقد قال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة ، حدثنا عبد العزيز — هو ابن محمد الدراوردي — عن سُهَيل عن أبيه ، عن أبي هُرَيرة ، عن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : « هذه النار جزء ، من مائة جزء من جهنم(١) » .

تفرد به أيضاً من هذا الوجه ، وهو على شرط مسلم أيضا .

وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا أحمد بن عمرو الخلال ، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي ، حدثنا معن بن عيسى القزاز ، عن مالك ، عن عَمّه أبي سُهَيل ، عن أبيه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « أتدرون ما مثل ناركم هذه من نار جهنم ؟ لهي أشد سواداً من دخان ناركم هذه بسبعين ضعفاً » .

وقد رواه أبو مصعب ، عن مالك . . . ولم يرفعه . وروى الترمذي وابن ماجه ، عن عباس الدُّوريّ ، عن يحيى ابن أبي بُكير : حدثنا شريك ، عن عاصم ، عن أبي صالح ، عن أبي هُرَيرة قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « أوقد على النار ألفَ سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألفَ سنة حتى اسودّت ، فهي سوداء مظلمة(٢) » .

وقد رُوي هذا من حديث أنس وعمر بن الخطاب .

وجاء في الحديث — عند الإمام أحمد — من طريق أبي عثمان النَّهدي ، عن أنس — وأبي نضرة العَبْديّ ، عن أبي سعيد وعجلان مولى المُشمعل ، عن أبي هُرَيرة — عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : « إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان يغلي منهما دماغه(٣) » .

وثبت في الصحيح أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « اشتكت النار إلى ربها فقالت : يارب ، أكل بعضي بعضاً فأذِنَ لها بنَفَسين : نفس في الشتاء ، ونفس في الصيف . فأشدّ ما تجدون في الشتاء من بردها ، وأشدّ ما تجدون في الصيف من حرها(٤) » .

وفي الصحيحين : « إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة ، فان شدّة الحر من فَيحِ جهنّم(٥) » .

آخر تفسير سورة القارعة

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣٧٩/٢ .

(٢) تحفة الأحوذي ، أبواب صفة جهنم ، الحديث ٢٧١٧ : ٣١٦/٧ . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « صفة النار » ، الحديث ٤٣٢٠ : ١٤٤٥/٢ .

(٣) حديث أبي سعيد في المسند : ١٣/٣ ، ٧٨ . وحديث أبي هريرة فيه أيضاً : ٤٣٢/٢ ، ٤٣٩ .

(٤) البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب « صفة النار وأنها مخلوقة » : ١٤٦/٤ .

(٥) البخاري في الكتاب والباب المتقدم : ١٤٦/٤ ، ومسلم ، كتاب المساجد ، باب « استحباب الإبراد بالظهر ... » : ١٠٧/٢ .

تفسير سورة التكاثر

وهى مكيـــة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨

يقول تعالى : شغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها ، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر ، وصرتم من أهلها ؟ !

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا زكريا بن يحيى الوقار المصرى ، حدثنى خالد(١) بن عبد الدائم ، عن ابن زيد ابن أسلم ، عن أبيه قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — (ألهاكم التكاثر) عن الطاعة ، (حتى زرتم المقابر) : حتى يأتيكم الموت » :

وقال الحسن البصرى : (ألهاكم التكاثر) فى الأموال والأولاد :

وفى صحيح البخارى ، فى « الرقاق » منه : وقال لنا أبو الوليد : حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك ، عن أبى بن كعب قال : كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت : (ألهاكم التكاثر) ، يعنى : « لو كان لابن آدم واد من ذهب(٢) » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة : سمعت قتادة يحدث عن مطرف — يعنى ابن عبد الله ابن الشخير — عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو يقول : (ألهاكم التكاثر) ، يقول ابن آدم : مالى مالى . وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت(٣) ؟ » .

ورواه مسلم والترمذى والنسائى ، من طريق شعبة ، به (٤).

وقال مسلم فى صحيحه : حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا حفص بن ميسرة ، عن العلاء ، عن أبيه عن أبى هريرة

---

(١) كذا ، ولم تقع لنا ترجمة خالد هذا .

(٢) البخارى ، كتاب الرقاق ، باب « ما يتقى من فتنة المال » : ٨/١١٥ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٤/٢٤ .

(٤) مسلم ، كتاب الزهد : ٨/٢١١ . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة (ألهاكم التكاثر) ، الحديث ٣٤١٢ : ٩/٢٨٦ — ٢٨٧ ، والنسائى ، كتاب الوصايا ، باب « الكراهية فى تأخير الوصية » : ٦/٢٣٨ .

قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « يقول العبد : مالي مالي ؟ وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى ، أو تصدق فاقتنى (١) ، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس » . تفرد به مسلم (٢) .

وقال البخاري : حدثنا الحميدي ، حدثنا سفيان ، حدثنا عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، سمع أنس ابن مالك يقول : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « يتبع الميتَ ثلاثة ، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد : يتبعه أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله ، ويبقى عمله (٣) » .

وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي ، من حديث سفيان بن عيينة ، به (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى ، عن شعبة ، حدثنا قتادة ، عن أنس : أن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : « يهرم ابن آدم وتبقى منه اثنتان : الحرص والأمل (٥) » . أخرجاه في الصحيحين (٦) .

وذكر الحافظُ ابنُ عساكر ، في ترجمة الأحنف بن قيس — واسمه الضحاك — أنه رأى في يد رجل درهما فقال : لمن هذا الدرهم ؟ فقال الرجل : لي . فقال إنما هو لك إذا أنفقته في أجر أو ابتغاء شكر . ثم أنشد الأحنف متمثلا قول الشاعر (٧) :

أنتَ للمالِ إذا أمسكتَه ... فإذا أنفقتَه فالمالُ لَكْ

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة قال : صالح بن حيان حدثني عن ابن بريدة في قوله : (ألهاكم التكاثر) . قال : نزلت في قبيلتين [من قبائل الأنصار ، في بني حارثة وبني الحارث ، تفاخروا وتكاثروا ، فقالت] إحداهما : فيكم مثلُ فلان بن فلان ، وفلان ؟ وقال الآخرون مثل ذلك ، تفاخروا بالأحياء ، ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور . فجعلت إحدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان ؟ يشيرون إلى القبر — ومثل فلان ؟ وفعل الآخرون مثل ذلك ، فأنزل الله : (ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر) ، لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل .

وقال قتادة : (ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر) كانوا يقولون نحن أكثر من بني فلان ، ونحن أعدّ من بني فلان وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم ، والله مازالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم (٨) .

---

(١) كذا في المخطوطة ، وفي مسلم : « أو أعطى فاقتنى » . ومعنى « اقتنى » : ادخره لآخرته .
(٢) مسلم ، كتاب الزهد : ٢١١/٨ .
(٣) البخاري ، كتاب الرقاق ، باب « سكرات الموت » : ١٣٤/٨ .
(٤) مسلم ، كتاب الزهد : ٢١١/٨ — ٢١٢ . وتحفة الأحوذي ، أبواب الزهد ، الحديث ٢٤٨٥ : ٥٠/٧ والنسائي ، كتاب الجنائز ، باب « النهي عن سب الأموات » : ٥٣/٤ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ١١٥/٣ .
(٦) البخاري ، كتاب الرقاق ، باب « من يبلغ ستين سنة » : ١١١/٨ . ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب « كراهة الحرص على الدنيا » : ٩٩/٣ .
(٧) البيت في عيون الأخبار لابن قتيبة ، منسوباً إلى بعض المحدثين : ١٨١/٣ .
(٨) تفسير الطبري : ١٨٣/٣٠ .

والصحيح أن المراد بقوله : (زرتم المقابر) ، أى : صرتم إليها ودفنتم فيها ، كما جاء فى الصحيح : أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ دخل على رجل من الأعراب يعوده ، فقال : « لا بأس ، طَهُور إن شاء الله » . فقال : قلت : طَهُور ؟! بل هى حمى تفور ، على شيخ كبير ، تُزيره القبور ! . قال : « فنَعَم إذاً »[١] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا محمد بن سعيد الأصبهانى ، أخبرنا حكام بن سَلْم الرازى ، عن عمرو ابن أبى قيس ، عن الحجاج عن المنهال ، عن زر بن حبيش ، عن على قال : ما زلنا نشك فى عذاب القبر حتى نزلت : (ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر) .

ورواه الترمذى عن أبى كريب ، عن حكام بن سَلْم ، وقال . « غريب[٢] » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا ، سلمة بن داود العُرْضى ، حدثنا أبو المليح الرقى ، عن ميمون بن مهران قال : كنت جالساً عند عمر بن عبد العزيز ، فقرأ : (ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر) ، فلبث هُنَيهة فقال : ياميمون ، ما أرى المقابر إلا زيارة ، وما للزائر بد من أن يرجع إلى منزله .

قال أبو محمد[٣] : يعنى أن يرجع إلى منزله ــ إلى جنة أو نار . وهكذا ذُكِرَ أن بعض الأعراب سمع رجلا يتلو هذه الآية (حتى زرتم المقابر) ، فقال : بُعِثَ اليوم وربِّ الكعبة . أى : إن الزائر سيرحل من مقامه ذلك إلى غيره .

وقوله : (كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون) ــ قال الحسن البصرى : هذا وعيد بعد وعيد .

وقال الضحاك : (كلا سوف تعلمون) ، يعنى الكفار ، (ثم كلا سوف تعلمون) يعنى : أيها المؤمنون[٤] .

وقوله : (كلا لو تعلمون علم اليقين) ، أى : لو علمتم حق العلم لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة ، حتى صرتم إلى المقابر .

ثم قال : (لترون الجحيم * ثم لترونها عين اليقين) ، هذا تفسير الوعيد المتقدم ، وهو قوله : (كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون) تَوعَّدَهم بهذا الحال ، وهى رؤية النار التى لو إذا زفرت زفرة خرّ كل ملك مقرب ، ونبى مرسل على ركبتيه ، من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال ، على ما جاء به الأثر المروى فى ذلك .

وقوله (ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم)[٥] ، أى : ثم لتسئلن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم ، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك : ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته .

---

(١) البخارى ، كتاب المناقب ، باب « علامات النبوة فى الإسلام » : ٢٤٦/٥ . وكتاب المرضى ، باب « عيادة الأعراب » : ١٥٢/٦ . وكتاب التوحيد : ١٦٩/٩ – ١٧٠ . ومسند الإمام أحمد عن أنس بن مالك : ٢٥٠/٣ .

(٢) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة (ألهاكم التكاثر) ، الحديث ٣٤١٣ : ٢٨٨/٩ . وأخرجه الطبرى من حديث قيس عن حجاج : ١٨٣/٣٠ .

(٣) أبو محمد هو : ابن أبى حاتم .

(٤) تفسير الطبرى : ١٨٤/٣٠ .

(٥) فى المخطوطة : « وغير ذلك ، فإذا قابلتم » . والمثبت من الطبعات السابقة .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا زكريا بن يحيى الخزاز المقرى ، حدثنا عبد الله بن عيسى أبو خالد الخزاز حدثنا يونس بن عبيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه سمع عمر بن الخطاب يقول : خرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عند الظهيرة ، فوجد أبا بكر في المسجد فقال : « ما أخرجك هذه الساعة ؟ » قال : أخرجني الذي أخرجك يارسول الله . قال : وجاء عمر بن الخطاب فقال : « ما أخرجك ياابن الخطاب ؟ » . قال : أخرجني الذي أخرجكما ؛ قال : فقعد عمر ، وأقبل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يحدثهما ، ثم قال : «هل بكما من قوة ، تنطلقان إلى هذا النخل فتصيبان طعاماً وشراباً وظلا ؟ » . قلنا : نعم . قال : « مُرّوا بنا إلى منزل ابن التَّيِّهان أبي الهيثم الأنصاري» ؛ قال : فتقدم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بين أيدينا ، فسلم واستأذن — ثلاث مرات — وأم الهيثم من وراء الباب تسمع الكلام ، تريد أن يزيدها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من السلام ، فلما أراد أن ينصرف خرجت أم الهيثم تسعى خلفهم ، فقالت : يارسول الله ، قد — والله — سمعت تسليمك ، ولكن أردت أن تزيدنا من سلامك . فقال لها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « خيراً » . ثم قال : « أين أبو الهيثم ؟ لا أراه » . قالت : يارسول الله ، هو قريب ذهب يَستعذبُ(١) الماء ، ادخلوا فانه يأتى الساعة إن شاء الله فبسطت — بساطا تحت شجرة ، فجاء أبو الهيثم ففرح بهم وقرّت عيناه بهم ، فصعد على نخلة فصَرَم لهم أعذاقاً ، فقال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : «حَسْبُكَ ياأبا الهيثم » . قال يارسول الله ، تأكلون من بُسره ، ومن رُطبه ، ومن تَذْنُوبه(٢) . ثم أتاهم بماء فشربوا عليه ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : « هذا من النعيم الذى تسألون عنه » . هذا غريب من هذا الوجه ؛

وقال ابن جرير : حدثنى الحُسَيْن(٣) بن على الصدائى ، حدثنا الوليد بن القاسم ، عن يزيد بن كيسان ، عن أبي حازم عن أبي هريرة قال : بينما أبو بكر وعمر جالسان ، إذ جاءهما النبى — صلى الله عليه وسلم — فقال : « ما أجلسكما هاهنا ؟» قالا : والذى بعثك بالحق ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع . قال : « والذى بعثنى بالحق ما أخرجنى غيره » ؛ فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار ، فاستقبلتهم المرأة ، فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — : « أين فلان ؟ » فقالت : ذهب يستعذب لنا ماء : فجاء صاحبهم يحمل قربته فقال [مرحبا] مازار العباد [شىء] أفضل من شىء زارنى اليوم . فعلق قرْبَتَهَ بكرَب(٤) نخلة ، وانطلق فجاءهم بعذْق(٥) فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — : «ألا كنت اجتنيت؟» فقال : أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم . ثم أخذ الشفْرة ، فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — : « إياك والحلوب ؟ » فذبح لهم يومئذ ، فأكلوا . فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — : « لتسئلن عن هذا يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا ، فهذا من النعيم » ؟

---

(١) أى : يحضر الماء العذب ، وهو الطيب الذى لا ملوحة فيه .

(٢) التذنوب : الذى بدا فيه الإرطاب من قبل ذنبه .

(٣) فى تفسير الطبرى : « الحسن » . والصواب ما هنا ، انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ١/٢/٥٦ .

(٤) الكرب — بفتحتين — : أصل السعف .

(٥) العذق — بكسر فسكون — : العرجون بما فيه من الشماريخ .

ورواه مسلم من حديث يزيد بن كيسان(١) ، به ورواه أبو يعلى وابن ماجه ، من حديث المحاربي ، عن يحيى بن عُبَيد الله ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، عن أبي بكر الصديق ، به(٢) . وقد رواه أهل السنن الأربعة ، من حديث عبد الملك بن عمير ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، بنحو من هذا السياق وهذه القصة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا سُرَيج ، حدثنا حشرج ، عن أبي نُصَيرة ، عن أبي عسيب ــ يعني مولى رسول الله ــ قال : خرج رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ليلا فمرّ بي ، فدعاني فخرجت إليه ، ثم مرّ بأبي بكر فدعاه فخرج إليه ثم مر بعمر فدعاه فخرج إليه فانطلق حتى أتى(٣) حائطا لبعض الأنصار ، فقال لصاحب الحائط : « أطعمنا » . فجاء بعذْق فوضعه ، فأكل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأصحابه ، ثم دعا بماء بارد فشرب ، وقال : « لتسئلن عن هذا يوم القيامة » . قال : فأخذ عُمَرُ العذْقَ فَضَرب به الأرض ، حتى تناثر البُسرُ قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : يارسول الله ، إنا لمسئول عن هذا يوم القيامة ؟ : قال : « نعم ، إلا من ثلاثة : خرقة لفّ(٤) بها الرجل عورته أو كسرة سَدّ بها جوعته ، ، أو جحر تَدَخّل فيه من الحر والقر » . تفرد(٥) به أحمد .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا حماد ، حدثنا عمار ، سمعت جابر بن عبد الله يقول : أكل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم وأبو بكر [وعمر] رطباً ، وشربوا ماء ، فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ (هذا من النعيم الذى تسئلون عنه(٦) » .

ورواه النسائي ، من حديث حماد بن سلمة ، به(٧) ؛

وقال الإمام أحمد : حدثنا أحمد : حدثنا يزيد ، حدثنا محمد بن عمرو ، عن صفوان بن سليم ، عن محمود بن الربيع قال : لما نزلت (الهاكم التكاثر) ، فقرأ حتى : بلغ : (لتسئلن يومئذ عن النعيم) ، قالوا : يارسول الله ، عن أى نعيم نُسأل ؟ وإنما هما الأسودان الماء والتمر ، وسيوفنا على رقابنا ، والعدو حاضر ، فعن أى نعيم نسأل ؟ قال : « أما إن ذلك سيكون (٨) » ؛

وقال أحمد : حدثنا أبو عامر ، عبد الملك بن عمرو ، حدثنا عبد الله بن سليمان(٩) ، حدثنا معاذ بن عبدالله بن خُبَيب ، عن أبيه ، عن عمه قال : كنا فى مجلس فطلع علينا النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وعلى رأسه أثر ماء ، فقلنا : يارسول الله ،

---

(١) مسلم ، كتاب الأشربة ، باب « جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك ، ويتحققه تحققا تاما . واستحباب الاجتماع على الطعام » : ٦/١١٦ ــ ١١٧ .

(٢) سنن ابن ماجه ، كتاب الذبائح ، باب « النهى عن ذبح ذوات الدر » ، الحديث ٣١٨١ : ٢/١٠٦٢ .

(٣) فى المسند : « دخل حائطا » . وما فى المخطوطة يوافقه ما فى أسد الغابة ، الترجمة ٦٠٩٧ : ٦/٢١٤ ــ ٢١٥ .

(٤) فى المسند : « كف بها » .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٥/٨١ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٣/٣٥١ .

(٧) النسائى ، كتاب الوصايا ، باب « قضاء الدين قبل الميراث » : ٦/٢٤٦ .

(٨) مسند الإمام أحمد : ٥/٤٢٩ .

(٩) فى المسند : « عبد الله بن أبي سليمان » . وما هنا يوافق ما فى الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٢/٢/٧٤ . وابن ماجه .

نراك طيب النفس ، قال : « أجل » : قال : ثم خاض الناس فى ذكر الغنى ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « لا بأس بالغنى لمن اتقى الله ، والصحة لمن اتقى [الله] خير من الغنى ، وطيب النفس من النعيم (١) » .

ورواه ابن ماجه ، عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن خالد بن مخلد ، عن عبد الله بن سليمان به (٢) .

وقال الترمذى : حدثنا عبد بن حميد ، حدثنا شبابة ، عن عبد الله بن العلاء ، عن الضحاك بن عبد الرحمن بن عرزم الأشعرى قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال النبى — صلى الله عليه وسلم — : « إن أول ما يسأل عنه — يعنى (٣) يوم القيامة — العبد من النعيم أن يقال له : ألم نُصحّ لك جسمك ، ونُرْوِكَ من الماء البارد (٤) » .

تفرد به الترمذى . ورواه ابن حبان فى صحيحه ، من طريق الوليد بن مسلم ، عن عبد الله بن العلاء بن زَبْر ، به .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا مسدد ، حدثنا سفيان ، عن محمد بن عمرو ، عن يحيى بن حاطب ، عن عبد الله بن الزبير قال : قال الزبير : لما نزلت : (لتسئلن يومئذ عن النعيم) ، قالوا : يارسول الله ، لأىّ نعيم نسأل عنه ، وإنما هما الأسودان التمر والماء ؟ قال : « إن ذلك سيكون » . وكذا رواه الترمذى وابن ماجه ، من حديث سفيان — هو ابن عيينة — به . ورواه أحمد عنه ، وقال الترمذى : حسن (٥) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو عبد الله الظهرانى ، حدثنا حفص بن عمر العَدَنى ، عن الحكم بن أبان ، عن عكرمة قال : لما أنزلت هذه الآية : (ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم) ، قالت الصحابة : يارسول الله ، وأىّ نعيم نحن فيه ، وإنما نأكل فى أنصاف بطوننا خبز الشعير ؟ فأوحى الله إلى نبيه — صلى الله عليه وسلم — : قل لهم : أليس تحتذون النعال ، وتشربون الماء البارد ؟ فهذا من النعيم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا إبراهيم بن موسى ، أخبرنا محمد بن سُليمان بن الأصبهانى ، عن ابن أبى ليلى — أظنه عن عامر — عن ابن مسعود ، عن النبى صلى الله عليه وسلم — فى قوله : (لتسئلن يومئذ عن النعيم) ، قال : « الأمن والصحة » .

وقال زيد بن أسلم ، عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : (ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم) ، يعنى : شبع البطون ، وبارد الشراب ، وظلال المساكن ، واعتدال الخَلْق ، ولذة النوم . رواه ابن أبى حاتم بإسناده المتقدم عنه فى أول السورة .

وقال سعيد بن جبير : حتى عن شربة عسل . وقال مجاهد : عن كل لذة من لذات الدنيا . وقال الحسن البصرى : نعيمُ الغداء والعشاء ، وقال أبو قلابة : من النعيم أكل العسل والسمن بالخبز النَّقِىّ . وقول مجاهد هذا أشمل هذه الأقوال .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣٧٢/٥ ، ٣٨٠ — ٣٨١ .

(٢) سنن ابن ماجه ، كتاب التجارات ، باب « الحث على المكاسب » ، الحديث ٢١٤١ : ٧٢٤/٢ .

(٣) فى تحفة الأحوذى : « يعنى العبد يوم القيامة » .

(٤) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة (ألهاكم التكاثر) ، الحديث ٣٤١٦ : ٢٩٠/٩ — ٢٩١ .

(٥) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة (ألهاكم التكاثر) ، الحديث ٣٤١٤ : ٢٨٩/٩ وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « معيشة أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم » ، الحديث ٤١٥٨ : ١٣٩٢/٢ ، ومسند الإمام أحمد : ١٧٤/١ .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم) ، قال : النعيم : صحة الأبدان والأسماع والأبصار يسأل الله العباد فيما استعملوها ، وهو أعلم بذلك منهم ، وهو قوله تعالى: (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) ؟ .

وثبت في صحيح البخاري ، وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجه ، من حديث عبد الله بن سعيد بن أبي هند ، عن أبيه ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « نعمتان مغبون فيهما كثير الناس : الصحة والفراغ(١) » .

ومعنى هذا أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين ، لا يقومون بواجبهما ، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه فهو مغبون .

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا القاسم بن محمد بن يحيى المروزي ، حدثنا علي بن الحسن بن شقيق ، حدثنا أبو حمزة ، عن ليث ، عن أبي فزارة ، عن يزيد بن الأصم ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « ما فوق الإزار ، وظل الحائط وخُبْز ، – يحاسب به العبد يوم القيامة ، أو يسأل عنه(٢) » . ثم قال : لا نعرفه إلا بهذا الاسناد .

وقال الإمام أحمد : حدثنا بهز وعفان قالا : حدثنا حماد – قال عفان في حديثه : قال إسحاق بن عبد الله ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : « يقول الله عز وجل – قال عفان : يوم القيامة – : يا ابن آدم ، حملتك على الخيل والإبل ، وزوجتك النساء ، وجعلتك تَرْبَع(٣) وترأس ، فأين شكر ذلك ؟ (٤) » . تفرد به من هذا الوجه .

آخر تفسير سورة « التكاثر »

---

(١) البخاري ، ، أول كتاب الرقاق : ٨/١٠٩ . وتحفة الأحوذي ، أول أبواب الزهد ، الحديث ٢٤٠٥ – ٢٤٠٦ : ٦/٥٨٩ – ٥٩٠ . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « الحكمة » ، الحديث ٤١٧٠ : ٢/١٣٩٦ . ومسند الإمام أحمد : ١/٢٥٨ ، ٣٤٤ .

(٢) أخرجه السيوطي في الدر المنثور عن البزار ، انظر : ٦/٣٩١ .

(٣) انظر تفسير ذلك في : ١/١٢٦ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٢/٤٩٢ .

تفسير سورة العصر

وهى مكيــة

ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب ، وذلك بعد ما بعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقبل أن يسلم عمرو ، فقال له مسيلمة : ماذا أنزل على صاحبكم فى هذه المدة ؟ قال : لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة . فقال : وما هى ؟ فقال : (والعصر * إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر) . ففكر مسيلمة هُنَيْهة ثم قال : وقد أنزل على مثلها . فقال له عمرو : وما هو ؟ : فقال : ياوَبْر يا وَبْر ، إنما أنت أذنان وصَدْر ، وسائرك حفر نَقْر . ثم قال : كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله إنك لتعلم أنى أعلم أنك تكذب (١) .

وقد رأيت « أبا بكر الخرائطى » أسند فى كتابه المعروف « بمساوى الأخلاق » ، فى الجزء الثانى منه ، شيئاً من هذا أو قريباً منه .

والوبر : دويبة تشبه الهرّ ، أعظم شىء فيه أذناه ، وصدره وباقيه دميم . فأراد مسيلمة أن يركب من هذا الهذيان ما يعارض به القرآن . فلم يرج ذلك على عابد الأوثان فى ذلك الزمان .

وذكر الطبرانى من طريق حماد بن سلمة ، عن ثابت ، عن عبيد الله بن حصن(٢) ، قال : كان الرجلان من أصحاب رسول الله إذا التقيا لم يتفرقا [إلا] على أن يقرأ أحدهما على الآخر « سورة العصر » إلى آخرها ، ثم يسلم أحدهما على الآخر .

وقال الشافعى رحمه الله : لو تدبر الناس هذه السورة لو سعتهم .

---

(١) تقدم هذا الأثر عند تفسير الآية السابعة عشرة من سورة يونس ، وشرحنا غريبه هنالك . انظر : ٤/١٩٢ .

(٢) كذا فى المخطوطة . وفى الطبعات السابقة : « عبيد الله بن حفص » . هذا وقد وقع فى المصورة بعد « حصن » : « أبى مدينة » . وقد أخرج السيوطى الأثر فى الدر المنثور ٦/٣٩١ – ٣٩٢ وقال : « وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى مليكة الدارمى (كذا ، ولعله الدماوى) — وكانت له صحبة — ... » . وذكر الحديث ، فلعل ما فى المخطوطة وهو : « أبى مدينة » محرف من أبى مليكة . والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

العصر : الزمان الذى يقع فيه حركاتُ بنى آدم ، من خير وشر .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : هو العَشِىّ (١) والمشهور الأول .

فأقسم تعالى بذلك على أن الإنسان لفى خسر ، أى : فى خسارة وهلاك ، (إلا الذين آمنوا [وعملوا الصالحات) ، فاستثنى من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا] بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ، (وتواصوا بالحق) ، وهو أداء الطاعات ، وترك المحرمات ، (وتواصوا بالصبر) على المصائب والأقدار ، وأذى من يؤذى ممن يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر .

(آخر تفسير « سورة العصر » ولله الحمد والمنة)

---

(١) فى المخطوطة : « هو العشر » . وانظر الآثار فى ذلك فى تفسير القرطبى : ١٧٩/٢٠ .

تفسير سورة ويل لكل همزة لمزة

وهى مكيـــة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾

الهماز بالقول ، واللماز بالفعل . يعنى يزدرى بالناس وينتقص بهم ؛ وقد تقدم بيان ذلك فى قوله : (هماز مشاء بنميم(١)) .

قال ابن عباس : (همزة لمزة) : طعان معياب . وقال الربيع بن أنس : الهُمَزة ، يهمزه فى وجهه ، واللُّمَزة من خلفه . وقال قتادة يهمزه ويلمزه بلسانه وعينه ، ويأكل لحوم الناس ، ويطعُن عليهم(٢) .

وقال مجاهد : الهمزة باليد والعين ، واللُّمَزةُ باللسان . وهكذا قال ابن زيد . وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : هُمَزة لحوم الناس .

ثم قال بعضهم : المراد بذلك الأخنس بن شَرِيق : وقيل غيره . وقال مجاهد : هى عامة .

وقوله : (الذى جمع مالا وعدده) ، أى : جمعه بعضه على بعض ، وأحصى عدده كقوله : (وجمع فأوعى(٣)) قاله السدى ، وابن جرير .

وقال محمد بن كعب فى قوله . (جمع مالا وعدده) ، ألهاه ماله بالنهار ، هذا إلى هذا ، فاذا كان الليل نام كأنه جيفة .

وقوله : (يحسب أن ماله أخلده) ، أى : يظن أن جمعه المال يخلده فى هذه الدار ، (كلا ، أى : ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب . ثم قال تعالى (لينبذن فى الحطمة) ، [أى ليلقين هذا الذى جمع مالا فعدده فى الحطمة] وهى اسم من أسماء النار صفة ، لأنها تحطم من فيها . ولهذا قال : (وما أدراك ما الحطمة ؟ نار الله الموقدة . التى تطلع على الأفئدة) — قال ثابت البنانى : تحرقهم إلى الأفئدة وهم أحياء ، ثم يقول : لقد بلغ منهم العذاب ، ثم يبكى .

وقال محمد بن كعب : تأكل كل شىء من جسده ، حتى [إذا] بلغت فؤاده حَذْوَ حلقه ترجع على جسده(٤) .

وقوله : (إنها عليهم مؤصدة) ، أى : مطبقة كما تقدم تفسيره فى سورة البلد .

وقال ابن مَرْدُويه : حدثنا عبد الله بن محمد ، حدثنا على بن سراج ، حدثنا عثمان بن خُرَّزاذ ، حدثنا شجاع

---

(١) سورة القلم ، آية : ١١ .

(٢) تفسير الطبرى : ٣٠/١٨٩ .

(٣) سورة المعارج ، آية : ١٨ .

(٤) قال السيوطى فى الدر المنثور ٦/٣٩٣ : «وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم ، عن محمد بن كعب فى قوله : (التى تطلع على الأفئدة) ، قال : تأكل كل شىء منه ، حتى تنتهى إلى فؤاده ، فاذا بلغت فؤاده ابتدىء خلقه» .

ابن أشرس ، حدثنا شريك ، عن عاصم ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، عن النبي — صلى الله عليه وسلم — : (إنها عليهم مؤصدة) ، قال : مطبقة .

وقد رواه أبو بكر بن أبي شيبة ، عن عبد الله بن أسيد ، عن إسماعيل بن خالد ، عن أبي صالح ، قوله ، ولم يرفعه .

(في عمد ممددة) ، قال عطية العوفي : عمد من حديد . وقال السدي : من نار . وقال شبيب بن بشر ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : (في عمد ممددة) ، يعني : الأبواب هي الممدودة .

وقال قتادة في قراءة عبد الله بن مسعود : إنها عليهم مؤصدة بعمد ممددة(١) .

وقال العوفي ، عن ابن عباس: أدخلهم في عمد فمدت عليهم بعماد ، وفي(٢) أعناقهم السلاسل فسدت بها الأبواب .

وقال قتادة : كنا نحدث أنهم يعذبون بعمد في النار . واختاره ابن جرير .

وقال أبو صالح : (في عمد ممددة) ، يعني القيود الطوال .

آخر تفسير سورة « ويل لكل همزة لمزة »

---

(١) انظر تفسير الطبري : ٣٠/١٩٠ .

(٢) في المخطوطة : « في » . دون واو . والمثبت عن الطبري : ٣٠/٢٩١ .

تفسير سورة الفيل

وهي مكيـة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥)

هذه من النعم التى امتن الله بها على قريش ، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل ، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود ، فأبادهم الله ، وأرغم آنافهم ، وخيب سعيهم ، وأضل عملهم ، وردّهم بشرّ خيبة . وكانوا قوما نصارى ، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالا مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان ؛ ولكن كان هذا من باب الارهاص والتوطئة لمبعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فانه فى ذلك العام ولد على أشهر الأقوال ، ولسان حال القدر يقول : لم — ننصركم — يا معشر قريش — على الحبشة لخيريتكم عليهم ، ولكن صيانة للبيت العتيق الذى سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبى الأمى محمد — صلوات الله وسلامه عليه — خاتم الأنبياء .

وهذه قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والاختصار والتقريب،قد تقدم فى قصة أصحاب الأخدود(١)؛ أن ذا نُوَاس — وكان آخر ملوك حمير ، وكان مشركاً — هو الذى قتل أصحاب الأخدود ، وكانوا نصارى ، وكانوا قريباً من عشرين ألفاً ، فلم يفلت منهم إلا دَوسُ ذو ثعلبان ، فذهب فاستغاث بقيصر ملك الشام — وكان نصرانياً — فكتب له إلى النجاشى ملك الحبشة ، لكونه أقرب إليهم ، فبعث معه أميرين : أرياط وأبرهة بن الصباح أبا يكسوم ، فى جيش كثيف ، فدخلوا اليمن فجاسوا خلال الديار ، واستلبوا الملك من حمير ، وهلك ذو نواس غريقاً فى البحر ، واستقل الحبشة بملك اليمن وعليهم هذان الأميران : أرياط وأبرهة ، فاختلفا فى أمرهما وتصاولا وتقاتلا وتصافا ، فقال أحدهما للآخر : إنه لا حاجة بنا إلى اصطدام الجيشين بيننا ، ولكن ابرز إلى وأبرز إليك ، فأينا قتل الآخر استقل بعده بالملك . فأجابه إلى ذلك فتبارزا ، وخلْفَ كل واحد منهما قناة ، فحمل أرياط على أبرهة فضربه بالسيف فشرم أنفه وفمه وشق وجهه ، وحمل عَتَوْدَةَ مولى أبرهة على أرياط فقتله ، ورجع أبرهة جريحاً ، فداوى جرحه فبَرأ ، واستقل بتدبير جيش الحبشة باليمن . فكتب إليه النجاشى يلومه على ما كان منه ، ويتوعده ويحلف ليطأن بلاده ويجزن ناصيته . فأرسل إليه أبرهة يترقق له ويصانعه ، وبعث مع رسوله بهدايا وتحف ، وبجراب فيه من تراب

---

(١) انظر تفسير الآية الرابعة من سورة البروج .

اليمن ، وجز ناصيته فأرسلها معه ، ويقول فى كتابه : ليطأ الملك على هذا الجراب فيَبَرّ قسمه ، وهذه ناصيتى قد بعثت بها إليك . فلما وصل ذلك إليه أعجبه منه ، ورضى عنه ، وأقره على عمله . وأرسل أبرهة يقول للنجاشى : إنى سأبنى لك كنيسة بأرض اليمن لم يُبْنَ قبلها مثلها . فشرع فى بناء كنيسة هائلة بصنعاء ، رفيعة البناء ، عالية الفناء ، مزخرفة الأرجاء . سمتها العرب القُلَّيس ، لارتفاعها ، لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها . وعزم أبرهة الأشرمُ على أن يصرف حَجّ العرب إليها كما يحج إلى الكعبة بمكة ، ونادى بذلك فى مملكته . فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك ، وغضبت قريش لذلك غضباً شديداً ، حتى قصدها بعضهم ، وتوصل إلى أن دخلها ليلا ، فأحدث فيها وكرّ راجعاً . فلما رأى السدنة ذلك الحدث رفعوا أمره إلى ملكهم أبرهة ، وقالوا له : إنما صنع هذا بعض قريش غضباً لبيتهم الذى ضاهيت هذا به . فأقسم أبرهة ليسيرنّ إلى بيت مكة ، وليخربنه حجراً حجراً .

وذكر مقاتل بن سليمان أن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها ناراً ، وكان يوماً فيه هواء شديد فأحرقته ، وسقطت إلى الأرض .

فتأهب أبرهة لذلك ، وصار فى جيش كثيف عَرَمْرم لئلا يصدّه أحد عنه ، واستصحب معه فيلا عظيما كبير الجثة لم ير مثله ، يقال له : محمود . وكان قد بعثه إليه النجاشى ملك الحبشة لذلك ، ويقال : كان معه أيضاً ثمانية أفيال ، وقيل : اثنا عشر فيلا . وقيل غيره ، والله أعلم . يعنى ليهدم به الكعبة ، بأن يجعل السلاسل فى الأركان ، وتوضع فى عُنُق الفيل ، ثم يزجر ليلقى الحائط جملة واحدة . فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا ذلك جداً ، ورأوا أن حقاً عليهم المحاجبة دون البيت ، ورَدّ من أراده بكيد . فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم ، يقال له « ذو نَفْر » فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة ، وجهاده عن بيت الله ، وما يريد من هَدْمه وخرابه . فأجابوه وقاتلوا أبرهة ، فهزمهم لما يريده الله — عز وجل — من كرامة البيت وتعظيمه ، وأسر « ذو نَفْر » فاستصحبه معه . ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم عَرَض له نُفَيل بن حَبِيب الخثْعمى فى قومه : شهران وناهس(١) ، فقاتلوه ، فهزمهم أبرهة ، وأسر نُفَيل بن حبيب ، فأراد قتله ثم عفا عنه ، واستصحبه معه ليدله فى بلاد الحجاز . فلما اقترب من أرض الطائف خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم ، الذى عندهم ، الذى يسمونه اللات . فأكرمهم وبعثوا معه « أبا رِغَال » دليلا . فلما انتهى أبرهة إلى المُغَمّس — وهو قريب من مكة — نزل به وأغار جيشه على سَرْح(٢) أهل مكة من الإبل وغيرها ، فأخذوه . وكان فى السرح مائتا بعير لعبد المطلب . وكان الذى أغار على السرح بأمر أبرهة أمير المقدمة ، وكان يقال له « الأسود بن مَقْصود » فهجاه بعض العرب — فيما ذكره ابن إسحاق(٣) — وبعث أبرهة حناطة الحميرى إلى مكة ، وأمره أن يأتيه بأشرف قريش ، وأن يخبره أن الملك لم يجئ لقتالكم إلا أن تَصُدّوه عن البيت . فجاء حناطة فَدُل على عبد المطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال . فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت

(١) شهران وناهس هما ولد عفرمس بن حلف بن خثعم . انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ٣٩٠ .

(٢) السرح : الماشية .

(٣) انظر سيرة ابن هشام : ١/٥١ .

خليله إبراهيم ، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، وإن يخلي بينه وبينه ، فو الله ما عندنا دَفْع عنه ؛ فقال له حناطة : فاذهب معي إليه . فذهب معه ، فلما رآه أبرهة أجلّه ، وكان عبد المطلب رجلا جميلا حسن المنظر ، ونزل أبرهة عن سريره ، وجلس معه على البساط ؟ وقال لترجمانه : قل له : حاجتك ؟ فقال الترجمان : إن حاجتي أن يرد على الملك مائتي بعير أصابها لي . فقال أبرهة لترجمانه : قل له : لقد كنت أعجبتني حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه ، لا تكلمني فيه ؟! فقال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربا سيمنعه . قال : ما كان ليمتنع مني ! قال أنت وذاك .

ويقال : إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشراف العرب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت ، فأبى عليهم ، ورد أبرهةُ على عبد المطلب إبله ، ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة ، والتحصن في رءوس الجبال ، تخوفا عليهم من معَرّة الجيش . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدْعُونَ الله ويستنصرونه على أبرهه وجنده ، وقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لا(١) هُمّ إنّ المرْء يمـ ... ـنعُ رَحْلَه فامنَعْ حلالَكْ(٢)

لا يغْلبَنّ صليبهُمْ ... ومِحالُهُمْ غدْوا (٣)مِحالَكْ

قال ابن إسحاق : ثم أرسل عبد المطلب حَلْقة الباب ، ثم خرجوا إلى رءوس الجبال(٤) .

وذكر مقاتل بن سليمان أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مُقَلَّدة ، لعل بعضَ الجيش ينال منها شيئا بغير حق ، فينتقم الله منه

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ، وهيّأ فيله ــ وكان اسمه محمودا ــ وعبأ جيشه فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نُفَيل بن حَبيب حتى قام إلى جَنْبه ، ثم أخذ بأذنه وقال : « أبرُكْ محمود ، أو ارجع راشداً من حيث جئت ، فانك في بلد الله الحرام » ؛ ثم أرسَل أذنه ، فبرك الفيل ، وخرج نفيل بن حبيب يشتد(٥) حتى أصعد(٦) في الجبل ؛ وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوا في رأسه بالطَبرْزين(٧) وأدخلوا محاجن لهم في مَرَاقّه فبزَغُوه(٨) بها ليقوم ، فأبى ، فوجهوه راجعاً

---

(١) لاهم : أصلها « اللهم » . والعرب تحذف الألف واللام منها ، وتكتفي بما بقي .

(٢) الحلال ــ بكسر الحاء ــ : القوم المقيمون المتجاورون ، يريد بهم سكان الحرم .

(٣) المحال ــ بكسر الميم ــ : القوة والشدة . وفي المخطوطة : « ومحالهم عدواً » . والمثبت من سيرة ابن هشام : ١ / ٥١ ، والنهاية لابن الأثير . يقول ابن الأثير : « الغدو : أصل الغد ، وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك ، فحذفت لامه ، ولم يستعمل تاما إلا في الشعر . . . » .

(٤) انظر سيرة ابن هشام : ١ / ٥٢ .

(٥) أي يسرع .

(٦) أي : علا .

(٧) الطبرزين : آلة معقفة من حديد .

(٨) مراقه : أسفل بطنه . ويزغوه : أدموه .

إلى اليمن فقام يهرول : ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك ، وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبَلَسان، (١) مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر فى منقارة، وحجران فى رجليه ، أمثال الحِمّص والعَدَس ، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك، وليس كلهم أصابت . وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق ، ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق . هذا ونفيل على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز ، ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة ، وجعل نفيل يقول :

أينَ المفَرُّ ؟ والالهُ الطّالبُ والأشرَمُ المغلوبُ غير(٢) الغالب

قال ابن إسحاق : وقال نُفَيل فى ذلك أيضاً :

ألا حُيِّيت عنّا يارُدَينا (٣) نَعِمْناكُم(٤) معَ الإصباحِ عَيْنا
ودَينَةُ ، لو رأيت ــ ولا ترَيْه لدَى جَنْبِ المحصَّب(٥) ــ ما رأينا
إذا لعَذَرْتنى وحَمَدْت أمْرى ولَم تأسَى علَى ما فات بَيْنَنا
حَمِدتُ الله إذا أبصَرتُ طيراً وَخِفتُ حَجارةً تُلقَى علَينا
فكُلّ القوم يسألُ عن نُفَيل كأنّ علَى للحُبْشان دَيناً ؟

وذكر الواقدى بأسانيده أنهم لما تعبئوا لدخول الحرم وهيئوا الفيل ، جعلوا لا يصرفونه إلى جهة من سائر الجهات إلا ذهب ، فاذا وجهوه إلى الحرم رَبَض وصاح . وجعل أبرهه يحمل على سائس الفيل وينهره ويضربه ، ليقهر الفيل على دخول الحرم . وطال الفصل فى ذلك . هذا وعبد المطلب وجماعة من أشراف مكة ، منهم المطعم بن عدى، وعمرو ابن عائذ بن عمران بن مخزوم ، ومسعود الثقفى(٦)، على حراء ينظرون إلى ما الحبشة يصنعون ، وماذا يلقون من أمر الفيل وهو العجب العجاب . فبينما هم كذلك إذ بعث الله عليهم طيراً أبابيل، أى قطَعاً قِطَعاً صفرا دون الحمام، وأرجلها حمر ، ومع كل طائر ثلاثة أحجار ، وجاءت فحلقت عليهم ، وأرسلت تلك الأحجار عليهم فهلكوا .

---

(١) الخطاطيف : جمع خطاف ــ كرمان ــ وهو طائر أسود ، وهو الذى تدعوه العامة عصفور الجنة . والباسان ــ كذا ، ومثله فى النهاية ــ ويقول ابن الأثير : « قال عباد بن موسى : أظنها الزرازير . والبلسان : شجر كثير الورق ينبت بمصر ، وله دهن معروف » . انتهى كلام ابن الأثير . وفى اللسان ، مادة زرر : « والزرزور : طائر » . هذا وقد قال أبو ذر الخشنى فى شرحه على السيرة ١ / ١٨ : « والخطاطيف والبلشون : ضربان من الطير » .

(٢) كذا فى المخطوطة ، وتفسير الطبرى : ٣٠ / ١٩٦ ، وتاريخه : ١٣٦/٢ . وفى سيرة ابن هشام ٥٣/١ : « ليس الغالب » .

(٣) ردينا : مرخم ردينة ، وهو اسم امرأة .

(٤) أى : نعمنا بكم .

(٥) المحصب بضم الحاء ، وفتح الحاء ، وصاد مهملة مفتوحة ــ : موضع فيما بين مكة ومنى ، وهو أقرب الى منى .

(٦) كذا فى المخطوطة ، وفى تاريخ الطبرى ٢/ ١٣٨ : « وأبو مسعود الثقفى » . وينظر مغازى الواقدى . . . .

وقال محمد بن كعب : جاءوا بفيلين فأما محمود فرَبَض ، وأما الآخر فَشَجُعَ فحُصِب .

وقال وهب بن مُنَبِّه : كان معهم فيلة ، فأما محمود — وهو فيل الملك — فربض ، ليقتدى به بقية الفيلة ، وكان فيها فيل تَشَجّع فحصب ، فهربت بقية الفيلة .

وقال عطاء بن يسار ، وغيره : ليس كلهم أصابه العذاب في الساعة الراهنة ، بل منهم من هلك سريعاً ، ومنهم من جعل يتساقط عضوا عضوا وهم هاربون ، وكان أبرهة ممن يتساقط عضوا عضوا ، حتى مات ببلاد خثعم .

قال ابن إسحاق : فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون(١) على كل منهل ، وأصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون .

وذكر مقاتل بن سليمان : أن قريشا أصابوا مالا جزيلا من أسلابهم ، وما كان معهم ، وأن عبد المطلب أصاب يومئذ من الذهب ما ملأ حفرة .

وقال ابن إسحاق : وحدثنى يعقوب بن عُتْبة : أنه حدث أن أول ما رؤيت الحَصبة والجُدرى بأرض العرب ذلك العام ، وأنه أول ما رؤى به مَرائر الشجر الحَرْمل ، والحنظل والعُشر (٢) ، ذلك العام (٣) .

وهكذا روى عن عكرمة ، من طريق جيد .

قال ابن إسحاق فلما بعث الله محمدا — صلى الله عليه وسلم — كان فيما يَعُدّ به على قريش من نعمته عليهم وفضله ، ماردّ عنهم من أمر الحبشة ، لبقاء أمرهم ومدتهم (٤) ، فقال : (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل . ألم يجعل كيدهم في تضليل . وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل . فجعلهم كعصف مأكول) ؛ (لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت . الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) ، أى : لئلا يغير شيئاً من حالهم التى كانوا عليها ، لما أراد الله بهم من الخير لو قبلوه .

قال ابن هشام : الأبابيل الجماعات ، ولم تتكلم العرب بواحده : قال : وأما السجيل ، فأخبرنى يونس النحوى وأبو عبيدة أنه عند العرب : الشديد الصلب . قال : وذكر بعض المفسرين أنهما كلمتان بالفارسية ، جعلتهما العرب كلمة واحدة ، وإنما هو سَنْج وجِلّ يعنى بالسنج : الحجر ، والجِلّ الطين ، يقول : الحجارة من هذين الجنسين : الحجر والطين : قال : والعصفُ : ورقُ الزرع الذى لم يُقضَب ، واحدته عصفه ، انتهى ما ذكره (٦) .

---

(١) لفظ سيرة ابن هشام ١/٥٤ : « ويهلكون بكل مهلك على كل منهل » .
(٢) العشر – بضم ففتح – : شجر مر له صمغ ولبن ، وتعالج بلبنه الجلود قبل الدباغة .
(٣) سيرة ابن هشام : ١/٥٤ . وتفسير الطبرى : ٣٠/١٩٦ .
(٤) فى المخطوطة : « وحدتهم » . والمثبت عن سيرة ابن هشام : ١/٥٤ .
(٥) فى المعرب للجواليقى ٢٢٩ : « سنك ، وكل » .
(٦) سيرة ابن هشام : ١/٥٥ .

وقد قال حماد بن سلمة ، عن عاصم ، عن زرّ ، عن عبد الله ــ وأبو سلمة بن عبد الرحمن ــ : (طيرا أبابيل) ، قال الفِرَق (١) .

وقال ابن عباس ، والضحاك : أبابيل يتبع بعضها بعضا . وقال الحسن البصرى ، وقتادة : الأبابيل الكثيرة . وقال مجاهد : أبابيل : شتى متتابعة مجتمعة . وقال ابن زيد : الأبابيل : المختلفة ، تأتى من هاهنا ، ومن هاهنا أتتهم من كل مكان .

وقال الكسائى : سمعت [النحويين يقولون : أبُّول مثل العجُّول . قال : وقد سمعت] (٢) بعض النحويين يقول واحد الأبابيل : إبيَّل .

وقال ابن جرير : [حدثنا (٢) ابن المثنى] : حدثنى عبد الأعلى ، حدثنى داود ، عن إسحاق بن عبدالله بن الحارث ابن نوفل أنه قال فى قوله : (وأرسل عليهم طيراً أبابيل) ، هى : الأقاطيع ، كالإبل المُؤَبَّلة .

وحدثنا أبو كريب ، حدثنا وكيع ، عن ابن عون ، عن ابن سيرين ، عن ابن عباس : (وأرسل عليهم طيراً أبابيل) ، قال : لها خراطيم كخراطيم الطير ، وأكف كأكف الكلاب (٣) .

وحدثنا يعقوب ، حدثنا هشيم ، أخبرنا حصين عن عكرمة فى قوله : (طيرا أبابيل) ، قال : كانت طيراً خضرا خرجت من البحر ، لها رءوس كرءوس السباع (٣) .

وحدثنا ابن بشار ، حدثنا ابن مهدى ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن أبى سفيان ، عن عبيد بن عمير : (طيرا أبابيل) ، قال : هى طير سود بحرية ، فى مناقارها وأظافيرها الحجارة (٣) .

وهذه أسانيد صحيحة . .

وقال سعيد بن جبير : كانت طيراً خضرا لها مناقير صفر ، تختلف عليهم .

وعن ابن عباس ، ومجاهد ، وعطاء : كانت الطير الأبابيل مثل التى يقال لها عنقاء مُغْرِب (٤) . رواه عنهم ابن أبى حاتم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عبد الله بن محمد ابن أبى شيبة (٥) ، حدثنا [أبو] معاوية عن الأعمش عن أبى سفيان عن عُبَيد بن عمير قال : لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل ، بعث عليهم طيراً أنشئت (٦) من البحر ، أمثال

---

(١) تفسير الطبرى : ٣٠ / ١٩١ .

(٢) ما بين القوسين المعقوفين عن تفسير الطبرى : ٣٠/١٩١ ، ونحسبه سقط نظر .

(٣) تفسير الطبرى : ٣٠ / ١٩٢ .

(٤) العنقاء المغرب : طائر عظيم معروف الاسم مجهول الجسم ، لم يره أحد . والعرب تكنى به عن الداهية . والمغرب : المبعد فى البلاد .

(٥) فى البداية والنهاية ، ط بيروت ٢/١٧٤ : « محمد بن عبد الله بن أبى شيبة » . وهو خطأ . انظر التهذيب : ٦/٢ ، والجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢/٢/١٦٠ .

(٦) فى المخطوطة : « أنساب » . والمثبت عن الطبعات السابقة ، والبداية والنهاية : ٢/١٧٤ .

الخطاطيف ، كل طير منها يحمل ثلاثة أحجار مُجزّعة (١) : حجرين فى رجليه وحجرا فى منقاره ، قال : فجاءت حتى صفت على رءوسهم ، ثم صاحت وألقت ما فى أرجلها ومناقيرها ، فما يقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره ، ولا يقع على شىء من جسده إلا خرج من الجانب الآخر . وبعث الله ريحاً شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعاً .

وقال السدى، عن عكرمة ، عن ابن عباس (حجارة من سجيل) ، قال : طين فى حجارة : « سنك — وكِل » وقد قدمنا بيان ذلك بما أغنى عن إعادته هاهنا .

وقوله : (فجعلهم كعصف مأكول) ، قال : سعيد بن جبير : يعنى التبن الذى تسميه العامة : هَبُّور . وفى رواية عن سعيد : ورق الحنطة . وعنه أيضاً : العصف : التبن . والمأكول : القَصيل (٢) يُجزّ للدواب. وكذلك قال الحسن البصرى

وعن ابن عباس : العصف : القشرة التى على الحبة ، كالغلاف على الحنطة .

وقال ابن زيد : العصف : ورق الزرع ، وورق البقل ، إذا أكلته البهائم فراثته ، فصار دَرِينا (٣) .

والمعنى أن الله — سبحانه وتعالى — أهلكهم ودمّرهم ، وردّهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيراً ، وأهلك عامتهم ، ولم يرجع منهم مخبر إلا وهو جريح ، كما جرى لملكهم أبرهة ، فانه انصدع صَدْرُه عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء، وأخبرهم بما جرى لهم ، ثم مات . فملك بعده ابنه يكسوم، ثم من بعده أخوه مسروق بن أبرهة(٤) ؛ ثم خرج سيف بن ذى يزَن الحميرى إلى كسرى فاستغاثه على الحبشة ، فأنفذ معه من جيوشه فقاتلوا معه ، فرد الله إليهم ملكهم ، وما كان فى آبائهم من الملك ، وجاءته وفود العرب للتهنئة .

وقد قال محمد بن إسحاق : حدثنا عبد الله بن أبى بكر ، عن عمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة ، عن عائشة قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مُقْعَدين، يستطعمان(٥) . ورواه الواقدى ، عن عائشة مثله : ورواه أيضا عن أسماء بنت أبى بكر أنها قالت : كانا مقعدين يستطعمان الناس ، عند إساف ونائلة(٦) ، حيث يذبح المشركون ذبائحهم .

قلت : كان اسم قائد الفيل : أنيساً .

وقد ذكر الحافظ أبو نُعيم فى كتاب « دلائل النبوة » من طريق ابن وهب ، عن ابن لهيعة عن عقيل بن خالد ، عن عثمان بن المغيرة قصة أصحاب الفيل ، ولم يذكر أن أبرهة قَدِمَ من اليمن ، وإنما بعث على الجيش رجلا يقال له شمر (٧) بن مفصود ، وكان الجيش عشرين ألفاً ، وذكر أن الطير طرقتهم ليلا ، فأصبحوا صرعى .

---

(١) أى : ملونة بألوان مختلفة .
(٢) أصل القصل : القطع . والقصيل : ما اقتصل من الزرع أخضر .
(٣) الدرين والدرانة — بضم الدال — : حطام المرعى إذا قدم . وهى ما بلى من الحشيش ، وقلما تنتفع به الإبل .
(٤) انظر سيرة ابن هشام : ٦١/١ — ٦٢ .
(٥) سيرة ابن هشام : ٥٧/١ .
(٦) إساف ونائلة : صنمان ، تزعم العرب أنهما كانا رجلا وامرأة ، زنيا فى الكعبة ، فمسخا .
(٧) فى المخطوطة : « شمس بن مفصود » ، والمثبت من دلائل النبوة لأبى نعيم : ٤٣ .

وهذا السياق غريب جداً ، وإن كان أبو نُعيم قد قواه ورَجّحه على غيره . والصحيح أن أبرهة الأشرم الحبشى قدم مكة كما دل على ذلك السياقات والأشعار . وهكذا روى ابن لهيعة ، عن الأسود ، عن عروة : أن أبرهة بعث الأسود بن مفصود على كتيبة معهم الفيل ، ولم يذكر قدوم أبرهة نفسه . والصحيح قدومه ، ولعل ابن مفصود كان على مقدمة الجيش ، والله أعلم .

ثم ذكر ابن إسحاق شيئاً من أشعار العرب ، فيما كان من قصة أصحاب الفيل ، فمن ذلك شعر عبد الله بن الزِّبَعْرَى :

تَنَكَّلُوا عَن بَطن مَكَّةَ ، إنَّها ... كَانَتْ قَدِيماً لاَ يُرَام حَرِيمُها

لَم تُخلَق الشِّعرَى(١) لَيالِى حُرِّمَتْ ... إذْ لا عَزِيزَ مِنَ الأَنَامِ يَرُومُها

سَائِل أميرَ الجيش عَنْها : ما رَأَى ؟ ... فَلَسَوفَ يُنبِى الجاهلِينَ عَلِيمُهَا

ستّونَ ألفاً لم يَؤُوبوا (٢) أرضَهم ، ... بَل لَم يَعِش بَعدَ الإيابَ سَقِيمُها

كَانَتْ بها عَادٌ وجُرْهُم قَبْلَهم ... واللهُ من فَوقِ العِبادِ يُقيمُها

وقال أبو قيس بن الأسلت الأنصارى المُرّىّ :

وَمِن صُنْعه يَومَ فيلِ الحُبُو ... شِ ، إذْ كُلُّ ما بَعثُوه رَزَمْ (٣)

مَحَاجِنُهُم تَحتَ أقْرَابه (٤) ... وَقَد شَرَموا أنفَه فانخَرَمْ

وَقَد جَعَلوا سَوطَه مِغْوَلاً ... إذَا يَمَّمُوه قَفَاه كَلِم (٥)

فَسَوَّلَ أَدْبَرَ أدْرَاجَــــهُ ... وقد بَاء بالظُّلْم من كان ثَمَّ

فأرسَلَ مِنْ فَوْقِهم حاصِباً ... يَلُفُّهُم مِثْلَ لَفِّ القُزُم (٦)

تَحُثُّ (٧) عَلَى الصَّبر أحبارُهم ... وَقَد ثَأَجُوا كَثُؤَاجِ الغَنَم (٨)

وقال أبو الصلت بن [أبى] ربيعة الثقفى ، ويروى لأمية بن أبى الصلت بن أبى ربيعة :

إنّ آيات رَبِّنا بَاقيات ... ما يُمَارِى فيهنّ إلاّ الكفورُ

خَلَقَ الليلُ والنهارُ ، فكُلٌّ ... مُسْتَبِينٌ حِسَابُه مَقْدُورُ

ثُمَّ يَجلُو النهارَ ربٌّ رَحِيمٌ ... بِمَهَاة شُعاعها مَنْشُور (٩)

حُبِسَ الفيلُ بالمُغَمَّس حَتَّى ... صَار يَحْبُو ، كأنّه مَعْقُور

(١) الشعرى : اسم لنجم .

(٢) فى سيرة ابن هشام ١/٥٨ : « لم يئوبوا » ، أى : لم يرجعوا إلى أرضهم .

(٣) أى : ثبت فى مكانه .

(٤) المحاجن : جمع محجن ، وهو عصا معوجة . والأقراب : جمع قرب – بضم فسكون – وهو الخاصرة . وشرموا : شقوا .

(٥) المغول : سكين كبيرة . ويروى : معولا ، والمعول الفأس . و كلم : جرح .

(٦) القزم : جمع قزم ، وهو الصغير الجثة .

(٧) كذا فى المخطوطة . وفى السيرة : « تحض » .

(٨) ثأج : صاح .

(٩) المهاة : الشمس .

لَأَزماً حَلْقَهُ الجِرانَ كما قُطِّرَ مِنْ ظَهْرِ كَبْكَبٍ مَحْدُورُ(١)
حَوله من مُلُوكِ كِندةَ أبطالٌ مَلَاوِيثُ في الحُرُوبِ صُقُورُ(٢)
خلَّفُوه ثم ابذَعَرّوا جَمِيعاً ، كُلُّهم عَظْمُ ساقِه مَكْسُورُ(٣)
كُلُّ دِينٍ يَوْمَ القِيامةِ عِندَ الله إلاّ دِينُ الحَنِيفةِ ، بُورُ

وقد قدمنا في تفسير « سورة الفتح » أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أطل يوم الحديبية على الثنية التي تهبط به على قريش ، بركت ناقته ، فزجروها فألحّت ، فقالوا : خلأت القصواء . أي : حَرَنت : فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ماخلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل » : ثم قال : « والذي نفسي بيده ، لا يسألوني اليوم خطة يُعَظّمون فيها حُرُمات الله ، إلا أجبتهم إليها » : ثم زجرها فقامت : والحديث من أفراد البخاري (٤) .

وفي الصحيحين أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال يوم فتح مكة : « إن الله حبس عن مكة الفيلَ ، وسلَّط عليها رسوله والمؤمنين ، وإنه قد عادت حُرمتُها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فيبلغ الشاهد الغائب (٥) » .

آخر تفسير سورة « الفيل »

---

(١) الجران : الصدر . وقطر : رمى به . وكبكب : اسم جبل . والمحدور : الحجر . والمحدور : الحجر الذي يتحدر من أعلى .

(٢) الملاويث : الأشداء .

(٣) ابذعروا : تفرقوا .

(٤) تقدم الحديث عند تفسير الآية السادسة والعشرين من سورة الفتح ، وخرجناه هنالك ، انظر : ٧/٣٣٢ .

(٥) مسلم ، كتاب الحج ، باب « تحريم مكة وصيدها ... » : ٤/١١٠ . والبخاري ، كتاب العلم ، باب « كتابة العلم » : ١/٣٨-٣٩ .

تفسير سورة لايلاف قريش

وهى مكيـــة

ذكر حديث غريب فى فضلها ، قال البيهقى فى كتاب الخلافيات : حدثنا أبو عبد الله الحافظ ، حدثنا بكر بن محمد ابن حمدان الصيرفى بمرو ، حدثنا أحمد بن عُبَيد الله الزينى ، حدثنا يعقوب بن محمد الزهرى ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن ثابت ابن شرحبيل حدثنى عثمان بن عبد الله [أبى عتيق] عن سعيد بن عمرو بن جعدة بن هبيرة عن أبيه عن جدته أم هانىء بنت أبى طالب : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « فضل الله قريشا بسبع خلال : أنى منهم ، وأن النبوة فيهم ، والحجابة ، والسقاية فيهم : وأن الله نصرهم على الفيل ، وأنهم عبدوا الله — عز وجل — عشر سنين لا يعبده غيرهم ، وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن — ثم تلاها رسول الله : (بسم الله الرحمن الرحيم لإيلاف قريش . إيلافهم رحلة الشتاء والصيف . فليعبدوا رب هذا البيت : الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

هذه السورة مفصولة عن التى قبلها فى المصحف الإمام ، كتبوا بينهما سطر ... (بسم الله الرحمن الرحيم)... وإن كانت متعلقة بما قبلها ، كما صرح بذلك محمد بن إسحاق(١) وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، لأن المعنى عندهما : حبسنا عن مكة الفيل وأهلكنا أهله (لإيلاف قريش) ، أى : لائتلافهم واجتماعهم فى بلدهم آمنين .

وقيل : المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة فى الشتاء إلى اليمن ، وفى الصيف إلى الشام فى المتاجر وغير ذلك، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين فى أسفارهم ، لعظمتهم عند الناس، لكونهم سكان حرم الله، فمن عرفهم احترمهم ، بل من صوفى إليهم وسار معهم أمن بهم ، هذا حالهم فى أسفارهم ورحلتهم فى شتائهم وصيفهم، وأما فى حال إقامتهم فى البلد فكما قال الله : (أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ، ويتخطف الناس من حولهم (٢)) . ولهذا قال : (لإيلاف قريش إيلافهم) ، بدل من الأول ومفسر له . ولهذا قال : (إيلافهم رحلة الشتاء والصيف) .

وقال ابن جرير : الصواب أن « اللام » لام التعجب ، كأنه يقول: اعجبوا لإيلاف قريش [ونعمتى(٣)عليهم] فى ذلك . قال : وذلك لإجماع المسلمين على أنهما سورتان منفصلتان مستقلتان .

---

(١) انظر الآثار المروية عن ابن إسحاق فى تفسير سورة الفيل .

(٢) سورة العنكبوت ، آية : ٦٧ .

(٣) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، ومكانه بياض فى المخطوطة . وانظر نص الطبرى ق : ١٩٨/٣٠ .

ثم أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة فقال : (فليعبدوا رب هذا البيت) ، أى : فليوحدوه بالعبادة، كما جعل لهم حرما آمنا وبيتا محرما ، كما قال تعالى : (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها ، وله كل شىء، وأمرت أن أكون من المسلمين (١)) .

وقوله : (الذى أطعمهم من جوع) ، أى : هو رب البيت ، وهو الذى أطعمهم من جوع، (وآمنهم من خوف)، أى : تفضل عليهم بالأمن والرخص ، فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدوا من دونه صنما ولا ندا ولا وثنا ؛ ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة ، ومن عصاه سلبهما منه ، كما قال تعالى : (ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ،فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه ، فأخذهم العذاب وهم ظالمون (٢)) ؛

وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا عبد (٣) الله بن عمرو العدنى ، حدثنا قبيصة ، حدثنا سفيان ، عن ليث،عن شهر ابن حوشب ، عن أسماء بنت يزيد قالت : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « ويل أمكم ، قريش ، لإيلاف قريش (٤) » ؛ ثم قال :

حدثنا أبى ، حدثنا المؤمل بن الفضل الحرانى ، حدثنا عيسى — يعنى ابن يونس — عن عبيد الله بن أبى زياد ، عن شهر بن حوشب ، عن أسامة بن زيد قال : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ؛ ويحكم يا معشر قريش ، اعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمكم من جوع وآمنكم من خوف » ؛

هكذا رأيته عن «أسامة بن زيد » ، وصوابه عن « أسماء بنت يزيد بن السكن ، أم سلمة الأنصارية » رضى الله عنها . فلعله وقع غلط فى النسخة أو فى أصل الرواية ، والله أعلم .

آخر تفسير سورة « لايلاف قريش »

---

(١) سورة النمل ، آية : ٩١ .

(٢) سورة النحل ، آية : ١١٢ — ١١٣ .

(٣) كذا ، ولم تقع لنا ترجمة «عبد الله» هذا فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم .

(٤) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور : ٦/٣٩٧ .

تفسير السورة التي يذكر فيها الماعون

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

يقول تعالى : أرأيت — يا محمد — الذى يكذب بالدين ، وهو : المعاد والجزاء والثواب ، (فذلك الذى يدع اليتيم) ، أى : هو الذى يقهر اليتيم ويظلمه حقه ، ولا يطعمه ولا يحسن إليه ، (ولا يحض على طعام المسكين) ، كما قال تعالى : (كلا ، بل لا يكرمون اليتيم . ولا يحضون (١) على طعام المسكين (٢)) ، يعنى : الفقير الذى لا شىء له يقوم بأوده وكفايته .

ثم قال : (فويل للمصلين : الذين هم عن صلاتهم ساهون) — قال ابن عباس ، وغيره : يعنى المنافقين ، الذين يصلون فى العلانية ولا يصلون فى السر (٣) .

ولهذا قال : (للمصلين) ، أى : الذين هم من أهل الصلاة وقد التزموا بها ، ثم هم عنها ساهون ، إما عن فعلها بالكلية ، كما قاله ابن عباس ، وإما عن فعلها فى الوقت المقدر لها شرعا ، فيخرجها عن وقتها بالكلية ، كما قاله مسروق ، وأبو الضحى .

وقال عطاء بن دينار : والحمد لله الذى قال : (عن صلاتهم ساهون) ، ولم يقل : فى صلاتهم ساهون .

وإما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائما أو غالبا . وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به ، وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها . فاللفظ يشمل هذا كله ، ولكل من اتصف بشىء من ذلك قسط من هذه الآية . ومن اتصف بجميع ذلك فقد تم نصيبه منها ، وكمل له النفاق العملى . كما ثبت فى الصحيحين (٤) أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يجلس يرقب الشمس ، حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان قام فنقر ، أربعا لا يذكر الله فيها إلا (٥) قليلا » . فهذا آخر صلاة العصر التى هى الوسطى ، كما ثبت به

---

(١) كذا فى المخطوطة (يكرمون) و (يحضون) . وهى قراءة أبى عمرو . انظر كتاب السبعة لابن مجاهد : ٦٨٥ . والبحر المحيط لأبى حيان : ٤٧١/٨ .

(٢) سورة الفجر ، آية : ١٧ — ١٨ .

(٣) انظر تفسير الطبرى : ٢٠١/٣٠ — ٢٠٢ .

(٤) كذا ، ولم يقع لنا الحديث إلا فى صحيح مسلم . وقد أخرجه الترمذى فى أبواب الصلاة ، باب « ما جاء فى تعجيل صلاة العصر » ، الحديث ١٦٠ : ٤٩٧/١ . وقال الحافظ أبو العلى صاحب تحفة الأحوذى : « أخرجه مسلم ، وأبو داود ، والنسائى » . فلعل صواب العبارة هنا : « كما ثبت فى الصحيح » .

(٥) مسلم ، كتاب المساجد ، باب « استحباب التكبير بالعصر » : ١١٠/٢ .

النص إلى آخر وقتها ، وهو وقت كراهة، ثم قام إليها فنقرها نقر الغراب ، لم يطمئن ولا خشع فيها أيضا ، ولهذا قال : « لا يذكر الله فيها إلا قليلا» . ولعله إنما حمله على القيام إليها مراءاة الناس ، لا ابتغاء وجه الله ، فهو إذاً لم يصل بالكلية . قال تعالى :(إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا(١)) . وقال هاهنا : (الذين هم يراءون) .

وقال الطبراني : حدثنا يحيى بن عبد الله بن عبدويه (٢) البغدادي ، حدثني أبي ، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، عن يونس ، عن الحسن ، عن ابن عباس ، عن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : « إن في جهنم لواديا، تستعيذ جهنم من ذلك الوادي في كل يوم أربعمائة مرّة ، أعد ذلك الوادي للمرائين من أمة محمد : لحامل كتاب الله، وللمصدِّق في غير ذات الله ، وللحاج إلى بيت الله ، وللخارج في سبيل الله » .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو نُعَيم ، حدثنا الأعمش ، عن عمرو بن مرة قال : كنا جلوسا عند أبي عبيدة فذكروا الرياء ، فقال رجل يكنى بأبي يزيد : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « من سَمَّع الناس بعمله ، سَمَّع الله به سَامِعَ خلقه ، وحَقَّره وصَغَّره (٣) » .

ورواه أيضا عن غندر ويحيى القطان ، عن شعبة ، عن عمرو بن مرة ، عن رجل ، عن عبد الله بن عمرو ، عن النبي — صلى الله عليه وسلم — فذكره (٤) .

ومما يتعلق بقوله تعالى : (الذين هم يراءون) ، أن من عمل عملا لله فاطلع عليه الناس ، فأعجبه ذلك ، أن هذا لا يعد رياء ، والدليل على ذلك ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده : حدثنا هارون بن معروف ، حدثنا مخلد بن يزيد(٥)، حدثنا سعيد بن بشير ، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : كنت أصلي ، فدخل عليّ رجل ، فأعجبني ذلك ، فذكرته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « كتب لك أجران : أجر السر ، وأجر العلانية » .

قال أبو علي هارون بن معروف : بلغني أن ابن المبارك قال : نعم الحديثُ للمرائين .

وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، وسعيد بن بشير متوسط ، وروايته عن الأعمش عزيزة : وقد رواه غيره عنه .

قال أبو يعلى أيضا : حدثنا محمد بن المثنى بن موسى ، حدثنا أبو داود ، حدثنا أبو سنان ، عن حبيب بن أبي ثابت عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رجل : يا رسول الله ، الرجل يعمل العمل يسره، فإذا اطّلعَ عليه أعجبه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « له أجران ، أجر السر وأجر العلانية » .

---

(١) سورة النساء ، آية : ١٤٢ .
(٢) في المخطوطة : « عبد ربه » . والمثبت عن المعجم الصغير للطبراني : ١٤٧/٢ .
(٣) مسند الإمام أحمد : ٢١٢/٢ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ١٦٢/٢ ، ١٩٥ . وانظره من طريق آخر ، في : ٢٢٣/٢ — ٢٢٤ .
(٥) في المخطوطة : « مخلد بن مرثد » . ولعل الصواب « بن يزيد » ، انظر الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٤/١/٣٤٧ .

وقد رواه الترمذى عن محمد بن المثنى، وابن ماجه عن بندار، كلاهما عن أبى داود الطيالسى، عن أبى سنان الشيبانى — واسمه: ضرار بن مرة. ثم قال الترمذى: غريب، وقد رواه الأعمش وغيره، عن حبيب، عن [النبى — صلى الله عليه وسلم — (١)] ::: » مرسلا.

وقد قال أبو جعفر بن جرير: حدثنى أبو كريب، حدثنا معاوية بن هشام، عن شيبان النحوى، عن جابر الجعفى، حدثنى رجل، عن أبى برزة الأسلمى قال: قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لما نزلت هذه الآية: (الذين هم عن صلاتهم ساهون)، قال (٢): « الله أكبر. هذا خير لكم من أن لو أعطى كل رجل منكم مثل جميع الدنيا. هو الذى إن صلى لم يرج خير صلاته، وإن تركها لم يخف ربه (٣) ».

فيه جابر الجعفى، وهو ضعيف، وشيخه مبهم لم يسم، والله أعلم.

وقال ابن جرير أيضا: حدثنى زكريا بن أبان المصرى، حدثنا عمرو بن طارق، حدثنا عكرمة بن إبراهيم، حدثنى عبد الملك بن عمير، عن مصعب بن سعد، عن سعد بن أبى وقاص قال: سألت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن (الذين هم عن صلاتهم ساهون)، قال: « هم الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها (٣) ».

وتأخير الصلاة عن وقتها يحتمل تركها بالكلية، أو صلاتها بعد وقتها شرعا، أو تأخيرها عن أول الوقت [سهوا حتى ضاع (٤)] الوقت.

وكذا رواه الحافظ أبو يعلى عن شيبان بن فروخ، عن عكرمة بن إبراهيم، به. ثم رواه عن أبى الربيع، عن [جابر (٥)] عن عاصم، عن مصعب، عن أبيه موقوفا. وهذا أصح إسنادا، وقد ضعف البيهقى رفعه وصحح وقفه وكذلك الحاكم.

وقوله: (ويمنعون الماعون)، أى: لا أحسنوا (٦) عبادة ربهم، ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به، مع بقاء عينه ورجوعه إليهم. فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى. وقد قال ابن أبى نجيح، عن مجاهد: قال على: الماعون الزكاة (٧). وكذا رواه السدى، عن أبى صالح، عن على. وكذا روى من غير وجه عن ابن عمر. وبه يقول محمد بن الحنفية، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد، وعطاء، وعطية العوفى، والزهرى، والحسن، وقتادة، والضحاك، وابن زيد.

وقال الحسن البصرى: إن صلى راءى، وإن فاتته لم يأس عليها، ويمنع زكاة ماله. وفى لفظ: صدقة ماله (٨).

---

(١) ما بين القوسين عن تحفة الأحوذى، ومكانه فى المخطوطة: « أبى صالح ». انظر تحفة الأحوذى « أبواب الزهد » الحديث ٢٤٩١: ٧/٥٩. وابن ماجه، كتاب الزهد أيضا، باب « الثناء الحسن »، الحديث ٤٢٢٦: ٢/١٤١٢ — ١٤١٣.

(٢) لفظة « قال » غير ثابتة فى الطبرى.

(٣) تفسير الطبرى: ٣٠/٢٠٢.

(٤) ما بين القوسين المعقوفين عن الطبعات السابقة، وقد وقع فيها بعدما يحكيه ابن كثير من سند أبى يعلى، أى بعد: « عن مصعب، عن أبيه موقوفا » ومكانه بياض فى المخطوطة، وبعده كلمة « الوقت ». ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٥) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة أيضا.

(٦) فى المخطوطة: « لا أحبوا ». والمثبت عن الطبعات السابقة.

(٧) تفسير الطبرى: ٣٠/٢٠٣.

(٨) تفسير الطبرى: ٣٠/٢٠٤.

وقال زيد بن أسلم : هم المنافقون ، ظهرت الصلاة فصلوها ، وضُمِنَتْ (١) الزكاة فمنعوها .

وقال الأعمش وشعبة ، عن الحكم ، عن يحيى بن الجزار : أن أبا العُبَيْدين سأل عبد الله بن مسعود عن الماعون ، فقال : هو ما يتعاوره الناس بينهم من الفأس والقدر .

[وقال المسعودى ، عن سلمة بن كُهَيل ، عن أبى العُبَيْدين : أنه سُئل ابنُ مسعود عن الماعون ، فقال : هو ما يتعاطاه الناس بينهم ، من الفأس والقدر (٢)] . والدلو ، وأشباه ذلك .

وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن عبيد المحاربى ، حدثنا أبو الأحوص ، عن أبى إسحاق ، عن أبى العبيدين وسعد ابن عياض ، عن عبد الله قال : كنا أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — نتحدث أن الماعونَ الدلْوُ والفأس والقدر ، لا يستغنى عنهن (٣) .

وحدثنا خلاد بن أسلم ، أخبرنا النضر بن شميل ، أخبرنا شعبة (٤) ، عن أبى إسحاق قال : سمعت سعدَ بن عياض يحدّث عن أصحاب النبى — صلى الله عليه وسلم — ... مثله .

وقال الأعمش ، عن إبراهيم ، عن الحارث بن سُوَيد ، عن عبد الله : أنه سئل عن الماعون ، فقال : ما يتعاوره الناس بينهم : الفأس والدلو ، وشبهه .

وقال ابن جرير : حدثنا عمرو بن على الفلاس ، حدثنا أبو داود — هو الطيالسى — حدثنا أبو عوانة ، عن عاصم ابن بهدلة ، عن أبى وائل ، عن عبد الله قال : كنا مع نبينا — صلى الله عليه وسلم — ونحن نقول : الماعون ، منع الدلو وأشباه ذلك (٥) .

وقد رواه أبو داود والنسائى ، عن قتيبة ، عن أبى عوانة بإسناده ، نحوه ، ولفظ النسائى عن عبد الله قال : كل معروف صدقة ، كنا نعد الماعون على عهد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عاريّة الدلو والقدر (٦) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، عن عاصم ، عن زر ، عن عبد الله قال : الماعون : العَوارىّ ، القدر والميزان ، والدلو .

وقال ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : (ويمنعون الماعون) ، يعنى متاع البيت ؛ وكذا قال مجاهد وإبراهيم النخعى ، وسعيد بن جبير ، وأبو مالك ، وغير واحد : إنها العاريّة للأمتعة .

---

(١) أى : خفيت .
(٢) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، وقد سقط من مخطوطة الأزهر ، وهو سقط نظر .
(٣) تفسير الطبرى : ٣٠/٢٠٥ .
(٤) فى تفسير الطبرى مكان شعبة : « إسرائيل » .
(٥) تفسير الطبرى : ٣٠/٢٠٦ .
(٦) سنن أبى داود ، كتاب الزكاة ، باب « فى حقوق المال » .

وقال ليث بن أبي سليم ، عن مجاهد ، عن ابن عباس : (ويمنعون الماعون) ، [قال : لم يجيء أهلها بعد] .

وقال العوفي عن ابن عباس : (ويمنعون الماعون) ، قال : اختلف الناس في ذلك ، فمنهم من قال : يمنعون الزكاة . ومنهم من قال : يمنعون الطاعة . ومنهم من قال : يمنعون العارية . رواه ابن جرير (١) . ثم روى عن يعقوب بن إبراهيم ، عن ابن عُلَيّة ، عن ليث بن أبي سليم ، عن أبي إسحاق ، عن الحارث ، عن علي : الماعون : منع الناس (٢) الفأس والقدر والدلو .

وقال عكرمة : رأس الماعون زكاةُ المال ، وأدناه المنخل والدلو والإبرة . رواه ابن أبي حاتم .

وهذا الذي قاله عكرمة حسن ؛ فإنه يشمل الأقوال كلها ، وترجع كلها إلى شيء واحد ، وهو ترك المعاونة بمال أو منفعة . ولهذا قال محمد بن كعب : (ويمنعون الماعون) ، قال : المعروف . ولهذا جاء في الحديث : « كل معروف صدقة » .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا وكيع ، عن ابن أبي ذئب ، عن الزهري : (ويمنعون الماعون) ، قال : بلسان قريش : المال .

وَرَوَى هاهنا حديثا غريبا عجيبا في إسناده ومتنه ، فقال : حدثنا أبي وأبو زرعة قالا : حدثنا قيس بن حفص الدارمي ، حدثنا دلهم بن دَهثم العجلي ، حدثنا عائذ بن رَبيعة النّميري ، حدثني قرة بن دُعْمُوص النّميري : أنهم وفدوا إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقالوا : يا رسول الله ، ما تعهد إلينا ؟ قال : « لا تمنعوا الماعون » . قالوا : يا رسول الله وما الماعون ؟ قال : « في الحجر ، وفي الحديدة ، وفي الماء » . قالوا : فأي الحديدة ؟ قال : « قدوركم النحاس ، وحديد الفأس الذي تمتهنون به » . قالوا : وما الحجر ؟ قال : « قدوركم الحجارة » .

غريب جدا ، ورفعه منكر ، وفي إسناده مَن لا يعرف ، والله أعلم .

وقد ذكر ابنُ الأثير في الصحابة ترجمة « عليّ النميري » ، فقال : روى بن قانع بسنده إلى عائذ بن ربيعة بن قيس النميري ، عن علي بن فلان النميري : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « المسلم أخو المسلم ، إذا لقيه حيّاه بالسلام ، ويرد عليه ما هو خير منه ، لا يمنع الماعون » . قلت : يا رسول الله ، ما الماعون ؟ قال : « الحجر والحديد ، وأشباه ذلك (٣) » .

آخر تفسير سورة « الماعون »

---

(١) تفسير الطبري : ٣٠/٢٠٦ .

(٢) لفظ الطبري ٣٠/٢٠٦ : « منع الزكاة والفأس ... » .

(٣) أسد الغابة ، الترجمة ٣٧٨٩ : ٤/١٢٧ .

تفسير سورة الكوثر

وهي مدنية، وقيل: مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن فضيل، عن المختار بن فُلْفل، عن أنس بن مالك قال: أغفى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إغفاءة، فرفع رأسه متبسما، إما قال لهم وإما قالوا له: لم ضحكت؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «إنه أنزلت على آنفا سورة»: فقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم: إنا أعطيناك الكوثر) حتى ختمها قال: «هل تدرون ما الكوثر؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «هو نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة، عليه خير كثير، تَرِدُ عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد الكواكب، يُخْتَلَج (١) العبد منهم فأقول: يا رب، إنه من أمتي: فيقال: إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك (٢)».

هكذا رواه الإمام أحمد بهذا الإسناد الثلاثي، وهذا السياق.

وقد ورد في صفة الحوض يوم القيامة أنه يَشْخَبُ (٣) فيه ميزابان من السماء من نهر الكوثر، وأن عليه آنيةً عددَ نجوم السماء. وقد روى هذا الحديث مسلم وأبو داود والنسائي، من طريق محمد بن فضيل وعلى بن مسهر، كلاهما عن المختار بن فلفل، عن أنس، ولفظ مسلم قال: «بينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين أظهرنا في المسجد إذْ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما، قلنا: ما أضحكك يارسول الله؟، قال: أنزلت عليّ آنفا سورة»، فقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم. إنا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر: إن شانئك هو الأبتر): ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنه نهر وَعَدَنيه ربي - عز وجل - عليه خير كثير، هوحوض تَرِدُ عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيُخْتَلَجُ العبد منهم، فأقول: رب إنه من أمتي: فيقول: إنك ما تدرى ما أحدثَ بعدك (٤)».

وقد استدل به كثير من القراء على أن هذه السورة مدنية، وكثير من الفقهاء على أن البسملة من السورة، وأنها منزلة معها.

فأما قوله تعالى: (إنا أعطيناك الكوثر)، فقد تقدم في هذا الحديث أنه نهر في الجنة: وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى، عن أنس فقال: حدثنا عفان، حدثنا حماد، أخبرنا ثابت، عن أنس أنه قرأ هذه الآية: (إنا أعطيناك الكوثر)

---

(١) أي: ينتزع العبد منهم.

(٢) مسند الإمام أحمد: ٣/١٠٢.

(٣) أي: يسيل.

(٤) مسلم، كتاب الصلاة، باب «حجة من قال: البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة»: ٢/١٢ - ١٣. وسنن أبي داود، كتاب السنة، باب «في الحوض». والنسائي، كتاب الافتتاح، باب قراءة (بسم الله الرحمن الرحيم): ٢/١٣٣ - ١٣٤.

قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « أعطيتُ الكوثر فإذا هو نهر يجرى ، ولم يُشَقّ شقا ، وإذا حافتاه قباب اللؤلؤ ، فضربت بيدى فى تربته ، فاذا [مسكة] ذَفِرَةٌ (١) وإذا حصاه اللؤلؤ (٢) » .

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا محمد بن أبى عدى ، عن حميد ، عن أنس قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « دخلت الجنة فاذا أنا بنهر ، حافتاه خيام اللؤلؤ ، فضربت بيدى إلى ما يجرى فيه الماء ، فاذا مسك أذفر ، قلت : ماهذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى أعطاكه الله عز وجل (٣) » .

ورواه البخارى فى صحيحه ومسلم ، من حديث شيبان بن عبد الرحمن ، عن قتادة ، عن أنس بن مالك قال : لما عُرِجَ بالنبى — صلى الله عليه وسلم — إلى السماء قال : « أتيتُ على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر » . وهذا لفظ البخارى(٤) ، رحمه الله .

وقال ابن جرير : حدثنا الربيع (أخبرنا) ابن وهب ، عن سليمان بن بلال ، عن شريك بن أبى نمر ، قال : سمعت أنس بن مالك يحدثنا قال : لما أسرى برسول الله — صلى الله عليه وسلم — مضى به جبريل فى السماء الدنيا ، فاذا هو بنهر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد ، فذهب يَشَمّ تُرابه فاذا هو مسك ، قال : « يا جبريل ، ما هذا النهر ؟ قال : هو الكوثر الذى خبأ لك ربك (٥) » .

وقد تقدم حديث الاسراء فى سورة « سبحان » ، من طريق شريك عن أنس ، وهو مخرج فى الصحيحين (٦) .

وقال سعيد ، عن قتادة ، عن أنس : إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « بينا أنا أسير فى الجنة إذ عَرَضَ لى نهر ، حافتاه قباب اللؤلؤ مُجَوّف ، فقال الملك الذى معه : أتدرى ما [هذا ؟ هذا] الكوثر الذى أعطاك الله . وضرب بيده إلى أرضه فأخرج من طينه المسك » . وكذا رواه سليمان بن طرخان ، ومعمر وهَمّام وغيرهم ، عن قتادة ، به .

وقال ابن جرير : حدثنا أحمد بن أبى سُرَيج ، حدثنا أبو أيوب العباس ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، حدثنى محمد بن عبد الله ، ابن أخى ابن شهاب ، عن أبيه ، عن أنس قال : سُئِل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن الكوثر ، فقال : « هو نهر أعطانيه الله فى الجنة ، ترابه مسك ، أبيض من اللبن ، وأحلى من العسل ، ترده طير أعناقها مثل أعناق الجُزُر (٧) » . فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إنها لناعمة ؟ قال : « آكلها أنعم منها (٨) » .

وقال أحمد : حدثنا أبو سلمة الخزاعى ، حدثنا الليث ، عن يزيد بن الهاد ، عن عبد الوهاب ، عن عبد الله بن مسلم ابن شهاب (٩) ، عن أنس أن رجلا قال : يا رسول الله ، ما الكوثر ؟ قال : « نهر فى الجنة أعطانيه ربى ، لهو أشد بياضا

---

(١) أى : طيبة الريح .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢/٢٤٧ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٣/١٠٣ .

(٤) البخارى ، تفسير سورة (إنا أعطيناك الكوثر) : ٦/٢١٩ .

(٥) تفسير الطبرى : ٣٠/٢٠٧ — ٢٠٨ .

(٦) انظر أول سورة الإسراء : ٥/٤ — ٦ .

(٧) الجزر : جمع جزور ، وهو : البعير ، ذكراً كان أو أنثى .

(٨) تفسير الطبرى : ٣٠/٢٠٩ .

(٩) فى المسند : « عن ابن شهاب » . ويبدو أن الصواب ما هنا . وعبد الله هو ابن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب . انظر ترجمته فى الجرح والتعديل لابن أبى حاتم : ٢/٢/١٦٤ .

من اللبن ، وأحلى من العسل ، فيه طيور أعناقها كأعناق الجزر » : قال عمر : يا رسول الله ، إنها لناعمة ؟ قال : « آكلها (١) أنعم منها يا عمر (٢) » .

رواه ابن جرير ، من حديث الزهري ، عن أخيه (٣) عبد الله ، عن أنس : أنه سأل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن الكوثر ... فذكر مثله سواء .

وقال البخاري : حدثنا خالد بن يزيد الكاهلي ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن أبي عُبَيدة ، عن عائشة قال : سألتها عن قوله تعالى : (إنا أعطيناك الكوثر) ، قالت : نهر أعطيَه نبيكم صلى الله عليه وسلم ، شاطئاه عليه درّ مجوف ، آنيته كعدد النجوم (٤) .

ثم قال البخاري : « رواه زكريا وأبو الأحوص ومطرف ، عن أبي إسحاق (٥) » .

ورواه أحمد والنسائي ، من طريق مُطرّف ، به (٦) .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كَرِيب ، حدثنا وكيع ، عن سفيان وإسرائيل (٧) عن أبي إسحاق ، عن أبي عبيدة ، عن عائشة قالت : الكوثر نهر في الجنة ، شاطئاه در مجوّف . وقال إسرائيل : نهر في الجنة عليه من الآنية عدد نجوم السماء .

وحدثنا ابن حُمَيد ، حدثنا يعقوب القُمّي ، عن حفص بن حميد ، عن شمر بن عطية ، عن شقيق (٨) أو مسروق قال : قلت لعائشة : يا أم المؤمنين ، حدثيني عن الكوثر . قالت : نهر في بطنان الجنة . قلت : وما بطنان الجنة ؟ قالت : وسطها ، حافتاه قصور اللؤلؤ والياقوت ، ترابه المسك ، وحصاؤه اللؤلؤ والياقوت .

وحدثنا أبو كريب ، حدثنا وكيع ، عن أبي جعفر الرازي ، عن ابن أبي نجيح ، عن عائشة قالت : من أحب أن يسمع خرير الكوثر ، فَلْيَجْعل أصبعيه في أذنيه .

وهذا منقطع بين ابن أبي نجيح وعائشة ، وفي بعض الروايات : « عن رجل ، عنها » . ومعنى هذا أنه يسمع نظير ذلك ، لا أنه يسمعه نفسه ، والله أعلم .

قال السهيلي : ورواه الدارقطني مرفوعا ، من طريق مالك بن مِغْوَل ، عن الشعبي ، عن مسروق ، عن عائشة ، عن النبي ، صلى الله عليه وسلم .

---

(١) في المسند : « أكلتها » .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٣/٢٢٠ — ٢٢١ .

(٣) في المخطوطة : « عن أخيه ، عن عبد الله » . ويبدو أنه خطأ . ويبدو كذلك أنه قد وقع خطأ في سند الطبري ، انظر : ٣٠/٢٠٩ .

(٤) البخاري ، تفسير سورة (إنا أعطيناك الكوثر) : ٦/٢١٩ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ٦/٢٨١ .

(٦) تفسير الطبري : ٣٠/٢٠٧ .

(٧) في المخطوطة : « عن سفيان أو مسروق » . والمثبت عن تفسير الطبري . وشقيق هو ابن سلمة الأسدي . انظر ترجمته في التهذيب : ٤/٣٦١ .

(٨) الروض الأنف والمشرع الروى ، في تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة ، واحتوى للإمام السهيلي : ١/٢٤١ .

ثم قال البخارى : حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، [حدثنا هشيم] ، أخبرنا أبو بشر ، عن سعيد بن جُبَير عن ابن عباس أنه قال فى الكوثر : هو الخير الذى أعطاه الله إياه : قال أبو بشر : قلت لسعيد بن جُبَير : فإن ناساً يَزْعُمُونه أنه نهر فى الجنة ؟ فقال سعيد : النهرُ الذى فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله إياه (١) .

ورواه أيضا من حديث هشيم ، عن أبى بسر وعطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : الكوثر : الخير الكثير .

[وقال الثورى ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : الكوثر : الخير الكثير (٢)] .

وهذا التفسير يعم النهر وغيره ، لأن الكوثر من الكثرة ، وهو الخير الكثير ، ومن ذلك النهر كما قال ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، (ومجاهد) ، ومحارب بن دثار ، والحسن بن أبى الحسن البصرى . حتى قال مجاهد : هو الخير الكثير فى الدنيا والآخرة .

وقال عكرمة : هو النبوة والقرآن ، وثواب الآخرة .

وقد صح عن ابن عباس أنه فسره بالنهر أيضا ، فقال ابن جرير :

حدثنا أبو كريب ، حدثنا عمر بن عبيد ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : الكوثر : نهر فى الجنة ، حافتاه ذهب وفضة ، يجرى على الياقوت والدر ، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل .

وروى العوفى ، عن ابن عباس ، نحو ذلك .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب ، حدثنا هشيم ، أخبرنا عطاء بن السائب ، عن محارب بن دثار ، عن ابن عمر أنه قال : الكوثر نهر فى الجنة ، حافتاه ذهب وفضة ، يجرى على الدر والياقوت ، ماؤه أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل .

وكذا رواه الترمذى(٣) عن ابن حُمَيد ، عن جرير ، عن عطاء بن السائب ، به مثله ، موقوفا وقد روى مرفوعا فقال الإمام أحمد :

حدثنا على بن حفص ، [حدثنا] ورقاء قال ... وقال عطاء عن محارب بن دثار ، عن ابن عمر قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « الكوثر [نهر] فى الجنة حافتاه من ذهب ، والماء يجرى على اللؤلؤ ، وماؤه أشدّ بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل (٤) » .

وهكذا رواه الترمذى ، وابن ماجه ، وابن أبى حاتم وابن جرير ، من طريق محمد بن فضيل ، عن عطاء بن السائب ، به مرفوعا . وقال الترمذى : « حسن صحيح (٥) » .

---

(١) البخارى ، تفسير سورة (إنا أعطيناك الكوثر) : ٦/٢١٩ .
(٢) تفسير الطبرى : ٣٠ : ٢٠٧ .
(٣) لم يقع لنا ذلك فى سنن الترمذى ، وعسى أن نستدركه فيما يستقبل .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٢/١٥٨ .
(٥) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة (الكوثر) ، الحديث ٣٤١٩ : ٩ / ٢٩٤ . وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب « صفة الجنة » ، الحديث ٤٣٣٤ ــ ٢/١٤٥٠ .

وقال ابن جرير : حدثنى يعقوب ، حدثنا ابن علية ، أخبرنا عطاء بن السائب قال : قال لى محارب بن دثار : ما قال سعيد بن جبير فى الكوثر ؟ قلت : حدثنا عن ابن عباس أنه قال : هو الخير الكثير . فقال : صدق ، والله إنه للخير الكثير ، ولكن حدثنا ابن عمر قال : لما نزلت : (إنا أعطيناك الكوثر) ، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « الكوثر نهر فى الجنة ، حافتاه من ذهب ، يجرى على الدر والياقوت (١) » .

وقال ابن جرير : حدثنى ابن [البرقى] حدثنا ابن أبى مريم ، حدثنا محمد بن جعفر بن أبى كثير ، أخبرنى حرام ابن عثمان ، عن عبد الرحمن الأعرج ، عن أسامة بن زيد : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أتى حمزة بن عبدالمطلب يوما فلم يجده ، فسأل امرأته عنه – وكانت من بنى النجار – فقالت : خرج يانبى الله آنفا عامداً نحوك ، فأظنه أخطأك فى بعض أزقة بنى النجار ، أولا تدخلُ يا رسول الله ؟ فدخل ، فقدمت إليه حَيْساً (٢) فأكل منه ، فقالت : يا رسول الله ، هنيئاً لك ومريئاً ، لقد جئتَ وأنا أريدُ أن آتيكَ فأُهنِّيك وأُمرِّيك (٣) ؛ أخبرنى أبو عمارة أنك أعطيت نهرا فى الجنة يدعى الكوثر . فقال : « أجل ، وعرضه – يعنى أرضه – ياقوت ومرجان ، وزبرجد ولؤلؤ » .

حرام بن عثمان : ضعيف ؛ ولكن هذا سياق حسن ، وقد صح أصل هذا ، بل قد تواتر من طريق تفيد القطع عند كثير من أئمة الحديث ، وكذلك أحاديث الحوض (٤) .

وهكذا رُوى عن أنس ، وأبى العالية ، ومجاهد ، وغير واحد من السلف : أن الكوثر : نهر فى الجنة . وقال عطاء : هو حوض فى الجنة .

وقوله : (فصل لربك وانحر) ، أى : كما أعطيناك الخير الكثير فى الدنيا والآخرة ، ومن ذلك النهرُ الذى تقدم صفته – فأخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ونَحْرَك ، فاعبده وحده لا شريك له ، وانحر على اسمه وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : (قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين : لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)(٥) ، قال ابن عباس ، وعطاء ، ومجاهد ، وعكرمة ، والحسن : يعنى بذلك نحر البُدْن ونحوها ؛ وكذا قال قتادة ، ومحمد بن كعب القرظى ، والضحاك ، والربيع ، وعطاء الخراسانى ، والحكم ، وإسماعيل بن أبى خالد ، وغير واحد من السلف . وهذا بخلاف ما كان المشركون عليه من السجود لغير الله ، والذبح على غير اسمه ، كما قال تعالى : (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) (٦) ... الآية .

وقيل : المراد بقوله : (وانحر) : وضع اليد اليمنى على اليسرى تحت النحر ، يُرْوَى هذا عن على ، ولا يصح ، وعن الشعبى [مثله] (٧) .

---

(١) تفسير الطبرى : ٣٠ / ٢١٠ .

(٢) الحيس : الطعام من التمر واللبن المجفف والسمن .

(٣) يقال « هنأه » : إذا أعطاه ما يهنأ به ، وهو ما يسيغه ولا يشق عليه . وقوله : « وأمريك » : إتباع له يقوى معناه .

(٤) وقع فى المخطوطة بعد هذا : « ولنذكرها هنا ، وكل هذه الأقوال غريبة جداً » ، وهذا غير ثابت فى الطبعات السابقة ، وقد آثرنا إبعاده من صلب النص حتى يستقيم السياق .

(٥) سورة الأنعام ، آية : ١٦٢ – ١٦٣ .

(٦) سورة الأنعام ، آية : ١٢١ .

(٧) تفسير الطبرى : ٣٠ / ٢١٠ .

وعن أبي جعفر الباقر : (وانحر) ، يعني : ارفع اليدين عند افتتاح الصلاة .

وقيل : (وانحر) ، أي : استقبل بنحرك القبلة . ذكر هذه الأقوال الثلاثة ابن جرير .

وقد روى ابن أبي حاتم هاهنا حديثا منكرا جدا فقال : حدثنا وهب بن إبراهيم القاضي (١) ــ سنة خمس وخمسين و مائتين ــ حدثنا إسرائيل بن حاتم المروزي ، حدثنا مقاتل بن حيان ، عن الأصبغ بن نباتة ، عن على بن أبي طالب قال : لما نزلت هذه السورة على النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ : (إنا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر) ، قال رسول الله : « يا جبريل ، ما هذه النَّحيرة التي أمرني بها ربي ؟ » . فقال : ليست بنحيرة ، ولكنه يأمرك إذا تحرمت للصلاة ، ارفع يديك إذا كبرت وإذا ركعت ، وإذا رفعت رأسك من الركوع ، وإذا سجدت ، فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة الذين في السموات السبع ، وإن لكل شيء زينة ، وزينة الصلاة رفع اليدين عند كل تكبيرة .

وهكذا رواه الحاكم في المستدرك ، من حديث إسرائيل بن حاتم ، به (٢) .

وعن عطاء الخراساني ، (وانحر) ، أي : ارفع صلبك بعد الركوع واعتدل ، وأبرز نحرك ، يعني به الاعتدال . رواه ابن أبي حاتم .

[وكل هذه الأقوال غريبة جداً](٣) ، والصحيح القول الأول ، أن المراد بالنحر ذبح المناسك ، ولهذا كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يصلى العيد ثم ينحر نسكه ويقول : « من صلى صلاتنا ، ونسك نسكنا ، فقد أصاب النسك ، ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له » ، فقام أبو بردة بن نِيَار فقال : يا رسول الله ، إني نسكتُ شاتي قبل الصلاة ، وعرفت أن اليوم يوم يشتهى فيه اللحم ، قال : « شاتك شاة لحم » . قال : فإن عندي عناقا (٤) هي أحب إلى من شاتين ، أفتجزىء عني ؟ قال : « تجزئك ، ولا تجزىء أحداً بعدك (٥) » .

قال أبو جعفر بن جرير : « والصواب قول من قال : معنى ذلك : فاجعل صلاتك كلها لربك خالصا دون ما سواه من الأنداد والآلهة ، وكذلك نحرك اجعله له دون الأوثان ، شكراً له على ما أعطاك من الكرامة والخير ، الذي لا كِفَاءَ له ، وخصك به (٦) » .

وهذا الذي قاله في غاية الحسن ، وقد سبقه إلى هذا المعنى : محمد بن كعب القرظي ، وعطاء .

وقوله : (إن شانئك هو الأبتر) ، أي : إن مبغضك ــ يا محمد ــ ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين ، هو الأبتر الأقل الأذل المنقطع ذِكْرُه .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة : نزلت في العاص بن وائل .

---

(١) في المخطوطة : « القاضي » . والمثبت من الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٤/٢/٢٩ . ومن ترجمة « إسرائيل بن حاتم في الجرح أيضاً : ١/١/٣٣١ .

(٢) المستدرك ، تفسير سورة الكوثر : ٢/٥٣٧ – ٥٣٨ .

(٣) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة . وأنظر من قريب تعليقنا على زيادة وقعت في المخطوطة ، بعضها ما أثبتناه هنا .

(٤) العناق – بفتح العين – : الأنثى من ولد المعز .

(٥) البخاري ، كتاب العيدين ، باب « كلام الأمام والناس في خطبة العيد ، وإذا سئل الإمام عن شيء وهو يخطب » : ٢/٢٨ . وانظر مسند الإمام أحمد : ٤/٣٠٣ .

(٦) تفسير الطبري : ٣٠/٢١٢ .

وقال محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان قال : كان العاص بن وائل إذا ذكر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له ، فإذا هلك انقطع ذكره . فأنزل الله هذه السورة (١) .

وقال شمر بن عطية : نزلت في عقبة بن أبي مُعَيط .

وقال ابن عباس أيضا ، وعكرمة : نزلت في كعب بن الأشرف وجماعة من كفار قريش .

وقال البزار : حدثنا زياد بن يحيى الحَسَّاني ، حدثنا ابن أبي عدى ، عن داود ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش : أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا المُصَنْبَر (٢) المنبتر من قومه ؟ يزعم أنه خير منا ، ونحن أهل الحجيج ، وأهل السدانة وأهل السقاية . فقال : أنتم خير منه . قال : فنزلت : (إن شانئك هو الأبتر) .

وهكذا رواه [البزار] (٣) ، وهو إسناد صحيح .

وعن عطاء : نزلت في أبي لهب ، وذلك حين مات ابن لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — فذهب أبو لهب إلى المشركين وقال : بُتِرَ محمد الليلة . فأنزل الله في ذلك : (إن شانئك هو الأبتر) .

وعن ابن عباس : نزلت في أبي جهل . وعنه (إن شانئك) ، يعنى : عدوك . وهذا يَعُمّ جميعَ من اتصفَ بذلك ممن ذكر وغيرهم .

وقال عكرمة : الأبتر : الفرد . وقال السدى : كانوا إذا مات ذكورُ الرجل قالوا : بُتر . فلما مات أبناء رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قالوا : بتر محمد . فأنزل الله : (إن شانئك هو الأبتر) .

وهذا يرجع إلى ما قلناه [من] أن الأبتر الذى إذا مات انقطع ذكره ، فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه ينقطع ذكره ، وحاشا وكلا ، بل قد أبقى الله ذكره على رءوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رقاب العباد ، مستمرا على دوام الآباد ، إلى يوم الحشر والمعاد ، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم التناد .

آخر تفسير سورة « الكوثر » ولله الحمد والمنة

---

(١) سيرة ابن هشام : ١/٣٩٣ .

(٢) ذكر ابن الأعرابى أن : الصنبور من النخل : سعفات تنبت فى جذع النخلة غير مستأصلة فى الأرض ، وهو المصنبر من النخل ، وإذا نبتت الصنابير فى جذع النخلة أضرتها ؛ لأنها تأخذ غذاء الأمهات . قال : وعلاجها أن تقلع تلك الصنابير منها . فأراد كفار قريش أن محمداً — صلى الله عليه وسلم — صنبور نبت فى جذع نخلة — ، فاذا قلع انقطع . وكذلك محمد إذا مات فلا عقب له .

(٣) فى المخطوطة : « رواه الترمذى » . والمثبت من الطبعات السابقة . وقد أخرجه الطبرى عن ابن بشار ، عن ابن أبى عدى ، بإسناده نحوه . أنظر : ٣٠ / ٢١٣ .

تفسير سورة (قل يا أيها الكافرون)

وهى مكيـة

ثبت فى صحيح مسلم ، عن جابر : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قرأ بهذه السورة ، وبـ (قُلْ هُوَ اللهُ أحد) فى ركعتى الطواف (١) .

وفى صحيح مسلم ، من حديث أبى هريرة : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قرأ بهما فى ركعتى الفجر .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن مجاهد ، عن ابن عمر : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قرأ فى الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب ، بضعا وعشرين مرة — أو : بضع عشرة مرة — (قُلْ يا أيّها الكافرُون) ، و (قُلْ هُوَ اللهُ أحد) (٢) .

وقال أحمد أيضا : حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير ، حدثنا إسرائيل ، عن أبى إسحاق ، عن مجاهد ، عن ابن عمر قال : رَمقت النبى — صلى الله عليه وسلم — أربعا وعشرين — أو : خمسا وعشرين — مرة ، يقرأ فى الركعتين قبل الفجر ، والركعتين بعد المغرب بـ (قُلْ يا أيّها الكافرُون) و (قُلْ هو الله أحد) (٣) .

وقال أحمد حدثنا أبو أحمد — هو محمد بن عبد الله بن [الزبير] الزبيرى — حدثنا سفيان — هو الثورى — عن أبى إسحاق ، عن مجاهد عن ابن عمر قال : رَمقتُ النبىّ — صلى الله عليه وسلم — شهرا ، وكان يقرأ فى الركعتين قبل الفجر بـ (قُل يا أيّها الكافرونَ) ، و (قُلْ هُوَ اللهُ أحدَ)(٤) .

وكذا رواه الترمذى [وابن ماجه ، من حديث أبى أحمد الزبيرى] ، وأخرجه النسائى من وجه آخر ، عن أبى إسحاق ، به : وقال الترمذى : « هذا حديث حسن (٥) » .

وقد تقدم فى الحديث أنها تعدل ربع القرآن ، و (إذا زلزلت) تعدل ربع القرآن .

وقال الإمام أحمد(٦) : حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا زهير ، حدثنا أبو إسحاق ، عن فَروةَ بن نَوفل — هو ابن معاوية — عن أبيه : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال له : « هل لك فى ربيبة لنا تكفلها ؟ » . قال : أراها زينب .

---

(١) مسلم كتاب الحج ، باب « حجة النبى صلى الله عليه وسلم » : ٤/٤٠ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٢/٢٤ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٢/٩٩ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٢/٩٤ .

(٥) تحفة الأحوذى ، أبواب الصلاة ، باب « ما جاء فى تخفيف ركعتى الفجر والقراءة فيهما » ، الحديث ٤١٥ : ٢/٤٧٠ — ٤٧٢ . وابن ماجه ، كتاب الإقامة ، باب « ما جاء فيما يقرأ فى الركعتين قبل الفجر » ، الحديث ١١٤٩ : ١/٣٦٣ والنسائى ، كتاب الافتتاح ، باب « القراءة فى الركعتين بعد المغرب » ٢/١٧٠ .

(٦) الحديث — كما وقع لنا فى المسند — من رواية الإمام أحمد عن يحيى بن آدم ، عن إسرائيل ، عن أبى إسحاق . هذا وفى هذه الرواية بعض الاختلاف . انظر مسند الإمام أحمد : ٥/٤٥٦ .

قال : ثم جاء فسأله النبي — صلى الله عليه وسلم — عنها ، قال : « ما فعلت الجارية ؟ » : قال : تركتها عند أمها : قال « فجيء ما جاء بك » : قال : جئت لتعلمني شيئا أقوله عند منامي : قال : « اقرأ (قل يا أيها الكافرين) ، ثم نم على خاتمتها ، فانها براءة من الشرك » : تفرد به أحمد :

وقال أبو القاسم الطبراني : حدثنا أحمد بن عَمْرو القطراني ، حدثنا محمد بن الطفيل ، حدثنا شريك ، عن أبي إسحاق ، عن جبلة بن حارثة — وهو أخو زيد بن حارثة — أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أويت إلى فراشك فاقرأ قل : (يا أيها الكافرون) حتى تمر بآخرها ، فانها براءة من الشرك » :

وقال الإمام أحمد : حدثنا حجاج ، حدثنا شريك ، عن أبي إسحاق ، عن فروة بن نوفل ، عن الحارث بن جبلة قال : قلت : يا رسول الله ، علمني شيئا أقوله عند منامي : قال : « إذا أخذتَ مضجعَك من الليل فاقرأ : (قُلْ يا أيها الكافرونَ) ، فانها براءة من الشرك » :

وروى الطبراني من طريق شريك ، عن جابر ، عن معقل الزبيدي ، عن عبد (١) ::: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أخذ مضجعه قرأ (قل يا أيها الكافرون) حتى يختمها :::

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون ، وهي آمرة بالإخلاص فيه ، فقوله : (قل : يا أيها الكافرون) شمل كل كافر على وجه الأرض ، ولكن المواجهين بهذا الخطاب هم كفارُ قريش .

وقيل : إنهم من جهلهم دَعَوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى عبادة أوثانهم سنة ، ويعبدون معبوده سنة ، فأنزل الله هذه السورة ، وأمر رسوله — صلى الله عليه وسلم — فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية ، فقال : (لا أعبد ما تعبدون) يعني من الأصنام والأنداد ، (ولا أنتم عابدون ما أعبد) ، وهو الله وحده لا شريك له . فـ « ما » هاهنا بمعنى « من » .

ثم قال : (ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد) ، أي : ولا أعبدُ عبادتكم ، أي : لا أسلكها ولا أقتدي بها ، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه . ولهذا قال : (ولا أنتم عابدون ما أعبد) ، أي : لا تقتدون بأوامر الله وشرعه في عبادته ، بل قد اخترعتم شيئا من تلقاء أنفسكم ، كما قال : (إن يتبعون إلا الظن ، وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى) ، فتبرأ منهم في جميع ماهم فيه ، فان العابد لا بد له من معبود يعبده ، وعبادة يسلكها إليه ، فالرسول واتباعه يعبدون الله بما شرعه ، ولهذا كان كلمة الإسلام « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، أي : لا معبود

---

(١) في المخطوطة : « عن عبد البر أخضر أو أحمر » . ولا ندري ما المقصود بهذا . وقد وقع في الطبعات السابقة مكانه : « عن عبد الرحمن بن » . وفي الدر المنثور ٦/٤٠٥ : « وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن مردويه ، عن عبد الرحمن ابن نوفل الأشجعي ، عن أبيه . . » بنحوه . وانظر أسد الغابة ، ترجمة نوفل بن فروة الأشجعي : ٥/٣٧٠ — ٣٧١ ؛ بتحقيقنا .

إلا الله ولا طريق [إليه] إلا بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله و ولهذا قال لهم الرسول — صلى الله عليه وسلم — : (لكم دينكم ولي دين) ، كما قال تعالى : (وإن كذبوك فقل : لي عملي ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل ، وأنا برىء مما تعملون) (١) وقال (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم) .

وقال البخارى : يقال : (لكم دينكم) الكفر ، (ولي دين) الإسلام . ولم يقل « ديني » لأن الآيات بالنون ، فحذف الياء ، كما قال : (فهو يهدين) و (يشفين) : وقال غيره : لا أعبد ما تعبدون الآن ، ولا أجيبكم فيما بقى من عمرى ، ولا أنتم عابدون ما أعبد، وهم الذين قال : (وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا) » انتهى ماذكره (٢) :

ونقل ابن جرير عن بعض أهل العربية أن ذلك من باب التأكيد ، كقوله (فان مع العسر يسرا : إن مع العسر يسرا)، وكقوله : (لترون الجحيم ، ثم لترونها عين اليقين (٣)) : وحكاه بعضهم — كابن الجوزى ، وغيره — عن ابن قتيبة ، فالله أعلم : فهذه ثلاثة أقوال : أولها ما ذكرناه أولا : الثانى : ما حكاه البخارى وغيره من المفسرين أن المراد : (لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد) فى الماضى (ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد) فى المستقبل ، الثالث : أن ذلك تأكيد محض :

وثم قول رابع ، نصره أبو العباس (٤) بن تيمية فى بعض كتبه ، وهو أن المراد بقوله : (لا أعبد ما تعبدون) نفى الفعل لأنها جملة فعلية ، (ولا أنا عابد ما عبدتم) ، نفى قبوله لذلك بالكلية ؛ لأن النفى بالجملة الاسمية آكد فكأنه نفى الفعل ، وكونه قابلا لذلك ، ومعناه نفى الوقوع ونفى الإمكان الشرعى أيضا : وهو قول حسن أيضا ، والله أعلم .

وقد استدل الإمام أبو عبد الله الشافعى وغيره بهذه الآية الكريمة : (لكم دينكم ولي دين) ، على أن الكفر كله ملة واحدة تُورثه اليهود من(٥) النصارى ، وبالعكس ؛ إذ كان بينهما نسب أو سبب يتوارث به ؛ لأن الأديان ما عدا الإسلام كلها كالشىء الواحد فى البطلان ، وذهب أحمد بن حنبل ومن وافقه إلى عدم توريث النصارى من اليهود وبالعكس ، لحديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يتوارث أهل ملتين شتى (٦) » .

آخر تفسير سورة (قل يا أيها الكافرون) ولله الحمد والمنة

---

(١) سورة يونس ، آية : ٤١ .

(٢) البخارى ، تفسير سورة (قل ياأيها الكافرون) : ٦/٢٢٠ .

(٣) تفسير الطبرى : ٣٠/٢١٤ .

(٤) انظر « مجموعة « تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية » ط بمباى الهند : ٤٣٨ — ٤٣٩ .

(٥) أى : تورثه اليهود النصارى . والعرب قد تزيد (من) على المفعول .

(٦) سنن أبى داود ، كتاب الفرائض ، باب « هل يرث المسلم الكافر ؟ » . وتحفة الأحوذى ، أبواب الفرائض ، باب « ما جاء فى إبطال الميراث بين المسلم والكافر » ، الحديث ٢١٩٠ : ٦/٢٨٧ . وابن ماجه ، كتاب الفرائض ، باب « ميراث أهل الإسلام من أهل الشرك » ، الحديث ٢٧٣١ : ٢/٩١٢ . ومسند الإمام أحمد : ٢/١٩٥ .

تفسير سورة اذا جاء نصر الله والفتح

وهى مدنية

قد تقدم أنها تعدل ربع القرآن ، و (إذا زلزلت) تعدل ربع القرآن .

وقال النسائى : أخبرنا محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أخبرنا جعفر ، عن أبى العُمَيس (ح) — وأخبرنا أحمد ابن سليمان ، حدثنا جعفر بن عون ، حدثنا أبو العُمَيس — عن عبد المجيد بن سُهَيل ، عن عُبَيد الله بن عبد الله ابن عتبة قال : قال لى ابن عباس : يا ابن عتبة ، أتعلم آخر سورة من القرآن نزلت ؟ قلت : نعم ، (إذا جاء نصر الله والفتح) ، قال : صدقت (١) .

وروى الحافظ أبو بكر البزار والبيهقى ، من حديث موسى بن عبيدة الرَّبَذِىّ ، عن صدقة بن يَسَار ، عن ابن عمر قال : أنزلت هذه السورة : (إذا جاء نصر الله والفتح) على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أوسط أيام التشريق ، فعرف أنه الوداع ، فأمر براحلته القصواء فَرُحلت ، ثم قام فخطب الناس ... فذكر خطبته المشهورة .

[وقال] الحافظ البيهقى : أخبرنا على بن أحمد بن عبدان ، أخبرنا أحمد بن عُبَيد الصفار ، حدثنا الأسفاطى ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عباد بن (٢) العوام ، عن هلال بن خباب ، عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما نزلت : (إذا جاء نصر الله والفتح) ، دعا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فاطمة وقال : « إنه قد نُعيت إلىّ نفسى » ، فبكت ثم ضحكت ، وقالت : أخبرنى أنه نُعيت إليه نفسُه فبكيت ، ثم قال : « اصبرى فإنك أول أهلى لحاقا بى » ، فضحكت .

وقد رواه النسائى — كما سيأتى — بدون ذكر فاطمة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)

قال البخارى : حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا أبو عَوَانة ، عن أبى بشر ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس قال : كان عمر يُدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وَجَد (٣) فى نفسه ، فقال : لم يَدْخل هذا معنا ولنا أبناء

---

(١) رواه مسلم فى كتاب التفسير من حديث جعفر بن عون ، انظر : ٢٤٢/٨ — ٢٤٣ .

(٢) فى المخطوطة : « عساكر بن العوام » . وهو خطأ ، انظر التهذيب : ٩٩/٥ .

(٣) أى : غضب .

مثله ؟ فقال عمر : إنه ممن علمتم (١) ؛ فدعاهم ذات يوم (٢) فأدخله معهم ، فما رؤيتُ أنه دعانى فيهم يومئذ إلا ليريهم ، فقال : ما تقولون فى قول الله — عز وجل — : (إذا جاء نصر الله والفتح) ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفُتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا ، فقال لى : أكذلك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا ، فقال : ما تقول ؟ فقلت : هو أجلُ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أعلمه له ، قال : (إذا جاء نصر الله والفتح) فذلك علامة أجلك ، (فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) . فقال عمر بن الخطاب : لا أعلم منها إلا ما تقول ، تفرد به البخارى (٣) .

وروى ابن جرير ، عن محمد بن حُميد ، عن مهران ، عن الثورى ، عن عاصم ، عن أبى رزين ، عن ابن عباس .. فذكر مثل هذه القصة ، أو نحوها (٤) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن فُضيل ، حدثنا عطاء ، عن سعيد بن جُبير ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : (إذا جاء نصر الله والفتح) ، قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « نُعيت إلىّ نفسى » . . . بأنه مقبوض فى تلك السنة ، تفرد به أحمد (٥) .

وروى العوفى ، عن ابن عباس ، مثله ، وهكذا قال مجاهد ، وأبو العالية ، والضحاك ، وغير واحد : إنها أجل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — نُعى إليه .

وقال ابن جرير : حدثنى إسماعيل بن موسى ، حدثنا الحسين بن عيسى الحنفى ، عن معمر ، عن الزهرى ، عن أبى حازم ، عن ابن عباس قال : بينما رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى المدينة إذ قال : « الله أكبر ، الله أكبر ! جاء نصر الله والفتح ، جاء أهل اليمن ، قيل : يا رسول الله ، وما أهل اليمن ؟ قال : قوم رقيقة قلوبهم ، لينة طباعهم ، الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية (٦) » .

ثم رواه عن ابن عبد الأعلى ، عن ابن ثور ، عن معمر ، عن عكرمة ... مرسلا .

وقال الطبرانى : حدثنا زكريا بن يحيى ، حدثنا أبو كامل الجحدرىّ ، حدثنا أبو عوانة عن هلال بن خبّاب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : (إذا جاء نصر الله والفتح) ... حتى ختم السورة ، قال : نُعيت لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — نفسه حين نزلت ، قال : فأخذ بأشدّ ما كان قطّ اجتهادا فى أمر الآخرة ؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك : « جاء الفتحُ ونصر الله ، وجاء أهل اليمن » ، فقال رجل : يا رسول الله ، وما أهل اليمن ؟ قال : قوم رقيقة قلوبهم ، لينة قلوبهم ، الإيمان يمان ، والفقه يمان » .

---

(١) يشير بهذا إلى قرابته من النبى صلى الله عليه وسلم ، أو : إلى معرفته وفطنته .
(٢) فى الصحيح : « فدعاه » . وما هنا يوافق ما فى غزوة الفتح .
(٣) البخارى ، تفسير سورة (إذا جاء نصر الله) : ٦/٢٢٠ — ٢٢١ .
(٤) تفسير الطبرى : ٣٠ / ٢١٥ — ٢١٦ .
(٥) مسند الإمام أحمد : ١/٢١٧ .
(٦) تفسير الطبرى : ٣٠ / ٢١٥ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن عاصم ، عن أبي رزين ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : (إذا جاء نصر الله والفتح) ، علم النبي – صلى الله عليه وسلم – أن قد نُعيت إليه نفسه ، فقيل : (إذا جاء نصر الله والفتح) ... السورة كلها (١) .

حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن عاصم ، عن أبي رَزين : أن عمر سأل ابن عباس عن هذه الآية : (إذا جاء نصر الله والفتح) ، قال : لما نزلت نُعيت إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – نفسه (٢) .

وقال الطبراني : حدثنا إبراهيم بن أحمد بن عُمَر الوكيعي ، حدثنا أبي ، حدثنا جَعفر بن عون ، عن أبي العُمَيس ، عن أبي بكر بن أبي الجهم ، عن عُبَيد الله بن عَبد الله بن عتبة ، عن ابن عباس قال : آخر سورة نزلت من القرآن جميعا : (إذا جاء نصر الله والفتح) .

وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عمرو بن مُرَّة ، عن أبي البَخْتَرى الطائي ، عن أبي سعيد الخدرى، عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : لما نزلت هذه السورة :(إذا جاء نصر الله والفتح) ، قرَأها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى ختمها ، فقال : « الناس حَيِّزٌ (٣) ، وأنا وأصحابي حَيِّزٌ » . وقال : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية » . فقال له مَرْوان : كذبت – وعنده رافع بن خَديج ، وزيد ابن ثابت ، قاعدان معه على السرير – فقال أبو سعيد : لو شاء هذان لحدثاك ، ولكن هذا يخاف أن تنزعه عن عِرَافة (٤) قومه ، وهذا يخشى أن تنزعه عن الصدقة . فرفع مروان عليه الدِّرة ليضربه ، فلما رأيا ذلك قالا : صدق (٥) .

تفرد به أحمد ، وهذا الذى أنكره مروان على أبي سعيد ليس بمنكر ، فقد ثبت من رواية ابن عباس أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال يوم الفتح : « لا هجرة ، ولكن جهاد ونية ، ولكن إذا استنفرتم فانفروا » . أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما (٦) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣٤٤/١ .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٣٥٦/١ .
(٣) أى : فئة وجماعة .
(٤) العرافة : عمل العريف ، وهو القيم بأمور القبيلة أو الجماعة من الناس ، يلى أمورهم ، ويتعرف منه الأمير أحوالهم .
(٥) مسند الإمام أحمد: ٢٢/٣ . وانظر المسند أيضاً : ١٨٧/٥ .
(٦) البخارى ، كتاب الجهاد ، باب « فضل الجهاد والسير » : ١٧/٤ – ١٨ . ومسلم ، كتاب الإمارة ، باب « المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير ، وبيان معنى : لا هجرة بعد الفتح » : ٢٨/٦ .
ومعنى الحديث : أن تحصيل الخير الذى سببه الهجرة قد انقطع بفتح مكة ، وفاز به من وفق له قبل الفتح . ولكن بقى الخير الذى سببه الجهاد فى سبيل الله ، والنية الصالحة ، فعليكم أن تحصلوه بهما ؛ فاذا طلب الإمام منكم الخروج إلى الجهاد فأخرجوا .

فالذى فسر به بعض الصحابة من جلساء عمر ــ رضى الله عنهم أجمعين ــ من أنه قد أمرنا إذا فتح الله علينا المدائن والحصون أن نحمد الله ونشكره ونسبحه ، يعنى نصلى له ونستغفره ــ معنى مليح صحيح ، وقد ثبت له شاهد من صلاة النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ يوم فتح مكة وقت الضحى ثمانى ركعات ، فقال قائلون : هى صلاة الضحى . وأجيبوا بأنه لم يكن يواظب عليها ، فكيف صلاها ذلك اليوم وقد كان مسافرا لم ينْوِ الإقامة بمكة ؟ ولهذا أقام فيها إلى آخر شهر رمضان قريبا من تسعة عشر يوما يقصر الصلاة ويُفطر هو وجميع الجيش ، وكانوا نحوا من عشرة آلاف . قال هؤلاء : وإنما كانت صلاة الفتح ، قالوا : فيستحب لأمير الجيش إذا فتح بلدا أن يصلى فيه أول ما يدخله ثمانى ركعات ، وهكذا فعل سعد بن أبى وقاص يوم فتح المدائن ، ثم قال بعضهم : يصليها كلها بتسليمة واحدة . والصحيح أنه يسلم من كل ركعتين ، كما ورد فى سنن أبى داود : أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ كان يسلم يوم الفتح من كل ركعتين . وأما(١) ما فسر به ابن عباس وعمر ــ رضى الله عنهما ــ من أن هذه السورة نُعى فيها إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ نفسه الكريمة ، واعلم أنك إذا فتحت مكة ــ وهى : قريتك التى أخرجتك ــ ودخل الناس فى دين الله أفواجا ، فقد فرغ شغلنا بك فى الدنيا ، فتهيأ للقدوم علينا والوفود إلينا ، فالآخرة خير لك من الدنيا ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ، ولهذا قال : (فسبح بحمد ربك . واستغفره إنه كان توابا) .

قال النسائى : أخبرنا عمرو بن منصور ، حدثنا محمد بن محبوب ، حدثنا أبو عوانة ، عن هلال بن خباب ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : قال لما نزلت : (إذا جاء نصر الله والفتح) ... إلى آخر السورة ، قال : نُعيت لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ نفسُه حين أنزلت ، فأخذ فى أشدّ ما كان اجتهاداً فى أمر الآخرة ، وقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعد ذلك : « جاء الفتح ، وجاء نصر الله ، وجاء أهل اليمن » . فقال رجل : يا رسول الله ، وما أهل اليمن ؟ قال : « قوم رقيقة قلوبهم ، لينة قلوبهم ، الإيمان يمان ، والحكمة يمانية ، والفقه يمان » .

وقال البخارى : حدثنا عثمان بن أبى شيبة ، حدثنا جَرير ، عن منصور ، عن أبى الضّحَى ، عن مسروق ، عن عائشة قالت : كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى » ــ يتأول القرآن(٢) .

وأخرجه بقية الجماعة إلا الترمذى ، من حديث منصور ، به (٣) .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن أبى عدى ، عن داود ، عن الشعبى ، عن مسروق قال : قالت عائشة : كان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يكثر فى آخر أمره من قول : « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه » . وقال : « إن ربى كان أخبرنى أنى سأرى علامة فى أمتى ، وأمرنى إذا رأيتُها أن أسبّح بحمده وأستغفره ، إنه كان

---

(١) كذا ، ولم يقع لنا جواب « أما » هذه . ولعل ابن كثير قد غفل عنه لما طال الكلام .

(٢) البخارى ، تفسير سورة (إذا جاء نصر الله) : ٦/٢٢٠ .

(٣) مسلم ، كتاب الصلاة ، باب « وما يقال فى الركوع والسجود » : ٢ / ٥٠ وسنن أبى داود ، كتاب الصلاة أيضاً باب « الدعاء فى الركوع والسجود » . والنسائى ، كتاب الافتتاح ، باب « الدعاء فى السجود » ــ نوع آخر ــ : ٢/٢١٩ . وابن ماجه ، كتاب الإقامة ، باب « التسبيح فى الركوع والسجود » ، الحديث ٨٨٩ : ١/٢٨٧ . ومسنده الامام أحمد عن عائشة : ٦/٤٣ ، ٤٩ ، ١٩٠ .

هذا ومعنى « يتأول القرآن » : يراه معنى قوله تعالى : (فسبح بحمد ربك) ، وعملا بمقتضاه .

توابا ، فقد رأيتها : (إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا : فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان توابا (١)) » .

ورواه مسلم (٢) من طريق داود — وهو ابن أبي هند — به :

وقال ابن جرير : حدثنا أبو السائب ، حدثنا حفص ، حدثنا عاصم ، عن الشعبى ، عن أم سلمة قالت : كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى آخر أمره لا يقوم ولا يقعد، ولا يذهب ولا يجيء، إلاقال : « سبحان الله وبحمده » ؛ فقلت : يا رسول الله ، إنك تكثر من سبحان الله وبحمده ، لا تذهب ولا تجيء، ولا تقوم ولا تقعد إلا قلت : « سبحان الله وبحمده ؟ » قال : « إنى أمرت بها ، فقال : (إذا جاء نصر الله والفتح) » ... إلى آخر السورة (٣) .

غريب ، وقد كتبنا حديثَ كفارة المجلس من جميع طرقه وألفاظه فى جزء مُفْرد ، فيكتب هاهنا ؛

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن أبي عُبَيدة ، عن عبد الله قال : لما نزلت على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : (إذا جاء نصر الله والفتح) ، كان يكثر إذا قرأها — وركَعَ — أن يقول : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى إنك أنت التواب الرحيم » ، ثلاثا (٤) .

تفرد به أحمد . ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه ، عن عمرو بن مُرّة ، عن شعبة ، عن أبي إسحاق ، به ؛

والمراد بالفتح هاهنا فتح مكة قولا واحداً ، فإن أحياء العرب كانت تَتَلَوَّم (٥) بإسلامها فتح مكة ، يقولون : إن ظهر على قومه فهو نبي . فلما فتح الله عليه مكة دخلوا فى دين الله أفواجا ، فلم تمض سنتان حتى استوسقت(٦) جزيرة العرب إيمانا ، ولم يبق فى سائر قبائل العرب إلا مظهر للإسلام ، ولله الحمد والمنة ؛ وقد روى البخارى فى صحيحه ، عن عمرو بن سلمة قال : « لما كان الفتح بادر كل قَوم بإسلامهم إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكانت الأحياء تَتَلَوَّمُ بإسلامها فتحَ مكة ، يقولون : دعوه وقومه ، فإن ظهر عليهم فهو نبي ... » : الحديث (٧) ؛ وقد حرَّرنا غزوة الفتح فى كتابنا : السيرة، فمن أراده فليراجعه هناك ، ولله الحمد والمنة .

وقال الإمام أحمد : حدثنا معاوية بن عمرو ، حدثنا أبو إسحاق ، عن الأوزاعى ، حدثنى أبو عمار ، حدثنى جار لجابر بن عبد الله قال : قدمتُ من سفر فجاءنى جابر بن عبد الله، فسلم عليّ (٨)، فجعلت أحدّثه عن افتراق الناس وما أحدثوا فجعل جابر يبكى ، ثم قال : سمعتُ رسولَ الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « إن الناس دخلوا فى دين الله أفواجا ، وسيخرجون منه أفواجا (٩) » .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٣٥/٦ .
(٢) مسلم ، كتاب الصلاة ، باب « ما يقال فى الركوع والسجود » ٢/٥٠ — ٥١ .
(٣) تفسير الطبرى : ٢١٦/٣٠ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٣٨٨/١ .
(٥) أى : تنتظر .
(٦) أى : أجمعت على الإيمان .
(٧) البخارى ، كتاب المغازى : ١٩١/٥ — ١٩٢ .
(٨) فى المسند : « يسلم علي » .
(٩) مسند الإمام أحمد : ٣٤٣/٣ .

تفسير سورة تبت

وهي مكيــة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥)

قال البخاري : حدثنا محمد بن سلام ، حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن عمرو بن مُرّة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : أن النبي — صلى الله عليه وسلم — خرج إلى البطحاء ، فصعد الجبل فنادى : « يا صباحاه » ، فاجتمعت إليه قريش ، فقال : « أرأيتم إنْ حدّثتكم أن العدوّ مُصبحكم أو مُمْسيكم ، أكنتم تصدقوني ؟ قالوا : نعم . قال : فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد » ، فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا ؟ تبالك ، فأنزل الله : (تبت يدا أبي لهب وتب) ... إلى آخرها (١) .

وفي رواية : « فقام ينفض يديه ، وهو يقول : تبالك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله : (تبت يدا أبي لهب وتب) (٢) .

الأول دعاء [عليه] ، والثاني خبر عنه ، فأبو لهب هذا هو أحد أعمام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — واسمه : عبد العزّى بن عبد المطلب ، وكنيته أبو عُتبة (٣) ، وإنما سمي « أبا لهب » لاشراق وجهه ، وكان كثير الأذيّة لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — والبغضة له ، والازدراء به ، والتنقص له ولدينه .

قال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن أبي العباس ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الزناد ، عن أبيه قال : أخبرني رجل — يقال له : ربيعة بن عبّاد ، من بني الدّيل ، وكان جاهليا فأسلم (٤) — قال : رأيت النبي — صلى الله عليه وسلم — في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول : « يا أيها الناس ، قولوا [لا إله إلا الله] تفلحوا » ، والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضيء الوجه أحولُ ذو غديرتين ، يقول : إنه صابئ كاذب . يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا (٥) : هذا عمه أبو لهب (٦) .

---

(١) البخاري ، تفسير سورة (تبت يدا أبي لهب وتب) : ٦/٢٢١ — ٢٢٢ .

(٢) انظر البخاري ، كتاب الجنائز ، باب « ذكر شرار الموتى » : ٢/١٢٩ . وتفسير سورة الشعراء : ٦/١٤٠ . وتفسير سورة (سبأ) : ٦/١٥٣ .

(٣) جمهرة أنساب العرب لابن حزم : ١٤ .

(٤) كلمة « فأسلم » غير ثابتة في المسند .

(٥) لفظ المسند : « فسألت عنه ، فذكروا لي نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا » .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٤/٣٤١ .

ثم رواه عن سُرَيج ، عن ابن أبي الزناد ، عن أبيه ... فذكره — قال أبو الزناد : قلت لربيعة : كنت يومئذ صغيرا ؟ قال : لا ، والله إني يومئذ لأعقل أني أزفر القربة (١) . تفرد به أحمد (٢) .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني حُسَين بن عبد الله بن عُبَيد الله بن عباس قال : سمعت ربيعة بن عَبَّاد الدِّيلي يقول : إني لمع أبي رجل شاب (٣) ، أنظر إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يتبع القبائل — ووراءه رجل أحول وضيء ، ذو جُمَّة (٤) — يقف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على القبيلة فيقول : « يا بني فلان ، إني رسول الله إليكم ، آمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئا ، وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنفذ عن الله ما بعثني به » : وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه : يا بني فلان ، هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى ، وحلفاءكم من الجن من بني مالك بن أُقَيش ، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تسمعوا له ولا تتبعوه . فقلت لأبي : من هذا ؟ قال : عمه أبو لهب (٥) .

رواه أحمد (٦) أيضا ، والطبراني بهذا اللفظ .

فقوله تعالى : (تبت يدا أبي لهب) ، أي : خسرت وخابت ، وضل عمله وسعيه ، (وتب) ، أي : وقد تَبَّ تحقق خسارته وهلاكه .

وقوله : (ما أغنى عنه ماله وما كسب) ، قال ابن عباس وغيره : (وما كسب) ، يعني : ولده (٧) . وَرُوِي عن عائشة ، ومجاهد ، وعطاء ، والحسن ، وابن سيرين ، مثله .

وذكر عن ابن مسعود أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لما دعا قومه إلى الإيمان ، قال أبو لهب : إن كان ما يقول ابن أخي حقا ، فاني أفتدي نفسي يوم القيامة من العذاب بمالي وولدي . فأنزل الله : (ما أغنى عنه ماله وما كسب) .

وقوله : (سيصلى نارا ذات لهب) ، أي : ذات شرر ولهيب وإحراق شديد ، (وامرأته حمالة الحطب) ، وكانت زوجته من سادات نساء قريش ، وهي : أم جميل ، واسمها أروَى بنتُ حرب بن أمية ، وهي أخت أبي سفيان ، وكانت عونا لزوجها على كفره وجحوده وعناده ، فلهذا تكون يوم القيامة عَوناً عليه في عذابه في نار جهنم : ولهذا قال : (حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد) ، يعني : تحمل الحطب فتلقى على زوجها ، ليزداد على ما هو فيه ، وهي مُهَيَّأة لذلك مستعدة له .

(في جيدها حبل من مسد) — قال مجاهد ، وعروة : من مَسَد النار .

وعن مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة ، والثوري ، والسدي : (حمالة الحطب) : كانت تمشي بالنميمة ،

---

(١) بعده في المسند : « أي : أحملها » .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٣٤١/٤ — ٣٤٢ .
(٣) لفظ السيرة : « إني لغلام شاب مع أبي بمنى » .
(٤) الجمة — بضم الجيم — : ما سقط من شعر الرأس على المنكبين .
(٥) سيرة ابن هشام : ٤٢٣/١ . وانظر أيضاً السيرة : ٣٥١/١ .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٤٩٢/٣ .
(٧) تفسير الطبري : ٢١٨/٣٠ .

وقال العوفي عن ابن عباس ، وعطية الجدلي ، والضحاك ، وابن زيد : كانت تضع الشوك في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم واختاره ابن جرير (١).

قال ابن جرير : وقيل : كانت تعير النبي صلى الله عليه وسلم بالفقر ، وكانت تحتطب ، فعيرت بذلك ،

كذا حكاه ، ولم يعزه إلى أحد ، والصحيح الأول ، والله أعلم .

قال سعيد بن المسيب : كانت لها قلادة فاخرة ، فقالت : لأنفقنها في عداوة محمد ، يعني فأعقبها الله بها حبلا في جيدها من مسد النار .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا وكيع ، عن سليم مولى الشعبي ، عن الشعبي قال : المسد الليف (٢).

وقال عروة بن الزبير : المسد : سلسلة ذرعها سبعون ذراعا (٣).

وعن الثوري : هي قلادة من نار ، طولها سبعون ذراعا .

وقال الجوهري : المَسَدُ : الليف ، والمَسَد أيضا : حبل من ليف أو خوص ، وقد يكون من جلود الإبل أو أوبارها ، ومسدت الحبل أمسُدُه مَسْداً : إذا أجدْتُ فتله (٤).

وقال مجاهد : (في جيدها حبل من مسد) ، أي : طوق من حديد ، ألا ترى أن العرب يسمون البَكَرَة (٥) مَسَدا (٦) ؟ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي وأبو زُرعَة قالا : حدثنا عبد الله بن الزبير الحُمَيْديّ ، حدثنا سُفيان ، حدثنا الوليد بن كثير ، عن ابن بدوس (٧) ، عن أسماءَ بنت أبي بكر قالت : لما نزلت : (تبت يدا أبي لهب) ، أقبلت العوراء أم جميل بنت حرب ، ولها ولولة ، وفي يدها فهر ، وهي تقول :

مُذَمَّماً أَبَيْنَا ، ودينَه قَلَيْنا ، وأَمْرَه عَصَيْنا

ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — جالس في المسجد ومعه أبو بكر ، فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله ، قد أقبلت وأنا أخاف عليك أن تراك ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إنها لن تراني » ، وقرأ قرآنا اعتصم به ، كما قال تعالى : (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) ، فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر ولم تر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقالت : يا أبا بكر ، إني أخبرتُ أن صاحبك هجاني ؟ قال : لا ،

---

(١) قوله : « واختاره ابن جرير » ، وقع في المخطوطة ، بعد « ولم يعزه إلى أحد » ، الذي سيأتي . وقد أثبتناه هنا اعتمادا على قول الطبري ٣٠/٢١٩ : « وأولى القولين في ذلك بالصواب عندي قول من قال : كانت تحمل الشوك فتطرحه في طريق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لأن ذلك هو أظهر » .

هذا ويلاحظ أن ابن كثير فسر أولا « المسد » ، ثم فسر « حمالة الحطب » ، ثم عاد فأكمل شرح « المسد » ، ونحن لا نطمئن إلى ترتيب المخطوطة .

(٢) لم يقع لنا هذا الأثر في تفسير الطبري .

(٣) تفسير الطبري : ٣٠ : ٢٢٠ .

(٤) الصحاح للجوهري ، مادة « مسد » : ١/٥٣٥ — ٥٣٦ .

(٥) البكرة — بفتح الباء — : ما يستقى عليها .

(٦) انظر تفسير الطبري : ٣٠/٢٢٠ .

(٧) كذا « ابن بدوس » ، وقد جهدنا في البحث عنه ، ولم نجده ، ولعلنا نستدركه فيما بعد .

ورب هذا البيت ما هجاك : فولت وهي تقول : قد علمت قريش أني ابنة سيدها : قال : وقال الوليد في حديثه ، أو غيره : فعثرَت أم جميل في مِرْطها وهي تطوف بالبيت (١) ، فقالت : تَعس مُذَمَّم : فقالت أم حكيم بنت عبد المطلب : إني لحصانٌ فما أكلَّم ، وثقَافٌ (٢) فما أعلَّم ، وكلنا من بني العم ، وقريش بعدُ أعلم :

وقال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا إبراهيم بن سعيد وأحمد بن إسحاق قالا : حدثنا أبو أحمد ، حدثنا عبد السلام ابن حرب ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جُبَير ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : (تبت يدا أبي لهب) [جاءت امرأة أبي لهب] — ورسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — جالس ، ومعه أبو بكر — فقال له أبو بكر : لو تَنَحَّيت لا تُؤْذيك بشيء . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إنه سيُحال بيني وبينها » : فأقبلت حتى وقفت على أبي بكر فقالت : يا أبا بكر ، هجانا صاحبك . فقال أبو بكر : لا ، ورب هذه البنية ما نَطَق بالشعر ولا يتفوه به ، فقالت : إنك لمصدق ، فلما ولت قال أبو بكر — رضي الله عنه — : ما رأتك ؟ قال : « لا ، ما زال ملك يسترني حتى ولت » ،

ثم قال البزار : لا نعلمه يُروَى بأحسنَ من هذا الإسناد ، عن أبي بكر ، رضي الله عنه :

وقد قال بعض أهل العلم في قوله تعالى : (في جيدها حبل من مسد) ، أي : في عنقها حبل من نار تُرفَع به إلى شفيرها ، ثم يرمى بها إلى أسفلها ، ثم كذلك دائما :

قال أبو الخطاب بن دحية (٣) في كتابه التنوير — وقد رَوَى ذلك — : وعبَّر بالمسد عن حبل الدلو ، كما قال أبو حنيفة الدينوري في كتاب « النبات » كلّ مَسَد : رشاء ، وأنشد في ذلك :

وَبَكْرَةً ومِحْوَراً صِرَاراً وَمَسداً مِنْ أبَقٍ مُغَاراً (٤)

قال : والأبَقُ القِنَّبُ ،

وقال الآخر (٥) :

يا مَسَدَ الخُوص تَعَوّذْ مِني • إنْ تَكُ لَدْناً لَيِّناً فإنّي
ما شِئْتَ مِنْ أشْمَطَ مُقْسَئِنِّ (٦)

قال العلماء : وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة ، فانه منذ نزل قوله تعالى : (سيصلى نارا ذات لهب وامرأته حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد) ، فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان ، لم يقيض لهما أن يؤمنا ، ولا واحد منهما لا ظاهرا ولا باطنا ، لا مسرا ولا معلنا ، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة .

---

(١) في المخطوطة : « بالبيت في مرطها » ، فتكررت كلمة « في مرطها » .

(٢) أي : ذات فطنة ومعرفة بما يحتاج إليه .

(٣) هو أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن محمد بن الجميل بن دحية الكلبي الأندلسي . كان من أعيان العلماء ، متقنا لعلم الحديث ، وما يتعلق به ، عارفا بالنحو واللغة وأيام العرب وأشعارها . وقد تلمذ للإمام السهيلي . ودخل مصر ، وبنى له الكامل دار الحديث الكاملية بالقاهرة ، وجعله شيخها . حدث عنه ابن الصلاح وغيره . وتوفى سنة ٦٣٣ هـ .

هذا وكتابه التنوير عمله الملك « إربل » وكان مولعا بعمل مولد النبي صلى الله عليه وسلم — كما يقول ابن خلكان — وسماه « التنوير في مولد السراج المنير » . انظر وفيات الأعيان : ١٢٢/٣ .

(٤) المحور — بكسر الميم ، وسكون الحاء ، وفتح الواو — : العود الذي في وسط البكرة ، وربما كان من حديد . والمغار : المحكم الفتل .

(٥) الرجز في الصحاح ، مادة مسد : ٥٣٦/١ .

(٦) الشمط — بفتحتين — : اختلاف الشعر بلونين من سواد وبياض ، والمقسئن : الذي قد انتهى في سنه ، فليس به ضعف كبر ولا قوة شباب . وقيل : هو الذي في آخر شبابه .

تفسير سورة الاخلاص

وهى مكيــة

ذكر سبب نزولها وفضيلتها

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو سعد (١) محمد بن مُيَسَّر الصاغانى ، حدثنا أبو جعفر الرازى ، حدثنا الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أبى بن كعب : أن المشركين قالوا للنبى — صلى الله عليه وسلم — : يا محمد ، انسب لنا ربك ، فأنزل الله : (قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد) (٢) .

وكذا رواه الترمذى ، وابن جرير ، عن أحمد بن منيع — زاد ابن جرير : ومحمود بن خداش — عن أبى سعد محمد بن مُيَسَّر به — زاد ابن جرير والترمذى — قال : (الصمد) : الذى لم يلد ولم يولد ، لأنه ليس شىء يولد إلا سيموت ، وليس شىء يموت إلا سيورث ، وإن الله — جل جلاله — لا يموت ولا يورث ، (ولم يكن له كفوا أحد) ولم يكن له شبهٌ ولا عدل (٣) وليس كمثله شىء (٤) .

ورواه ابن أبى حاتم ، من حديث أبى سعد محمد بن مُيَسَّر ، به . ثم رواه الترمذى عن عبد بن حميد ، عن عبيد الله ابن موسى ، عن أبى جعفر ، عن الربيع ، عن أبى العالية ... فذكره مرسلا ولم يذكر « أخبرنا » . ثم قال الترمذى : « وهذا أصح من حديث أبى [سعد] (٥) » .

حديث آخر فى معناه ، قال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا سُرَيج بن يونس ، حدثنا إسماعيل بن مجالد ، عن مجالد ، عن الشعبى ، عن جابر : أن أعرابيا جاء إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — فقال : انسب لنا ربك . فأنزل الله عز وجل : (قل هو الله أحد) ... إلى آخرها . إسناده مقارب .

وقد رواه ابن جرير عن محمد بن عوف ، عن سُرَيج ... فذكره (٦) . وقد أرسله غير واحد من السلف .

وروى عُبَيد بن إسحاق العطّار ، عن قيس بن الربيع ، عن عاصم ، عن أبى وائل ، عن ابن مسعود قال : قالت قريش لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — : انسب لنا ربك ، فنزلت هذه السورة : (قل هو الله أحد) .

قال الطبرانى : رواه الفريابى وغيره ، عن قيس ، عن أبى عاصم ، عن أبى وائل ، مرسلا . ثم رَوَى الطبرانى من حديث عبد الرحمن بن عثمان الطائفى ، عن الوازع بن نافع ، عن أبى سلمة ، عن أبى هُرَيرة قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : لكل شىء نسبة ، ونسبة الله : قل هو الله أحد .

---

(١) كذا فى المخطوطة ، ومثله فى الجرح والتعديل ٤/٢/١٠٥ ، وتحفة الأحوذى . وفى المسند والخلاصة « أبو سعيد » .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٥/١٣٣ — ١٣٤ .

(٣) عدل — بكسر فسكون — : مثل .

(٤) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الإخلاص ، الحديث ٣٤٢٣ : ٩/٢٩٩ — ٣٠٠ . وتفسير الطبرى : ٣٠/ ٢٢١ ، ٢٢٣ .

(٥) تحفة الأحوذى ، تفسير سورة الإخلاص ، الحديث ٣٤٢٤ : ٩ / ٣٠١ .

(٦) تفسير الطبرى : ٣٠ / ٢٢١ .

حديث آخر فى فضلها ، قال البخارى : حدثنا محمد — هو الذّهْليّ — حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنا عمرو ، عن ابن أبى هلال : أن أبا الرّجال مُحمد بن عبد الرحمن حدّثه ، عن أمه عَمْرَةَ بنت عبد الرحمن — وكانت فى حجْر عائشةَ زوج النبى صلى الله عليه وسلم — عن عائشة : أن النبى — صلى الله عليه وسلم — بعث رجلا على سَرِيَّة ، وكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم ، فيختم بـ (قُلْ هُوَ الله أحد) فلما رجعوا [ذكروا] ذلك للنبى — صلى الله عليه وسلم — فقال : « سلوه : لأىّ شىء يصنع ذلك » ؟ فسألوه ، فقال : لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحب أن أقرأ بها « فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — : « أخبروه أن الله تعالى يحبه » .

هكذا رواه فى كتاب « التوحيد (١) » . ومنهم من يسقط ذكر « محمد الذّهلى » ، ويجعله من روايته عن أحمد ابن صالح . وقد رواه مسلم والنسائى أيضا من حديث عبد الله بن وهب عن عمرو بن [الحارث] ، عن سعيد بن أبى هلال ، به (٢) .

حديث آخر ، قال البخارى فى كتاب الصلاة : « وقال عُبَيْد الله ، عن ثابت ، عن أنس قال : كان رجل من الأنصار يَؤُمّهم فى مسجد قُبَاء ، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم فى الصلاة مما يقرأ به ، افتتح بـ (قُلْ هُوَ الله أحد) حتى يَفرُغ منها ، ثم يقرأ سورة أخرى معها ، وكان يصنع ذلك فى كل ركعة . فكلّمه أصحابه فقالوا : إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تُجزئُكَ حتى تقرأ بالأخرى ، فاما أن تقرأ بها ، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى . فقال : ما أنا بتاركها ، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت ، وإن كرهتم تركتكم . وكانوا يَرَوْنَ أنه من أفضلهم ، وكرهوا أن يَؤُمّهم غيره . فلما أتاهم النبى — صلى الله عليه وسلم — أخبروه الخبر فقال : يا فلان ، « ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك ، وما حملك (٣) على لزوم هذه السورة فى كل ركعة » ؟ . قال : إنى أحبها . قال : « حُبّكَ إياها أدخلك الجنة (٤) » .

هكذا رواه البخارى تعليقا مجزوما به . وقد رواه أبو عيسى الترمذى فى جامعه ، عن البخارى ، عن إسماعيل بن أبى أويس ، عن عبد العزيز بن محمد الدّراوردى ، عن عُبَيْد الله بن عمر ... فذكر باسناده مثله سواء ، ثم قال الترمذى : « غريب من حديث عبيد الله ، عن ثابت » . قال : « وروى مُبَارك بن فَضالة ، عن ثابت ، عن أنس أن رجلا قال : يا رسول الله ، إنى أحب هذه السورة (قل هو الله أحد) . قال : « إن حُبَّكَ إياها أدخلك الجنة (٥) » .

وهذا الذى علقه الترمذى قد رواه الإمام أحمد فى مسنده متصلا ، فقال :

حدثنا أبو النضر ، حدثنا مبارك بن فضالة ، عن ثابت عن أنس قال : جاء رجل إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : إنى أحب هذه السورة : (قل هو الله أحد) . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « حبك إياها أدخلك الجنة (٦) » .

---

(١) البخارى كتاب التوحيد : ٩/١٤٠ — ١٤١ .

(٢) مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب فضل قراءة (قل هو الله أحد) : ٢/٢٠٠ . والنسائى ، كتاب الافتتاح ، باب ، الفضل فى قراءة (قل هو الله أحد) : ٢/١٧٠ — ١٧١ .

(٣) فى البخارى : « وما يحملك » .

(٤) البخارى ، كتاب الآذان ، باب « الجمع بين السورتين فى الركعة » : ١/١٩٦ — ١٩٧ .

(٥) تحفة الأحوذى ، أبواب فضائل القرآن ، باب « ما جاء فى سورة الإخلاص » الحديث ٣٠٦٥ : ٨/٢١٢ — ٢١٤ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٣/١٤١ .

حديث في كونها تعدل ثلث القرآن ، قال البخارى : حدثنا إسماعيل ، حدثنى مالك ، عن عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الرحمن بن أبي صَعْصَعَة ، عن أبيه ، عن أبي سعيد . أن رجلا سمع رَجُلا يقرأ : (قل هو الله أحد) ، يرددها ، فلما أصبح جاء إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — فذكر ذلك له ، وكأن الرجل يتقالّها ، فقال النبي — صلى الله عليه وسلم — : « والذى نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن » — زاد إسماعيل بن جعفر ، عن مالك ، عن عبد الرحمن ابن عبد الله ، عن أبيه ، عن أبي سعيد قال : أخبرنى أخى قتادة بن النعمان ، عن النبي صلى الله عليه وسلم (١) .

وقد رواه البخارى أيضا عن عبد الله بن يوسف ، والقعنبى (٢) ، ورواه أبو داود عن القعنبى (٣) ، والنسائى عن قتيبة ، كلهم عن مالك ، به ، وحديث قتادة بن النعمان أسنده النسائى من طريقين ، عن إسماعيل بن جعفر ، عن مالك ، به .

حديث آخر ، قال البخارى : حدثنا عُمَر بن حفص ، حدثنا أبى ، حدثنا الأعمش ، حدثنا إبراهيم والضحاك المَشْرِقِىّ ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لأصحابه : « أيعجزُ أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة ؟ » ، فشق ذلك عليهم وقالوا : أينا يُطيق ذلك يا رسول الله ؟ . فقال : « الله الواحد الصمد ثلث القرآن (٤) » .

تفرد باخراجه البخارى من حديث إبراهيم بن يزيد النخعى والضحاك بن شُرَحبيل الهمدانى المشرق ، كلاهما عن أبى سعيد ، قال الفَرَبرىّ : سمعت أبا جعفر محمد بن أبى حاتم وراقُ أبى عبد الله قال : قال أبو عبد الله البخارى : عن إبراهيم (٥) مرسل ، وعن الضحاك مسند .

حديث آخر قال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحاق ، حدثنا ابن لَهِيعَة ، عن الحارث بن يزيد ، عن أبى الهيثم ، عن أبى سَعيد الخدرى قال : بات قتادة بن النعمان يقرأ الليل كله بـ (قُل هُوَ الله أحد) ، فذكر ذلك للنبي — صلى الله عليه وسلم — فقال : « والذى نفسي بيده لتَعدلُ نصف القرآن ، أو : ثلثه (٦) » .

— حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا حُيَىّ بن عبد الله ، عن أبى عبد الرحمن الحُبُلى ، عن عبد الله بن عمرو : أن أبا أيوب الأنصارى كان فى مجلس وهو يقول : ألا يستطيع أحدكم أن يقوم بثلث القرآن كل ليلة ؟ فقالوا : وهل يستطيع ذلك أحد ؟ قال : فان (قل هو الله أحد) ثلث القرآن . قال : فجاء النبي — صلى الله عليه وسلم — وهو يسمع أبا أيوب ، فقال : « صدقَ أبو أيوب (٧) » .

---

(١) البخارى ، كتاب التوحيد : ١٤٠/٩ .

(٢) البخارى ، كتاب فضائل القرآن ، باب فضل (قل هو الله أحد) : ٢٣٣/٦ . وكتاب الأيمان ، باب « كيف كان يمين النبى صلى الله عليه وسلم » : ١٦٣/٨ — ١٦٤ — .

(٣) سنن أبى داود ، كتاب الوتر ، باب « فى سورة الصمد » .

(٤) فى البخارى ، كتاب فضائل القرآن ، باب فضل (قل هو الله أحد) : ٢٣٣/٦ .

(٥) فى فتح البارى ٥٠/٩ : « والمراد أن رواية إبراهيم النخعى عن أبى سعيد منقطعة ، ورواية الضحاك عنه متصلة — وأبو عبد الله المذكور هو البخارى المصنف . . . » .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١٥/٣ .

(٧) مسند الإمام أحمد : ١٧٣/٢ .

حديث آخر ، قال أبو عيسى الترمذي : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا يزيد بن كيسان ، أخبرني أبو حازم ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « احشُدوا (١) فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن » . فحشد من حشد ، ثم خرج نبي الله — صلى الله عليه وسلم — فقرأ : (قل : هو الله أحد) ؛ ثم دخل فقال بعضنا لبعض «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن» . إني لأرى هذا خبراً جاء من السماء ، ثم خرج نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إني قلت سأقرأ عليكم ثلث القرآن ، ألا وإنها تعدل ثلث القرآن (٢) » .

وهكذا رواه مسلم (٣) في صحيحه ، عن محمد بن بشار ، به . وقال الترمذي : « حسن صحيح غريب ، واسم أبي حازم سلمان (٢) » .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن زائدة بن قُدامة ، عن منصور ، عن هلال ابن يَساف ، عن الربيع بن خُثَيم ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن امرأة من الأنصار ، عن أبي أيوب ، عن النبي — صلى الله عليه وسلم — قال : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة ؟ فإنه من قرأ : (قل هو الله أحد . الله الصمد) في ليلة ، فقد قرأ ليلتئذ ثلث القرآن (٤) » .

هذا حديث تُساعيّ الإسناد للإمام أحمد . ورواه الترمذي (٥) والنسائي ، كلاهما عن محمد بن بشار بندار — زاد الترمذي (٦) : وقتيبة — كلاهما عن عبد الرحمن بن مهدي ، به : فصار لهما عُشَارِيًا : وفي رواية الترمذي : « عن امرأة أبي أيوب ، عن أبي أيوب » ، به : ثم قال : وفي الباب عن أبي الدرداء ، وأبي سعيد ، وقتادة بن النعمان ، وأبي هريرة ، وأنس ، وابن عمر ، وأبي مسعود : وهذا حديث حسن ، ولا نعلم أحدا رَوَى هذا الحديث أحسن من رواية « زائدة » ، وتابعه على روايته إسرائيلُ ، والفضيلُ بن عياض : وقد رَوَى شُعبةُ وغيرُ واحد من الثقات هذا الحديثَ عن منصور ، واضطربوا فيه (٥) :

حديث آخر ، قال أحمد : حدثنا هُشَيم ، عن حُصَيْن ، عن هلال بن يساف ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن أبي بن كعب — أو : رجل من الأنصار — قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « من قرأ : (قُل هُوَ الله أحدٌ) فكأنما قرأ بثلث القرآن » :

ورواه النسائي في « اليوم والليلة » ، من حديث هُشَيم ، عن حُصَيْن ، عن ابن أبي ليلى ، به : ولم يقع في روايته : هلال بن يساف .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن أبي قيس ، عن عمرو بن ميمون ، عن أبي مسعود قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : (قل : هو الله أحد) تعدلُ ثلث القرآن (٧) » .

---

(١) أي اجتمعوا واستحضروا الناس .
(٢) تحفة الأحوذي ، أبواب فضائل القرآن ، باب « ما جاء في سورة الإخلاص » ، الحديث ٣٠٦٣ : ٢١١/٨ — ٢١٢ .
(٣) انظر مسلم ، كتاب الصلاة ، باب فضل (قل هو الله أحد) : ١٩٩/٢ — ٢٠٠ .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٤١٨/٥ — ٤١٩ .
(٥) تحفة الأحوذي ، أبواب فضائل القرآن ، باب « ما جاء في سورة الإخلاص » ، الحديث ٣٠٦٠ : ٢٠٦/٨—٢٠٩ . والنسائي ، كتاب الافتتاح ، باب « الفضل في قراءة : (قل هو الله أحد) : ١٧١/٢/١٧٢ .
(٦) لم تقع لنا رواية الترمذي عن قتيبة . ولعله يعني النسائي ، والله أعلم .
(٧) مسند الإمام أحمد : ١٢٢/٤ .

وهكذا رواه ابن ماجه عن علي بن محمد الطنافسي ، عن وكيع ، به(١). ورواه النسائي في اليوم والليلة ، من طرق أخر ، عن عمرو بن ميمون ، مرفوعا وموقوفا .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا بهز ، حدثنا بُكَير بن أبي السَّميط ، حدثنا قتادة ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن مَعْدان بن أبي طلحة ، عن أبي الدَّرداء أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « أيعجزُ أحدُكم أن يقرأ كلَّ يوم ثلث القرآن ؟ » ، قالوا : نعم(٢) يا رسول الله ، نحن أضعفُ من ذلك وأعجز ، قال : « فان الله جزّأ القرآن ثلاثة أجزاء ، ف(قل هُوَ الله أحد) ثلث(٣) القرآن (٤) » .

ورواه مسلم والنسائي ، من حديث قتادة ، به (٥) .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا أمية بن خالد ، حدثنا محمد بن عبد الله بن مسلم — ابن أخي ابن شهاب — عن عمه الزهري ، عن حُمَيد بن عبد الرحمن — هو ابن عوف — عن أمه — وهي : أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيط — قالت : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « (قل : هُوَ الله أحد) تَعدلُ ثُلُثَ القرآن(٦) » .

وكذا رواه النسائي في « اليوم والليلة » ، عن عمرو بن علي ، عن أمية بن خالد ، به . ثم رواه من طريق مالك ، عن الزهري ، عن حُمَيد بن عبد الرحمن ، قوله . ورواه النسائي أيضا في « اليوم والليلة » من حديث محمد بن إسحاق ، عن الحارث بن الفُضَيل الأنصاري ، عن الزهري ، عن حُمَيد بن عبد الرحمن : أن نفراً من أصحاب محمد — صلى الله عليه وسلم — حدّثوه عن النبي — صلى الله عليه وسلم — أنه قال : (قُلْ : هُوَ الله أحد) تَعدلُ ثُلُثَ القرآن لمن صلى بها » .

حديث آخر في كون قراءتها توجب الجنة ، قال الإمام مالك بن أنس ، عن عبيد الله بن عبد الرحمن ، عن عُبَيد ابن حُنَين قال : سمعت أبا هريرة يقول : أقبلت مع النبي — صلى الله عليه وسلم — فسمع رجلا يقرأ (قُل : هُوَ الله أحد) فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « وَجَبَتْ » . قلت : وما وَجَبَت ؟ قال : الجنة(٧) » .

ورواه الترمذي والنسائي ، من حديث مالك . وقال الترمذي : « حسن صحيح غريب ، لا نعرفه إلا من حديث مالك (٨) » .

وتقدّم حديث : « حُبُّكَ إياها أدخلك الجنة » .

---

(١) سنن ابن ماجه ، كتاب الأدب ، باب « ثواب القرآن » ، الحديث ٣٧٨٩ : ١٢٤٥/٢ .
(٢) كلمة « نعم » غير ثابتة في المسند .
(٣) لفظ المسند : « (قل : هو الله أحد) جزء من أجزائه » .
(٤) مسند الإمام أحمد : ٤٤٧/١ .
(٥) مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب فضل (قل : هو الله أحد) : ١٩٩/٢ .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٤٠٣/٦ — ٤٠٤ .
(٧) الموطأ ، كتاب القرآن ، باب ما جاء في قراءة (قل : هو الله أحد) (وتبارك الذي بيده الملك) الحديث ١٨ : ٢٠٨/٢ .
(٨) تحفة الأحوذي ، أبواب فضائل القرآن ، باب « ما جاء في سورة الإخلاص » ، الحديث ٣٠٦١ : ٢٠٩/٨ . والنسائي ، كتاب الافتتاح ، باب الفضل في قراءة (قل : هو الله أحد) ١٧١/٢ .

حديث في تكرار قراءتها ، قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا قَطَن(١) بن نُسير ، حدثنا عيسى بن ميمون (٢) القرشي ، حدثنا يزيد الرقاشي ، عن أنس قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : « أما يستطيع أحدكم أن يقرأ : (قُل : هُوَ اللهُ أحد) ثلاث مرات في ليلة ، فإنها تعدل ثلث القرآن ؟ » .

هذا إسناد ضعيف ، وأجود منه حديث آخر ، قال عبد الله ابن الامام أحمد :

حدثنا محمد بن أبي بكر المُقَدَّمي ، حدثنا الضحاك بن مخلد ، حدثنا ابن أبي ذئب ، عن أسيدُ بن أبي أسيد ، عن معاذ بن عبد الله بن خُبيب ، عن أبيه قال : أصابنا طَش (٣) وظلمة ، فانتظرنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يصلي لنا ، فخرج فأخذ بيدي ، فقال : « قل » : فسكتّ ، قال : « قل » : قلت : ما أقول ؟ قال : (قُل هُو الله أحد) والمعوذتين حين تمسي وحين تصبح ثلاثا ، تكفك كل يوم مرتين (٤) » .

ورواه أبو داود والترمذيّ والنسائي ، من حديث ابن أبي ذئب ، به (٥) : وقال الترمذي : « حسن صحيح غريب من هذا الوجه » : وقد رواه النسائي من طريق أخرى ، عن معاذ بن عبد الله بن خُبيب ، عن أبيه ، عن عقبة بن عامر ، فذكره .

حديث آخر في ذلك ، قال الإمام أحمد : حدثنا إسحاق بن عيسى ، حدثنا ليث بن سعد ، حدثني الخليل بن مرة ، عن الأزهر بن عبد الله ، عن تميم الداريّ قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « من قال « لا إله إلا الله واحدا أحدا صمدا ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، ولم يكن له كفوا أحد – عشر مرات – كُتِب له أربعون ألف ألف حسنة (٦) » .

تفرد به أحمد ، والخليل بن مُرّة : ضعفه البخاري وغيره بمرة .

حديث آخر ، قال أحمد أيضا : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لَهيعة ، حدثنا زَبَّان بن فائد ، عن سهل ابن معاذ بن أنس الجهني ، عن أبيه ، عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « من قرأ (قُلْ هُوَ الله أحد) حتى يختمها – عشر مرات – بنى الله له قصراً في الجنّة » : فقال عمر : إذنْ نستكثرَ يارسول الله : فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « الله أكثر وأطيب » : تفرد به أحمد (٧) .

ورواه أبو محمد الداريّ في مسنده فقال : حدثنا عبد الله بن يزيد ، حدثنا حيوة ، حدثنا أبو عقيل [زهرة] بن معبد قال الدارمي – وكان من الأبدال(٨) – أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : إن نبي الله – صلى الله عليه وسلم – قال :

---

(١) في المخطوطة : « مطر بن بشير » . ولعل الصواب ما أثبتناه . وقطن بن نسير – كما في التهذيب ٣٨٢/٨ – يروى عنه أبو يعلى .

(٢) كذا في المخطوطة . ولعله عيسى بن يونس الجرشي المترجم في التهذيب . : ٢٣٥/٨ .

(٣) في المخطوطة : « عطش » . والمثبت عن المسند . والطش : المطر الضعيف القليل .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٣١٢/٥ .

(٥) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « ما يقول إذا أصبح » . والنسائي ، كتاب الاستعاذه : ٢٥٠/٨ .

(٦) مسند الإمام أحمد : ١٠٣/٤ وقد اخرجه الترمذي في أبواب الدعوات ، الحديث ٣٥٤٠ : ٤٤٢/٩ – ٤٤٣ . من حديث قتيبة عن الليث ، به .

(٧) مسند الإمام أحمد ٤٣٧/٣ .

(٨) الأبدال : هم الأولياء والعباد الواحد بدل – بكسر فسكون – وبدل – بفتحتين – : سموا بذلك لأنهم كلما مات منهم واحد أبدل بآخر .

« من قرأ (قُلْ : هُوَ اللهُ أحَدٌ) ـ عشر مرات ـ بني الله له قصرا فى الجنة،ومن قرأها عشرين مرة بنى الله له قصرين فى الجنة ، ومن قرأها ثلاثين مرة بنى الله له ثلاثة قصور فى الجنة » . فقال عمر بن الخطاب : إذنْ لتكثر قصورنا ؟ فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الله أوسع من ذلك (١) » : وهذا مرسل جيد .

حديث آخر ، قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا نصر بن على ، حدثنى نوح بن قيس ، أخبرنى محمد العطار ، أخبرتنى أم كثير الأنصارية ، عن أنس بن مالك عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من قرأ (قُلْ : هُوَ اللهُ أحَدٌ) خمسين مرة غُفرت له ذنوب خمسين سنة » . إسناده ضعيف .

حديث آخر ، قال أبو يعلى : حدثنا أبو الربيع ، حدثنا حاتم بن ميمون ، حدثنا ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « من قرأ فى يوم (قُلْ : هُوَ اللهُ أحد) ـ مائتى مرة ـ كتب الله له ألفا وخمسمائة حسنة ، إلا أن يكون عليه دين » . [إسناده (٢) ضعيف ، حاتم بن ميمون : ضعفه البخارى وغيره] : ورواه الترمذى ، عن محمد بن مرزوق البصرى ، عن حاتم بن ميمون ، به : ولفظه : « من قرأ كل يوم ، مائتى مرة (قُلْ : هُوَ اللهُ أحَدٌ محى عنه ذنوب خمسين سنة ، إلا أن يكون عليه دين (٣) » .

قال الترمذى : وبهذا الاسناد عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من أراد أن ينام على فراشه ، فنام على يمينه ، ثم قرأ : (قُلْ : هُوَ اللهُ أحد) مائة مرة ، فاذا كان يوم القيامة يقول له الرب ـ عز وجل ـ : يا عبدى ، ادخلْ على يمينك الجنة » .

ثم قال : « غريب من حديث ثابت ، وقد رُوى من غير هذا الوجه ، عنه (٣) » .

وقال أبو بكر البزار : حدثنا سهل بن بحر ، حدثنا حَبَّان (٤) بن أغلب ، حدثنا أبى ، حدثنا ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ (قُلْ : هُوَ اللهُ أحد) ـ مائتى مرة ـ حط الله عنه ذنوب مائتى سنة » .

ثم قال : « لا نعلم رواه عن ثابت إلا الحسن بن أبى جعفر ، والأغلب بن تميم ، وهما متقاربان فى سوء الحفظ » .

حديث آخر فى الدعاء بما تضمنته من الأسماء ، قال النسائى عند تفسيرها : حدثنا عبد الرحمن بن خالد ، حدثنا زيد ابن الحباب ، حدثنى مالك بن مغول ، حدثنا عبد الله بن بُرَيدة ، عن أبيه : أنه دخل مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المسجد ، فاذا رجل يصلى ، يدعو يقول : اللهم ، إنى أسألك بأنى أشهد أن لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد : قال : « والذى نفسى بيده ، لقد سأله باسمه الأعظم ، الذى إذا سئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب (٥) » .

---

(١) سنن الدارمى ، كتاب فضائل القرآن ، باب فى فضل (قل : هو الله أحد) : ٢/٣٣٠ .

(٢) ما بين القوسين وقع فى المخطوطة قبل هذا ، قول ابن كثير : « ورواه أبو محمد الدارمى فى مسنده » .

(٣) تحفة الأحوذى ، أبواب الفضائل ، باب « وما جاء فى سورة الإخلاص » ، الحديث ٣٠٦٢ : ٨/٢١٠ – ٢١١ .

(٤) وقعت ترجمة « حبان » هذا فى الجرح ٢٩٧/٢/١ ، فيمن ضبط بفتح الحاء . ويقول السيد محقق الجرح : « ذكره ابن ماكولا فيمن يقال له حبان ، بالكسر » .

(٥) انظر سنن النسائى ، كتاب السهو ، باب « الدعاء بعد الذكر » : ٣/٥٢ .

وقد أخرجه بقية أصحاب السنن من طرق ، عن مالك بن مغول ، عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه ، به ، وقال الترمذي : «حسن غريب(١)» .

حديث آخر في قراءتها عشر مرات بعد [المكتوبة (٢)] ، قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا بشر ابن منصور ، عن عمر بن (٣) شيبان ، عن أبي شداد ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — «ثلاث من جاء بهن مع الإيمان دخل من أي أبواب الجنة شاء ، وزوج من الحور العين حيث [شاء] : من عفا عن قاتله (٤) ، وأدى دينا خفيا ، وقرأ في دبر كل صلاة مكتوبة — عشر مرات — (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَد) » قال : فقال أبو بكر : أو إحداهن يارسول الله ؟ قال : «أو إحداهن» .

حديث في قراءتها عند دخول المنزل ، قال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمد بن عبد الله بن بكر السراج العسكري ، حدثنا محمد بن الفرج ، حدثنا محمد بن الزبرقان ، عن مروان بن سالم ، عن أبي زرعة ، عن عمرو بن جرير ، عن جرير بن عبد الله قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم : «من قرأ (قل : هُوَ اللهُ أَحَد) حين يدخل منزله ، نفت الفقر عن أهل ذلك المنزل والجيران» . إسناده ضعيف .

حديث في الإكثار من قراءتها في سائر الأحوال ، قال الحافظ أبو يعلى : حدثنا محمد بن إسحاق المسيبي ، حدثنا يزيد ابن هارون ، عن العلاء أبي (٥) محمد الثقفي قال : سمعت أنس بن مالك يقول : كنا مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بتبوك ، فطلعت الشمس بضياء وشعاع ونور لم نرها طلعت فيما مضى بمثله ، فأتى جبريل النبي — صلى الله عليه وسلم — فقال : «يا جبريل ، مالي أرى الشمس طلعت اليوم بضياء ونور وشعاع لم أرها طلعت [بمثله] فيما مضى ؟» : قال : إن ذلك معاوية بن معاوية الليثي ، مات بالمدينة اليوم ، فبعث الله إليه سبعين ألف ملك يصلون عليه . قال : «وفيم ذلك ؟» قال : كان يكثر قراءة (قُل : هُوَ اللهُ أَحَد) في الليل وفي النهار ، وفي ممشاه وقيامه وقعوده ، فهل لك يا رسول الله أن أقبض لك الأرض فتصلي عليه ؟ قال : «نعم» . فصلى عليه .

وكذا رواه الحافظ أبو بكر البيهقي في «دلائل النبوة» من طريق يزيد بن هارون ، عن العلاء أبي (٦) محمد — وهو متهم بالوضع — فالله أعلم .

طريق أخرى ، قال أبو يعلى : حدثنا محمد بن إبراهيم الشامي أبو عبد الله ، حدثنا عثمان بن الهيثم — مؤذن مسجد الجامع بالبصرة عندي — عن محمود أبي عبد الله ، عن عطاء بن أبي ميمونة ، عن أنس قال : نزل جبريل على النبي — صلى الله عليه وسلم — فقال : مات معاوية بن معاوية الليثي ، فتحب أن تصلي عليه ؟ قال : «نعم» . فضرب بجناحه الأرض ،

---

(١) سنن أبي داود كتاب الوتر ، باب «الدعاء» . وتحفة الأحوذي ، أبواب الدعوات ، باب «ما جاء في جامع الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم» ، الحديث ٣٥٤٢ : ٩/٤٤٥ — ٤٤٦ . وابن ماجه ، كتاب الدعاء ، باب «اسم الله الأعظم» ، الحديث ٣٨٥٧ : ٢/١٢٦٧ — ١٢٦٨ .

(٢) ما بين القوسين عن الطبعات السابقة ، وفي المخطوطة مكانها : «المغرب» .

(٣) لم تقع لنا ترجمة «عمر بن شيبان» هذه . وكلمة «شيبان» غير واضحة في المخطوطة .

(٤) في المخطوطة : «قاتمة» . والمثبت عن الطبعات السابقة ، والدر المنثور : ٦/٤٢١ .

(٥) في المخطوطة : «العلا بن محمد» . والمثبت عن أسد الغابة ، ترجمة «معاوية ابن معاوية» ٥/٢١٥ . والعلاء هو ابن زيد الثقفي أبو محمد ، مترجم في الجرح والتعديل : ٣/١/٣٥٥ .

(٦) انظر أسد الغابة : ٥/٢١٤ — ٢١٥ .

فلم تبق شجرة ولا أكمة إلا تضعضعت ، فرفع سريره فنظر إليه ، فكبر عليه وخلفه صفان من الملائكة ، في كل صف سبعون ألف ملك ، فقال النبي — صلى الله عليه وسلم — : « يا جبريل ، بم نال هذه المنزلة من الله تعالى ؟ » . قال : بحبه (قُلْ هُوَ اللهُ أحَد) وقراءته إياها ذاهبا وجائيا قائما وقاعدا ، وعلى كل حال .

ورواه البيهقي ، من رواية عثمان بن الهيثم المؤذن ، عن محبوب بن هلال ، عن عطاء بن أبي ميمونة ، عن أنس (١) .. فذكره . وهذا هو الصواب ، ومحبوب بن هلال قال أبو حاتم الرازي : « ليس بالمشهور (٢) » . وقد روى هذا من طرق أخر ، تركناها اختصارا ، وكلها ضعيفة .

حديث آخر في فضلها مع المعوذتين ، قال الإمام أحمد : حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا معاذ بن رفاعة ، حدثني علي ابن يزيد ، عن القاسم ، عن أبي أمامة ، عن عقبة بن عامر قال : لقيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فابتدأته فأخذتُ بيده ، فقلت : يا رسول الله ، بم نجاة المؤمن ؟ قال : « ياعقبة ، أخرس لسانك ولْيَسَعْكَ بيتُك ، وابك على خطيئتك » . قال : ثم لقيني رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فابتدأني فأخذ بيدي ، فقال : « يا عقبة بن عامر ، ألا أعلمك خير ثلاث سُوَر أنزلت في التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والقرآن العظيم ؟ » : قال : قلت : بلى ، جعلني الله فداك . قال : فأقرأني (قُل : هُوَ اللهُ أحَد) و (قُل : أعوذُ بربّ الفَلَق) و (قُل : أعُوذُ بربّ النّاس) ، ثم قال : « ياعقبة ، لا تَنْسَهُنّ ولا تبيتْ ليلة حتى تقرأهن » . قال : فما نسيتهن منذ قال « لا تنسهن » ، وما بت ليلة [قط] حتى أقرأهن . قال عقبة : ثم لقيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فابتدأته ، فأخذت بيده فقلت : يا رسول الله أخبرني بفواضل الأعمال . فقال : « يا عقبة ، صل من قطعك ، وأعط من حرمك ، وأعرض عمن ظلمك (٣) » .

روى الترمذي بعضه في « الزهد » ، من حديث عُبَيْد الله بن زَحْر ، عن علي بن يزيد وقال : « هذا حديث حسن » وقد رواه أحمد من طريق آخر :

حدثنا حسين بن محمد ، حدثنا ابن عيّاش ، عن أسيد بن عبد الرحمن الخَثْعَمي ، عن فروة بن مجاهد اللخمي ، عن عقبة بن عامر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ... فذكر مثله سواء . تفرد به (٤) أحمد .

حديث آخر في الاستشفاء بهن ، قال البخاري : حدثنا قتيبة ، حدثنا المفضل ، عن عُقَيْل ، عن ابن شهاب ، عن عروة ، عن عائشة أن النبي — صلى الله عليه وسلم — كان إذا أوى إلى فراشه كُلّ ليلة جَمَعَ كفيه ، ثم نفث فيهما فقرأ فيهما (قُلْ : هُو اللهُ أحَد) و (قُلْ : أعوذُ بربّ الفَلَق) و (قل : أعوذُ بربّ النّاس) . ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات (٥) » .

وهكذا رواه أهل السنن ، من حديث عُقَيْل ، به (٦) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١٤٨/٤ .

(٢) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم : ٣٨٩/١/٤ .

(٣) تحفة الأحوذي ، أبواب الزهد ، باب « ما جاء في حفظ اللسان » الحديث ٢٥١٧ : ٨٧/٧ — ٨٨ .

(٤) مسند الإمام أحمد : ١٥٨/٤ — ١٥٩ .

(٥) البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب (المعوذات) : ٢٣٣/٦ — ٢٣٤ .

(٦) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « ما يقال عند النوم » . وتحفة الأحوذي ، أبواب الدعاء ، باب « ما جاء فمن يقرأ من القرآن عند المنام » ، الحديث ٣٤٦٢ : ٣٤٧/٩ — ٣٤٨ . وابن ماجه ، كتاب الدعاء ، باب « ما يدعو به إذا أوى إلى فراشه » ، الحديث ٣٨٧٥ : ١٢٧٥/٢ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)

قد تقدم ذكر سبب نزولها . وقال عكرمة : لما قالت اليهود : نحن نعبد عُزيرَ ابن الله . وقالت النصارى : نحن نعبد المسيح ابن الله . وقالت المجوس : نحن نعبد الشمس والقمر . وقالت المشركون : نحن نعبد الأوثان – أنزل الله على رسوله – صلى الله عليه وسلم – : (قل : هُوَ الله أحد) .

يعني : هو الواحد الأحد ، الذى لا نظير له ولا وزير ، ولا نديد ولا شبيه ولا عديل ، ولا يُطلَق هذا اللفظ [على] أحد فى الإثبات إلا على الله – عز وجل – لأنه الكامل فى جميع صفاته وأفعاله .

وقوله : (الله الصمد) ، قال عكرمة ، عن ابن عباس : يعني الذى يصمد الخلائق إليه فى حوائجهم ومسائلهم .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : هو السيد الذى قد كمل فى سؤدده ، والشريف الذى قد كمل فى [شرفه ، والعظيم الذى قد كمل فى عظمته ، والحليم الذى قد كمل فى حلمه ، والعليم الذى قد كمل فى] علمه ، والحكيم الذى قد كمل فى حكمته . وهو الذى قد كمل فى أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله سبحانه ، هذه صفته لا تنبغى إلا له ، ليس له كفء ، وليس كمثله شيء ، سبحان الله الواحد القهار .

وقال الأعمش ، عن شقيق ، عن أبى وائل : (الصمد) : السيد الذى قد انتهى سؤدده ، ورواه عاصم ، عن أبى وائل ، عن ابن مسعود ، مثله .

وقال مالك ، عن زيد بن أسلم : (الصمد) : السيد . وقال الحسن ، وقتادة : هو الباقى بعد خلقه . وقال الحسن أيضا : (الصمد) : الحى القيوم الذى لا زوال له . وقال عكرمة : (الصمد) : الذى لم يخرج منه شيء ولا يطعم .

وقال الربيع بن أنس : هو الذى لم يلد ولم يولد . كأنه جعل ما بعده تفسيرا له ، وهو قوله : (لم يلد ولم يولد) . وهو تفسير جيد . وقد تقدم الحديث من رواية ابن جرير ، عن أبى بن كعب فى ذلك ، وهو صريح فيه .

وقال ابن مسعود ، وابن عباس ، وسعيد بن المسيب ، ومجاهد ، وعبد الله بن بُريدة ، وعكرمة أيضا ، وسعيد ابن جبير ، وعطاء بن أبى رباح ، وعطية العوفى ، والضحاك ، والسدى : (الصمد) : الذى لا جوف له .

قال سفيان ، عن منصور ، عن مجاهد : (الصمد) : المصمت الذى لا جوف له (١) .

وقال الشعبى : هو الذى لا يأكل الطعام ، ولا يشرب الشراب .

وقال عبد الله بن بُرَيدة أيضا : (الصمد) نور يتلألأ .

روى ذلك كلَّه وحكاه : ابن أبى حاتم ، والبيهقى ، والطبرانى ، وكذا أبو جعفر بن جرير ساق أكثر ذلك بأسانيده ، وقال :

حدثنى العباس بن أبى طالب ، حدثنا محمد بن عمرو بن رومى ، عن عبيد الله بن سعيد قائد الأعمش ، حدثنى صالح ابن حيان ، عن عبد الله بن بريدة ، عن أبيه قال – لا أعلم إلا قد رفعه – قال : (الصمد) الذى لا جوف له (٢) .

---

(١) تفسير الطبرى : ٣٠/٢٢٢ .

(٢) تفسير الطبرى : ٣٠/٢٢٣ .

وهذا غريب جدا ، والصحيح أنه موقوف على عبد الله بن بريدة .

وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني فى كتاب السنة له ، بعد إيراده كثيرا من هذه الأقوال فى تفسير « الصمد » : وكل هذه صحيحة ، وهى صفات ربنا عز وجل ، هو الذى يُصمَد إليه فى الحوائج ، وهو الذى قد انتهى سؤدده ، وهو الصمد الذى لا جوف له ، ولا يأكل ولا يشرب ، وهو الباقى بعد خلقه . وقال البيهقى نحو ذلك .

وقوله : (لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد) ، أى : ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة .

قال مجاهد : (ولم يكن له كفوا أحد) ، يعنى : لا صاحبة له .

وهذا كما قال تعالى : (بديع السموات والأرض ، أنى يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شىء) (١) أى هو مالك كل شىء وخالقه ، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه ، أو قريب يدانيه ، تعالى وتقدس وتنزه ، قال الله تعالى : (وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا ؟ . لقد جئتم شيئا إدا . تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا . وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) (٢) . وقال تعالى : (وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا ، سبحانه ، بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) (٣) . وقال تعالى : (وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون . سبحان الله عما يصفون) (٤) . وفى الصحيح : صحيح البخارى : « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولدا ، وهو يرزقهم ويعافيهم (٥) » .

وقال البخارى : حدثنا أبو اليمان ، حدثنا شعيب ، حدثنا أبو الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هُرَيرة ، عن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « قال الله عز وجل : كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله : لن يُعيدَنى كما بدأنى . وليس أول الخلق بأهون علَىّ من إعادته . وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولدا . وأنا الأحد الصَّمَدُ الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد (٦) » .

ورواه أيضا من حديث عبد الرزاق ، عن معمر ، عن همام بن منبه ، عن أبى هريرة ، مرفوعا بمثله . تفرد بهما من هذين الوجهين (٦) .

آخر تفسير سورة الاخلاص

---

(١) سورة الأنعام ، آية : ١٠١ .

(٢) سورة مريم ، الآيات : ٨٨ — ٩٥ .

(٣) سورة الأنبياء ، آية : ٢٦ — ٢٧ .

(٤) سورة الصافات ، آية : ١٥٨ — ١٥٩ .

(٥) تقدم الحديث عند تفسير آيات مريم ٨٨ — ٩٥ ، وخرجناه ، هنالك ، أنظر : ٥/٣٦٢ .

(٦) تقدم الحديث عند تفسير الآية السابعة والعشرين من سورة الروم وخرجناه هنالك أنظر ٦ /٣١٨ .

تفسير سورتي المعوذتين

وهما مدنيتان

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا عاصم بن بهدلة ، عن زرّ بنُ حُبَيْش قال : قلت لأبي بن كعب : إن ابن مسعود [كان (١)] لا يكتب المعوذتين في مصحفه ؟ فقال : أشهد أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أخبرني أن جبريل عليه السلام قال له : (قُلْ أعوذُ بربّ الفلق) فقلتها ، قال : (قُلْ أعوذ برب الناس) ، فقلتها . فنحن نقول ما قال النبي صلى الله عليه وسلم (٢) .

ورواه أبو بكر الحُميدى في مسنده ، عن سفيان بن عيينة ، حدثنا عبدة بن أبي لُبابة وعاصم بن بهدلة ، أنهما سمعا زرّ بن حبيش قال : سألتُ أبي بن كعب عن المعوذتين ، فقلت : يا أبا المنذر ، إن أخاك ابن مسعود يَحُكّهما (٣) من المصحف . فقال : إني سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « قيل لي : قل ، فقلت » . فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن عاصم ، عن زرّ قال : سألتُ ابنَ مسعود عن المُعَوّذتين فقال : سألتُ النبيّ — صلى الله عليه وسلم — عنهما فقال : « قيل لي ، فقلت لكم ، فقولوا » . قال أبي : فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم ، فنحن نقول .

وقال البخارى : حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، حدثنا عَبدَةُ بن أبي لُبابة ، عن زرّ بن حُبَيْش — وحدثنا عاصم عن زرّ — قال : سألت أبي بن كعب فقلت : أبا المنذر ، إن أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا . فقال : إني سألت النبي — صلى الله عليه وسلم — فقال : « قيل لي ، فقلت » . فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ورواه البخارى (٤) أيضا والنسائى ، عن قتيبة ، عن سفيان بن عيينة ، عن عَبدة وعاصم بن أبي النجود ، عن زر ابن حُبَيْش ، عن أبي بن كعب به .

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا الأزرق بن على ، حدثنا حسان بن إبراهيم ، حدثنا الصَّلْت بن بَهرام ، عن إبراهيم ، عن علقمة قال : كان عبد الله يَحُكّ المعوذتين من المصحف ، ويقول : إنما أمر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يتعوذ بهما . ولم يكن عبد الله يقرأ بهما .

---

(١) ما بين القوسين عن المسند .
(٢) مسند الإمام أحمد : ٥/١٢٩ .
(٣) في المخطوطة : « يحتكا » . والمثبت عن المسند : ٥/١٣٠ .
(٤) البخارى تفسير سورة (قل أعوذ برب الفلق) و (قل : أعوذ برب الناس) ٦ / ٢٢٣ .

ورواه عبد الله بن أحمد من حديث الأعمش ، عن أبي إسحاق ، عن عبد الرحمن بن يزيد قال : كان عبد الله يحك المعوذتين من مصاحفه ، ويقول : إنهما ليستا من كتاب الله ـ قال الأعمش : وحدثنا عاصم ، عن زرّ بن حبيش ، عن أبي بن كعب قال : سألنا عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « قيل لي ، فقلت (١) » .

وهذا مشهور عند كثير من القراء والفقهاء : أن ابن مسعود كان لا يكتب المعوّذتين في مصحفه ، فلعله لم يسمعهما من النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يتواتر عنده ثم [لعله] قد رجع عن قوله ذلك إلى قول الجماعة ، فإن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كتبوهما في المصاحف الأئمة ، ونفذوها إلى سائر الآفاق كذلك ، ولله الحمد والمنة .

وقد قال مسلم في صحيحه : حدثنا قتيبة ، حدثنا جَرِيرُ ، عن بيان ، عن قيس بن أبي حازم ، عن عقبة ابن عامر قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ألم تر آياتٍ أنزلت هذه الليلة لم يُرَ مثلهن قط : (قل أعوذ برب الفلق) ، و (قل أعوذ برب الناس (٢)) » .

ورواه أحمد ، ومسلم أيضا ، والترمذي ، والنسائي ، من حديث إسماعيل بن أبي خالد ، عن قيس بن أبي حازم ، عن عقبة ، به . وقال الترمذي « حسن صحيح (٣) » .

طريق أخرى ، قال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا ابن جابر ، عن القاسم أبي عبد الرحمن ، عن عقبة ابن عامر قال : بينا أنا أقود برسول الله صلى الله عليه وسلم في نَقْب (٤) من تلك النِّقَاب ، إذ قال لي : « ياعقبة ، ألا تركب ؟ » قال : « [فأجْلَلْتُ رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن أركب مركبه . ثم قال : يا عُقَيب ، ألا تركب ؟ قال (٥)] : فأشفقت أن تكون معصية ، قال : فنزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وركبت هُنَيهة ، ثم ركب ، ثم قال : « يا عُقَيب ، ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس ؟ » . قلت : بلى يا رسول الله . فأقرأني : (قل : أعوذ برب الفلق) ، و (قل : أعوذ برب الناس) . ثم أقيمت الصلاة ، فتقدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقرأ بهما ، ثم مر بي . فقال : « كيف رأيت يا عُقَيب ، اقرأ بهما كلما نمت وكلما قمت (٦) » .

ورواه [النسائي (٧)] من حديث الوليد بن مسلم وعبد الله بن المبارك ، كلاهما عن ابن جابر ، به . ورواه أبو داود والنسائي أيضا ، من حديث ابن وهب ، عن [معاوية] (٨) بن صالح ، عن العلاء بن الحارث ، عن القاسم ابن عبد الرحمن ، عن عقبة ، به(٩) .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/١٢٩ ـ ١٣٠ .

(٢) مسلم ، كتاب صلاة المسافرين ، باب « فضل قراءة المعوذتين » : ٢/٢٠٠ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٤/١٤٤ . ومسلم في الكتاب والباب المتقدمين . وتحفة الأحوذي ، تفسير سورة المعوذتين ، الحديث ٣٤٢٦ : ٩/٢٠٣ . والنسائي ، كتاب الاستعاذة : ٨/٢٥٤ .

(٤) النقب : الطريق بين جبلين .

(٥) ما بين القوسين سقط من المخطوطة ، وقد أثبتناه عن المسند ، وهو سقط نظر .

(٦) مسند الإمام أحمد : ٤/١٤٤ .

(٧) في المخطوطة : « ورواه الترمذي » . ولم يقع لنا في سننه . والمثبت عن الطبعات السابقة . والحديث في سنن النسائي ، كتاب الاستعاذة : ٨/٢٥٣ . من حديث الوليد بن مسلم ، عن ابن جابر .

(٨) في المخطوطة : « عن معن بن صالح » . والمثبت عن النسائي وأبي داود .

(٩) سنن النسائي ، كتاب الاستعاذة : ٨/٢٥٢ ـ ٢٥٣ . وسنن أبي داود ، كتاب أبي الوتر باب « في المعوذتين » . ومسند الإمام أحمد : ٤/١٤٩ ـ ١٥٠ .

طريق أخرى : قال أحمد : حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا سعيد بن أبي أيوب ، حدثني يزيد بن عبد العزيز الرّعيني وأبو مَرحوم ، عن يزيد بن محمد القرشي ، عن علي بن رباح ، عن عقبة بن عامر قال : أمرني رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن أقرأ بالمعوذات في دبر كل صلاة (١).

ورواه أبو داود والترمذي والنسائي ، من طرق ، عن علي بن رباح ، وقال الترمذي : « غريب (٢) ».

طريق أخرى ، قال أحمد : حدثنا يحيى (٣) بن إسحاق ، حدثنا ابن لَهيعة ، عن مشرّح بن هاعان ، عن عقبة ابن عامر قال : قال لي رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « اقرأ بالمعوذتين ، فإنك لن تقرأ بمثلهما (٤) ». تفرد به أحمد.

طريق أخرى ، قال أحمد : حدثنا حيوة بن شُرَيح ، حدثنا بقية ، حدثنا بَحير بن سعد ، عن خالد بن مَعدان ، عن جُبَير بن نُفَير ، عن عقبة بن عامر أنه قال : إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أهديت له بغلة شهباء ، فركبها ، فأخذ عقبة يقودها له ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « اقرأ (قُلْ أعوذُ بربِّ الفَلَق) . فأعادها له حتى قرأها ، فعرف أني لم أفرح بها جدا ، فقال : « لعلك تهاونت بها ؟ فما قمت تصلي بشيء مثلها (٥) ».

ورواه النسائي عن عمرو بن عثمان ، عن بقية ، به . ورواه النسائي أيضا من حديث الثوري ، عن معاوية بن صالح ، عن عبد الرحمن [بن جُبَير (٦)] بن نفير ، عن أبيه ، عن عقبة بن عامر : أنه سأل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عن المعوذتين ... فذكر نحوه (٧).

طريق أخرى ، قال النسائي : أخبرنا محمد بن عبد الأعلى ، حدثنا المعتمر ، سمعت النعمان ، عن زياد أبي (٨) الأسد ، عن عقبة بن عامر أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « إن الناس لم يتعوذوا بمثل هذين : (قل أعوذ برب الفلق) ، و (قل أعوذ برب الناس) ».

طريق أخرى ، قال النسائي : أخبرنا قتيبة ، حدثنا الليث ، عن ابن عجلان ، عن سعيد المقبري ، عن عقبة بن عامر قال : كنت أمشي مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال : « يا عقبة ، قل ». قلت : ماذا أقول ؟ فسكت عني ، ثم قال : « قل ». قلت ماذا أقول يا رسول الله [فسكت عني ، فقلت : اللهم ، أردده عليّ فقال : « يا عقبة قل ». قلت : ماذا أقول يا رسول الله ، فقال : قل : أعوذ برب الفلق) ، فقرأتها حتى أتيت على آخرها ، ثم

---

(١) مسند الإمام أحمد : ١٥٥/٤ .

(٢) سنن أبي داود ، كتاب الوتر ، باب « في الاستغفار » . وتحفة الأحوذي ، أبواب فضائل القرآن ، باب « ما جاء في المعوذتين » ، الحديث ٣٠٦٧ : ٢١٥/٨ .

(٣) في المخطوطة : « محمد بن إسحاق » . والمثبت عن المسند ، وهو : يحيى بن إسحاق البجلي . انظر التهذيب : ١٧٦/١١ .

(٤) مسند الأمام أحمد : ١٤٦/٤ .

(٥) مسند الإمام أحمد : ١٤٩/٤ .

(٦) ما بين القوسين عن النسائي .

(٧) النسائي ، كتاب الاستعاذة : ٢٥٢/٨ .

(٨) كذا ، ولم تقع لنا ترجمة زياد هذا .

قال : « قل » . قلت : ما ذا أقول يا رسول الله (١)] قال : (قل أعوذ برب الناس) ، فقرأتها حتى أتيت على آخرها ، ثم قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عند ذلك : « ما سأل سائل بمثلهما ، ولا استعاذ مستعيذ بمثلهما (٢) .

طريق أخرى قال النسائى أخبرنا محمد بن بشار ، حدثنا عبد الرحمن ، حدثنا معاوية ، عن العلاء بن الحارث ، عن مكحول ، عن عقبة بن عامر : أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قرأ بهما فى صلاة الصبح (٣)) .

طريق أخرى ، قال النسائى : أخبرنا قتيبة ، حدثنا الليث ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن أبى عمران أسلم ، عن عقبة بن عامر قال : اتبعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو راكب ، فوضعت يدى على قدمه فقلت : أقرئنى سورة هود أو سورة يوسف (٤) . فقال : « لن تقرأ شيئا أنفع عند الله من (قُل : أعوذ برب الفلق) (٥) » .

حديث آخر قال النسائى : أخبرنا محمود بن خالد ، حدثنا الوليد ، حدثنا أبو عمرو الأوزاعى ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن محمد بن إبراهيم بن الحارث ، عن أبى عبد الله ، عن ابن عائش (٦) الجهنى : أن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال له : « يا ابن عائش (٦) ، ألا أدلك — أو : ألا أخبرك — بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون ؟ » . قال : بلى ، يا رسول الله . قال : (قل : أعوذ برب الفلق) ، و (قل : أعوذ برب الناس) هاتان السورتان (٧) » .

فهذه طرق عن عقبة كالمتواترة عنه ، تفيد القطع عند كثير من المحققين فى الحديث .

وقد تقدم فى رواية صُدَىّ بن عجلان ، وفَرْوَةَ بن مُجَاهد ، عنه : « ألا أعلمك ثلاث سُوَر لم ينزل فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى الفرقان مثلهن ؟ (قل : هو الله أحد) و (قل : أعوذ برب الفلق) و (قل : أعوذ برب الناس) .

حديث آخر ، قال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل ، حدثنا جريرى ، عن أبى العلاء قال : قال رجل : كنا مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى سفر ، والناس يعتقبون ، وفى الظهر قلة ، فحانت نَزْلَة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ونزلتى ، فلحقنى فضرب [من بعدى (٨)] منكبى ، فقال : (قل : أعوذ برب الفلق) ، فقرأها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقرأتها معه ، ثم قال : (قل : أعوذ برب الناس) ، فقرأها رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قرأتها معه ، فقال : « إذا صليت فاقرأ بهما (٩) » .

الظاهر ان هذا الرجل هو عقبة بن عامر والله أعلم .

ورواه النسائى عن يعقوب بن إبراهيم ، عن ابن علية ، به :

حديث آخر قال النسائى : أخبرنا محمد بن المثنى ، حدثنا محمد بن جعفر ، عن عبد الله بن سعيد ، حدثنى يزيد

---

(١) ما بين القوسين ساقط من المخطوطة ، وقد أثبتناه عن النسائى .
(٢) سنن النسائى ، كتاب الاستعاذة : ٢٥٣/٨ ، ٢٥٤ .
(٣) سنن النسائى ، كتاب الاستعاذة : ٢٥٢/٨ .
(٤) فى سنن النسائى : « أقرئنى سورة يوسف » .
(٥) سنن النسائى ، كتاب الاستعاذة : ٢٥٤/٨ ،
(٦) فى المخطوطة ، وسنن النسائى : « عابس » ، بالسين . والمثبت عن أسد الغابة ، ترجمة « ابن عائش » : ٣٤١/٦ .
(٧) النسائى ، كتاب الاستعاذة : ٢٥١/٨ — ٢٥٢ .
(٨) ما بين القوسين عن المسند . وفى المخطوطة : « فضرب صدرى » .
(٩) مسند الإمام أحمد : ٢٤/٥ ، ٧٩ .

[ابن رومان] ، عن عقبة بن عامر ، عن عبد الله الأسلمي – هو ابن انيس – : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وضع يده على صدره ثم قال . « قل » . فلم ادر ما أقول ، ثم قال لى : « قل » . قلت : (هو الله أحد) ، ثم قال لى : قل: قلت : (أعوذ برب الفلق . من شر ما خلق) حتى فرغت منها ، ثم قال لى: « قل » . قلت: (أعوذ برب الناس) ، حتى فرغت منها . فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « هكذا فتعوّذ ، ما تعوذ المتعوذون بمثلهن قط » .

حديث آخر ، قال النسائي : اخبرنا عمرو بن على أبوحفص ، حدثنا بدل ، حدثنا شداد بن سعيد أبو طلحة ، عن سعيد الجريري ، حدثنا ابو نضرة ، عن جابر بن عبد الله قال : قال لى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « اقرأ يا جابر » . قلت : وما أقرأ بأبى انت وأمى ؟ قال : « اقرأ (قل : أعوذ برب الفلق) ، و (قل : أعوذ برب الناس » . فقرأتهما ، فقال : « اقرأ بهما ، ولن تقرأ بمثلهما (١) » .

وتقدم حديث عائشة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان يقرأ بهن ، وينفث في كفيه ، ويمسح بهما رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده .

وقال الإمام مالك ، عن ابن شهاب ، عن عروة ، عن عائشة : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين (٢) وينفث ، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه ، وأمسح بيده عليه ، رجاء بركتها (٣) .

ورواه البخارى عن عبد الله بن يوسف ، ومسلم عن يحيى بن يحيى ، وأبو داود عن القعنبى ، والنسائى عن قتيبة – ومن حديث ابن القاسم ، وعيسى بن يونس – وابن ماجه من حديث معن وبشر بن عمر ، ثمانيتهم عن مالك ، به (٤) .

وتقدم فى آخر سورة : (ن) ، من حديث ابى نضرة ، عن أبى سعيد : أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان يتعوذ من اعين الجان وعين الإنسان ، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما ، وترك ما سواهما ، رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه ، وقال الترمذى : « حديث حسن (٥) » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥)

قال ابن ابى حاتم : حدثنا احمد بن عصام ، حدثنا ابو احمد الزبيرى ، حدثنا حسن بن صالح ، عن عبد الله بن محمد ابن عقيل ، عن جابر قال : الفلق : الصبح .

---

(١) النسائى ، كتاب الاستعاذة : ٨/ ٢٥٤ .

(٢) فى الموطأ : « بالمعوذات » .

(٣) الموطأ ، كتاب العين ، باب « التعوذ والرقية فى المرض » : ٢/ ٩٤٢ – ٩٤٣ .

(٤) البخارى ، كتاب فضائل القرآن ، باب « المعوذات » : ٦/ ٢٣٣ . ومسلم ، كتاب السلام ، باب « رقية المريض بالمعوذات » : ٧/ ١٦ . وسنن أبى داود ، كتاب الطب ، باب « كيف الرقى » . وابن ماجه ، كتاب الطب ، باب « النفث فى الرقية » الحديث ٣٥٢٩ : ٢/ ١١٦٦ .

(٥) تقدم الحديث آخر سورة (ن) ، وخرجناه هنا لك ، انظر : ٨/ ٢٣٠ . وانظر سنن النسائى ، كتاب الاستعاذة من عين الجان : ٨/ ٢٧١ وسنن ابن ماجه ، كتاب الطب ، باب « من استرقى من العين » ، الحديث ٣٥١١ : ٢/ ١١٦١ .

وقال العوفى ، عن ابن عباس : (الفلق) ، الصبح . وروى عن مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعبد الله بن محمد ابن عقيل ، والحسن ، وقتادة ، ومحمد بن كعب القرظى ، وابن زيد ، ومالك عن زيد بن اسلم ، مثل هذا .

قال القرظى ، وابن زيد ، وابن جرير : وهى كقوله تعالى : (فالق الاصباح (١)) .

وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : « (الفلق) : الخلق . وكذا قال الضحاك : أمر الله نبيه أن يتعوذ من الخلق كله .

وقال كعب الأحبار : (الفلق) : بيت فى جهنم ، إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره ورواه ابن أبى حاتم ، ثم قال :

حدثنا أبى ، حدثنا سهيل بن عثمان ، عن رجل سماه ، عن السدى ، عن زيد بن على ، عن آبائه أنهم قالوا : (الفلق) : جب فى قعر جهنم ، عليه غطاء ، فإذا كشف عنه خرجت منا نار تضيح منه جهنم ، من شدة حر ما يخرج منه .

وكذا رُوى عن عمرو بن عَبَسَةَ ، والسدى ، وغيرهم . وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع منكر ، فقال ابن جرير :

حدثنى إسحاق بن وهب الواسطى ، حدثنا مسعود بن موسى بن مشكان الواسطى ، حدثنا نصر بن خزيمة الخراسانى ، عن شعيب بن صفوان ، عن محمد بن كعب القرظى ، عن أبى هريرة ، عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « الفلق جبٌ فى جهنم مغطى » (٢) . إسناده غريب ولا يصح رفعه .

وقال أبو عبد الرحمن الحبلى : (الفلق) : من أسماء جهنم .

قال ابن جرير : والصواب القول الأول ، أنه فلق الصبح . وهذا هو الصحيح ، وهو اختيار البخارى (٣) ـ رحمه الله ـ فى صحيحه .

وقوله : (من شر ما خلق) ، أى : من شر جميع المخلوقات . وقال ثابت البنانى ، والحسن البصرى : جهنم وإبليس وذريته مما خلق

(ومن شر غاسق إذا وقب) ، قال مجاهد : غاسقُ الليلُ إذا وقبَ غُروبُ الشمس . حكاه البخارى (٣) عنه ، ورواه ابن أبى نجيح ، عنه . وكذا قال ابن عباس ، ومحمد بن كعب القرظى ، والضحاك ، وخصيف ، والحسن ، وقتادة : إنه الليل إذا أقبل بظلامه .

وقال الزهرى : (ومن شر غاسق إذا وقب) : الشمس إذا غربت . وعن عطية وقتادة : إذا وقب الليل : إذا ذهب وقال أبو المهزم ، عن أبى هريرة : (ومن شر غاسق إذا وقب) كوكب . وقال ابن زيد : كانت العرب تقول : الغاسق سقوط الثريا ، وكان الأسقام والطواعين تكثر عند وقوعها ، وترتفع عند طلوعها (٤) .

---

(١) انظر تفسير الطبرى : ٣٠/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦ .
(٢) تفسير الطبرى : ٣٠/ ٢٢٥ .
(٣) انظر البخارى ، تفسير سورة (قل : أعوذ برب الفلق) : ٦/ ٢٢٣ .
(٤) تفسير الطبرى : ٣٠/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧ .

قال ابن جرير ولهؤلاء من الأثر ما حدثني : نصر بن علي ، حدثني بكار بن عبد الله – ابن أخي همام – حدثنا محمد ابن عبد العزيز بن عمر بن عبد الرحمن بن عوف ، عن أبيه ، عن أبي سلمة ، عن أبي هُرَيرة ، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – : (ومن شر غاسق إذا وقب) ، قال : النجم الغاسق (١) .

قلت : وهذا الحديث لا يصح رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

قال ابن جرير : وقال آخرون : هو القمر .

قلت : وعمدة أصحاب هذا القول ما رواه الإمام أحمد :

حدثنا أبو داود الحَفَري ، عن ابن أبي ذئب ، عن الحارث بن أبي سلمة قال : قالت عائشة رضي الله عنها : أخذ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بيدي فأراني القمر حين طلع ، وقال : « تعوذي بالله من شر هذا الغاسق إذا وقب (٢) » .

ورواه الترمذي والنسائي ، في كتابي التفسير من سننيهما ، من حديث محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب ، عن خاله الحارث بن عبد الرحمن ، به . وقال الترمذي : « حسن صحيح (٣) » . ولفظه « تَعَوَّذي (٤) بالله من شر هذا ، فإن هذا الغاسق إذا وقب » . ولفظ النسائي : « تعوذي بالله من شر هذا ، هذا الغاسق إذا وقب » .

قال أصحاب القول الأول ، وهو أنه (٥) الليل إذا ولج : هذا لا ينافي قولنا ، لأن القمرَ آيةُ الليل ، ولا يوجد له سلطان إلا فيه ، وكذلك النجوم لا تضيء ، إلا في الليل ، فهو يرجع إلى ما قلناه ، والله أعلم .

وقوله : (ومن شر النفاثات في العقد) ، قال مجاهد ، وعكرمة ، والحسن ، وقتادة والضحاك : يعني السواحر – قال مجاهد : إذا رقين ونفثن في العقد .

وقال ابن جرير : حدثنا بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن ثور ، عن معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه قال : ما من شيء أقرب من الشرك من رقية الحية والمجانين (٦) .

وفي الحديث الآخر أن جبريل جاء إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال اشتكيت يا محمد ؟ فقال : « نعم » ، فقال : باسم الله أرقيك ، من كل داء يؤذيك ، ومن شر كل حاسد وعين ، الله يشفيك (٧) .

ولعل هذا كان من شكواه – عليه السلام – حين سحر ، ثم عافاه الله تعالى وشفاه ، وردَّ كيدَ السحرة الحسَّاد من اليهود في رءوسهم ، وجعل تدميرهم في تدبيرهم ، وفضحهم ولكن مع هذا لم يعاتبه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يوما من الدهر ، بل كفي الله وشفي وعافي .

---

(١) تفسير الطبري : ٣٠/٢٢٧ .

(٢) مسند الإمام أحمد : ٦/٦١ . وانظر أيضاً : ٦/٢٠٦ ، ٢١٥ ، ٢٣٧ ، ٢٥٢ .

(٣) تحفة الأحوذي « تفسير سورة « المعوذتين » ، الحديث ٣٤٢٥ : ٩/٣٠٢ .

(٤) لفظ الترمذي : « استعيذي » .

(٥) في المخطوطة : « وهواية » . ولعل الصواب ما أثبتناه .

(٦) تفسير الطبري : ٣٠ / ٢٢٧ . وكلمة « الحية » : غير ثابته في الطبري . وهي غير واضحة في المخطوطة .

(٧) تقدم الحديث آخر سورة (ن) « وخرجناه هنالك ، انظر : ٨/٢٣٠ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنا الأعمش ، عن يزيد بن حيَّان ، عن زيد بن أرقم قال : سحر النبي — صلى الله عليه وسلم — رجلٌ من اليهود ، فاشتكى لذلك أياما ، قال : فجاءه جبريل فقال : إن رجلا من اليهود سحرك ، عقد لك عُقَدًا في بئر كذا وكذا ، فأرْسِل إليها من يجيء بها . فبعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — [عليًّا ، رضي الله تعالى عنه (١)] فاستخرجها ، فجاء بها فحللها ، قال : فقام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كأنما نَشِط (٢) من عقال ، فما ذكر (٣) ذلك لليهودى ولا رآه في وجهه [قط] (١) حتى مات (٤) .

ورواه النسائي عن هنّاد ، عن أبي معاوية محمد بن حازم الضرير (٥) .

وقال البخارى في « كتاب الطب » من صحيحه : حدثنا عبد الله بن محمد قال : سمعت سفيان بن عيينة يقول : أول من حدثنا به ابنُ جريج ، يقول : حدثني آل عُروة ، عن عروة ، فسألت هشاما عنه ، فحدثنا عن أبيه ، عن عائشة قالت : كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سُحر حتى كان يُرَى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن — قال سفيان : وهذا أشد ما يكون من السحر ، إذا كان كذا — فقال : « يا عائشة ، أعلمت أن الله قد أفتانى فيما استفتيتُه فيه ؟ أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسي ، والآخر عند رجلي ، فقال الذي عند رأسي للآخر : ما بال الرجل ؟ قال : مطبوب (٦) ؛ قال : ومن طبّه ؟ قال : لبيد بن أعصم — رجل من بنى زُرَيْق حليف ليهودَ ، كان منافقا — قال: وفيم ؟ قال : في مُشط ومُشاقة (٧) قال : وأين ؟ قال : في جُفّ طَلْعَة ذَكَر تحت رعوفة (٨) في بئر ذَرْوان . قالت : فأتى [النبي — صلى الله عليه وسلم] (٩) البئر حتى استخرجه فقال « هذه البئرُ التي أريتها ، وكأن ماءها نُقَاعة(١٠) الحنّاء ، وكأنّ نخلها رءوس الشياطين » . قال : فاستُخرجَ [قالت] (١١): فقلت : أفلا ؟ أي : تَنَشَّرْتَ (١١) ؟ فقال : « أمّا . اللهُ فقد شفانى ، وأكره أن أثير على أحد من الناس شرا (١٢) » .

---

(١) ما بين القوسين عن المسند .

(٢) كذا ، ومثله في المسند والنسائي . والذى في النهاية : « كأنما أنشط من عقال » ، أي : حل . وقد تكرر في الحديث . وكثيرا ما يجيء في الرواية « كأنما نشط من عقال » ، وليس بصحيح » .

(٣) في المسند : « فما ذكر لذلك اليهودي » . وفي النسائي : « فما ذكر ذلك لذلك اليهودي » .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٤/٣٦٧ .

(٥) النسائي ، كتاب التحريم باب « سحرة أهل الكتاب » : ٧/١١٢ — ١١٣ .

(٦) أي : مسحور . والعرب تكنى بالطب عن السحر ، تفاؤلا بالبرء ، كما كنوا بالسليم عن اللديغ .

(٧) المشاقة : المشاطة ، وهي : الشعر الذى يسقط من الرأس واللحية ، عند التسريح بالمشط .

(٨) رعوفة البئر : صخرة تترك في أسفل البئر إذا حفرت ، تكون ناتئة هناك ، فإذا أرادوا تنقية البئر ، جلس المنقى عليها . وبئر ذروان : بئر بنى زريق بالمدينة .

(٩) ما بين القوسين عن الصحيح .

(١٠) النقاعة : ما أنقع فيه الشيء ، وهو هنا الماء الذى أنقع فيه الحناء .

(١١) النشرة — بضم النون — : نوع من الرقية والعلاج ، أي : هل طلبت العلاج ؟ .

(١٢) البخارى ، كتاب الطب ، باب « هل يستخرج السحر ؟ » : ٧/١٧٧ — ١٧٨ .

وأسنده من حديث عيسى بن يونس ، وأبي ضمرة أنس بن عياض ، وأبي أسامة ، ويحيى القطان وفيه : « قالت : حتى كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله » . وعنده « فأمر بالبئر فدفنت » . وذكر أنه رواه عن هشام أيضا ابن أبي الزناد والليث بن سعد(١).

وقد رواه مسلم ، من حديث أبي أسامة حماد بن أسامة وعبد الله بن نمير ورواه أحمد ، عن عفان ، عن وُهَيب ، عن هشام ، به(٢).

ورواه الإمام أحمد أيضا عن إبراهيم بن خالد(٣) [عن رباح] عن معمر ، عن هشام ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : لبث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ستة أشهر يُرى أنه يأتي ولا يأتي ، فأتاه ملكان ، فجلس أحدهما عند رأسه ، والآخر عند رجليه ، فقال أحدهما للآخر : ما باله ؟ قال : مطبوب . قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم ... وذكر تمام(٤) الحديث .

وقال الأستاذ المفسر الثعلبي في تفسيره : قال ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما : كان غلام من اليهود يخدم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فدبَّت إليه اليهود ، فلم يزالوا به حتى أخذ مُشَاطة رأس النبي صلى الله عليه وسلم وعدة أسنان من مُشطه ، فأعطاها اليهود ، فسحروه فيها . وكان الذي تولى ذلك رجل منهم — يقال له : ابن أعصم — ثم دسها في بئر لبني زُرَيق ، يقال لها : ذَرْوان ، فمرض رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وانتثر شعر رأسه ، ولبث ستة أشهر يُرَى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن ، وجعل يذُوب ولا يدري ما عراه . فبينما هو نائم إذ أتاه ملكان فقعد أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه ، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه : ما بال الرجل ؟ قال : طُبَّ ، قال : وما طُبَّ ؟ قال : سُحِر ، قال : ومن سحره ؟ قال : لبيد بن أعصم اليهودي ، قال : وبم طبَّه ؟ قال : بمشط ومشاطة ، قال : وأين هو ؟ قال : في جُفِّ طلعة تحت راعوفة في بئر ذَرْوان — والجف : قشر الطلع ، والراعوفة : حجر في أسفل البئر ناتئ يقوم عليه الماتح(٥) — فانتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم مذعورا ، وقال : « يا عائشة ، أما شعرت أن الله أخبرني بدائي ؟ » . ثم بعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — عليا والزبير وعمار بن ياسر ، فنزحوا ماء البئر كأنه نُقَاعة الحناء ، ثم رفعوا الصخرة ، وأخرجوا الجفَّ فاذا فيه مشاطة رأسه وأسنان من مشطه ، وإذا فيه وتر معقود فيه اثنتا عشرة(٦) عقدة مغروزة بالإبر . فأنزل الله تعالى السورتين ، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ، ووجد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خفة حين انحلت العقدة الأخيرة ، فقام كأنما نَشِط من عقال ، وجعل جبريل — عليه السلام —

---

(١) البخاري ، كتاب الطب ، باب « السحر » : ١٧٦/٧ — ١٧٧ ، ١٧٨ . وانظر كتاب الأدب ، باب قوله الله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان ..) : ٢٢/٨ — ٢٣ . وكتاب الدعوات ، باب « تكرير الدعاء » : ١٠٣/٨ — ١٠٤ . وكتاب بدء الخلق ، باب « صفة إبليس وجنوده » : ١٤٨/٤ . وكتاب الجزية ، باب « هل يعفى عن الذمي ؟ » : ١٢٣/٤ .

هذا ، وقد وقع في المخطوطة بعد « عن هشام أيضا » : « ورواه أحمد ، عن عفان ، عن وهب ، عن هشام به » وهو خطأ ، والصواب ما في الطبعات السابقة . وانظر كلام البخاري في ١٧٧/٧ .

(٢) مسلم ، كتاب السلام ، باب « السحر » : ١٤/٧ . ومسند الإمام أحمد : ٩٦/٦ .

(٣) ما بين القوسين ، وهو « عن رباح » عن المسند . وهو : « عن رباح » عن المسند وهو : رباح بن موثل قريش الصنعاني . انظر الخلاصة .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٦٣/٦ .

(٥) الماتح : المستقي من البئر بالدلو .

(٦) في المخطوطة : « اثنا عشر » .

يقول : باسم الله أرقيك ، من كل شر يؤذيك ، من حاسد وعين الله يشفيك . فقالوا : يا رسول الله ، أفلا نأخذ الخبيث نقتله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما أنا فقد شفانى الله ، وأكره أن يثير على الناس شرا » .

هكذا أورده بلا إسناد ، وفيه غرابة ، وفى بعضه نكارة شديدة ، ولبعضه شواهد مما تقدم ، والله أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَٰهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)

هذه ثلاث : صفة من صفات الرب ـ عز وجل ـ الربوبية ، والملك ، والإلهية . فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه ، فجميع الأشياء مخلوقة له ، مملوكة عبيد له ، فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات ، من شر الوسواس الخناس ، وهو الشيطان الموكل بالإنسان ، فانه ما من أحد من بنى آدم إلا وله قرين يزيّن له الفواحش ، ولا يألوه جهدا فى الخبال ، والمعصوم من عصَمَ الله وقد ثبت فى الصحيح أنه : « مامنكم من أحد إلا قد وكل به قرينه » . قالوا : وأنت يا رسول الله؟ قال : « نعم ، إلا أن الله أعانني عليه ، فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير »(١) ، وثبت فى الصحيح ، عن أنس فى قصة زيارة صفية النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو معتكف ، وخروجه معها ليلا ليردها إلى منزلها ، فلقيه رجلان من الأنصار ، فلما رأيا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسرعا ، فقال رسول الله : « على رسلكما ، إنها صفية بنت حيي » ، فقالا : سبحان الله . يا رسول الله . فقال : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئا ، أو قال : شرا(٢) » .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا محمد بن بحر ، حدثنا عدى بن أبى عمارة ، حدثنا زياداً النّمرى ، عن أنس ابن مالك قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن الشيطان واضع خطمه(٣) على قلب ابن آدم ، فان ذكر خنَس ، وإن نسي التقم قلبه ، فذلك الوسواس الخناس » . غريب .

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عاصم ، سمعت أبا تميمة يُحدّث عن رَديف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلّم ـ قال : عثَر بالنبى صلى الله عليه وسلم حماره ، فقلت : تَعِس الشيطان . فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا تقل : تعس الشيطان ، فانك إذا قلت : تعس الشيطان ، تعاظم ، وقال : بقوتى صرعته ، وإذا قلت : باسم الله ، تصاغر حتى يصير مثل الذباب(٤) » .

---

(١) مسلم : كتاب صفة القيامة ، باب « تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس ، وأن مع كل إنسان قريناً » : ٨/١٣٩ . ومسند الإمام أحمد : ١/٣٨٥ ، ٣٩٧ ، ٤٠١ ، ٤٦٠ .

(٢) البخارى : كتاب الأحكام ، « والشهادة تكون عند الحاكم فى ولاية القضاء ... » ـ ٩/٨٧ .

(٣) أى أنفه .

(٤) مسند الإمام أحمد : ٥/٥٩ .

تفرد به أحمد ، إسناده جيد قوي ، وفيه دلالة على أن القلب متى ذكر الله تصاغر الشيطان وغُلِب ، وإن لم يذكر الله تعاظم وغلب .

وقال الإمام أحمد : حدثنا بو بكر الحنفي ، حدثنا الضحاك بن عثمان ، عن سَعيد المقبري ، عن أبي هُريرة قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : «إن أحدكم إذا كان في المسجد ، جاءه الشيطان فأبَسّ به كما يُبَسّ الرجل(١) بدابته ، فإذا سكن له زنقه – أو : ألجمه» – قال أبو هُرَيرة : وأنتم ترون ذلك ، أما المزنوق(٢) فتراه مائلا – كذا – لا يذكر الله ، وأما الملجم ففاتح فاه لا يذكر الله عز وجل . تفرد به(٣) أحمد .

وقال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله : (الوسواس الخناس) ، قال : الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ، فإذا ذكر الله خنَس(٤) . وكذا قال مجاهد ، وقتادة .

وقال المعتمر بن سليمان ، عن أبيه : ذُكر لي أن الشيطان ، أو : الوسواس ينفث في قلب ابن آدم عند الحزن وعند الفرح ، فإذا ذكر الله خنس .

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله : (الوسواس) ، قال : هو الشيطان يأمر ، فإذا أطيع خنس(٥) :

وقوله : (الذى يوسوس في صدور الناس) ، هل يختص هذا ببني آدم – كما هو الظاهر – أو يعم بني آدم والجن ؟ فيه قولان ، ويكونون قد دخلوا في لفظ الناس تغليبا .

وقال ابن جرير : وقد استعمل فيهم (رِجَالٌ مِنَ الجِنّ(٦)) فلا بدع في إطلاق الناس عليهم :

وقوله : (من الجنة والناس) ، هل هو تفصيل لقوله (الذى يوسوس في صدور الناس) ، ثم بينهم فقال : (من الجنة والناس) . وهذا يقوى القول الثاني . وقيل : قوله : (من الجنة والناس) ، تفسير للذى يُوسوس في صدور الناس ، من شياطين الإنس والجن ، كما قال تعالى : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا ، شياطين الإنس والجن ، يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا(٧)) ، وكما قال الإمام أحمد :

حدثنا وكيع ، حدثنا المسعودي ، حدثنا أبو عُمَر الدمشقي ، حدثنا عبيد بن الخشخاش ، عن أبي ذر قال : أتيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو في المسجد ، فجلست ، فقال : «يا أبا ذر ، هل صليت ؟» . قلت : لا ، قال : «قم فصل» . قال : فقمت فصليت ، ثم جلست فقال : «يا أبا ذر ، تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن» :

---

(١) يقال «بسست الناقة وأبسستها» : إذا سقتها وزجرتها ، وقلت لها : «بس بس» بكسر الباء وفتحها .

(٢) في النهاية : «وفي حديث أبي هريرة الآخر» أنه ذكر المزنوق ، فقال «المائل شقه لا يذكر الله» قيل : أصله من الزنقة ، وهي ميل في جدار في سكة أو عرقوب واد . هكذا فسره الزمخشري » .

(٣) مسند الإمام أحمد : ٢/٣٣٠ .

(٤) تفسير الطبري : ٣٠/٢٢٨ .

(٥) تفسير الطبرى : ٣٠/٢٢٩ .

(٦) لفظ الطبرى ٣٠/٢٢٩ : «فإن قال قائل : فالجن ناس . فيقال : الذى يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس ؟ قيل : قد سماهم الله في هذا الموضع ناساً ، كما سماهم في موضع آخر رجالا ، فقال : (وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن) ، فجعل الجن رجالا ، وكذلك جعل منهم ناساً ....» .

(٧) سورة الأنعام آية ١١٢ .

قال : قلت : يا رسول الله ، وللإنس شياطين ؟ قال : « نعم » . قال : قلت : يا رسول الله ، الصلاة ؟ قال : « خير موضوع ، من شاء أقل ، ومن شاء أكثر » . قلت : يا رسول الله ، الصوم ؟ قال : « فرض يجزي ، وعند الله مزيد » . قلت : يا رسول الله ، فالصدقة ؟ قال : « أضعاف مضاعفة » . قلت : يا رسول الله ، أيها أفضل ؟ قال : « جهد من مقل ، أو سر إلى فقير » . قلت : يا رسول الله ، أي الأنبياء كان أول ؟ قال : « آدم » . قلت : يا رسول الله ، ونبي كان ؟ قال : « نعم ، نبي مكلم » . قلت : يا رسول الله ، كم المرسلون ؟ قال : « ثلثمائة وبضعة عشر ، جما غفيرا » وقال مرة : « خمسة عشر » ـ قلت : يارسول الله ، أيما أنزل عليك أعظم ؟ قال : آية الكرسي : (الله لا إله إلا هو الحي القيوم(١)) » .

ورواه النسائي ، من حديث أبي عمر الدمشقي ، به(٢) . وقد أخرج هذا الحديث مطولا جداً أبو حاتم بن حبان في صحيحه ، بطريق آخر ، ولفظ آخر مطول جدا ، فالله أعلم .

وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ، عن سفيان ، عن منصور ، عن ذَرّ بن عبد الله الهَمْداني ، عن عبد الله بن شداد ، عن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسول الله ، إني احدث نفسي بالشيء لأن أخر من السماء أحب إلى من أن أتكلم به . قال : فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الله أكبر الله أكبر ، الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة(٣) » .

ورواه أبو داود والنسائي ، من حديث منصور ـ زاد النسائي : والأعمش ـ كلاهما عن ذر ، به(٤) .

* * *

آخر التفسير ، ولله الحمد والمنة ، والحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين . ورضى الله عن الصحابة أجمعين . حسبنا الله ونعم الوكيل . وكان الفراغ منه فى العاشر من جمادى الاولى سنة خمس وعشرين وثمانمائة . والحمد لله وحده .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٥/١٧٨ .

(٢) سنن النسائي ، كتاب الاستعاذة ، باب « الاستعاذة من شر شياطين الأنس » : ٨/٢٧٥ .

(٣) مسند الإمام أحمد : ١/٢٣٥ .

(٤) سنن أبي داود ، كتاب الأدب ، باب « فى رد الوسوسة » .

بسم الله الرحمن الرحيم

خاتمة ناسخ المخطوطة

الحمد لله الذى رفع السماء بغير عماد ، وبسط الأرض وثبتها بالأطواد ، ومنح معرفته ومحبته من شاء من العباد ، وأقام لدينه أولياء ينصرونه ويقومون به ، وجعل منهم النجباء والأقطاب والأوتاد ، وأعلى منار الدين بالعلماء العاملين ، وأوضح بهم طرق الرشاد ، وقمع بهم أهل الزيغ والأهواء و بدع والفساد ، وثبت لهم دينهم بالنقل عن نبيهم بصحيح الاسناد ، ونفى عنهم التدليس والشذوذ والانفراد ؛

وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، المتعالى عن الشركاء والنظراء والأنداد ، المنزه عن الحلول والاتحاد والإلحاد ؛

وأشهد أن محمداً عبدُه ورسوله ، وحبيبه وخليله ، سيد العباد ، صلى الله عليه وعلى آله النجباء الأنجاد ، وصحابته السادة الأبرار الأمجاد ، صلاةً تدوم وتقوم ما قامت السموات والأرض بأمره ، وقابلَ البياضَ السوادُ ؛

وبعد ، فقد أمرنى السيد الجليل ، من وصل الله له جَناح الصنيع الجميل ، وواصل عليه السَّول(١) ، وأوصل إليه المأمول ، وعَمَّر بحبه ربوع أنسى ، وأمطر بفيضه ربيع نفسى ، مولانا وسيدنا العبد الفقير إلى الله — سبحانه — الآمل الراجى عفوه الكريم وإحسانه ، قاضى القضاة ، حاكم الحكام ، نجم الدين حجة الإسلام والمسلمين ، سيد العلماء فى العالمين ، بهاءُ الملة ، لسانُ الشريعة ، عزّ السنة ، حصنُ الأمة ، خطيب الخطباء ، إمام البلغاء ، غرة الزمان ، ناصر الإيمان ، شيخ الشيوخ العارفين ، أبو حفص عمر(٢) — ابنُ سيدنا ومولانا العبد الفقير إلى الله — تعالى — الشيخ الإمام العلامة والحَبْر الفهامة ، قدوة العلماء العاملين ، أبى محمد حجى السعدى الشافعى — أمر — أعلى الله أمره ، وأسد قدره ، من لا ينقلب إلا فى طاعته ، و لا يتصرف إلا فى مرضاته — أن يُكتَبَ برسم خزانة تفسيرُ الإمام العالم الكبير ، العلامة عمادالدين ابن كثير — رحمه الله وأرضاه ، وجعل بحبوحة الجنة مقره ومثواه . فامتثلت أمره بالسمع والطاعة ، وعددت هذا الأمر من أنفس البضاعة ، مع أنى فى الكتابة قليل الصناعة . فكتبت قدر ما قدرت عليه ، ووصلت إليه : فان صادفتُ قبولا وبلغت مأمولا ، فيكون سعدى سعيداً ، ويقع سهمى سديداً : ....

فَاَن وَقَفَتْ بِى قُدْرَتى دُونَ هِمَّتى فبلغُ علمى ، والمعاذيرُ تُقْبَلُ

---

(١) السول : ماسألته .

(٢) هو عمر بن حجى بن موسى بن أحمد بن سعد النجم ، أبو الفتوح بن العلاء أبى محمد السعدى الحسبانى الأصل ، الدمشقى الشافعى ، أخو أحمد الماضى ووالد البهاء محمد ويعرف بابن حجى . ولد فى سنة سبع وستين وسبعمائة بدمشق ، أخذ العلم عن جماعة ، وتولى الإفتاء ، وكان حاكماً حازماً . قتل وهو نائم على فراشه سنة ٧٣٠ هـ ، انظر الضوء اللامع للسخاوى : ٢/٧٨–٧٩ ولأبيه «حجى» ترجمة فى الدرر الكامنة لابن حجر : ٢/٨٧ .

قد جَمَعَت هذه الخزانةُ الشريفةُ أشتات العلوم على الإطلاق ، من رام مثلها فهو مُقَصِّر عن روم أسباب اللَّحاق ، خصوصاً إذ كان بها هذا التفسير الذى مادّته سُنَن المصطفى المنبه على جوامع ، ما يزداد اللبيب بها بصيرة فى علمه النافع ، إذ كان — صلى الله عليه وسلم — قد أوتى جوامع الكلام ، وعلّم فصل الخطاب . فلم يسمع الناس كلاماً أعم نفعا ، ولا أقصر لفظا ، ولا أعدل وقرا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا . ولا أفصح عن معناه ، ولا أبين فى فحواه . صلى الله عليه وسلم .

فلله درّ مولانا ، إذ جمع الفضائل ، ونظم آحاد العقائل ، وحاز من العلم الذرى والغوارب . فلا يخفى على ذى لب أنه أغْرَقَ فى الفهم نُصولا ، وأعرق فى العلم أصولا ، فأقول مختصراً ، وعما يليق بمدحه معتذرا ، عسى يمر به من تضاعيف ثنائى عليه ما يبلغنى به الزلنى فى حبه ، والقربى من قلبه ، وتلك أمنيتى حين ألتى منيّتى ، لا أتعداها ، ولا أتمنى سواها . ولله در القائل :

إذا ابنُ حجىّ حادث لنا يده ... لم يُحمد الأجودان : البحر والمطرُ
وإنْ أضاءت لنا أنوارُ غُرّته ... تضاءل الأنوران : الشمس والقمرُ
وإن مضى رأيه أو جدّ عزمته ... تأخر الماضيان : السيف والقدر
من لم يبت حذراً من خوف سطوته ... لم يدر ما المزعجان: الخوف والحذر؟
كأنه الدهر فى نعمى وفى نقَم ... إذا تعاقب منه : النفع والضرر
كأنه — وزمام الدهر فى يده ... يدا عواقب : ما يأتى وَمَايذَرُ

* * *

فالحمد لله الذى جعل جمال منظرك موازيا لكمال مخبرك ، وشامخ فَرْعك مقارناً لراسخ عنصرك ، والله حسبى فيك من كل ما يَعُوذ العبد به المولى .

واسلم وعش لازلت فى نعمة ... أنت بها من غيرك الأولى

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم .

* * *

كتبه الفقير محمد بن على الصوفى البواب ، لمنعاه التضاتية(١) ، بدمشق المحروسة ، حامداً ومصليا ، ومحسبلا ومحوقلا ، والحمد لله وحده .

---

(١) كذا بالمخطوطة .

الفهارس

فهرس موضوعى

سورة نوح

سورة الجن

سوره المزمل

سورة المدثر

سورة القيامة

سورة الانسان

سورة المرسلات

سورة النبأ

سورة النازعات

سورة عبس

سورة التكوير

سورة الانفطار

سورة المطففين

سورة الانشقاق

سورة البروج

سورة الطارق

سورة سبح

سورة الغاشية

سورة الفجر

سورة البلد

فهرس الأعلام

فهرس الأماكن والبلدان ونحوها

فهرس القبائل والطوائف

فهرس الشعر

(ن)

(ى)

فهرس غريب اللغة

(حرف الهاء)

(حرف الواو)

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٩	٢٤	أجمعين (٨)	أجمعين
٨٧	١١	مستطر	مُستَطِر
١١٦	١٢	بهدايا : صناب *	بهدايا : صِبَاب
١٦٠	٢	جسد	جَسَد
١٦٩	٢	(يسمع)	(يسمع) (٢)
١٦٠	٧	علمن (٢)	علمن (٣)
١٦٩	٩	جماع (٣)	جماع (٤)
١٨٠	١٤	مسبغة	مَسْغَبة
١٨٢	الثالث من التعليق	الكوفين	الكوفيين
٢٠٤	٢٣	الصباح (٣)	الصباح (٤)
٢٤٨	١	قادة	قتادة
٢٥٠	٢٢	سعد بن جبير	سعيد بن جبير
٢٥٠	الثامن من التعليق	وأقفر	وأقفر
٢٨٧	١٩	فَجَئثتُ	فَجِئثْتُ
٢٨٧	الثانى من التعليق	فجئث	فجنجئتُ
٣٠٤	الثانى من التعليق	ج ١١٤	١١٤
٣١٣	السادس من التعليق	الفوائد	الفؤاد
٣١٣	» » »	ويستعمل فى الطعام	ويستعمل « أسارء فى الطعام
٣٤٠	٣	بن حميد	ابن حميد
٣٤٣	١٨	يزكى (٥)	يزكى (٦)
٣٥١	٤	بن عمر	ابن عمر
٣٨٩	السادس من التعليق	بفتح فسكون	بفتح فكسر
٤٠٠	٦	(قل : أيا أيها)	(قل : يا أيها)
٤٢٧	الرابع من التعليق	بن سعد الصوفى	بن سعد العوفى

(*) علقنا هناك وقلنا : إن الصواب « صناب » . وما قلناه هو الخطأ ، والصحيح ما فى المسند ، وانظر فى ذلك أيضاً البخارى ، كتاب الأطعمة ، باب « الأقط » : ٧/ ٩٤ . ومسند الإمام أحمد : ٢/ ٣٣٨ .

